قبضة طوقّت الشرق وأرعبت الغرب

سيمون سيباغ مونتيفيوري

ستالين الشاب

زعيماً وشاعراً ولصاً وكاهناً وزير نساء



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مكتبة

Telegram Network

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

(ستالين الشاب)

ل- «سيمون سيباغ مونتيفيوري»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق[1]



أ/ماجدة علي علي

قناة التليجرام

قبضةَ طوّقت الشرق وأرعبت الغرب

ستالين الشاب

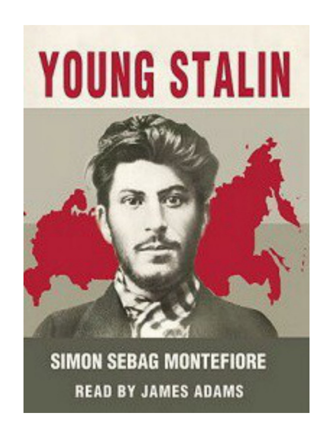
زعيمًا وشاعرًا ولصًا وكاهنًا وزيرَ نساء

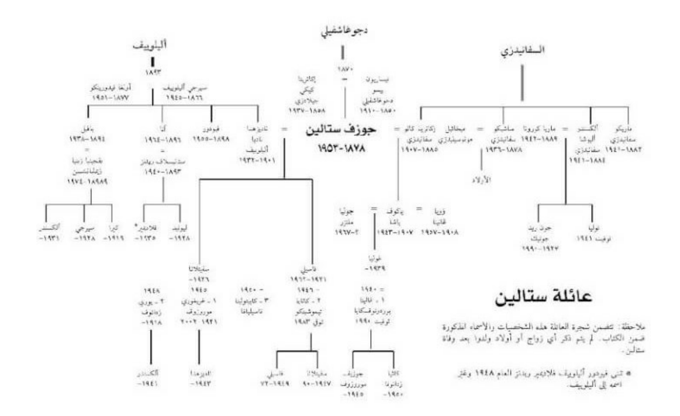
سيمون سيباغ مونتيفيوري



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l

غلاف الطبعة الإنجليزية ed1



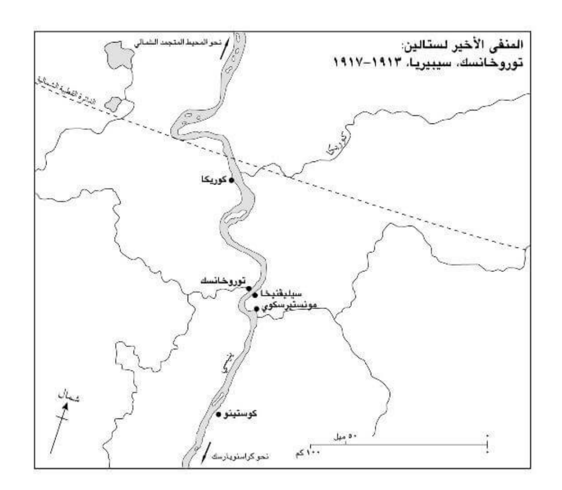


عائلة ستالين

ملاحظة: تتضمن شجرة العائلة هذه الشخصيات والأسماء المذكورة ضمن الكتاب. لم يتم ذكر أي زواج أو أولاد ولدوا بعد وفاة ستالين.

* تبنى فيودور أليلوييف فلاديمير ريدنز العام ١٩٤٨ وغيّر اسمه إلى أليلوييف.


الإمبراطورية الروسية ١٨٧٨-١٩١٧
بحر بارنتس
كوريكا
مونستيرسكوي
كوستينو
بيرم
ناريم
سيبيريا
أتشينسك
كراسنويارسك
نوفوسيبيرسك
أومسك
الامبراطورية
بحر آرال
الحدود الغربية للامبراطورية الروسية قبل عام ١٩١٤
رحلة القطار التي قام بها ستالين في آذار ١٩١٧
١٠٠٠ميل
١٥٠٠كم
سان بطرسبرغ
غوري
موسكو
غوري


المنفى الأخير لستالين:
توروخانسك، سيبيريا، ١٩١٣-١٩١٧
نحو المحيط المتجمد الشمالي
الدائرة القطبية الشمالية
كوريكا
كوريكا
توروخانسك
سيليفانيخا
مونستيرسكوي
كوستينو
شمال
٥٠ ميل
١٠٠ كم
نحو كراسنويارسك



بحر الشمال
لندن
النروج
(مستقلة منذ عام ١٩٠٥)
السويد
دوقية فنلندا الكبرى
ستوكهولم
فرنسا
الامبراطورية الألمانية
برلين
بحر البلطيق
ريغا
سان بيترسبرغ
فيلنيوس
مينسك
موسكو
فولوغدا
وارسو
كراكو
فيينا
امبراطورية هابسبورغ
إيطاليا
كييف
كورسك
خاركوف
أوديسا
الروسية
بحر الأسود
سوتشي
باطوم
الامبراطورية العثمانية
تفليس
باكو
بحر قزوين
مصر
الصحراء العربية
طهران
بلاد فارس

المقدمة

قال ستالين يومًا «كل الشبان سواسية»، فما الداعي إذًا إلى الكتابة... عن «ستالين الشاب؟». لكنه على خطأ: فلطالما كان مختلفًا عن أترابه. انطبع شبابه بالمأساة والمغامرة والاستثناء. وحين فطن في مرحلة متقدمة من العمر، إلى أسرار سنيّ الصبا، بدا أنه غيّر رأيه. فتأمل قائلًا «ما من أسرار، ولن تُكشف للجميع لاحقًا».

وبالنسبة إليّ كمؤرخ، كان على حق في حديثه عن الأسرار: يمكن الكشف عن الكثير منها اليوم كرفع النقاب عن حياته الخفية إلى حين سطع نجمه كواحد من مساعدي لينين الكبار في الحكومة السوفياتية الجديدة.

قلّ أن نجد أعمالًا أدبية عن بداية ستالين (مقارنة مع العديد من الأعمال عن هتلر الشاب)، ومرد ذلك إلى المعلومات الشحيحة على ما يبدو. لكن الحقيقة مغايرة، إذ يكتنف الظلام مجموعة غنية من المواد الجديدة الحية التي تتحدث عن طفولته وسيرته كثائر وعضو في عصابة، وشاعر وكاهن متدرّج، وزوج وعاشق لا يهدأ، مخلّفًا وراءه النساء العاشقات والأطفال اللقطاء في الأرشيفات المفتوحة حديثًا، وتحديدًا الخاصة بجورجيا، التي غالبًا ما نهملها.

يلف الغموض بعض الشيء مرحلة صبا ستالين، لكن كل جزء منها مذهل على قَدْر، وحتى أكثر اضطرابًا من صبا كل من لينين

وتروتسكي. وقد أعدّته هذه المرحلة للنصر والمآسي وضراوة السلطة المطلقة (وأضرّت به أيضًا).

إنجازات ستالين وجرائمه ما قبل الثورة، أعظم مما يُخيّل إلينا. ويمكننا التحقق، للمرة الأولى، من دوره في السطو على المصارف وخدع الحماية والابتزاز وإحراق المباني والقرصنة والقتل، وهو ما يسمَّى العصابات السياسية التي أثّرت في لينين، ودرّبت ستالين على المهارات الدقيقة التي تبدو بلا قيمة في المعمعة السياسية للاتحاد السوفياتي. بيد أننا نستطيع أيضًا الإثبات أنه كان أكثر من مجرد أب للعصابات: بل منظّم ومنفذ سياسي وخبير في خرق القوى الأمنية التابعة للقيصر. وخلافًا لزينوفيف أو كامنيف أو بوخارين، الذين ترتكز سمعتهم السياسية المجيدة، لسخرية القدر، على نهايتهم في الرعب، لم يكن هو يخشى المجازفة بحياته. لكنه أثّر أيضًا في لينين كسياسي مستقل ومفكّر، وكمحرر وصحافي لامع، ولم يخشَ قط مواجهة الرجل المسنّ ومعارضته. ويُعزى نجاح ستالين أقله جزئيًا إلى المزج الغريب بين التربية (بفضل معهد اللاهوت) وعنف الشوارع، حيث كان عبارة عن خليط فريد: هو «المفكّر» والقاتل معًا. ولا عجب إذا لجأ لينين إلى ستالين في العام 1917 كملازم أول مثالي لثورته العنيفة، والمحاصَرة.

جاء هذا الكتاب نتيجة حوالي عشرة أعوام من البحوث حول ستالين في ثلاث وعشرين مدينة وتسع دول، معظمها في أرشيفات موسكو وتبيليسي وباتومي المفتوحة حديثًا، فضلًا عن سان بطرسبرغ وباكو وفولوغدا وسيبيريا وبرلين وستوكهولم

ولندن وباريس وتانبيري وهلسنكي وكراكوف وفيينا وستانفورد وكاليفورنيا.

كُتب «ستالين الشاب» ليُقرأ وحده، وهو دراسة عن حياة ستالين قبل تسلّمه مقاليد السلطة، حتى وصوله إلى الحكومة في تشرين الأول/أكتوبر 1917، في حين أن كتابي السابق «ستالين: بلاط القيصر الأحمر» Stalin: The Court of the Red Tsar، يغطي حياة ستالين في السلطة حتى وفاته في آذار/مارس 1953. ويتضمن كلاهما قصصًا حميمة لستالين الرجل والسياسي، ولمحيطه أيضًا. وآمل أن يشكلا معًا مقدمة لديكتاتوريي القرن العشرين الأكثر سحرًا وإثارة للحيرة، بإظهار تطور السياسي المطلق ونضوجه: ما هي العاطفة المفقودة في تربيته التي خوّلته القتل بهذه السهولة؛ وفي الوقت نفسه، ما هي الميزة التي أهّلته للحياة السياسية؟ هل كان مقدّرًا لنجل الرجل الإسكافي في العام 1، والمحاضر المثالي في العام 1898، واللص في العام 1907، والصياد السيبيري المنسي في العام 1914، أن يصبح القاتل الماركسي المتعصّب في الثلاثينيات، أو فاتح برلين في العام 1945؟

ليس القصد من كتابي قصة روائية طويلة تغطي كل الأوجه السياسية والأيديولوجية والاقتصادية والعسكرية والدولية والشخصية لحياة ستالين. وقد أنجز ذلك بشكل بارع في العصور الغابرة، مفكّران، هما روبرت كونكست، المدير المؤسس للتاريخ الستاليني، في «ستالين: مقسّم الأمم» :Stalin

Breaker of Nations؛ ومؤخرًا، روبرت سيرفيس في «ستالين السيرة الذاتية» Stalin: A Biography. ولا أظنني قادرًا على الإتيان بأفضل من عمليهما الشاملين.

ولا أعتذر عن كتابيَّ الاثنين اللذين يركزان على الحياة الحميمة والسرية والسياسية والشخصية لستالين، والدائرة الصغيرة التي توصلت في النهاية إلى استحداث الاتحاد السوفياتي، وقيادته حتى الستينات. ولا بد من أن تكون الأيديولوجيا ركيزتنا كما كانت بالنسبة إلى البولشفيين، لكن الأرشيفات الجديدة تُظهر أن الشخصيات وروّاد حكم الأقلية، هم جوهر السياسات في ظل حكمَي لينين وستالين، كما كانوا في ظل أباطرة رومانوف، وكما هم اليوم في ظل «الديموقراطية الموجَّهة» في روسيا في العصر الحادي والعشرين.

* * *

لطالما اعتبر شباب ستالين المديد لغزًا، في نواح عدة. قبل العام ، نمّى الغموضَ حوله، لكنه متخصص أيضا في «العمل الأسود» للثورة من الباطن، وقد كانت، بطبيعتها، كتومة وعنيفة وضرورية، لكن حقيرة.

ما إن تبوأ الحكم، حتى احتاجت حملة ستالين للانقضاض على لينين، إلى سيرة بطولة شرعية لم يكن يملكها بسبب خبرته في ما أسماه «العمل الوسخ» للسياسة: لم يمكن قول ذلك، إما لأنه ينطوي على روح العصابات التي لا تناسب رجل الدولة العظيم

والأبوي، وإما لأنه يحمل طابعًا جورجيًا لا يناسب القائد الروسي. وكان الحل عبادة الشخصية غير المتقنة، لكن الشاملة، التي ابتكرت الحقيقة وأخلت بها وأخفتها. ولسخرية القدر، كانت هذه الترقية الذاتية فاضحة جدًا إلى درجة أنها تنشر الشرارات، البريئة أحيانًا، والتي تنفجر في نظريات التآمر الكبيرة ضد ستالين. وقد سهّل على أخصامه السياسيين، ولاحقا علينا نحن المؤرخين، أن نصدّق أن ذلك كله محض خيال، وأنه لم يرتكب شيئًا من هذا القبيل: تحديدًا منذ أن تقصّى بعض المؤرخين في القوقاز، حيث أمضى معظم بداية مسيرته. ونمت عبادة مضادة، مغلوطة كالعبادة بذاتها، حول نظريات التآمر هذه.

تبقى الشائعة الأكثر كيدًا: هل كان ستالين عميلًا مزدوجًا لشرطة القيصر السرية؟ وقد سعى نيكولاي ييزهوف ولافرينتي بيريا، وهما أكثر رجال الشرطة السرية التابعة للديكتاتور سمعة سيئة، سريًا إلى استخدام هذه الدلائل ضد ستالين في حال انقلب ضدهما، كما فعل بالحقيقة. ونلاحظ أن أحدًا منهما لم يستطع إيجاد «الدليل الدامغ»، بدعم سلطة البحث المطلقة للمفوضية الشعبية للشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي السابق في ظل حكم ستالين.

هنالك لغز أعمق أيضا: نقل كل مؤرخ ادعاء تروتسكي، أن ستالين ريفي «متوسط الحال»؛ وادعاء سوخانوف أنه مجرد «ضباب رمادي» في العام 1917. واتبع معظم المؤرخين خط تروتسكي بالقول إن ستالين كان شديد «التوسط» و«الضبابية» والغموض، إلى درجة جعلته يفشل في العامين 1905 و1917، فأمسى على لسان روبرت سلوسر، «الشخص الذي فوّت

الثورة».

وإذا كانت هذه هي حال الأمر، فكيف تمكنت سلطة بالحجم «المتوسط» من التفوق على سياسيين موهوبين، كلينين وبوخارين وتروتسكي بذاته، وتنسيق برنامجه الصناعي والحرب الضروس على الفلاحة والرعب الغولي الكبير؟ كيف أضحى هذا «الضبابي» رجل الدولة العالمي القاتل، لكن الفعّال بقوة، الذي ساعد على خلق الاتحاد السوفياتي وجعله حقيقة قائمة، وغلب تشيرشل وروزفلت، ونظّم ستالينغراد، وهزم هتلر؟ كما لو أن «الأكثر وسطية» قبل العام 1917، والعظيم في القرن العشرين، ليس هو هو. فكيف تحوّل الأول إلى الثاني؟

الحقيقة أنهما واحد. ويبدو جليًا من الشهود الأعداء والأصدقاء، على حد سواء، أن ستالين لطالما كان استثناءً، حتى في طفولته. وقد اعتمدنا لزمن طويل على صورة تروتسكي التي تنطوي على إجحاف غير معترف به، بينما جاءت الحقيقة مغايرة. وتخبرنا نظرة تروتسكي أكثر عن غرور ستالين وعنجهيته، وغياب المهارات السياسية منها عن بداية حياته السياسية. لذلك، يكمن الهدف الأول لهذا الكتاب في رفع الستارة عن السجل الحقيقي لسطوع نجم ستالين، بشكل لم تشوّهه، قدرَ المسطاع، عبادة ستالين، أو صناعة نظرية المؤامرة ضده.

هنالك تقليد من السير الذاتية التي تعنى ببداية مسيرة رجال الدولة العظماء. كتب وينستون تشيرشل عن شبابه بنفسه، ونشرت عدة كتابات حول بداية مسيرته.

وينطبق ذلك على العديد من العظماء في التاريخ، مثل الرئيس روزفلت. وحطم «هتلر الشاب» الأرقام القياسية في المبيع، على الرغم من أنه لا مجال للمقارنة مع العدد الأول من كتاب إيان كيرشوا، «هتلر: 1889 - 1936: المتبجّح» Hitler: 1889 - 1936: Hubris.

لا تجد من بين آلاف الكتب سوى كتابين غربيّين جديين عن ستالين في مرحلة ما قبل 1917، هما: الكتاب السياسي والسيكولوجي المميز «ستالين الثائر» Stalin as Revolutionary من تأليف روبرت توكر (1974)، المكتوب قبل الأرشيفات الجديدة بوقت طويل، فضلًا عن عمل آخر عن الحرب الباردة لنظرية المؤامرة ضد ستالين من تأليف إدوارد إيليس سميث (1967)، يدّعي فيه أن ستالين كان عميلًا للقيصر. وكتبت مؤلفات أخرى في روسيا، أكثرها في نمط الإثارة الصحافية.

لكن العمل الأبرز هو لألكسندر أوستروفسكي «كتو ستويال زا سبينوي ستالينا؟» Kto stoyal za spinoi Stalina? «من كان وراء ستالين؟» (2002). وأنا مَدين في كتابي لهذه المؤلفات الثلاثة.

والكثير الكثير مما هو غير قابل للتفسير في الحياة السوفياتية - ككراهية الفلاحة على سبيل المثال، والسرية، وهاجس الاضطهاد، والحملة الدامية ضد الخوارج والمنشقين في الحرب الكبرى، ووضع الحزب فوق العائلة والحياة بذاتها، والتشكيك في

التجسس الخاص بالاتحاد السوفياتي الذي قاد إلى نجاح هجمات هتلر المفاجئة في العام 1941-، كان نتيجة الحياة الباطنية، كونسبيراتسيا، أو تآمر الأوخرانا والثوار، فضلًا عن القيم القوقازية ونمط ستالين، وليس ستالين وحده.

وبحلول العام 1917، عرف ستالين العديد من الشخصيات التي ستشكل النخبة السوفياتية وبلاطه في السلطة العليا، حيث اضطلع الرجال منهم، كستالين وأوردزهونيكيدز وشوميان، بدور مميز في تشكيل الاتحاد السوفياتي، أقله بقدر أهمية مساهمة اللاتفيين والبولنديين واليهود، وربما الروس حتى. كانوا جوهر «رجال المجموعة» الذين شكلوا قلب الحزب البولشفي، وكان من المرجح أن يدعموا ستالين في وجه المفكرين واليهود والمهاجرين، وتحديدًا تروتسكي الدائم التألق والمتعجرف والمتغطرس. وتسبب هؤلاء في الأعمال الوحشية التي رافقت الحرب الأهلية (وتصفية الفلاحين والرعب)، لأنهم كستالين، والحقيقة إلى جانبه، تربوا في الشوارع نفسها، ويجمعهم صراع عصابات مشتركة وخصومات عائلية وذبح إثني، وتعاطوا مع ثقافة العنف نفسها. وتتفادى مقاربتي الكثير من التاريخ النفسي الذي أساء إلى ستالين وهتلر، وأفرط في تبسيط فهمنا لهما. وآمل أن يُظهر هذا الكتاب أن ستالين وليد أكثر من طفولة متوسطة الحال، كما أن الاتحاد السوفياتي وليد أكثر من الأيديولوجيا الماركسية.

غير أن تبلور شخصية ستالين مهم تحديدًا، لأن طبيعة حكمه ذاتية جدًا، عدا عن أن لينين وستالين ابتكرا النظام السوفياتي المفرط الحساسية على صورة حلقتهما الصغيرة، من المتآمرين الذين لا

يرحمون قبل الثورة. ويمكن فهم الكثير من المأساة اللينينية - الستالينية فقط إذا أدركنا أن البولشفيين يتصرفون بالطريقة السرية نفسها، سواء أشكلوا حكومة أكبر امبراطورية في الكريملين، أم عصابة سرية صغيرة وغامضة خلف حانة تيفليس.

يبدو أنه قُدّر لروسيا اليوم - الخاضعة والمعتادة على الأتوقراطية أو حكم الفرد، والامبراطورية التي تفتقد المؤسسات المدنية القوية تحديدًا بعد تبعثر مجتمعها بالرعب البولشفي - أن تخضع لقيادة عصابات ترقّي نفسها بنفسها لبعض الوقت. وبشكل أوسع، عالم الإرهاب المظلم، ذو صلة بالحاضر، أكثر من أي وقت مضى: السمات المشتركة بين المنظمات الراديكالية والعنفية كثيرة، سواء أكانت بولشفية في بداية القرن العشرين، أم جهادية في بداية القرن الحادي والعشرين.

في العام 1917، تعرّف ستالين إلى لينين لمدة اثني عشر عامًا، وإلى سواه من القادة لحوالي عشرين عامًا. فلا يعتبر هذا الكتاب سيرة ذاتية، بل عرض للأحداث بالتسلسل في ذلك المحيط، وهو تاريخ يسبق نشوء الاتحاد السوفياتي بذاته، وكناية عن دراسة لدود الأرض والخادرة الصامتة قبل أن ترقن فراشة[2] بأجنحة من فولاذ.

لائحة بالشخصيات

العائلة

فيساريون «بيسو» دجوغاشفيلي، إسكاف، الوالد.

إياتيرينا «كيكي» غيلادسزي دجوغاشفيلي، الوالدة.

ستالين، جوزيف فيساريون دجوغاشفيلي، «سوسو»، «كوبا». غوري.

ياكوف «كوبا» أغناتاشفيلي، بطل مصارعة في غوري، تاجر، والد محتمل.

إيفان «فاسو» أغناتاشفيلي، نجل ياكوف، صديق ستالين مدى الحياة.

ألكسندر «ساشا» أغناتاشفيلي، نجل ياكوف، أحد حاشية ستالين، «الأرنب».

داميان دافريشوي، ضابط شرطة في غوري ووالد محتمل.

جوزيف دافريشوي، نجل داميان، صديق الطفولة، سياسي سطا على المصارف، وأخيراً طيّار وجاسوس وكاتب مذكرات في فرنسا.

جوزيف إيريماشفيلي، صديق الطفولة في غوري ومعهد اللاهوت في تيفليس، وكاتب تقارير في مينشيفيك.

الأب كرستوفر شاركيفياني، كاهن في غوري، حامٍ ووالد محتمل، ونجله، كوت شاركيفياني.

بيتر «بيتا» كابانادزي، كاهن في غوري وفي معهد اللاهوت في

تيفليس، وصديق مدى الحياة.

غيورجي إيليسابيدشفيلي، صديق غوري، بولشفي.

داتو غاسيتاشفيلي، المبتدئ في ترقيع الأحذية لدى بيسو.

المدرّسون

سيمون غوجشيليدزي، مدرّس الموسيقى وصاحب مدرسة كنيسة غوري.

الأمير دافيد أباشيدزي، الأب ديمتري، «البقعة السوداء»، المعلّم الكهنوتي في معهد اللاهوت في تيفليس، ومضطهد ستالين المكروه.

الشابات

ناتاليا «ناتاشا» كيرتافا، مالكة الأرض وحبيبة في باتومي.

ألفاسي تالاكفادزي، محمية وحبيبة في باكو.

لودميلا ستال، ناشطة بولشفية وحبيبة في باكو وسان بطرسبرغ.

ستيفانيا بيتروفسكايا، امرأة نبيلة من أوديسان، مغتربة وخليلة وخطيبة في سولفيشيغودسك وباكو.

بيلاغييا «بوليا» أونوفرييفا، «الفتاة الساحرة»، خليلة في المدرسة في فولوغدا.

سيرافيما خوروشينينا، خليلة وشريكة في سولفيشيغودسك.

ماريا كوزاكوفا، صاحبة الملك وخليلة في سولفيشيغودسك، والدة قسطنطين.

تاتيانا «تانيا» سلافاتينسكايا، بولشفية متزوجة وخليلة.

فالنتينا لوبوفا، مشاغبة بولشفية وخليلة محتملة.

ليديا بيريبريجينا، يتيمة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، أغواها ستالين في توروخانسك، وأم لولدين منه، مخطوبة.

الرفاق والأعداء والأخصام، في تيفليس وباكو

لادو كيتسخوفيلي، نجل كاهن غوري، معلّم ستالين وبطله البولشفي

الأمير ألكسندر «ساشا» تسولوكيدزي، الأرستقراطي الغني، معلّم ستالين وبطله البولشفي

ميخا تسخاكايا، مؤسس الديموقراطيين الاشتراكيين الجورجيين، من البولشفيين الأوائل، رئيس ستالين

فيليب ماخارادزي، بولشفي وحليف ستالين أحياناً

بودو «ماسورة البندقية» مديفاني، ممثل وإرهابي بولشفي، حليف ستالين

أبل يينوكيدزي، من البولشفيين الأوائل، صديق أليلوييف وسفانيدزي وستالين

سيليبيسترو «سيلفا» جيبلادزي، طالب سابق في معهد اللاهوت، جمرة المنشفية

ليف روسانبلوم «كامينيف»، نجل مهندس تيفليس الغني، بولشفي معتدل

ميخائيل «ميشا» كالينين، فلاح، ساقٍ، من البولشفيين الأوائل في تيفليس

سورين سبانداريان، نجل محرر أرمني غني، بولشفي، فاسق، أعز صديق لستالين

ستيفان شوميان، بولشفي أرمني غني، حليف وخصم لستالين

غريغوري «سيرجو» أوردهونيكيدزي، رجل نبيل فقير، ممرض، رجل بولشفي صعب، حليف ستالين لفترة طويلة

سيرجو كافتارادزي، تابع يافع لستالين في غربي جورجيا، باكو، سان بطرسبرغ

الزوجات والأقارب بحكم الزواج

ألكسندر «أليوشا» سفانيدزي، طالب في معهد اللاهوت، صديق ستالين، من البولشفيين الأوائل وأخو الزوجة لاحقاً

ألكسندرا «ساشيكو» سفانيدزي، شقيقة ألكسندر أعلاه وصديقة ستالين

ميخائيل مونوسيليدزي، زوج ساشيكو وحليف ستالين البولشفي

ماريا «ماريكو» سفانيدزي، شقيقة ساشيكو وأليوشا

إكتارينا «كاتو» سفانيدزي دجوغاشفيلي، أصغر أفراد العائلة، أول زوجة لستالين ووالدة

ياكوف «ياشا» أو «لادي» دجوغاشفيلي، نجل ستالين

سيرجي أليلوييف، مدير السكك الحديدية والمدير الكهربائي، من البولشفيين الأوائل، حليف ستالين في تيفليس وباكو وسان بطرسبرغ

أولغا أليلوييف، زوجة سيرجي، من أوائل صديقات ستالين، خليلة ممكنة، لاحقاً حماته

بافيل أليلوييف، نجل أولغا أليلوييف

آنا أليلوييف، كريمة أولغا أليلوييف

فيودور «فيديا» أليلوييف، نجل أولغا أليلوييف

نادیزهدا «نادیا» أليلوييف، كريمة سيرجي وأولغا، زوجة ستالين الثانية

أفراد العصابة والعقول المدبّرة والمتحايلون على القانون

كامو، سيمون «سينكو» تيربيتروسيان، صديق ستالين، محمي ثم لص مصارف ودائم الشجار

كوت تزينتسادزي، رجل ستالين ولص في غربي جورجيا، ولاحقاً رئيس السطو على المصرف

ليونيد كراسين، معلّم لينين في صنع القنابل وغسل الأموال والسطو على المصارف والاتصالات مع النخبة، وذهب لاحقاً مع لينين

مير والاش، «ماكسيم ليتفينوف»، تاجر أسلحة وغاسل أموال بولشفي

أندره فيشينسكي، نجل الصيدلي أوديسا الغني، ترعرع في باكو، ومنفّذ خطط ستالين، ولاحقاً منشفي.

كبار الماركسية

جورجي بليخانوف، أبو الاشتراكية الديموقراطية الروسية

البولشفيون

فلاديمير إيليش أوليانوف، «لينين»، أو «إيليش» بالنسبة إلى المقربين منه، قائد الاشتراكية الديموقراطية الروسية ومؤسس البولشفيين

ناديزهدا كروبسكايا، زوجة لينين ومساعدته

غريغوري رادوميسلسكي، «زينوفيف»، نجل بائع الحليب اليهودي، صديق حميم للينين في كراكو، ثم حليف كامينيف

رومان مالينوفسكي، لص ومغتصب وجاسوس في أوخرانا، قائد بولشفي في الدوما الامبراطورية

ياكوف سفيردلوف، قائد بولشفي يهودي ورفيق غرفة ستالين في المنفى

ليف برونستاين، «تروتسكي»، قائد وخطيب وكاتب وماركسي مستقل، والرئيس المنشفي لسوفيات بطرسبرغ في العام 1905، انضم إلى البولشفيين في العام 1917

فيليكس دزيرزهنسكي، نبيل بولندي، ثائر متمرّس، بولشفي في العام 1917

إيلينا ستاسوفا، «مطلقة» و«زيلما»، نبيلة وناشطة بولشفية

كليمانتي فوروشيلوف، خرّاط لوغانسك، صديق بوشيفي لستالين، رفيق الغرفة في ستوكهولم

فياشيسلاف سكريابين، «مولوتوف»، بولشفي شاب ومؤسس «برافدا» مع ستالين

المنشفيون

يولي تسيديربوم، «مارتوف»، صديق لينين ثم عدوه اللدود، مؤسس المنشفيين

نو جوردانيا، مؤسس الاشتراكية الديموقراطية الجورجية وقائد المنشفيين الجورجيين

نيكولاي «كارلو» شخايدزي، منشفي معتدل في باتومي، ولاحقاً في سان بطرسبرغ

إيسيدوري راميشفيلي، عدو منشفي لستالين

سعيد ديفدارياني، صديق معهد اللاهوت ثم عدو سياسي ومنشفي

نو راميشفيلي، عدو منشفي صعب المراس لستالين

مينادورا أوردزهونيكيدزي توروشيليدزي، صديقة منشفية لستالين وزوجة الحليف البولشفي مالاكيا توروشيليدزي

دافيد ساجيراشفيلي، منشفي جورجي وكاتب مذكرات

غريغول أوراتادزي، منشفي جورجي وكاتب مذكرات

راسهدين أرسينيدزي، منشفي جورجي وكاتب مذكرات

خاريتون شافيشفيلي، كاتب مذكرات منشفي

ملاحظة

ستالين

لم يبدأ ستالين باستعمال هذا الاسم حتى العام 1912، وقد أصبح لقباً له في ما بعد تشرين الأول/أكتوبر 1916.

اسمه الحقيقي هو جوزف فيساريونوفيتش دجوغاشفيلي (Djugashvili Vissarionovich Josef).

كما كانت أمه وأصدقاؤه وزملاؤه ينادونه بـ «سوسو»، حتى بعد العام 1917.

وقد نشر ديواناً شعرياً أسماه «سوسيلو» (Soselo). لطالما أطلق ستالين على نفسه اسم «كوبا» (Koba)، كما أنه اعتمد أسماء وألقاباً عديدة في مسيرة حياته. وبهدف التوضيح، تم استعمال اسمي «ستالين» و«سوسو» للإشارة إلى ستالين في هذا الكتاب.

الأموال

إن أسهل طريقة حسابية لمعرفة الأسعار مقارنة بأسعار الصرف اليوم هي بضرب الرقم بخمسة للحصول على المبلغ بالاسترليني ثم بضرب المبلغ الأخير بعشرة.

للحصول على المبلغ بالدولار الأميركي. بضعة أمثلة: كعامل في مصافي روثشيلد في باتومي، تقاضى ستالين الصغير 1.70 روبل يومياً، أو 620 روبلاً سنوياً (6.000

دولار أميركي/3.000 استرليني سنوياً اليوم). كان القيصر نيكولاي الثاني يخصص لنفسه مبلغاً شخصياً بقيمة 25 روبل سنوياً بينما كان يتقاضى حارس تساريفيش أليكسي أجراً من 120 روبلاً سنوياً (1.200 دولار أميركي/600 استرليني سنوياً اليوم). غير أن هذه الأرقام لا طائل منها: تعطي الأرقام فكرة بسيطة عن القدرة والقيمة الشرائيتين الحقيقيتين. مثلاً، على الأرجح كان نيكولاي الثاني أغنى رجل على الأرض، بالتأكيد في روسيا. غير أن ثروته الشخصية الكاملة من الأراضي والمجوهرات والقصور والمودعات الفنية والمعدنية، قُدّرت في العام 1917 بقيمة 14 مليون روبل، وهي إذا ما حوّلت الى عملة اليوم، مجرّد 140 مليون دولار أميركي/70 مليون جنيه استرليني: وهو رقم ضئيل جداً على ما يبدو.

الألقاب

هناك دائماً مقابلات للألقاب والمناصب التابعة للقيصر، لكنني حاولت استعمال المقابل الأقرب قدر المستطاع.

بالنسبة إلى الأوتوقراطيين الروس، استعملت «قيصر» و«امبراطور» بغاية تبديل المصطلحات. القيصر بطرس الكبير توّج نفسه «امبراطوراً» في العام 1721. اختلف لقب حاكم القوقاز. الدوق الكبير ميخائيل نيكولايفيتش، نجل الأباطرة وشقيقهم، كان نائب الملك. وخلفه، الأمير غريغوري غوليتسين، الحاكم خلال فترة متابعة ستالين لتحصيله العلمي في الثانوية، تربّـع على أدنى منصب، وهو الحاكم العام. وأصبح خلفه الكونت إيلاريون فورونتسوف - داشكوف مجدداً، نائب الملك في الفترة 1905 - 16.

المسافات والأوزان

10 فرست = 63.6 ميلاً

1 بود = 36 ليبرا

تمهيد

السطو على المصرف

عند العاشرة والنصف من قبل ظهر يوم حار، الواقع فيه الأربعاء ١ حزيران/يونيو 1907، في الساحة المركزية المتقدة، كان فارس أنيق ذو شاربين ينتعل حذاءً عالي الساق وبنطالًا خاصًا بركوب الخيل، يستخدم سيف المبارزة الجركسي، ويقوم بخدع من على ظهر الجواد، ممازحًا فتاتين جورجيتين ساحرتين وأنيقتين تديران مظلات شمس مبهرجة، في حين كانتا تمسان بأصابعهما مسدسات الموسر المخبئة تحت فستانيهما.

ينتظر شبان في قمصان فلاحية زاهية وسراويل واسعة خاصة بالبحّارة عند منعطفات الشارع، ويمسكون مسدسات وقنابل يدوية خفية. في البعيد في حانة تيليبوشوري في الساحة، استولت مجموعة من رجال العصابات المسلّحين على حانة للمشروبات الروحية، ودعوا المارّين بفرح إلى الانضمام إليهم لاحتساء الشراب. والجميع ينتظر قيام جوزيف دجوغاشفيلي، المعروف لاحقًا بستالين، بأول إنجازاته في سن التاسعة والعشرين، للفت انتباه العالم[3].

عرف قلة من خارج العصابة بخطة «مشهدية» العمل الإجرامي والإرهابي ذاك اليوم، لكن ستالين عمل على ذلك طوال أشهر وأشهر. الشخص الوحيد الذي عرف بالخطة الكبرى هو فلاديمير

لينين، قائد الحزب البولشفي[4]، المختبئ في فيلا في كووكولا، في فنلندا، بعيدًا في اتجاه الشمال. التقى لينين سرًا بستالين في برلين، ثم في لندن، قبل أيام للتخطيط للأمر بالسطو الكبير، على الرغم من أن الحزب الاشتراكي الديموقراطي منع كليًا كل أشكال «مصادرة الملكية»، وهو تبسيط للسطو على المصارف. غير أن عمليات السطو والسرقات وجرائم القتل التي تمت على يد ستالين، والتي تجري دائما باهتمام دقيق بالتفاصيل والسرية، جعلته «المموّل الأول للمركز[5] البولشفي».

كانت أحداث ذاك اليوم لتتصدر الأخبار في العالم، وتهزّ أسس تيفليس حرفيًا، وتفتت الديموقراطيين الاجتماعيين المقسّمين إلى فصائل متنازعة: هذا اليوم يطلق مسيرة ستالين ويدمّرها تقريبًا في الآن معًا. إنه أشبه بالحد الفاصل في حياته.

في ساحة يريفان، تمركز اللصوص العشرون الذين شكلوا نواة عصابة ستالين، وكانوا معروفين باسم «الفريق السري»، بينما يحدق حراسهم في أفق غولوفنسكي، الشارع الرئيسي الأنيق في تيفليس، قرب البهو الإيطالي الأبيض لقصر فايسروي. انتظروا قدوم عربة السفر وسرية الخيالة من القوزاقيين المشاة. ودار قائد الجيش بالسيف القوزاقي نصف دورة على جواده قبل أن يترجّل ليجوب البولفار الحديث.

كانت كل زاوية في الشارع تحت حراسة قوزاقي أو شرطي: فالسلطات مستعدة. والأسوأ متوقع منذ كانون الثاني/يناير. كان

مخبرو الشرطة السرية التابعة للقيصر (الأوخرانا)، وعملاؤها، وشرطته السياسية والدرك، يسلمون تقارير دورية وافرة عن الخدع السرية لعصابات الثوار والمجرمين. وفي الشفق الضبابي تحت الأرض، برز عالم اللصوص والإرهابيين، وصعب التمييز بين الحق والباطل. لكن دارت لأشهر «أقاويل» حول «المشهدية»، كما يصنفها خبراء المخابرات اليوم.

في ذاك الصباح المغري الرائع، بدا اللون الشرقي لتيفليس (اليوم تبيليسي، عاصمة جورجيا) لا ينتمي إلى العالم نفسه كعاصمة القيصر، سان بطرسبرغ، على بعد آلاف الأميال. تشقّ الشوارع القديمة، من دون مياه جارية أو كهرباء، منحدرات متاتسميندا، الجبل المقدّس، حتى يتعذّر سلوكها، هي المليئة بالبيوت الملتوية الفاتنة المثقلة بالشرفات، المضفرة بالعرائش القديمة. تيفليس قرية كبيرة حيث الجميع يعرف الجميع.

وراء المقر الرئيسي العسكري، في شارع فريلينسكايا الأرستقراطي، على بعد مرمى حجر من الساحة، تقطن زوجة ستالين، مصممة الأزياء الجورجية اليافعة والجميلة، كاتو سفانيدزي، وابنهما المولود حديثًا ياكوف. جمعهما الحب الحقيقي: برغم مزاجه الأسود، كرّس ستالين نفسه لكاتو التي أُعجبت بحماسته الثورية، وشاطرته الحماسة عينها. وبينما كانت تجلس وطفلها في الشرفة، يستقبلان أشعة الشمس الدافئة، كان زوجها يشرف على أداء صدمة مدنّسة لها ولتيفليس بذاتها.

كانت هذه المدينة الحميمة عاصمة القوقاز، معقل الملك البرية

والجبلية بين البحر الأسود وبحر قزوين، معقل الشعوب الجبارة والفخورة بنفسها. وبدا أفق غولوفنسكي باريسيًا بأناقته، حيث المسارح البيضاء الكلاسيكية الجديدة، ومسرح أوبرا على النمط البربري، والفنادق الضخمة وقصور الأمراء الجورجيين وبارونات النفط الأرمن التي تخطّ الشارع، لكن، بينما تجتاز المقر الرئيسي العسكري، تنفتح ساحة يريفان على مزيج آسيوي.

يقدّم الباعة المتجوّلون اللابسون بشكل غريب، حبوب اللوبيو الجورجية الحارة وفطائر جبن خاشابوري الحارة. ويسلم حاملو المياه وتجار الشارع والناشلون والبوابون، أو يسرقون من البازارات الأرمنية والفارسية، التي تشبه أزقتها السوق الشرقية أكثر منها المدينة الأوروبية. وتتراءى قوافل الجمال والحمير، المحمّلة بالحرير والتوابل من بلاد الفرس وتركستان، والفاكهة والخمور من الريف الجورجي الخصب، تسير متمهلة عبر بوابات كارافنسيراي. ويخدم الندلاء والسعاة الشبان زبائن المطاعم ورواد الفنادق، فيحملون الحقائب وينزعون طقم الجمال، ويراقبون الساحة. وكشفت الأرشيفات الجورجية المكشوفة حديثًا، أن ستالين، على غرار اليهود، استعمل صبيان النزل كروح الشارع الثوري ما قبل البلوغ وخدمة البريد. وفي هذه الأثناء، في إحدى الغرف الخلفية لقوافل النزل، توجه المسؤول عن العصابة إلى المسلحين بكلام حماسي لتشجيعهم، وأعاد الخطة للمرة الأخيرة، وحضر ستالين إلى المكان في ذاك الصباح.

تخطو المراهقتان الفاتنتان باتسيا غولدافا وأنيتا سولاكفيلادزي، بالشعر البني، مع المظليتين الدوارتين والمسدسات المحشوة.

نحيلتان مع عيون سوداء يتوهج فيها شبق الأنوثة الطاغية. خطوات أنيقة عبر الساحة، وتقفان خارج المقر الرئيسي العسكري، حيث تعبثان مع الضباط الدرك الروس باللباس الأزرق، وتقوسان الساقين للقوزاقيين.

كانت تيفليس - ولا تزال - مدينة واهنة تعج بالمشردين الذين يقطنون البولفار، يتوقفون مرارًا وتكرارًا لاحتساء الكحول في عدة حانات في الهواء الطلق: وإذا أمكن تشبيه الشعب الجورجي المبهرج والسريع الاهتياج بأي شعب أوروبي آخر، فالأحرى تشبيهه بالشعب الإيطالي. يختال الجورجيون والقوقازيون الآخرون، بالشوخا التقليدية - سترتهم المتدلية الطويلة المخططة على الصدر بجيوب الرصاص - في الشوارع، ويغنون بأصوات عالية. وتتنزه النساء الجورجيات بالحجاب الأسود، وزوجات الضباط الروس يتزيَّنَّ وفق الموضة الأوروبية، عبر بوابات حدائق بوشكين، يشترين البوظة ويحتسين المشروب إلى جوار الفرس والأرمن والشيشان والأبخاز ويهود الجبال، في مهرجان باذخ من القبعات والأزياء الأخاذة.

تمسح عصابات أولاد الشوارع الصغار الأشرار - الكينتو - باختلاس الجموع بحثا عن ضرب احتيال. يسير الكهنة المبتدئون المراهقون، بالرداء الكهنوتي الأبيض الطويل، برفقة كاهنهم الملتحي عبر الشارع، حيث تأهل ستالين تقريبًا ككاهن قبل تسع سنين. هذا المشكال غير السلافي وغير الروسي والقوقازي، يجمع بشدة بين الشرق والغرب، وهو العالم الذي تغذى منه ستالين، وتجذَّر فيه.

بعد التحقق من الوقت، انصرفت الفتاتان أنيتا وباتسيا، واتخذتا مواقع جديدة في أي جانب من الساحة. وفي شارع القصر، يحتسي زبائن حانة تيليبوشوري الشهيرة المُريبون - من الأمراء والقواد والمخبرين واللصوص - الخمر الجورجي والبراندي الأرمني، ليس بعيدًا عن قصر الأمير سومباتوف الكبير والنافذ.

وفي ذلك الوقت، قام دافيد ساجيراشفيلي، وهو ثائر آخر يعرف ستالين وبعض رجال العصابة، بزيارة صديق يملك متجرًا فوق الحانة، وقد دعاه إليه اللص المَرِح عند البوابة، باشوا كوبرياتشيفلي، «الذي قدم إلي فورًا كرسيًا وكوب مشروب أحمر، وفق العادة الجورجية». شرب دافيد المشروب، وكان مغادرًا حين اقترح المسلّح «بتهذيب مفرط» أن يبقى في الداخل و«يجرّب المزيد من الوجبات الخفيفة والمشروب». أدرك دافيد أنهم «يسمحون بدخول الناس إلى داخل المطعم من دون أن يسمحوا لهم بالمغادرة إلى الخارج، وقد وقف المسلحون على الباب».

بعد أن حددت القافلة التي تعدو بسرعة على البولفار، سارعت باتسيا غولدافا، المرأة السمراء النحيلة عند مشاهدتها، إلى الدوران على المنعطف باتجاه حدائق بوشكين، حيث لوّحت بصحيفتها لستيبكو إنتسكيرفيلي، المنتظر عند البوابة.

فغمغم: «نحن في حالة حرجة!».

أومأ ستيبكو برأسه لأنيتا سولاكفيليدزي، التي كانت في الطريق خارج تيليبوتشوري، حيث قامت بإشارة لحض الآخرين على

الخروج من الحانة. وأومأ إليهم المسلحون في المدخل. «عند إشارة معينة»، رأى ساغيراشفيلي اللصوص في الحانة يضعون المشروب من أيديهم، ويعدون مسدساتهم لرمي الرصاص وينتشرون في الباحة، وهم شبان يافعون نحيلون ومسلولون، يرتدون السراويل الواسعة، وبالكاد تناولوا الطعام منذ أسابيع. بعضهم من زمرة العصابات، وبعضهم من المجرمين اليائسين، وبعضهم، أهل جورجيا بشكل نموذجي، من الأمراء الذين أصابهم الجوع في قصورهم الخالية إلاَّ من السقوف والجدران في المقاطعات. وإذا كانت مآثرهم إجرامية، فهم لا يبالون بالمال أبدًا: بل يكرّسون أنفسهم للينين، والحزب، وسيدهم الدمية في تيفليس: ستالين.

«وظائف كل واحد منا أُعدت مسبقًا»، تذكرت فتاة ثالثة في العصابة، تُدعى ألكسندرا داراخفيليدزي، لم تتجاوز التاسعة عشرة، وهي صديقة أنيتا، ومحترفة في أعمال النهب والرماية.

غطى كل أعضاء العصابة رجال الشرطة في الباحة - غورودوفوي - المعروفين في الشوارع كالفراعنة. وراقب المسلحان القوزاقيين خارج قاعة المدينة، وتوجه الآخرون إلى منعطف في شارع فيليامينوف والبازار الأرمني الذي لا يبعد عن بنك الدولة المركزي كثيرًا. وتتذكر ألكسندرا داراخفيلدزي، في مذكراتها غير المنشورة، أنها حرست إحدى زوايا الشارع مع مسلحين اثنين.

الآن، لاحظ باشوا كوبرياشفيلي، الذي يدَّعي قراءة الصحيفة بغير

اكتراث، في البعيد الغبار المتطاير من الخيل. إنهم قادمون! جمع باشوا صحيفته، وأعرب عن رباطة جأش...

حذّر قائد الفرسان الذي يحمل سيفًا معدنيًا، يجوب فيه الباحة، المارين من أن يبقوا خارج الباحة. لكن حين لم يُعره أحدهم اهتمامًا، وثب إلى الوراء من على صهوة جواده المتوثب. لم يكن ضابطًا، لكن كان أشبه بحامل السيف والخارج على القانون ونصف الفارس ونصف اللص الجورجي. يدعى كامو، ويبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، وهو رئيس الفرقة كما صنّفه ستالين، «سيّد التنكّر» الذي ينتحل شخصية الأمير الثري أو «الغسّالة الفلاحة». تحرّك بصعوبة، وكانت عينه اليسرى نصف العمياء تغمض وتتجمع: وقد انفجرت إحدى قنابله في وجهه منذ بضعة أسابيع، ولا يزال في مرحلة التعافي.

كان كامو «مسحورًا كليًا» بستالين، الذي جعله يعتنق الماركسية. ترعرعا معًا في بلدة غوري العنيفة على بعد 45 ميلًا. وكان أحد الذين سطوا على المصارف. يتمتع بجرأة بارعة، ومثال الهاربين من السجون. هو الساذج المغفّل والمضطرب عقليًا، الذي تحسه نصف مجنون، كان شغوفًا في خدمة سيده، غالبًا ما يرجو ستالين: «دعني أقتلْه لأجلك!». لم يكن أي عمل رعب قاتل، أو أوج الشجاعة، خارجًا عن قدرته: أدخل يده في ما بعد في صدر رجل وانتزع له قلبه.

طوال حياته، جذب سحر ستالين المتفرّد المضطربين عقليًا، الفاقدين حس المسؤولية الأخلاقية، وغير المقيّدين، وحاز تفانيهم:

الصبي والتابع الأمين كامو، وأعضاء العصابة في أول خط طويل. «هؤلاء الشبان تبعوا ستالين من دون اعتبار لذواتهم... سمح إعجابهم به له بأن يفرض عليهم انضباطًا من حديد»[6]. غالبًا ما زار كامو منزل ستالين، حيث استعار مسبقًا سيف والد كاتو، شارحًا أنه «سيلعب دور ضابط القوزاقيين»[7] حتى أن لينين، المحامي الذي يصعب إرضاؤه، والذي تربى كالنبلاء، أُعجب بكامو المتهوّر الذي أسماه «لصه القوقازي». قال ستالين متأملًا، وهو في عمر متقدم، «كامو كان شخصًا مدهشًا[8] عن حق».

أدار القائد كامو جواده نحو البولفار، وتقدّم بجرأة نحو الموكب القادم من الجهة الأخرى. وحين بدأ إطلاق الرصاص، تباهى قائلًا «سينتهي الأمر في ثلاث دقائق».

كان القوزاقيون يَعْدُون إلى باحة يريفان. اثنان في الأمام، واثنان في الخلف، وآخر على طول الحافلات. ومن خلال الغبار، استطاع أعضاء العصابة معرفة أن عربة السفر تضم رجلين بالفراك - أمين الصندوق كورليوموف والمحاسب غولوفنيا من بنك الدولة - وجنديين يصليان ديك البندقية، في حين أن الفيتون (السيارة) الآخر ممتلئ برجال الشرطة والجنود. وكالسهم، أو كسرعة عدد الخيل، لم تحتج العربات والخيالة إلى أكثر من ثوان لعبور الباحة نحو شارع سولولاكي حيث بنك الدولة الجديد: تماثيل الأسود والآلهة على الباب تمثل الازدهار البارز للرأسمالية

الروسية[9].

أخفض باشوا صحيفته، وأعطى الإشارة، ثم طرح الصحيفة جانبًا وأخذ أسلحته. أخرج أعضاء العصابة ما أسموه «التفاح»، وهي قنابل يدوية فعالة هرّبتها الفتاتان أنيتا وألكسندرا إلى تيفليس، وهما مختبئتان في أريكة كبيرة.

تقدم المسلحون والفتاتان إلى الأمام، وسحبوا فتيل القذائف، وقذفوا أربع قنابل يدوية انفجرت تحت العربات بصوت يصم الآذان بقوة جهنمية، بحيث نزعت أحشاء الأحصنة وقطّعت الرجال إربًا إربًا، فتناثرت الحصى مع الأحشاء والدماء. سحب أفراد العصابة مسدسات الموسر وبراونينغ، وفتحوا النار على القوزاقيين ورجال الشرطة حول الباحة، وقد فاجأوهم على حين غرّة، فسقطوا بين جرحى أو فارين بحثًا عن ملجأ. انفجرت أكثر من عشر قنابل. وخال الشهود أنها كانت تنهال من كل حدب وصوب، حتى من السطوح: وقيل في ما بعد، إن ستالين رمى بأول قنبلة من على سطح قصر الأمير سومباتوف.

توقفت عربات المصرف. تدافع المارون المذعورون بحثًا عن ملجأ. وظن البعض أنه زلزال: هل كان الجبل المقدّس ينهار على المدينة؟ «لم يستطع أحد أن يحدد ما إذا كان صوت إطلاق الرصاص المخيف دوي المدافع، أم انفجار القنابل»، وفق الصحيفة الجورجية «إيساري» (السهم). «نشر الصوت الهلع في كل مكان... وتقريبًا في كل أرجاء المدينة، بدأ الناس يركضون. وكانت المركبات والعربات الخفيفة تعدو بعيدًا...». تداعى زجاج

النوافذ من المباني، وكل قطعة زجاج تطايرت بعيدًا حتى قصر فايسروي.

كانت كاتو سفانيدزي واقفة عند شرفة منزلها المحاذي، تعتني بطفل ستالين مع أسرتها، «عندما سمعنا فجأة دوي القنابل»، بحسب ما تذكر شقيقتها ساشيكو. «سارعنا مذعورين إلى الدخول إلى المنزل». في الخارج، وسط الدخان الأصفر والفوضى الهمجية وفي بقايا الأحصنة وأضلاع الرجال المشوهة، حصل إخفاق معيّن.

ارتعش جواد مربوط بمقدمة العربة ثم اهتز بعنف وعاد إلى الحياة، بينما ركض أعضاء العصابة للسطو على حقائب المال في مؤخرة العربة، وشبت الفرس من قلب الفوضى وفرّت إلى أسفل الهضبة نحو بازار الجنود، واختفت مع المال الذي وعد ستالين لينين بأن يكون للثورة[10].

خلال الحقبة اللاحقة، اشتبه في دور ستالين في ذاك اليوم، لكن لم يكن مرجحًا. وتُظهر أرشيفات موسكو وتبيليس اليوم كيف أدار ستالين العملية، وهيأ «رجاله» في المصرف طوال أشهر عديدة. وتشير مذكرات أخت زوجته، ساشيكو سفانيدزي غير المنشورة، في الأرشيفات الجورجية، إلى إقرار ستالين بشكل صريح برئاسته للعملية، وتخطيطه لها[[11]].

وبعد قرن على السرقة، يمكن الآن كشف الحقيقة.

مرح ستالين «بالأعمال السياسية الدنيئة»، الدراما التآمرية

للثورة. وعندما كان ديكتاتورًا في روسيا السوفياتية، أشار بشكل محيّر، حتى مع نفحة حنين، إلى ألعاب «القوزاقيين واللصوص» - كازاكي إي نازبوينيكي، النسخة الروسية من «الشرطة واللصوص»-، لكنه لم يقدم تفاصيل قط قد تنسف سمعته كرجل دولة[12].

كان ستالين في العام 1907 رجلًا صغيرًا ونحيلًا وغريب الأطوار، يحمل الكثير من الألقاب، ويرتدي عادة قميص الساتان الأحمر والسترة الرمادية وقبعة الفيدورا الأصلية السوداء. وكان يحبذ أحيانًا الشوكا الجورجية التقليدية، ويحب أن يلبس قلنسوة قوقازية بيضاء تتهدل بأناقة على كتفيه. كان دائم الحركة، وغالبًا ما يلجأ إلى الركض، ويلبس البزات العديدة للمجتمع القيصري للتمويه، وكثيرًا ما يهرب من اضطهاد الناس ويتخفّى بانتحال شخصية امرأة.

كان جذابًا بالنسبة إلى النساء، وغالبًا ما يغني الألحان الجورجية ويُلقي الأشعار، يتميز بكاريزما جذابة وحس الفكاهة، لكنه كان كئيبًا في العمق. جورجي غريب فيه برودة الشمال. كانت عيناه «حارقتين» بلون العسل عندما يكون ودودًا، وصفراوين عندما يغضب. لم يكن قد قرر بعدُ اعتماد إرخاء الشاربين والشعر بتسريحة شبابية: أحيانًا يطيل لحيته وشعره باللون الأسود الشائب، الذي أصبح داكنا الآن. كان يسير بسرعة وبشكل غير مستقيم، ويحمل يده اليسرى المتيبسة، بعد العديد من أحداث الصبا وأمراض الطفولة.

لا يكلّ، ولا يملّ الحركة، وينبض أفكارًا وإبداعًا. وانطلاقا من توقه إلى التعلم وغريزة حب المعرفة لديه، كان مولعا بقراءة المؤلفات والاطلاع على كتب التاريخ بشغف، لكن رسائل الحب لطالما ساد فيها السعي إلى القيادة والسيطرة للتغلب على الأعداء والثأر للإهمال واللامبالاة. هو الصبور والهادئ والمتواضع، قد يصبح مفعمًا بالغرور والتباهي، ورقيق الإحساس، ويتفجر الشر والإثم فيه بعد وقت وجيز.

هو المنغمس في ثقافة الشرف والوفاء الجورجي، كان واقعيًا شجاعًا، ومتهكمًا متشائمًا، والسفاح الذي لا يرحم بامتياز: فهو الذي أعد الفريق البولشفي للسطو على المصرف وعمليات الاغتيالات، وقد أداره من بعيد كرئيس مافيا. لقد نمَّى داخله روح الفلاحين القاسية الفلاح، وهي ملامح أبعدت عنه الرفاق، لكنها أخفت، بشكل أفاده بشكل كبير، الهدايا المصقولة من الأخصام المتنفجين.

هو الذي تجمعه السعادة الزوجية بكاتو، اختار حياة التجوال المتحجرة القلب، التي اعتبر أنها تحرره من الأخلاق أو المسؤولية الطبيعية، ومن الحب بذاته. وفي حين كتب عن حب العظمة وتقديس الذات لدى الآخرين، لم يدرك سعيه الذاتي نحو السلطة. استمتع بالسرية. عندما يطرق باب الأصدقاء ويسألون عمن خلف الباب، كان يجيب بهزء استثنائي: «الرجل بالرمادي».

من أوائل الثوريين المحترفين. كان باطن الأرض مسكنه

الطبيعي، يتحرك من خلاله بمكر، وتهديد. «الرجل بالرمادي»، المتطرف والمتآمر فطريًا، هو مؤمن صادق، «ماركسي أصولي منذ شبابه». وقد تفتحت براعم الطقوس العنيفة لكوكب ستالين السري من التآمر القوقازي في ما بعد، في الثقافة الحاكمة الخاصة بالاتحاد السوفياتي[13] ذاته.

«شرّع ستالين الباب أمام عصر السرقة»، بحسب ما كتب أحد المخططين للسطو على المصرف، صديق مسقط رأسه، جوزيف دافريشوي[14]. كنا نعتبر أن ستالين ينظم العمليات، لكنه لم يشارك فيها شخصيًا قط. قد يصح ذلك في ذاك اليوم في العام 1907، لكننا نعي جيدًا اليوم، أن ستالين نفسه، الذي غالبًا ما يحمل مسدس الموسر، اشترك مباشرة في عمليات سرقة[15] أخرى.

كانت عيناه شاخصتين دائما إلى الجائزة الاستثنائية، وعلم بأن أفضل عمليات السطو على المصارف غالبًا ما تتم داخل العمل. وفي هذه المناسبة، كان لديه «شخصان في الداخل» عميلين لصالحه. أولًا، أعدَّ بصبر، مأمور مصرف مفيدًا. ثم التقى صديق الدراسة الذي صادف أنه يعمل لمكتب البريد المصرفي. وهيّأه ستالين لأشهر حتى قدّم معلومات سرية تفيد أن مبلغًا كبيرًا من المال - ربما مليون روبل - سيصل إلى تيفليس في 13 حزيران/ يونيو 1907.

كشف لاحقًا هذا «الرجل الأساسي من الداخل»، أنه ساعد على إعداد هذه السرقة الكبرى، نظرًا إلى إعجابه الكبير بأشعار ستالين

الرومانسية. وحده في جورجيا، يساعد ستالينُ الشاعر، ستالينَ المجرم[16].

* * *

سُمع وقع الجواد الجاري والعربة والغنيمة في الساحة. نال الهلع من بعض أعضاء العصابة، لكن تحرك ثلاثة رجال مسلحين بسرعة مذهلة. حافظ باشوا كوبرياشفيلي على رباطة جأشه، وسارع إلى الجواد. كان قريبًا جدًا منه، بحيث يخاطر بسلامته، لكنه رمى «رمانة» أخرى تحت بطن الجواد، فمزّق أحشاءه وساقيه. طار باشوا في الجو ووقع على الحصى فاقدًا الوعي.

مالت العربات إلى التوقف. كان باشوا عاجزًا، لكن داتيكو شيبرياشفيلي رمى بنفسه على الحافلة وسحب أكياس المال، وظل ممسكًا بقبضته عليها. ترنّح في الدخان المتصاعد نحو شارع فاليامينوف. غير أن العصابة كانت تعيش لحظات عصيبة من الفوضى. لم يستطع داتيكو أن يسير بعيدًا وهو يحمل وزن الأذونات المصرفية: لا بد من تسليمها... لكن، إلى من؟

انشق الخان الجارف وكشف عن مجزرة تليق بساحة المعركة الصغيرة. وما زال الهواء يحمل أصداء الصراخ والطلقات، بينما تسيل الدماء على الحصى التي اختلطت مع رفات الموتى. بدأ القوزاقيون والجنود ينظرون بحذر بحثًا عن أسلحتهم. كانت التعزيزات في طريقها إليهم عبر المدينة. وكتب باشوا كوبرياشفيلي «كان كل الرفاق على مستوى الحدث، ما خلا ثلاثة

خانتهم أعصابهم وهربوا مسرعين». لكن داتيكو، وجد نفسه للحظة وحيدًا. فتردد وضاع. بات نجاح الخطة معلّقًا في الهواء.

* * *

هل رمى ستالين حقا بالقنبلة الأولى من سطح منزل الأمير سومباتوف؟ المصدر الآخر، ب. أ. بافلينكو، وهو أحد الكتّاب المختصين بالحيوانات الأليفة، التابع للديكتاتور، ادعى أن ستالين قد هاجم العربة بنفسه وأصابته شظايا القنبلة. بيد أن ذلك يبدو غير مرجح[17]. غالبًا ما جعل ستالين «نفسه بمنأى» عن الغير في كل المسائل، لدواع أمنية، ولأنه لطالما اعتبر نفسه مميزًا[18].

في العشرينيات، وفقًا للمصادر الجورجية، ادعى كامو، وهو تحت تأثير السُّكْر، أن ستالين لم يشارك، لكنه شاهد السرقة، وهو تقرير أكده آخرون. وكتب مصدر مسؤول مرتبط بالشرطة، أن ستالين «شاهد سفك الدماء الذي لا يرحم، وهو يدخّن سيجارته، من ساحة دار قصر»، وفق غولوفينسكي. ربما كان «القصر» حقًّا للأمير سومباتوف[19].

غصّت محال السمانة والحانات ومحلات تصليح الأحذية وتصفيف الشعر ومحلات الخردة في البولفار، بمخبري أوخرانا.

وكان ستالين، السيد السري الذي تخصص في الظهور والاختفاء المفاجئين، معظم الوقت خارج الطريق قبل بدء إطلاق الرصاص. والحقيقة أن أكثر المصادر اطلاعًا، يشير إلى وجوده

في محطة سكك الحديد في ذاك النهار [20].

يستطيع هنا أن يتواصل بسهولة مع شبكته، من البوابين وأولاد الشوارع في ساحة يريفان. وإذا جاء هؤلاء المراوغون الماكرون بأخبار سيئة، يصعد على متن قطار ويختفي.

* * *

كانت السرقة تشارف على الانهيار، حينما امتطى القائد كامو مركبة الفيتون بسرعة جنونية إلى الساحة، حاملًا العنان بيد، ويطلق النار من مسدس الموسر باليد الأخرى، كراعي البقر في فيلم وسترن أميركي. وهو غاضب لفشل الخطة، يشتم بأعلى صوته «كقائد حقيقي»، أدار عربته مرارًا وتكرارًا، لإعادة أخذ زمام الامور بيده فعليًا في الساحة، ثم بدأ يعدو نحو داتيكو، وانحنى، بمساعدة إحدى الفتيات المسلّحات، وسحب أكياس الصرة إلى الفيتون. أدار العربة بتهوّر، وعاد أدراجه إلى البولفار متجاوزًا قصر فايسروي، الذي كان يعج كالقفير، بينما تجمعت الجيوش، وسرج القوزاقيون الأحصنة، وأرسلت الأوامر بإمدادهم بالتعزيزات.

لاحظ كامو عربة فيتون تابعة للشرطة تخب على طول الجهة المقابلة، وفيها أ. ج. بالابانسكي، نائب رئيس الشرطة. صرخ كامو «المال بأمان. انطلق نحو الساحة».

ذهب بالانسكي إلى الساحة، لكنه لم يدرك الخطأ الذي ارتكبه سوى في اليوم التالي. فقد انتحر.

ذهب كامو مباشرة إلى شارع فتورايا غونشارنايا وإلى باحة متجر نجّار وراء منزل تمتلكه سيدة عجوز تدعى باربارا («بيب») بوشوريدزي. أمضى هنا ستالين، مع نجل بيب، ميخا، عدة ليال على مر السنين. وهنا خطط للسرقة. كان عنوانًا تعرفه جيدًا الشرطة المحلية، لكن أفراد العصابة حرضوا ضابطًا في الدرك، هو القائد زوبوف، الذي أُدين في ما بعد لأخذه الرشى، وحتى المساعدة على إخفاء ما نُهب. سلّم كامو الخائر القوى المال، وغيّر لباسه، وسكب دلوًا من المياه على رأسه الشديد القيظ.

* * *

دوّى صدى الصدمة «المشهدية» التي تسبب فيها ستالين، في كافة أصقاع العالم. وفي لندن، أعلنت «ديلي ميرور» «وابل من القنابل: أطلق الثوار الدمار بين جمع غفير من الناس: أطلقت حوالي عشر قنابل اليوم، الواحدة تلو الأخرى، في الساحة في وسط المدينة، التي تغص بالناس. انفجرت القنابل بقوة عارمة، وأودت بحياة العديد...». وأسمت ذلك صحيفة «التايمز» «اعتداءً بالقنابل على تيفليس». وكانت صحيفة «لو ماتان» الباريسية أكثر اختصارًا، وتعبيرًا، بقولها: «الكارثة!».

كانت تيفليس في حالة اضطراب: الفايسروي القوقازي المدهش عادة، الكونت فورونتسوف - داشكوف، الذي يتحدث بصخب عن «غطرسة الإرهابيين». أعلنت إيساري أن «الإدارة والجيش معبآن». «أطلقت الشرطة والدوريات أعمال بحث في المدينة،

وألقي القبض على العديدين...». تم الهجوم على بطرسبرغ. وأمرت القوى الأمنية بايجاد المال واللصوص. وأُرسل تحرّ خاص وفريقه لترؤس أعمال تقصي الحقائق. أُقفلت الطرقات، وطوّقت ساحة يريفان، في حين جمع القوزاقيون والدرك المشتبه فيهم عادة. ضرب كل مخبر وعميل مزدوج للحصول على المعلومات، وأقر حكمًا بخليط من القصص، التي لم يؤدِّ أي منها إلى وضع اليد فعليًا على المجرمين الحقيقيين.

تُركت عشرون ألف روبل في العربة. وسائق العربة الذي نجا من الموت، اعتبر أن الحظ حالفه، وسرق 9.500 روبل، لكنه أُوقف لاحقا وهو يحملها: ولم يكن لديه أي معلومات حول عصابة ستالين وكامو. أسلمت امرأة ثرثارة نفسها على أنها ممن سطوا على المصرف، لكن اتضح أنها مجنونة.

لم يستطع أحد أن يقدّر عدد اللصوص: ظن الشهود أن هنالك خمسين من أعضاء العصابات يلقون بالقنابل من على أسطح المنازل، إذا لم نقل من الجبل المقدّس. لم ير أحدهم كامو يأخذ الغنيمة المسروقة. سمع أوخرانا بقصص من كل أرجاء روسيا، تفيد أن السرقة، رتّبتها الدولة بنفسها، عبر الاشتراكيين البولنديين، أو الثوار من روستوف، أو الأرمن الطاشناق، أو الاشتراكيين الثوار.

لم يُلقَ القبض على أي من أفراد العصابة. حتى أن كوبرياشفيلي استعاد وعيه في الوقت المناسب كي يهرب من الورطة. وفي أعقاب الفوضى، ذهبوا في كل الاتجاهات، وضاعوا بين الجموع.

وتسلل أحدهم، وهو أليسو لومينادزي، الذي كان يغطي زاوية في الشارع مع ألكسندرا، إلى مؤتمر للمعلمين، وسرق بزة المعلم، وعاد يتجول بلامبالاة في الساحة ليتنعّم بما أنجزته يداه. قالت ألكسندرا داراخفيلدزي إن «الكل نجا من الحادثة»، في إملاء مذكراتها في العام 1959. في ذلك الحين، كان العضو الوحيد في العصابة ذات المصير المشؤوم، لا يزال على قيد الحياة.

أصيب خمسون شخصًا بجروح في الساحة. كانت جثث ثلاثة قوزاقيين والمسؤولين في المصرف وبعض المارين الأبرياء، أشلاء ممزقة. أبقت الصحيفة الخاضعة للرقابة عدد الضحايا منخفضًا، لكن أرشيفات أوخرانا كشفت أن حوالي أربعين شخصًا لقوا مصرعهم في ذلك اليوم. ووُضعت مراكز الإسعاف للجرحى في المتاجر المجاورة. ونُقل أربعة وعشرون شخصًا، إصاباتهم بليغة، إلى المستشفى. وبعد ساعة، رأى المارون التقدم الجنائزي لعربة الغول التي تحمل القتلى وأشلاء جثثهم نزولًا في اتجاه غولوفنسكي، كالطائر من المشرحة[21].

* * *

لم يكن بنك الدولة بذاته أكيدًا، إذا خسر 250.000 روبل أم 34 روبل، أم أي رقم بين الاثنين. لكن الاكيد أن المبلغ كان طائلًا بقيمة تقارب 1.7 مليون جنيه استرليني (3.4 ملايين دولار أميركي) في عملة اليوم على الرغم من أن قدرتها الشرائية الفعلية كانت أعلى بكثير.

خبّأ بوشوريدزي وزوجته مارو، وهي امرأة أخرى شاركت في عملية السطو، المال في حشية. أحصى باتسيا غولدافا المال المنقول، ودعا بعض أولاد الشوارع التابعين لستالين إلى حملها، وأشرف على نقلها إلى منزل آمن آخر بعد نهر كورا. ثم وضعت الحشية في سرير مدير المرصد الجوي في تيفليس، حيث عاش ستالين وعمل بعد ترك معهد اللاهوت. وكان آخر عمل لستالين قبل أن يغوص في دهاليز التآمر، والحقيقة وظيفته الأخيرة قبل أن ينضم إلى حكومة لينين السوفياتية في تشرين الأول/أكتوبر 191. ولاحقًا، أقر مدير هذا المركز الجوي، أنه لم يعلم قط ما هي الثروة الكامنة تحت رأسه.

تدعي عدة مصادر أن ستالين نفسه ساعد على تعبئة النقود في المرصد. لو بدا الامر أشبه بالأسطورة إلا أنه جيد: يشير ذلك إلى أنه غالبًا ما كان يتعامل مع الأموال المسروقة، ويحمل المسدسات عبر الجبال على ظهور الدواب مصحوبًا بالنقود المتأتية من السطو على المصارف وأعمال القرصنة.

والمثير للدهشة أن ستالين شعر بالأمان في تلك الليلة ليذهب إلى منزل كاتو ويتباهى بإنجازاته أمام عائلته: صبيانه أنجزوا المهمة[22]. يستطيع أن يتباهى. المال في أمان في حشية رجل مرصد الجو، وستصل قريبا إلى يدي لينين. لم يشتبه أحد في ستالين أو كامو. هُرّبت الغنيمة إلى الخارج. غُسلت بعض الأموال من خلال مصرف كريدي ليونيه. ولاحقت الشرطة في العشرات من الدول النقود وأفراد العصابة طوال أشهر، من دون جدوى.

كان ستالين ليومين بعد السرقة - ويقال إنه لم يُشتبه في علاقته بالسرقة-، في أمان، بحيث يحتسي المشروب بغير همّ في الحانات على طول النهر، لكن لم يدم على هذه الحال لفترة طويلة. إذ أخبر زوجته فجأة بأنهم سيغادرون المكان إلى الأبد للبدء بحياة جديدة في باكو، المدينة التي تنعم بطفرة النفط فيها، في الجهة الأخرى من القوقاز.

كتبت صحيفة «نوفوي فريميا» («نيو تايمز» في تيفليس) «إبليس يعلم كيف تمت هذه السرقة الفريدة بجرأتها». لقد أنجز ستالين برغم الصعاب، أكبر الجرائم.

* * *

بدا أن سرقة تيفليس بعيدة كل البعد عن الكمال. والحقيقة أنها أصبحت كأسًا سامة. لم يعش ستالين لاحقًا في تيفليس أو جورجيا من جديد. وكان مصير كامو غريبًا عجيبًا، إلى درجة تشبه الجنون. مثّل السعي إلى النقود - التي اتضح أن بعضها هو سندات مصرفية - أنه ورطة، لكن حتى هذه التغيرات المدهشة كانت بعيدة عن نهاية الأمر بالنسبة إلى ستالين. كان نجاح السرقة أشبه بكارثة تقريبا بالنسبة إليه. وأمست شهرة السرقة العالمية سلاحًا فتاكًا ضد لينين وستالين شخصيًا.

تشاجر أفراد العصابة على اقتسام الغنيمة. تعارك لينين ورفاقه على امتلاك النقود كالفئران في القفص. وأمضى أعداؤه الأعوام الثلاثة التالية بإطلاق ثلاث عمليات تقصي حقائق منفصلة عن الحزب، أملًا في تدميره. طرد ستالين، بيرسونا نون غراتا في

جورجيا، الموصوم بالاستهزاء الوقح بقواعد الحزب وهذه المجزرة الطائشة، من الحزب، وجعل القرار يأتي موقّعًا من قبل لجنة تيفليس. كانت هذه الخطوة وصمة قد تطيح بمراهنته على خلافة لينين، وتفسد طموحه إلى أن يصبح رجل الدولة الروسي وأبا الماركسية الأول. الأمر حساس جدًا، إلى درجة أن ستالين قدّم في العام 1918 دعوى تشهير لقمع القصة[23]. بقيت مسيرته كأب للعصابات، والساطي على المصارف الجريء، والقاتل، والقرصان، ومحرق المباني عمدًا - التي تحدثت بها الألسن همسًا في المنزل، واستمتع بها أكثر النقاد في الخارج - مخفية حتى القرن الحادي والعشرين.

بتعبير آخر، هو دبّر مشهد تيفليس الملحمي. أثبت ستالين نفسه الآن للرئيس، ليس كسياسي موهوب فحسب، بل كرجل فاعل وحازم لا يرحم أيضًا. لقد قرر لينين، في النهاية، أن ستالين «هو تحديدًا الشخص الذي أحتاج إليه».

اختفى ستالين وزوجته وطفله من تيفليس بعد يومين، لكن بعيدًا عن السرقة الأخيرة. هنالك عالمان يجب اجتياحهما: باكو، أكبر مدينة نفطية في العالم، وسان بطرسبرغ العاصمة، وروسيا الكبرى بذاتها. الحقيقة أن ستالين، الطفل الجورجي الذي نما على قساوة العنف، وفي شوارع العصابات في مدينة صاخبة، كانت عاصمة السطو على المصارف في الامبراطورية، خطا خطوة، للمرة الأولى، في اتجاه صناعة التاريخ الروسي. ولم ينظر إلى الوراء بعدها.

لكنه كان يعيش عشية مأساة شخصية ساعدت على تحويل هذا الأناني المجرم إلى سياسي عظيم لا تعلو أي جائزة أو تحدّ أو كلفة في الحياة البشرية، على تحقيق طموحاته الشخصية وأحلامه الجامحة[24].

الجزء الأول

الصباح تفتّحت براعم

الوردة تمدّدت تلامس

البنفسجة استفاقت الزنبقة

وأحنت رأسها في الهواء

في السحاب عصفورة

شَدَتْ ألحان البهجة وعندليبُ

الفرحة جاد بأبيات رقيقة.

أَزهري يا أرضيَ الحبيبة

افرحي يا أرض الأفيرية

ادرسوا يا أهل جورجيا

وانشروا في الوطن السعادة.

سوسيلو (جوزيف ستالين)

(1)

أعجوبة كيكي: سوسو

في 17 أيار/مايو 1872، اقترن الرجل الإسكافي اليافع والوسيم، مثال الرجل الجورجي، فيساريون («بيسو») دجوغاشفيلي، البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، بإكاترينا («كيكي») جيلادزي، البالغة من العمر سبعة عشر عامًا، وهي فتاة جذابة يزين بشرتها نمش جميل، وتزدان بشعر أسود اللون، في كنيسة أوسبانسكي في بلدة غوري[25] الجورجية الصغيرة.

زار صانع الزيجات منزل كيكي ليخبرها عن بيسو الإسكافي: كان حِرَفيًا مرموقًا، يعمل في مشغل باراموف الصغير. شاب لا يعيبه عيب، ولا ينقصه شيء. تقول كيكي عن بيسو في المذكرات [[26]] المكتشفة حديثًا، «يُعتبر شابًا ذا شعبية واسعة بين صديقاتي اللواتي كن جميعًا يحلمن بالزواج به. وكادت صديقتي تنفجر لشدة الغيرة. كان بيسو عريسا محسودًا، «كاراشوغيلي» حقيقيا (فارسا جورجيا)، مع شاربين جميلين، وحسن الهندام، مع الأناقة التي تميز ابن البلدة». ولم تكن كيكي تشك أبدًا في أنها أيضا، «لقطة»، كما يقال: «بين صديقاتي، أصبحت الفتاة المرغوبة والجميلة». قيل عنها أيضا «لنحافتها وشعرها الكستنائي»، إنها حقًا «فاتنة جدًا».

عُقد القران، وفق التقليد، مباشرة بعد مغيب الشمس. كانت الحياة

الاجتماعية الجورجية، بحسب المؤرخين، «تحمل طقوسًا كثيرة تمامًا كالسلوك الإنكليزي الفيكتوري». احتُفل بالزفاف في عرس فولكلوري، يشبه بلدة غوري الجامحة. تتذكر كيكي «كان ساحرًا جدًا». كان الضيوف الذكور «كاراشوغيلي» حقيقيين، «مرحين وجريئين وكرماء»، يرتدون الشوكا السوداء الفاتنة، «وذوي منكبين عريضين وخصر نحيف». كان أفضل الرجال لدى بيسو، ياكوف («كوبا») أغناتاشفيلي، وهو مصارع قوي البنية، وتاجر غني وبطل محلي، «حاول دائمًا مساعدتنا على خلق أسرتنا»، كما تقول كيكي.

التقى العريس وأصدقاؤه لشرب الأنخاب في منزله، قبل التجوّل في موكب في الشوارع للقاء كيكي وأسرتها، ثم توجّه العروسان إلى الكنيسة معًا في فيتون العرس المزيّن والملوّن، والأجراس تُقرَع والأعلام ترفرف. وفي الكنيسة، اجتمع الخورس في الرواق، وتحتهم، وقف الرجال والنساء، كل على حدة، بين الشموع المشتعلة بصورة متقطعة. وتفتحت حناجر المنشدين بالألحان الجورجية المتعالية والإيقاعية التي ترافقها آلة النفخ الموسيقية الجورجية، الزورنا، كمزمار البربري. دخلت العروس مع إشبيناتها، يتناقلن بحذر لئلا يدسن على ذيل الفستان، وهو نذير شؤم. وترأس الأب خاخانوف، الأرمني، الحفل، وسجّل الأب كاسرادزي الزواج، ورتّل الأب كريستوفر شاركفياني، صديق العائلة، بشكل متقن إلى درجة أن ياكوف أغناتاشفيلي «منحه بقشيشًا كريمًا بقيمة 10 روبلات». وليس هذا مبلغًا عاديًا.

ثم ترأس أصدقاء بيسو الأغاني التقليدية واستعراض الرقص عبر

الشوارع، وهم يلعبون الدودوكي، المزامير الطويلة، إلى السوبرا، الوليمة الجورجية التي يتصدرها التامادا، مقدّم النكات والحكم.

كانت الخدمة والأغاني باللغة الجورجية الفريدة، وليس الروسية لأن جورجيا كانت قد انضمت حديثًا إلى امبراطورية رومانوف. وطوال آلاف الأعوام، كانت امبراطورية ساكارتفيلو (جورجيا بالنسبة إلى الغرب، وغروزيا بالنسبة إلى الروس)، الخاضعة لحكم سليل سلالة باغراتيوني، حصنًا مسيحيًا مستقلًا، وذات قيمة فروسية في وجه المغول المسلمين والتيموريد والامبراطوريتين العثمانية والفارسية. وكانت ذروتها في ظل امبراطورية الملكة تامارا في القرن الثاني عشر، التي أصبحت سرمدية بالملحمة الوطنية، «الفارس في جلد النمر»، لروستافيلي. وعلى مر العصور، تمزّقت المملكة إلى إمارات متخاصمة. وفي العامين 180 و1810، ضم القيصران بول وألكسندر الأول الإمارات إلى امبراطوريتهما. وكان الروس أنجزوا للتو الاجتياح العسكري للقوقاز مع استسلام الإمام شاميل ومحاربيه الشيشان في العام 18 بعد حرب دامت ثلاثين عامًا، واستُعيدت أدجاريا، آخر شريحة من جورجيا، في العام 1878. وحتى أكثر الجورجيين أرستقراطية، الذين خدموا في محاكم الامبراطور في سان بطرسبرغ، أو في فايسروي في تيفليس، حلموا بالاستقلال. وبالتالي، افتخرت كيكي باتباع التقاليد الجورجية للرجولية والزواج.

تأملت كيكي قائلة «بدا بيسو رجلًا من عائلة طيبة... مؤمنًا بالله ويذهب دائمًا إلى الكنيسة». وكان أهل العروس والعريس من

عبيد أرض الأمراء المحليين، المحررين في الستينيات من قبل القيصر - المحرّر، ألكسندر الثاني. كان جد بيسو، زازا، أوسيتي[[27]] من قرية جيري، شمالي غوري[28]. وقد أصبح كستالين، حفيده العظيم، ثائرًا جورجيًا: في العام 1804، انضم إلى سطوع نجم الأمير إيليزبار إيريستافي ضد روسيا. وقطن لاحقًا مع «أوسيتيين معمّدين»، آخرين في قرية ديدي - ليلو، على بعد 9 أميال من تيفليس، كعبد الأرض لدى الأمير بادور ماشابيلي. كان نجل زازا، فانو، يهتم بكروم الأمير، ولديه ولدان، جورجي، الذي قتله اللصوص، وبيسو، الذي حصل على عمل في تيفليس في معمل الأحذية الذي يملكه ج. ج. أديلخانوف، لكن رأسه كان محتزًا من قبل الأرمني جوزيف باراموف لصنع الأحذية للعسكر الروس في غوري[29]. لاحظ بيسو الصغير هناك «الفتاة الفاتنة والأنيقة الملبس ذات الشعر الكستنائي اللون والعينين الجميلتين».

كانت كيكي أيضًا جديدة في غوري، كريمة غلاخو جيلادزي، وهو فلاح عبد يعمل لدى نبيل محلي، يدعى الأمير أميلخفاري. عمل والدها كخزّاف قبل أن يصبح بستانيًا لدى أرمني ثري، هو زاخر غامباروف، الذي يملك حدائق جميلة في غامبارولي في ضواحي غوري. توفي والدها وهي صغيرة، فربّتها عائلة والدتها. تتذكر حماسة الانتقال إلى غوري غير الجامحة: «يا لهذه السعادة التي غمرتنا في هذه الرحلة! كانت غوري مزينة بشكل احتفالي، والناس يسيرون كالأمواج. الاستعراض العسكري أبهر

أعيننا. وكانت الموسيقى تدوّي في الأرجاء، في حين كانت تلعب السازانداري (فرقة من أربع آلات نقر وآلات نفخ) والدودوكي الجميل، والجميع يغنّي»[30].

كان زوجها الشاب ذا وجه صغير وقاتم وحاجبين وشاربين سوداوين، يرتدي دائما سترة جركسية سوداء، مربوطة بحزام مشدود وقبعة محددة وسروال فضفاض مثبّت تحت حذاء عال. كان بيسو «غير اعتيادي وغريب الأطوار ونكد المزاج»، لكنه أيضا «مجتهد وفخور»، يستطيع النطق بأربع لغات (الجورجية والروسية والتركية والأرمنية)، ويقتبس من «الفارس في جلد ا ل ن م ر » Knight in the Panther Skin[31].

ازدهر دجوغاشفيلي. كانت عدة بيوت في غوري تعاني الفقر الشديد، ومصنوعة من الطين، ومحفورة من الأرض. لكن بالنسبة إلى زوجة الرجل الإسكافي الذي لا يهدأ عمله، بيسو، لا خشية من هذا الفقر. أعلنت كيكي «سعادة عائلتنا لامحدودة».

ترك بيسو باراموف لفتح معمله الخاص، بدعم من أصدقائه، تحديدًا رئيسه أغناتاشفيلي، الذي جلب له «أدوات الآلة». أصبحت كيكي بسرعة حاملًا. «يحسد العديد من الأزواج سعادة عائلتنا». والحقيقة أن زواجها من بيسو محط الأنظار، ظل يدعو إلى الغيرة بين مواطناتها: «لا تتوقف الألسن الشريرة عن الكلام حتى بعد الزواج». ومن المثير للاهتمام أن كيكي تشدد على هذه

الثرثرة: ربما توقّع شخص آخر الزواج ببيسو. وسواء أسرقته كيكي من خطيبة أخرى، أم لا، فقد ذكرت «الألسن الشريرة»، لاحقا، أن أفضل رجل، أغناتاشفيلي، والكاهن شاركفياني، والضابط في شرطة غوري داميان دافريشوي، ومجموعة من المشاهير والأرستقراطيين، بدأوا بالثرثرة في بداية الزفاف.

* * *

بعد حوالي تسعة أشهر من الزفاف، في 14 شباط/فبراير 1875، «تكلّلت سعادتنا بولادة ابننا. ساعدنا ياكوف أغناتاشفيلي كثيرًا». كان أغناتاشفيلي العرّاب «وقام بيسو بحفلة عماد كبرى، وجنّ بيسو من شدة الفرح». لكن بعد شهرين، توفي الطفل الصغير، الذي يدعى ميخائيل، «فتحوّلت فرحتنا إلى حزن شديد. وبدأ بيسو يعاقر الخمر بسبب الأسى». حملت كيكي من جديد. وولد طفل آخر، هو جيورجي، في 24 كانون الأول/ديسمبر 1876. فوقف أغناتاشفيلي عرّابًا من جديد، لكن لسوء الحظ توفي الطفل بالحصبة في حزيران/يونيو 1877.

«تفتتت سعادتنا أشلاء أشلاء». أمسى بيسو مهووسًا بالأسى، ولام مقام «أيقونة جيري»، في قريته الأم. لجأ الزوجان إلى الأيقونة طلبًا لحياة طفلهما. بدأت والدة كيكي، ميلانيا، بزيارة العرّافات، وتابع بيسو عادة الشرب. جلبت أيقونة القديس جاورجيوس إلى البيت، وتسلّقا جبل غوريجفاري. صعدا إلى المدينة، للصلاة في الكنيسة المحاذية للقلعة من القرون الوسطى. حملت كيكي للمرة الثالثة، وأقسمت إنه، إذا ظل الطفل على قيد

الحياة، فستحج إلى جيري لشكر الله على أعجوبة القديس جاورجيوس[32] وفي 6 كانون الأول/ديسمبر 1878، ولدت طفلها الثالث[33].

«سرّعنا العمادة لئلا يموت، وهو غير مسيحي بعد». اهتمّت به كيكي في البيت الصغير المؤلف من طابق واحد من غرفتين ضيّقتين تحتويان على القليل من الأغراض باستثناء السماور والسرير والأريكة والطاولة ولمبة الكيروسين. يمكن تقريبًا وضع كل ممتلكات العائلة في صندوق سيارة صغير. تؤدي السلالم اللولبية الشكل إلى القبو برائحة المسك مع ثلاثة محرابات: محراب لأدوات بيسو، ومحراب لعدة الخياطة لكيكي، ومحراب للتدفئة. هنا تتولى كيكي العناية بسرير الطفل. كانت العائلة تعيش على الطعام الجورجي الأساسي: حبوب اللوبيو وباذنجان بادريدجاني والخبز السميك، لافاشي. ونادرًا فقط ما كان أفرادها يأكلون المتسفادي، أي الشاشليك الجورجي.

في 17 كانون الأول/ديسمبر، تمت عمادة الطفل، المعروف باسم سوسو: الطفل الذي أصبح ستالين. كان سوسو «ضعيفًا ورقيقًا ورفيعًا»، كما تقول والدته. «إذا كان من حشرة، فمؤكد أنه يلتقطها أولًا». وكانت الإصبعان الثانية والثالثة من قدمه اليسرى، متشابكتين.

قرر بيسو ألا يطلب من المحسن للعائلة، أغناتاشفيلي، أن يكون العرّاب. قال بيسو «تفتقد يد ياكوف النعمة»، لكن حتى لو فات

التاجر مراسم الكنيسة، كان ستالين ووالدته يدعوانه دائمًا «العرّاب ياكوف».

ذكّرت والدة كيكي بيسو بأنهما أقسما على الحج إلى الكنيسة في جيري إذا بقي الطفل على قيد الحياة. فأجاب بيسو «فليبقَ الطفل على قيد الحياة وسأذهب زحفًا على ركبتي إلى جيري والطفل على ذراعي!». لكنه أخّر الزيارة إلى أن أصيب الطفل بالمرض من جديد، ما صدمه إلى درجة الابتهال: سافرا إلى جيري، «واجها الكثير من الضيق والشدة في الطريق. قدّما خروفًا وطلبا خدمة الشكر هناك». لكن كهنة جيري كانوا يقومون برقية، يحملون طفلة صغيرة على جرف لإخراج الأرواح الشريرة منها. «ذعر طفل كيكي وبدأ بالصراخ»، فعادا به أدراجهما إلى غوري، حيث «كان ستالين الصغير يرتعد ويهذي حتى في رقاده»، لكنه بقي على قيد الحياة، وأصبح الكنز الأعز في قلب والدته.

«لم يكن لدى كيكي ما يكفي من الحليب»، فكانت تشارك طفلها الرضاعة من زوجتي تسيخاتاتريشفيلي (عرّابه الرسمي) وأغناتاشفيلي. يقول ألكسندر تسيخاتاتريشفيلي «في البداية، لم يقبل الطفل حليب والدتي، لكنه أحبّه تدريجيًا شرط أن يغطي عينيه لئلا يرى والدتي». وكونه تشارك مع أولاد أغناتاشفيلي في الحليب، فقد أصبحوا «إخوة بالحليب لسوسو»، بحسب غالينا دجوغاشفيلي، حفيدة ستالين.

بدأ سوسو الكلام في سن مبكرة. أحب الأزهار والموسيقى،

خاصة عندما كان شقيقا كيكي، جيو وساندالا، يلعبان على مزامير الدودوكي. يحب الجورجيون الغناء، ولم يفقد ستالين قطُّ فرح البحث عن الألحان الجورجية[34]. في حياته اللاحقة، يتذكر سماع «غناء الرجال الجورجيين في طريقهم إلى السوق»[35].

كان عمل بيسو الصغير مزدهرًا: يستخدم الصبيان الممتهنين وعشرة موظفين. ويتذكّر أحد الصبيان الممتهنين، داتو غاسيتاشفيلي، الذي أحب سوسو وساعد على تربيته، تفوق بيسو على أقرانه: «عاش أفضل من أي شخص آخر من مهنتنا. كان لديهم دائمًا زبدة في منزلهم». وانتشرت لاحقًا الشائعات حول هذه الحياة «الرغيدة»، ما أحرج بطل البروليتاريا. يقر ستالين «أنا لست ابن عامل، كان لوالدي معمل أحذية، يستخدم الصبيان الممتهنين، صاحب العمل.

لم نعش قط في ضِيق». وخلال هذه الفترة السعيدة، أصبحت كيكي صديقة ماريا، بينما أصبح نجل أرشاك تيربيتروسيان، وهو مقاول عسكري أرمني، ويُدعى سيمون، مدانًا ومعروفًا بكامو[36] الساطي على المصرف.

كانت كيكي تعبد طفلها. «في عمر متقدّم، كنت لا ازال أستطيع رؤية خطواته الأولى. علّمته هي ووالدتها أن يمضي باستغلال حبه للأزهار: كانت كيكي تحمل زهرة البابونج، ويركض سوسو ليقبض عليها. أخذته مرة إلى زفاف، لاحظ زهرة في حجاب العروس فانتزعها. قالت له كيكي أن يفلتها، لكن العرّاب

أغناتاشفيلي المحبّ «قبّل الطفل ولاطفه، قائلًا: إذا كنت من الآن تريد سرقة العروس، فالله أعلم ماذا ستفعل عندما تكبر».

بدت نجاة سوسو عجائبية بالنسبة إلى الوالدة الممتنّة. «كم كانت سعادتنا عارمة، كم كنا نضحك!»، تتذكر كيكي. وحرّك التبجيل الذي خصّت به سوسو، فيه حس التميّز: القول المأثور لفرويد إن تفاني الأم جعله يشعر بأنه الفاتح، صحيح بلا شك. «سوسيلو»، كما كانت تحب أن تناديه، كبر وهو مفرط الحساسية، لكنه أظهر أيضًا ثقة كبيرة بالنفس في سن مبكرة.

لكن، في ذروة نجاح بيسو، عمّ الظلام: كان زبائنه يدفعون له جزئيًا بدلًا من النقود، الخمر الذي انتشر في جورجيا. كان العديد من العمال يتلقون الكحول بدلًا من النقود، فضلًا عن أنه قام ببعض الأعمال في زاوية دوخان (حانة)، ما شجّعه على الشرب كثيرًا. وصادق بيسو شريكًا يشرب الخمر أيضًا، وهو منفي سياسي روسي يدعي بوكا، محتمل أنه شعبي نارودنيك، أو راديكالي مرتبط بإرادة الشعب، من الثوار الذين كانوا يحاولون باستمرار في ذلك الوقت اغتيال الامبراطور ألكسندر الثاني. فترعرع ستالين وهو يعرف ثائرًا روسيًا. تقول كيكي «أصبح ولدي صديقه وجلب له بوكا خمر الكناري». لكن الروسي كان مدمنًا على الكحول وميؤوسًا منه يعيش في الأسمال البالية. وقد وُجد مرة في الشتاء، ميتًا على الثلج.

أيقن بيسو أنه «لا يستطيع التوقّف عن الشرب. دمّر فيه رجلٌ عائلةً صالحة»، كما تقول كيكي. وبدأ الإسراف في الشرب

يقضي على عمله: «بدأت يداه ترتجفان، ولم يعد يستطيع رتي الأحذية. وحدهم الصبيان أبقوا على العمل مستمرًا».

اتخذ بيسو، الذي لم يتعلّم شيئًا من وفاة بوكا، رفيقَ شرب جديدًا له، هو الكاهن شاركفياني. كانت جورجيا المحافظة، خاضعة لحكم الكهنة، لكن «رجال الله» هؤلاء يستسلمون لملذات الدنيا. عند الانتهاء من خدمة الكنيسة، يقضي الكهنة معظم أوقاتهم في معاقرة الخمر في حانات غوري حتى يعميهم السكر. يتذكّر ستالين في سن متقدمة: «حالما كان الكاهن شاركفياني ينهي خدمته، كان يأتي ويذهب الرجلان بسرعة إلى الدوخان»[[37]]. ويعودان إلى البيت وهما يتكئان على بعضهما البعض، يتعانقان و«يغنيان خارج الإيقاع»، ثملين تمامًا.

يتشدّق الكاهن: «أنت فتى جيد، بيسو، حتى كصانع أحذية».

يصفر بيسو «أنت كاهن، لكن يا لك من كاهن، أحبّك!». يتعانق السكّيران. توسّلت كيكي الأب شاركفياني ألا يأخذ بيسو معه للشرب. والتمست ووالدتها بيسو أن يتوقّف عن معاقرة الخمر. كذلك فعل أغناتاشفيلي، لكن لم يفلح... ربما بسبب الشائعات المنتشرة أصلًا في المدينة[38].

ربما كانت هذه «الألسن الشريرة» نفسها التي ذكرتها كيكي في الزفاف، مسؤولة، لأن جوزيف دافريشوي، نجل رئيس شرطة غوري، يدّعي في مذكراته أن «حدث الولادة كان محط ثرثرة في الجوار: إن الأب الحقيقي للطفل هو كوبا أغناتاشفيلي... أو والد

داميان دافريشواي». وهذا ما أغرق بيسو، الذي يسميه دافريشواي «القزم الغيّور المهووس»، أكثر في معاقرة الكحول[39].

* * *

خلال العام 1883، أصبح بيسو «سريع الغضب وشديد اللامبالاة»، وكان مستعدًا لأن يشترك في أي شجار وهو ثمل، وقد اكتسب لقب «بيسو المجنون».

يتطوّر النَّسَب الأبوي نسبة إلى سلطة الطفل وشهرته. عندما أصبح ستالين ديكتاتورًا سوفياتيًا، قالت الشائعات إن من آبائه المستكشف الشهير من آسيا الوسطى، نيكولاي برزهيفالسكي، الذي كان يشبه ستالين الراشد، ومر في غوري؛ وحتى الامبراطور المستقبلي ألكسندر الثالث شخصيًا، الذي زار تيفليس، ويفترض أنه بقي في القصر حيث كانت كيكي تعمل كخادمة. لكن المستكشف كان شاذًا جنسيًا، ولم يكن قرب جورجيا عندما حبلت بستالين، في حين لم تكن كيكي في تيفليس في الوقت نفسه كما تساريفيش.

يمكن ترك الأمور السخيفة جانبًا، والعودة إلى السؤال المحوري: من كان والد ستالين الحقيقي؟ كان أغناتاشفيلي حقيقة أبا العائلة، يواسي الزوجة ويرعى الابن.

كان متزوجًا وله أولاد، يعيش حياة رغد، ويملك عدة حانات مزدهرة، وهو تاجر نبيذ ناجح في بلاد تعوم اسميًا على النبيذ.

كما أن هذا الرياضي الضخم، صاحب الشاربين الطويلين، بطل في المصارعة في مدينة تبجّل الملاكمين. وكما سبق وذكرنا، كتبت كيكي بنفسها أنه «كان دائمًا يحاول مساعدتنا على تكوين عائلتنا»، وربما هذا يكشف جزءًا من القصة. يبدو من غير المرجّح أن تعني ذلك حرفيًا، أو تحاول أن تنقل إلينا معلومة؟

كان رئيس الشرطة دافريشوي، الذي ساعد كيكي عندما اشتكت من شرب زوجها الخمر غير المتّزن، والدًا محتملًا آخر: «بحسب ما أعلم، كان سوسو الابن الطبيعي لدافريشوي»، كما يؤكد صديق دافريشوي جورولي، رئيس بلدية المدينة. «كل شخص في غوري يعرف بعلاقته بوالدة سوسو الفاتنة».

قال ستالين مرة إن والده كاهن حقًا، ما يقودنا إلى المرجح الثالث، الأب شاركفياني. أغناتاشفيلي ودافريشوي وشاركفياني كلهم متزوجون، لكن في ثقافة جورجيا، يتوقّع من الرجال أن يحتفظوا بخليلات لهم، على غرار أخوتهم الإيطاليين. كان كهنة غوري مشهورين بفسقهم. وثلاثتهم شخصيات محلية بارزة، يستمتعون في مساعدة زوجة شابة حسناء وجدت حياتها في مأزق[40].

أما بالنسبة إلى كيكي نفسها، فلطالما صعبت مطابقة المرأة المسنة التقية بتسريحتها الرهبانية السوداء في الثلاثينيات، مع الشابة اليافعة الجامحة في ثمانينيات القرن السابق. لا شك في ورعها، لكن الالتزام الديني لا ينفي خطايا الجسد. من المؤكد أنها كانت تفتخر بكونها «الفتاة المرغوبة والجميلة». وهنالك أدلة على أنها كانت أكثر دنيوية مما بدت عليه. وكامرأة مسنة، كان يُفترض أن

كيكي شجّعت نينا بيريا، زوجة لافرنتي، نائب ستالين القوقازي، على أن تتخذ عشّاقًا، وتكلّمت بطريقة بذيئة عن الأمور الجنسية: «عندما كنت شابة، كنت أنظّف بيوت الناس، وعندما ألتقي بشاب وسيم، لا أفوّت الفرصة». آل بيريا هم شاهدون عدائيون، لكن هناك دليلًا على الإثارة الفظة، حتى في مذكرات كيكي. وفي حديقتها، تسرد أن والدتها كانت تجذب سوسو بزهرة، فتسحب كيكي بمرح ثدييها وتظهرهما أمام صاحب الخطى الصغيرة، فيتجاهل الزهرة ويندفع إلى النهدين. لكن كان المنفي الروسي الثمل بوكا، يتجسس عليهم وينفجر ضاحكًا، «فأقوم بتزرير ثوبي»[41].

شجّع ستالين بطريقته الموجزة والكاذبة، على رواج هذه القصص. عندما تكلّم في أعوامه الأخيرة مع المحمي الجورجي ميغلادزي، أعطاه «الانطباع بأنه نجل أغناتاشفيلي غير الشرعي»، وبدأ ينكر أنه ابن بيسو. وفي استقبال في العام 193، قال تحديدًا، «كان والدي كاهنًا». لكن في غياب بيسو، كل المرشّحين الثلاثة إلى الأبوة ساعدوا على تربيته: عاش مع آل شاركفياني، وحماه آل دافريشوي، وقضى نصف وقته لدى آل أغناتاشفيلي. لذلك، لا شك في أنه شعر بمحبة الابن لأهله. كان هناك سبب آخر لشائعة الكاهن: مدرسة الكنيسة لا تقبل سوى أبناء الإكليروس، لذلك تقول والدته إنه اعتُبر ابن كاهن[42].

بقي ستالين غامضًا حيال بيسو المجنون: كان يحتقره، لكنه أظهر أيضًا الفخر واللطف تجاهه. تشاطروا بعض لحظات الفرح. كان

بيسو يخبر سوسو قصصًا عن الأبطال الجورجيين الخارجين عن القانون، الذين «ناضلوا ضد الأغنياء، وسرقوا من الأمراء لمساعدة الفلاحين». وفي العشاء، حيث الشرب الثقيل، كان ستالين الديكتاتور يتباهى أمام خروتشيف والأقطاب الآخرين، بأنه ورث حب والده للكحول. أشربه والده النبيذ منذ نعومة أظفاره في سريره، وأصر على القيام بالشيء نفسه مع أولاده، فكانت تغضب زوجته ناديا. كتب لاحقا بطريقة مؤثرة عن صانع أحذية مجهول لديه معمل صغير، دمّرته الرأسمالية الوحشية. كتب أن «أجنحة أحلامه جُزّت». وتباهى مرة بأن «والدي يستطيع صنع زوجي أحذية في يوم واحد». وحتى كديكتاتور، أحب أن يسمي نفسه صانع أحذية أيضًا. استعمل لاحقًا اسم «بيسوشفيلي» - أي نجل بيسو - كلقب، وكان أصدقاؤه المقرّبون من غوري يدعونه «بيسو» [43].

وقياسًا إلى جميع هذه القصص، من المرجّح أكثر أن ستالين كان ابن بيسو، على الرغم من تبجّح السكّير بأن سوسو «ابن زنا». ويتوقّع دائمًا من المرأة المتزوجة أن تكون محصَّنة، ورصينة، ولا تقيم علاقات جنسية رديفة، لكن من غير الشائن إذا أصبحت الشابة الحسناء، كيكي، شبه الأرملة، خليلة أغناتاشفيلي عندما انهار زواجها. وفي مذكراتها، غالبًا ما يبدو أغناتاشفيلي كزوجها، وتذكره دائمًا بولع. تقول إنه كان لطيفًا ومساعدًا لها، ما تسبب ببعض «الإحراج». ويدعي بعض أفراد عائلة أغناتاشفيلي، أن هنالك رابطًا «جينيًا» مع ستالين. لكن حفيد أغناتاشفيلي، غورام

راتيشفيلي، يعطي الطرح الأفضل: «ببساطة، نحن لا نعلم إذا كان والد ستالين، لكننا نعلم أن التاجر أصبح الوالد[44] البديل للصبي».

الشائعات حول لاشرعية ولادته، كأصوله الأسوتية، كانت طريقة أخرى للحط من سمعة الطاغية ستالين، المكروه عامة في جورجيا، التي فتحها وقمعها في العشرينيات. صحيح أنه غالبًا ما يقال إن الرجال العظماء ذوي الأصول المتواضعة هم أبناء رجال آخرين، بيد أنهم يكونون أحيانًا من ذرية آبائهم الرسميين.

يشهد صديق المدرسة، دافيد بابيتاشفيلي، على أن ستالين «عندما كان صغيرًا، كان يشبه والده عن كثب». وعندما كبر، يقول ألكسندر تسيخاتاترشفيلي، «بدا كأبيه أكثر فأكثر، وعندما ترك شاربيه ينموان، أصبحا مطابقين»[45].

عندما أصبح سوسو في سن الخامسة، كان بيسو المجنون قد أدمن على الكحول، يعذّبه جنون الاضطهاد، ويميل إلى العنف. تقول كيكي «إن حاله كانت تسوء يومًا بعد يوم».

(2)

بيسو المجنون

عانى سوسو بمرارة، رعب بيسو الثمل. تقول كيكي «كان سوسويي طفلًا حساسًا جدًا. حالما كان يتناهى إليه صوت والده يغني «بالام بالام» من الشارع، يركض فورًا نحوي ويطلب مني أن يخرج وينتظر عند الجيران حتى ينام والده».

أمسى بيسو المجنون يقضي وقتًا طويلًا في الشرب، حتى أنه احتاج إلى بيع أرضه الزراعية. ويفسّر ستالين لاحقًّا أن «الجورجي الذي يصل إلى بيع أرضه، هو بالتأكيد في ضِيق شديد»[46]. وكان كلما زاد احتقار كيكي لبيسو، أفرطت في تدليل سوسو: «كنت دائمًا أدثّره بدفء بوشاحه الصوفي. أما هو، فقد أحبّني حبًا جمًا أيضًا.

عندما كان يرى الأب الثمل، تغرورق عيناه بالدموع، وتزرقّ شفتاه، ويعانقني، ويرجوني أن أخبئه».

كان بيسو عنيفا تجاه كيكي وسوسو، على حد سواء. الابن عادةً، هو مصدر فخر الرجل الجورجي، لكن ربما يمثّل سوسو أكبر ذلّ للزوج، إذا صحّت الألسن الشريرة في نهاية المطاف. رمى بيسو مرة بستالين على الأرض بقوة، إلى درجة أن بَوْل الطفل بقي يمتزج بالدماء لعدة أيام. يظن زميل الدراسة جوزيف إيريماشفيلي، الذي نشر مذكراته، «أن الضرب الذي لا يستحقه

الطفل جعله بقساوة الأب بذاته، وعدم رحمته». لقد تعلم، بسبب والده، «أن يبغض الناس».

يتذكّر دافريشوي الصغير كيف كانت كيكي «تحوطه بالحب الوالدي، وتدافع عنه ضد كل الناس»، في حين عامله بيسو «كالكلب، وضربه، معظم الوقت، بلا سبب».

عندما كان سوسو يختبئ، كان يبحث عنه بيسو في المنزل ويصرخ به مؤنبًا: «أين لقيط كيكي الصغير؟ أهو مختبئ تحت السرير؟». وكانت كيكي تدافع عن وحيدها، لا تلوي على شيء. وصل سوسو مرة إلى منزل دافريشوي ووجهه مغطى بالدماء، يبكي طالبًا: «النجدة! تعالوا بسرعة! إنه يقتل أمي!». وسارع الضابط إلى آل دجوغيشفالي فرأى بيسو يخنق كيكي.

أثّرت هذه الحادثة جدًا في طفل الأعوام الأربعة. تذكر والدته كيف كان سوسو يقوم بدفاع مستميت ضد والده. تعلّم أولًا العنف في البيت: رمى مرة بسكين في وجه بيسو للدفاع عن كيكي. نما فيه حس عنيف في المشاكسة والوحشية، يصعب ضبطه، حتى أن كيكي نفسها، التي عبدته، لجأت إلى التعنيف الجسدي ضده للسيطرة على كنزها الجامح، من الانزلاق في دروب خطيرة.

«الكف الذي أخضع الوالد طُبّق في تربية الابن»، بحسب ما تقول سيدة يهودية كانت تعرف العائلة. تقول ابنة ستالين سفيتلانا إنها «كانت تجلده». عندما زار ستالين كيكي للمرة الأخيرة، في الثلاثينيات، سألها لماذا كانت تضربه كثيرًا. فأجابت بأن «ذلك لم يؤذك». لكن هذا الموضوع مفتوح للنقاش. يعتبر أطباء النفس أن

العنف يضر دائما بالأطفال، ومن المؤكد أنه لم يبعث بالحب والملاطفة. يقوم عدة أطفال لقوا سوء المعاملة من آبائهم المدمنين على الكحول، بتكرار السلوك نفسه، فيضربون، بأنفسهم، أولادهم أو زوجاتهم، لكن قلة يصبحون من الطغاة القتلة[47]. كما أن هذا لم يكن ثقافة العنف الوحيدة التي كوّنت شخصية ستالين.

كان بنفسه يؤمن بالأثر التخليصي والاستعمال العملي للعنف. عندما استعمل قوزاقيو القيصر أسواط ناغايك ضد المتظاهرين، كتب «الجلاز أسدى لنا خدمة كبرى». وآمن لاحقًا بالعنف كمنجل مقدّس في التاريخ، وكأداة إدارية مفيدة، فشجّع التابعين له على «تحطيم وجوه الناس كتدبير لتفقّدهم».

لكنه أقرّ بأنه «بكى كثيرًا» خلال «طفولته الرهيبة».

خسرت العائلة البيت الذي كان مسقط رأس ستالين، وأصبحوا تائهين متجوّلين. كانت لديهم أقله تسعة بيوت مختلفة عاشوا فيها، يتنقلون بين الغرف المستأجرة فيها. في الأعوام العشرة التالية، أصبحت التنشئة[48] المستقرة صعبة. ذهبت كيكي والطفل الآن للعيش مع أحد أشقائها، لكن بيسو وعد بالتحسّن واستعادتها. لكن، لأنه «لم يفلح في التوقف عن الشرب»، فقد انتقلت إلى عند الكاهن، الأب شاركفياني.

لاحظت كيكي الأثر على سوسو الصغير: «أصبح متحفّظًا كثيرًا، وغالبًا ما يجلس وحده. لم يعد يخرج للّعب مع الأطفال الآخرين. قال إنه يريد تعلّم القراءة. أردت إرساله إلى المدرسة، لكن بيسو

عارض». أراد أن يتعلّم ستالين صنع الأحذية. وفي العام 1884، ما إن بدأ بيسو بتعليمه هذه الحرفة، حتى مرض سوسو كثيرًا.

* * *

تفشّت الجدري في غوري ذاك العام. كانت كيكي تسمع «صوت البكاء من كل بيت». خسر داعمها الكبير ياكوف أغناتاشفيلي «ثلاثة من أطفاله الرائعين في يوم واحد. المسكين، جُنّ جنونه من شدة الأسى والحزن». نجا صبيان وفتاة. كانت وفاة الأطفال أمرًا آخر تتاشطره كيكي مع «العرّاب ياكوف». اعتنت بصحة سوسو المصاب بداء الجدري. وبحلول اليوم الثالث، كان يعاني هذيان الحمى. ورث ستالين الصغير عن أمه النمش وشعرها الأسود: الآن، أصبح لديه علامات سوف لا تبارح طوال الحياة وجهه ويديه، بسبب الجدري. كانت من ألقابه - واسم رمزي من الأوخرانا له - «شوبورا» (أي الذي يحمل علامات الجدري).

لكنه نجا. ابتهجت الأم، لكنها في هذه الفترة من حياتها، ترنّحت أعوامها الباقية لها، من جديد نحو الكارثة عندما تركها بيسو.

قال «اعتنِ بالطفل»، ولم يقدم أي مساعدة مالية في دفع ثمن طعام العائلة. واعترف ستالين بأن بيسو كان يطلب من كيكي أن تغسل للناس وترسل إليه المال.

تتذكر كيكي «كم من الليالي قضيتها أبكي! لم أجرؤ على البكاء أمام الولد لأن ذلك يُقلقه كثيرًا». كان ستالين «يعانقني ويحدّق بخوف في وجهي، ويقول «ماما، لا تبكي، أو سأبكي أنا أيضًا». لذلك كنت أسيطر على نفسي، أضحك وأقبّله. ثم يطلب مني من

جديد كتابًا».

أصبحت كيكي الآن تعيش وحدها مع الطفل، من دون أي دعم مادي. قررت إرسال سوسو إلى المدرسة، وكان الأول الذي يتعلّم في العائلتين. في أحلامها، «لطالما أردته أن يصبح أسقفًا، لأنه عندما كان الأسقف يزور تيفليس، لم أكن أستطيع أن أتوقف عن البكاء لشدة إعجابي به». وعندما عاد بيسو إلى حياتها من جديد، حظر هذه الخطة، ورفضها: «على جثتي الهامدة، سوسو لن يتعلّم!». وما لبثا أن بدآ الشجار، و«وحده صوت بكاء الطفل كان يُبعدنا عن بعضنا البعض».

لا شك في أن إدمان بيسو على معاقرة الكحول، جعله يغار بشكل مَرَضي، لكن شائعات الخيانة وخداع الزوجة أطاحت بسلطته التي أغدقها عليه الله كرجل جورجي، ما حوّل المدينة ضده، وأسهم في انهياره. كان بؤس كيكي معروفًا حقيقة: أغناتاشفيلي والأب شاركافياني ورئيس الشرطة دافريشوي، لديهم باع في ذلك أيضًا، إلى جانبها. حتى داتو، المتدرّب اللطيف في محل بيسو، ذكّر ستالين، خلال الحرب العالمية الثانية، كيف كان يعانقه ويحميه. في إحدى المناسبات التي التقى فيها به في أحد الشوارع، دعا روسي سوسو الضعيف «بالجراد». فلكمه داتو واعتقل. لكن القاضي ضحك، بينما دفع حامي العائلة، أغناتاشفيلي، «وجبة طعام لذاك الرجل الروسي».

كانت حياة كيكي تنهار. العمل ينهار، حتى داتو غادر ليفتح محل إسكافة خاصًا به[49]. يستذكر ستالين في العام 1938 «عندما

كان عمري عشرة أعوام، خسر والدي كل شيء، وأصبح بروليتاريًا. كان يشتم كل الوقت حظه السيئ». وقال ساخرًا: «أصبح بروليتاريًا، فكان إفلاسه لصالحي! عندما كنت في العاشرة من العمر، لم أكن سعيدًا بأنه خسر كل شيء!».

وظّف دافريشوي كيكي لتقوم بالأعمال المنزلية. أصبحت الغاسلة لآل أغناتاشفيلي: كانت دائمًا في منزلهم، حيث غالبًا ما يتناول سوسو طعام العشاء. ويبدو جليًا من مذكرات كيكي، أن أغناتاشفيلي أحب سوسو، كما فعلت زوجته مريم، التي كانت تعطيهم سلالًا من الطعام. لو لم تكن هناك علاقة عاطفية مع أغناتاشفيلي سابقًا، فهذا أصبح أكيدًا الآن. تقول كيكي «عاشت العائلة بفضل مساعدته وحده. كان يساعدنا دائما، وله عائلته الخاصة... ولأقول الحق، لم أكن أشعر بالارتياح».

دعم الكاهن أيضًا خطتها في تعليم سوسو، وطلبت من آل شاركفياني أن يسمحوا لأبنائهم المراهقين بتعليمه اللغة الروسية مع أطفالهم الأصغر سنًا. أحست بأن سوسو يتمتع بالموهبة. كان الصِّبْية المراهقون يعلّمون شقيقتهم الأصغر، التي لم تكن تستطيع الإجابة عن أسئلتهم، خلافًا لستالين الصغير. تباهى ستالين عندما أصبح شابًا، بأنه تعلّم القراءة والكتابة أسرع من الأطفال الآخرين: انتهى به الأمر يعلّم المراهقين. قال ابن الأب شاركافياني، كوت، إن «الأمر يجب أن يكون سرًا مكتومًا لأن حال العم بيسو تسوء يومًا بعد يوم، وهو يهدد «لا تفسدوا ولدي أو سواه!». قد يسوق سوسو من أذنيه إلى المعمل. لكن حالما كان والده يغادر، كان سوسو ينضم إلينا، فتقفل الباب وندرس». وكان

آل دافريشي يسمحون له بمشاركة ابنهم في تعلّم أمثولاته.

كان هذا مصدر سحر كيكي، ورعب بيسو، أن الكل أراد مساعدتها. الآن عليها إدخال سوسو مدرسة كنيسة غوري الممتازة كي يصبح أسقفًا. قامت بعدة محاولات. لكن المدرسة لا تقبل سوى أولاد الكهنة. حل الأب شاركافياني المشكلة بالقول إن والد سوسو شماس، لكن ذلك لا يظهر في أي مستندات. ويتساءل المرء، إن كان همس فعلًا في أذن السلطات في المدرسة، أنه هو نفسه أو كاهن خاطئ آخر، هو الوالد الطبيعي. هل كانت هذه الحيلة التي جعلت ستالين يدّعي أن والده كاهن؟

أعدّ سوسو الامتحانات - الصلوات والقراءات والرياضيات واللغة الروسية - وكان أداؤه باهرًا، إلى درجة أن مدرسة الكنيسة قبلته في الصف الثاني. قالت كيكي «كانت سعادتي لا تُوصف». لكن بيسو، الذي لم يعد يستطيع العمل، «استشاط غضبًا»[50].

حطم بيسو المجنون نوافذ حانة أغناتاشفيلي. وعندما تذمّرت كيكي لدافريشوي، هاجم بيسو الشرطي، وطعنه في الشارع بأداة العامل الإسكافي. ولسخرية القدر، قدّم العمدة جورولي، ذلك كدليل على أن الشرطي والد سوسو. لكن دافريشوي لم يعتقل بيسو المجنون. ووفقًا لابنه، كان جرح ضابط الشرطة طفيفًا، وكانت تربطه علاقة ما بكيكي «الفاتنة الجمال»: «لطالما كان يخصّ سوسو بالاهتمام». بالكاد أمر دافريشوي بيسو بمغادرة غوري، فتوظّف في معمل أحذية أديلخانوف في تيفليس حيث كانت بداياته. كان بيسو يشتاق أحيانًا إلى ابنه، ويرسل المال إلى كيكي، طالبًا

مسامحتها. وكانت كيكي توافق في بعض الأحيان، وتسامح، لكن ذلك لم ينجح دائمًا.

فقد والد ستالين الاحترام الواجب له كرجل، بغض النظر عن الكاراشوغيلي. في مجتمع جورجيا، المهانة، وفقدان الشرف، أشبه بالموت. قالت كيكي «هو الآن نصف رجل»، ما دفعه إلى شفير الهاوية. لقد رحل، لكنه لم يبعد كثيرًا قط[51].

حصلت كيكي على عمل جيّد في مشغل الأخوات كوليجاناف، بعدما تم افتتاح متجر للخياطة للنساء في غوري. عملت كيكي هناك طوال سبعة عشر عامًا. والآن، وقد جنت المال الخاص بها، حاولت «أن تحرص على ألا ينفطر قلب ابني من الأسى. أعطيته كل ما هو ضروري».

ربّته ليكون الفارس الجورجي، وهو مثال حوّله بنفسه إلى فارس الطبقة الكادحة. كتب لها وهو في سن متقدّمة، أن «الإنسان القوي يجب أن يكون باسلًا دائمًا».

اعتبر أنه يشبه كيكي أكثر من بيسو. قالت ابنته سفيتلانا إن ستالين «أحب أمه، وأحب التكلم عليها على الرغم من أنها كانت تضربه بلا رحمة. كان كل الحب لدى والدي لي، وقال لي إن ذلك لأنني أشبه والدته». لكنه بدأ بالانسحاب من جوار كيكي.

يدّعي ابن بيرا أنّ ستالين «لم يحب والدته». ويقسم أشخاص آخرون، وهم في أكثرهم جورجيون، إنه كان يصفها «بالمومس». لكنها غالبًا قصص تستهدف سحب صفة الإنسانية

من ستالين على لسان أعدائه. ويقول أطباء نفسانيون، إنه كان حائرًا في جمع كيكي بين العذرية والبغاء، ما جعله ربما يشكك في النساء لاحقًا في حياته.

هل صدمته دنيوية كيكي؟ هل استهجن حُماتَها الذكور؟ لا شك في أنه أصبح حذرًا لاحقًا، لكن كذلك يفعل العديد من الناس بينما يتقدمون في السن. كل ما نعرفه ونتيقن منه، هو أنه تربى في مجتمع، ثقافته صارمة ومجبولة بالخبث والذكورية، لكنه كان مستهترًا في الأخلاقيات الجنسية، ومتحررًا تقريبًا كثائر شاب.

«كرّس سوسو ذاته لشخص واحد: والدته»، وفقًا لإيرماتشيفيلي، التي عرفتهما، كليهما، وهي شاهدة عدائية. لكن السبب المرجّح أكثر للمسافة المتنامية بينهما، هو صراحتها التهكمية. «لم تتردد قط في التعبير عن رأيها حول كل شيء»، نقلًا عن نجل بيريا، وميلها المهيمن إلى التحكم في حياته. كان حبها - كما حبه لأولاده وأصدقائه - خانقًا وقاسيًا. الأم وابنها متطابقان تقريبًا، وهنا تكمن المشكلة.

لكنه قدّر على طريقته الخاصة حبّها الكبير. خلال الحرب العالمية الثانية، ضحك بفرح على تدليل كيكي له، قائلًا لمارشال زهوكوف، إنها «لم تسمح له قط بأن يبعد عن نظرها حتى أصبح في سن السادسة»[52].

* * *

في أواخر 1888، وهو في سن العاشرة، دخل سوسو منتصرًا

مدرسة كنيسة غوري[53]، وهي مبنى جميل من القرميد الأحمر من طابقين قرب المحطة الجديدة.

كانت كيكي، الفقيرة، مصممة على ألا يظهر ولدها فقيرًا بين أبناء الكهنة الأغنياء. بل بالعكس، سيكون التلميذ الأفضل ملبسًا في المدرسة كلها، المؤلفة من 150 صبيًا.

يتذكر العديد من صِبْية المدرسة أول يوم لستالين في المدرسة بعد عقود تلت. يتذكر فانو كيتخوفيلي، الذي أصبح سريعًا صديقًا له «رأيت بين صبية المدرسة صبيًا غير معروف يرتدي أرخالوخي طويلًا (المعطف الجورجي التقليدي) حتى ركبتيه، وحذاءً جديدًا عاليًا، وحزامًا جلديًا واسعًا ومشدودًا، وسترة سوداء مع خوذة مثنية تلمع في الشمس. يرتدي هذا الشخص القصير والضعيف كثيرًا، سروالًا ضيقًا وحذاءً وقميصًا باذخًا مع وشاح وحقيبة مدرسية حمراء من القماش القطني المطبّع». دُهش فانو: «لم يكن أحد يتأنّق على هذا النحو في الصف كله، وحتى في المدرسة كلها. أحاطه الصبية في المدرسة»، وملؤهم الإعجاب. الولد الأفقر ارتدى أفضل حلة، الفونتليروي، في غوري. من دفع ثمن هذه الملابس الجميلة؟ الكهنة وأصحاب الحانات وضباط الشرطة، أسهموا، كل من جانبه، بلا شك.

جعلت معاناة ستالين منه شخصًا قاسيًا، على الرغم من كل أناقته، ووسامته، وثيابه الجميلة. يقول إيريماشفيلي «كنا نتفاداه خوفًا، لكننا كنا مهتمين به»، لأنه «غير طفولي» و«شغوف بشكل مفرط»، وعلى نحو استثنائي. طفل غريب: عندما لم يكن سعيدًا،

«يعبّر عن رضاه بأكثر الأمور غرابة. يطقطق أصابعه، يصرخ بأعلى صوته، ويقفز على رِجل واحدة! [[54]]. وسواء أكتبت في ظل العبادة الجائرة للشخصية حين كان ستالين ديكتاتورًا، أم في المعارضة الآثمة له، تتفق جميع المذكرات حول طفولته، على أن ستالين، حتى وهو في عمر العاشرة، فرض جاذبية[55] فريدة.

في مرحلة ما من هذه الفترة الزمنية، وربما عندما بدأ الدراسة، لامس الموت عن قرب من جديد. تقول كيكي «أرسلته إلى المدرسة في الصباح وهو في صحة جيدة، وحملوه إلى المنزل بعد الظهر غائبًا عن الوعي». صدمه فيتون في الطريق. كان الصِّبية يستمتعون في لعب «الدجاجة»، فيقبضون على محاور عجلات العربات العادية. ربما هكذا أصيب ستالين. «جنّت الأم المسكينة من جديد خوفًا، لكن الأطباء عالجوه مجّانًا، أو كان أغناتاشفيلي يدفع الفواتير سرًا. وقد دعت كيكي أيضًا في القرية مشعوذًا عمل كحلاق محلي. هذا ما قاله ابنها لاحقًا.

أعطاه الحادث سببًا آخر، إضافة إلى القدم المتشابكة والندوب وشائعات عدم الشرعية، للحذر والشعور بالدونية، لأنه مختلف.

أصاب يده اليسرى إصابة دائمة[[56]]، أي أنه لا يستطيع أبدًا أن يصبح مثال المحارب الجورجي. قال لاحقًا إن ذلك منعه من الرقص بشكل صحيح، لكنه يستطيع المحاربة. وفي المقابل، خلّصته من الالتحاق في الجيش والموت المحتمل في خنادق الحرب العالمية الأولى. لكن كيكي قلقت حيال تأثير ذلك في

شخصية الأسقف المستقبلي. سألته «عندما تصبح كاهنًا، يا ولدي، كيف ستحمل كأس القربان؟».

أجاب سوسو «لا تقلقي، يا أماه! قبل أن أصبح كاهنًا، ستشفى يدي لأتمكّن من حمل الكنيسة بأكملها!».[57]

لم تكن ممارسة لعبة «الدجاج» الخطر الوحيد في شوارع غوري، الخارجة عن سيطرة سلطات القيصر، كما هو معروف. وبالتالي، حتى لو أصبح سريعًا، أفضل تلميذ في مدرسته، فسوف يعيش ستالين الشاب حياة جيكيل وهايد: غلام الخورس والمقاتل في الشارع؛ ولد الماما شبه المتشدّق في ملبسه، والولد الشرير.

يقول نجل الأب شاركافياني كوت «إنه نادرًا ما مرّ يوم لم يضربه فيه أحد، أو يرسله إلى البيت وهو يبكي... أو حتى لم يضرب هو أحدًا».[58] في النهاية، هذه غوري.

(3)

المتشاجرون والمتصارعون وغلام الخورس

يمضي ستالين الصغير اليوم وقتَ فراغه، بعيدًا عن كيكي، في شوارع غوري، في مكان متحرر وعنيف تزدحم فيه معاقرة الخمر والصلاة والشجار.

لبيسو الحق الكامل في الهروب من منزل دائم الظلمة والفقر. «كانت كيكي تجلس يومًا بعد يوم إلى ماكينة الخياطة المخلّعة الأوصال». لا شيء في الغرفة سوى «مضجعين خشبيين وكرسيين بلا ظهر ولمبة إنارة وطاولة بسيطة مغطاة بالكتب»، بحسب ما يقول زائر يتردد إلى المنزل، هو أستاذ الغناء لستالين، سيمون غودتشيليدزي. الغرفة الصغيرة «مرتّبة دائمًا»، لكن سرير ستالين مصنوع من لوح خشبي: «كلما زاد طول ستالين، تضيف والدته لوحًا لجعل السرير أطول».

لكن سوسو يتحدى والدته الآن. تتذمّر قائلة «لو تعرف كم هو متغطرس ومتعجرف!»[59].

كان ابن غوري النموذجي، علمًا بأن سكان غوري معروفون في كل أنحاء جورجيا بأنهم ماترابازي، أي أوغاد متبجّحون وعنيفون. غوري من آخر المدن التي مارست «العادة الرائعة والوحشية» بالشجار المفتوح للجميع مع قواعد محددة، لكن من دون حواجز للحد من العنف. كل شيء متداخل في بعضه

البعض: الإسراف في الشرب والصلاة والشجار، ويعمل الكهنة الثملون كالحَكَم. حانات الصالونات في غوري، حمام غير قابل «للعلاج» من العنف والجريمة[60].

حاولت الإدارة الروسية والإدارة الجورجية حظر هذه الرياضة المريبة التي نشأت كتدريب عسكري، في وقت كانت جورجيا في القرون الوسطى تعيش في حرب مستمرة. وعلى الرغم من وجود الثكنات الروسية، يصعب على البريستاف - رئيس الشرطة المحلية - دافريشوي وبعض رجال الشرطة التابعين له، السيطرة على الوضع: لا يستطيع أحد أن يهدئ من غياب القانون في غوري التي يتعذّر كبحها. لا عجب أيضًا من أنه، خلال الاشتباكات، تفرّ الخيول، وتصرع الفيتونات الشبان في الشوارع. ويردّ المؤرخون النفسيون أسباب تطوّر ستالين إلى والده الثمل، لكن ثقافة العراك في الشوارع أدّت دورها في تنشئته أيضًا.

كتب المؤلف ماكسيم غوركي، الذي زار غوري، أن «لديها جموحًا بريًا ومميّزًا يخصّها. السماء متّقدة والمياه مضطربة صاخبة في كورا، والجبال على مسافة قريبة من المدينة الكهف، ثم القوقاز بثلجه الذي لا يذوب أبدًا».

شيّدت الملكة تامارا قلعة غوري الصفراء، ذات الأبراج، على الأرجح في العصر الثاني عشر. وعندما انهارت امبراطوريتها، أصبحت غوري عاصمة إحدى الإمارات الجورجية[61]. كانت محطة في الطريق من آسيا الوسطى. ولا تزال الناقات تمر في

طريقها إلى تيفليس، لكن فتح السكك الحديدية إلى البحر الأسود في العام 1871، حطَّ من قدر هذه المدينة المفتخرة بنفسها إلى منزلة المحافظة الخلفية المنعزلة الفوضوية ذات الروابط الوثيقة والتقليد المشاغب تحديدًا. في طريق مناسبة واحدة (ثم شارع القيصر، والآن شارع ستالين) وساحة واحدة، يلعب الأطفال، وسط الثيران المتمهّلة في الأزقة الملتوية النصف عائمة بالمجاري المفتوحة. لا يتعدى عدد السكان7.000 نسمة، نصفهم جورجيون كالدجوغاشفيلي، ونصفهم أرمن، كعائلة كامو: الأرمن هم المقاولون. ولم يتعدَّ عدد اليهود ثمانية عشر شخصًا. والأهم هو تقسيم غوري إلى جوارين رئيسيين، وهي الفرق في معارك المدينة: الحي الروسي وحي القلعة.

* * *

شجار المدينة ومباريات المصارعة واستعراض قوى العصابات، من تقاليد القتال في غوري. في المهرجانات وعيد الميلاد أو أيام المرفع قبل الصوم الكبير، يمتلئ الحيّان باستعراض بقيادة الشاذين، أو الممثلين الذين يمتطون الناقات والحمير «كملوك الكرنفال»، محاطين بعازفي المزامير والمغنين باللباس الباذخ. وفي كرنفال كينوبا للاحتفال بنصر جورجيا في العام 1634 على بلاد فارس، أدى ممثل دورَ القيصر الجورجي، وأدّى شخص آخر دورَ الشاه الفارسي، الذي رُجم بسرعة بالفاكهة، وغَطس في المياه.

يسير الذكور من كل عائلة، من الأطفال صعودًا، في

الاستعراض، ويشربون الخمر، ويغنون حتى يسدل الليل ستاره، فيبدأ المرح الحقيقي. هذا «الاعتدال بالملاكمة الحرة» - رياضة الكريفي - كناية عن «مبارزة جماعية ذات قواعد»: يتبارز الصبيان في سن الثالثة مع من في سنّهم، ثم يتقاتل الأطفال في ما بينهم، ثم المراهقون، وأخيرًا يرمي الرجال بأنفسهم في «معركة غير معقولة»، في حين تصبح المدينة خارجة عن السيطرة كليًا، ويدوم الوضع على هذه الحال حتى اليوم التالي. حتى في المدرسة، تتقاتل الصفوف في ما بينها. وغالبًا ما تُنهب المحال[62].

كانت الرياضة الأعز على غوري مصارعة الأبطال، التي تشبه، بشكل أو بآخر، قصة جالوت في الإنجيل، وهو مسوّي مشاكل بارع. تجري المباريات - تشيدوبا - في حلقات موضوعة خصيصًا لمرافقة أوركسترا الزورنا. فيدعم الأمراء الأغنياء، كمالك الأراضي المحلي الأمير أميلاخفاري، والتجار، والقرويون، أبطالهم، الذين ينظر إليهم بتقدير عارم، ويُلقَّبون بالافاني. وكان عراب ستالين أغناتاشفيلي بنفسه، أحد ثلاثة أشقاء أبطال. والآن وقد أصبح أكبر عمرًا وغنيا، يدعم بالافاني أغناتاشفيلي أبطاله. وحتى في سن متقدّمة، استمر ستالين في التباهي بانتصارات عرابه:

كان آل أغناتاشفيلي مصارعين معروفين حتى في كل أرجاء كارتلي، لكن أوّلهم وأقواهم هو ياكوف. كان لدى الأمير أميلاخفاري حارس، هو عملاق شيشاني. وعندما تحدى أبطال غوري، غلبهم جميعًا. فذهب أهل غوري إلى ياكوف أغناتاشفيلي،

الذي قال: «دعوه يقاتل شقيقي كيكا، فإذا تغلّب عليه، فليقاتل شقيقي سيمون. فإذا تغلّب عليه، فسأقاتله». لكن كيكا تغلّب على العملاق الشيشاني. «ذهب مرة بعض السارقين إلى المدينة، وهم يختالون خلال مناسبة دينية، يحملون قبعات من جلد الغنم وخناجر».

شربوا في حانة أغناتاشفيلي، ثم رفضوا الدفع. يتذكّر ستالين «نحن الأطفال» شاهدنا بدهشة كيف قام كيكا أغناتاشفيلي «بتحطيم واحد منهم، أوقعه أرضًا وقبض على خنجر من غمد خنجر الآخر، وضربه بالطرف الكليل. ودفع الثالث فاتورته» [63].

انضم تلامذة مدرسة الكنيسة إلى قتال إخضاع صرف شبه عادي في شارع كاتدرائية غوري. وتحت تهديد الحجز، وفي النهاية الطرد، حُظر على تلامذة المدرسة إطلاقًا ممارسة هذه الألاعيب الشريرة، «لكن سوسو استمر في المشاركة فيها». كما أن أستاذ الرياضيات والجغرافيا، ألوريدزي، أحب رؤية الصبيان يتقاتلون في الشوارع، ويصرخون: «هيا! هيا! أحسنت!»... وبالكاد يلاحظ إذا أصيب في مجرى اللعبة، أو تلطّخ بالدماء [64].

يوافق دافريشوي[[65]] على أن «ستالين الصغير أجاد الملاكمة والمصارعة بنجاح». شاهده أستاذ الغناء يُعِد لمباريات مصارعة، لكنه أصاب مرة يده الضعيفة أصلًا.

يسرد الأستاذ «يبدأ الأمر كمباراة مصارعة، ثم يتحوّل إلى ملاكمة حقيقية ويتغلّبون على بعضهم البعض». تورّمت يد سوسو

وأوجعته، وصعّبت عليه القتال وفق القواعد.

قاتل صديقه إيريماشفيلي ستالين في ساحة المدرسة. أعلن التعادل في المباراة، لكن بينما ابتعد إيريماشفيلي، فاجأه ستالين من الخلف، ودفعه إلى العشب. وعندما واجه مقاتلين أقوى منه بلا خوف، وكادوا يتغلبون عليه، ويُفقدونه حياته، كان على كيكي إغاثته. هرعت إلى رئيس الشرطة باكية «يا إلهي، قتلوا ابني». لكن ستالين بقي أنجع مقاتل في الشارع في عامه: «حتى أن والدته كانت تُلبسه أحيانًا طوقًا أبيض كبيرًا. وحالما يُدير ظهره، ينزعه ويضعه في جيبه».

حافظ الصبيان على طاقتهم الحقيقية لاستعراضات العصابات. «انقسم أولاد بلدتنا في عصابات، وفق الشارع أو الحي الذي يعيشون فيه. كانت العصابات في استعراض حربي مستمر»، على الرغم من الانصهار أيضا. «تربّى أطفال غوري معا في الشارع نفسه من دون تمييز في الدين أو الجنسية أو الثروة». صعلوك كستالين، يلعب في الشوارع مع نجل الأمير أميلاخفاري - جنرال شهير- الذي حاول تعليمه السباحة. يعيش الأطفال، المسلّحون بالسكاكين والأقواس والسهام والنقيفة، حياة سعيدة حرة، إذا لم نقل برية: يسبحون في النهر، ويغنون أغانيهم المفضّلة وينهبون التفاح من بستان الفاكهة للأمير أميلاخفاري، ويتجوّلون بشكل مزعج في أرجاء البلاد. وقد أشعل ستالين مرة النيران في بساتين الفاكهة التابعة للأمير.

«كان سوسو سيئ السلوك، إلى حد كبير»، بحسب ما يتذكر

صديقه الأصغر جيورجي اليسابيدشفيلي. «يركض دائمًا عبر الشوارع. أحب نقيفته وقوسه المصنوع في البيت. صدف مرة أن راعيا كان يقود قطيعه إلى زريبتهم، حين قفز سوسو ونقف بقرة في رأسها. فجنّ الثور وفرّ القطيع مذعورًا، فطارد الراعي سوسو الذي اختفى»، وهو المحجوب أصلًا[66]. وكتب صديق مدرسة آخر «كان يفرّ من بين يديَّ كالسمكة، ولا طائل من محاولة التقاطه». أرهب سوسو مرة حارس متجر بإشعال بعض الخرطوش المتفجّر الذي كاد يدمّر متجره. «كان على والدته سماع الكثير من الشتائم عن ابنها».

أحبّ سوسو أن يقود أفراد عصابته في تسلّق المنحدر إلى غوريجفاري - الجبل حيث «قصر الجدران الصفراء العالية» - ليغنّوا ويتقاتلوا ويتناقشوا في الدين، ويتمتعوا بالمناظر: «أحبّ جمال الطبيعة». وعلى بعد ستة أميال، في «مدينة الكهوف»، أوبليس - تسيخي، التي يصعب تسلّقها، وقد فشل ستالين في البداية في الوصول إلى القمة، تمرّن بلا كلل ولا ملل حتى حقق مراده.

كان بلا رحمة تجاه الأطفال الآخرين، لكنه كان يحمي التابعين له. وعندما تعلّم السباحة (على الرغم من أنه لم يسبح قط بشكل جيد بسبب ذراعه)، دفع طفلًا صغيرًا لا يستطيع السباحة إلى مياه كورا السريعة. احتج الصبي بأنه كاد يغرق. أجاب سوسو «نعم، لكن عندما تواجه هذه المشكلة، تتعلّم السباحة». لكن عندما تعرّض لهجوم من عصابة أخرى، «قصفهم سوسو بالحجارة إلى أن انسحبوا». وعندما هُزم صديقه بقوة، ظهر سوسو وصرخ «لمَ

تقف هنا كالحمار؟ استعمل قبضتيك!»، فغلَبَ «العدو».

لطالما تحدى ستالين الغلمان «الأكبر والأقوى منه»، يقول جوزيف دافريشوي. كان مسقسقًا أصلًا، وأخرق، ليتمكّن من إجادة الرقصة الجورجية ليكوري، فكان يقضي بسرعة على أرجل الصبي الذي يرقصها برشاقة.

أظهر رغبة في التمتع بالسلطة، وقد رافقته حتى أيامه الأخيرة. «انتمى سوسو إلى عصابته المحلية، لكنه غالبًا ما كان ينتقل إلى العصابة المعارضة لأنه يرفض الانصياع لقائد عصابته» الذي يتذمّر من أن الصبي ستالين «ينسف سلطتي ويحاول الإطاحة بي». ظنّ إيريماشفيلي أن «كل الناس الذين يسيطرون على الآخرين، لأنهم أكبر سنًا أو أقوى، يشبهون والده: طوّر شعورًا ثأريًا ضد كل من يتفوّق عليه». وحالما تفلّت من سيطرة والدته، حتى كطفل، وجب عليه أن يكون قائدًا.

ولّد البديلُ عن والده المستأسد والمدمّر، ووالدته العابدة الشغوفة، وذكائه الطبيعي، وتبجّحه بطريقة أو بأخرى، قناعةً قوية لديه بأنه دائمًا على حق، وتجب إطاعته. وجلبت له ثقته بنفسه المعدية المناصرين. من أتباعه نجل أحد أصدقاء أمّه الأرمن - سيمون «سينكو» - تيربيتروسيان، المدعوّ لاحقا كامو.

الوالد الغني، الذي جنى ثروة بتزويد الجيش خلال فتوحات الإسكندر الثاني في خيفا وبوخارا خاناتس، سأل ابنته بغضب «ما الذي يراه الناس بحق السماء في هذا الستالين المعدم الذي لا يساوي شيئًا. أما من أشخاص محترمين في غوري؟». لكنهم،

ليسوا كثرًا على ما يبدو.

يقول إيريماشفيلي «سوسو صديق جيد ما دام المرء يُذعن لإرادته الديكتاتورية». وعندما نمّ صبي على كوت شاركفياني لأنه أكل قربان الإفخارستيا، لعن ستالين، في إعادة تشريع صبياني للتطهير المستقبلي، «حياته، ونعته بالمخبر والجاسوس، وجعله مكروهًا من الصبيان الآخرين، ثم أبرحه ضربًا حتى صار أسود مزرقًّا. كان سوسو صديقًا متفانيًا».

أظهر ستالين الحماسة الشعرية للجبال والسماوات، لكنه نادرًا ما أحس بالتعاطف مع الناس. يتذكّره نجل ضابط الشرطة في هذا الوقت، على أنه «صورة طبق الأصل عن والدته». كان هادئًا وحذرًا كثيرًا، لكن «عندما يتغلّبه الغضب، يصبح عنيفًا، يشتم ويجرّ الأمور إلى أطرافها». أصبح ستالين الذي لديه أقل من غيره ليخسره، وروابطه العاطفية قليلة، متطرفًا[67] طبيعيًا.

* * *

كان القتال في الشوارع شرعيًا، ليس فقط لأن عائلة غوريلي انضمت إلى الشجار السنوي، وراهنت على مبارزة مصارعة، لكن لأن الصبيان كانوا يلعبون دور أبطال السرقة الجورجيين الذين يواجهون الروس في الجبال المجاورة. لكن صِبْية المدرسة وجدوا أنفسهم اليوم مضطهَدين من الامبراطورية الروسية، حتى في نظام المدرسة.

نظّم القيصر البليد، ألكسندر الثالث، حركة ارتجاعية محافظة ضد

السياسات المرنة والليبرالية لوالده المقتول الذي سيوحّد معظم الجورجيين ضد امبراطوريته. أصدر القيصر مرسومًا ينص على أنه على الجورجيين تعلّم اللغة الروسية ودراستها[68] ، لذلك حضر ستالين أمثولات الروسية مع آل شاركفياني.

عندما دخل المدرسة في أيلول/سبتمبر 1890، شارك ستالين في كراهية القواعد الروسية الجديدة. حتى أنه لم يكن مسموحًا للصِّبْية تكلّم اللغة الجورجية مع بعضهم البعض. يقول إيريماشفيلي، «لم نكن قادرين على تكلّم اللغة الروسية بشكل صحيح، فأقفلوا أفواهنا في سجن الأطفال هذا. أحببنا وطننا الأم ولغتنا الأم... اعتبرونا نحن الجورجيين ثقافة دونية، حيث يجب ضخ بركة الحضارة الروسية».

كان يُعاقَب بسبب التكلم باللغة الجورجية في الصف «بالوقوف في الزاوية، أو حمل قطعة خشبية كبيرة طوال اليوم، أو الحجز في خلية اعتقال من دون مأكل أو مشرب، وفي ظلمة تامة، حتى وقت متأخر من الليل».

كان المعلمون الروس[69] قاسين باللباس الروسي - رداء التنك مع أزرار ذهبية وقبعات مستدقة الرأس - يزدرون اللغة الجورجية. لكن معلمًا واحدًا كان محبًا: أستاذ الغناء سيمون غوغشيليدزي، وهو متأنق لطيف يرتدي دائمًا آخر صيحات الموضة: طماق الكاحل وأطواق رفيعة وعروات. وكانت فتيات المدرسة متيّمات في حبه، ويكتبن حتى الأغاني عنه. كان ستالين

غلام الخورس المفضّل عنده، حاول مساعدته بكل طريقة ممكنة: «تعلّم في غضون عامين، الموسيقى، وبدأ مساعدة قائد الفرقة الموسيقية. كان هنالك العديد من القطع للأداء المنفرد، وكان سوسو يغنيها دائما...». كتب المعلّم الرومانسي «الأمر لا يتعلق فقط بجمال صوته وعذوبته، بل بأدائه الرفيع». غالبًا ما كان يعمل ستالين في الغناء في الأعراس: «يلتفت الناس إليه فقط لمشاهدته وهو يغني، ويقولون، فلنذهب لرؤية ولد دجوغاشفيلي كيف يبهر الجميع بصوته». وعندما ظهر ستالين «في غناء منفرد من على منبر الوعظ، وهو يرتدي رداء المدرعة الكهنوتي ويغني بأعلى الأصوات المدهشة في غناء الرجال، ابتهج الجميع!».

خلال الأعوام الأولى في المدرسة، كان ستالين تقيا جدًا، حتى أنه نادراً ما يفوّت قداسا. يقول زميل له في المدرسة، ويُدعى أ. شيليدزي، إنه «لم يؤد الطقوس فحسب، بل كان يذكّرنا دائما بمعناها». ويتذكر شخص آخر، سيلياشفيلي، ستالين وصبيين آخرين في الكنيسة، «وهم يرتدون المدرعة الكهنوتية، ساجدين ورافعين رؤوسهم إلى الأعلى، يرتلون صلوات الغروب أو المساء بأصوات ملائكية، في حين يسجد الصبيان الآخرون ممتلئين بنشوة ليست من هذا العالم». كان «أفضل قارئ للمزامير» في الكنيسة. يسمح للآخرين بالقراءة فقط بعد أن يعلّمهم سوسو بنفسه. وقد قدّمت المدرسة الممتنّة له كتاب مزامير دافيد بإهداء «إلى جوزيف دجوغاشفيلي... لقاء التقدم والسلوك والقراءة والغناء الممتاز لسِفْر المزامير».

كما كان سوسو يرسم بشكل جيد، وأظهر حسا في التمثيل لازمه طوال حياته. ظهر في مسرحية هزلية هجائية للهزء بشكسبير: «جعل تعبير سوسو الحضور ينفجر ضاحكًا!». كان قد بدأ بكتابة الشعر: «يكتب أبياتًا بدلًا من الرسائل لأصدقائه»[70].

وكان من أفضل التلاميذ البارزين في صفه في المدرسة. قال أستاذ الغناء «كان تلميذًا مجتهدًا جدًا. لا يذكر أحد أنه أخذ علامات دون الخمسة (الدرجة أ)». كان سوسو «يمضي وقت فراغه في قراءة الكتب». «يحمل أحيانًا الكتب في حزام سرواله»، وأحب مساعدة الأولاد الأقل ذكاءً في فروضهم. «لم يفوّت صفًا ولا وصل متأخرا قط، وأراد دائما أن يكون الأول في كل شيء»، يقول زميله في الصف بيتر أدامشفيلي، إنه نصحه: «حسّن نفسك. لا تكن كسولًا، وإلا فستخسر حياتك».

حتى أن المعلّمين الذين يكرهون اللغة الجورجية أُعجبوا بمعرفة ستالين. كان المراقب في المدرسة بوتيرسكي يعتذر عن حضور المناسبات الاجتماعية، قائلًا إن عليه الذهاب إلى البيت ليدرس لأنه «إذا لم أكن مستعدًا (لصف الغد)، فأنا أكيد من أن تلميذًا يدعى دجوغاشفيلي سيتفوّق علي!»[71]. كان ستالين فاضلًا على نحو متكلّف، حتى أنه عندما يُعنى بمهام الصف، يدوّن أسماء من يتأخر أو يحاول الغش. وقد أسماه الأولاد الآخرون «الشرطي».

لكن، لم يكن الطفل المدلّل والمحبوب في الصف، قط مراعيًا ومحترمًا للآخرين. عندما كان التلاميذ يذهبون في رحلة، ويسمح

أحد الصبية للمراقب بوتيرسكي بأن يمتطي على ظهره، يسخر ستالين قائلًا: «ما أنت، حمار؟ لا أسمح لله بذاته بأن يمتطي على ظهري، فكيف الحال بالنسبة إلى مراقب في مدرسة». وعندما حاول غوغتشيليدزي إقناعه بأداء أغنية لم تعجبه، لم يحضر سوسو في اليوم المحدد.

عيّن لافروف، أكثر المعلّمين المكروهين، الذي يضطهد كل ما يتعلق بجورجيا، ستالين «مساعدًا له»، وهو قرار ندم عليه بعد فترة وجيزة. عندما حاول لافروف إجبار «مساعده» على إعلامه بأي شخص يتكلم باللغة الجورجية، تصرّف ستالين. وبدعم من بعض الصِبْية الأقوياء في سن الثامنة عشرة، نصب شركًا للمعلم، فأخذه إلى صف فارغ وهدّده بالقتل، فأصبح لافروف مطيعًا أكثر.

في نهاية العام الرابع، قرّر ستالين أنه يجب التقاط صورة لخورسه. سمعه أستاذ الغناء «يقسّم المهام: يقوم فتى بجمع المال، ويحجز الآخر المصوّر، وعندما اجتمعنا، وصل (ستالين) مع باقة زهور، وأمر الصبية بوضع زهرة في عروتهم وترتيبها للمصوّر».

لكن الغموض لفّ سوسو دائما: وصل بيسو المجنون مرة وهو ثمل، وحجزه عن الذهاب إلى مدرسة الكنيسة، طالبًا أن يصبح إسكافيًا. لجأت كيكي إلى من يحميها: «حشدتُ العالم أجمع، أشقائي والعراب أغناتاشفيلي والمعلّم...». وأعاد بيسو «ولدي إليّ». لكن بيسو عاد «فجأة إلى المدرسة ثملًا للقبض على سوسو بالقوة». فتسلل سوسو إلى المدرسة تحت معطف أشقاء كيكي، في

حين أن «الكل ساعد وأخفى الولد، وقالوا لبيسو الغاضب إن سوسو لم يأت إلى المدرسة حتى».

كان ستالين في دور صبي المدرسة، كالسياسي الذي أصبح عليه: مجموعة من التناقضات: يلخّص إيريماشفيلي «كان سوسو دجوغاشفيلي الأفضل، لكن أيضًا أكثر التلامذة سوءًا في السلوك». كانت طفولة ستالين أصلًا عبارة عن نضال للتغلب على سوء الحظ. لكن، عندما تقدّم في المدرسة، واجه سلسلة من الضربات الرهيبة التي كادت تقضي عليه[72].

(4)

شنق في غوري

في 6 كانون الثاني/يناير 1890، اندفع أولاد الخورس بأعداد كبيرة بقيادة أستاذ الغناء غوغتشيليدزي من الكنيسة بعد بركة عيد الغطاس للعسكر الروسي في غوري. يتذكر غوغتشيليدزي أن «أحدًا لم ينتبه إلى فيتون منطلق بسرعة خاطفة» يسير مباشرة نحو الجموع. كان ستالين، البالغ من العمر اثني عشر عامًا، يعبر الطريق عندما «اندفعت العربة نحوه، فضرب عمودها وجنته، وهشم له قدمه، ومرت العجلات على رجليه. أحاطه الجموع وحملوه وهو فاقد الوعي، ونقلناه بعيدًا». تم توقيف سائق العربة، وحُكم لاحقًا بالسجن شهرًا، لكن كيكي المسكينة عادت فرأت ولدها المدمَّى، محمولًا إلى المنزل. وعندما استفاق من إغمائه، رأى والدته اليائسة. فقال لها بشجاعة «لا تقلقي، أمّاه، أنا في أفضل حال. لن أموت»[73].

كانت إصاباته بالغة، إلى درجة أن سوسو نُقل إلى المستشفى في تيفليس، العاصمة، وخسر الدراسة لعدة أشهر. تضرّرت رجلاه بشكل كبير. وبعد أعوام في الثانوية، اشتكى من «وجع في رجليه». وحتى حين تعافى، كان يمشي بشكل متثاقل وجانبي، ما أكسبه لقبًا آخر. بعد أن كان صاحب هزمات الجدري (شوبورا)، أصبح صاحب الأعضاء المبتورة (دجيزا). وسعى أكثر من أي

وقت مضى، إلى إثبات قوته، وتمتّع بالثقة لتخطي المحنة.

أخرج الحادث بيسو من الظلمة، وهو يتحلى بحس الثأر. ربما زار الرجل الإسكافي الصبي في تيفليس. وكان على كيكي أن تخبره بأن الولد مريض جدًا. لكن بيسو لم يستطع مقاومة فرصة إعادة فرض نفسه على العائلة المتحدية له، والمتذمرة منه. وحالما تعافى سوسو في تيفليس، خطفه والده، ووظّفه كعامل إسكافي متدرّج في معمل الأحذية إديلخانوف، حيث يعمل بنفسه.

«تريدين أن يصبح ابني أسقفًا؟ على جثتي الهامدة، لن يتعلّم!»، صرخ في وجه كيكي. «أنا صانع أحذية، وابني سيكون كذلك».

بدأ بيسو يكدح وابنه مع القوى العاملة القوية البالغ عددها ثمانين لدى إديلخانوف لساعات طويلة وبأجور متدنية في قبو نصف عائم، مضاء بلمبات الكيروسين، في خضم رائحة الغوط والجلد الدابغ. جعلت الرائحة الكريهة والنتنة، الشبان يتقيأون. حتى السلطات القيصرية، قلقت من عدد العمال الأولاد في معمل إديلخانوف المستطيل الشكل والمقيت. عاش مع والده في غرفة واحدة في مقاطعة لعمال أفلابار، وسار إلى العمل على جسر بعد قلعة - سجن ميتيخي، فكان على سوسو حمل أحذيته من المعمل إلى مخازن المتجر في بازار ساحة يريفان. وإضافة إلى الفترة الوجيزة التي أمضاها في معمل والده في غوري، كانت هذه الخبرة الوحيدة لستالين كعامل في حياة كرّسها للبروليتاريا. ولو نجح بيسو، لما كان هناك ستالين، القيادي الأشهر في تاريخ روسيا والسوفيات، لأنه كان سيبقى غير متعلّم. ويعزو ستالين

نجاحه السياسي إلى جمعه غير الاعتيادي بين وحشية الشوارع والتربية الكلاسيكية.

يتذكّر أستاذ الغناء أن «المدرسة كلها افتقدت سوسو، وأوّلهم كيكي». تصرّفت كيكي من جديد، وحشدت كل حلفائها. وصلت هذه المرأة المدهشة والحسنة المظهر، إلى تيفليس بدعم المعلمين في المدرسة، والأب شاركيفياني وأغناتاشفيلي، الذين حاولوا جميعًا التغلب على بيسو. حتى بطريرك كنيسة الروم الأرثودكس، سمع بالقضية واقترح إيجاد مكان لسوسو كمغن في الخورس في تيفليس، لكن كيكي كانت عازمة على المضي في خطّتها. غضب بيسو، وتمت استشارة الصبي. قال إنه يريد متابعة دراسته في مدرسة الكنيسة في غوري، فأعاده الكهنة إلى كيكي. وأقسم بيسو ألا يعطي بعدُ المالَ إلى عائلته. قال إنه سيلغيهما من حياته.

تقول كيكي «مر الوقت ولم نعد نسمع صوت بيسو. لم يقل لي أحد إذا كان حيًا أو ميتًا. كنت سعيدة لأنني، من دونه، أبني العائلة وحدي على أسس صلبة من جديد». لكن بيسو ظهر في حياة ستالين مرة ثانية: قبل أن يختفي إلى الأبد[74].

عاد ستالين إلى المدرسة حيث امتاز من جديد «كأفضل تلميذ» (مصدر فخر أمه). ومن دون مساعدة بيسو، لم تستطع كيكي دفع أقساط المدرسة. عملت بجهد أكبر، وزارت أسيادها، ووجدت أسيادًا جددًا: بدأت في التنظيف والغسيل لدى الكاهن، رئيس مجلس المدرسة، فاسيلي سيلييف، بأجر 10 روبلات شهريًا. ساعدها أغناتاشفيلي ودافريشوي أكثر. ولم تقم المدرسة بذاتها

بإعادة سوسو إلى مقاعد الدراسة فحسب، بدعم بلا شك من الرئيس بيلييف وكل من حمى كيكي وأستاذ الغناء المتفاني، بل قدّمت إليه أيضًا منحة دراسية بقيمة 3 روبلات و30 كوبكًا.

استنزفت ربما صدمة الحادث والخطف والحياة الصعبة في المعمل، قوى سوسو. فبعد أن أخلى بيسو سبيله، مرض الصبي بشدة بداء الرئة. كادت والدته «تخسره، لكن سوسو نجا من جديد من براثن الموت»، وفق أستاذ الغناء. وضاعفت المدرسة هذه المرة المنحة إلى 7 روبلات. قالت كيكي الفخورة إنه حتى عندما كان يعاني المرض والحمى، كان يهذي قائلًا، «أمّاه، دعيني أذهب إلى المدرسة، أو سيضع لي الأستاذ إيلوريدزي علامات سيئة...».

* * *

طوال ما يقارب العام، عانى أزمات، الواحدة تلو الأخرى. احتفل ستالين الآن بعودته إلى المدرسة بحماسة متجددة. لكنه أصبح ثائرًا أكثر. يقول إيريماشفيلي، الذي رتّل معه في الخورس الثلاثي، إنه «كان يُعاقَب تقريبًا بشكل يومي». نظّم سوسو احتجاجًا ضد المراقب المكروه بوتيرسكي، ما أدى تقريبًا إلى حالة شغب: «كان هذا أول تمرّد يحثّ عليه سوسو».

وجب على والدته الانتقال إلى العيش في الغرف البائسة في شارع سوبورنايا، وهو «منزل قديم وصغير ووسخ»، مع سقف تتسرب منه الرياح والأمطار. يتذكر إيريماشفيلي «كانت الغرفة فجرًا أزليا. لا يغيب عنها الهواء العفِن والسميك ورائحة المطر والثياب

الرطبة وروائح الطبخ». لكن ستالين يغيب.

كانت لديه أسباب أكبر تدفعه إلى البقاء في الخارج مع عصابته في الشوارع وجبل غوريجفاري.

وفي حين كان أفضل مرتّل في مدرسة الكنيسة، بدأ يهتم بورطة الفقراء، ويشكّك في إيمانه. أصبح صديقًا حميمًا لأبناء ثلاثة كهنة: لادو وفانو كيتسخوفيلي اللذين اضطلعا بدور محوري في حياته المستقبلية، وميخائيل دافيتشفيلي[75]، الذي، على غرار ستالين، كان يعرج في المشي. دخل الأخ الأكبر في عائلة كيتسخوفيلي، لادو، بعد فترة وجيزة ثانوية تيفليس، ونقل الأخبار عن كيفية قيادته احتجاجًا وإضرابًا أديا إلى طرده. استوحى ستالين من هؤلاء الأصدقاء الجدد وكتبهم، لكنه رأى أن الكهنوت رسالته لمساعدة الفقراء. وطمح حينها إلى الدخول إلى السياسة لأول مرة في حياته. تحت تأثير لادو كيتسخوفيلي الجاذب، أعلن أنه يريد أن يصبح مديرًا محليًا ذا قدرة على تحسين ظروف الفقراء.

كان يتكلّم دائمًا على الكتب. إذا اشتهى كتابًا، يفرح في سرقته من زميل له في المدرسة، ويأخذه معه مسرعًا إلى المنزل. وعندما قارب سن الثالثة عشرة، أخذه لادو كيتسخوفيلي إلى متجر صغير لبيع الكتب في غوري، حيث دفع اشتراكًا بقيمة 5 كوبكات، واستعار كتابًا هو ربما كتاب داروين عن أصل الأجناس البشرية Origin of Species. قرأه ستالين في الليل بأكمله، ونسي أن ينام، حتى وجدته كيكي.

قالت «حان وقت الخلود إلى النوم. هيا اخلد إلى النوم، سيطلع

الفجر».

وبينما كثف القراءة، تردد في إطاعة والدته: «أحببت الكتاب كثيرًا. أمّاه، لم أستطع التوقف عن قراءته...».

وذات مرة، بينما تمدد سوسو وبعض الأصدقاء، بمن فيهم غريشا غلورجيدزي، على العشب في المدينة للتحدث عن الظلم بوجود الأغنياء والفقراء، فاجأ الكل على حين غرة قائلًا: «الله غير عادل، لا وجود له أصلًا. لقد خدعونا. لو أن الله موجود، لكان جعل العالم أكثر عدلًا».

تفاجأ غريشا: «سوسو! كيف أمكنك قول مثل هذه الأمور؟».

فقدّم إلى غلورجيدزي نسخة عن كتاب داروين «سأعيرك كتابًا، وسترى».

تداخلت أحلام سوسو في إحلال العدالة، مع قصص الأبطال الشعبيين في السرقة، وبروز حس الوطنية الجورجية من جديد. أجلّ أشعار الأمير الوطني الجورجي رافاييل إيريستافا، وحفظ مؤلفه «الوطن الأم خوفسور» Khevsur's Motherland. وحمّست «هذه القصيدة الرائعة» ستالين في سن متقدّمة. وبدأ تلميذ المدرسة بكتابة أشعاره الرومانسية الخاصة به. كان كل الصِّبْية يتسكّعون حول ستالين بشراهة، ويناقشون هذه الأفكار والأعمال المحظورة[76].

في هذا الوقت، وقع ستالين في الحب، وهذه لحظة إنسانية أخرى اقتُطعت من المذكرات الرسمية، ولم تُنشر أبدًا. كان شغفه بكريمة

الأب شاركفياني: استأجر هو ووالدته غرفًا من هذه العائلة. يقول جورجي أليسابيداشفيلي إنه «وقع في غرام ابنة شاركيفياني، بالشكل الثالث. وكان يخبرني عن هذا الإحساس، ويسخر من نفسه لأن العاطفة تجرفه». يتذكر ستالين بعد خمسين عامًا أنه عندما كانت تتعلم اللغة الروسية، «غالبًا ما كان يمر ويهتم بهذه الدروس». «مرة عندما واجهت التلميذة مشكلة، مددت لها يد العون...». لا نعلم إذا بادلته كريمة الكاهن الشعور نفسه، لكن لطالما كانا مقربين من بعضهما البعض في طفولتهما كشقيقين.

وكما لاحظ كوت، فقد «بدأ يلعب بالدمى مع شقيقتي. يدفعها إلى البكاء، لكن بعد لحظة يتصالحان ويجلسان معا، والكتب بأيديهما كصديقين حقيقيين [77]...».

كان لحادث واحد - «مناسبة بارزة في غوري في أواخر القرن التاسع عشر» - أثر كبير في ستالين. في 13 شباط/فبراير 1، أمر معلمو مدرسة الكنيسة كل التلاميذ بحضور تمثيلية شنيعة، أملوا أن «تبعث الخوف والاحترام في نفوس الصِّبْية»، وهي: عملية شنق.

* * *

نُصبت ثلاث مشانق في يوم شتاء مشمس على ضفاف نهر الكورا تحت قلعة الجبال. أتى العديد من الغوريلي لمشاهدة الشنق، وكان لباس تلاميذ مدرسة الكنيسة بارزًا في الحشد. لكن الصبية كانوا «يائسين جدًا بسبب الإعدام».

سرق الرجال المحكوم عليهم بقرة، وقتلوا في المطاردة اللاحقة، شرطيًا. لكن الصبية علموا بأن المجرمين لم يكونوا سوى ثلاثة «فلاحين عانوا ظلم ملاّك الأراضي فهربوا إلى الغابة». هم «روبن هود» صغار، لا يهاجمون سوى ملاّك الأراضي المحليّين، ويساعدون الفلاحين الآخرين. تساءل ستالين وبيتر كابانادزي، كيف يحق لهم قتل السارقين، علمًا بأن الكهنة علّموهم وصايا المسيح العشر، ومنها: «لا تقتل». رُعب تلميذا المدرسة تحديدًا لرؤية كاهن يقف قرب المشانق حاملًا صليبًا كبيرًا.

دُهش الصِّبْية. يتذكّر أحد أفراد المجموعة، غريغوري رازمادزي: «تسلّق سوسو دجوغاشفيلي وأنا وأربعة تلاميذ آخرين شجرة، وشاهدنا العرض المرعب من هناك» (لكن رئيس الشرطة دافريشوي منع ابنه من حضور الإعدام). الشاهد الآخر الذي أصبح صديق ستالين لاحقا ورقّاه، هو مكسيم غوركي، أصبح لاحقا صحافيًا، وصار بعد فترة وجيزة أشهر كتاب روسيا.

تعاطف آل غوريلي مع هؤلاء السارقين القوقازيين الشجعان - اثنان منهم هما أوسيتيان وواحد إيميراتي -. كانت عمليات الإعدام عرض عضلات روسية. أطلق دافريشوي الصغير على الرجال المحكوم عليهم اسم «الشهداء المقدّسين». أصبحت الجموع الغفيرة تهدّد، فطوق صفّان من الجنود الروس الساحة. بدأ قرع الطبول. كتب غوركي في مقالته: «كانت السلطات بلباسها الرسمي تمشي ببطء حول المشنقة. «بدت وجوههم الكئيبة والقاسية غريبة ومعادية».

وكان لهم أسباب كافة ليكونوا عصبيّين.

سار السارقون الثلاثة إلى المشنقة. فُصل واحد عن الآخرين، فقد أُرجئ تنفيذ الحكم به. قدّم الكاهن إلى المحكوم عليهما بركته، فقبلها واحد ورفضها الآخر. طلب كلاهما سيجارة ورشفة مياه. التزم ساندرو خوبولوري الصمت، لكن «زعيم الفتنة» الوسيم والقوي، تاتو جيوشفيلي، ابتسم ومزح ببسالة أمام الجموع المدهوشة. اتكأ على درابزون المشنقة، ولاحظ غوركي «أنه يتكلم مع الناس الذين أتوا لرؤيته يموت». رمى الجموع الحجارة على الشانق، الذي كان مقنّعًا ومغطًّى بالكامل بقماش قرمزي. وَضع المحكومَ عليهما على كرسي بلا ظهر، وشدَّ حبل الشنق حول رقبتيهما. برم ساندرو شاربيه ورتّب الحبل. فقد حان الوقت.

رفس الشانق الكراسي. وكما غالبًا في القمع القيصري، كان الأمر غير بارع: تفلّت حبل ساندرو، فلهث الجمع. أعاده الشانق القرمزي إلى الكرسي، ووضع حبلًا جديدًا حول رقبته، وعلّقه من جديد. استغرق تاتو أيضًا بعض الوقت ليموت.

رحل أهل البلدة وتلاميذ المدرسة بسرعة. ناقش ستالين وأصدقاؤه في المدرسة ما سيحصل لأرواح الذين أُعدموا: هل سيذهبون إلى نار جهنّم؟ بدّد ستالين شكوكهم، قائلًا «كلا. لقد أُعدموا، ومن الظلم معاقبتهم من جديد». اعتبر الصِّبية أن ذلك مفهوم. غالبًا ما يعتبر الشنق كمكوّن لطبيعة ستالين الإجرامية، لكن كل ما نعرفه هو أن الصِّبية تعاطفوا مع الجورجيين الخارجين عن القانون، وازدروا قامعيهم الروس. فإذا أدى المشهد غرضًا ما، فهو

المساهمة في إبراز ستالين الثائر، وليس المجرم[78].

حان الوقت للانتقال من غوري: شارف سوسو على التخرّج من مدرسة الكنيسة. وغالبًا ما كانت كيكي تجلس على رأس سريره عند الفجر بصمت، تتأمل ابنها النائم البارع. تقول «كبر سوسويي»، لكنهما كانا يمضيان الكثير من الوقت معا. «قليلًا ما كنا نفترق. كان دائما إلى قربي». وحتى عندما كان مريضًا، كان «يقرًا جالسًا إلى قربي. مصدر الترفيه الآخر الوحيد بالنسبة إليه هو المشي على طول النهر، أو صعودًا إلى جبل غوريجفاري».

أدركت الآن أنه لتحقيق أحلامها، عليها أن تسمح له بأن يذهب على الرغم من أنه «لا يستطيع العيش من دوني، أو لا أحتمل الحياة من دونه، لكن عطشه للتعلّم أجبره على تركي». الحقيقة أن هذا العطش لم يفارقه أبدًا[[79]]. من الطبيعي، إنه بعد مدرسة الكنيسة، ذهب إلى أفضل مؤسسة تعليمية دينية في جنوبي الامبراطورية: ثانوية تيفليس. في تموز/يوليو 1893، نجح في امتحاناته بتميّز، وهو في سن الخامسة عشرة. أوصى به كل معلميه، وخصوصًا سيمون جوغتشيليدزي، للذهاب إلى الثانوية... لكن هنالك مشكلة.

«مرة أتى سوسو إلى البيت» إلى عند والدته، «وعيناه مغرورقتان بالدموع».

سألته كيكي «ما الخطب، يا بنيّ؟».

شرح سوسو أن الإضراب وإقفال ثانوية تيفليس، اللذين أعدهما

جزئيًا صديقه الراديكالي لادو كيتسخوفيلي، يعنيان «أنه قد يخسر عامًا لأنه لا يسمح بدخول الجدد ممن ليسوا أبناء الكهنة هذا الصيف».

قالت كيكي «أنا مرتاحة بنيّ، ثم ارتديت ملابسي». كانت ربما في أفضل حلة، واتصلت بمعلمي ورؤساء سوسو الذين وعدوا بالمساعدة. اقترح معلم الغناء أن يأخذ سوسو بنفسه، ويُدخله مدرسة تدريب المعلّمين. لكن، بالنسبة إلى كيكي، تريد الأفضل والكهنوت: أي الثانوية.

توجهت كيكي وابنها إلى تيفليس. كان سوسو متحمّسًا، لكن على بعد 45 ميلًا في القطار، بدأ فجأة بالبكاء.

تنهّد ستالين قائلًا «أماه، ماذا لو وجدني والدي، عندما نصل إلى المدينة، وأجبرني على أن أصبح صانع أحذية؟ أريد أن أتعلّم. أفضّل أن أقتل نفسي على أن أصبح إسكافيًا».

تتذكر كيكي «قبّلته، ومسحت دموعه».

أكّدت له أنه «لن يمنعك أحد من الدراسة، ولن يُبعدك أحد عني».

أُعجب سوسو بتيفليس، «الصخب النابض للمدينة الكبيرة»، على الرغم من أن كليهما الدوغاشفيلي «كان مرعوبًا من فكرة ظهور بيسو، لكننا لم نلتقِ به»، قالت كيكي.

استأجرت كيكي التي لا تُقهر، غرفة، وبحثت عن نسيبها الذي لديه معارف كثيرة في العاصمة، وكان نزيل كاهن لديه معارف أكثر وزوجة داهية وواسعة الحيلة.

قال النسيب لزوجة الكاهن «رجاءً، ساعدي هذه المرأة، هذا عمل خير كبناء كنيسة بأكملها»[80]. لجأت زوجة الكاهن إلى عدة رجال دين تحدثوا إلى إدارة الثانوية ونجحوا في منح ستالين حق الخضوع لامتحان الدخول. هذا جل ما أرادته والدته «لأنني عرفت أنه سيمجّدني». وبالفعل «مجّدها»، لكن كلفة دخول من لا يكون ابن كاهن إلى الثانوية، هي 140 روبلًا سنويًا، وهو مبلغ لا أمل لكيكي في أن تجمعه على نفقتها الخاصة. وأقنع دافريشوي، بأمر من كيكي بالطبع، سيدة أرستقراطية معروفة، هي الأميرة باراتوف، بمساعدتها أيضًا. استخدمت نفوذها بحماسة شديدة، وتقدّم سوسو لطلب منحة دراسية، وتم قبوله كنصف تلميذ داخلي، أي أنه ما زال عليه تسديد مبلغ كبير - 40 روبلًا سنويًا - وشراء لباس المدرعة الكهنوتي. لم تمانع كيكي: عادت «أسعد أم في العالم» إلى غوري، وبدأت بالخياطة لجمع المال. وساهم أغناتاشفيلي ودافريشوي بنفقاته.

تقول كيكي «بعد شهر، رأيت سوسو بلباس التلميذ الداخلي، وبكيت من شدة السعادة. لكنني حزنت كثيرًا أيضا...». خطا سوسو بدخوله الثانوية في حدود 15 آب/أغسطس 1894، خطوة كبيرة إلى العالم الأوسع لعاصمة القوقاز.

الصبي الأعرج والمكسو بهزمات الجدري وصاحب الأصابع المتشابكة، الذي ضربه والده وتخلّى عنه بإذلال، وعبدته والدته الوحيدة، لكن ضربته أكثر، ولاحقته صفة اللاشرعية، ونجا من الحوادث والأمراض، انتصر على كل المحن.

يصعب أن نغالي في إظهار هذه اللحظة الحيوية. من دون الثانوية ومن دون تصميم الوالدة، كان سوسو ليخسر التعليم الكلاسيكي، الخانق، الذي أعدّ نجل الإسكافي ليصبح خَلَف لينين.

تتذكر والدته «كتب لي أنه سيخلّصني من الفقر قريبا»: أول رسالة في حياة كاملة من الرسائل المطيعة، لكن المتباعدة من ابنها الحبيب. «عندما كان يرسل إلى الرسائل، كنت أشدّها إلى قلبي، وأنام قربها وأقبّلها».

تضيف كيكي[[81]]: «الكل في المدرسة هنأني، لكن وحده سيمون غوغتشيليدزي بدا كئيبًا، وقال: «تبدو المدرسة شبه قافرة. من سيغنّي في الخورس الآن[82]؟».

(5)

الشاعر والكهنوت

الصبي من غوري، البالغ من العمر ستة عشر ربيعًا، المعتاد على حرية القتال في الشوارع، أو تسلّق غوريجفاري، وجد نفسه الآن مقفلًا عليه في كل ساعة من النهار، في مؤسسة تشبه أكثر المدارس العامة الإنكليزية القمعية في القرن التاسع عشر أكثر من شبهها بالأكاديمية الدينية: غرف النوم، والصِّبية المستأسدون، وممارسة اللواط المنتشرة، والمعلمون المنافقون المتوحشون، والساعات في خلايا الاعتقال، كل ذلك جعلها نسخة قوقازية عن أيام توم براون في المدرسة Tom Brown's Schooldays.

وصل ستالين مع مجموعة من غوري، بمن فيهم جوزيف إيريماشفيلي وبيتر كابانادزي. وجد هؤلاء الصبية من المحافظة، وبعضهم فقراء، كسوسو، أنفسهم، بين «أبناء متعجرفين لأهل أثرياء[83]. شعرنا كالبضعة المختارين»، كتب إيريماشفيلي، لأن الثانوية كانت «مصدر الحياة الفكرية الجورجية، مع جذورها التاريخية في حضارة تبدو مثالية».

عاش سوسو والكهنة المتدربون الآخرون البالغ عددهم 600، في ثانوية كلاسيكية جديدة من أربعة طوابق، وركائز بيضاء ونبيلة. في الطابق العلوي، يتشاركون في غرف النوم التي تضم عشرين

أو ثلاثين سريرًا. ضمت الطوابق الأخرى كنيسة وصفوفًا وحجرة طعام. في يوم تم تقسيمه بصرامة بدقات الأجراس، يستيقظ سوسو في كل صباح عند الساعة السابعة صباحًا، يرتدي المدرعة الكهنوتية، ثم يتوجه إلى الصلاة في كنيسة، ثم يرتشف بعد ذلك كوبًا من الشاي ويلتحق بزملائه في الصف. يقرأ التلميذ الموكل صلاة أخرى. تعطى الأمثولات حتى الساعة الثانية. عند الثالثة، موعد الغداء، ثم ساعة ونصف الساعة استراحة قبل معاودة الصفوف عند الساعة الخامسة، ثم يمنع عن المغادرة. بعد الصلاة المسائية، العشاء عند الساعة الثامنة، تتبعها صفوف أخرى ثم صلوات أخرى، وتُطفأ الأنوار عند العاشرة مساء. لا تنتهي خدمات الكنيسة في أيام نهاية الأسبوع، «تقف ثلاث أو أربع ساعات في المكان نفسه، تحرّك نفسك من رِجل إلى أخرى، تحت عيون الرهبان الثاقبة التي لا تعرف الكلل ولا الملل». لكن، كان يُسمح للصبية بالخروج بين الثالثة والخامسة مساءً.

كانت ثانويات الامبراطورية «معروفة بوحشية عاداتها وتعليمها الذي يعود إلى القرون الوسطى وقانون القبضة»، بحسب ما يعلّق تروتسكي. ازدهرت «كل الشرور المحظورة بالكتابات المقدّسة، في معقل التقوى هذا». وأفظع ما في هذه الثانوية، المسماة كيس الحجارة، أنها «تفتقر بشدة إلى الفرح». كانت «مملّة بشكل رهيب، شعرنا بأننا في سجن».

عندما وصل ستالين، كان معلموه البالغ عددهم ثلاثة وعشرين، بقيادة المثلث الحزين: رئيس المدرسة والأرشمندريت سيرافيم ونائبه المراقب غيرموغان، والمكروه أكثر من سواه، الأب

ديمتري، الجورجي الوحيد من بين الثلاثة، الذي وُلد كالأمير دافيد أباشيدزي. رُقّي في غضون فترة وجيزة إلى مراقب. كان هذا الأباشيدزي معلّمًا سمينًا وداكن البشرة. يقول إنه «مطيع الله والعبد الوضيع وخادم القيصر».

كان الرهبان عازمين على محو أي إشارة إلى الجورجية لدى صبيانهم الجورجيين الفخورين بنَسَبهم. كان الأدب الجورجي محظورًا كليًا، على غرار كل الكتّاب الروس الذين نُشرت مؤلفاتهم منذ بوشكين، بمن فيهم تولستوي ودوستوفسكي وتورغينسكي. تم تكليف شخصين للمراقبة والتجسس، في دوام كامل «وفي مراقبة متواصلة ومستمرة». كانت تسجّل كل العقوبات والعلامات السيئة في مجلة المدرسة. أصبحت «بطاقة الذئب» - لطرد التلاميذ - بسرعة، شارة شرف.

كان الأب أباشيدزي يقود مجموعة من الطلاب الذين ينمّون على زملائهم، وأمضى الكثير من أيام ستالين في المدرسة في الزحف على رؤوس أصابعه حول الثانوية، أو في الغارات المباغتة الميلودرامية في غرف النوم للقبض على الصبية وهم يقرأون الكتب الممنوعة، أو يسيئون إلى بعضهم البعض، أو يتفوّهون بكلمات بذيئة.

ومنح ستالين الذي كان بارعًا في ابتكار الألقاب، بسرعة هذا الكاهن الغريب لقب «البقعة السوداء». هذا الرجل، الذي كان في بادئ الأمر مرعبًا، أضحى في النهاية مضحكاً بالطريقة التي لا يعتمدها سوى المعلمين المجانين الأكثر تمسّكًا بالدقة.

سمع ستالين كل شيء عن ثورات الثانوية الشهيرة من معلمه، لادو. قبل بضع سنين، في العام 1885، ضرب تلميذ رئيس المدرسة لأنه قال إن «اللغة الجورجية لغة الكلاب». وفي العام التالي، قُتل رئيس المدرسة بسيف خنجالي جورجي... وهو قَدَر حاول أكثر رؤساء المدارس الإنكليزية وحشيةً، تفاديه.

حققت الثانوية إنجازًا وحيدًا هو إمداد الثورة الروسية بأبرز الراديكاليين المتحجري القلوب. كتب تلميذ آخر، رفيق لستالين يدعى فيليب ماخارادزي: «لم تُنتج أي مدرسة علمانية هذا العدد من الملحدين، كثانوية تيفليس». أصبح «البقعة السوداء» حرفيًا مدرسة داخلية للثوار.

* * *

كان ستالين أولًا «هادئًا ومتيقّظًا ومتواضعًا وخجولًا»، بحسب ما يذكر أحد رفاق المدرسة، بينما لاحظ آخر أن قائد العصابة في غوري المختال، تحوّل إلى «مفكّر ومعزول، فذهب حب الألعاب ومرح الطفولة». كان سوسو المزاجي يقدّر - ويصبح شاعرًا رومانسيًا واع لذاته-، لكنه يدرس أيضًا بجدية، ونجح في الصف الأول بعلامات «ممتازة»، وحلّ في المرتبة الثامنة في العام كله. في العامين 1894 و1895، حصل على 5 درجات (أ) للغناء واللغة الجورجية، وسجّل تقريبًا «4، 5، 4، 5» في الكتاب المقدّس. كان تلميذًا نموذجيًا، يحصل على «5 ممتاز» على السلوك.

كان على سوسو، كصبي يتعلّم بمنحة في ظروف «مثيرة

للشفقة»، أن يرجو باستمرار الرئيس «على ركبتي»[84] للحصول على مساعدة إضافية في الأقساط [[85]].

حصل ستالين على مصروف أكبر (5 روبلات، بحسب ما يتذكر لاحقًا) بفضل الغناء في الخورس. كان «أول صادح (أعلى أصوات الرجال) الخورس المفتاح، وغالبًا ما كان يؤدي في بيت الأوبرا.

كانت ترافقه كيكي إلى تيفليس، وتبقى بضعة أسابيع لمساعدته على الاستقرار. توظفت في الخياطة وتقديم الطعام في الثانوية. مثّل ذلك إحراجًا لستالين بالتأكيد، وربما سببًا آخر لتردده الأولي. بعد إنجاز المهمة، عادت إلى غوري. وطوال فترة غربته، حتى مماتها بعد أربعين عامًا، كتب لها ستالين بانتظام مطيع (بخاصة عندما كان يحتاج إلى المال أو الثياب)، لكن بانفصال متزايد. لم يعد أبدًا إلى الأم التي ورث عنها جموحها الملحوظ ولسانها الحاد، والتي اعتبرها «لا تُحتمل».

اكتشف بيسو، المتواري في تيفليس، بطريقة أو بأخرى، أن سوسو هو مصدر محتمل لمال النبيذ: ذهب لرؤية رئيس ستالين وطلب استعادة ابنه: «دعه يغادر لأنني بحاجة إلى شخص يعتني بي!». لكن ستالين كان «غير مبال». يريد التخفيف من «مشقة بيسو والأشخاص المشابهين له»، لكن يصدّه الرجل بذاته.

يتذكر ستالين أنه «مرة، أتى حارس الليل وقال لي إن والدي في الخارج». أسرع الصبي نزولًا على السلالم ورآه واقفًا هناك. لم

يسأل حتى عني، بل قال بسرعة: «نسيت والدك كليًا، أليس كذلك؟ أنا ذاهب للعمل في بلدة أخرى».

أجاب ستالين «كيف لي بالمال لمساعدتك؟».

صرخ بيسو «اصمت! أعطني على الأقل 3 روبلات، ولا تكن خسيسًا كوالدتك!».

أردف سوسو «لا تصرخ! هذه مدرستي الداخلية. إذا لم تغادر الآن، فسأتصل بالحراس، وسيجبرونك على الرحيل».

يقول ستالين «نجح التهديد. انسلّ والدي في الشوارع، متمتمًا شيئًا[86] لم أسمعه، لكنني حدست بأنه تقريع لي».

في أيام العطل، يعود سوسو إلى غوري لرؤية كيكي الشغوفة. على الرغم من أنه «بدأ في ترك لحيته تنمو، ما زلت أحتضنه كما لو أنه طفل في سن خمس سنين».

لكنه أمضى معظم وقته مع صديقه الأعرج، ميخا دافيتاشفيلي الغني في قريته، تسرومي. وعندما عاد ستالين في الفصل التالي، أبلى حتى أفضل، وحاز درجة «ممتاز» أخرى، وانتقل إلى المرتبة الخامسة في عامه، وبدأ نظم الشعر.

في نهاية مدته، أخذ سوسو أشعاره إلى مكاتب أشهر صحيفة، «إيفيريا» (جورجيا)، حيث استقبله أكبر شعراء البلاد، الأمير إيليا شافاتشافادزي، وهو وطني رومانسي يؤمن بقيام جورجيا زراعية تحكمها الأرستقراطية المتنورة.

أُعجب الأمير بما يكفي ليُري عمل المراهق لناشريه. فُتن بأشعار

ستالين، واختار خمس قصائد لنشرها... ويعتبر هذا إنجازًا. دعا الأمير شافاتشافادزي ستالين «الشاب صاحب العينين المتقدتين». أُعجبوا به في جورجيا كشاعر قبل أن يُعرف كثائر[87].

(6)

«الشاب صاحب العينين المتقدتين»

اعتبرت جورجيا نفسها مملكة مقموعة من الفرسان والشعراء. كانت القصائد المكتوبة باللغة الأقيرية، المنشورة باسم لقب ستالين «سوسيلو»، تُقرأ على نطاق واسع، وأصبحت كلاسيكيات جورجية صغيرة، تظهر في المقتطفات الأدبية المختارة لأفضل الشعر الجورجي قبل أن يسمع أحد بستالين. «ديدا إينا، وهي مقتطفات أدبية مختارة للأطفال من الشعر الجورجي، أُنتجت بين العام» 1912 والستينيات، وشملت أول قصيدة شعرية لستالين - «الصباح» - في طبعتها للعام 1916.

وبقيت في الطبعات التالية، ونُسبت أحيانًا إلى ستالين، وأحيانًا لا، حتى أيام بريزهينيف.

اعتُبر غناء ستالين، بعد أن أصبح مراهقًا صادحًا، جيدًا بما يكفي ليحترف الغناء. وأظهر كشاعر، موهبة في حرفة أخرى كانت لتعطي بديلًا عن السياسة وسفك الدماء. يظن البروفسور دونالد رايفيلد، الذي ترجم الأشعار إلى اللغة الإنكليزية، أنه «قد يجد المرء أسبابًا ليست سياسية صرفًا للأسف لانتقال ستالين من الشعر إلى الثورة». كان المجاز الرومانتيكي مشتقًا، لكن جماله يكمن في الرهافة ونقاوة الإيقاع واللغة.

التقطيع الشعري والإيقاعات لقصيدة «الصباح»، ناجحة بشكل

مثالي، لكن الانصهار الحساس والمبكر بين المجاز الفارسي والبيزنطي والجورجي، هو الذي لقي الاستحسان. يتأمل رايفيلد «لا عجب في أن عميد الرسائل والسياسة الجورجية، إيليا شافاتشافادزي، أراد طبع هذا النتاج الشعري، وعلى الأقل أربع قصائد أخرى».

القصيدة التالية لسوسيلو، القصيدة الغنائية المجنونة «إلى القمر»، تكشف أكثر عن هوية الشاعر: المنبوذ العنيف واليائس بشكل مأساوي، في عالم من الجليد والعناية الإلهية، يميل إلى نور القمر المقدّس. في القصيدة الثالثة، يسبر ستالين «التناقض بين العنف في الإنسان والطبيعة، ولطف العصافير ورقة الموسيقى والمغنين».

القصيدة الرابعة هي الأكثر شفافية. يتخيّل ستالين نبيًا غير معزز في بلاده، شاعرًا هائمًا يسمّمه أهل بلده. الآن وقد بلغ السابعة عشرة من العمر، يتصوّر ستالين عالمًا «لديه هوس الاضطهاد»، حيث «الأنبياء العظماء لا يمكنهم سوى توقع التآمر والقتل». يكتب رايفيلد: لو تضمّنت أي من قصائد ستالين «رأي القارئ، لكان هذا هو».

قصيدة ستالين الخامسة المكرّسة للشاعر العزيز على قلب جورجيا[88]، الأمير رافاييل أريستافي، كانت إلى جانب «الصباح»، موضع إعجاب كبير. هذا ما ألهم «الرجل من داخل» بنك الدولة لتزويد ستالين بمعلومات سرية للسطو على مصرف ساحة يريفان، وكان ذلك جيدًا بما يكفي ليُدرج في عدد

اليوبيل الحكيم للأمير أريستافي في العام 1899. وتتطلب هذه الحكمة البطولية القيثارة والمنجل في الآن معًا.

القصيدة الأخيرة، «نينيكا القديمة»، التي بدت في الصحيفة الأسبوعية الاشتراكية «كفالي» (المحراث)، تصف بكثير من العاطفة بطلًا مسنًا «يحلم أو يُخبر أحفاده عن الماضي»، ربما رؤية لجورجي مثالي كستالين المسن بنفسه، الذي جلس في نهاية المطاف على مصطبة البحر الأسود يُمتع الشبان بمغامراته.

تشرح الأبيات الأولى لستالين اهتمامه الهوسي والمدمّر بالأدب كديكتاتور، وإجلاله - وغيرته من - الشعراء اللامعين كأوسيب ماندلستام وبوريس باسترناك. لقد ترك هذا «القاطن على صخرة الكريملين» و«الذابح الفلاح»، تأثيره في الأدب. وقد كتب كتب ماندلستام في قصيدته المعقّدة الشهيرة التي تشجب ستالين، «الكئيب»، أن «أصابعه الضخمة... مشحمة كاليرقات». لكن سخرية القدر أرادت أن المختال الفج والشهير عن حق لمحافظته الخرقاء، أخفى رجلًا متعلما كلاسيكيًا وصاحب معرفة مفاجئة. لم يتوقف ستالين يوما عن الاهتمام بالشعر. وكان ماندلستام على حق عندما قال، «في روسيا، يقدّر الشعر، وهنا ترتكب الجرائم لأجله».

ازدرى الشاعر الرومانتيكي سابقًا التحديث ودمّره، لكنه عزز نسخته المشوّهة للرومانتيكية، الواقعية الاشتراكية. عرف نيكراسوف وبوشكين بالقلب، قرأ الكتب المترجمة لغوتيه وشكسبير، ويستطيع تلاوة والت وايتمان. كان يتكلم بلا انقطاع

على الشعراء الجورجيين، في طفولته، وساعد بنفسه على تحرير ترجمة روسية لكتاب روستافيلي «فارس في جلد النمر» ‹Knight in the Panther Skin مترجمًا بدقة بعض «دوبيت» الشعر بنفسه، سائلًا بتواضع: «هل ستفي بالغرض؟».

احترم ستالين الموهبة الفنية، مفضلًا عامةً قتلَ مأجوري الحزب بدلًا من الشعراء اللامعين. وبالتالي عند توقيف ماندیلستام، أمر ستالين «اعزلوه، لكن حافظوا على حياته». حافظ على معظم عباقرته، كشوستاكوفيتش وبولغاكوف وأينشتاين، واتصل أحيانًا بهم وشجّعهم، وفي أحيان أخرى، اتّهمهم وأفقرهم. وعندما اتصل بباسترناك في إحدى الضربات الصاعقة الهاتفية من أوليمبس، سأل عن ماندیلستام: «هو عبقري، أليس كذلك؟». كانت مأساة ماندیلستام قضية مختومة، ليس فقط بقراره الانتحاري بأن هزئ من ستالين بالشعر - الأداة التي لجأ إليها الديكتاتور بذاته في أحلام الطفولة-، لكن أيضًا بفشل باسترناك في التأكيد أن زميله حقًا عبقري. لم يحكم على ماندیلستام بالموت، ولم يتم الحفاظ عليه، بل لقي حتفه في طريق غير مثالي نحو الغولاغ. لكن ستالين حافظ على باسترناك: «دع هذا القاطن في الغيوم بسلام».

لم يقر بشكل علني قط الشاعر والكاهن في الثانوية البالغ السابعة عشرة من العمر بأشعاره، لكنه قال لاحقًا لصديق، «فقدت الاهتمام بكتابة الشعر لأنها تتطلب كل الانتباه: جحيم محفوف بالصبر. وفي هذه الأيام كنت كالزئبق: زئبق الثورة والتآمر الذي

يومض الآن في أوساط شباب تيفليس وإلى داخل الثانوية[89].

* * *

عندما وقف على السلالم البيضاء في كيس الحجارة، استطاع سوسو رؤية البازارات الفارسية والأرمنية الصاخبة والخطرة أيضًا حول ساحة يريفان: «شبكة من الممرات والمجازات الضيقة». مع «ورش الصاغة وصانعي المدرعات المفتوحة؛ أكشاك صانع المعجنات والخبز مع الأرغفة المسطحة المخبوزة في أفران الطين الكبيرة...

ومع الإسكافيين الذين يعرضون الخف المبهرج... ومتاجر باعة النبيذ حيث يحفظ النبيذ في جلود الحملان أو الجواميس مع الفرو في الداخل»[90]. كان بولفار غولوفينسكي باريسيًا تقريبًا؛ والبقية أشبه «بليما أو مومباي».

يبلغ بيديكير أن «الشوارع» شديدة الانحدار وضيقة جدًا، بحيث لا تستطيع العربات المرور. وتجثم المنازل، المزينة بمعظمها بالشرفات، الواحدة على الأخرى، على الجهة الجبلية كخطوات السلالم. تضج الشوارع من شروق الشمس حتى غروبها، بحشد مزيج من الرجال والحيوانات... تجار الخضروات الجورجيين مع صَوان خشبية كبيرة على رؤوسهم، الفارسيون بالقفطان الطويلة وقبعات الفرو السوداء والعالية، غالبًا مع الشعر الأحمر المصبوغ والأظافر الحمراء اللون؛ التتاري السايد والملاّ بالملابس الواسعة مع العمامات الخضراء والبيضاء؛ ممثلو القبائل الجبلية في

الشيركيساس وقبعات الفرو الخشنة الوبر... النساء المحمديات بالحجاب... والأحصنة التي تحمل أوعية جلدية للمياه والحاضرون المبتهجون.

مدينة ذات ينابيع كبريت ساخنة (وحمامات عمومية معروفة)، بُنيت مباشرة على منحدرات الجبل المقدّس وعلى ضفاف نهر كورا تحت الكنيسة الجورجية الدائرية والأبراج المعتمة للقلعة: سجن الميتيخي، التي يسميها إيريماشفيلي «باستيل تيفليس». في الأعلى، فوق الممرات الضيقة المرصوفة بالحصى على الجبل المقدّس، هناك الكنيسة المشرقة والقديمة من الرخام الأبيض (حيث وُوريت كيكي الثرى بين الشعراء والأمراء).

كانت تيفليس مدينة يعيش فيها 160 ألف نسمة، 30 في المئة منهم من الروس، و30 في المئة من الأرمن، و26 في المئة من الجورجيين، والبقية عدد ضئيل متناثر من اليهود والفرس والتتار. كان هناك ست صحف أرمنية، وخمس روسية، وأربع جورجية. ويعمل عمال تيفليس بمعظمهم في مستودع السكك الحديدية والمعامل الصغيرة؛ وأصحاب الثروة والنفوذ هم الزعماء الأرمن والأمراء الجورجيون والبيروقراطيون والجنرالات الروس الذين يلتقون الامبراطور في بلاط فايسروي. وكان حمّالو المياه من راشا في الغرب، والبناؤون يونانيين، والخياطون يهودًا، وحافظو الحمامات فرسًا. الأمر أشبه «بعصيدة من الناس والحيوانات والقبعات من جلد الحملان والرؤوس الحليقة والطرابيش والقلنسوات المستدقة الرأس... الخيول والبغال والناقات والكلاب... الكل يصيح ويضرب ويضحك ويعرق ويصطدم

ويغني... في الجو الحارق».

كانت هذه المدينة المتعددة الجنسيات والامبراطورية من المسارح والفنادق والنزل والبازارات وبيوت الدعارة، تنبض أصلًا بالوطنية الجورجية والماركسية العالمية، اللتين كانتا تتسربان بطريقة خطرة إلى الأديرة المغلقة للثانوية[91].

* * *

نُقل سوسو وولد آخر هو سعيد ديفدارياني من غرفة نومهما إلى غرفة أصغر «بسبب الصحة الهشة». كان ديفدارياني أكبر سنًا، وهو عضو في دائرة سرية يلتقي فيها الصبية لقراءة الأدب الاشتراكي المحظور. قال ديفدارياني «اقترحت عليه أن ينضم إلينا، وسرّه الأمر، فوافق». هناك التقى ستالين بصديقيه من غوري: إيريماشفيلي ودافيتاشفيلي.

في البداية، بالكاد كانت الكتب أعمالًا ملتهبة عن التآمر الماركسي، لكن كنوع من الكتب غير المؤذية المحظورة في الثانوية. انضم الصبية إلى ناد للكتب الممنوعة يسمى المكتبة الرخيصة، وبدأوا بالحصول على كتب أخرى من متجر يديره نارودينيك سابق. كتب مالك هذا المتجر الصغير، إيميداشفيلي، لاحقًا لستالين الأعلى «تتذكر المتجر الصغير». «كيف فكّرنا وتهامسنا في الأسئلة العظيمة التي لا إجابة عنها!». اكتشف ستالين مؤلفات فيكتور هوغو، تحديدًا في العام 1793. وبطله سيموردين الكاهن - الثائر، أصبح أحد نماذجه[92]. لكن الرهبان

منعوا هوغو قطعًا.

في الليل، كان «البقعة السوداء» يخفر الأروقة، ويتحقق دائمًا من أن الأنوار مطفأة ولا أحد يقرأ، أو يرتكب شرورًا أخرى يتساهل بها الصبية. وحالما كان يغادر، يضيء الصبية الشموع، ويباشرون القراءة من جديد. أفرط سوسو، نموذجيًا، «أفرط في القراءة ونادرًا ما نام بتاتًا، فبدا غائم العينين ومريضًا.

وعندما بدأ بالسعال، أخذ إيريماشفيلي «الكتاب من بين يده وأضاء شمعة».

قبض المراقب الأب غيرموغان على ستالين ومعه هوغو في العام 1793، وأمر «بأن يُعاقَب بالبقاء لفترة طويلة في خلية العقاب». ثم وجده كاهن آخر متطفّل مع كتب أخرى لهوغو: «بدأ الأمر عندما اكتتب دجوغاشفيلي في المكتبة الرخيصة وبدأ قراءة الكتب الموجودة هناك. واليوم صادرت كادحي البحار Toilers of the Sea لفكتور هوغو. وقد أصدرت له تحذيرًا في ما يتعلق بالكتاب في العام 1793 لفكتور هوغو. التوقيع: المراقب المساعد: ف. ميراخوفسكي».

كان ستالين الصغير أكثر تأثرًا حتى بالكتّاب الروس الذين أحدثوا تعاطفًا في صفوف الشبان الراديكاليين: قصائد نيكولاي نيكراسوف ورواية شيرنيشيفسكي، «ما الواجب فعله؟» What is to be Done?. وأصبح البطل راخميتوف، نموذج ستالين للثورة الزهدية الفولاذية. وعلى غرار راخميتوف، اعتبر ستالين نفسه «رجلًا مميزًا».

تم القبض بعد فترة وجيزة على ستالين وهو يقرأ كتبًا محظورة أخرى «على سلالم المدرسة». وتلقى لذلك، «بأمر من الرئيس، إقامة مطولة في خلية العقاب وتأنيبًا قاسيًا». كان «يتعبّد لزولا»، والرواية الباريسية المفضّلة لديه هي «جيرمينال». قرأ تشيلر وموباسان وبالزاك وكتاب ثاكيراي «دار الغرور» Vanity Fair في نسخته المترجمة، بلاتو باللغة اليونانية الأصلية، والتاريخ الروسي والتاريخ الفرنسي. ووزّع هذه الكتب على الصبية الآخرين. أعجب بغوغول وسالتيكوف تشيدرين وتشيكوف، وقد حفظ أعمالهم و«أمكنه تلاوتها عن ظهر قلب». أُعجب بتولستوي «لكن ملّ مسيحيته»، ولاحقًا خربش في حياته «ها ها ها!» على تأمل تولستوي في الفداء والخلاص. رُفع سعر نسخة من التحفة الفنية لدوستوفسكي حول التآمر والخيانة الثورية بشكل كبير، «الشياطين» The Devils، وهرّبت الأعداد إلى الثانوية، مربوطة تحت مدرعات الكهنوت التي يلبسها تلاميذ الثانوية. سخر ستالين لاحقًا من أنه كان عليه «مصادرة - سرقة» بعض هذه الكتب من المكتبة لأجل الثورة[93].

لم يكن هوغو الكاتب الوحيد الذي غيّر حياة ستالين: غيّر مؤلف آخر اسمه. قرأ رواية ألكسندر كازبيغي المحظورة «قتل الأب» The Patricide، وبطلها سارق قوقازي يدعى كوبا. يكتب إيريماشفيلي «ما أثّر فيَّ وفي سوسو، هو أعمال الأدب الجورجي التي تبجّل نضال الجورجيين للحرية». في الرواية، يقاتل كوبا ضد الروس، ويضحي بكل شيء لأجل زوجته وبلاده، ثم يقوم

بثأر رهيب ضد أعدائه.

يقول إيريماشفيلي «أصبح كوبا إله سوسو وأعطى لحياته معنى». «أمل أن يصبح كوبا. ودعا نفسه «كوبا»، وأصر على مناداته بهذا الاسم. أشرق وجهه بالفخر واللذة عندما كنا نناديه «كوبا». كان الاسم يعني الكثير لستالين: ثأر سكان جبال القوقاز، وقساوة السارق، والهوس بالولاء، والخيانة، والتضحية بالشخص والعائلة لأجل القضية. كان اسمًا يحبه أصلًا: كان اسم «والده البديل» أغناتاشفيلي، كوبا، مصغّر ياكوف. وقد أصبح «كوبا» اسم الثورة المفضّل واللقب. لكن بقي الأشخاص المقربون منه ينادونه سوسو[94].

كانت تظهر أشعاره في الصحف، لكن في سن السابعة عشرة، وفي خريف العام 1896، بدأ ستالين يفقد الاهتمام بالدراسات الكهنوتية وحتى بالشعر. وفي هذا العام، انتقل من المرتبة الخامسة إلى المرتبة السادسة عشرة.

* * *

بأصوات خامدة بعد إطفاء الأنوار، وبأعين شاخصة تراقب «البقعة السوداء» المفزع، يناقش الصبية بحدة أكبر الأسئلة الوجودية. في سبعيناته، كان الديكتاتور يضحك بينه وبين نفسه حول هذه الحجج. قال «أصبحت ملحدًا في العام الأول»، ما أدى إلى جدال مع الصبية الآخرين، كصديقه التقي سيمون ناتروشفيلي. لكن بعد التفكير، أتى ناتروشفيلي «لرؤيتي، وأقر

بالخطأ الذي اقترفه». تملّك السرور ستالين حتى أكمل سيمون قائلًا: «إذا كان الله موجودًا، فالجحيم موجود أيضًا.

هنالك دائمًا نار جهنم المشتعلة. وللإبقاء على هذه النار مشتعلة، مَن الذي يستطيع توفير ما يكفي من الأخشاب؟ يجب أن يكون لانهاية لها، وكيف يمكن وجود الأخشاب؟». يتذكر ستالين «انفجرت في الضحك! ظننت أن سيمون توصّل إلى خلاصاته بالتأمل الفلسفي، لكنه أصبح فعلًا ملحدًا خوفًا من عدم وجود ما يكفي من الأخشاب للجحيم!».

تخطى سوسو الآن اللطف البحت إلى التمرد الصريح. وفي هذا الوقت، قتلت الشرطة خاله ساندالا، شقيق كيكي. لم يذكر ستالين هذا الموضوع قطُّ، لكن كان للأمر دور.

كان ستالين «كالزئبق»، ينتقل من الروائيين الفرنسيين إلى ماركس بذاته: كان الصبية يدفعون 5 كوبكات لاستعارة «داس كابيتال» Das Kapital لأسبوعين[95].

حاول تعلّم اللغة الألمانية ليستطيع قراءة ماركس وأنجلز باللغة الأصلية، واللغة الإنكليزية أيضًا. كانت لديه نسخة من «نضال العمال الإنكليز للحرية» The Fight of the English Workers for Liberty. كانت هذه بداية جهد حياتي لتعلّم اللغات الأجنبية، وبخاصة الألمانية والإنكليزية[96].

* * *

انسل ستالين وإيريماشفيلي خلسة بعد فترة وجيزة، خارج الثانوية، تحت غطاء الظلام، لحضور أول اجتماعاتهم مع عمال السكك الحديدية الحقيقيين في أكواخ بُنيت في الجبل المقدّس. كانت أول شرارة تآمر أشعلت حريقًا لم يخمد أبدًا.

ملّ ستالين النقاشات الأكاديمية القيّمة في نادي ثانوية ديفدارياني: أراد أن يدفع الدائرة إلى العمل العدائي. قاوم ديفدارياني، فأطلق ستالين حملة ضده، وبدأ في خلق مجموعته الخاصة[97].

جمعته أواصر صداقة كبيرة مع ديفدارياني، ليبقى ستالين في قريته في عطلة عيد الميلاد في العام 1896. ربما أرجأ ستالين، سيد «تقدير الجرعات» الدائم، والمستغل البارع للضيافة، وأجَّل الصدع الأخير كي يكون لديه مكان يبقى فيه في العطلة. وفي طريقهم، زار الصِّبية كيكي، التي كانت تعيش في «كوخ صغير»، حيث لاحظ ديفدارياني جيشًا من بقات الفراش.

قال ستالين «غلطتي أيضًا».

سأل ديفدارياني كيكي «آمل أن بقات الفراش تدعك تنامين؟».

كذب ديفدارياني بلباقة «لم ألاحظ مثل هذه الأشياء».

قال ستالين لوالدته المسكينة «آه، شعر بها حقًا. كان يلوي رجليه طوال الليل». لاحظت كيكي كيف حاول سوسو «أن يتجنب التحدث معي. حاول التكلم بأقل قدر ممكن».

في طريق العودة إلى الثانوية في العام 1897، افترق ستالين عن دافدارياني. قال إيريماشفيلي، الذي بقي مع دافدارياني «كان كوبا يحض عادة على عناصر الضغينة الكبرى وغير المجموعة...». «ظن كوبا أنه من الطبيعي أن يكون القائد، ولا يتسامح أبدًا مع أي انتقاد. تشكّل حزبان، واحد لكوبا والآخر ضده». وتكرر هذا النمط طوال حياته. وجد معلّمًا صارمًا أكثر، والتقى من جديد مع لادو كيتسخوفيلي، الملهم من غوري، الذي طُرد من ثانويات تيفليس وكييف، على حد سواء، وأُوقف وأطلق سراحه الآن. لم يحترم سوسو أحدًا كلادو.

قدّم المعلّم صديقه الأصغر إلى سيليبيسترو العنيف، صاحب العينين السوداوين، «سيلفا» دجيبلادزي، تلميذ الثانوية الأسطوري الذي ضرب الرئيس. أسس دجيبلادزي وشخص نبيل وأنيق يدعى نوي جوردانيا، مع بعض الأشخاص، حزبًا اشتراكيًا جورجيًا، هو المجموعة الثالثة (ميسامي داسي)، في العام 1892. اجتمع الآن هؤلاء الماركسيون في تيفليس، واستولوا على صحيفة «كفالي»، وبدأوا بنثر بذور الثورة بين العمال. أخذ دجيبلادزي المراهق إلى شقة فانو ستورروا، وهو يتذكر أن «دجيبلادزي جلب شابًا مجهولًا».

اتصل ستالين، التوّاق إلى المساهمة، بقائد المجموعة القوي، نوي جوردانيا، العائد مباشرة من المنفى، في «كفالي» التي نشرت آخر قصيدة له.

اقترح جوردانيا، الطويل، صاحب «الوجه الجميل والوسيم،

واللحية السوداء... والعادات والسلوك الأرستقراطي»، بطريقة قيادية أنه على سوسو دراسة المزيد.

أجاب الشاب المشاكس: «سأفكّر في الموضوع». أمسى الآن لديه عدو لمواجهته. كتب رسالة ينتقد فيها جوردانيا وكفالي. رفضوا نشرها، بينما أهان ستالين فريق التحرير «للجلوس هناك على مدى أيام من دون التعبير عن رأي لائق!».

كان لادو محبطًا أيضًا بسبب دماثة جوردانيا الأرستقراطي، ويعتقد أنه هو عرّف ستالين إلى أوساط العمال الروس أساسًا، الذين كانوا بدأوا للتو في التكاثر فجأة بين العديد من المتاجر الصغيرة في تيفليس. التقوا بسرية في المدفن الألماني، في بيت صغير قريبا من طاحون، وإلى القرب مستودع الأسلحة، الأرسنال. اقترح ستالين أن يستأجروا غرفة في الجبل المقدّس، «حيث كنا نلتقي مرتين في الأسبوع بعد العشاء قبل تلاوة الأسماء لمعرفة الأشخاص الغائبين. كانت الكلفة هي 5 روبلات، أخذناها من المصروف الذي كان يرسله أهلنا إلينا». بدأ ستالين يحتفظ «بمحاضر مكتوبة بخط اليد باللغة الجورجية لنقاشاتهم»، تم تناقلها من يد إلى أخرى بين أتباعه في الثانوية[98].

كان يعبر الطريق من تلميذ المدرسة المتمرّد إلى الثائر الذي كان، لأول مرة، ذا أهمية بالنسبة إلى الشرطة السرية. وعندما اعتقل ناشط ماركسي آخر يدعى سيرجي أليلوياف، وهو عامل ماهر في السكك الحديدية وحمو ستالين المستقبلي، استجوبه كابتن الدرك

لافروف، الذي سأله: «هل تعرف أي تلميذ ثانوية جورجي؟[99]».

* * *

أصبح الشاعر الرومانتيكي «المتعصّب المقتنع»، «ذا إيمان شبه غامض»، كرّس له حياته، ولم يتردد أبدًا فيه. لكن، بمَ آمن بالحقيقة؟

يشرح بكلماته الخاصة: تعني ماركسية ستالين أن «البروليتاريا الثورية وحدها مكلفة تاريخيًا تحرير الجنس البشري وإحلال السعادة في العالم»، لكن البشرية ستمر في الكثير من «التجارب والمعاناة والتغيير» قبل أن تحقق «الاشتراكية المثبتة علميًا». كان قلب التقدم السعيد «كفاح الطبقات: الماركسية هي الجموع، وتحريرها هو محرّك حرية الفرد».

يقول ستالين هذه العقيدة «ليست فقط نظرية الاشتراكية: هي رؤية عالمية كاملة، نظام فلسفي» - كدين مثبت علميا - كان الثوار الشبان جزءًا منه. شرح تروتسكي «كان لدي شعور بأنني أنضم إلى سلسلة كبيرة كرابط صغير جدًا». اعتبر تروتسكي على غرار ستالين، أن «الأمر الذي يدوم يكتسب بالصراع». كان الدم والموت والنزاع أمورًا أساسية: «عدة عواصف وعدة شلالات دماء»، تحدد، بكلمات ستالين الخاصة، «الكفاح لإنهاء القمع».

لكن كان هناك فرق كبير واحد بين ستالين وتروتسكي، هو أن ستالين كان جورجيًا. لم يفقد أبدًا فخره بجورجيا كأمة وثقافة. وجدت كل الأمم الصغيرة في القوقاز صعوبة في اعتناق

الماركسية الدولية الحقيقية، لأن كبتهم الخاص جعلهم يحلمون أيضًا بالاستقلال. آمن ستالين الشاب بالمزج بين الوطنية الماركسية والجورجية، المناقضة تقريبًا للماركسية الدولية.

في آب/أغسطس من العام 1898، انضم سوسو المراهق إلى الفرع المحلي لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي، الذي أصبح، بعد التجزئة، الحزب البولشفي[100].

(7)

معركة غرف النوم:

سوسو مقابل الأب «البقعة السوداء»

بحلول أوائل العام 1897، كان ستالين في حرب ضد «البقعة السوداء». وبحسب صحيفة المدرسة، قُبض عليه ثلاث عشرة مرة وهو يقرأ مؤلفات محظورة، وحصل على تسعة إنذارات.

يقول إيريماشفيلي، بدأ «المحقق أباشيدزي فجأة» بتفتيش صناديق الألبسة، وحتى سلال الملابس الوسخة للغسيل. أصبح «البقعة السوداء» أباشدزي الممسوس، مهووسًا بالقبض على ستالين وهو يقرأ كتبه الممنوعة. في وقت الصلاة، كان الإنجيل مفتوحًا على مكاتب الصبية بينما كانوا يقرأون ماركس أو بليخانوف، حكيم الماركسية الروسية. في الباحة، كانت مجموعة كبيرة من أخشاب الوقود حيث خبأ ستالين وإيريماشفيلي المؤلفات الممنوعة، وجلسا للقراءة. انتظر أباشيدزي ذلك، ثم ظهر للقبض عليهما، لكنهما عملا على إيقاع الكتب بين الأخشاب: «أقفل علينا في خلية الاعتقال مرة، وجلسنا لوقت متأخر ليلًا في الظلام من دون طعام، لكن الجوع جعلنا متمردين، فضربنا بعنف على الأبواب حتى جلب لنا الراهب شيئًا لنأكله[101]».

* * *

عندما حان وقت العطل، مكث ستالين مع صديق أصغر منه، نجل الكاهن غيورغي إليسابيداشفيلي، في قريته (بدلًا من قضاء الوقت مع والدته). وظّف الكاهن ستالين كمدرّس خصوصي لإعداد غيورغي لامتحانات الدخول إلى الثانوية. لطالما كانت لديه غريزة تعليمية قوية، لكنه كان مهتمًا أكثر بهداية الصبي إلى الماركسية. وصلا على خلف عربة الكارة جالسين على أعلى كومة من الكتب غير الشرعية، فأوقعا الشقاق في البلاد، ضاحكين على الفلاحين الذين أجاد ستالين «تقليدهم بشكل مثالي». وعندما زارا كنيسة قديمة، شجّع ستالين تلميذه على نزع أيقونة قديمة وتحطيمها والتبويل عليها.

سأل ستالين «ألست خائفًا من الله؟ أحسنت!».

رسب تلميذ ستالين في امتحاناته. ولام الأب إليسابيداشفيلي المعلّم الخاص بغضب. لكن الصبي قام بمحاولة أخرى، وأصبح لاحقًا أحد بولشفيي ستالين[102].

* * *

بالعودة إلى الثانوية، واجه ستالين المتاعب باستمرار: سجّل الكهنة في صحيفة المدرسة أنه كان فظًا، «لم يذعن» لمعلّم، و«حُجز في الخلية لخمس ساعات». رفض أن يقصّ شعره، وتركه تمرّدًا ينمو طويلًا. وقد تحداه «البقعة السوداء»، فرفض قصّه. كان يضحك ويتكلّم خلال الصلاة. يترك صلاة الغروب والمساء باكرًا، ويتأخر لحضور نشيد العذراء، ويثب مرحًا في

القداس. قضى الكثير من وقته في خلية العقاب. في كانون الأول/ ديسمبر 1898، بلغ العشرين من العمر، أي أنه كبير ليكون في مدرسة داخلية، وأكبر بعام من أي شخص آخر (بسبب الوقت الذي أمضاه في التعافي من الحوادث التي أصابته). فلا عجب كثيرًا من أنه كان محبطًا.

فاق في نموه نطاق الثانوية. كان على تلاميذ الثانوية تقبيل بعضهم البعض، كالإخوة، مرارًا وتكرارًا متى التقوا. لكن الآن، بعد أن أفسدته الصراعات الفصائلية مع ديفدارياني، وبعد أن تكرس للماركسية، أصبح يرتاب بهذا الهراء الشهم. وقال رافضًا أن يتعانق «هذا العناق هو بالكاد قناع. وأنا لست فريسيًا». لم يفارقه أبدًا هوسه بالخونة المقنّعين.

كان هناك بحوث مجنونة للملحدين، مثلًا «حياة المسيح» Life of Christ لرينان، الذي امتلكه ستالين بكل فخر. كان الأمير - الراهب - المحقق يقوم بغارات متكررة إلى الطاولة قريبًا من سريره من دون أن يجد شيئًا. أخفى أحد الصبية بذكاء الكتاب تحت وسادة الرئيس. يتذكر ستالين كيف كان يستدعى الصِّبية بتعداد أسماء الحاضرين، ثم يأتون ليجدوا صناديق ملابسهم منهوبة.

فقد ستالين الاهتمام بدراسته. في بداية صفه الخامس، كان في المرتبة العشرين من أصل ثلاث وعشرين. حصل في معظم الأحيان على علامة 3، حيث اعتاد الحصول على 5. كتب للرئيس سيرافيم يعزو علاماته السيئة إلى مرضه، لكن كان عليه

إعادة بعض امتحاناته.

في هذه الأثناء، كان «البقعة السوداء» «يراقبنا بحذر أكبر». وتشجّع الصبية الآخرون على الإبلاغ عن المتمردين. لكن ستالين أضحى أكثر جرأة وتحدّيًا، أسبوعًا بعد أسبوع. عندما بدأ هو وحلفاؤه بقراءة الأبيات المضحكة من دفتره، أخبر الوشاة أباشيدزي بالأمر، فانسلّ واستمع. وجاء فجأة إلى الغرفة وأمسك بالصحيفة.

حاول ستالين انتزاعها لاستعادتها. تعارك الكاهن والمراهق، لكن «البقعة السوداء ربح»، فلحق ستالين كالضفدع إلى شقته حيث «أجبر هذه الأرواح النجسة على تغطيس كتاباتها المخرّبة» في الكيروسين. ثم أشعل النار في الأوراق.

كثّف أباشيدزي في النهاية، تجسسه على ستالين: «عند الساعة التاسعة مساءً، لاحظ المراقب في حجرة الطعام مجموعة من التلاميذ حول دجوغاشفيلي الذي كان يقرأ على مسمعهم شيئًا ما. عندما اقترب، حاول دجوغاشفيلي إخفاء الملاحظات، لكن بعد الإصرار كشف أنه يقرأ كتبًا غير مسموحة، موقّعة: د. أباشيدزي».

سمعت والدة ستالين «الكلام المسيء على أنه أصبح متمردًا». ولأنها كيكي، ارتدت ملابسها، واستقلت القطار إلى تيفليس. لكن، للمرة الأولى، «غضب مني. صرخ قائلًا إن الأمر لا يعنيني. قلت «يا بني، أنت ولدي الوحيد، لا تقتلني. لكن كيف تستطيع التغلب على الامبراطور نيكولا الثاني؟ دع ذلك للذين لديهم إخوة

وأخوات»». استرضاها سوسو وعانقها، قائلًا إنه ليس متمردًا. تتذكر كيكي بحزن أنها «كانت كذبته الأولى».

لم تكن وحدها القَلِقة. ما زال ستالين يرى والده المتبطّل، المجهول ربما بالنسبة إلى كيكي[103]. زار ستالين برفقة نسيبة والدته آنا دجيلادزي، بيسو، الذي أحب أن يقدّم إليه أحذية مشغولة بشكل محبب. أضافت آنا «تجدر الإشارة إلى أن سوسو أحب لبس الأحذية منذ طفولته». لم يكن الديكتاتور بالجزمة العسكرية وضعًا عسكريًا فقط، بل كان إجلالًا وتقديرًا لوالده وللأحذية الجلدية الجميلة التي صنعها بيديه.

ربما خفف نضوجه من خوفه من بيسو. لقد ليّنت ماركسيته عدم تسامحه. تقول كوت شاركفياني إن بيسو، العامل الآن بتواضع في متجر لتصليح الملابس، أصبح «يحب ولده بشكل مضاعف، ويتحدّث عنه طوال الوقت». «كنت أزوره أنا وسوسو. لم يصرخ في وجه ولده»، لكنه تمتم: «أسمع أنه يتمرّد الآن على نيكولا الثاني.

كما لو أنه سيطيحه يومًا!».

* * *

بدأت الحرب بين «البقعة السوداء» وستالين تحتدم. تنقل صحيفة الثانوية أن ستالين أعلن نفسه ملحدًا، يمشي بتشامخ في وقت الصلاة، ويتحدّث في الصف، ويتأخر على الشاي، ويرفض أن يرفع قبعته للرهبان. وقد حصل، بسبب إلحاده، على اثني عشر

تحذيرًا إضافيًا.

أصبحت مواجهاتهم سخيفة وهزلية أكثر فأكثر، بينما فقد الصبية كل الاحترام للمحقق. كان يتحدث بعض زملاء سوسو في حدائق بوشكين التابعة لساحة يريفان، عندما ركض ولد، وقال إن الأب أباشيدزي أغار (من جديد) على صندوق ملابس ستالين. أسرعوا بالعودة إلى الثانوية، فرأوا المراقب يفتح صندوق ثياب ستالين بالقوة ليجد مؤلفات ممنوعة. أمسكها أباشيدزي وحمل بنصر جائزته صعودًا على السلالم عندما قام واحد من المجموعة، هو باسو كيلباكساني، باتهام الراهب وصدمه، بعدما فقد تقريبًا قبضته على الكتب. لكن تماسك «القبعة السوداء» بشجاعة. ققفز الصبية عليه وأوقعوا الكتب من يديه.

ركض ستالين بنفسه، وصادر الكتب ولاذ بالفرار. منع عليه زيارة المدينة، وطرد كيلباكياني. لكن لسخرية القدر، بدا أن فروض ستالين المدرسية بدأت تتحسن.

حصل على علامة جيد جدًا - 4 - لمعظم المواضيع، و5 للمنطق. وهو يستمتع حتى الآن بأمثولات التاريخ. وبالفعل أحب جدًا معلّم التاريخ، نيكولاي ماخاتادزي، وهو المعلّم الوحيد الذي أُعجب به في الثانوية، وواجه لاحقًا المتاعب لإنقاذ حياته[104].

في هذه الأثناء، فقد «البقعة السوداء» السيطرة على ستالين، لكن لم يتمكن من كبح ملاحقته الهوسية لهذا الناقم. اقتربا من نقطة الانفصال. انسل الراهب إليه واختلس النظر، فرآه يقرأ كتابًا ممنوعًا آخر. ثم انقض وأخذ الكتاب منه، لكن ستالين انتزعه

بالقوة من يديه ببساطة، فذُهش الصِّبية الآخرون. ثم تابع القراءة.

صُدم أباشيدزي. وصرخ «ألأ تعلم من أنا؟».

فرك ستالين عينيه وقال «أرى «بقعة سوداء» ولا شيء آخر». تخطى بهذا الكلام كل الحدود.

لا بد من أن «البقعة السوداء» كان توّاقًا إلى شخص يخلّصه من هذا الكاهن - المتدرّب المشاغب. وقد شارف الفصل على نهايته. حصل ستالين على تأنيب أخير في 7 نيسان/أبريل لعدم إلقاء التحية على المعلّم، وانتهت المدرسة بعد يومين. ولم يعد أبدًا. في أيار/مايو 1899، ذكرت الصحيفة ببساطة، «طُرد... لعدم حضور الامتحانات». وكالعادة مع ستالين، لم تكن الأمور بهذه البساطة[105].

* * *

تباهى ستالين الكذوب لاحقا، قائلًا «طُردت بسبب الترويج للماركسية»، لكن «البقعة السوداء» كان يبحث عن مزاح خشن أو سمج في الكنيسة، أو حتى اجتماعات ماركسية في البلدة.

كان الصِّبية الذين لديهم مصروف أكبر من ستالين، يستأجرون الغرف في الجبل المقدّس، بغرض عقد اجتماعات دائرة القراءة الليبرالية، لكن كصبية مراهقين وجورجيين، يفتخرون بعلاقاتهم الغرامية، ويرجّح وجود أحزاب أيضًا للنبيذ، ومعاشرة الفتيات. راقب الكهنة، تحديدًا المراقب «البقعة السوداء»، البلدة أيضًا، كأساتذة المدارس العامة الإنكليزية، للقبض على الصبية في

المسارح، أو الحانات، أو بيوت الدعارة.

عندما لم يكن ستالين يدرس، كان يشرب الخمر ويغازل عابثًا أيضًا. عانى اضطرابات أكثر جدية، في العطل، في غوري. هل هذا بسبب حبه لابنة شاركفياني؟ فهو لم ينسها أبدًا، وتحدث عنها في سن متقدمة. بعد أعوام عديدة، تذكر أيضًا فتاة أخرى من غوري، هي ليزا أكوبوفا. حاول في العام 1926، اكتشاف ما حصل لها، وهذا يشير إلى تقربهما من بعضهما البعض. ما شجعها على بعث رسالة له: «أقسم إن الاهتمام الذي تخصوننا به بالسؤال عنا يجعلنا سعداء جدًا... لطالما كنت صديقتك التي لا تفترق عنك في السراء والضراء... إذا لم تنس... تَوددت إليك جارتك الحسناء ليزا». كانت في الأمر جرأة بالغة بالنسبة إلى فترة العشرينيات، لكن ليس بجرأة رسالة أخرى استلمها ستالين في العام 1938.

كتبت امرأة لستالين عن نسيبتها، براسكوفيا ميخالوفسكايا - باشا في المختصر - التي نُسبت إلى ستالين بنفسه لاحقًا كوالدها، بحسب الادعاءات في العام 1899.

«إذا كنت تتذكر شبابك، فلا يمكنك أن تنسى. لا شك في أنك تتذكر فتاة صغيرة بعينين سوداوين كحيلتين اسمها باشا». تدعي الرسالة أن والدة ستالين اهتمت بالفتاة، التي تتذكر بنفسها كيكي. قالت لها والدتها إن والدها «كرّس نفسه لخلاص الأمة، وتعرض للنفي». نمت باشا وأصبحت «آية من الجمال الجورجي مع عينين سوداوين بقامة ممشوقة وقدّ ممدود»، أصبحت عاملة

طباعة، وتزوجت، لكن والدتها وزوجها توفيا، وتركاها معدمة. وتوارت عن الأنظار في الثلاثينيات في موسكو.

قد تكون الرسالة نوعًا من الرسائل المجنونة التي تجذب السياسيين، ما خلا أن ستالين، الذي لم يحتفظ بالكثير من أرشيفه الشخصي، ملأ الرسالة. ذكر خواتم والدته صحيح، لأن كيكي ساعدت سوسو الحبيب، لكن يصعب إلا أن يكون الأمر معروفًا في صفوف كازانوفا جورجيا. إضافة إلى ذلك، وحده الشخص الذي يقول الحقيقة أو المجنون الراغب في الموت، يتجرأ على كتابة مثل هذه الرسالة إلى ستالين في ذروة الرعب الكبير. لو لم تكن لستالين سوابق في التخلي عن الخليلات والأولاد، لكنا صرفنا النظر عن الموضوع. لكن، يبدو أنه نادرًا ما بقي بلا عشيقة. لم يكن يؤنّبه ضميره إن تخلى عن خطيبة وزوجة وولد. لن نعلم الحقيقة أبدًا، لكن من حيث الطبع والتوقيت، هذا معقول[106].

إذا اكتشف الأب أباشيدزي هذا الأمر، أو إذا خشيت كيكي أن الثانوية قد تكتشفه، فهذا يفسّر دورها في تركه. أمضى سوسو عيد الفصح في العام 1899 في المنزل في غوري، وادعى أنه يعاني داء الرئة المزمن. ربما كان مريضًا عن حق. أكدت كيكي «جعلته يترك المدرسة. وهو لم يرد ذلك». لكنها أصيبت بالخيبة المريرة.

لا شك في أن سوسو غالى في سحر طرده. لم يُطرد لأنه ثوري وحافظ على علاقات لطيفة مع الثانوية لاحقًا. وتدعي بعض السير

الذاتية أنه طُرد لأنه لم يحضر امتحاناته، لكن هذا قابل للمسامحة لو كان مريضًا. وبالفعل، عادت المدرسة لتأمين المسكن له، وأعفته من إعادة دفع قسطه الدراسي (480 روبلًا). حتى أنهم قدموا إليه فرصة عدم تقديم امتحانات نهاية السنة الدراسية ووظيفة في التعليم.

الحقيقة أن الأب أباشيدزي وجد طريقة لطيفة للتخلّص من معذّبه. قال ستالين لمستجوبيه من الدرك في العام 1910، «أنا لم أتخرّج لأنه في العام 1899، أُرسلت إلي بشكل غير متوقع، فاتورة بقيمة 25 روبلًا لأكمل دراستي... وطُردت لأنني لم أدفع القيمة المتوجبة». رفع «البقعة السوداء» الأقساط المدرسية بشكل بارع. لم يحاول ستالين دفعها، بل ترك المدرسة ببساطة. التقى صديق ستالين أبل يينوكيدزي، وهو طالب سابق في الثانوية، بستالين في تلك الفترة، وقال إنه «ترك الثانوية». لكن من دون إثارة جدل.

أسرّ إلى صديقه من غوري، دافريشوي، أنه طُرد بعد أن شجب ما كان كما قال «صفعة». طُرد لاحقا عشرون آخرون لقيامهم بنشاطات ثورية. وادعى أعداء سوسو لاحقًا أنه خان أتباعه الماركسيين أمام الرئيس. قيل إنه اعترف لاحقًا في الزنزانة، تبريرًا لغدره، بالقول إنه كان يحوّلهم إلى ثوار: وأصبحوا أول أتباعه. كان ستالين قادرًا على القيام بهذا النوع من المغالطة والخيانة، لكن هل كان ليقبل في الباطن الماركسي لو عرف عنه ذلك؟ حتى أن تروتسكي يعتبر القصة سخيفة ومنافية للعقل. ويرجح أن هذا كان جوابه التهكمي عن اتهام، لكنه غذّى الشك في

أنه أصبح لاحقًا جاسوسًا في الأوخرانا. وفي أي حال من الأحوال، طُرد الكثير من طلاب الثانوية سنويًا.

سوسو الذي علّم ذاته بذاته، والمحب للكتب، «صادر» الكتب التي احتفظ بها من مكتبة الثانوية. حاولوا فرض فاتورة بقيمة 18 روبلًا عليه، و15 روبلًا أخرى في خريف العام 1900، لكنه كان في ذاك الوقت في العمل السري، وطوال الحياة بمنأى عن الثانوية. لم تسدد أقساط الكنيسة أبدًا، ولم يستعد «البقعة السوداء» كتبه أبدًا[[107]].

لم يؤهّل ستالين إلى رتبة كاهن، لكن المدرسة الداخلية علّمته بالطريقة الكلاسيكية، وأثّرت فيه بشكل كبير. وحوّله «البقعة السوداء»، بشكل منحرف، إلى ماركسي ملحد، وعلّمه التكتيكات القمعية تحديدًا - «المراقبة والتجسس والتدخل في الحياة الخاصة وانتهاك الأحاسيس»، بكلمات ستالين الخاصة - التي أعاد ابتكارها في الدولة البوليسية السوفياتية الخاصة به.

بقي ستالين معجبًا بالكهنة طوال حياته. وعندما التقى بطلاب الثانوية الآخرين أو أبناء الكهنة، سألهم بتأن. فكّر في أن «الكهنة يعلّمون المرء على فهم الناس».

كما أنه استعمل دائمًا لغة العقيدة الدينية. قلّدت البولشفة دين المسيح بعباداته وقديسيه وأيقوناته: كتب بطريقة التجديف عن «الطبقة الكادحة» التي رحّب بها كالقائد في العام 1929، «منحتني الحياة وربّتني على صورتها ومثالها».

سخرية القدر الأخرى في الثانوية، هي تأثيرها في الأجانب كفرانكلين روزفلت، الذي سجّل أمينه أن الرئيس - بعد أن أُعجب بالكامل بستالين في العام 1943 في مؤتمر طهران - «تعجّب من أن الكهنوت كان مقدّرًا لستالين».

بقي الإله القديم حاضرًا في وعيه الملحد. في أحد اجتماعاتهم في الحرب العالمية الثانية، سامح معارضة وينستون تشرشل للبولشفية، قائلًا «ذلك كله من الماضي والماضي لله».

قال للمبعوث الأميركي أفيريل هاريمان «وحده الله قادر على المسامحة». أصبح أصدقاؤه، ككابانادزي، كهنة، لكن ستالين حافظ على اتصال معهم. غنّى هو والنبلاء خلال عشاءاتهم البولشفية الثملة، الأناشيد الكنسية. ودمج الأرثوذكسية بالماركسية بشبه المزح: «وحدهم القديسون معصومون عن الخطأ. يمكن اتهام الله عز وجل بخلق الفقراء».

لكن مؤلفات ستالين تشهد له بالعلن دائمًا: قمع الديكتاتور بلا رحمة الكنيسة، وقتل الكهنة ونقاهم، حتى العام 1943، عندما أعاد البطركية، لكن فقط كخطوة في فترة الحرب لتسخير الوطنية الروسية القديمة. [108]

ربما كشف عن رأيه الحقيقي في الله عندما أرسل إلى محميه أليكسي كوسيجين (رئيس الوزراء المستقبلي في ظل حكم بريزهنيف) هدية عبارة عن سمكة، بعد الحرب العالمية الثانية، مع هذه الملاحظة المكتوبة: «أيها الرفيق كوسيجين، هذه بعض الهدايا لك من الله! أنا منفّذ إرادته! ج. ستالين». وبطريقة أو

بأخرى، كالحبر الأعظم لعلم التاريخ، نظرت ثانوية تيفليس إلى نفسها حقيقة كمنفذة إرادة الله[109].

تأمّل فرانكلين روزفلت عدة مرات قائلًا «هل تفترض أن ذلك أحدث أي نوع من الفرق في ستالين؟ ألا يفسّر ذلك جزءًا من الود في طبيعته الذي نشعر به جميعًا؟»، ربما علّمه «الكهنوت طريقة التصرّف المسيحي».

* * *

ابتعد هذا الشخص الذي لا يمت إلى المسيحية بصلة، عن المسيحية بأقصى ما يكون. حتى أن الاشتراكيين المعتدلين والنبلاء، كجوردانيا، يثيرون سخطه ولادو.

اشتكى سوسو من أنهم «يقومون بنشاطات ثقافية وتعليمية في صفوف العمال من دون تدريبهم على أن يصبحوا ثوارًا». اتهم جوردانيا أمام أصدقائه، مفسّرًا أنه اكتشف مؤلفات راديكالي جديد بارع يدعى «تولين»، وهو أحد ألقاب فلاديمير أوليانوف، الذي أصبح لينين.

قال ستالين في سن متقدمة «لولا وجود لينين، لبقيت مغنيًا في الخورس، وطالبًا في الثانوية». أخبر الآن أصدقاءه عن هذا الراديكالي البعيد. أعلن «يجب أن ألتقيه مهما كلّف الأمر!»، وأكد التزامه على الإطلاق بالعيش كثائر ماركسي. لكنه وجد مشاكل فورية أخرى. «اغتاظت كيكي جدًا منه»، لأنه ترك الثانوية، فكان على سوسو الاختباء لبضعة أيام في حدائق غامبارولي

خارج غوري، حيث جلب له أصدقاؤه الطعام. عاد إلى تيفليس، لكنه تنازع بسرعة مع رفاق الغرفة، الداعمين لجوردانيا، فغادر. تشاجر مع أصدقاء الثانوية، ثم مع رفاق الغرفة، والآن يواجه الراديكاليين الأكبر سنًا في تيفليس. تأتي المتاعب[110] حيثما حلّ هذا الصبي القاسي والمتعجرف.

(8)

العالِم بالأرصاد الجوية: الأحزاب والأمراء

كان سوسو بحاجة الى وظيفة ومنزل. أصبح عالمًا في الأرصاد الجوية. وخلافًا لما يبدو، حياة عالم الأرصاد الجوية في مرصد الأرصاد الجوية في تيفليس، غطاء مناسب جدًا للثائر الشاب. صديقه من غوري، فانو كيتشوفيلي، الأخ الأصغر للادو، كان يعمل أصلًا هناك عندما وصل ستالين في تشرين الأول/أكتوبر 1899، ليشاركه غرفته الصغيرة تحت برج المرصد[111]. عمل «كمراقب تجريبي»، ثلاث مرات من الساعة السادسة والنصف صباحًا حتى العاشرة مساءً فحسب، ليتحقق من الحرارة والبارومتر كل ساعة، مقابل 20 روبلًا شهريًا. وعمل، في الدوام الليلي، من الثامنة والنصف مساء حتى الثامنة والنصف صباحًا، ويبقى له النهار بأكمله للعمل الثوري. في أواخر العام 1899، بدأ لادو، بمساعدة شغوفة من سوسو، تنظيم إضراب، وهو من أول التحركات الراديكالية الواسعة النطاق للعمال في جورجيا.

في يوم رأس السنة، عمل لادو على شلّ المدينة عندما توقّف سائقو الترامات البلجيكية عن العمل. كانت الشرطة السرية تراقب لادو وعالِم الأرصاد الجوية الثائر. في الأسابيع الأولى للعام 1، جاءت الشرطة إلى المرصد وأوقفت ستالين، وأخذته في عربة الكارة الى قلعة ميتيخي. كان التوقيف الأول لستالين، رسميًا، لأن

بيسو لم يسدد رسومه المحلية في قريته الأم، ديدي – ليلو[112] - على الرغم من أنه يُعتبر تحذيرًا خفيًا له من الدرك.

لم يكن ستالين يملك ما يكفي من المال، لكن أصدقاءه الأفضل حالًا منه (بقيادة دافيتاشفيلي) تجمعوا معا وسددوا الفاتورة. يصعب أن يضيف هذا الأمر إلى عاطفة سوسو لوالده، لكن بيسو زاره في المرصد عدة مرات.

عندما سمعت كيكي أن بيسو عاد من جديد إلى ولدها، توجهت الأم المهيبة إلى تيفليس في بعثة إغاثة، وأصرّت على المكوث في غرفة سوسو[113].

* * *

حالما أُطلق سراح ستالين - وكيكي المتدخّلة عادة إلى بيتها - عاد إلى تشجيع العمال على الإضراب في المدينة: كانت معامل السكك الحديدية في صلب الاهتياج. أمضى الكثير من الوقت حول محطة السكك الحديدية، «المبنى الحجري الكبير مع نوافذ مزودة بشعرية، وعاش وسط الجلبة المصمّة للآذان والقعقعة والقرقعة، ونفث الدخان وهبات البخار من القاطرات». وقد أناط به الحزب أولًا، مهمة الإشراف على مجموعتين سريتين، تسميان «الدوائر»: «كنت قليل الخبرة ومبتدئًا»[114].

عاش ستالين حياته كثائر، وارتدى، ما أسماه تروتسكي «الإشارة المعروفة عامة للثائر، بخاصة في المحافظات»: بلوزة روسية

ساتان سوداء مع ربطة عنق حمراء، وأرخى لحية كثة وشعرًا طويلًا «هيبيًا». وكان يلعب بقفا العنق. يقول إيريماشفيلي «لا ترونه أبدًا في شيء غير البلوزة الوسخة والأحذية غير الملمّعة»[115].

وعظ سوسو بحماسة، وحرّض صفوف دوائره. وطالما سأل هذه الجموع الصغيرة في غرف العمال «لماذا نحن فقراء؟»؛ «لماذا حُرمنا من حقوقنا؟ كيف يمكننا تغيير حياتنا؟: وكان جوابه: بالماركسية وحزب العمال الروسي الاشتراكي والديموقراطي[116].

استمع العمال بوقار إلى هذا المبشّر الشاب. وليس من باب الصدفة أن العديد من الثوار هم من طلاب الثانوية والعمال، أي الفلاحين السابقين الأتقياء. أطلق البعض لاحقًا على سوسو اسم «الكاهن». وشرح المشاغب من تيفليس ميخائيل كالينين، «أنّه نضال مقدّس». وتذكّر تروتسكي الذي كان يحرّض مدينة أخرى، أن العديد من العمال ظنوا الحركة مثل «المسيحيين الأوائل»، ويجب تعليمهم بأنهم يجب أن يكونوا ملحدين.

كتب تروتسكي «إذا كانت كلمة «لجنة» لا تكتسي سوى الرنين المملّ اليوم، فإن مصطلحات «اللجنة» و«الحزب»... سحرت الآذان الفتية كاللحن المغري». «هذا في زمن من بلغ من العمر 18 الى 30. كل من انضم عرف أن السجن والمنفى بانتظاره، والصمود قدر الإمكان لشرف عظيم».

سوسو، الذي آمن أيضًا بقداسة القضية، أحرز في فترة وجيزة أول نجاحاته[117].

* * *

في 1 أيار/مايو 1900، نظّم سوسو لقاءً جماهريًا كتومًا وأوليًا: يوم أيار/مايو - ماييفكا - كان عيد ميلاد الاشتراكية. حاولت الشرطة السرية توقيف لادو، الذي انحدر إلى باكو، مدينة النفط على بحر قزوين. فحلّ ستالين مكانه.

في الليلة السابقة، وزّعت التعليمات وكلمات السر. توجه في الليل 50 عامل وناشط إلى الهضاب خارج تيفليس، للقاء قادة الإضراب في ظهور خافت، حين أسرّوا بكلمات سر ومسالك جديدة. غنوا في الاجتماع النشيد الوطني الفرنسي. ثم تسلّق ستالين والمتحدثون الآخرون بعناء بعض الصخور: وهناك أدلى سوسو بخطابه الأول الكبير، مشجعًا بقوة الإضراب، في حين عارض جوردانيا والماسمي داسي هذه الخطوة.

انتصر سوسو والراديكاليون. أضربت محطات خطوط السكك الحديدية، كما فعل معمل الأحذية أديلخانوف حيث يعمل بيسو.

سأل سوسو، ممتعضًا من زيارة ابنه، «لماذا أتيت الى هنا؟».

أجاب سوسو «للتوجه بخطاب الى الرفاق».

«لماذا لا تتعلم حِرْفة؟»: كان آخر اتصال مدوّن لهما. أخفق بيسو في التشبّث في عمله، وأصبح من المشردين والتافهين اليائسين والتائهين، يعيش على مد وجزر من الإدمان على الكحول والفقر

والقنوط.

للمرة الأولى، ذكرت الشرطة السرية، سوسو دجوغاشفيلي، مع فيكتور كورناتوفسكي الأكبر سنًا، الذي عرف لينين بنفسه، وسيلفا جيبلادزي، الرئيس - الضارب الأسطوري - كقادة في تقاريرها. فدمغ ستالين بصمته الخاصة[118].

* * *

كانت الشرطة السرية تدور، لكن الحياة في تيفليس نائمة، ساحرة ورعوية بلياليها الصاخبة والمقاهي التي تعج بالناس في الشوارع. استمتع الثوار بوجود لم يتخرّج بعد تقريبًا. «كانت أمسياتهم مليئة بالحجج العالية والقراءة والأحاديث الطويلة التي يتخللها العزف على القيثارة والغناء»، بحسب ما تتذكر آنا أليلوييفا، كريمة سيرغي، الكهربائي الموهوب والمحرّض الماركسي الذي عمل إلى جانب ستالين في محطة السكك الحديدية في تيفليس. كانت تيفليس بلدة حميمية، حيث تنتقل الأخبار بسرعة البرق على متن الرياح «بتلغراف الشرفة» من مصطبة إلى مصطبة.

كان ستالين لا يزال مبتدئًا، لكنه قسّم رفاقه الى أبطال وأتباع وأعداء. وجد أولًا، معلمًا جديدًا، الأمير ألكسندر «ساشا» تسولوكيدزي، «وهو شاب ممشوق القامة ووسيم»، يهتم لحسن بذلاته الغربية، وهو صديق البطل الآخر: لادو. كلاهما من طبقة أعلى من ستالين: لادو نجل كاهن، لكن والد الأمير الأحمر كان من أغنى الأرستقراطيين في جورجيا، وعائلة والدته، الأميرة

أولمبيادا شيرفاتشيدزي، حكمت أبخازيا[119]. تباهى ستالين «بالمواهب الاستثنائية والمدهشة» للادو والأمير ساشا، وكلاهما بمنأى عن غيرته، لأنهما توفيا منذ زمن بعيد. لم يكن لستالين سوى بطل حقيقي واحد: هو نفسه. في حياته الزاخرة بالعصيان والأنانية المعتمدة على الذات، كان لادو والأمير ساشا ولينين، وحدهم الذين قاربوا هذه المنزلة. قال إنه «تلميذهم»[120].

* * *

كان لستالين بلاطه الخاص الصغير بين الصِّبية الراديكاليين المطرودين من الثانوية: طُرد أربعون آخرون في العام 1901، بمن فيهم من بوّل على الأيقونة (تلميذ ستالين السابق) أليسابيداشفيلي وصديقه ألكسندر «أليوشا» سفانيدز، الذي استأجر شقة في شارع سولولاكي، فوق ساحة يريفان مباشرة. ألقى ستالين هناك العظات، وأعد لائحة للقراءة من 300 كتاب لدائرته. قال أليسابيداشفيلي «لم يكتفِ بقراءة الكتب، بل كان يلتهمها». أصبح أليوشا سفانيدزي اللطيف وصاحب الروابط النبيلة وثلاث أخوات جميلات، صهر ستالين، ومقربًا منه حتى زمن الرعب. لكن ستالين لم يلتقِ شقيقاته لفترة محددة.

كان التلميذ الآخر، الذي وصل للتو من غوري، سيمون تير - بيتروسيان، لديه شبه ذهان، يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، وعُرف بسرعة ب «كامو». قضى طفولته أيضًا في القتال في الشوارع «وسرقة الفاكهة ونشاطي المفضّل: المصارعة!». كان

يتسكّع حول شقة سفانيدزي «كي يتعلّم شيئًا»، لكنه أراد أن يصبح ضابطًا في الجيش. عنّفه والده الطاغية لأنه قضى وقته مع ستالين، «هذا المعدم الذي لا يساوي شيئًا». لكن تيربيتروسيان يقول «عندما أفلس والدي في العام 1901»، فقد سلطته على الولد. «كان ستالين معلّمي الخاص. علّمني الأدب وأعطاني الكتب... أحببت حقًا كتاب «جيرمينال» Germinal لزولا!». ستالين «جذبه كالمغناطيس».

لم يكن ستالين أكثر المعلمين صبرًا، لكن عندما واجه تيربيتروسيان صعوبات في اللغة الروسية والماركسية، أمر ستالين مساعدًا آخر له، هو فاردويان، بتعليمه.

يتذكر فاردويان «كان سوسو يستلقي لقراءة كتاب في حين كنت أعلّم كامو قواعد اللغة الروسية، لكن قدرات كامو العقلية كانت محدودة، واستمر في قول كامو بدلًا من كومو (إلى من)». «فقد ستالين أعصابه وقفز ثم ضحك، «كومو وليس كامو! حاول حفظها، يا بيشو (ولد)!» وأطلق لاحقًا سوسو، الشغوف دائمًا بابتكار الألقاب لمساعديه، على تيربيتروسيان اسم «كامو»، الذي لازمه طوال حياته»، بحسب قول فاردويان. إذا واجه كامو صعوبة في اللغة، فقد تشرّب الماركسية كالمسكر، وقد «استعبده» ستالين. أعلمه ستالين «من الآن فصاعدًا، اقرأ أكثر وهذا يكفي! يمكنك أن تحاول أن تصبح ضابطًا، لكن من الأفضل أن تنسى الموضوع، وتنخرط في شيء آخر...». فقد هيأ ستالين، على غرار د. فرانكشتاين، كامو ليصبح المنفّذ والسفاح.

«منذ البداية، تآمر سوسو فلسفيًا. تعلمنا التآمر منه»، يقول فاردويان. «كنت ملتزمًا بطريقة تكلّمه وضحكه، وتكلّفه. وجدت نفسي أقلّده على مضض، فأسماني أصدقائي «فونوغراف سوسو»»[121].

لكن لم يكن سوسو قط الجورجي السعيد. يشرح دافيد ساغيراشفيلي، وهو اشتراكي شاب التقاه في ذاك الوقت ولاحظه «يسير في شوارع تيفليس، وهو نحيل ولديه هزمات ومهمل الملبس وتثقله رزمة كبيرة من الكتب»، أنه حتى في ذاك الوقت «كان رجلًا غريبًا وغامضًا جدًا».

حضر ستالين سهرة برية قدّمها أليوشا سفانيدزي. شربوا الكوكتيل من عصير البطيخ والبراندي حتى الثمالة. لكن سوسو استلقى على أريكة على الشرفة، يقرأ بصمت ويدوّن الملاحظات. فباشروا في البحث عنه: «أين هو؟».

أجاب أليوشا سفانيدزي: «سوسو يقرأ».

سأله أصدقاؤه بهزء: «ماذا تقرأ؟».

أجاب سوسو «مذكرات Memoirs نابليون بونابرت. غريب كم ارتكب من الأخطاء. أدوّن ملاحظاتي عليها!». كان للطبقة العليا الثملة هستيريا تجاه نجل الإسكافي الذي علّم نفسه بنفسه، وأطلقوا عليه لقب «الكونكولا» (المتمايل) بسبب مشيته السريعة والخرقاء[122]. لكن الثوار الجديين، كستالين ولادو والأمير ساشا، ما كانوا يضيعون وقتهم على الكوكتيلات.

كانت جورجيا في حالة «تخمّر الأفكار» الثورية. هؤلاء المثاليون الذين يحدوهم الشغف «عادوا متأخرين ليلًا مع الأصدقاء»، بحسب ما تخبر آنا أليلويي. «جلسوا إلى الطاولة، فتح أحدهم كتابًا، وبدأ بالقراءة بصوت مرتفع». كانوا جميعا يقرأون شيئًا واحدًا - صحيفة لينين الجديدة «إيسكرا» (الشرارة)، التي نشرت رؤية حزب تقوده نخبة عسكرية ضئيلة جدًا.

هذا النموذج الجديد للأشخاص الحادّي الطباع، الشبان المصعوقين بحس الثورة، كستالين، الذي لم يعد يتطلّع الى أن يصبح هاويًا: الرجل النبيل الذي يحمّس مجموعات واسعة من العمال، بل عزم على أن يصبح المحترف الوحشي، قائد الفرقة التي لا ترحم؛ كان دائمًا أسعد الناس في الحملات النشيطة ضد الأخصام الداخليين والخارجيين، على حد سواء، هو البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا فقط، صمم على التغلب على جوردانيا ودجيبلادزي، وإخضاع حزب تيفليس لإرادته. يقول رازهدان أرسانيدزي، الماركسي المعتدل، إن ستالين «تكلّم بقسوة»، وأقرّ بأنه «شعّ بالحماسة وانصبغت كلماته بالسلطة الأولية وأحادية الرأي. كانت نكاته تهكمية، وقاسية مرارًا وتكرارًا، وغالبًا متطرفة كضربة السوط». وعندما احتج المستمعون «الحانقون»، «اعتذر، مفسّرًا أنها لغة البروليتاريا»، التي «تتكلّم بفظاظة، لكن تقول الحقيقة دائمًا».

نظرت الشرطة السرية والعمال الى هذا التلميذ السابق في الثانوية، «كمفكّر»، لكن بالنسبة الى المعتدلين المرتبكين «كان رفيقا شابًا مشوّش العقل»، يطلق «تحركًا معاديًا ومخربًا ضد

قيادات منظمة الاشتراكيين الديموقراطيين في تيفليس». هزئوا من سوسو بشكل علني، واعتبروه «جاهلًا وبغيضًا»، وفق دافريشوي. تذمّر دجيبلادزي «أننا أعطيناه دوائر ليحرّضها ضد الدولة وبدلًا من ذلك حرّضها ضدنا»[123].

استمر ستالين ومعلموه وأتباعه في اللقاء «على ضفاف الكورا، وجلسوا تحت السنط ذات العطر الذكي، وشربوا النبيذ الرخيص، الذي يقدّمه أصحاب الكشك».

لكن نجاح إضرابات ستالين ركّز عقول الشرطة عليه. قررت الشرطة السرية أن تسحق الحركة قبل أن تنظّم أعمال الشغب في يوم أيار/مايو 1901. لاحظ الدرك، الذين حللوا فورًا موهبة «القائد» الثوري ستالين، في التآمر: «مفكّر يقود مجموعة من عمال السكك الحديدية. كشفت المشاهدة الخارجية أنه يتصرّف بحذر شديد، ولا ينفك ينظر إلى الخلف عندما يسير». يصعب دائمًا القبض عليه[124].

* * *

في ليل 21 - 22 آذار/مارس 1901، انقضّت الشرطة السرية، الأوخرانا، على القادة، كورناتوفسكي وماخارادزي[[125]]. طوقوا مرصد الأرصاد الجوية لإلقاء القبض على ستالين، العائد في الترام. لاحظ فجأة من نافذة الترام اللامبالاة المتعمدة للشرطة السرية - السهل التعرّف عليها كفرقة المشاة في فيلم أميركي - في

موضع حول المرصد. لازم الترام، وعاد لاحقًا ليستطلع الوضع، لكنه لم يتمكّن أبدًا من العيش هناك من جديد.

غيّرت الغارة مصيره: هنا انتهى أي تطلّع الى حياة طبيعية. لعب بفكرة أن يصبح معلّمًا، وحصل على مزيد من النقود بالتعليم الخاص (على الرغم من أنه حاول أن يهدي تلاميذه الى الماركسية)، وفرض 10 كوبكات في الساعة. طُويت الصفحة الآن. وهكذا، عاش عالة على الآخرين، وتوقّع من الأصدقاء أو المتعاطفين أو الحزب، تمويل رسالته الثورية والإنسانية. في البدء، أدخل ما أسماه تروتسكي «اللعبة الجدية التي تسمى التآمر الثوري»: العالم الدنيوي الإرهابي المظلم بلباسه المميز الخاص وآداب المعاشرة الصعبة والقواعد الوحشية.

عندما دخل سوسو هذا العالم السري، مضى قدمًا في الخطط لمظاهرة يوم أيار/مايو العدائي.

* * *

المحافظ العام للقوقاز، الأمير غوليتسين، قاد القوزاقيين وجنود سلاح الفرسان وسلاح المدفعية والمشاة إلى تيفليس للكشف عن الأوراق السياسية. افترشوا الساحات والتحفوا السماء بشكل موقت. في صباح يوم الأحد 22 نيسان/أبريل 1901، تجمّع حوالي 3.000 عامل وثائر خارج بازار الجنود. قدّم القوزاقيون أفكارًا أخرى، لكن سوسو كان مستعدًا. لاحظ سيرغي أليلوييف أن الناشطين «ارتدوا ما لا يناسب الفصل كالمعاطف الثقيلة وقبعات جلد الغنم القوقازية». وعندما سألهم لماذا، أجاب رفيق:

«هذه أوامر سوسو».

«ما الغرض منها؟» «سنكون أول من يتلقى سياط القوزاقيين».

انتظر القوزاقيون بالفعل في كل باحة نزولًا عند مطلّ غولوفنسكي. وعند الظهر، «قصفت أسلحة الثكنة»؛ وبدأ المتظاهرون بالسير من غولوفنسكي إلى ساحة يريفان، حيث انضم إليهم تلاميذ الثانوية، وهم يغنون النشيد الوطني الفرنسي والوارساويانكا. قفر القوزاقيون عليهم وشهروا سيوفهم ولوّحوا بسياط الناغايكا الثقيلة القادرة على قتل إنسان. وتقدّمت الشرطة - الفاراووس - شاهرة السيوف. اندلعت معركة ضارية دامت خمسا وأربعين دقيقة من «المناوشات اليائسة» في البولفار، بينما صوّب القوزاقيون على أي مجموعة تفوق ثلاثة أشخاص. مرّرت الرايات الحمر - التي تشير إلى «سقوط الاستبداد» من يد إلى أخرى. أصيب أربعة عشر عاملًا إصابات بليغة، وأوقف خمسون عاملًا. وأعلن القانون العرفي في تيفليس[126].

سجّل ستالين بهذا أول نجاحاته. وفي حين أُوقف جوردانيا الأنيق وسجن لعام، أقفلت الكفالي، وهرب ستالين إلى غوري لبضعة أيام. لا عجب من نفور جوردانيا من هذا الشاب الحاد الطباع، لكن ستالين شرع في العمل للتو. كان هو وحلفاؤه تواقين إلى تكثيف «النضال المفتوح»، حتى لو كلّف الأمر «شلالات من الدماء».

* * *

ناقش هؤلاء الراديكاليون الشبان مقتل الكابتن لافروف، نائب رئيس الدرك في تيفليس، غير أنّ العمل الحقيقي تم في محطات السكك الحديدية، حيث قاوم مدير السكك الحديدية، فيدينيف، بحماسة إضرابات ستالين.

التقى ستالين في هذا الحين، بشريك الجريمة الآخر، ستيبان شوميان، الغني، والمثقّف جدًا، ونجل رجل الأعمال الأرمني. شوميان، المرتبط بشكل وثيق بالطبقة الثرية الحاكمة في القوقاز، كان المعلّم الخاص لأولاد أغنى بارونات النفط في المدينة، مانتاشيف، واقترن بعد فترة وجيزة بكريمة مدير تنفيذي رفيع المستوى في مجال النفط.

شوميان «الممشوق القامة والقوي البنية والوسيم جدًا، صاحب الوجه الشاحب والعينين الزرقاوين»، ساعد على إيجاد حل لمشكلة فيدينيف: كان رئيس السكك الحديدية يجلس في مكتبه عندما أرداه بمسدّس، صوّبه عبر النافذة فاخترق قلبه.

لم يتم القبض على أحد[127]. لكن هذه الطلقة اعتُبرت الخطوة الأولى في حقبة جديدة، حيث «يجب سحق كل الأحاسيس الحنونة تجاه العائلة والصداقة والحب والامتنان، وحتى الشرف»، وفقا للتعاليم الثورية Revolutionary Catechism لعدمية نيشايف المقروء جدًا، «بالشغف الوحيد بالعمل الثوري». وصف الطرفان القواعد اللاأخلاقية - أو بالأحرى غيابها - ككونسبيراتسيا، «العالم المستقل» الموصوف بحيوية في رواية دوستوفسكي «الشياطين» The Devils. من دون فهم

الكونسبيراتسيا، يستحيل فهم الاتحاد السوفياتي بذاته: لم يبارح ستالين هذا العالم أبدًا. أصبحت الكونسبيراتسيا الروح الحاكمة في دولة السوفيات، وفي حالته النفسية.

حمل ستالين من الآن فصاعدًا مسدسًا في حزامه. بات رجال الشرطة السرية والإرهابيون الثوار، مقاتلين سريين محترفين في النزاع على الامبراطورية الروسية[128].

(9)

ستالين في العمل السري: الكونسبيراتسيا

في هذا الوقت بالضبط، كان نجل كاهن غوري، كوت شاركفياني، يتجادل مع عامل تنظيفات في شارع خلفي لتفليس، عندما سمع صوتًا مألوفًا يقول: «هشّمه كوت. لا تجزع، هو الكلب الأليف للدرك!». استطاع سوسو التمييز بين الخائن أو الجاسوس، تقريبًا، بالغريزة. لم يكن يتسكّع في الأرجاء للثرثرة، لأن الشرطة السرية تلاحقه.

ثم «توارى عن الأنظار في الشارع المنعطف الضيّق...». لكن هذه الغريزة التآمرية صفة أساسية في لعبة الضباب والمرايا والظلال. احتجز الأضداد في عناق حميم ويائس وغير أخلاقي، حيث العملاء والعملاء المزدوجون والعملاء الثلاثيون، وعدوا ونكثوا بالوعد وتنقلوا بين الأطراف المتنازعة وخانوا مجددًا ولاءهم.

كان الثوار في السبعينيات من الطبقات الشعبية، وخاصة من الطبقة المتوسطة - نارودنيكي -، ظنوا أن المستقبل الليبرالي هو في الفلاحة الصرفة. وبات فصيل من النارودنيكي مجموعات إرهابية، هي «الأرض» و«الحرية» ولاحقًا «إرادة الشعب»، وقد اعتبر هذا الفصيل الأخير («إرادة الشعب»)، أن مقتل الامبراطور ألكسندر الثاني سيحقق الثورة.

اعتنقت، «إرادة الشعب» لفترة قصيرة أفكار الفيلسوف نيشايف الذي من أحشاء تعاليمه الثورية Revolutionary Catechism، وُلد لينين وستالين. واقترح «جمع عالم السارقين في قوة مدمرة غير قابلة للتجزئة»، قاتلًا الشرطة «بالعذاب الشديد». وشاطر الفوضوي باكونين هذا الحلم بتسخير «عالم السرقات المتفاخر والمتهوّر» للثورة. استعار لينين التنظيم المضبوط والتفاني التام ووحشية العصابات في «إرادة الشعب»، وهي صفات جسّدها ستالين.

بدأ ألكسندر الثاني، الذي واجه لعبة القط والفأر الإرهابية، باستحداث خدمة أمنية جديدة ومعقدة، كالإرهابيين أنفسهم. أعاد تنظيم القسم الثالث التابع لوالده، إلى الشرطة السرية المخوّلة حماية النظام والأمن الاجتماعي، التي سريعًا ما اختُصرت بكلمة «الأوخرانا». لكن على مرّ الإصلاحات، كان لدى «إرادة الشعب» عميل في هذه الشعبة. لاحقت الشرطة الإرهابيين، لكن كان قد فات الأوان. ففي العام 1881، نالوا من رجلهم، فقتلوا ألكسندر الثاني في شوارع سان بطرسبرغ.

ابتكر خلفه ألكسندر الثالث النظام المزدوج الذي عرفه ستالين. الأوخرانا والدرك المهيبون شبه العسكريين، كانوا «عيني القيصر وأذنيه» باللباس الأزرق الأنيق المزيّن بالأبيض مع الأحذية العالية والسيف، وهم يقودون مخابراتهم الخاصة.

جمع القسم الخاص للأوخرانا بدقة في مركزه الرئيسي الرائع في فونتانكا 16 على يد مويكا في بطرسبرغ، جداول المتاهات

والملفات الملونة للمجموعات الإرهابية.

مارست مكاتبه السوداء أعمال البرلوستراسيا (المراقبة): فتح ب سنوي بحلول العام [129]1882. وتلخّصت سمعته في أوروبا بأنه الجهاز الفاسد لحكم الفرد، لكنه لم يقترب أبدًا من المؤهلات الوحشية لمنظمة شيكا التابعة للينين، بغض النظر عن المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية التابعة لستالين.

واستخدم مسؤولو هذا القسم البوليسي ثلاث عقوبات. ونادرًا ما كانوا يستعلمون الحبل، الذي خصص لقتلة آل رومانوف والوزراء، لكن كان له أثر مصيري واحد: إعدام ألكسندر أليانوف، وهو شاب كان على حافة التآمر ضد القيصر، ساعد على ترشيد أخيه الأصغر، لينين. وتاليًا كانت الكاتورغا، أي الأعمال الشاقة، نادرة أيضًا. أما العقاب الأكثر شيوعًا فكان «النفي الإداري»، لمدة تصل إلى خمس سنين.

طوّر العقل المدبّر للكونسبيراتسيا، رئيس الأوخرانا في موسكو زوباتوف، نظامًا جديدًا للرقابة. استخدمه التحريون، لكن أدواتهم الحقيقية كانت، الأغانتورا، «العميل الخارجي» - الشبيك أو «الشبح» في اللغة العامية الثورية - الذي تعقّب أثر شخصيات كستالين. كان التكتيك الأكثر فعالية للأوخرانا البروفوكاتسيا: استفزازات «عملائهم الداخليين». يجب أن يعامل رجل الشرطة السرية عميله المستفز «كامرأة محبوبة تربطك بها علاقة غير شرعية»، وفق زوباتوف. «اعتنِ بها كعينيك. فبحركة واحدة تنم عن لامبالاة تهينها... لا تكشف أبدًا عن اسم مخبرك إلى أحد،

حتى إلى مديرك. انس اسمه ولا تحفظ سوى اسمه المستعار». كان الرهان كبيرًا: فالمستفز عند طرف هو البريداتيل (الخائن) عند الطرف الآخر، ويواجه الموت. لم يدخل هؤلاء العملاء المزدوجون فقط «الحياة الداخلية للمنظمات الثورية»، بل وجّهوها أحيانًا أيضًا. حتى أن الأوخرانا ألّفت مجموعاتها الثورية واتحاداتها العمالية الخاصة بها. وصمم وجودها بغية بث الجنون الإجرامي من الشك والاضطهاد في صفوف الثوار. ويُظهر الرعب الستاليني المجنون في الاتحاد السوفياتي مدى نجاحهم. لكن يمكن أن تكون الكونسبيراتسيا خطرة على السلطات، كما بالنسبة إلى الإرهابيين[[130]].

واجهت روسيا تفتّح المؤامرات في حربها على الرعب: لم يكن على الأوخرانا أن تحبط الديموقراطيين الاشتراكيين والطاشناق الوطنيين الأرمن والفيديراليين الاشتراكيين الجورجيين فحسب، بل لضرب أكثر إرهابيي روسيا إجرامًا، الاشتراكيين الشعبيين المعروفين بالثوار الاشتراكيين. وظّفت الأوخرانا في خير مثال على خطر العملاء المزدوجين، إيفانو أزيف، رئيس لواء القتال في الثوار الاشتراكيين، الذين لجأوا بفعالية إلى الانتحاريين. وبين العامين 1902 و1905، تلقى أزيف دفعات كبيرة، لكنه نظّم في الوقت نفسه اغتيال وزيري داخلية ودوق كبير.

لكن، بشكل عام، وعلى الرغم من التنافس بين الأوخرانا والدرك والتشوش البيروقراطي، قامت الشرطة السرية بالقمع، وتسلل الثوار بمهارة ونجاح مذهلين: كانوا أفضل المخابرات السرية في

زمانهم[131]. والحقيقة أن لينين نسخ الأوخرانا لتنظيم «بعض المحترفين المدربين والمتمرسين جدًا، كشرطة سرية ذات تقنيات عالية في التآمر».

كان ستالين تحديدًا هذا الرجل؛ كان «العالم المستقل» مسكنه الطبيعي. وفي القوقاز، صعبت أكثر الاستفادة من اللعبة. كانت التنشئة الجورجية أفضل تدريب للإرهابي، رجل العصابات، استنادًا إلى الولاء المقدس للعائلة والأصدقاء ومهارات القتال والسخاء الشخصي وفن الثأر، وكلها تخمّرت في ستالين في شوارع غوري الخلفية. كانت الشرطة السرية القوقازية أكثر عنفًا، وقائمة على الرشوة. وأصبح ستالين خبيرًا محترفًا في إفساد عناصرها واكتشاف جواسيسها[132].

* * *

طارد أشباح الأوخرانا ستالين دائما، وأمسى خبيرًا في خداعهم: «هؤلاء الأغبياء»، يضحك وهو ينسحب في فرار أفعواني في الشوارع الخلفية لتيفليس. «هل يفترض بنا أن نعلّمهم كيف يؤدون عملهم[133]؟». تفادى التوقيفات التي أعقبت هرج أحد أيام أيار/ مايو ومرجه، لكنه أخفق. كان ذات مرة يغني أغاني جورجية في متجر غير شرعي لبيع الكتب عندما طوقت الشرطة المكان: فتجاوز مباشرة «رجال الشرطة المغفّلين». ومرة أخرى شنّت الشرطة في اجتماع للثوار، غارة على منزل، لكن ستالين ورفاقه قفزوا من النافذة إلى المطر من دون أحذية الكلوش، وهم يقهقهون

بأعلى أصواتهم[134].

بدّل كثيرًا في الأسماء - استعمل لقب «دافيد» في ذاك الوقت-، وتنقّل بين ست شقق على الأقل. وعندما مكث عند صديقه ميخا بوشوريدزي، أغارت الشرطة على المنزل (إلى حيث نقل كامو المال لاحقًا بعد السرقة في تيفليس). ادعى ستالين أنه مستأجر مريض، يستلقي في الفراش وهو مغطى بالملاءات والضمادات. فتّشت الشرطة المنزل، لكن، بما أنه لم يكن لديها أي أوامر خاصة بوجود أي مريض، ذهب رجال الشرطة لاستشارة ضباطهم. فأرسلوهم من جديد لتوقيف «المريض»، الذي تعافى في هذه الأثناء... وهرب[135].

بين عمليات الهروب والاجتماعات، كان ستالين مشغولًا في كتابة أولى مقالاته في أسلوب تعليمي ورومانتيكي ورؤيوي. شكّل لادو مع أبل يينوكيدزي، وهو تلميذ سابق في الثانوية وفاسق لطيف ذو شعر رملي اللون، فريقًا لابتكار صحيفة راديكالية هي «بردزولا» (النضال)، التي طبعوها في مطبعة غير شرعية في باكو[136].

طارده الأشباح وقبضوا عليه أحيانًا: في 27 و28 تشرين الأول/ أكتوبر 1901، راقبوا المفكر جوزيف دجوغاشفيلي يقود اجتماعًا في حانة ميلاني.

في 11 تشرين الثاني/نوفمبر، أدار مؤتمرًا في المدينة حضره حوالي أربعة وعشرين ماركسيًا. هنا، هاجمه المعتدلون

«كمفتر». عرفوا كلهم باتهامات دجيبلادزي ضد سوسو «البغيض»، لكنهم علموا أيضًا بطاقته ومؤهلاته وقساوته. ستالين، الذي تبع رؤية لينين لجهة الطائفة العسكرية من الثوار المحترفين، حذّر من مخاطر اختيار عمال عاديين في لجنتهم، لأنه «سيتم اختيار عملاء الشرطة». وعوضًا عن ذلك، اختار المؤتمر لجنة من أربعة عمال وأربعة مفكرين.

طالب أعداؤه الكثر بالتأكيد بطرده، وادعوا لاحقًا أنه طُرد من تيفليس. وتكرر هذا التفكير - التمني منذ ذلك الحين على ألسنة المؤرخين. ولحسن الحظ، كشف عملاء الدرك، الذين امتلكوا معلومات أفضل، والذين كتبت تقاريرهم في ذاك اليوم، عن انتخاب سوسو كمفكر رابع. لكن، ربما هذا جزء من مساومة لضرب عصفورين بحجر واحد. انتخب في اللجنة، وانضم إلى القيادة للمرة الأولى، لكن بينما أطبقت الشرطة السرية، «أُغيث» (وأغاثه رفاقه من كيده الحاقد) بإرساله إلى «مهمة ترويج»... في الوقت المناسب بعيدًا عن تيفليس.

لاحظ الدرك أن ستالين المنتخب حديثًا، الموجود دائمًا، لم يحضر إلى اجتماع اللجنة في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1901. وكما دائمًا كالماكافاتي، القطة المتخفية ت. س. إليوتن، توارى في النسيم العليل.

استقل في الحقيقة القطار متجهًا إلى باتومي، مرفأ النفط المضطرب في الامبراطورية الروسية، حيث نشر الدم والنار [137].

(10)

«أعمل لصالح آل روتشيلد!»

إطلاق النار والمجازر والتوقيفات

في باتومي جلب الرفيق سوسو أسلوبه الجديد الذي لا يعرف الرحمة، إلى باتومي، منكَّهًا بطعم الثأر. في غضون ثلاثة أشهر من انتقاله إلى البلدة المحاذية للبحر، التهبت النيران في مصفاة آل روتشيلد بطريقة غريبة. أدّى إضراب نضالي إلى الانقضاض على السجن ومجزرة قوزاقية. وغرقت البلدة في المنشورات الماركسية، وتعرّض المخبرون للقتل، وذُبحت الخيول وأُطلقت النيران على مدراء المعامل. كان سوسو معاديًا ومقاطعًا للثوار الجورجيين الذين يتبعون الأسلوب القديم، وارتبط بعلاقة غرامية مع شابة متزوجة بينما كانت الشرطة تطارده.

وقع وهو يركض إلى باتومي. تواعد في حانة في البازار التركي مع قسطنطين كانديلاكي، وهو عامل وديموقراطي اشتراكي، أصبح تابعه الأمين في باتومي. أمر كانديلاكي بالدعوة إلى سلسلة من الاجتماعات. وكتب أحد العمال المحليّين، وهو بورفيرو كوريدزي، الذي واجه «رجلًا شابًا نحيلًا وحيويا، بالشعر الأسود»، المسدول والطويل جدًا «نفتح الباب وفق دقة متفق عليها».

يقول دومنتي فاداشكوريا، الذي عقد أحد الاجتماعات في شقته

«لم يعرف أحد باسمه. كان مجرد شاب بالقميص الأبيض، والمعطف الصيفي الطويل والفيدورا».

ستالين المتمرّس تقريبًا في الكونسبيراتسيا، والمؤمن بغريزته الخاصة التي ترشده إلى الخونة، أمر فاداشكوريا «بدعوة سبعة عمال إلى اجتماع»، لكنه «طلب مني أن أُريه العمال المدعوين». جلس عند النافذة بينما «كنت أسيّر العمال المدعوين واحدًا تلو الآخر، على طول ممر ضيق. طلب مني ستالين عدم دعوة أحدهم. كان متآمرًا مذهلًا، ويعرف الطبيعة البشرية خير معرفة. يرى جوهر الإنسان بالنظر إليه. قلت له إن هنالك من يريد العمل معنا»، واسمه كارزخيبا.

قال ستالين «ذاك الرجل شبح». تابع فاداشكوريا بعد قليل «عندما قطع القوزاقيون مجرى الاجتماع، رأينا ذاك الرجل بلباس الشرطة. اتخذ قرارًا بإزالته من الوجود، فقُتل». كانت أول مرة يتخلص فيها ستالين من خائن ويقتله، ومن المرجح أنها أول جريمة له[138]. في أي حال، اعتمد القساوة لاحقًا في «اللعبة الجدية للتآمر». هناك العديد من الكارزخيبيا الآخرين. لكن، حتى عندئذ تخلى عما أسماه «العمل الأسود» - القتل - لتابعة الأمين.

أعلن ستالين في الاجتماعات، أنه يجلب روحًا عدائية جديدة إلى الثورة في باتومي. ثم طلب من الجميع هناك «جمع سبعة آخرين في معملكم، وتكرار هذا الحديث[139]». واتخذ من حانة علي الفارسي في البازار مركزه الرئيسي، وتنقّل الرفيق سوسو في

الأرجاء طوال الوقت في طقس غالبًا من الزيارات والمحاضرات الليلية. مكث أولًا مع سيمهوفيش، وهو ساعاتي يهودي، ثم مع سارق سابق، هو الآن عامل في النفط، ويُدعى سيلفستر لومدزهاريا، وأصبح مع شقيقه بورفيرو، حارسي ستالين.

في أحد الأيام، استفاق ستالين باكرًا واختفى من دون أن ينبس ببنت شفا. وصل كانديلاكي بعده بقليل وانتظر بعصبية عودته.

سأله ستالين بحيوية «احزر لماذا استيقظت باكرًا جدًا هذا الصباح؟ حصلت اليوم على عمل لدى آل روثشيلد في المصفاة. سأجني 6 أباز يوميًا (ما يساوي روبلًا واحدًا و20 كوبكا)». ما كانت السلالة الفرنسية واليهودية، التي جسّدت النفوذ والسحر وعالمية الرأسمالية الدولية، لتتسلى كستالين، لكنها لم تعرف قط أنها وظّفت البطريرك الأعلى المستقبلي للماركسية الدولية. بدأ ستالين بالضحك، لا بل الغناء من شدة الفرح: «أنا أعمل لدى آل روثشيلد!».

مازح كانديلاكي قائلًا «آمل أن يزدهر آل روثشيلد من الآن فصاعدًا!».

لم يتفوّه ستالين بأي كلمة، لكنهما فهما على بعضهما البعض: سيقوم بكل ما في متناول يديه ليضمن ازدهار آل روثشيلد[140].

في ليلة رأس السنة، اجتمع سوسو مع ثوّاره الثلاثين الأوائل في لقاء على شكل سهرة في منزل لومدزهاريا، وقدموا الجبن والسجق والنبيذ، لكنه حظر الإسراف في الشرب. وختم خطابه

المروّع والميلودرامي بالتحريض على الموت: «يجب ألا نخاف من الموت! الشمس تشرق. فلنضحِّ بحيواتنا!».

قال الذي يتصدر الوليمة «قد نموت في أسرتنا لا سمح الله!». ابتهج العمال، وقد استلهموا من عدائية ستالين، حتى في غياب الماركسيين المعتدلين التابعين لباتومي، بقيادة كارلو شخيدزي، المدير المحلي للمستشفى، والمعلم أسيدوري راميشفيلي. أداروا مدرسة يوم الأحد للعمال، وهي لعنة مقاربة ستالين الصبيانية.

ساعد «الشرعيون» أولًا على تمويل هذا العمل، لكن لم تستمر علاقات الصداقة لوقت طويل. إذ أوشك ستالين على «قلب باتومي رأسًا على عقب».

* * *

كانت باتومي بلدة شبه استوائية على الحدود مع البحر الأسود، تخضع لسلالات النفط المالي الكبيرة في الامبراطورية، آل نوبلز وآل روتشيلد. حتى بعد مرور عشرين عامًا، دعا الشاعر أوسيب ماندیلستام باتومي «مدينة غولدراش كاليفورنيا، وفق الطراز الروسي».

حصل القيصر على وكر القراصنة هذا على الشاطئ من الشاه العثماني في العام 1878، لكن طفرة النفط في باكو، في الجهة المقابلة من البرزخ القوقازي، طرحت تحدي كيفية نقل الذهب الأسود إلى الغرب. بنى آل روتشيلد وآل نوبلز أنابيب النفط إلى باتومي، حيث يمكن تكرير النفط وتحميله لاحقًا في الصهاريج الراسية في مرفأ نافتا. وأصبحت باتومي فجأة، وهي مرفأ تصدير

المنغنيز والسوس والشاي، «بوابة إلى أوروبا»، «المدينة الحديثة الوحيدة» في جورجيا.

تضم باتومي الآن 16.000 عامل فارسي وتركي ويوناني وجورجي وأرمني وروسي، ويعمل تقريبًا ألف منهم في مصفاة التكرير، التي تديرها شركة قزوين والبحر الأسود للنفط التابعة للبارون إدوارد دي روتشيلد. عاش العمال، وهم غالبًا من الأطفال، في بؤس في مدينة النفط في الشوارع العابقة، حيث المجارير تفيض قرب مصافي التكرير التي ترشح. وقتلت حمى التيفوس العديد. لكن أصحاب الثروات الطائلة وأصحاب الملايين في باتومي والمدراء التنفيذيين الأجانب، وتحديدًا الإنكليز، حولوا هذا الموضع الخلفي المنعزل إلى بلدة السعادة مع بولفار ساحلي وقصور على الطراز الكوبي وبيوت دعارة فخمة وكازينوهات ومنحدر الكريكيت ونادي يخوت إنكليزي[141].

* * *

في 4 كانون الثاني/يناير 1902، يقول كانديلاكي «بينما كنت عائدًا إلى بيتي، رأيت النيران مشتعلة!»، ثم عاد ستالين، مبتهجًا يتباهى: «تعلم، يا صاح، تحققت كلماتك على أرض الواقع!». «سيزدهر» آل روتشيلد بالفعل مع ستالين الموظّف لديهم. «اشتعلت النيران في مستودعي!»[[142]].

شاهدت الحشود الدخان الأسود الممتد يعلو فوق المرفأ. ساعد العمال على إخماد النيران، ما يعني أنهم يستحقون المكافأة.

وانضم ستالين إلى بعثة للقاء المدير الفرنسي لدى آل روتشيلد، فرانسوا جون، فكان لقاؤه الأول مع رجل أعمال أوروبي. لكن هناك دليلًا على أن ستالين كان لاحقًا على اتصال سري بإدارة روتشيلد: بداية علاقته المظلمة، لكن المربحة مع بارونات النفط. لا شك في أن روتشيلد علم بأن الحريق متعمّد، ورفض جون دفع المكافأة. هذا هو الاستفزاز الذي فكّر فيه ستالين. فدعا إلى إضراب.

حاولت السلطات إيقافه، وحاولت الأوخرانا مطاردة المشاغب الجديد في باتومي؛ ضايق الفراعنة المضربين؛ شاهد الأشباح الماركسيين؛ قلق آل روتشيلد على شحنات النفط. لكن ستالين اتجه إلى تيفليس - مسافة إحدى عشرة ساعة في القطار - لتأمين الآلة الطابعة الضرورية لتوسيع الإضراب. وجب نشر الكراسات باللغتين الجورجية والأرمنية، فوضعته اللجنة على اتصال بسورين سباندريان، وهو أرمني كريم لكن لا يرحم. وعلى الرغم من وجود زوجته والأطفال، كان مغوي نساء لا يردعه رادع. طبع ستالين منشوراته الأرمنية في مطابع والد سباندريان، وهو محرر صحيفة، وأصبح من أعز أصدقاء ستالين[143].

عاد ستالين، بمساعدة كامو، حاملًا مطبوعاته، ووجد باتومي قد وقعت في براثن اضطراب عارم. ركّب كامو وكانديلاكي بسرعة المطبعة، التي بدأت نشر كلمات ستالين بين كل العمال في مدينة النفط.

في 17 شباط/فبراير، استسلم روتشيلد ونوبل، ووافقا على طلبات

العمال، بما فيها زيادة الأجر بنسبة 30 في المئة. وهذا نصر بالنسبة إلى الثائر الشاب. في تيفليس، كان درك الكابتن لافروف يضايقون الماركسيين بالغارات والتوقيفات، لكن في باتومي، الهادئة سابقًا، فقد أفصح الكابتن غيورغي جاكيلي عن قلقه إزاء «الصخب المتنامي المفاجئ». وكثّف رقابة «الرفيق سوسو» المبهم.

كان على ستالين الانتقال من شقة لومدزهاريا. بعد التنقل بين العديد من الشقق، استقر في بلدة العمال في بارسخانا في منزل صغير يعود إلى ناتاشا كيرتافا، التي تبلغ من العمر اثنين وعشرين، وقد جسّدت جمال الفلاحين، وتعاطفت مع الاشتراكيين الديموقراطيين وقد اختفى زوجها. ووفقًا لفلكلور باتومي، ومذكرات كيرتافا الخاصة واقتراحاته الخاصة التالية، جمعته بهذه الشابة علاقة حب، أول علاقة وليست الأخيرة مع الكثير من صاحبات الأراضي والرفيقات وفي التآمر. في مذكراتها، تتكلم على «مجاملته اللطيفة ومراعاته لمشاعر الآخرين، وتدوّن حتى لحظة حب[144] وسط النضال الماركسي: «مال إلي ومرّر يده في شعري على جبيني، وقبّلني»[145].

كان آل روتشيلد، في ظل مديريهم جون وفون شتاين، مصممين على الثأر من نجاح ستالين. في 26 شباط/فبراير، صرفوا 389 عاملًا مثيرًا للمتاعب. أضربوا وأرسلوا «شخصًا للبحث عن الرفيق سوسو»، لكنه كان في تيفليس حيث كان يزور مرارًا وتكرارًا تلميذيه، سفانيدزي وكامو.

أسرع سوسو إلى باتومي في اليوم التالي، ودعا أتباعه إلى لقاء في ساحة لومدزهاريا، حيث «اقترح سلسلة من الطلبات»، وإضرابًا أكثر استفزازًا حتى إقفال محطة النفط بأكملها. لم يتعرّف إليه أحد مساعديه، بورفيرو كوريدزي: فقد حلق لحيته وشاربيه. عندما لم يكن ستالين في حانة علي الفارسي، كان يستخدم مدفن سوك سوك كمقر رئيسي رهيب، حيث يعقد الاجتماعات في منتصف الليل بين القبور لانتخاب المندوبين. فاجأتهم الشرطة مرة في اجتماعهم هناك، فتخفَّى في تنورة رفيقة واسعة. وفي اجتماع آخر، وهو محاط بالقوزاقيين، وضع عليه فستانًا وهرب ببطء.

تأثر العمال ب «المفكّر»، الذي لقبوه ب «الكاهن». أعطاهم لائحة بالكتب للقراءة. قال كوريدزي «ترك لنا مرة كتابًا للقراءة. شرح ستالين «إنه غوغل»، يعلّمنا عن حياة غوغل».

كان الرفيق سوسو يرتدي عادة سترة جركسية أنيقة مع الفيدورا المترعة السوداء الواسعة الأصلية، وقلنسوة قوقازية بيضاء مطروحة على كتفه. واكتسب بسرعة أتباعًا عدوانيين، عرفوا «بالسوسويين»، وهم نسخة سبقت الستالينيين. دعاه شخيدزي و«الشرعيون» من مدرسة الأحد ليتلقى تأنيبًا، لكنه رفض الذهاب. سخر سوسو، الذي وجب عليه أن يكون متحكمًا بالكامل، منهم قائلًا: «هم أصحاب استراتيجيات نظرية ويتفادون النضال السياسي الحقيقي». يقول الكابتن لافروف من درك تيفليس، إن «استبداد دجوغاشفيلي أبعد عنه العديدين» في النضال «من الاشتراكيين القدامى والاشتراكيين الشبان». انتشر الإضراب.

وتعرّض مفسدو الإضراب للتهديد وذُبحت خيولهم. لكن الشرطة السرية كانت تلاحق سوسو الكاهن. وقد تكتّل القوزاقيون[146].

* * *

سارع الجنرال سماجين، حاكم مقاطعة قتيسي، التي شملت باتومي، إلى البلدة لقيادة قمع الإضراب. كانت رسالته مكشوفة، متوجهًا إلى العمال: «ستعودون إلى العمل، أم تفضّلون سيبيريا!». وطوال ليل 7 آذار/مارس، أوقف سماجين حارس ستالين بورفيرو لومدزهاريا وقادة الإضراب.

نظّم ستالين في اليوم التالي مظاهرات خارج مركز الشرطة حيث احتجز السجناء. نجح في الضغط، فنقل الدرك الحانقون السجناء إلى سجن انتقالي. ووعد الحاكم بلقاء المتظاهرين، لكن هذا لم يناسب سوسو. فاقترح في اللقاء الليلي اقتحام السجن. فضّل فاداشكويا التفاوض. سخر سوسو الكاهن منه قائلًا: «لن تصبح أبدًا ثائرًا»، ودعمه السوسويون. وقاد ستالين في اليوم التالي مظاهرات عدائية. وفي اليوم الذي تلى، انضم إليه الكثير من أهل البلدة في المسيرة لاقتحام السجن. لكن خائنًا ما خان الخطة. تمركز القوزاقيون، وسدت الجيوش بقيادة الكابتن الصعب أنتادزي الطريق إلى السجن الانتقالي. نصبوا حربات، فترددت الجموع الغفيرة أمام الحاجز.

حذّر ستالين قائلًا: «لا تركضوا، وإلا فسيطلقون النار».

قال بورفيرو كوريدزي: «اقترح سوسو أن نغني. لم نكن نعرف

الأناشيد الثورية فغنينا «علي - باشا!»».

توجه ستالين إلى الجموع قائلًا: «لن يطلق الجنود النار، ولا تخافوا من الضّباط. تغلبوا عليهم ولنطلق سراح رفاقنا». فترنّحت الجماهير باتجاه السجن.

كان سوسو محاطًا بحرس سوسويين، معظمهم عمال فلاحون غوريون، بقيادة كانديلاكي. تباهى سوسو لاحقًا: «الغوريون متآمرون باسلون. حاولوا منعي من التوجه إلى مقدمة الصف، لكنني فعلت. فأقاموا سبع دوائر حولي ووقف الجرحى حتى في المكان، فاستحال إلى خرق الدائرة».

وبينما بدأ الحشد خارج السجن بمهاجمة الجنود، تغلّب السجناء في الداخل على الحراس. أحد السجناء بورفيرو لومدزهاريا، سمع المشاغبين: «حاولنا الخروج. كانت البوابة محطّمة. لكن هرب بعض السجناء». قفز القوزاقيون على المتظاهرين الذين غزوا المكان، محاولين الإمساك بالبنادق. وردّ الثوار بالطلقات المضادة ورجموا القوزاقيين بالحجارة. ضربهم الجنود بأعقاب بالبنادق لكنهم أُجبروا على الانسحاب. ضُرب الكابتن أنتادزي بالحجارة، وثُقب طرف كمه بالرصاص. قاتل الجنود، وأطلقوا النار في الهواء، ثم تراجعوا من جديد. لكن هذه المرة صمدوا. يتذكر متظاهر، هو إينجيرابيان «دعانا من جديد صوت ستالين العالي إلى ألا نتفرّق، أن نخلّص العمال». فاندفعت الجماهير إلى الأمام.

«ثم صدر صوت رهيب!». أعلن الكابتن أنتادزي بما يشبه النباح، الأمر: «أطلقوا النار!». فدوّى وابل من الرصاص. وقع

الناس على الأرض. الكل ركض وصرخ. «كان هلع شديد، وجحيم مطلق. تغطت الساحة التي خلت إلا من الموتى والمحتضرين بالأنين والتأوه» تحت أعين الجنود. صرخ المحتضرون طالبين «المياه» أو «النجدة!». ثم يقول كانديلاكي «تذكرت سوسو. افترقنا. كنت خائفًا، بدأت أبحث عن جثته بين الموتى». لكن لاحظت فيرا لومدزهاريا، شقيقة بورفيرو، أن ستالين يتسكّع ويراقب الضرر الذي استشرى. وهي تبحث عن شقيقها بين الجثث، هاجمت جنديًا، لكنه أجاب: «كان أنتادزي».

حمل سوسو «أحد الجرحى» وأخذه إلى الفيتون. يقول إيلاريون داراخفيليدزي «جلبه إلى شقتنا. لفّ سوسو الضمادات على الجريح»، بحسب كانديلاكي. ساعدت ناتاشا كيرتافا ونساء أخريات، الرفاق الجرحى على الصعود في كارات لأخذهم إلى المستشفى. كان هناك ثلاثة عشر ميتًا وأربعة وخمسون جريحًا. «كنا مخضوضين جدًا» ذاك المساء في منزل داراخفيليدزي. لكن البهجة لم تفارق سوسو.

قال ستالين لكاشيك كازاريان «اليوم تقدّمنا عدة سنين إلى الأمام!». كل ما عدا هذا لا يهمّ. «خسرنا رفاقًا لكننا ربحنا». وكما في العديد من الحملات الدموية الأخرى، ليست الكلفة البشرية ذات صلة، بل هي تابعة لقيمتها السياسية. «أسدى الجلاز وسيف المبارزة خدمة كبيرة لنا، لقد عجّلا في بث روح الثورة في نفوس كل المتفرجين الأبرياء». كما تأثر تروتسكي الصغير بمجزرة باتومي قائلًا: «حرّضت البلاد بأكملها».

استشاط جوردانيا وشخيدزي غضبًا من «هذا الشاب الذي يريد أن يكون قائدًا»، لكنهما «لم يفقها الشؤون... واستعملا اللغة الفظة». واعتبرا أن المجزرة تصرّف يعود على الخصم بالفائدة، وعليهم بالضرر: هل كان ستالين عميلًا مستفزًا؟

* * *

سارع ستالين إلى المطبعة ليختبئ في كوخ ديسبينا شاباتافا، وهي ماركسية شابة. اندفع في الرد المطبوع على المجزرة، التي وزعت أخبارها في كل البلدة، في صباح اليوم التالي قائلًا «شكرًا للأمهات اللواتي ربّين مثل هؤلاء الأبناء!». غير أن مخبرًا ما خان المطبعة، وهاجم رجال الشرطة المنزل. لكن سدّت ديسبينا الطريق صارخة «أولادي نائمون». ضحك رجل الشرطة: لم يتم إزعاج المطبعة أو ستالين. لكنه لم يحارب بالكلمات فقط: يبدو أنه أمر باغتيال مدير آل روتشيلد فون ستين. يتذكر أحد أتباع ستالين «أوكلنا (رفيقًا) باغتياله». «عندما اقتربت عربة فون ستين»، صوّب التابع الأمين لستالين مسدسه عليه، لكنه أخطأ الهدف.

«أدار فون ستين عربته وهرب وغادر البلدة في ذلك الليل بحرًا».

تستهدف المطاردة الآن ستالين، الذي عليه نقل مطبعته القيّمة إلى ملجأ آمن. يقول كوريدزي «علّق أهمية كبيرة على التآمر. غالبًا ما كان يأتي في مركبة، يبدّل ملابسه ويختفي من جديد بالسرعة نفسها». يغيّر مظهره، ويبدّل فجأة السترات مع الرفاق، وغالبًا ما

يلبس «قلنسوة على شعره المسدول[147]».

في ذاك الليل، حمّل ستالين المطبعة في عربة، وخبأها في المدفن، ثم نقلها إلى كوخ، هو منزل قاطع طرق أبخازي مسنّ يدعى هاشيمي سميربا، في ماخموديا، على بعد 7 فرست من باتومي لكن مباشرة تحت مدافع حصن الثكنة (وبالتالي بمنأى عن الشك). ابتهج السارق المتقاعد بتخبئة المطبعة لأن صديقه لومدزهاريا قال له إن الآلة الطابعة تطبع روبلات مزوّرة. سيحصل سميربا على حصته. يخبر نجل سميربا، الذي لا تظهر مذكراته في أدب العبادة، كيف وصل ستالين في منتصف الليل مع أربعة صناديق ثقيلة، وبدأ العمل وفك الرّزمات ووضعها في القبو. وصل جامعو الحروف المطبعية، وربما ستالين أيضا، وغادروا كالنساء المسلمات المحجّبات. ووظّف بناؤون، يعملون ليلًا نهارًا لبناء منزل آخر لسميربا يضم قسمًا سريًا للمطبعة التي تحدث طنينًا.

سأل أحد البنائين: «ما هذه الضجة؟».

أجاب سميربا: «بقرة مع دودة في قرنها».

شارف سوسو على الانتقال إلى كوخ سميربا الخشبي، حيث قاطع الطريق المسلم المسنّ يتشاجر مع الثائر الجورجي الشاب لنيل حصّته من ضرب الاحتيال.

قال سميربا: «أنت تطبع منذ أيام. متى ستستعمل المال؟».

أعطى سوسو لسميربا أحد الكراسات.

تفاجأ سميربا المذهول: «ما هذا؟».

أجاب ستالين إزاء ارتباك سميربا «سنطيح بالقيصر وآل روتشيلد والنوبل».

كان يخفي في كل صباح الكراسات في سلال الفاكهة الريفية التي حمّلها سميربا في كارته. كان يلتقي السارقان لومدزهاريا في البلدة ويأخذان سلال الفاكهة إلى المعامل، ويوزّعان الكراسات. إذا حاول أحدهم شراء الفاكهة، يطلب سميربا سعرًا باهظًا أو يدّعي أنه طلب خاص. عندما تعطّلت الطابعة، قال ستالين لكانديلاكي، «فلنبدأ مطاردة الفريسة». بعد إيجاد قطع الغيار الصحيحة في متجر طباعة محلي، قال: «هذه ثروتنا، الآن اسلخها»، وأرسل أتباعه الأمناء، الذين سرقوها وقدّموها إليه في المركز الرئيسي، حانة علي الفارسي في البازار. جاء مرة بعض القوزاقيين نزولًا إلى الشارع بينما كان يسلّم حمدي الصغير قطعا. طرح الكيس في المنزل وتخطى شيئًا بوثبة. وساعد ستالين لاحقًا على منع الصبي من الكلام، بالإثناء على شجاعته.

عرفت قرية سميربا بأكملها الآن أن أمرًا مريبًا يجري في الكوخ الخشبي الجديد الذي تزوره الكثير من النساء القويات البنية والمحجبات، بينما كان سوسو يجمع اثني عشر فلاحًا موثوقًا لشرح رسالته لهم. يتذكّر حمدي سميربا «في النهاية، هم احترموا المنزل».

قال سميربا وهو يدخّن الغليون «أنت رجل صالح، سوسو. يا للعار، لست مسلمًا. إذا أصبحت مسلمًا، تحصل على سبع عذراوات حسناوات، ألا تريد أن تصبح مسلمًا؟» ضحك سوسو

وقال «طبعًا أريد!»[148] [149] .

* * *

وُوري العمال الموتى الثرى في 12 آذار/مارس، وكانت فرصة لإقامة مظاهرة أخرى، من 7.000 رجل قوي، مستوحاة من البيان الملتهب الذي كتبه ستالين وطبعه.

كان الموكب محاطًا من كل جهة بالقوزاقيين المتعاظمين. كان الغناء محظورًا. أشرف الرفيق سوسو بهدوء على المآتم. لكن رجال الدرك منعوا تلاوة أي خطاب.

وبينما غادرت الحشود، تحدّاهم القوزاقيون بازدراء بغناء مسيرة الموت.

علمت الشرطة السرية الآن بأن ستالين من قادة اضطرابات باتومي. «حقّق التنظيم نجاحات كبرى بعد قدوم جوزيف دجوغاشفيلي في خريف العام 1901»، هذا ما نقله الكابتن جاكيلي إلى رئيس درك قتيسي. «أكدت أن جوزيف دجوغاشفيلي شوهد بين الجموع خلال اضطرابات التاسع من آذار/مارس... تشير كل الدلائل إلى أنه اضطلع بدور ناشط في الاضطرابات». كانوا مصممين على ملاحقته.

في 5 نيسان/أبريل، حذّرت ديسبينا شاباتوفا ستالين من أنه شجب. وغيّر اجتماع تلك الليلة مرتين، والتقوا في النهاية في منزل داراخفيليدزي.

ركضت ديسبينا فجأة إلى الداخل: كان الدرك في الخارج أو، كما

قال الضابط المسؤول: «طُوّق المنزل، في منتصف الليل الماضي، حين قالت لنا المخابرات إنهم يقيمون اجتماعًا لعمال مصفاة منتاشيف...».

سارع سوسو الكاهن إلى النافذة الخلفية، لكن من دون جدوى. كان المنزل مطوّقًا بالدرك باللباس الأزرق. هذه المرة لا مجال للهروب[150] [151].

الجزء الثاني

إلى القمر

تقدّم بلا تعب

تحرّك بلا كرب،

بدّد سديم السّحب

عظّم الإله الرّب.

ابتسم بلطف

لأرض تحتك وتشتدّ،

غنِّ برقّة لجليد من سمائك يمتدّ.

واعلم أن الرّجل إن سقط

إلى أسفل، يناضل

يحدوه أمل أن يصل إلى صافي الجبل.

فيا قمر الجمال،

أَبرق كما سبق في الشّفق،

بشعاعك، ارمق الأزرقَ في الأفق.

وأنا بدوري، سأفتح للقمر ثوبي،

وأعرض صدري، وأمدّ ذراعي،

لأبجّل منير الأرض!

سوسيلو (جوزيف ستالين)

(11)

السجين

زُجّ ستالين في زنزانة في سجن باتومي، حيث تميّز فورًا بجرأته المتبّجحة والمتعجرفة الفظة. أثّر فيه السجن بالعمق ولازمه، فقال لاحقًا «اعتدت على الوحدة في السجن»، برغم أنه نادرًا ما كان وحيدًا هناك.

يتّفق السجناء الرفاق، وخاصة الأعداء منهم الذّين شجبوه لاحقا في المنفى، والستالينيّين الذين مجّدوه في الكتب الرسمية، على أن ستالين كان في السجن كالسفينكس اللامبالي: «حقيرًا ومكسوًا بالهزمات، مع لحية كثة وشعر طويل مسرّح». صدم رفاقه «بهدوئه التام». «لم يكن يضحك أبدًا بالفم الملآن، بل يبتسم ببرود، ولم يقدر على معاونة أحد... كان يسير بنفسه، بهدوء دائم[152]»، لكنه ارتكب في البداية خطأً أحمق.

في 6 نيسان/أبريل 1902، واجه أول استجواب له على يدي الكابتن في الدرك، جاكيلي. أنكر أنه ذهب إلى باتومي في وقت المجزرة، وادعى أنه كان مع والدته في غوري. وأمر بعد يومين سجينًا آخر بأن يرمي ورقتين في باحة السجن حيث يلتقي أصدقاء السجناء وأهلهم، لتقديم الطعام والرسائل. لكن الحراس وجدوا الملاحظتين بخط يد ستالين. تقول الملاحظة الأولى «قل للمعلم... جوزيف إيريماشفيلي إن سوسو دجوغاشفيلي أُوقف، واطلب منه

أن يقول لوالدتي إنه عندما يسألها الدرك «متى غادر ابنك غوري؟»، فلتجب، «كان هنا في غوري طوال الصيف والشتاء حتى 15 آذار/مارس»».

ودعت الملاحظة الأخرى تلميذه السابق، أليسابيداشفيلي، إلى باتومي للاهتمام بتنظيمه. كان الكابتن جاكيلي قد استشار الشرطة السّرية في تيفليس، التي كشفت أن ستالين كان إشارة مضيئة للجنة تيفليس. لكنه أعطى تعليمات الآن أيضًا لغوري، الذي نقل أن رجلين وصلا إلى هناك من بوتامي وتكلّما مع كيكي: شقيقها غيورغي جيلادزي (خال ستالين)، وإيريماشفيلي. وسرعان ما تم توقيف الثلاثة واستجوبوا: لم يكن هذا يوم سعد كيكي[153].

جاء الرجال من باتومي لإلقاء القبض على والدة ستالين، لكن الملاحظة المقلقة الخرقاء تورّط أيضًا أليسابيداشفيلي، الذي يعيش في تيفليس مع كامو وسفانيدزي.

أوقف الدرك كامو، الذي قادهم بتردد إلى حمام سولولاكي، حيث ألقوا القبض على أليسابيداشفيلي العاري. أخذوه للقاء «الكابتن لافروف الشهير»، الذي سلّمه بدوره إلى الكابتن جاكيلي. وبينما دخل أليسابيداشفيلي باحة سجن باتومي، سارع ستالين نحوه، هامسًا: «قل إنك لا تعرفني».

أجاب أليسابيداشفيلي: «أعرف. الجميع يحيّيك!».

استجوب الكابتن جاكيلي أليسابيداشفيلي في اليوم التالي:

«هل تعرف جوزيف دجوغاشفيلي؟».

«كلا».

«ترهات! قال إنه يعرفك!».

«قد يكون مخبولًا».

ضحك الكابتن «مخبول؟ كيف يمكن مثل هذا الشخص أن يكون مجنونًا؟ كان لديهم ماركسيون هنا في السابق، لكنهم كانوا هادئين بما فيه الكفاية. لكن هذا الدجوغاشفيلي قلب باتومي بأكملها رأسًا على عقب».

عندما اقتيد أليسابيداشفيلي ومرّ أمام زنزانة ستالين، ألقى نظرة خاطفة، من خلال القضبان، إلى «سوسو الغاضب الذي يشتم زميله في الزنزانة ويلكمه. وفي اليوم التالي، علمت بأنهم وضعوا جاسوسًا في زنزانته». أُطلق سراح أليسابيداشفيلي، لكنه عاد بعد فترة وجيزة، نزولًا عند أوامر ستالين، لقيادة السوسويين في باتومي[154].

أما كيكي، فقد خضعت لدعوات سوسو. في حوالي 18 أيار/مايو، غادرت غوري ولم تعد سوى في 16 حزيران/يونيو. زارت ابنها مرتين في سجن باتومي. وفي طريقها عبر تيفليس، اصطدمت بطريقة أو بأخرى ببيسو المجنون، الثمل والغاضب.

صرخ: «توقفي أو سأقتلك!»، شاجبًا ابنه الثائر. «يريد أن يقلب العالم رأسًا على عقب. لو لم تأخذيه إلى المدرسة، لكان حِرَفيًا. الآن هو في السجن. سأقتل مثل هذا الولد بيدي. أصابني بالخزي!». تجمّعت الحشود على صراخ بيسو، فانسلّت كيكي

بعيدًا، وكان هذا آخر لقاء لها مع زوجها.

كان تمرّد سوسو سبب اندثار طموح كيكي. يفترض أنها، على طريقتها، قلقت بقدر بيسو. قدّمت طلبًا لإخلاء سبيله ويرجّح أنها سلّمت رسائل من رفاقه. يعترف ستالين في سن متقدّمة بعذابها: «هل كانت سعيدة؟ هيا! وأي سعادة هذه أن ترى ابنها موقوفًا؟ لم يكن لدينا متّسع من الوقت لأمّهاتنا. هذا قدر الأمهات!»[155].

* * *

أضحى ستالين في فترة وجيزة، الشخص الرئيسي في سجن باتومي: مسيطرًا على أصدقائه، ومرهبًا المفكرين، ومحرّضًا الحراس، ومصادقًا المجرمين[156].

كان سجن الامبراطورية حضارة متستّرة بلباسها وخدعها الخاصة، لكن ستالين، كما هو دومًا، تجاهل آداب المعاشرة التي لم تناسبه. السجن، «كالبلاد بذاتها، جمع بين الهمجية والسلطة الأبوية»، وفق تروتسكي. لا تناغم: وُضع أحيانًا السجناء السياسيون في زنزانة واحدة كبيرة معروفة «بالكنيسة»، حيث يمكنهم اختيار «أعمال التخريب والقتل».

عاش الثوار وفق قواعد الشهامة والفروسية. عندما يأتي رفيق أو يغادر، ينص التقليد في السجن بأكمله، على غناء النشيد الوطني الفرنسي، والتلويح براية حمراء. كان الثوار، والمفكرون المكرسون والصليبيون الذين عينوا أنفسهم بأنفسهم، أجلاء جدًا للاختلاط اجتماعيًا مع المجرمين، لكن ستالين قال:

«فضّلتهم (المجرمين)، لأن السياسيين كانوا بمعظمهم من الخونة والوشاة». اشمأز من نفاق المفكرين، وتم قتل «الخونة».

إذا كانوا في زنزانات منفردة، يتواصل السياسيون من خلال رمز من القرقعات والخبط الأخرق، لكن البسيط. هذه «أبجدية السجن». كان سيرغي أليلوييف في السجن في قلعة ميتيخي في تيفليس، لكن الضرب على قبعته الحريرية العالية يعني: «أخبارًا سيئة! أوقف سوسو!»، عدا عن «هاتف السجن» الذي يمكن السجناء تسليم الرزمات من خلاله إلى بعضهم البعض، بتعليقها على الأسلاك من نوافذهم، ثم تُعلَّق بسلك آخر مع حجر في نهايته.

عندما كان السجناء يسيرون في الباحات، لم يُفرض انضباط صارم: وصعب حفظ أي أسرار هناك. بدا سوسو على اطلاع دائم على هوية القادمين الجدد إلى السجن وتصرّفهم. كالمافيوسا الأميركية التي تدير لا كوسا نوسترا من السجن، عزّز سوسو اتصالاته بسرعة مع العالم الخارجي. «وتابع إدارة الأمور من داخل السجن»[157].

أخطأت السلطات بشكل فادح عندما سمحت لثوارها بالدراسة في السجن. درس هؤلاء المتعلمون بذاتهم باجتهاد هوسي، وأوّلهم ستالين، الذي يخبر شريكه في الزنزانة: «كان يمضي النهار بطوله يقرأ ويكتب... وفق روتين صارم: يستيقظ باكرًا في الصباح، يقوم بتمارين صباحية، ثم يدرس اللغة الألمانية ويقرأ الأدب الفرنسي.

لا يعرف الكلل ولا الملل. أحب أن يوصي الرفاق بالكتب الواجب قراءتها...». جاء على لسان سجين آخر، أن ستالين حوّل «السجن إلى جامعة»، أسماها «مدرسته الثانية».

اعتمد حراس السجن التساهل والتسامح، إما لأن ثوارهم كانوا في مصاف «النبلاء» ذوي المنزلة الاجتماعية الرفيعة، وإما لأنهم كانوا يتلقون الرشوة أو يتعاطفون معهم. زُجّ أحد أصدقاء ستالين في زنزانة قرب زنزانته، وسأله عن البيان الشيوعي Communist Manifesto. ويتذكر ستالين قائلًا «لم نكن نستطيع أن نلتقي، لكنني قرأت البيان بصوت عال واستطاع سماعي. سمعت مرة أثناء القراءة، خطوات في الخارج فتوقفت. لكنني سمعت الحارس يقول فجأة: «رجاءً لا تتوقف. من فضلك أيها الرفيق تابع[158]»».

لا بد من أن مقالة دارت عبر «هاتف السجن»: في آذار/مارس 190، نشر الماركسي المعروف بلقب «لينين»، مقالة بعنوان «ما العمل؟: أسئلة ملحة لحركتنا» What is to be Done? Burning Questions of our Movement. كانت تحتاج إلى «طليعة جيش جديد» من المتآمرين القاسين، وهي رؤية قسمت الحزب على الفور. وعد لينين «اعطونا تنظيمًا للثوار، وسنسقط روسيا بأسرها!»[[159]][160].

* * *

لمّ الكابتن جاكيلي شمل السوسويين في باتومي، بمن فيهم صاحبة الأرض وحبيبة ستالين الشابة ناتاشا كيرتافا. وعندما ظهرت في باحة السجن، دنا منها بسرعة سجين مجهول وقال: «يطلب منك الرفيق سوسو أن تنظري إلى نافذته».

تنبّهت ناتاشا إلى أنه يحتمل أن يكون هذا السجين جاسوسًا. فأجابت «لا أعرف الرفيق سوسو».

لكن، عندما أقفل عليها في زنزانتها، ظهر ستالين عند نافذتها. تحرّى عن الموضوع بعزة وقال: «أيها الرفاق، هل تملّون». فأدركت أن الرفيق سوسو ما زال متحكمًا في النضال في داخل السجن كما في خارجه. «أحبّه السجناء لأنه كان يرعاهم بمودة». بالطبع اعتنى بناتاشا خير اعتناء. ذهبت مرة للقائه في زنزانته لتحادثه، فقبض عليها حراس السجن واقتادوها بعيدًا بقبضة السيف، فطلب ستالين صرف الحارس. أكسبته شجاعته شعبية بين السجناء، واحترام السلطات أيضًا: هذه طريقته[161]. لم يُعجب به السوسويون فقط: أقرّ سجين آخر، شاركه زنزانته، أنه برغم أن سوسو امتهن الوحشية لاحقًا، «كان شريك زنزانة ودودًا ولائقًا كبيرًا[162]».

حكم النائب العام في تيفليس بأنه لا أدلة كافية لإدانة ستالين في قيادة أعمال الشغب في باتومي. ربما كان الشهود مرعوبين كثيرًا للشهادة ضده. تخطى هذا الشرك. لكنه بقي في السجن لأن الكابتن

لافروف كان يتحقق من قضية أخرى: دور ستالين في لجنة تيفليس. في 29 آب/أغسطس، أدان الدرك ستالين إلى جانب رفاقه القدامى في اللجنة. لكن البيروقراطية شوّشت وأبطأت العملية[163].

أُصيب بمرض صدري من جديد، وادّعى أحيانًا أنه القلب، ومرات أخرى أنه اعتلال في الرئة. خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر، تمكّن سوسو من جعل طبيب السجن يوصي بنقله وصديقه الحميم كانديلاكي إلى المستشفى[164]. وخلافًا لآداب الثورة، ناشد ستالين بنفسه الأمير غوليشتين، وهو الحاكم العام، ثلاث مرات قائلًا:

«يجبرني سعالي المتفاقم ووضع والدتي العجوز المثير للشفقة، التي تركها زوجها منذ اثني عشر عامًا، وأنا المعيل الوحيد لها، على اللجوء إليكم بتواضع، للمرة الثانية، التماسًا لإطلاق سراحي تحت مراقبة الشرطة. أرجوكم الالتفات إلى طلبي والاستجابة لمطلبي.

ج. دجوغاشفيلي،

23 تشرين الثاني/نوفمبر 1901»[165].

لم يردعه مرضه من نشر المتاعب أينما حلّ. عندما جاء بطريرك الكنيسة الجورجية ليمدّ يد العون إلى أبنائه «الضالين» في 17 نيسان/أبريل 1903، قاد طالب الثانوية السابق احتجاجًا عنيفًا

جعله يلقى التصفيق في السجن الانفرادي. وأدّت أعمال الشغب، وهي ليست الأولى من تنظيم ستالين، إلى نقله إلى سجن قتيسي الصارم في غربي جورجيا.

وبعد يومين، عندما حشد السجناء لنقلهم، وجد ستالين أن ناتاشا ستنتقل معه. بدأ السّجان بتقييده.

نطق ستالين بسرعة «لسنا لصوصًا لتكبّلوا أيدينا!»، ففكّ الضابط الأغلال. وتظهر القصة مدى سلطة ستالين على السجناء والضباط، على حد سواء. كانت شرطة القيصر سهلة الانقياد بطريقة لافتة لشرطة السوفيات السرية. ثم اجتمع السجناء للمسيرة عبر باتومي. طلب ستالين كارة كي ينقل ممتلكاته. تتذكر ناتاشا بفخر وطلب إحضار «فيتون لي أنا، المرأة». حصل ستالين على مراده بشكل غير معقول في هذا أيضًا، وهو سيد نظام السجن[[166]]. والأفضل لحبيبة ستالين فقط: سافرت ناتاشا إلى المحطة في فيتون.

عندما وصل قطارهم إلى قتيسي المحاذية، توجّه ستالين إلى الجميع قائلًا: «فلتجلس ناتاشا في المقدمة ليرى الجميع أن النساء يقاتلن أيضًا هؤلاء الكلاب!» [167].

* * *

في قتيسي، حاولت السلطات إجبار السجناء على سلوك المسلك الحسن. انقسم السياسيون، لكن ستالين وجد بسرعة طريقة للتواصل والتخطيط لهجوم مضاد.

وعندما نقلت ناتاشا كيرتافا من الزنزانة الجماعية إلى زنزانة انفرادية، «غلبتني العواطف. فأجهشت بالبكاء». سمع ستالين بهذا في تلغراف السجن، فأرسل إليها رسالة تقول: «ماذا تعني دموعك، أيتها المرأة النسر؟ هل يجوز أن يتغلّب السجن عليك؟».

في باحة السجن، التقى ستالين برفيق معتدل، هو غريغول أوراتادزي، الذي كرهه، لكنه أُعجب تقريبًا «بمزاجه البارد: طوال ستة أشهر، لم أره مرة يبكي، ولا غاضبًا أو ساخطًا. لطالما تمتع برباطة الجأش»، و«قونن ابتسامته بتأن وفق أحاسيسه... كنا نتحادث في الباحة». لكن ستالين «كان يسير وحيدًا بخطوات قصيرة وغريبة... أدرك الجميع كم أنه فظ»، كما كان «هادئًا بشكل مطلق».

عادى ستالين المفكّرين المغرورين، لكنه، مع العمال - الثوار الأقل أهمية، لم يظهر عقدة الدونية، بل اضطلع بدور المعلم - الكاهن. سوسو «نظّم قراءة الصحف والكتب والمجلات، وأعطى محاضرات للسجناء». وفي هذه الأثناء، واجه نظام قتيسي الأكثر صرامة. رفض الحاكم الإقليمي طلباته. وفي 28 تموز/يوليو، بدأ السجناء بإشارة من سوسو، باحتجاج صاخب، ضاربين بعنف الأبواب الفولاذية بصوت عال، بحيث ذُعرت البلدة بأكملها. دعا الحاكم الجنود الذين طوقوا السجن، لكنه استسلم، ووافق على وضع جميع السياسيين في زنزانة واحدة. انتصر ستالين، لكن الحاكم سدّد ثأره: كانت أكثر زنزانة موحشة في أحشاء السجن.

عندما أرسل بعض السجناء بسرعة إلى المنفى في سيبيريا، اقترح

ستالين أخذ صورة للمجموعة. كما أحبّ تركيب صور المجموعة عندما تسلّم السلطة، حدّد مكان كل واحد ووضع نفسه في الموقع المحبّب إلى نفسه: في وسط الصف الأعلى: «أنا أيضًا أحد جنود الثورة، لذلك سأقف هنا في الوسط». وقف هناك: بالشعر واللحية الطويلة. هو معلّم عيّن نفسه بنفسه.

عندما اقتيد رفاقه إلى رحلتهم الطويلة، وقف «الرفيق سوسو في الباحة ورفع راية حمراء... غنّينا النشيد الوطني الفرنسي»[168].

* * *

ضلّلت الشرطة السرية الآن ستالين... في سجنها الخاص. اعتبر الدرك والأوخرانا في تيفليس، أن «الشوبورا، وصاحب الهزمات»، يجب أن يقضي وقتًا طويلًا قبل أن يصبح طليقًا. ظنّ الكابتن لافروف أنه يقود مجددًا العمال في باتومي «تحت المراقبة الخاصة». ويبدو جليًا أن الأشباح أخطأوا الشخص. لم تكن قصة باتومي أكيدة، حتى إلى أن سوّى المقدّم شابيلسكي قضية صاحب الهزمات الضائع بإعلام الجميع أن «دجوغاشفيلي أمضى في السجن عامًا كاملًا حتى الآن (الآن في قتيسي)»[169].

أصدرت آليات الظلم في القضاء القيصري، التي أرسلت قضايا مماثلة لقضية ستالين من المحافظين المحليين إلى وزراء العدل والداخلية في بطرسبرغ، توصية بالنفي لثلاث سنين في شرقي سيبيريا[170]. في 7 تموز/يوليو 1903، أرسل وزير العدل هذه

التوصية إلى الامبراطور، الذي وافق على حكم ستالين بطابعه الامبراطوري. كان نيكولاي الثاني حريصًا على الشكليات، ومستبدًا بشكل يفوق الخيال، إلى درجة أنه يقرأ بعناية حتى أتفه الأوراق التي تُرسَل إلى مكتبه. وكانت عدة مناسبات تقاطع فيها مصير القيصر الأحمر مع مكتب الامبراطور الأخير.

أضاعت الشرطة ستالين من جديد. ظنّ حاكم تيفليس أنه كان في قلعة ميتيخي، لكن آمر السجن قال إنه لم يزر قط هذا المكان. فأعلن رئيس شرطة تيفليس:

«موقع دجوغاشفيلي مجهول حتى الآن». لجأت الشرطة إلى الدرك، الذين كشفوا أن ستالين قد عاد إلى سجن باتومي، وهو أمر جيد وحسن، ما خلا أنه ما زال في سجن قتيسي. احتاجوا إلى شهر ونصف الشهر لإيجاده: دعّم هذا الالتباس الخيال المحموم لأصحاب نظريات التآمر منذ ذلك الحين. هل أخفاه الدرك أم الأوخرانا عن بعضهم البعض، لأنه عميل مزدوج؟ لكن، لا دليل على ذلك. قد يكون الاختلاط مريبًا لو انطبق فقط على ستالين، لكنه كان عالميًا تقريبًا. في العالم المتداخل لتآمر القتل والتوظيف البليد، عمّ الالتباس تمامًا كالكونسبيراتسيا. وبينما كان في الانتظار، سمع أخبارًا رهيبة. في 17 آب/أغسطس 1903، وقف بطل سوسو، لادو كيتشوفيلي، الذي أوقف في باكو وسجن في قلعة ميتيخي، على نافذة الزنزانة يهاجم الحراس بالصياح «نعم لسقوط حكم الفرد!»، عندما أطلق أحدهم النار عليه في قلبه. كان يمكن أن يلقى ستالين نفسه المصير هذا ببساطة. وهو لم ينس لادو أبدًا.

في 8 تشرين الأول/أكتوبر، علم ستالين في النهاية بأنه سيركب في رحلة طويلة. أول محطة له هي العودة إلى باتومي، فنظّم تصويرًا جماعيًا آخر. وبينما غادر السّجن، لوّح رفاقه بالراية، وغنّوا النّشيد الوطني الفرنسي.

كتب ستالين لناتاشا كيرتافا التي أُخلي سبيلها حديثًا «سيتم نفيي. لاقيني قرب السجن». قدّمت إليه 10 روبلات وبعض الطعام لمساعدته في رحلته الباردة إلى الشتاء الروسي، لكنه غادر وهو يلبس الشوخا الجورجية الخفيفة فقط وحذاءً من دون قفازات. وسار نحو باخرة السجن في مرفأ باتومي كأول خطوة في رحلته عبر نوفوروسيسك وروستوف، بينما انتظرت ناتاشا الجميلة عند رصيف المرفأ وقالت: «رأيته يرحل».

أخذت هذه الرحلة الجورجي، المعتاد على الغناء ومعاقرة الخمر في جورجيا، إلى حياة أخرى في بلاد بعيدة وجليدية: سيبيريا[171].

(12)

الجورجي المتجمّد: المنفى السيبيري

غالبًا ما كانت الرحلة إلى سيبيريا مميتة أكثر من المنفى بذاته. وقد اختبر ستالين سلسلة طويلة من فظائع الإتاب المروّعة، التقدّم البطيء على مراحل باتجاه الشرق، مع سجناء آخرين انضموا على الطريق. ادّعى ستالين أن كاحله كان مقيّدًا أحيانًا بالأصفاد الحديدية، وقال مرة وهو متأثر: «ما من شعور أفضل من أن يجلس المرء بعد حمل الأصفاد».

عندما وصل إلى روستوف - ون - دون، كان قد أنفق ماله كله، وبعث ببرقية إلى باتومي طلبًا للمزيد من المال. أرسل كانديلاكي إليه المال. وبعد فترة وجيزة، بدأ يعاني آلاما مبرحة في الأسنان، فاستشار مساعد الطبيب الذي وعده: «سأعطيك دواء سيشفي أسنانك إلى الأبد». وبحسب ما يتذكر ستالين «وضع الدواء في أسناني الفاسدة بنفسه. كان الزرنيخ، لكنه لم يقل لي قط إنه علي أن أزيلها من أسناني. توقف الوجع، لكن وقع سنّان اثنان معا. كان على حق. لم يوجعاني بعدها!». كان وجع الأسنان مرضًا مزمنًا آخر عانى بسببه ستالين طوال حياته.

كلما سافروا بعيدًا عن ضوضاء المدن، تعرّض السجناء لبلايا سيبيريا، كالمرض والعنف. في مكان ما في سيبيريا، «كاد أحد السجناء يموت من الغنغرينا»، وفق ما أخبر ستالين في سبعيناته. «كان أقرب مستشفى على بعد 1.000 كيلومتر على الأقل.

وجدوا مساعد الطبيب الذي قرّر أن يبتر له العضو المصاب. سكب مُسْكرًا قويًا على الرّجل، وطلب من عدة رجال إمساكه، وباشر العمل. لم أحتمل مشاهدة العملية، فاختبأت في الثكنة، لكن عظم الرّجل كان مكشوفًا من دون مخدّر، فلم أستطع الإفلات من سماع صراخه. ما زلت أستطيع سماعه!». التقى في الطريق أيضًا بعشرين من العمال الفلاحين الغوريين، الذين أُوقفوا خلال مظاهرة باتومي. اعترف سوسو بالذنب في لحظة نادرة من حياته، عندما رأى هؤلاء الجورجيين المرتبكين يرتجفون في الطريق إلى سيبيريا، لكنهم أكّدوا له امتنانهم.

شكل المجرمون مصدرًا حقيقيا للخطر «كانوا يحترمون عادة نضالنا»، بحسب ما يقول تابع ستالين، فياشيسلاف مولوتوف، الذي قام برحلة مماثلة إلى إيركوتسك، لكنهم أرهبوا أيضا السياسيين. قال ستالين لأحد أبنائه الذي تبنّاه «خلال الإتاب، كان نصيبي أن أواجه شخصًا ذهانيًا محطّم الخزائن الحديدية، ماردًا، بطول مترين تقريبًا. قمت بملاحظة غير مؤذية له عن حقيبة التبغ الخاصة بي... أدّت المقايضة إلى شجار. أوقعني المعتوه أرضًا، وكسر لي عدة ضلوع. ولم يساعدني أحد». وقع ستالين فاقد الوعي، لكنه استخلص أمثولة سياسية نموذجية: «بينما وعيت من إغمائي، خطر في بالي أنّه لا بد على السياسيين من أن يتغلبوا دائمًا على الحلفاء». وقف المضطربون عقليًا لاحقًا إلى جانبه[172].

عند وصوله إلى إيركوتسك، عاصمة سيبيريا البعيدة، أرسل

ستالين غربا إلى مركز إقليمي، بالاغانسك، على بعد 75 فرستًا من أقرب محطة سكك حديدية.

وسافروا على الأقدام والكارة: والغريب أنّ ستالين لم يرتد ما يكفي ليتجنب جليد سيبيريا. بقي في الشوخا الجورجية حاملًا كيس الرصاص. وجد سبعة منفيين في بابلاغنسك، وبقي مع أبرام غوسينكي، وهو منفي يهودي، محاولًا تفادي إرساله إلى مكان أبعد[173]. لكنه أرسل إلى نوفايا أودا. ودوّنت الشرطة المحلية أن «جوزيف دجوغاشفيلي، الذي نُفي بأمر من جلالة الامبراطور في 9 تموز/يوليو، وصل في 26 تشرين الثاني/نوفمبر، وحُجز تحت إشراف الشرطة».

تقع نوفايا أودا، على بعد 70 فرستًا من بالاغانسك، و120 من أقرب محطة، على بعد آلاف الفرسات من موسكو أو تيفليس وأبعد منفى له. كانت بلدة ضيقة مقسومة إلى قسمين: عاش الفقراء في الأكواخ الملتحفة أسفل الجبل، بينما عاش الأغنياء المهمّشون حول متجرين وكنيسة وقلعة خشبية شيّدت لإرعاب قبيلة المغول الشامانية المحلية، المعروفة بالبوريات ولإخضاعها. لا يمكن فعل الكثير في نوفايا أودا عدا القراءة والجدل والشرب والعربدة وشرب المزيد والمزيد. هذه شواغل وقت الفراغ للمحليين والمنفيين على حد سواء. كانت المستوطنة تضمّ خمس حانات.

استمتع سوسو بكل هذه السلوى المحلية، لكنه لم يطق المنفيين معه. عاش في نوفايا أودا، ثلاثة مفكّرين يهود آخرين، إضافة إلى

بونديين (أتباع الحزب الاشتراكي اليهودي) أو اشتراكيين ديموقراطيين. التقى ستالين بعض اليهود في القوقاز، لكنه قابل العديد من اليهود الذين اعتنقوا الماركسية كسبيل للهروب من القمع والإجحاف بحقّهم في ظل حكم القياصرة.

اختار ستالين الجزء الفقير من البلدة، ومكث في «المنزل المتداعي والمعدم المؤلف من غرفتين للفلاح، مارتا ليفتفينتسيفا». كانت إحدى الغرفتين مكانًا لحفظ اللحوم. أما الأخرى، المقسومة بفاصل خشبي، فغرفة النوم حيث تعيش العائلة بأكملها وتنام حول موقد. نام ستالين على طاولة رُكنت في موضع حفظ اللحوم في الجهة الأخرى من الفاصل: «في الليل، كان يضيء مصباحًا صغيرًا ويقرأ عندما ينام آل ليتفينتسيف»[174].

اعتُبر المنفى السّيبيري من إساءات استبداد القياصرة الرهيبة. لا شك في أن الجوّ كان مملًا وكئيبًا، لكن عندما استقر المنفيون والمفكّرون الذين غالبًا ما كانوا نبلاء بالتوارث، في القرية البائسة، عاملوهم بالإجمال بشكل لائق. كانت هذه المقامات الذكورية أشبه بعطل القراءة المملة منها بجحيم العيش في الغولاغ المجرم في عهد ستالين. تلقى المنفيّون حتى المصروف من القيصر - بقيمة 12 روبلًا للنبلاء كلينين، 11 روبلًا لمتخرجي الجامعات كمولتوف، و8 روبلات للفلاحين كستالين - وذلك لتسديد ثمن الملبس والمأكل والإيجار. وكانوا إذا تلقوا الكثير من المال من أهلهم، يخسرون مخصصاتهم.

يستطيع الثوار الأكثر ثراءً أن يسافروا في الطبقة الأولى. موّل

لينين، الذي تمتّع بدخل خاص، رحلته الخاصة إلى المنفى، وتصرّف طوال الوقت كنبيل في عطلة غريبة عجيبة وفق المذهب الطبيعي. أما تروتسكي، الذي دعمه والده، وهو فلاح ثري، اعتبر بغرور طنان سيبيريا «اختبارًا لحساسيتنا المدنية»، حيث يستطيع أن يعيش المنفيون بسعادة «كالآلهة في أولمبيا».

لكن الهوة كبيرة بين الأثرياء كلينين، والمعدمين كستالين[175].

خضع سلوك المنفيين لمجموعة من القواعد. انتخبت كل مستوطنة لجنة تستطيع أن تحاكم كل من يخرق قواعد الحزب. يجب تبادل الكتب. وإذا توفي منفي، تقسم مكتبته بين الأحياء. لا يتم الاتفاق مع المجرمين. وعند الرحيل، يُسمح للمنفي بأن يختار هدية من كل منفي زميل، ويجب أن يقدّم تذكارًا إلى العائلة المضيفة. ويقسم المنفيون العمل المنزلي وواجب جمع البريد، في ما بينهم. كان وصول البريد أسعد لحظة في حياتهم. يتذكر يينوكيدزي حين تبوأ السلطة «كم كان جيّدًا استلام رسالة في المنفى من صديق؟».

لكن في الشرق البري، صعب الحفاظ على القواعد: انتشرت المغامرات العاطفية في صفوف المنفيين. خطب تروتسكي بشكل طنان، «كالنخيل في دييغو ريفيرا، يسعى الحب إلى الشمس من تحت الجلمود الثقيل، يأتي الثنائي... في المنفى». عندما كانت غولدا غوربمان، التي اقترنت لاحقًا بالملازم الأول لدى ستالين، كليمينتي فوروشيلوف، في المنفى، أغراها وأخصبها يينوكيدزي، الجورجي الذي أمسى من أبرز القادة لدى ستالين. في السلطة، أحب البوليتبورو الاستغراق في الذكريات عن هذه الفضائح. لم

ينس ستالين بنفسه وجنة المنفي ليزهينيف الذي ضاجع زوجة النائب العام المحلي الفاتنة، وأرسل إلى القطب الشمالي كعقاب.

ونقل مولوتوف قصة المنفيين اللذين تشاجرا على خليلة: قتل أحدهما، وحصل الآخر على الفتاة.

استأجر المنفيّون الغرف من الفلاحين المحليين: وجدوا أنفسهم في غرف ضيقة وضاجّة، ومزعجة بسبب صراخ الأولاد وانعدام الخصوصية. كتب ياكوف سفيرلوف، لاحقًا في المنفى مع ستالين «أسوأ ما في الأمر (في المنفى) هو غياب الفصل بينك وبين المضيف». وقد أسهمت المشاركة في الغرف في زيادة محاولات الإغواء. تحظر العادات المحلية العلاقة مع المنفيين. لكنه استحال إنفاذ هذه العادات: وجدت الفتيات المحليات المنفيين غريبين ومثقفين وأغنياء، وتصعب مقاومتهم، بخاصة عندما تشاركوا في غرفة النوم نفسها.

كان الثوار بطبيعتهم نكدين، لكن ضغينتهم في عزلة المنفى اكتسبت مكرًا ميّزهم. «يقف الرجال أمامك ويظهرون حقارتهم. لا مجال للكشف عن ملامح اللباقة».

تصرّف المنفيون بشكل مروّع، لكن تصرّف ستالين كمغوي نساء متهوّر ومنجب أطفال غير شرعيين، وإقطاعي تسلسلي ومتسبب في المتاعب، كان أفظعهم. حالما وصل ستالين بدأ انتهاك القواعد[176].

افترق عن المنفيين اليهود، ومارس الهواية المحلية: الشجار مع

المجرمين في الحانات. قال لخروتشيف وبقية البوليتبورو في عشاءاتهم في الأربعينيات «هنالك بعض ملح الأرض، الأصحاب المرحون بينهم، والكثير من الخونة بين السياسيين». «كنت في معظم الأحيان أتسكّع مع المجرمين. نتوقف في صالونات المدينة، نرى إذا كان لدى أي منا روبل فنضعه على النافذة، ونشرب بكل كوبكًا نملكه. مرة أنا أدفع، وفي اليوم التالي يدفع غيري». اعتبر هذا الانسجام مع المجرمين دون مستوى كرامة الثوار المتملّقين من الطبقة الوسطى. «نظموا مرة محكمة لرفيق، وحاكموني لجريمة الشرب مع المجرمين»، وفق ستالين. ولم تكن هذه المحاكمة الأولى ولا الأخيرة التي واجهها سوسو غير المتجانس مع نفسه، من قبل رفاقه[177].

لكنه لم يقطع صلته بالعالم الخارجي، أو يقرر الاستقرار لفترة طويلة. في كانون الأول/ديسمبر من العام 1903، جاءت في البريد رسالة من لينين.

يقول ستالين «التقيت لينين للمرة الأولى في العام 1903، لم يكن لقاءً شخصيًا، بل كان بريديًا. لم تكن رسالة طويلة بل انتقاد جريء وجسور لحزبنا». وقد ضخّم الأمور. لم تكن الرسالة شخصية - فلينين لم يكن قد سمع بعد بستالين - بل نوع من كرّاس: رسالة إلى رفيق حول المهام التنظيمية. لكن كان لها وقع كاف على ستالين حقًا. «عززت هذه الملاحظة الجريئة البسيطة قناعتي بأن الحزب سيجد في لينين نسر الجبل الشامخ».

أحرق ستالين الرسالة بعدئذ، لكنه علم بعد فترة وجيزة بأنه في

المؤتمر الثاني لحزب الاشتراكيين الديموقراطيين، الذي عُقد في بروكسل ولندن، تغلّب لينين ومارتوف على أخصامهما البونديين اليهود، الذين أرادوا الجمع بين الاشتراكية والأراضي الوطنية للأقليات. لكن المنتصرين تشاجرا في ما بعد في ما بينهما. طالب لينين بعصابته الحصرية من الثوار، وأيّد مارتوف العضوية الأكبر والمشاركة العمالية الأوسع. وقسّم لينين، الذي وجد متعة في المواجهات الانشقاقية، الحزب، مدّعيًا أن مجموعته تؤلف الأكثرية - البولشفيين -، وأن مجموعة مارتوف هي الأقلية: المنشفيون[178].

ادّعى ستالين أنه كتب فورًا لصديقه الضعيف من غوري، دافيتاشفيلي، في ليبزيغ، الذي كان على اتصال بلينين. لكنّها كذبة. فالحقيقة أنه لم يكتب لزهاء عام من الزمن، لكنه كان قد أصبح من أتباع لينين. اعتبر تروتسكي أنه يمكن التعرّف إلى البولشفي بالنظر. يقول إيريماشفيلي، كان ستالين «بولشفيًا جاهزًا». وفي العام 1904، ساد شعور عارم بأن أمرًا ما يتحضّر لتحطيم العالم: كانت الحركة مزدهرة. بينما كان نيكولاي الثاني يتخبّط مقتربًا من «حرب صغيرة ظافرة» مع اليابان في سعيه إلى إنشاء امبراطورية في الشرق الأقصى. اقتربت الثورة فجأة أكثر من أي وقت مضى. ولم يكن الوقت مناسبًا لتكون في نوفايا أودا[179].

حالما وصل ستالين، شرع يخطط لهروبه، الذي كان جزءًا من الخبرة الثورية، تمامًا كالتوقيف والنفي بذاته.

* * *

قال تروتسكي «لم يكن الفرار صعبًا جدًا. لقد حاول الجميع الفرار. كان نظام النفي كالمنخل».

يحتاج الهارب إلى المال لشراء «أحذيته»: الأوراق المزوّرة. تكلّف عادة كل عدة الهروب - «الأحذية» والطعام والملابس وبطاقات القطار والرشى - حوالي 100 روبل.

وسأل إرهابيو التآمر بسذاجة كيف جمع ستالين النقود: هل هو عميل لدى الأوخرانا؟ ربما زوّده أغناتاشفيلي، عبر كيكي، ورفاق حزبه، بالمال. لكن جمع المال كان أمرًا اعتياديًا جدًا: بين العامين 1906 و1909، جمع حوالي 18.000 منفي غامض من أصل 32.000 المال للهروب.

جعل ستالين سجلّه مشبوهًا أكثر بتغيير عدد عمليات الهروب والتوقيف التي تعرّض لها في عملية الترويج له. لكن اتضح أنه أُوقف وهرب أكثر مما ادعى رسميًا.

عندما كتب شخصيًا سيرة حياته «المسيرة القصيرة» Short Course في الثلاثينيات، استثنى ثمانية توقيفات وسبع عمليات نفي وست عمليات هروب. لكن عندما أعاد تحرير الكتاب في العام 1947، استعمل قلمه الأزرق ليخفّض العدد إلى سبعة توقيفات وست عمليات نفي وخمس عمليات هروب. وفي الحديث، ادعى «هربتُ خمس مرات». كان المدهش أن ستالين كثير التواضع أو النسيان. لقد تعرض في الحقيقة، على الأقل، لتسعة توقيفات وأربعة اعتقالات قصيرة، وقام بثماني عمليات

هروب.

تعود آخر كلمة لألكسندر أوستروفسك، الخبير في ارتباطات ستالين السرية مع الشرطة: «يبدو هروب ستالين المتكرر مفاجئًا فقط للشخص غير المطّلع بتاتًا على خصائص نظام النفي قبل الثورة».

* * *

قام سوسو بأول محاولة هاوية بعد قراءة كراسة لينين في كانون الأول/ديسمبر 1903: أعطته صاحبة الأرض والأطفال بعض الخبز للرحلة. قال لآنا أليلوييفا «أولًا، لم أنجح لأن رئيس الشرطة كان يرصد حركتي. بدأ الجليد، ثم جمعت التجهيزات الشتوية وبدأت الرحلة على الأقدام. كاد وجهي يتجمّد!». وعندما تقدّم في السن، طالت هذه القصص. قال لتابعه الأمين، السوفياتي لافرنتي بيريا «وقعت في نهر متجمّد، فانهار الجليد. وبردت حتى العظم. قرعت على باب، ولم يدعني أحد إلى الدخول. وعندما شارفت قواي على أن تخور، حالفني الحظ بأن رحّب بي أناس فقراء يعيشون في كوخ بائس. أَدْفؤوني بالموقد، وأعطوني المأكل والملبس لأصل إلى القرية التالية».

قام بالمستطاع ليصل إلى منزل أبرام غوسنسكي في بالاغنسك، على بعد 70 فرستًا.

وفي إحدى الليالي، عندما وصل الصقيع الرهيب إلى 30 درجة تحت الصفر، سمعنا طَرْقًا على الباب.

«من الطارق؟».

«افتح الباب، أبرام، هذا أنا، سوسو».

ثم دخل سوسو بسترة ثلجية، يلبس بشكل خفيف جدًا بالنسبة إلى شتاء سيبيريا: العباءة اللبادة والفيدورا والقلنسوة القوقازية المتأنقة. أُعجبت زوجتي وابنتي بالقلنسوة البيضاء التي تخلّى عنها الرفيق ستالين بكرم قوقازي لافت، وأعطاها لهما.

كان يملك «الملفات الضرورية»، لكنه لم يستطع التقدم. يقول سيرغي أليلوييف إنه «كان يعاني قضمة الصقيع على أنفه وأذنيه. لم يستطع الذهاب إلى أي مكان فعاد إلى نوفايا أودا». لا شك في أن أصدقاءه المدانين أدفؤوه في الحانات المسكرة للبلدة المتاخمة للحدود، بينما خطّط لمحاولته الثانية.

بعث سوسو برسالة إلى كيكي. «خيّطت له الملابس المناسبة وأرسلتها حالما استطاعت. لكن فات سوسو أن يرتديها». انتقل إلى بيت آخر يملكه ميتروفان كينغاروف الذي نقل ستالين، في 4 كانون الثاني/يناير 1904، إلى نوفايا أودا. وقد خدع ستالين مسلّحًا بسيف، كونغاروف، مدعيًا أنه يريد أن يصل فحسب إلى زهاركوف المجاورة للشكوى بشأن رئيس الشرطة. ويرجّح أن كونغاروف كان سائق المزلاج الثمل الذي طلب الدفع بالفودكا عند كل توقّف. يتذكر ستالين «سافرنا تحت وطأة طقس صقيعي، درجة حرارة 40 تحت الصفر. غطيت نفسي بالثوب المفرّى. فتح السائق معطفه عندما كان يقود ليسمح للرياح المجلّدة المريرة بأن ترتطم ببطنه العاري تقريبًا. يبدو أن الكحول أدفأت جسمه: يا

لهم من أناس أصحّاء!». لكن عندما أدرك الفلاح أن ستالين هارب، رفض المساعدة وأوقف المزلاج. قال ستالين «في هذا الوقت، فتحت معطفي المفرّى وكشفت عن سيفي، وأمرته بأن يقود المزلاج... تنهّد الفلاح وجعل الخيول تثب!»[180].

كان سوسو في طريقه، آتيًا عند عيد الغطاس للأرثوذكس، آملًا أن تكون الشرطة منشغلة بالاحتفالات. بعثت الشرطة المحلية ببرقية تقول «هرب المنفي جوزيف دجوغاشفيلي! وقد اتّخذت التدابير المناسبة لاسترداده!». ذهب إلى محطة تيريت، وربما إلى إيركوتسك. قبل أن يعود أدراجه على طول السكك الحديدية عبر سيبيريا.

كانت دوريات الدرك وأشباح الأوخرانا بالبزة النظامية، وكان أحيانًا المحترفون وتكرارًا المرتزقة المخبرون يرصدون الهاربين في المحطات السيبيرية، حتى في أيام العطل. لكن ستالين لم يكتف «بالأحذية» العادية، بل حمل بطاقة هوية عميل شرطة. في سيبيريا البعيدة (كما في القوقاز)، يمكن شراء أي أوراق، لكن هذا لم يكن شائعًا. يتباهى ستالين بأنه في إحدى المحطات، تعقّبه شبح حقيقي، وتبعه حتى اقترب الهارب من دركي، وأراه بطاقة الهوية المزوّرة، وأشار إلى الشبح على أنه منفي هارب. أوقف الشرطي الشبح المحتجّ بينما صعد ستالين بهدوء على متن القطار إلى القوقاز. وتشير هذه القصة إلى ثنايا الظلمة التي تفتّح فيها ستالين. لو كان سوسو جاسوس شرطة حقًا، فمن غير المرجّح أن يقول القصة أبدًا. وفي أي حال من الأحوال، قد يخترعها. لكن لا شك

في أنها أضافت إلى صفوة المتآمرين الغموض (والريبة) [181].

في غضون عشرة أيام، عاد إلى تيفليس. وعندما جاء على حين غرة إلى شقة صديق، بالكاد عرفوا من هو، لأنه خسر الكثير من وزنه في سيبيريا.

«ألم تتعرفوا إليّ، يا جبناء!»، ضحك، بينما حيّوه وأجّروه غرفة.

كان توقيت ستالين دقيقًا لا تشوبه شائبة. في كانون الثاني/يناير من العام 1904، استُدرجت روسيا إلى الحرب. هاجم اليابانيون الأسطول الروسي في مرفأ آرثر في الشرق الأقصى. اقتنع الأمبراطور ووزراؤه بأن «القرود» اليابانية البدائية لا تستطيع التغلّب على الروس المتحضرين. لكن جيش نيكولاي كان مسنًا، وجنوده الفلاحون غير مسلّحين كفاية، وكان قادة الجيش أصدقاء متنفعين غير محظوظين.

يقول رفيق ستالين في الغرفة «أتذكّر أنه قرأ تاريخ الثورة الفرنسية». عرف كيف تتداخل في أغلب الأحيان الحرب والثورة، خيول الرؤيا.

* * *

كانت جورجيا تغلي. فكّر ستالين لاحقًا في أن «الجورجيين أمة سياسيّة، لا أظن أن هنالك جورجيًا على قيد الحياة لم يلتحق بحزب سياسي». انضم الأرمن الشبان إلى الطاشناق، والجورجيون إلى الفيديراليين الاشتراكيين، وانضم آخرون إلى المنشفيين والبولشفيين والفوضويين أو الاشتراكيين

الديموقراطيين. كان هؤلاء يقومون بحملة إرهابية أثيمة ضد القيصر ووزرائه. وبينما عصرت الحرب أوتار الامبراطورية، حاولت الأوخرانا قمع التململ بتوقيف قطيع الثوار.

لم يكن كل الرفاق مسرورين بعودة سوسو، العدائي والمشاكس، وخطّط أعداؤه للتخلص منه. تكمن المشكلة في معتقد ستالين الماركسي: تغلّب لينين على البونديين لأنه آمن بالحزب العالمي لكل الناس في الامبراطورية. حتى جوردانيا بشّر بالماركسية لكل منطقة القوقاز. لكن ستالين الشاب، المتشبّث بالأحلام الرومانسية لشعره، شدّد بشكل منحرف على وجود حزب جورجي للإشتراكيين الديموقراطيين، فاتهمه أعداؤه بالميول البوندية، وليس الماركسية العالمية للجميع.

في ذاك الوقت، كيّف ستالين ماركس مع غرائزه الخاصة. نقل عن ماركس، وتقيّد بدافيد ساغيراشفيلي، «لكن دائمًا بطريقته الفريدة الخاصة». وحين تم تحدّيه في أحد الاجتماعات، «لم يكن سوسو أقلّهم تشوّشًا»، وقال ببساطة «ماركس ابن ساقطة. ما كتبه يجب أن يُكتب كما أقول أنا!». وهكذا استشاط غضبًا.

لحسن الحظ، دافع أول بولشفي في جورجيا، ميخا تسخاكايا، وهو أحد مؤسسي ميسامي داسي، الذي دعم مقاربة لينين الراديكالية، بقوة عن ستالين. احترم ستالين تسخاكايا، الناشط والأكبر سنًا وصاحب اللحية القصيرة المشذّبة والجاذبية الأيديولوجية. وسخر منه لاحقًا، لكنه كان ممتنًا كثيرًا للشخص الذي يعتبر «الامتنان بمنزلة جرب الكلاب».

دافع تسخاكايا عن ستالين، وأنقذه من الطرد، لكنه جعله يتعرّف من جديد إلى الماركسية. وعظ سوسو قائلًا «لا يمكنني أن أثق بك كثيرًا. ما زلت يافعًا وتحتاج إلى أسس من الأفكار الثابتة، وإلا فستواجه المصاعب».

قدّمه تسخاكايا إلى مفكر أرمني شاب يدعى دانيش شيفارديان، لوعظه حول «الأدب الجديد». ضحك ستالين لاحقا قائلًا إن تسخاكايا «بدأ تعليمنا عن خلق الكواكب، الحياة على الأرض، والبروتين والجبلة الأولى، وبعد ثلاث ساعات، وصلنا أخيرًا إلى المجتمع الذي يملك العبيد. لم نستطع البقاء متيقّظين، وغلبنا النعاس...».

لكن حكايات ستالين النادرة أخفت الحقيقة المذلّة: أمره تسخاكايا بأن يكتب العقيدة ليعدل عن آرائه في الهرطقة. قرأه الأرمني برضا. ووزّعت سبعون نسخة مطبوعة[182]. سامح ستالين، لكن تسخاكايا قال إن عليه أن «يرتاح» قبل أن يستلم رسالة افتدائية[183].

* * *

تطفّل سوسو بلا خجل على أصدقائه. يتذكر ميخائيل مونوسيليدزي، صديق كامو وسفانيدزي، التلميذ السابق في الثانوية، أنه «عندما كان يزور عائلة أحد الأشخاص، يتصرّف كما لو كان فردًا من العائلة. إذا لاحظ أن لديهم نبيذًا أو فاكهة أو حلويات يشتهيها، لا يُحرج من أن يقول، «حسنًا، قال أحدهم إنني

دُعيت إلى شرب النبيذ وأكل الفاكهة» فيفتح الخزانة ويخدم نفسه بنفسه...». كان يعتبر أنّهم يَدينون له حرفيا بالرّزق من باب الامتنان لرسالته المقدّسة.

كان يقضي وقته مع صديقه الغني سباندرايان، الذي أخذه إلى دائرة يديرها ليف روسنفلد، «كامينيف» لاحقًا، الحاكم المساعد لستالين بعد وفاة لينين، وضحيته في ما بعد. دعم كامينيف، وهو مهندس غني شيّد السكك الحديدية بين باتومي وباكو، نجله الماركسي. وهو أصغر من ستالين، على الرغم من أنه بدا أكبر في السن، بلحيته الحمراء، وهو مدرّس لديه ضعف في البصر وعينان زرقاوان دامعتان. صاحب ستالين لكنه عامله دائما بدونية، حتى فات الأوان. كان كامينيف بولشفيًا لكنه معتدل جدًا، وهو أصلًا على خلاف مع الأشخاص الحادي الطباع، التابعين لستالين.

يتذكر كامو «غالبًا ما كنت أتشاجر مع المفكرين، واختلفت مع كامينيف الذي لم يرد المشاركة في مظاهرة». التقى سوسو لدى كامينيف بصديق قديم آخر، هو جوزيف دافريشوي، الذي تابع دروسه في مدرسة تيفليس، وشارك في الجيمنازيوم في غولوفنسكي بروسبكت مع كامنيف وسباندريان.

وأسرَّ دافريشوي، الذي عبث بالفيديرالية الاشتراكية، «أن يرى سوسو للمرة الأولى منذ غوري». كان يشبه ستالين (وظنّ أنه أخوه غير الشقيق). استذكر دافريشوي، «تكلمنا لفترة طويلة». وأضاف بتنفّج أن ستالين «لم يكن يعرف أحدًا من

تيفليس»[184].

* * *

لم يكن هذا الأمر صحيحًا، لأنه التقى في هذه المرحلة بالعديد من الثوار الشّبان الذين حكموا الاتحاد السوفياتي معه، أو أقلّه شاركوه حياته. في أحد الأيام، عاد سيرغي أليلوييف من باكو مع بعض المطبوعات، وسلّمها إلى منزل بابي بوشوريدزي، المكان المفضّل لدى الثوار. كتب أليلوييف: «نظرت حولي».

دخل شاب يبلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة أو أربعة وعشرين عامًا، إلى الغرفة المجاورة.

قال بايب: «إنه واحد منا».

كرّر الشاب، وهو يدعوني إلى الدخول «واحد منا». أجلسني على الطاولة وسألني: «ما هي الأخبار السارة التي ستنقلها إلينا؟».

وعلى الرغم من أنه كان أصغر بعشرة أعوام من أليلوييف، تجرأ سوسو المتغطرس على أن يعطي الأوامر حول نقل المطبوعات. كانوا قد التقوا كمتآمرين، لكن أليلوييف دعاه الآن إلى منزله للقاء زوجته الجميلة والمعروفة بتعدّد علاقاتها الغرامية. تذمّر ستالين لاحقًا من أن زوجة أليلوييف «لم تتركه وحده أبدًا، أرادت أن تضاجعه» دائمًا.

(13)

الإغواء البولشفي

بات آل أليلوييف عائلة، وانتقلوا مع ستالين من عالم السجون والموت والتآمر هذا، إلى قمة السلطة... ثم من جديد إلى عالم السجون والموت والتآمر، على يدي ستالين نفسه.

كان سيرغي «رجل المغامرات المذهل على غرار أسلافه الغجر، يهوى الشجار: إذا أساء أحدهم معاملة العمّال، يضربه». وزوجته أولغا، المسماة عند الولادة فيدورينكو، «كانت آية من الجمال، وعيناها تميلان إلى اللونين الرمادي والأخضر، وشعرها أشقر»، وقد جسّدت الإغواء الماركسي المثير جدًا. كتبت حفيدتها سفيتلانا أن أولغا «غالبًا ما وقعت في غرام الرجال».

كان أهلها، ذوو الأصول الألمانية، طموحين ومجتهدين في العمل، ويعلقون الآمال الكبيرة على أولغا. لكن سيرغي أليلوييف، البالغ من العمر في ذاك الوقت سبعًا وعشرين سنة، والنزيل عندهم، كان من أصول الرقيق والغجر، وقد عمل منذ سن الثانية عشرة. كانت أولغا، البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، ستتزوج من صانع سجق محلي، لكنها وقعت في غرام النزيل، فهربت معه. طارد والدها سيرغي بالسوط، لكن كان قد فات الأوان. وانخرط سيرغي وأولغا في النشاط الثوري، بينما كوّنا عائلة تتألف من فتاتين وصبيين.

كان أصغر آل أليلوييف، الطفل ناديزهدا، لكن الأولاد الآخرين كبروا مع والدة غير مستقرة، وبيت مكرّس لقضية، في قالب متغير من المتآمرين اليافعين، وتحديدًا المتآمرين الغامضين والغريبين الذين يعجبون والدتهم. وقد طابق الجورجيون ذوقها. تقول سفيلتانا «في بعض الأحيان، كانت تجمعها علاقات غرامية مع بولندي، ثم هنغاري، ثم بلغاري، وحتى تركي. كانت تحب الرجال من الجنوب، وتعامل أحيانًا بازدراء «الرجال الروس الريفيّين الشديدي الارتباك».

فضّلت أولغا أليلوييف مبعوث لينين فيكتور كورناتوفسكي المكتئب، الموجود الآن في المنفى السيبيري، وستالين. ويزعم أن نجلها بافيل أليلوييف اشتكى من أن والدته «لاحقت أولًا ستالين ثم كورناتوفسكي». ويقال إن ناديا صرّحت بأن والدتها أقرّت بأنها عاشرتهما كليهما. وكتبت حفيدتها سفتلانا أنّ أولغا «كان لديها دائمًا نقطة ضعف على ستالين»، لكن «الأولاد توصّلوا إلى تفاهم على هذا الموضوع. انتهت هذه العلاقات عاجلًا أم آجلًا، واستمرت الحياة العائلية»[185].

تبدو العلاقة محتملة. وإذا صحّ ذلك، فهي نموذج عن زمانها.

* * *

كان الثوار، في العمل السري، تحت واجهة من الاحتشام والليبرالية الجنسية. وقد وجد الرفاق المتزوجون أنفسهم، باستمرار معًا، في حرارة العمل الثوري[186].

عندما لم يكن سوسو مع آل أليلوييف، تحكّم مجددًا في كامو ومساعديه السوسويين الشبان. إذا أراد تنفيذ أمر بسرعة، يقول، «سأبصق الآن. وقبل أن يجفّ، أريدكم هنا من جديد!».

أصبح كامو بسرعة، أحد السّفاحين الأكثر إفادة في الحزب، خبيرًا في التعزيزات، ويركّب المطابع ويهرّب الأوراق. لم يكتب قط أي مقالة، أو يُدلِ بأي تصريح، لكنه علّم حرفته للشبان المتوحّشين الآخرين. وفي مذكراته غير اللّبقة (وغير المنشورة)، يرفع كامو النقاب عن حياته وستالين في ذاك الوقت. وأدرك، عند توزيع الكراسات، أن أفضل مكان لتخبئتها، هو بيت الدعارة، «لأنه لا أشباح هناك!». كان يحتاج إلى النقود، لكنه أصبح في الواقع راقصًا مأجورًا في الحانات لكسب رزقه: سمحت له أولًا زوجة الطبيب، بأن يبقى. «غالبًا ما تساءلت لماذا اهتمت بي صاحبة الملك بعناية. ثم جمعتني بها علاقة حميمة، ما أثار اشمئزازي بكل ما في الكلمة من معنى، لكن بما أنه لم يكن لي شقة سرية أخرى، خضعت للأمر الواقع واقترضت المال منها أيضًا».

ارتادت مضجعه امرأة أخرى أيضًا، هي ممرضة يهودية. استسلم لها كامو: «ذهبت لاحقًا بعيدًا، وحاولت ألا أراها بعد ذلك!». ربما لم يكن الشخص الوحيد الذي عاش عالة على النساء. أتى على لسان أحد كتاب السير الذاتية غير المعتمد كمصدر، لكن المطّلع جيدًا في بعض الأحيان أن ستالين ارتبط بعلاقة غرامية مع ماري أرينسبيرغ، زوجة رجل الأعمال الألماني في تيفليس، التي ساعدته على إيجاد سبل لابتزاز المال من التجار.

كان صديق كامو الحميم شابًا نبيلًا وسيئًا وفقيرًا، يدعى غريغوري أوردزهونيكيدزي، المعروف «بسيرغو». تدرّب كممرض، وعرفت عنه المشاكسة والاندفاع والوسامة والحيوية. كاريكاتورجورجي ذو عينين بنيّتين كبيرتين ومظهر جانبي معقوف وشاربين طويلين.

حضّ كامو سيرغو قائلًا «كن مساعدي!».

ومازح سيرغو «مساعد الأمير أو الغسّالة؟»، مشيرًا إلى تنكّر كامو كبائع متجوّل، حاملًا سلة على رأسه؛ أو كأمير باللباس الجركسي، أو تلميذ فقير، أو تحفته الفنية، غسّالة تحمل كيسًا من الغسيل. أصبح سيرغو مقربًا من ستالين، وأخذه هذا التحالف إلى الكريملين، لكن دمّره في نهاية المطاف.

جذبت أعمال ستالين وكامو وسيرغو البهلوانية الصبيانية، اهتمام البلدة. تتذكر نسيبة سيرغو، مينادورا توروتشيليدزي[187]، رؤية هؤلاء الثلاثة في بهو مسرح المجتمع الفني، الذي قدّم في ذاك الحين مسرحية هامليت. عندما ظهر والد هامليت المتوفّى، رموا مئات الأوراق في اتجاه الثريا، فهبطت على الأرستقراطيين والبرجوازيين. ثم هربوا. أوقعوا في ساحة المسرح الأوراق على رأس نائب الحاكم[188].

وبانتظار مسامحة الحزب، استُبعد سوسو إلى باتومي، حيث استقبله المنشفيان دجيلادزي وإيزيدوري راميشفيلي، بطريقة مثلجة.

قالت ناتاشا كيرتافا «سمعت طَرْقًا على الباب»، فسألت «من الطارق؟».

«أنا! سوسو!».

«سوسو، يا صاح! بعثت إليك برسالة إلى إيركوتسك. كيف جرى أنك هنا؟».

«هربت!». رحّبت بحبيبها، الذي ارتدى اللباس العسكري للتنكر. كانت التراتبية الموحّدة البروسية لامبراطورية رومانوف متجرًا كبيرًا من اللباس الفاخر الذي يختار منه الثوار ما يحلو لهم للتنكّر. وعندما أخبرت ناتاشا الرفاق بعودة سوسو، «فرح البعض وحزن البعض الآخر». وشجب المنشفي راميشفيلي ستالين أمام ناتاشا.

صرخ «ارمه خارجًا، أو سنطرده من الحزب».

ترك ستالين ناتاشا بشهامة، لكن راميشفيلي نشر شائعة وجود أمر مشكوك في هربه: لا بد من أن ستالين جاسوس لدى الشرطة. وبعد التنقل بين البيوت ثماني مرات بلباس الجندي، أُجبر سوسو على العودة إلى ناتاشا، التي جمعت له النقود بولاء تام ليعود إلى تيفليس.

سألته «إلى أين أنت ذاهب. ما الذي ستفعله إن فشلت مجددًا؟». وكما تذكرت لاحقًا، مرّر يده في شعرها، وقبّلها قائلًا «لا تخافي!».

أعاره قاطع الطرق لباسا آخر: «القلنسوة المستدقة الرأس، والسترة القصيرة، ومشعلًا لجامع بطاقات السفر في القطار»،

بحسب ما يتذكر قاطع التذاكر في السكك الحديدية، الذي نقل سوسو بانتظام بين تيفليس وباتومي. لكن لم ينس ستالين ناتاشا. وحالما وصل إلى تيفليس، كتب مستخدمًا رمزًا طبيًا زائفًا ليدعوها إلى الانضمام إليه. «أيتها الأخت ناتاشا، الأطباء المحليون سخفاء؛ إذا كان مرضك معقّدًا، فتعالي إلى هنا حيث الأطباء ماهرون».

قالت «لم أستطع الذهاب لأسباب عائلية»، أو هل عاد زوجها؟ فغضب ستالين[189].

كان هو وفيليب ماخارادزي، وهو بولشفي أكبر سنًا ومؤسس المجموعة الثالثة، منهمكين في ذاك الوقت في تحرير صحيفة الحزب الجورجية غير الشرعيّة، «بروليتارياتيس بردزولا» (نضال البروليتاريا) Proletariatis Brdzola في تيفليس، حيث نشرت في مطبعتهم السرية في أفلابار، مقاطعة العمال. ثم عاد إلى باتومي في شهر نيسان/أبريل، وهذه زيارة أخرى غير سارّة.

في احتفال يوم أيار/مايو على الساحل، يبدو أن ستالين عنّف بعض السكان المحليين، ويُفترض أنهم منشفيون، ما أدى إلى شجار فصائلي مبلّل بالنبيذ الماركسي تعرّض خلاله للضرب.

التقى ناتاشا كيرتافا، التي رفضت اقتراحه العيش معًا. كتبت «أسرعت لأحيّيه، لكن سوسو الغاضب صرخ في وجهي: «ابتعدي عنّي!»»[[190]][191].

سوسو الذي تعرّض للكدمات والرفض في باتومي، ولاحقه الدرك في تيفليس، تراجع إلى غوري، واختبأ مع خاله غيورغي دجيلادزي. ويُرجَّح أنه التقى كيكي. يقول دافريشوي إنه حصل على أوراق جديدة في غوري باسم «بيتروف»، وهو لقب آخر من ألقابه العديدة[192].

في أواخر تموز/يوليو، أرسل تسخاكايا ستالين إلى غربي جورجيا، وتحديدًا إلى الإمارتين القديمتين لاميريتيا ومينغريليا، حيث شكّل اللجنة الجديدة «لاميريتيا ومينغريليا». توجّه إلى قتيسي، وهي بلدة جورجية يقطن فيها 30 ألف نسمة من «سائقي العربات ورجال الشرطة وأصحاب الحانات والبيروقراطيين الضعفاء والنبلاء الصغار الكسالى». كانت هذه مهمة حيويّة لأن فلاحي الغرب، خاصة في غوريا، خضعوا للتسييس كما لم يخضع أحد في الامبراطورية بأكملها. ضجّت هذه الأراضي النائية من «الجبال والوديان المستنقعية والهضاب الدارجة بشكل طفيف، المغطاة بحقول الذرة والكروم ومزروعات الشاي»، بالثورة. حالف ستالين الحظ بمساعدة الأمير الأحمر، ساشا تسولوكيدزي، وصديق جديد، هو ممثل شاب طنان ومفخّم يدعى بودو («البرميل») مديفاني، كثائر في أغرب الأزمان: أهرقت الحرب اليابانية دماء الامبراطورية. في تموز/يوليو 1904، وفتّت إرهابيو لواء القتال في حزب الثوار الاشتراكيين وزير الداخلية المتشدد بليهيب إلى أشلاء، وخلفه في هذا المنصب أرستقراطي غير متمرّس، هو الأمير سفياتوبولك - ميرسكي.

انتشرت الإضرابات والفوضى، بينما عانت ميرسكي لسوء طالعه بسبب ذوبان الثلج.

كانت قرى غربي جورجيا مشتعلة أصلًا. في ثورة الفلاحين الناشئة، هاجم الفلاحون النبلاء، وصادروا الأراضي، وطردوا شرطة القيصر. بدأ ستالين السفر بلا كلل ولا ملل، عبر القوقاز، وغادر تيفليس أكثر من عشر مرات في رحلات لتنظيم الثورة وجمع التبرعات، من قتيسي إلى فلاديكافكاز ونوفوروسيسك. لاحظت الأوخرانا عودته إلى تيفليس، فكتبت في تشرين الأول/ أكتوبر: «هرب دجوغاشفيلي من المنفى، وهو الآن قائد حزب العمال الجورجي». حاول الدرك نصب كمين له في تيفليس، لكن المعلومات السرّية التي تزوّد بها، مكّنته من الهرب. ثم أُوقف من جديد مع بودو مديفاني، واعتُقل في سجن أورتاشالا في تفليس، فهرب مع صديقه الجديد. أطلقت الشرطة النار عليهما لكن بودو حمى سوسو بجسمه.

سافر في غربي جورجيا، مع صنارات وعدّة الصّيد، وعندما أوقفته الشرطة المحلية أقنع عناصرها بأنه يصطاد فحسب. في أيلول/سبتمبر وكانون الأول/ديسمبر، استقل القطار في أول زيارة له إلى باكو، بلدة الطفرة النفطية، حيث حشدت المطابع البولشفية العمّال لإطلاق إضراب كانون الأول/ديسمبر. وانتصر العمال[193].

وفي وقت كان على الاشتراكيين الديموقراطيين التوحّد، انقسموا على بعضهم البعض وتشرذموا. وبينما ركّز البولشفيون على

طليعة الثوار، لجأ جوردانيا والمنشفيون بدهاء إلى الفلاحين الجورجيين الثائرين، وقدّموا إليهم ما أرادوه فعلًا: الأراضي. قاد ستالين الإقطاعية في قاعدته في قتيسي بتشويه السمعة، ونشر الأكاذيب والخداع الماكر، حتى أن منشفيًا محليًا كتب رسالة نادرة إلى عضو في اللجنة تكشف جليًا طبعه وأسلوبه:

(كتب المنشفي نوي خوميريكي) قال لك الرفيق كوبا (ستالين) إننا ضدك وطلب صرفك من اللجنة، لكنني أعد بألا يحصل شيء من هذا القبيل، وكل ما قاله كوبا لك كذبة خبيثة! نعم: افتراء لتشويه سمعتنا! أتساءل عن مدى وقاحة هذا الرجل. أعلم بعدم جدواه، لكنني لم أتوقع منه هذا «الإقدام». فقد اتّضح أنه سيستخدم أي وسيلة تبرّرها الغاية. والغاية في هذه الحالة - الطموح - تقديم نفسه كرجل عظيم أمام الأمة. لكنّ... الله لم يمنحه النِّعَم المناسبة، لذلك لجأ إلى الخداع والكذب و«التفاهات» الأخرى. أراد هذا الإنسان الفاحش أن يلوّث رسالتنا المقدسة بقذارته!

ادعى ستالين أنه يحق له أن يصرف من شاء من اللجنة، على الرغم من علمه بعدم صحة ذلك. وأطلق عليه خوميريكي اسم «دونكيخوتي كوبا».

لكن، كما في أغلب الأحيان، تغلّب ستالين «بوقاحته» المخزية في نهاية المطاف[194].

بعد نجاحه في كسب الحكم للينين، في أيلول/سبتمبر 1904، كتب ستالين رسالتين إلى صديقه الحميم من غوري دافيتاشفيلي، في ليبزيغ، يمدح لينين «نسر الجبال»، لأنه هاجم المنشفيين، وتباهى

بأن «لجنته» «كانت مترددة، لكنني أقنعتهم». وكتب أن بليخانوف «إما مخبول وإما يُظهر الحقد والعدائية»، في حين أن جوردانيا «ساقط». كان هذا الجورجي الغامض سعيدًا بشجب حكماء الماركسية العالميّين. وأدت الرسالة الغرض منها: سمع لينين بستالين للمرة الأولى، فهلل له «نسر الجبال» «الكولشي[195] الاستثنائي».

في ليلة رأس السنة من العام 1904، أمر سوسو عصابة صغيرة من عمال السكك الحديدية بلقائه خارج نادي النبلاء في غولوفنسكي بروسبكت في تيفليس. كان الليبراليون النبلاء يعقدون ما يسمى حملة المأدبة التماسا للأصوات الداعمة لدستور القيصر، لكن البولشفيين اشمأزوا من هذه الليبرالية شبه المدعومة من البورجوازية. وحالما فتح الرئيس المأدبة، جاء ستالين فجأة، بدعم من عمّاله، وطلب الكلام. وعندما رفض الحضور، خرّب ستالين الليلة بالصراخ: «فليسقط حكم الفرد»، ثم بقيادة عماله غنّى النشيد الوطني الفرنسي والوارساويانكا. وفي 2 كانون الثاني/يناير، استسلم مرفأ القيصر الرئيسي في الشرق الأقصى، مرفأ آرثر المجهّز بالجيوش والأعتدة الحربية، لليابانيين. وهكذا افتتح العام 1905.[196]

* * *

يوم الأحد في 9 كانون الثاني/يناير، عندما عاد ستالين إلى باكو من جديد، تقدم الأب غابون، عميل الشرطة الصديق الثائر،

مسيرة تضم 150 ألف عامل يغنون النشيد لتقديم التماس متواضع ووفيّ إلى القيصر في قصر الشتاء في بطرسبرغ. سدّ القوزاقيون الطريق. أطلقوا النار من المدافع مرتين للتحذير، لكن العمال تابعوا تقدّمهم. أطلقت الجيوش النار على الحشد، ثم حشو الذخيرة. قضى مئتا عامل، وأصيب المئات. تمتم الأب غابون «لا إله من الآن فصاعدًا. لا قيصر».

هزّ الأحد الدموي الامبراطورية، وأطلق العنان لعاصفة من المظاهرات والمجازر الإثنية، وعمليات القتل والثورة المفتوحة. انتشرت الإضرابات في كل أرجاء الامبراطورية. أحرق الفلاحون قصور أسيادهم ومكتباتهم ومكاتبهم، ودمّرت منازل 3 آلاف مزرعة. انسحب الاضطراب على الجيش. كتب ستالين في مقاله «كتائب القيصر تتضاءل، أسطول القيصر البحري يفنى، ومرفأ آرثر استسلم الآن بطريقة مخزية. نرى من جديد بأم العين تداعي حكم الفرد الخرف». بيد أن القيصر كان يأمل اجتراح أعجوبة. وفي إحدى أكثر مغامرات التاريخ البحرية استثنائية، أرسل أسطوله البلطي الراشح ليبحر في العالم أجمع، عبر أفريقيا والهند وسنغفورا لمواجهة اليابان. لو نجح الرّهان، لطنّت أصداء انتصار نيكولاي الثاني على مر الأزمان.

صرف القيصر وزير الداخلية المشؤوم، وعيّن وزيرًا جديدًا اقترح بعض التنازلات السياسية الضرورية برأيه. أجاب الامبراطور «يخال المرء أنك تخشى اندلاع الثورة».

«جلالتك، الثورة اندلعت أصلًا» - ثورة العام 1905 التي أطلق

عليها تروتسكي لاحقًا اسم «تمرين الثوب»-. في هذا الوقت، بدا كما لو أن المهمة الحقيقية، المعركة الضارية والمنبّهة، تحصل في الامبراطورية، لكن تحديدًا في القوقاز، حيث اكتنز ستالين أساليب استخدمها في حياته[197] وجد المحيط الملائم له، ووجد متعة في الدراما المروّعة.

كتب ستالين «يا عمّال القوقاز! حان وقت الثأر! يطلبون منا أن ننسى حفيف السوط وطنين الرصاص ومئات الرفاق الأبطال الذين قُتلوا، وأشباحهم المجيدة تحوم أبدًا حولنا وتهمس: «انتقموا لنا[198]!»».

(14)

1905: **ملك الجبل**

طلع فجر العام ألف وتسعمئة وخمسة، ووضع أوزاره في ظل المذابح والمجازر. كان عام الثورة الذي قاد خلاله ستالين الشاب، للمرة الأولى، الرجال المسلّحين، وذاق طعم السلطة، وعانق الرّعب وروح العصابات. في 6 شباط/فبراير، كان في باكو عندما أطلق بعض الأرمن النار على تتاري في وسط المدينة. فانتقم الأتراك الأزيري، أو «التتر»، كما تمت تسميتهم في أغلب الأحيان. وانتشر الخبر. وشجّعت السلطات التي لطالما امتعضت من ثراء الأرمن ونجاحهم، الرعاع الآذريين المسلمين على اجتياح المدينة.

طوال خمسة أيّام مديدة، قتلت عصابات الأزيري كل أرمني صادفته، بتحريض من الحقد المجنون الناتج عن الضغط الدنيء والغيرة الاقتصادية وقرب الجيرة.

وبينما اندلعت المذبحة المعادية للسامية في كافة أرجاء الامبراطورية، وقعت باكو في براثن القتل الإثني والحرق والسلب والنهب وإطلاق النار والذبح. لم يحرّك المحافظ الأمير ناكاشيدزي ورئيس الشرطة ساكنًا. سلّم القوزاقيون الأرمن الأورثوذكس للذبح على أيدي الرعاع الأزيري، مسلّحين من الشرطة. حوصر بارون النفط الأرمني في قصره من قبل أزيري، فصوّب عليه النار من مسدس وينشستر حتى فرغ من

الذخيرة، فمزّقه إربًا إربًا. وشرع الأرمن، الأغنى والأفضل تسلحًا، في آخر الأمر، في قتل الآذريين وذبحهم.

قال العمدة «لا يعلمون حتى لماذا يتقاتلون». وكتب شاهد على مذابح باكو «آلاف الجثث الهامدة ما زالت في الشوارع، وغطّت المدافن المسيحية والمسلمة. خنقتنا رائحة الجثث. تبحث النساء المسعورات في كل مكان عن أولادهن، وينقل الأزواج أكوام اللحم المتعفّن». لقي أقله 2000 شخص حتفهم في هذه المذابح.

شهد ستالين على هذه المشاهد الجهنمية والرؤيويّة، وشكّل زمرة معركة بولشفية صغيرة في باكو. الآن جمع هذه العصابة المسلمة بمعظمها، وأمرها بأن تفرّق المجموعتين حيثما أمكن، وتزامنا الاستفادة من كل فرصة لسرقة أي معدات طباعة مفيدة، وجمع التبرعات للحزب بخدع الابتزاز بداعي الحماية. ووفقا لأول كاتب سيرة ذاتية، إيساد باي، الذي ترعرع في باكو، «قدّم ستالين نفسه إلى رئيس البيت (الأرمني)، وأخطره برزانة بأنه اقترب الوقت حتى يسقط البيت تحت نصل المسلمين». لكن، «بعد التبرع للبولشفيين، نقل ستالين التجار الأرمن إلى الريف» [199].

* * *

بعدئذ، أسرع سوسو إلى تيفليس، حيث الخطر كبير بحمام دم إثني بين الجورجيين والأرمن، أو المسيحيين والمسلمين. شلّت الإضرابات المدينة؛ وأوقفت الشرطة الثوار، وأطلق القوزاقيون النار على المتظاهرين في غولوفنسكي بروسبكت.

ساعد ستالين على تنظيم مظاهرة مصالحة لتلافي أي مجزرة، وكتب بيانًا في كرّاس، طبعه ووزعه كامو، يحذر من أن القيصر يستخدم «المذابح المنظمة ضد اليهود والأرمن ليدعم عرشه الخسيس على الدماء، دم المواطنين الشرفاء الأبرياء، أنين الأرمن والتتر المحتضرين».

قاد ستالين المظاهرة في 13 شباط/فبراير «لنناضل ضد الكفاح الذي ينثر بذور الشر بيننا». ونقل بفخر أن 3.000 من كراساته وزّعت، وأنه «في الأساس القيادي (للحشد)، وحملوا حامل الراية عاليًا على الأكتاف ليقدّم خطابًا قويًا»، هو بنفسه بلا شك[200]. لكن الدم السيئ بين البولشفيين والمنشفيين أصبح الآن مسمًّا بالكامل.

عاد جوردانيا، القائد المنشفي الأرستقراطي، من منفاه. وتغلّب بسلطته المتينة وسياساته الحساسة الموالية للفلاحين على الجورجيين، واعتنق السواد الأعظم منهم المنشفية. وفي لجنة تيفليس، اتهمه إيزيدزر راميشفيلي، الذي همس في باتومي عن هروب ستالين المريب، بشكل صريح بأنه عميل لدى الحكومة، على الرغم من أنه لم يملك على ما يبدو أي دليل على ذلك. وبتشجيع من جوردانيا، انتخب المنشفيون والبولشفيون لجانهما[201].

في نيسان/أبريل، توجّه ستالين غربًا حيث سيطرت العصابات المسلحة واللجان المنتخبة على الحكومة والقضاء، برغم أن بعض

الفلاحين اعتبروا «اللجنة» فعليًا اسمًا لنوع جديد من القيصر. أصبح إحراق المباني المتعمد والاغتيالات، الروتين في «جمهورية منفصلة حيث لا يمكن قوة الشرطة النفاذ». كتب ستالين بغضب، وتكلم في الاجتماعات الشعبية ضد المنشفيين في باتومي وقتيسي. وفي أحد النقاشات، «أدى الرفيق كوبا أداءً قويًا في جلسة بدأت عند الساعة العاشرة مساءً ودامت حتى الفجر». ثم، باللباس الأسود والرمادي وشاربين ولحية محلوقة للتنكر، تسلل إلى الغابة للاختباء حتى يتمكن من الهروب ليلًا.

كان عدو ستالين المنشفي نوي راميشفيلي، مثير الفتن الجاذب، «البالغ من العمر 25 عامًا والممشوق القامة والنحيل بعينين مبتسمتين وصوت حماسي». رأى خاريتون شافيشفيلي، المنشفي[202] ، المبارزين يتواجهان كالأبطال الأسطوريين. وصل راميشفيلي أولًا، ثم «سوسو الشهير، الرفيق كوبا، الأصغر من راميشفيلي، لكن له مثل جسمه النحيل. كانت نظرته ساكنة وعميقة أكثر ووجهه أكثر خشونة، ربما بسبب هزمات الجدري. كان أسلوبه وحركاته جورجية بالكامل، لكنه تمتع بشيء مميز كليا، وهو أمر يصعب فهمه جيدًا، أسدي وسنوري في الآن معا. ألم يكن هنالك أمر استثنائي في المظهر الاعتيادي؟». تأثر شافيشفيلي أيضًا بفن الخطابة، او انعدامه: «لم يكن خطيبًا»، لكنه «سيد فن الرياء». كان يتكلم «ببسمة خفيفة وعينين شاخصتين... باقتضاب ووضوح وإقناع كبير»، على الرغم من أن راميشفيلي متحدث أبرع. وحتى عندما كان «سوسو الشهير» يخسر أمام

المنشفيين، وهذا كان يحدث في أغلب الأحيان، «كان العمال يقبّلونه وعيونهم مغرورقة بالدموع»[203].

لكن، غالبًا رأى المنشفيون اليهود الغضب الشديد الحسود لدى ستالين الأنيق المعتدّ بنفسه تحت هدوء مثلج. وبعد أحد النقاشات، جرّح بالمنشفيين: «أساء لينين بالقول إن الله أرسل إليه هؤلاء الرفاق كالمنشفيين! من هم هؤلاء الناس في كل الأحوال؟ مارتوف ودان وأكسيلرود، يهود مختونون. لا يمكن الشجار معهم، ولا يمكن تناول الطعام معهم!»[204].

عندما كان ستالين في قتيسي، رحّب به عمال المناجم في شياتورا المجاورة. كانت هذه البلدة التعدينية الجبلية المعقل البولشفي الحقيقي الوحيد في جورجيا. وبنية إحكام قبضته عليها، بدأ يقضي معظم وقته هناك. كانت شياتورا، الجبال المتباعدة التي يغطي الثلج قممها مع جرف شديد التحدر وسحابات منخفضة، تزدهر بسرعة: منجم المغنيز الأكبر في روسيا يزوّد العالم بحوالي 60 في المئة من الإنتاج العالمي. هي بمعظمها أراض فضية فيها أكوام من المعادن النفيسة، ويكدح فيها 3.700 عامل «من ذوي البشرة السوداء» في أيام عمل من ثماني عشرة ساعة في الغبار الخانق لقاء أجور ضئيلة. ينام العمال في المناجم وهم يفتقدون الحمامات، أو حتى المساكن. كتب كوت تسينتسادزي، وهو مسلّح أصبح في طليعة الساطين على المصارف لدى ستالين، «الحيوانات تعيش في حالة أفضل من عمال شياتورا»[205].

في يوم صيفي حار، استمع 2.000 عامل في المناجم، مغطين بالغبار كالزنج في مسرحية الكوميدي المستنزج، إلى المنشفيين، ثم إلى ستالين. رأى شافيشفيلي كيف سمح سوسو «التكتيكي البارع» للمنشفيين بالتكلم أولًا، فملّ الحضور. وعندما جاء دوره، قال إنه لا يريد أن يُضجرهم، ورفض أن يدلو بدلوه. «فرجاه العمال أن يتكلم»، فتكلم فقط لخمس عشرة دقيقة «ببساطة مفاجئة». «حافظ ستالين على برود أعصاب مذهل... تكلم كما لو أنه في محادثة منعشة وهادئة... بدا أنه لا يرى شيئًا، لكنه شاهد كل شيء». ربح النقاش. تفادى كلامه البسيط الخطاب الطنان للمؤدين الأكثر توهجًا الذين لم يكسبوا ثقة العمال.

وبعد أعوام خلت، نفّذ الخدعة نفسها مع خطباء كبار، كتروتسكي. حقق جاذبيته الخاصة، شارحًا لشافيشفيلي أن المتحدث المنشفي «خطيب عظيم، لكن مدفعك الكبير غير ذي فائدة هنا حيث تحتاج إلى تسديد الضربات على مسافات قصيرة».

بسط ستالين سلطته على شياتورا، وفق شافيشفيلي، وأصبحت «قلعة البولشفية». كان سوسو «قويا جدًا هناك: أحاط نفسه برجال يفوقونه بضعف عمره وضعف ثقافته، لكن الإعجاب والعاطفة التي غلّف نفسه بها سمحت له بأن يفرض انضباطه الحديدي على جيوشه». المعروف «بسوسو الشهير» أو «الرقيب أول كوبا»، وضع مطبعة بمساعدة التلميذة الشابة الحسناء باتسيا غولدافا، التي حملت لاحقًا مسدسًا في السطو على المصرف في تيفليس[206] في العام 1907.

كان سوسو الشهير بطل المقاومة المسلحة، وقد أسس وسلّح وقاد زمرة المعركة الحمراء وشبه المناصرين وشبه الإرهابيين في كافة أرجاء جورجيا. كتب ستالين، المنظم العسكري والإرهابي المدهش «يجب أن نصبّ اهتمامنا لتأسيس زمرة المعركة»، لكن لم تعطه الخبرة فحسب طعم القيادة العسكرية، بل أيضًا الوهم بأنه موهوب لها.

سلّح المنشفيون حتى خصم ستالين راميشفيلي وعيّنوه لتنظيم لجنتهم الفنية العسكرية ومعامل القنابل الخاصة بهم. وبحلول أواسط العام 1905، كانت هذه الميليشيات تحكم شوارع جورجيا وقراها. تعاون ستالين والبولشفيون أحيانًا مع المنشفيين في بعض الأحيان، وأحيانًا لم يفعلوا.

في شياتورا، سلّح ستالين عمال المناجم والعصابات المحلية، وعيّن فانو كياساشفيلي قائدًا. يقول كياساشفيلي، الذي درّب مناصريه، على سرقة الأسلحة وهرّب الذخائر عبر الهضاب «كان الرفيق سوسو يأتي ليعطي الأوامر، وأطلقنا الزمرة الحمراء». في محطة شياتورا، شاهد شافيشفيلي ستالين يعطي الأوامر لرئيس زمرة المعركة الآخر، تسيننتسادزي، المتهور والمندفع وصاحب الشعر الأحمر الذي وظّف بعض التلميذات، ومعظمهن مغرومات به، في العصابة. نزع رجال تسانيتسادزي وستالين السلاح من أيدي الجيوش الروسية، ونصبوا الكمائن للقوزاقيين المكروهين، واقتحموا المصارف وقتلوا الأشباح ورجال الشرطة «حتى أصبحت تقريبًا كل المحافظة تحت رحمتهم». أصبحت شياتورا، كما يتباهى تسيناتسادزي، «نوعًا

من المعسكر التحضيري»[207].

كان سوسو باستمرار في شياتورا وخارجها، للإشراف على حرب العصابات هذه. والغريب أنه كلما كان هناك، يخبئه زعماء مناجم المنغنيز الأرستقراطيون ويحمونه. مكث أولًا في منزل بارثولوم كيكيليدزي، ثم لدى الأمير الكبير إيفان أباتشيدزي، نائب رئيس مجلس صناعة المنغنيز، وقريب الأميرين شيرفاتشيدزي وأميلاخفاري والأمير دافيد الملقّب ب «البقعة السوداء»، المعلم في الثانوية (كما كان الأمير أباشيدزي، والد جد الرئيس الحالي لجورجيا، ميخائيل ساكاشفيلي).

ماذا يجري؟

تلقى كل الثوار التمويل من رجال الأعمال الكبار والطبقة الوسطى، جزئيًا على الأقل، ومعظمهم نفروا من النظام القيصري، وفي أي حال من الأحوال أقصوا عن أي تأثير. في روسيا بذاتها، البلوتوقراطيون، كزعيم النسيج سافا موروزوف، أكبر المساهمين البولشفيين، بينما في أوساط المحامين والمدراء والمحاسبين «تمويل أطراف الثورة رمز المنزلة الرفيعة». وهذا ينطبق على جورجيا تحديدًا.

لكن مردّ ذلك يتعدى مجرد الضيافة والإحسان. يرجّح أن ستالين تعلّم فن ابتغاء الربح بابتزاز المال بداعي الحماية وابتزاز الأموال من معارفه بين المجرمين ومن علاقاته في باكو وباتومي. قدّم في هذه المرحلة الأمن مقابل المال. لو لم يدفع الزعماء، لكانت انفجرت مناجمهم وقتل مدراؤهم؛ ولو دفعوا، يحميهم ستالين.

يتذكر اثنان من مقاتليه، في مذكرات غير منشورة، كيف حافظ ستالين على جانبه من الصفقة، مظهرًا أنه يستطيع أن يتعامل حقًا مع الشيطان.

عندما سرق الزعماء، يقول ج. فاشادزي، «لم يكن المواطنون المحليون من نظّم البحث عن «المجرمين» بل ج. ف. ستالين». سرق بعض «اللصوص مدير شركة منغنيز ألمانية وسلبوها 11 ألف روبل»، وفق ن. روخادزي. «أمرنا الرفيق ستالين بأن نجد المال ونسترجعه. وقمنا بذلك».

من غير المفاجئ أن يفضّل الزعماء استمالة ستالين إلى جانبهم: فرقعت شياتورا بالاغتيالات. كتب تسينتسادزي «كان الرأسماليون خائفين جدًا، فلم يتطلب استسلامهم وقتًا طويلًا». أما بالنسبة إلى أي سياسي أو شبح، «قرر تنظيم شياتورا التخلص منه». ضربوهم، واحدًا تلو الآخر. ستالين، بلصوصيه الذين يحومون بالبندقيات في الهضاب، وصحفه التي تضخ مقالاته وأدائه المؤثر والمفاجئ في اللقاءات العامة، أصبح ملك الجبل. وكتب مُحام بولشفي شاب وغني، هو البارون بيبينيشفيلي «الرفيق كوبا و(الأمير) ساشا تسولوكيدزي، كانا أهم أسلحتنا». لكن المنشفيين سجّلوا الانتصارات في بقية القوقاز[208].

يخبر سوسو لينين، الموجود خارج البلاد «كان عليّ ان أسافر في كل أنحاء القوقاز، وأشارك في النقاشات وأشجّع الرفاق». «كانت حمّى المنشفيين سائدة في كل مكان، وعلينا أن نصدّهم. لم يكن لدينا أي أتباع تقريبًا (وما زالوا قلة، أقل بمرتين أو ثلاث مرات

من المنشفيين)... وقعت تقريبًا كل تيفليس بين أيديهم. نصف باكو وباتومي. لكن البولشفيين ملكوا النصف الآخر من باكو، ونصف باتومي، وبعضًا من تيفليس، وكل منطقة القتيسي مع شياتورا (محافظة مناجم المنغنيز، التي تضم 9.000 إلى 10.000 عامل). تعود غوريا إلى المصلحين الذين يميلون إلى المنشفيين[209].

كتب أحد أعداء ستالين المنشفيين قائلًا عنه إنه «كان يعمل بحماسة متقدة، فيسافر في كل غوريا وأميريتيا وشياتورا وباكو وتيفليس، يرمي بنفسه ذهابًا وإيابًا، لكن لبّ العمل على عاتق الفصائل، محاولًا دمغ المنشفيين في القذارة»[[210]]. حارب المنشفيون بضراوة، إذ قال «كل الوسائل جيدة في نضالنا ضدهم»[211].

* * *

في 5 أيار/مايو 1905، برز نائب جديد للملك - وليبرالي - من القطار في محطة تيفليس «بين العصابات الزاحفة والقبعات الممتازة والكتفيات الذهبية والخطابات المنمّقة». كان الكونت إيلاريون فورونتسوف - داشخوف، البالغ من العمر ثمانية وستين عامًا، وهو «صاحب خيول ومستثمر في النفط وسليل عائلات أرستقراطية عريقة»، متزوجًا بالأميرة فورونتسوف المتحدرة من إحدى النسيبات المعروفات لكاثرين، زوجة العظيم الأمير بوتيمكين. كان صديق العائلة والوزير السابق في بلاط القيصر،

منفتحا وعادلًا: أول نشاطاته تعيين ليبرالي ليحكم غوريا. لكن الكونت فورونتسوف - داشكوف متأخر ومتناقض جدًا مع نفسه. في معركة موكدين الوحشية في مانشوريا، خسرت جيوش القيصر عشرات الآلاف من الجيوش الفلاحين، وفشلت في التغلب على اليابانيين. في 27 أيار/مايو، الأسطول البلطي الروسي، بعد هذه الرحلة الوهمية حول العالم التي نجح خلالها فقط في إغراق سفينة صيد إنكليزية في البحر الشمالي، سيّره اليابانيون بطريقة مذلّة في معركة تسوشيما. حتى أنه تم أسر أميرال الأسطول. هزت هذه الكوارث الامبراطورية. ذُبح اليهود في مذابح منظمة. و في 14 حزيران/يونيو، تمرّد طاقم سفينة المعركة الأمير بوتيمكين من توريدا، تحفة أسطول البحر الأسود.

في غضون أيام من وصوله، واجه الكونت فورونتسوف - داشكوف انهيار سلطته والعصابات المسلحة في تيفليس والإرهاب في مستودع السكك الحديدية وحمام دم آخر في باكو. واستطاع الكونت بصعوبة اختبار غرائزه الليبرالية مع وحشية الواقع، بينما أطلق جنرالاته والقوزاقيون غارات مميتة على الراديكاليين في تيفليس. واجه في فترة وجيزة ساحة حرب مفتوحة وإرهابًا بريًا وطفحًا من العمل الصناعي. وكتب مؤرخ «في العام 1905، أضرب الجميع[212]، من قرّاء الكف إلى المومسات».

* * *

في 9 حزيران/يونيو، توفي ساشا تسولوكيدزي، الأمير الأحمر المحبوب من ستالين، بمرض السل. جذب المأتم في القتيسي 50

ألف شخص، لحقوا التابوت المفتوح إلى خوني، وهم يغنون النشيد الوطني الفرنسي. وعلى الرغم من أنه كان مطلوبًا من العدالة، قدّم ستالين خطاب الجنازة، وهو خطاب عاطفي يمكن أيًا من الحضور ترداده بعد ثلاثة عقود[213].

عاش سوسو الشهير في جنون في ذاك الوقت، متوجهًا شرقًا إلى تيفليس، وغربا إلى باتومي، ثم إلى قتيسي، قائدًا زمرة المعركة. قال البارون بيبنيشفيل، وهو إرهابي بولشفي بنفسه «يحتاج الإرهاب إلى نسب ضخمة». ويبدو أن كل ثائر شاب كان يشغل نفسه بالمعدات المتفجرة، ويسرق الأسلحة، ويسطو على المصارف.

«كل يوم تقريبا هناك «اغتيال سياسي»، أو هجوم على ممثل للنظام السابق». قُتل أصحاب الأراضي والدرك والموظفون والقوزاقيون والأشباح والخونة بشكل منتظم، في وضح النهار. في تيفليس، نجا المحافظ العام السابق غوليتسين من محاولة اغتيال طاشناق أرمنية فقط لأنه يرتدي درع المزرودة. وبين شباط/فبراير 1905 وأيار/مايو 1906، أخطر النائب الامبراطور باغتيال 136 موظفًا وإصابة 72 موظفًا. وفي كل أرجاء الامبراطورية، قُتل أو أصيب 3.600 موظف - هذه الأرقام الرسمية يُرجَّح أنها أقل من الأرقام الواقعية -. وفي باكو، قتل المحافظ، الأمير ناكاتشيدزي، على أيدي الطاشناق، ورئيس الشرطة على يد قاتل بولشفي.

شرح صديق ستالين في غوري دافريشوي «كانت هنالك منافسة

محتدمة بين مختلف الأفرقاء في سلوكهم الإرهابي الغريب». في قتيسي، أمر سوسو بأن تحصل زمرة المعركة على الأسلحة باقتحام ترسانة القتيسي. استأجروا منزلًا مجاورًا وحفروا تحته، لكن النفق انهار.

بعد الأحد الدامي وسلسلة من المجازر في تيفليس، أصبح القوزاقيون محط كراهية تحديدًا. أمر ستالين كامو وإرهابييه بأن يهاجموهم. بين 22 و25 حزيران/يونيو، أطلقت القذائف خمس مرات على فرسان القيصر.

في قصره الأبيض في تيفليس، كان نائب الامبراطور في العقد السابع من عمره، وقد ذهبت أحلامه الكبيرة أدراج الرياح، على حافة الانهيار العصبي، بينما في هرج الثورة ومرجها، بعيدًا تحت أقدامه، ازدهر ستالين في جو يغلي من النضال القاسي. ازدهر المتوحشون والسفاحون الأميّون مثل كامو دائمًا في زمن الحرب، لكن ستالين كان غير اعتيادي: ماهرًا في النقاش والكتابة والتنظيم، كما في ترتيب الضربات والسرقات. كانت القيادة والتسخير والتسبب في الاضطرابات، اختصاصه.

وأعلن نائب الامبراطور القانون العرفي وسلّم السلطة إلى جنرالاته[214].

* * *

كان مرة كاهن شاب في قرية تسيفا، بين شياتورا ومحطة في جيروال، في بازار، عندما حيّاه رجل مجهول. قال «أنا كوبا من

غوري. لست هنا للتبضّع. هنالك مسألة خاصة أود مناقشتها معك». أخذ ستالين الأب كاسيان غاتشيشيلادزي جانبًا[215]. قال ستالين إنه يعرف أن الكاهن يملك بعض الحمير، وسأله كيف يعبر الهضاب في اتجاه شياتورا، مضيفًا «لا أحد يعرف هذه المنطقة أفضل منه».

أدرك الكاهن أن الغريب المشؤوم يعرف الكثير عنه وعن عائلته الصغيرة. كما لاحظ أن سفاح رجال الشرطة وقاتلهم في حمأة المعركة الحمراء، يقف كحارس خارج البازار. «لم يكن هنالك شرطة في تسيفا، فكانت الزمرة الحمراء موكلة بالأمن». «كوبا من غوري»، من الواضح أنه رئيس عصابة حمراء، طلب بكياسة استعمال حمير الكاهن وقدّم مبلغًا كبيرًا من 50 روبلًا لتحديد مسلكه على الهضاب. خفف المال من قلق الكاهن.

شدد ستالين على أخذ الكاهن لاحتساء مشروب في الحانة المحلية.

قال قبل أن يختفي «سيعلمونك مسبقًا متى سآتي. أبتاه، لا تتأخر: أريد أن أقوم بالرحلة إلى هناك وأعود في يوم واحد. كلانا شاب».

سمع الكاهن بسرعة الأمر. وعاد ستالين مع تابعين أمينين ساعداه على تحميل عدل الخرج على الحمير وهي تحوي على المال والمطبوعات ومن المرجّح الذخائر.

عرف ستالين أنه غالبًا ما كان يتم تفتيش المواكب باتجاه شياتورا، واستنتج أنها الوسيلة الأكثر أمانًا للوصول إلى «القلعة

البولشفية».

تحادث الكاهن وتلميذ الثانوية السابق، وهما تحديدًا في العمر نفسه، بينما كانا يشقان طريقهما ببطء. ألقى ستالين أحيانًا تحت الشجرة رأسه على ركبة الكاهن ليأخذ قيلولة. خلال ديكتاتورية ستالين، أمل الأب غاشيشيلادزي لو أنه قتل رفيقه، لكن في ذاك الوقت، يقول الكاهن إنه «أثّر في الجميع. حتى أنني أُعجبت به.

كان مكبوتًا وجديًا ولائقًا. حتى أنه كان يلقي الشعر أمامي»، مضيفًا أن القصائد من تأليفه. ما زال يفتخر بأنه شاعر.

تباهى ستالين، الذي نادرًا ما تكلم في السياسة، بأن «بعض قصائده قد نُشرت حتى في الصحف»، لكنه ادعى أن «الشرطة تلاحقني لأن صديقي تشاجر في شياتورا بسبب فتاة، وأنا دعمته بشكل مفرط». وعرض يده المتيبّسة كدليل على هذا الشجار (وهذه من رواياته المتعددة). كان ستالين يصلّي قبل كل وجبة طعام. ضحك «أرأيت، ما زلت أتذكره». وغنّى، بينما كانا يسيران. فكّر في أن «الموسيقى لديها قوة لاسترخاء النفس!».

دعا فلاح الكاهن والثائر إلى تناول الطعام. غنى ستالين السكران «بنعومة مخملية»، إلى درجة أن الفلاح أراد «أن يزوّجه بابنته».

مدحه الكاهن: «كنت لتكون كاهنًا عظيمًا».

«أنا نجل الإسكافي، تنافست مع أولاد النبلاء، وتفوّقت عليهم جميعًا».

عندما وصلا إلى شياتورا، اختفى ستالين مع الحقائب في البازار، وعاد يحملها فارغة، وقال: «أستطيع الآن على الأقل أن أريح رأسي عليها في طريق العودة».

تشبه حياته السرية في العام 1905، مشهدًا من فيلم سرقة مكسيكي، لأنه، في الصيف الثوري ذاك، قاد الرئيس المسلّح خيولًا لتحميلها عدل الخرج المؤلف من الرصاص المسروق والأوراق النقدية على الهضاب الحارة إلى شياتورا[216].

* * *

في تيفليس، تشاجر القوزاقيون والإرهابيون على الشوارع. التقى الآلاف في قاعة المدينة في ساحة يريفان يوميًا، وضعوا الأسوار حول مجلس المدينة، واقترحوا تدابير صارمة أكثر من أي وقت مضى. في 29 آب/أغسطس، عُقد لقاء عام للطلاب لمناقشة اقتراح نيكولاي الثاني عن برلمان مساومة يوضع بعد الاعتداء الغاشم على وزير الداخلية بوليجين على أيدي القوزاقيين، الذين دخلوا القاعة وهم يطلقون الرصاص. قُتل ستون وأصيب 200 شخص.

سارع ستالين بالعودة إلى تيفليس للقاء حليفه شوميان والتخطيط، لرد على الورق، وبالديناميت. كتب ورقة وتسابق إلى شياتورا وعاد من جديد في الوقت المحدد للتنسيق لانتقام مشهدي، حدد في 25 أيلول/سبتمبر. قال دافريشوي «عند عودة ستالين، أعطيت الإشارة: أشعل منارة حمراء على قمة الجبل المقدس. وعند قرابة

الساعة الثامنة مساءً، فتح أفراد العصابة النار خارج الأسوار الرئيسية... عندما قفز القوزاقيون، قذفت القنابل اليدوية والعبوات الناسفة بين قتلة الأطفال». أطلق إرهابيو ستالين تسع هجمات متزامنة.

كان قتلة البولشفيين والمنشفيين ومحرضوهم، يتعاونون أصلًا في الشوارع. في 13 تشرين الأول/أكتوبر، التقى ستالين والبولشفيون بالمنشفيين، واتفقوا على تنسيق سياساتهم والإرهاب لمضاعفة الضغط على «حكم القيصر الفرد»، الذي بدا على شفير الانهيار. وفي كل أنحاء الامبراطورية، انتخب العمال والجنود المجالس أو «الوفيات»، والأشهر في بطرسبرغ. ثار الفلاحون في الريف، بينما تفاقم في 6 تشرين الأول/أكتوبر إضراب في السكك الحديدية بين موسكو وكازان، إلى توقّف عام في الامبراطورية. بدا أن عهد القياصرة ولّى.

كتب سوسو «ستأتي عاصفة على روسيا في أي يوم بفيضان مطهّر جبّار، يجرف كل قديم وفاسد ويكتسحهما».

* * *

في سان بطرسبرغ، أُجبر نيكولاي الثاني، الذي يعتبر هواؤه السياسي الأكثر حساسية كالحجر، على أن يفهم أنه شارف على خسارة مملكته. كان مستعدًا لعقد السلام مع اليابان، لكن التنازلات السياسية ضربت عرض الحائط بقناعاته العميقة بحكم الفرد المقدّس. حسد وزراءه الأكثر قدرة، وكرههم، لكن والدته وأخواله أجبروه على استشارة وزير المالية السابق اللامع سيرغي ويتي.

قبل الذهاب لعقد السلام مع اليابان في بورتسموث، في نيوهامبشير، تحت رعاية رئيس الولايات المتحدة تيدي روزفلت، طلب ويتي من القيصر بحزم، وكان يستخف به، أن يبرم دستورًا. ارتعش نيكولاي الثاني، ثم طلب من نسيبه الطويل والباسل، الدوق الكبير نيكولاي نيكولايفيش، أن يصبح ديكتاتورًا عسكريًا.

وبينما ترنّح حكم الفرد رومانوف، لمع ستالين للمحة كقائد عصابات ينشر الموت في الشوارع الخلفية لمدينة تيفليس[217].

(15)

1905: المقاتلون والأولاد الأشرار والخيّاطون

في إحدى الليالي في تيفليس، في أواخر العام 1905، سمع جوزيف دافريشوي، صديق ستالين من غوري، الذي ترأس في هذه الفترة الجناح المسلّح لحزب الفيديراليين الاشتراكيين الجورجي، قتالًا في الشارع الخلفي على أقدام الجبل المقدّس. فوجد كامو، منفّذ طلبات ستالين، يهدد أرمنيًا مجهولًا بمسدسه، ويقول «إذا لم ترجع الأوراق النقدية إلى الصندوق الذي كان عليك حراسته، فستكون في عداد الأموات! فكِّرْ في الأمر! سأعدّ للثلاثة. واحد... اثنان... حذار صديقي...

ثلاثة!».

أسرع دافريشوي وحجز أسلحة كامو. «ليس هنا، أيها المغفّل. ليس في هذه المنطقة. تعلم بأننا ندير كل الأمور هنا». كانت هذه الشوارع خاضعة لحكم ميليشيا دافريشوي. لكن كامو «المتحمّس جدًا»، أفلت، وأطلق الرصاص على الرجل الآخر ثلاث مرات.

قال دافريشوي «عند الطلقة الثالثة، ركض كلانا». انزلقت الضحية التي تحتضر وهي تنزف على الرصيف.

سأله كامو عندما أصبحا بأمان «بالله عليك، ما شأنك في عملنا؟ سيغضب كوبا. تعلم بأنه لا يتكيّف دائمًا». لم يكن دافريشوي أيضًا مسرورًا بما حصل: «أصبح «جواره» يغصّ برجال

الشرطة. لكن لم تكن هذه خاتمة القصة».

أرسل ستالين كامو لدعوته إلى لقاء. وعندما التقيا، «وبّخه دافريشوي لمقتل الأرمني في الجوار، حيث نحافظ على الأمن».

أجاب ستالين بهدوء «اسمعني. لا تقلق بشأننا. قام كامو بما يجب فعله، وعليك بالأمر نفسه. الآن لدي اقتراح لك: تعال وانضم إلينا. اترك الفيدراليين. نحن من قدامى غوري، أنا معجب بألعابنا وأتذكّرها. تعال، ما دام الوقت متاحًا؟ وإذا لم تفعل...».

سأله دافريشوي «إذا لم أفعل، ماذا يحصل؟».

«لم يجب ستالين. لكن عينيه تقلّصتا، وأصبح تعبيره أخشن»[218].

* * *

في هذا الوقت، حين حطّمت الأحداث العالم، دخل ستالين حياة العائلة الأخرى، بمعزل عن آل أليلوييف، ومصيرهم تداخل مع مصيره. طلب من معلّمه، سفاندزي، أن يجد له مكانًا ليعيش فيه[[219]]. عرف سفانيدزي، الذكي، الأشقر، وصاحب العينين الزرقاوين، المكان المناسب. كانت الشقة في بيت المدينة في شارع فريلينسكايا، الرقم 3، مباشرة وراء المقر الرئيسي العسكري في وسط تيفليس، قرب ساحة يريفان. كان للمكان عدة منافع: أولًا أنه مكتظ بالفتيات الجورجيات الحسناوات. كانت شقيقات سفاندزي الثلاث، ألكسندرا (ساشيكو) وماريا (ماريكو)

وإيكاتيرينا (كاتو)، معنيات بإدارة مشغل هيرفيه، وهو معمل خياطة مزدهر يحمل اسم مصممة الأزياء الفرنسية مدام هيرفيه، لصناعة البذلات والأثواب.

كانت الفتيات من راشا (غربي جورجيا)، الشهيرة بجمالها الهادئ والمحبّب. تزوّجت ساشيكو مؤخرًا بميخائيل مونوسيليدزي، وهو بولشفي عرف ستالين من الثانوية، لكن الفتاتين الأخريين كانتا عازبتين. الصغرى كاتو، سمراء «فاتنة الجمال». كان مشغلهن للخيّاطات الشابات، مكانًا أنثويًا بامتياز.

في أحد الأيام، أخذ سفانيدزي مونوسيلدزي جانبًا و«قال إنه يريد أن يجلب الرفيق سوسو دجوغاشفيلي ليمكث معنا، وقال لي ألا أخبر شقيقاته بشيء. فوافقتُ»، بحسب ما قال مونوسيليدزي.

كتبت زوجته ساشيكو «في العام 1905، دعا أليوشا رفيقا اعتبره الجميع قائد الفصيل البولشفي ليمكث عندنا. كان يرتدي ثيابًا رثة، ونحيلًا بمظهر الزيتون، ووجهه فيه بعض الهزمات، وهو أقصر من معدّل الطول: هو سوسو دجوغاشفلي».

يتذكر ميخائيل مونوسيليدزي «كان مكاننا بمنأى عن شكّ الشرطة. وبينما كان رفاقنا يحيكون الأعمال غير الشرعية في غرفة واحدة، كانت زوجتي تخيط أثواب زوجات الجنرالات في الغرفة المجاورة». كانت غرفة الانتظار عادة مكتظة بالكونت والجنرالات وضباط الشرطة: المنزل والمقر الرئيسي الأمثل لرئيس عالم الإجرام.

الحقيقة أن ستالين عقد العديد من اجتماعات العصابات

والإرهابيين في مشغل مدام هيرفيه، وخبأ أوراقه السرية في أجسام تماثيل عرض الأزياء.

تتذكر ساشيكو «كان سوسو يجلس ويكتب طوال أيام ليعد المقالات لبردزولا وصحيفة «أخالي تسخوفريبا» (الحياة الجديدة)، بتحرير مونوسيليدزي. في الأمسيات، يُنهي عمله ويختفي، ولا يعود حتى الساعة الثانية أو الثالثة فجرًا». كان المقر الرئيسي لستالين هو مستشفى ميخايلوفسكي على ضفاف كورا، حيث أدار مطبعة في الدور التحتاني. في هذه الأوقات الخطرة، يقول دافريشوي إن ستالين «كان مستعدًا دومًا ليصوّب سلاحه». لكن كان لديه متّسع من الوقت للعبث مع النساء وألاعيب ستالين الوحشية.

عندما بقي بيمين دفالي، نسيب بولشفي لآل سفانيدزي، نام طوال النهار.

تذمّر ستالين، «ما عسانا نفعل به؟»، وهو يهزّه. استفاق دفالي. وسأل ستالين بسخرية «هل من أمر يزعجك؟».

أجاب النعسان، وهو يقع في سبات خفيف مجددًا، «كلا، عزيزي سوسو». «ذهب ستالين إليه، ولفّ أوراق السيجارة، ووضعها بين أصابع بيمين، وأشعلها. احترقت أصابع بيمين وقفز من نومه. فضحكنا!»[220].

جلس ستالين وقرأ الكراسات الاشتراكية، أو الروايات على مسمع الشقيقات والخياطات، بحسب ما تقول ساشيكو، «أو يقول النكات،

ويؤدي دور المجنون أو يضايق من جديد بيمين النائم». في إحدى المرات، وبينما كان أهل الفتيات يزرن قتيسي، «غنى ستالين أغنية رومانسية بمشاعر جياشة حتى سحر الجميع، على الرغم من أنهم لاحظوا أنه قاس ومكرَّس للثورة»، وفق إحدى نسيبات كاتو. ولأن ستالين، كان يقوم بألعاب قوة مؤذية. في أحد الأيام، طالبت الخياطات فجأة بأجر أعلى. يشرح مونوسيليدزي «تفاجأت زوجتي وكاتو لأن هؤلاء النساء يعملن في ظروف جيدة. لكن اتضح لاحقًا أنَّ: سوسو حرّضهن على ذلك. تسلّينا وسوسو أيضًا...».

سحرته كاتو تحديدًا، الأصغر والأجمل[221].

* * *

بعيدًا عن مشغل سوسو في تيفليس، في بلاط آل رومانوف، قال الدوق الكبير نيكولاي للامبراطور إنه يفضّل أن ينتحر على أن يصبح ديكتاتورًا عسكريًا. لم يبق لنيكولاي الثاني سوى بضع خيارات. في 17 تشرين الأول/أكتوبر، وافق بمرارة على أن يمنح روسيا أول دستور في تاريخها، وبرلمانًا منتخبًا، «الدوما الامبراطورية»، وصحافة حرة. ندم نيكولاي بعد فترة وجيزة على كرمه هذا: سرّع بيانه نزفًا من الاضطرابات الغامرة والعنف الهمجي في كل أصقاع الامبراطورية.

في اليوم التالي على بحر قزوين، اشتعلت المخازن المزوّدة

بالبارافين في باكو، بالمعنى المجازي والحقيقي. ثأر الأرمن، بقيادة الطاشناق المسلّحين جيدًا، من أعمال التخريب والقتل في شباط/فبراير، وتوجهوا إلى الريف لذبح سكان القرى الأذرية. اشتعلت حقول النفط بسرعة. في روسيا بذاتها، ذُبح 3.000 يهودي في انغماس في أعمال التخريب والقتل بلغت أوجّها في شوارع أوديسا.

كان ستالين في جادات تيفليس: «عجّت الشوارع بحشود المتظاهرين، الذين يرفعون رايات الثورة وجورجيا الحرة. تجمّع حشد كبير أمام بيت الأوبرا، وتحت سماء مشمسة خضراء بلون الزمرد، غنوا أغاني الحرية»، كما يتذكر جوزيف إيريماشفيلي. يتذكر مشارك آخر أن الحماسة كانت «كبيرة، بحيث إن امرأة ترتدي الملابس الثرية خلعت قميصها الأحمر... وصنعت راية حمراء مرتجلة». لاحظ إيريماشفيلي صديقه ستالين. «رأيته يتسلّق سطح الترام ويومئ؛ بينما يتوجه إلى الحشود».

لكن حماسة ستالين كانت مضبوطة بالارتياب من مساومة القيصر: لو حلق له أكثر، لسقط العرش الفاسد بالتأكيد.

كتب ستالين كانت الدوما «تفاوض على ثورة الشعب». «هشّم هذا الشرك، وشنّ نضالًا ضاريًا ضد الأعداء الليبراليين في صفوف الشعب». خسر الامبراطور روسيا.

ولاستعادتها، عليه أن يبدأ من جديد و«يفتح روسيا غير المحدودة للمرة الثانية»[222].

* * *

كان ستالين وأصدقاؤه، آل سفانيدزي وآل أليلوييف، يعيشون أوقاتًا مميزة: لم يحكم نائب الملك سوى تيفليس الوسطى ومواقعها العسكرية. تقول آنا أليلوييف في بقية المدينة، «كان العمال المسلحون يخفرون الشوارع كالميليشيات الشعبية. كان الأصدقاء الجدد الذين ظهروا في ضواحي تيفليس على الجياد الصغيرة والقصيرة والهزيلة، يتفوقون على قواتهم. كنا نتوقف دائمًا للتمتع بمشاهدة هؤلاء الفرسان الماهرين بقلنسواتهم ومعاطف جلد الغنم الكبيرة والأحذية الجلدية العالية والناعمة... الفلاحين والرعاة من الهضاب»[223]. كان سوسو يبتهج في الدراما. كتب «رعد الثورة يهدر! نسمع نداء الشجاع... الحياة تغلي!»[224].

في الشوارع، قاد دجيبلادزي الميليشيات المنشفية. شكّل ستالين وتسخاكايا وبودو مديفاني، القيادة العليا للبولشفيين. كانت الفصائل متحالفة. كل فصيل يحكم جواره العامل[225]. كتب تروتسكي «كانت ضواحي تيفليس في أيدي العمال المسلحين». كانت ديدوبي ونادزالاديفي حرتين، فأطلق عليهما اسم «سويسرا». لكن حتى بعد عام على العقيدة، كان ستالين لا يزال ينحرف نحو النسخة الجورجية للماركسية، التي هوجمت في لجنة الاتحاد. وقد فقد سيرغو كافتارادزي الصعب المراس، أعصابه، وهو أحد أتباعه من قتيسي، فنعت ستالين «بالخائن».

أجاب ستالين بهدوء «لا أسعى إلى الشجار حول هذا الموضوع.

قم بما يحلو لك!»، ثم أشعل سيجارة وبدأ يحدّق من دون أن يرف له جفن مباشرة في عيني كافتارادزي. ويرجّح أنهما انتقلا إلى التلاكم بعد اللقاء. رمى كافتارادزي مصباحًا على ستالين[226][227].

استضافت الشقيقات سفانيدزي مسرحية لجمع التبرعات للقضايا الراديكالية، وعرّفن مينادورا توروتشيليدزي، إلى ستالين، وهي قد تأثرت بخطابه. قال «أيها الرفاق هل تظنون أننا نستطيع التغلب على القيصر بأيد فارغة؟ أبدًا! نحتاج إلى ثلاثة أمور: أولًا، الأسلحة؛ وثانيًا، الأسلحة؛ وثالثًا، المزيد من الأسلحة أيضا وأيضًا!». فخطّط لامتلاكها. قال دافريشوي «أولى ضرباته - وأكثرها وقاحة - نهب ثلاث ترسانات أسلحة في تيفليس في وضح النهار. في هذه الفترة، الكل يتسلّح مهما كلّف الأمر، أو بأي وسيلة كانت!»[228].

رفعت المجازر في باكو وأعمال التخريب والقتل في أوديسا، حدة التوتر في جورجيا. اندفع ستالين متنقلًا بين باكو وتيفليس، بينما حاولت العصابات الإجرامية في المدينتين اقتحام السجون. بدا أن الثورة اقتربت من الغلبة. في بطرسبرغ، تحدّت جلسات السوفيات، بقيادة تروتسكي، القيصر، معززة نفسها بصفاقة كحكومة موازية[229]. وفي موسكو، عززت الميليشيا البولشفية معامل بريسنايا الكهفية. لكن كاد ينقلب السحر على الساحر: دعم القيصر، الذي يخطط للانتقام، الوطنيين المعادين للسامية الذين

يسمون «حركة البلاك هاندريد» أو «المئات السود»، الذين نظموا عصابات الموت لقتل اليهود والاشتراكيين في كل أرجاء روسيا. كان الجنرالات المتشددون في الطليعة المهيمنة وتجمّعت الجيوش. في جورجيا، أمر الامبراطور اللواء أليخانوف - أفارسكي، بأن يسحق الفلاحين في غوري وعمال المناجم في شياتورا: كان القوزاقيون قادمين.

في 22 تشرين الأول/أكتوبر، قتلت الحركة الروسية («المئات السود») سبعة تلاميذ جورجيين في مدرسة تيفليس الضخمة. وفي القتال اللاحق، قضى واحد وأربعون شخصًا نحبهم وأصيب خمسة وستون. ورد إرهابيو ستالين بشكل متكرر على القوزاقيين الروس و«المئات السود»[230].

في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، اندلع شجار في البازار الأرمني في تيفليس بين الأرمن والآذريين (الآذربيجانيين) قُتل خمسة وعشرون مسلمًا. نشر ستالين والاشتراكيون الديموقراطيون عصاباتهم لإبعاد الأطراف المتنازعة عن بعضها البعض، اقتناعًا منهم بأن الأوخرانا قد أثارت النزاع. كانت تيفليس «كالمرجل تغلي»، كتب تروتسكي، على شفير الحرب الأهلية. وقدّم نائب الملك اليائس، معترفًا بخسارته لزمام الأمور، إلى دجيبلادزي المنشفي، 500 بندقية لحفظ السلام. حافظت حركة زمرة المعركة على الطرفين متباعدين، لكن رفضت إعادة الأسلحة.

لاحظ دافريشوي أن العصابات البولشفية لم تشارك، لأنه، من دون ستالين، لا يستطيع كامو أن يحدّد ماذا يفعل. و«خلال

النزاع، لم يكن ستالين في تيفليس». أين كان[231]؟

بينما استعد نيكولاي لاسترجاع امبراطوريته المضطربة، ووصل مد الثورة وجزرها إلى أعلى منسوب له، سافر ستالين إلى فنلندا للقاء «نسر الجبل» للمرة الأولى: لينين.

(16)

1905: **نسر الجبل: ستالين يلتقي بلينين**

فكّر ستالين «كنت مسرورًا بلقاء نسر جبل حزبنا، وهو رجل عظيم، ليس فقط من الناحية السياسية بل الجسدية أيضًا، لأن لينين قد ترسّخ في خيالي كمارد جليل ومهيب». في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1905، انتخب لقاء الحزب ستالين واثنين آخرين لتمثيل القوقاز في المؤتمر البولشفي في سان بطرسبرغ. وبدأ ستالين تقريبًا في 3 كانون الأول/ديسمبر، مستخدمًا لقب «إيفانوفيتش»، رحلة إلى عاصمة الامبراطورية... للقاء لينين.

سافر سوسو ومندوبوه الرفاق شمالًا بالقطار، بينما أطلق القيصر العنان للحركة الارتجاعية: أوقف تروتسكي وجلسات السوفيات. أخطر ستالين، وفق التعليمات، مكاتب بطرسبرغ لصحيفة الاشتراكيين الديموقراطيين، «نوفايا زهيزن» (الحياة الجديدة)، لكنّها هوجمت. طاف الجورجيون في الشوارع حتى التقوا صديقًا في نوفسكي بروسبكت. من المعالم الملحوظة في هذه الفترة أن غريبًا كستالين يستطيع أن يتجوّل في البولفار الرئيسي للعاصمة ويلتقي شخصًا يعرفه. وقد جرى ذلك مرارًا وتكرارًا. لكن كان الوقت قصيرًا لملاحظة أي شيء غريب. قدّم الصديق إليهم المأكل والمسكن ليومين، حتى وجدوا زوجة لينين كروبسكايا، التي أعطتهم المال، والأسماء الرمزية، وبطاقات السفر إلى المكان الجديد، تامرفور، في فنلندا، الدوقية الكبرى شبه المستقلة

التابعة للقيصر، حيث نجت حريات العام 1905 لعام إضافي.

غادر ستالين والمندوبون البولشفيون الأربعون الآخرون، متنكرين بشكل رديء، كمعلمين في يوم الرحلة، بطرسبرغ في القطار، ووصلوا إلى تامرفور (الآن تامبر) عند الساعة 08: 9 صباحًا في 24 كانون الأول/ديسمبر، وتسجلوا في فندق بوير من المحطة: تشارك العديد منهم الغرف. تتذكر كروبسكايا:

«كم كان الجميع متحمّسًا! وصلت الثورة إلى ذروتها، وتعاطى كل رفيق مع هذا الموضوع بحماسة تامة».

في صباح اليوم التالي، يوم عيد الميلاد، افتتح لينين المؤتمر في قاعة الشعب حيث اتخذ الحراس الحمر الفنلنديون - رجال الميليشيا العمالية البولشفية - مقرًا لهم[232]. انتظر ستالين ليرى بطله، متوقعًا منه أن يتأخر، وقد حافظ على أتباعه في استباق جذل: اعتبر أن هذه هي الطريقة التي يجب على القائد أن يتبعها في سلوكه. لكنه اندهش من أن لينين كان هناك «باكرًا، يتحدث إلى المندوبين العاديين جدًا!». وهل كان ماردًا جبارًا؟ «تخيّل خيبة أملي عندما أرى الرجال العاديين جدًا دون متوسّط الطول، لا يختلفون بشيء عن الناس العاديين».

* * *

غير مؤثر كشخص، لكن استثنائي من حيث الشخصية. كان فلاديمير إيليه إليانوف، المعروف بلينين، قصيرًا وممتلىء الجسم، وأصلع باكرًا مع تورّم، جبينه قوي وعيناه مائلتان ونظراته ثاقبة.

كان عبقريا، وضحكته معدية، لكن حياته خاضعة لتفانيه المتعصّب للثورة الماركسية التي كرّس لها ذكاءه، وبراغماتيّته التي لا تعرف الشفقة، وإرادته السياسية العدائية. وبالعودة إلى تيفليس، قال ستالين لدافريشوي إن ذلك مزيج لينين من القدرة الفكرية والعملية التامة التي جعلته مميزًا «بين كل الثرثارين».

نبيل بالوراثة من الطرفين، تربّى لينين في محيط عائلي محبّ. كان والده مفتّش المدارس في سيمبيرسك، ووالدته كريمة الدكتور المالك للأراضي الذي رفع إلى منزلة مستشار الدولة. لينين المتحدّر من اليهود والسويديين والتتر الكالميكس (الذين يَدين لهم بعينيه المائلتين)، كان يملك ثقة النبيل المستبد[233] : حتى كشاب، قاضى الفلاحين، لأنهم أضرّوا بممتلكاته. وما يساعد على شرح ازدراء لينين لروسيا القديمة، كانت «مغفلو روسيا» الشتيمة المفضّلة لديه. وعندما انتقد لنبالته، أجاب: «ماذا عنّي؟ أنا سليل ملاك أراض... لم أنس بعدُ الأوجه المبهجة من الحياة على أرضنا... فهيا، أعدموني! ألا أستحق أن أكون ثائرًا؟». لم يحرجه قط العيش من دخل ممتلكاته.

انتهت القصيدة الرعوية البسيطة في ممتلكات العائلة في العام 188 عندما أعدم شقيقه الأكبر ألكسندر، وغيّر هذا كل شيء. لينين المعيّن محاميًا في جامعة كازان، حيث قرأ شيرنيشيفسكي ونيشاييف، تشرّب نظام إرهابيي الثورة الروسية حتى قبل أن يعتنق الماركسية. وبعد التوقيف والنفي إلى سيبيريا، انتقل إلى أوروبا الغربية، حيث كتب «ما العمل؟» What is

.to be Done

كانت كلمات «البذيء» و«اللقيط» و«القذر» و«العاهرات» و«المغفلون المفيدون» و«المخبول» و«الخادمات الكهلات السخيفات»، من الشتائم التي يملأ بها رأس أعدائه. هو الذي يمرح في القتال، عاش حماسة هوسية بالذبذبة السياسية، بدفع من غضب عارم وإكراه للسيطرة على الحلفاء، وتحطيم المعارضة.

نادرًا ما اهتم بالفنون أو الرومانسية الشخصية. كانت كروبسكايا الصارمة صاحبة عيني الحشرة، مديرة وعاملة يدوية أكثر منها زوجة، لكنه انخرط في علاقة غرامية جارفة مع الجميلة الغنية والمتحررة والمتزوجة، إينيسا أرمان. وما إن تسلّم مقاليد الحكم، حتى أشبع لينين رغباته في علاقات غرامية صغيرة مع سكريتيراته، وفق ستالين، الذي ادعى أن كروبسكايا اشتكت منهن إلى المكتب السياسي، البوليتبورو. لكن كانت السياسة كل شيء بالنسبة إليه.

لم يكن لينين متحدثًا لامعًا. يصعب سماع صوته، ولا يستطيع أن يلفظ «الراء» إلا «بعد دقيقة». كتب غوركي عندما رأى لينين للمرة الأولى في هذا الوقت، «أنا، كأي شخص آخر، كنت مأخوذًا... بينما سمعت مسائل سياسية معقدة يتم التعامل بها ببساطة كبيرة». شاهد ستالين لينين وهو يتحدث «فجذبته قوة المنطق التي لا يمكن مقاومتها، برغم أنها مصقولة في بعض الأحيان، وقد أخضعت الحضور بالكامل، وكهربتهم تدريجيًا، ثم حملتهم كليًا!».

* * *

لكن، لم يكن ستالين قط مأخوذًا بالحب، إلى هذه الدرجة، فخاف معارضة لينين. لم يُدرَّب كسياسي، لكنه تميّز بالشخصية المتغطرسة والمشاكسة. حالما رأى مرة «نسر الجبل»، عرّف عن نفسه. دعاه لينين إلى رفع التقارير عن القوقاز، لكن عندما ناقشا الانتخابات في دوما الامبراطورية، تصادما. نادى لينين بالمشاركة في الانتخابات، لكن ستالين الشاب وقف وهاجمه بحدة. وعمّ الصمت في القاعة إلى أن بدد لينين الصمت بشكل غير متوقّع، مقترحًا أن يضع ستالين مسودّة القرار.

كتبت كروبسكايا «في المؤتمر، تعلّمنا كيف نصوّب» مسدس الموسر والبرونينغ والوينشستر. الحقيقة أن ستالين حمل مسدسًا. وبعد أحد النقاشات، يُفترض أنه استشاط غضبًا، وفي ثورة الغضب، أطلق النار في الهواء خارج القاعة، وهو جورجي متهوّر في حمى الفنلندي. لكن كان المؤتمر قد انتهى: برزت الميليشيا البولشفية في موسكو، في وقت متأخر، وفي تمرّد مفتوح. سمع المندوبون الآن أن حراس القيصر سيميونوفسكي، قد اجتاحوا بريسنايا بوحشية، وهي حصن العمال. وسالت الدماء في شوارع موسكو.

وتزامنا في تيفليس، استعدّ قائد القوقاز القاسي، الجنرال فيودور غريازانوف، والجنرال أليخانوف - أفارسكي، لاستعادة القوقاز، وتدمير زمرة المعركة. قال تروتسكي «جاء رد الفعل بسرعة فائقة!». انتهى المؤتمر إلى الفوضى.

اعتبر ستالين نفسه فوق كل المندوبين الآخرين[234]، باستثناء لينين. تباهى قائلًا «بين كل هؤلاء الثراثرة، كنت الوحيد الذي نظّم الرجال وقادهم في المعركة».

عاد سوسو أدراجه إلى تيفليس وسط المعركة[235].

* * *

تجمّع الجنرالات القوزاقيون، وطوقوا مقاطعة العمال، وحظروا الاجتماعات، وأمروا بإطلاق النار على الثوار عند رؤيتهم، ومنعوا أي شخص من ارتداء القبعات القوقازية أو العباءات التي تخفي الأسلحة. في 18 كانون الثاني/يناير 1906، باشر الجنرال غريازانوف بالاعتداءات. أمر جوردانيا وراميشفيلي مناصريهما، الذين شملوا كامو والبولشفيين، بالدفاع عن مقاطعة عمال تيفليس.

كان القتال مستمرًا في الشوارع عندما وصل ستالين إلى شقة سفانيدزي بعد حوالي أربعة أيام. شاهدت آنا أليلوييف الآن من نافذتها بينما القوزاقيون «تقدموا إلى الأمام، وأطلقوا النار في الليل. وبحلول الفجر، أتت الجيوش إلى ديدوبي وانطلقت خيول القوزاقيين بسرعة البرق عبر نوافذنا، وطوّق القوزاقيون الشوارع». اهتزّت تيفليس بسبب «إطلاق النار المتواصل وجلبة المدفعية والفرسان في الشوارع». قُتل ستون من الثوار وأصيب 2 وأوقف 280. تتذكر منحدرات التل الملتفّة بالأشجار كانت تعجّ بالجثث الهامدة. رأت «سجينين، واحدًا لديه دم على وجهه»، وصرخت عندما تعرّفت إلى «تلميذ ستالين المحبوب، والأكثر

شجاعة»: «كامو!».

بينما سحق غريازانوف تيفليس، أعاد الجنرال أليخانوف - أفارسكي اجتياح غربي جورجيا بوحشية. حاولت زمرة المعركة أن تسدّ نفق السكك الحديدية إلى قتيسي، لكن القوزاقيين أطلقوا النار ونهبوا وأشعلوا الحرائق وهددوا، بينما كانوا يتقدمون. أحكموا قبضتهم على قتيسي. يتذكر تسيننتسادزي «جيوشهم، التي قتلت أي شخص تعرّفت إليه، أشعلت الحريق في المدينة، وسرقت الحانات والمتاجر». تحوّل الغرب إلى «رماد وفحم». وعندما خسر كل شيء، حاول ستالين، المسافر غربًا، أن يقنع الفلاحين بأن يلقوا سلاحهم بدلًا من الموت، لكنهم لم يستمعوا إليه: «كنت ضعيفًا». ثم اتجه أليخانوف - أفارسكي شرقًا لإعادة اجتياح المنطقة الخلفية التي يغيب عنها القانون، والتي أحرقها أهلها قبل تسليمها، وهي باكو وحقول النفط المحترقة التابعة للقيصر.

رتّب تسيننتسادزي ورفيقه باتسيا غولدافا فورة قتل لكل الخونة المشتبه فيهم، الذين قتلوا قبل أن يتمكنوا من الفرار من تيفليس. لجأ المسلحون، الذين لاحقهم القوزاقيون في المحافظات، إلى العاصمة. لكن حطّت أيام زمرة المعركة التابعة لستالين أوزارها. عادوا إلى العمل السري تحت الأرض حيث أصلحهم وحوّلهم إلى زمرة سرية من السفاكين. كان قد أعدّ لهم المهمة[236].

* * *

بالعودة إلى تيفليس، تحت سوط القوزاقيين، التقى ستالين

والمنشفيون في عملية قتل. كان الجنرال فيودور غريازانوف - الملقّب بالجنرال شيتهيب (أي كومة النتانة)، وهو تلاعب لفظي على اسمه - «نعمسيس» الثورة الجورجية، أكثر الرجال المكروهين في القوقاز. استدعى ستالين رئيس السفاكين تسينتسادزي. أمر سوسو والمنشفيون، «العاملون معًا»، بشكل مشترك قاتلًا آخر لديهم، هو أرسين جورجياشفيلي، «الذي ينتمي إلى عصابات ستالين»، بقتل الجنرال بمساعدة كامو. لكن ستالين فوّض بالتزامن تسينتسادزي: «أعِدّ بعض الرفاق الجيدين، وإذا فشل جورجياشفيلي في أداء عمله خلال الأسبوع، نوكّلك بذلك». فشرع تسينتسادزي وقاتلان اثنان بارعان لدى سوسو، في مطاردة الجنرال، بينما سارعت المجموعة الأخرى إلى قتله أولًا[237].

في غضون بضعة أيام، أحبط اغتيالان. أُلغي كل واحد لأن الجنرال كان برفقة زوجته. وفي هذه الأثناء، أشرف غريازانوف على مجزرة أخرى في شوارع تيفليس.

في 16 شباط/فبراير، خرج الجنرال، المحاط بحراس قوزاقيين مثار حسد، من المقر الرئيسي العسكري، متجاهلًا بعض العمال الجورجيين الذين يطلون السكك الحديدة حول حدائق ألكسندر مقابل قصر نائب الملك. وبينما مرت عربته، ترك العمال الطلاء ورموا «الرمانات» - العبوات الناسفة التي صنعوها بأيديهم - على ثوبه، مفتّتين جزّار تيفليس إربًا إربًا. تعقّبهم القوزاقيون. لاذ القاتل بالفرار، لكن قُبض على جورجياشفيلي الجريح، وأُعدم،

وهو البطل الفوري في تيفليس.

من سواه كان في فريق القتلة؟ اتفق المؤرخون على أن المنشفيون هاجموا، لكن في الواقع كان الأمر ثمرة جهد مشترك. يشرح تسينتسادزي أن ستالين والمنشفيين عملا معًا في ذاك الوقت «في المنظمة نفسها». قال ستالين إن إرهابيًا أرمنيًا قد أُوكل بتنفيذ الضربة التي سُددت. يحدد دافريشوي أن القاتل الآخر كان كامو. في العشرينيات، عادت ملاحظاتهم تظهر مؤخرًا في الأرشيفات الجورجية. يبدو أن ستالين قد عهد المهمة إلى قتلة منشفيين وبولشفيين، على حد سواء.

ادعى عامل لاحقًا أنه رأى ستالين يراقب على مقربة من المحلة، ويبدو الأمر صحيحًا لأنه أصيب بشظايا القنبلة، أو عندما هرع للفرار من قبضة القوزاقيين.

تقول ساشيكو، في إحدى الليالي، لم يعد ستالين إلى البيت. قلقت الفتيات: هل اعتقل؟ ادعى لاحقًا أنه سارع ليستقل الترام، لأن الشرطة كانت تلاحقه، لكنه انزلق وأصاب نفسه كثيرًا، إلى درجة أن تسخاكايا أخذه إلى مستشفى ميخايلوفسكي وخبأه لدى بابي بوتشوريدزي، ثم في بيت آمن آخر، مستخدمًا جواز سفر صديق قديم. لكن بعد الاغتيال، أعلن حظر التجوّل في المدينة، ونشرت نقاط التفتيش في كل حدب وصوب. اقتحم الجنود الشقة ووجدوا «غيورغي بيرديزنوفشفيلي» (ستالين) في السرير والضمادات تلفّ رأسه، وضمادة أخرى على عينه اليمنى والكدمات والجروح تغطّي وجهه.

ارتبك الجنود الروس لأن أوامرهم لم تحدد ما العمل في حال وجدوا شخصًا مع ضمادات مستلقيًا على السرير. لكن بدا مريضًا جدًا ليتمكّن من التحرّك، فتركوه لاستشارة قادتهم، وأرسلوا كارة لأخذ المريض المريب إلى السجن. وبحلول هذا الوقت، كان المريض قد اختفى في الليل. لم تكن هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التي استخدم فيها خدعة الرجل الغامض بالضمادات للهروب من الشرطة.

في الظلام، تسلّل رفيق ستالين، «رأسه ووجهه المشوّه مخبأ في القلنسوة والمعطف الفضفاض الكبير»، في الفيتون إلى بيت آمن آخر.

وعندما ظهر ستالين في البيت مع قصة الانسحاب من مطاردة الفراعنة، اطمأنت الفتيات سفانيدزي، وتحديدًا كاتو. لاحظت ساشيكو وزوجها أن أمرًا ما يحصل بينهما. كتب مونوسيليدزي «عندما كان سوسو يعيش معنا، لاحظت أنا وزوجتي تدريجيًا أن سوسو وكاتو متحابّان[238] ...».

(17)

الرجل الرمادي:

الزواج والأذى المتعمّد (والسويد)

بمبادرة من ستالين ونزولًا عند أوامره، كما يقول أحد أبرز أفراد العصابة لديه، باشوا كوبرياشفيلي[239]، جُمعت عصابة دائمة من اللصوص. «مهمتنا تزويد السلاح وتنظيم الهروب من السجن والسيطرة على المصارف والترسانات وقتل الخونة». عهد ستالين إلى تسانيتدزي تأسيس «المجموعة الفنية، أو النادي البولشفي لمصادرة الأراضي، وعرف بسرعة بلقب آخر، دروزهينا، المجموعة أو الجماعة فقط».

قال ستالين لاحقًا إن «قائد السارقين هو كوت تسينتسادزي، مع كامو». صديق ستالين من زمن الصبا، الذي أُوقف في اضطرابات ديبودي، قد تعرّض للتعذيب الرهيب على أيدي القوزاقيين، الذين كادوا يشرّحون أنفه. لكن لم يعترف كامو بشيء وأُطلق سراحه. تعجّب ستالين من أنه «يستطيع تحمّل أي ألم، هو مدهش».

عصر ستالين براعته لجمع المال للينين، المسافر بشكل بري إلى نوفوروسيسك في البحر الأسود، وفلاديكافكاز في أوسيتيا. في تفليس، أمر المدارس والمعهد اللاهوتي، بتسليم النقود من

المعلمين، بينما أعدّ العدة بتكتّم لعملية الابتزاز التي تقوم بها عصابته.

أمر ستالين بتسليم رسالة إلى رجل أعمال، مزيّنة «بالقنابل، وجثة ممزقة وخنجرين متقاطعين»، ثم أتى يدعو، والموسر في حزامه، إلى جمع المال، وفق عدة مصادر. لكن أول كاتب سيرة لستالين، إيساد باي[240]، لم يكن محط إجماع، لكنه مطّلع بشكل جيد، في أغلب الأحيان. وقد ادعى أن «سوسو حصل على معلوماته» عن الأهداف الثرية «من خلال خليلته، ماري أرينسبرغ، زوجة رجل الأعمال الألماني في تيفليس». لكن، كان السطو على المصارف أسرع طريقة لجمع المبالغ الكبيرة من المال.

قال دافريشوي، الساطي على المصرف الشهير من غوري، «ستالين هو الذي افتتح زمن السطو على المصارف في جورجيا». قامت الجماعة بالمستطاع لإنجاز العمل برغم الصعاب بالانغماس في عمليات جريئة للسطو على المصارف في العام 1906، برغم أنه، كما تقول المنشفية تاتيانا فوليخ، «كانت تيفليس في حرب؛ والدوريات ضربت ليل نهار طوقًا حول مباني المدينة كلها».

ضرب تسينتسادزي أولًا محل المراهنات في المدينة، وجاء فجأة مع مسدسات لمّاعة، وجمع بضعة آلاف. يتذكر دافريشوي «ضرب مرة رجال عصابة ستالين، وأطلقوا النار من مسدساتهم، على بنك الزراعة الجورجي المقابل لقصر نائب الملك في وضح النهار في تيفليس. وهم يصيحون «ارفعوا أيديكم!»، فحملوا

كدسات من الأوراق النقدية واختفوا وهم يطلقون النار في الهواء. كان كامو القائد وفق الخطة التي صممها ستالين، وهو منظّم بارع».

احتدّت المنافسة بين الساطين على المصارف، لكن كانت روح الرفقة تجمعهم أيضًا. تباهى دافريشوي «كان جميع الساطين على المصارف الأبرز من غوري!». ودافريشوي هو الذي أنجز أكبر عملية سطو حتى الآن، وقد سرق حوالي 100.000 روبل للفيديراليين الاشتراكيين في سرقة دوشيتي. وردّ ستالين وتسينتسادزي وكامو بالسرقات الأكثر جرأة. اعترضوا سبيل قطار في منطقة كار، برغم أن الخطة لم تفلح، وقُتل العديد من أفراد العصابة في إطلاق النار. ثم في تشرين الثاني/نوفمبر ، اعترض كوت مركبة السفر بورزهومي، لكن الركاب المرافقين ردوا بالمواجهة. وفي إطلاق النار، فرّت خيول المركبة بالمال.

ثم اعترضوا قطار شياتورا الذهبي، حاملين الأجور إلى المناجم. وعندما أوقفوا القطار، تقاتل أفراد العصابة والحراس القوزاقيون في معركة بالسلاح دامت ساعتين، وقتلوا جنديًا ودركيًا قبل أن تهرب الجماعة بقيمة 21 ألف روبل، «وأرسلنا من المبلغ 15 ألفًا إلى الفصيل البولشفي (لينين في فنلندا)، واحتفظنا بالبقية لمجموعتنا للتخطيط لمصادرة الأراضي في المستقبل»، بحسب ما يتذكر تسينتسادزي.

اعترض قاطع الطرق التابع لستالين الآن مركبة كادزهوركي، وسرق 20 ألف روبل. احتفظ بقسم من المبلغ لتمويل صحيفة

ستالين «بردزهولا»، لكن معظم المبلغ أُرسل إلى لينين، وتمت تخبئته في عبوات النبيذ الجورجي.

* * *

تتذكر تاتيانا فوليخ، التي كانت تعرف أفراد العصابة بشكل وثيق «كانوا جميعًا أصدقاء ممتازين، والكل أحبّهم: لطفاء وودودين ومرحين دائمًا... ومستعدين دائمًا لمدّ يد العون». كانت الجماعة تتألف من حوالي عشرة أشخاص أقوياء، بمن فيهم حاملات الأسلحة الفتيات، باتسيا وأنيتا وألكسندرا. عاش أفراد العصابة في شقّتين، الرجال في غرفة، والنساء في الغرفة الأخرى. لم يكن أحدهم يقرأ الكثير باستثناء فتاتين. كن مستهلكات أكثر من أي شيء آخر، «كنّ فقيرات جدًا إلى درجة أنهما غالبًا ما بقيتا في السرير لعدم وجود ما يكفي من السراويل لتقسيمها بينهنّ!».

أقام ستالين علاقات اجتماعية مع كامو وتسينتسادزي، لكنه أعطى عادة الأوامر للجماعة عبر حارس دعاه «مساعده الفني»[241]، على الرغم من أن رفاقه كانوا يمازحونه بلقب «معاون سوسو». وبالتالي، هذا «المتآمر العظيم الذي نادرًا ما سار مع الرفاق الآخرين» حافظ عادة على خطوة واحدة على الأقل من أفراد العصابة الآخرين. ووراء المسلحين أنفسهم، أدار ستالين مخابراته الخاصة وشبكة بريده: الصبيان الصغار في الكارافانسيراي في تامامشيف وفي عدة مطابع، قاموا بمهمات، وسلّموا الكراسات، وجمعوا المعلومات الاستخباراتية.

لم يكن أفراد العصابة يسرقون لأنفسهم. أنفق المسلحون من العصابات الأخرى النقود على الملابس والفتيات والنبيذ، لكن لم يُظهر ستالين قط أي اهتمام بالمال، بل تشارك دائمًا في ما يملك مع رفاقه. كتب جوردانيا «كان ستالين يرتدي ملابس فقيرة، وبحاجة دائمة إلى المال. وبهذه الطريقة، تميّز عن المفكرين البولشفيين الآخرين الذين تمتعوا بحياة الرفاهية، كشووميان وماخارادزي ومديفاني وكافتارادزي». شاطره أفراد العصابة إيمانه وزهده الماركسي. قال فوليخ «كان إنجيلهم كتاب لينين «ما العمل؟» What is to be Done. يتبعون لينين حتى لو ضد الحزب. هدفهم الوحيد هو الحصول على 200 ألف إلى 300 ألف روبل، وتقديمها إلى لينين قائلين «يمكنك فعل ما يحلو لك بهذا المال»».

ستر سحر العصابة وحشية ذهانية، وفق أسلوب المافيا: سرقة أي غنيمة تعني الموت. أمر ستالين كامو، كما شهد دافريشوي، بإعدام رفيق اشتبه في أنه يسرق بكميات قليلة. كلما كان النجاح أعظم، كانت الإغواءات أخطر. بعد سرقة دافريشوي ل 100 روبل في دوشيتي، تشاجر أفراد العصابة الفيدراليون في ما بينهم، وقتلوا بعضهم للاستيلاء على الغنيمة. سرق أحد قادتهم قسمًا من النقود، محاولًا تغطية أثره بإلقاء اللوم على الفلاحين الذين دفن المال أولًا في حديقتهم. ولإظهار «الأخوّة» بين الساطين على المصرف، طلب المختلس الفيديرالي من المسلّح التابع لستالين، أليسو لوميناذزي، أن يستعيد الجنى.

عذّب لوميناذزي الفلاحين لليل بطوله قبل أن يدرك أنهم لم

يسرقوا النقود. يقول فوليخ «أصيب لاحقا باليأس لأنه كان قاسيًا كثيرًا على أبرياء». فقتل المجرم الحقيقي الذي فوّضه. لو وجد النقود، لكان على الأرجح سرقها للبولشفيين. في أي حال، ضاع المال للفيديراليين الاشتراكيين: رأت الأوخرانا قادتها يبدّدون بقية الغنيمة في كازينوهات الكوت دازور.

جاهدت الشرطة السرية لإلقاء اللوم على المسؤولين عن عمليات السرقة هذه: اكتشفوا مرة أمر جوزيف دافريشوي، فلاموه على معظم عمليات السرقة. لكن اختلطت عليهم الأمور، أولًا مع ستالين لأن كليهما من عصابات غوري، وتشاطروا الاسم المصغّر «سوسو»، ثم لم يميّزوا بينهما وبين كامو وتسينتسادزي. ونقلت الشرطة السرية أن ««كامو» هو تسينتسادزي الذي هرب من سجن باتومي ووصل إلى تيفليس، حيث عمل مع جوزيف دجوغاشفيلي (ولقبه «سوسو»).

في هذا العالم من الأبطال المتفاخرين والطائشين والقتلة الخسيسين، طوّر ستالين آراءه في المسلك الرواقي حول قيمة الحياة البشرية: «عندما كان يسمع أن رفيقًا قُتل في مصادرة للأراضي، كان يقول سوسو، «ما عسانا نفعل؟ لا يمكن الشخص أن يقطف وردة من دون أن يُوخز يده بالشوك. تسقط الأوراق من الأشجار في الخريف، لكن تنمو أوراق جديدة في الربيع[242]»».

* * *

لكن سرقات سوسو كانت وسيلة لتحقيق غاية: الاستيلاء على

السلطة. الصبي الذي درس نابليون حتى وسط الأحزاب الثملة الخشنة، مازح نفسه بأنه «قادر على السيطرة على تيفليس، وأراد أن يأخذها بالتمرّد المسلّح، ووجد خارطة في مكان ما». أحب أن يمد الخريطة على أرض مخابئه، ناشرًا أفواج الجيش الخيالية على شكل جنود زائفة وصغيرة. ركض نجل أحد مضيفيه إلى والده ليقول له «العم سوسو» كان «يلعب بالجنود». وعندما حدّق المضيف المشكّك في الغرفة، وجد ستالين ممددًا على الأرض وهو يحرّك أشكال الجنود الزائفة حول خريطة تيفليس. نظر ستالين إلى الأعلى وتباهى قائلًا: «عيّنت قائد المركز الرئيسي للحزب ليضع الخطة». ويفترض أنه خطط للسطو على المصرف بعناية مشابهة[243].

تُظهر قصص العمليات العسكرية المضللة والطموحة، أن ستالين، الذي تفاخر بأنه يقود المعركة، نظر دائمًا إلى نفسه «كرجل عسكري»، قائد الجيش الطبيعي، وفق ابنته سفيلتانا. كان «العم سوسو» يلعب في أحد الأيام بالجنود الحقيقيين مع جيوش سوفيات من عشرة ملايين جندي مدرب استولوا على برلين، لكن هذه الجنود الزائفة كانت الأقرب إلى التدريب العسكري.

موّل السطوُ على المصارف صحفَ ستالين، التي طُبعت بكلفة عالية في مطبعة أفلابار السرية التابعة للحزب. حرّرها ستالين، وساهم في بعض المقالات بقلم «بيسوشفيلي» (نجل بيسو) و«كوبا».

يقول مونوسيليدزي «أذكر جيدًا كيف أوكل سوسو ماخارادزي

(المحرر الثاني) بكتابة مقالين، وجلبهما للطباعة عند الساعة التاسعة صباحًا، لكنه أتى في الظهيرة في اليوم التالي، قائلًا إنه لم يكتبهما بعد... دخل سوسو، وسأل لماذا التوقف في طباعة الأوراق، فقلت له. صرّ أسنانه، وضع سيجارة في فمه وواجه ماخارادزي، وأدانه... ثم أخذ سوسو المقالات من جيبه وطبعناها». كان ستالين قد كتبها بنفسه بأي حال.

اعتبر مونوسيليدزي أن ستالين «كان منظمًا رائعًا وجديًا كثيرًا، لكنه نادرًا ما كان يفقد صوابه. غالبًا ما لم يكن يملك النقود لابتياع السجائر. مرة، سمحت له كاتو بالدخول في منتصف الليل. أراني أن لديه خضارًا وخيارًا طازجًا ورؤوس لحم الحمل والخنزير المغلي وقنينتي نبيذ أحمر».

تعجّب ستالين «هيا، يا صاح، لنحتفل! أعطاني الحزب أجر 10 روبلات!».

في المركز الرئيسي الإرهابي الرفيع المستوى، أثّرت الثورة في كاتو اللطيفة بطبيعتها أيضا: عندما ذبح القوزاقيون التلاميذ والعمال في ساحة بيريفان، بقيت في الساحة. وجدتاها شقيقتاها، اللتان خشيتا من أنها ماتت، تساعد الجرحى في مشهد أشبه بمعركة صغيرة.

وقع ستالين وكاتو في الغرام: حتى عندما كان يعمل، كان ينسلّ إلى موعد في صالون مدام هيرفيه. في لقاء في المعمل، دنا الملازم الأول في الدرك ستروف، من البيت مع كلبين ألمانين مدرّبين على القنص البشري. هرعت مدام هيرفيه إلى الداخل

وحذّرت العاشقين. قفز سوسو من النافذة الخلفية، على الرغم من أن الدركي ربما يصرخ ببراءة لطلب لباس جديد. وجد ستالين متعة في هذا النوع من الفرار المغامر. غالبًا ما زار صديقته المنشفية مينادورا توروشيليدزي بعد حلول الليل، إلى درجة أن حماته بدأت تتذمر من أن سمعتها ستتأثر.

ضحك ستالين قائلًا «ما عساي أفعل؟ إذا رأوني في النهار، فسيعتقلونني». وبفضل مينادورا أحب أن يدعو نفسه «الرجل الرمادي[244]».

* * *

في 15 نيسان/أبريل، تمت خيانة مطبعة أفلابار، وهي كنز الحزب الذي لا يُقدَّر بثمن، فاقتحمتها الشرطة. اتهمه أعداؤه المنشفيون بأنه يعمل كعميل مزدوج، وهي قصة تكررت كحقيقة في معظم السير الذاتية. لكن، هل خان حقًا المطبعة؟

في آذار/مارس من العام 1906، حضر ستالين مؤتمرًا للحزب في تيفليس وباكو، وهو يلبس «معطفًا كبيرًا ولحية على وجهه القاسي - لأنه كان كلّه قاسيًا - ووشاحًا متعدد الألوان برباطات متقاطعة، كشال الصلاة اليهودي[245]، فضلًا عن نوع من قبعة البولر». وبعد المؤتمر، ادعى رازهدان أرسينيدزي، وهو منشفي، أن ستالين قد أُوقف، لكن أُطلق سراحه بشكل غريب. كتب أرسينيدزي «شهدت على كيفية إطلاق سراح ستالين من قسم الدرك في سجن ميتيخي رغم قصصه عن ظهوره كالمنتصر

هناك بتصفيق السجناء الآخرين. كانت مجرد فانتازيا حكاواتي مغرور، أصابته العديد من الشائعات حول غدره...».

لا شك في أن ستالين قد أوقف بعد المؤتمر. من الممكن أنه اعتقل في سجن آخر في تيفليس، كأورتاشالا، ثم أخلي سبيله. ويرجّح أنه استخدم مكاسبه الحرام لرشوة الدرك، الذين كانوا بأي حال مرتبكين إزاء هويته. لكنه اجتذب هذه الاتهامات لأنه كان فظًا ومتكبرًا، وتخصص بشكل محترف في الإبحار قرب الريح. لا دليل ولا حتى بمقدار بسيط على هذا الغدر، بل هناك مرحلة كبيرة غائبة عن القصة.

قيل إن هذا التوقيف حصل عند اقتحام أفلابار، لكن في الواقع بحلول 15 نيسان/أبريل كان ستالين في رحلة طويلة وموثّقة، على بعد آلاف الأميال، في السويد[246].

* * *

قرابة 4 نيسان/أبريل 1906، غادر ستالين إلى ستوكهولم لرؤية لينين مجددًا، ووصل بعد رحلة هزلية شهدت على غرق سفينة، وثقب شقاقي على متن السفينة.

استقل القطار إلى بطرسبرغ، ومنها إلى هانغو في فنلندا مع المئات الذين ركبوا سفينة أويهونا إلى ستوكهولم. كان في عداد الركاب ستالين وكراسين وسيرك من البهلوانيين والخيول المتدرّبة. حاول المنشفيون المتنفّجون، إنفاق أموالهم على تذاكر السفر في الدرجة الأولى، وأرسلوا البولشفيين القاسين إلى الدرجة

الثالثة. أسرف المندوبون في الشرب ثم بدأوا القتال بالأيادي، ولم يسجّل اشتراك البهلوانيين أم لا. يبدو أن هواء البحر قد حرّض حب القتال والخصام في الثوار الذين نادرًا ما تنشّقوا الهواء، في هذه الفترة، من دون شجار.

ثم، كتكملة لمشهد غريب حقًا، خارج المرفأ، كانت الأويهونا تغرق فأرسل زورق إغاثة هو سوليد، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا. قضى ستالين الليل على ظهر سفينة تغرق وهو يلبس سترة النجاة حتى تمت إغاثته. فاستقلوا سفينة أخرى، الويلامو، التي قادتهم في النهاية إلى السويد.

عند وصولهم إلى ستوكهولم، كان على ستالين أن يتكلّم إلى محطة الشرطة، حيث استجوب من قبل المراقب الفظ مع الشاربين بيرتيل موغرين من شعبة الاستخبارات الجنائية السويدية، التي أدت دور حرس الملك أوسكار الثاني. كتب ستالين أنه «كان قصيرًا وهزيلًا بالشعر واللحية السوداء، مع الهزمات، والأنف الكبير، ومعطف الألستير الرمادي وقبعة جلدية». عرّف ستالين عن نفسه على أنه «الصحافي إيفان إيفانوفيتش فيساريونوفيتش، المطلوب من الشرطة (الروسية)»، مستخدمًا اسم والده كشهرته - «نجل فيساريون» -. كما أعطى المراقب موغرين تاريخ ميلاده الجديد: 21 كانون الأول/ديسمبر 1879. كان يحمل في جيبه روبل، وقال إنه سيبقى طوال أسبوعين في فندق البريستول الرّث (الذي لم يعد موجودًا) قرب محطة ستوكهولم قبل التوجه إلى برلين.

كان المؤتمر الرابع، الذي افتتح في 10 نيسان/أبريل، أكثر أهمية من مؤتمر الفينيش، لأن مندوبيه ال 156 مثّلوا اتحاد البولشفيين والمنشفيين والاشتراكيين البولنديين والبونديين اليهود. كان معظم المنشفيين من الجورجيين: تجاوزهم البولشفيون عددًا. كان جوردانيا وإيسيردوري راميشفيلي وأوراتادزي من سجن قتيسي بين الجورجيين الستة عشر، وكان ستالين البولشفي الوحيد بينهم.

في ستوكهولم، التقى العديد من الرجال[247] الذين اضطلعوا بدور مهم في طريقه إلى السلطة: شارك غرفة الفندق مع عامل في الحديد، وساعي بريد فارس، وشاب متأنق من الطبقة العاملة (أحبّ الأناقة والرقص في القاعات) يدعى كليمينتي فوروشيلوف، الذي أصبح مفوّض الدفاع لديه، وأول ماريشال وشريك في المجزرة العسكرية السوفياتية في العام 1937. فوروشيلوف الأشقر وصاحب الوجنتين الورديتين والعينين الزرقاوين، وُلد خورس أيضًا، تأثر بستالين «المرح والمتحمّس، والكتلة، من الطاقة الحيوية»، وأحب أن يجلس على سريره يتلو القصائد عن ظهر قلب.

في المؤتمر، استمع ستالين إلى كبار مفكري الماركسية، بليخانوف ومارتوف ولينين، لكنه بقي مفتخرًا برجله في ما يتعلق بمسألتين: الفلاحة، اقترح لينين تأميم الأراضي، بينما اقترح المنشفيون امتلاك الأراضي من البلديات. رفض ستالين الاقتراحين: الرجل الذي سيشرف في أحد الأيام على قتل 10 ملايين من الفلاحين في حملته الجماعية، اقترح في هذا الوقت

إعطاء الأراضي للفلاحين. مُني لينين بالهزيمة بمساعدة ستالين.

عندما ناقش المؤتمر مسألة إجراء الانتخابات لدوما الامبراطورية، عارض معظم البولشفيين، لكن لينين أيّد الفكرة وصوّت مع المنشفيين الرابحين. قاطع ستالين.

دعا اللقاء بتفاؤل نفسه مؤتمر الوحدة، لكن تم تخطي تصويت البولشفيين ببساطة. انصرف لينين وكراسين، سيّد المدينة في غسل الأموال والإرهاب، عندما صوّت المؤتمر على قرار لحظر السطو على المصارف. كتب ستالين أن الهزيمة حوّلت «لينين إلى ينبوع الطاقة المضغوطة التي ألهمت أتباعه». لكن لم يكن لينين ينوي أن يتخلى عن السطو على المصارف، فقد كان بحاجة إلى المال.

لا بد من أن لينين وكراسين قد ناقشا المزيد من عمليات السطو على المصارف مع ستالين لأنه رتّب لكامو رحلة إلى شمالي تيفليس لجمع الأسلحة والقنابل من فيلا فينيش. وإذا صحّ الأمر، فقد كانت هذه المرة الأولى التي يشاهد فيها لينين قيمة ستالين كمشغّل سري لا يرحم، وكسياسي مستقلّ وشرس[248].

في طريق العودة إلى المنزل، التقى سوسو في برلين بألأيوشا سفانيدزي، التي كانت تدرس في جامعة ليبزيغ، لكنه كان في تيفليس في حزيران/يونيو[249].

تتذكر ساشيكو «عندما عاد سوسو، صعب التعرّف إليه. في ستوكهولم، جعله الرفاق يشتري قميصًا، وقبعة لبّادة وغليونًا

للتدخين كي يبدو كأوروبي حقيقي.

كانت المرة الأولى التي نراه فيها حسن المظهر». لم تكن ساشيكو الشقيقة الوحيدة التي أُعجبت به.

* * *

قال مونوليدزي «أفصح سوسو وكاتو عن مشاعرهما أمامنا. بدأنا نحمل الأمور على محمل الجد».

في 15 تموز/يوليو، توجّه سوسو إلى اجتماع سري في مسرح الشعب أفلابار، إلى أن هرع الحراس إلى الداخل للتحذير من أن الشرطة التي تطوق المبنى. أحرق البولشفيون أوراقهم. لكن كان قد فات الأوان للاختفاء. كتبت مينادورا توروتشيليدزي «عندما طلبت الشرطة تفسيرًا، ادعى الجميع أنهم «يتمرّنون على مسرحية»».

أجاب الشرطي «أعلم جيدًا أي نوع من الممثلين أنتم!»، لكنه تركهم يغادرون المكان.

حيًّا ستالين من الخارج مينادورا توروتشيليدزي، دافعًا إياها جانبًا مع سيّدها تسخاكايا. قال لهما «أنا وكاتو سفانيدزي سنتزوج الليلة. كلاكما مدعو إلى حضور الحفلة الليلة في منزلهم».

قيل عن كاتو إنها امرأة سمراء «فاتنة». قال ستالين لابنته سفيتلانا «إنها لطيفة وجميلة جدًا: أذابت قلبي». وأفضى لاحقًا إلى صديقة «كم أحبّها. لا يمكنك أن تتخيلي كم كانت الأثواب التي تصنعها جميلة!» وتُظهر رسالة كتبها من برلين، ربما في

طريق العودة إلى المنزل من ستوكهولم، أنه كان يحترمها، كتب «لا تعد الأخبار هنا بأي شيء جيد، لكن لا ضير من التمعّن بها. قد أجد أليوشا وأقوده نزولًا إلى «المسار الخاطئ». إلا إذا كان هذا سيجعل إيكاترينا سيميونوفنا (كاتو) غير سعيدة. صديقك سوسو».

تعبّدت كاتو لسوسو «مثل نصف إله»، لكنها فهمته. كانت «معجبة بستالين ومسحورة بأفكاره. كان ساحرًا وعبدته حقًا»، لكنها علمت بأنه تكرّس للقضية وأنه صعب المزاج. في سن متقدمة، يتذكر ستالين أنها «كانت كاملة الأوصاف»، أي أنها طيبة وجميلة ومتفانية، وسواها من الصفات الحميدة. كانت كاتو مثقّفة ومتحررة وفق المقاييس الجورجية، وأعلى من ستالين لجهة المنزلة الاجتماعية. ساعدت على تنظيم جمع التبرعات للحزب الاشتراكي الديموقراطي، وتمكّنت من إغاثة الجرحى ومعالجتهم بعد مجزرة قوزاقية. وبحسب ما توضح مذكرات شقيقتها، عرفت كاتو خير معرفة أن ستالين كان ينظّم عمليات السطو على المصارف، بما فيه الاعتداء في ساحة يريفان.

أرادت زواجًا في الكنيسة، ووافق سوسو، على الرغم من أنه كان ملحدًا. لكن معظم الكهنة رفضوا تزويجه لأن ستالين، الذي استعمل لقب «غالياشفيلي»، لم يملك سوى أوراق ثبوتية مزوّرة. وفي النهاية، وجد مونوليدزي الأب كتا تخينفاليلي من كنيسة مجاورة كان يعرف العريس من الثانوية. ولم يقبل تزويجهما إلا عند الساعة الثانية صباحًا.

في ليل 15 - 16 تموز/يوليو، رأت الأسرة والأصدقاء كاتو وسوسو يتزوّجان على بصيص الشمع الرومانسي في كنيسة صغيرة، ووقف تسخاكايا عرّابًا لهما. يقول أليسابيداشفيلي ستالين الوضيع «لم يرتد كعريس، وضحكنا كلنا طوال الحفل، وبخاصة الرفيق سوسو بنفسه».

أعدّت ساشيكو لاحقًا مأدبة الزفاف التي حضّرها السفاكان كامو وتسينتسادزي، اللذان كان قد بدأ ستالين يخطط معهما للسطو على المصرف في ساحة يريفان.

قال تسخاكايا، التامادا - الجورجي الذي تصدّر الوليمة - النكات؛ وغنى ستالين «أغاني جميلة بصوته العذب»، بينما ضحك كامو: «أين الشرطة المعتوهة؟ كل رجالهم المطلوبين هنا، ويمكنهم أن يأتوا ويوقعونا في كمين كالخليع!».

كان الثنائي متحابًا. قال مونوسيليدزي «كنت معجبا كيف يمكن لسوسو، القاسي جدًا في عمله وفي تعامله مع رفاقه، أن يكون بهذه الرقة والعطف والعناية لزوجته - لكن لم يمر وقت طويل قبل أن تطرق الأوخرانا الباب. في غضون أسابيع [250]، تعلّمت كاتو أنه يصعب الزواج من رجل تكون حياته وخليلته الحقيقية الثورة.

أصبحت بسرعة حاملًا. كتب مونوسيليدزي «كان يفكّر طوال الوقت كيف يسعدها عندما تسنى له الوقت... لكن عندما كان يعمل، كان ينسى كل شيء». كيكي، الواقعية دائمًا، فرحت، لكنّها أسرّت إلى نسيبتها آنا دجيلادزي: «سوسو تزوّج. هي امرأة

شابة، لكن أتساءل أي حياة عائلية سيحظى بها؟»[251].

لم يعيشا شهر العسل. كان ستالين يعيش في الليل، وهو عالم خطر ودافع إلى السعادة رافقه طول حياته. غالبًا ما قتلت قوى الرّد التي لا ترحم والتابعة للقيصر، المشتبه فيهم، من دون طرح أي أسئلة. كتب سوسو إلى آل سفانيدزي «يكفي أن نبقى على قيد الحياة، والبقية تتأمّن بنفسها».

كان مرة، عند الساعة الخامسة صباحًا، يقفل مع مونوسيليدزي مطبعتهما السرية، عندما اعترضهما شرطي على أنهما سارقان، وأراد أن يصوّب مسدّسه. فكان ستالين أسرع منه، سحب سلاح البيرانا وصرخ: «سأطلق النار[252]!».

(18)
قرصان وأب

كان ستالين على وشك أن يفتح النار، عندما قبض شقيق زوجته على السلاح. تعرّف إلى الشرطي المرعوب الذي تمت رشوته لئلا يتدخّل في المطبعة. اندفاع سوسو مفهوم: سحق القوزاقيون الثوار، وكانت الأوخرانا تطارده، وهو ينظّم المزيد من عمليات السرقة للجماعة في مختلف أنحاء القوقاز لتمويل شراء الأسلحة في أوروبا. كان ستالين بعيدًا عن زوجته الجديدة طوال أسابيع، غافلًا عن أن حياته تعرّضها للخطر الحقيقي.

قرابة 9 أيلول/سبتمبر 1906، حضر ستالين مؤتمر الاشتراكيين الديموقراطيين لجوردانيا في تيفليس، ثم في فندق باكو. القمع القيصري والنجاح المنشفي، قسما البولشفيين في جورجيا. كما استسلم المنشفيون رسميًا للإرهاب، ونظروا إلى ستالين وجماعته كزمرة سارقين محرجين. ومن أصل المندوبين الاثنين والأربعين الهزيلين، وحدهم ستة بمن فيهم ستالين وشوميان وتسخاكايا، كانوا بولشفيين.

عوّض ستالين عن ذلك بالسخرية الجريئة من المنشفيين، الذين لعب عليهم خدعًا مشؤومة. قال ديفداريانا، صديقه المنشفي من الثانوية، «قضى المؤتمر بأكمله يبتسم بسخرية مفكّرًا «اتخدوا أي قرارات شئتم، فلا صلة لها بالثورة»». كان ستالين شديد «الجرأة والفظاظة والغضب»، إلى درجة أن الرئيس المنشفي،

أرسينيدزي، اتهمه «بالتصرّف غير اللائق» كالمومس، «امرأة الشوارع»، التي لا تلبس ثيابها الداخلية. فأجاب ستالين «بمرح أنه لم يسقط بعدُ بنطاله». ثم كشّر «بحقد من الجهة اليسرى لفمه»، ومشى بتشامخ. يقول أرسينيدزي «بعد بضع دقائق، سمعنا الصفارة المتفق عليها تحذرنا من أن الشرطة قادمة. فتفرّقنا، لكن لم تكن الشرطة في المكان. كانت مزحة من كوبا».

لكن ستالين أصبح «المسؤول المالي الأول في المركز البولشفي الروسي»، وفق المنشفي، أوراتادزي، وبقي أحد الممولين الرئيسيين للينين في السنين الثلاثة التالية. وبعد المؤتمر، بدا من المرجّح أن لينين توجّه غربًا إلى سوخوم في البحر الأسود لفتح جبهة جديدة في حملته للسرقات: القرصنة في أعالي البحار.

* * *

في 20 أيلول/سبتمبر، كانت الباخرة تساريفاتش غيورغي، وتزن من 2.200 طن وبطول 285 قدمًا، متجهة من أوديسا إلى باتومي، وهي تنقل الركاب وأموالًا كثيرة.

ومن دون علم ربّان السفينة، أخفت مجموعة من السارقين البولشفيين، الأسلحة والرمانات تحت معاطف لبّادة، واستقلوا السفينة عندما توقفت لتسليم الأجور في نوفوروسيسك وسوخوم ونيو آتوس.

عند الساعة 1.15 فجرًا، وبينما مرّت الباخرة النائمة في كاب كودوري، صوّبت العصابة المؤلفة من خمسة وعشرين قرصانًا، بمن فيهم «العمال والمفكرون»، مسدسات الموسر والبيردانا

والقنابل من معاطفهم وأوقفوا الباخرة. قام رئيس العصابة، الذي وصفه الدرك لاحقًا بأنه «جورجي قصير القامة في العقد الثالث من العمر، وشعره بلون الزنجبيل ولديه هزمات»، بالاستيلاء على منصّة ربّان السفينة، ووجّه مسدس الموسر إلى الربان سينكيفيتش. حجز ضابط الخدمة ومدير الدفة وطاقم السفينة بطرف المسدس، وساعد أربعة بحّارة القراصنة «كرجال مخبرين من الداخل».

كان رئيس القراصنة، وفق ما قاله الطاقم لاحقًا، هادئًا كالثلج، ولطيفًا طوال عملية السرقة. أعلن «نحن ثوار بكل ما في الكلمة من معنى، ولسنا مجرمين. نحتاج إلى النقود للثورة، وسنأخذ أموال الخزينة فقط. أطيعوا أوامري ولن تسفك الدماء. لكن إذا فكّرتم في المقاومة، فسنقتلكم ونفجّر السفينة».

اعترف الربان سينكيفيتش في مقابلة له مع صحيفة «تيفليسكي»، «ليستوك» لاحقًا، «استسلمت». تمّ جمع الطاقم والمسافرين وتحذيرهم من «عدم رؤية أي شيء». أرى الربان المال لرئيس العصابة. وأعلنت الشرطة رسميًا أن البولشفيين أخذوا 16 ألف روبل، لكن ربما استولى القراصنة على مبلغ أكبر.

أمر رئيس العصابة الربان سينكيفيتش بإنزال قوارب النجاة إلى الماء. احتجز القراصنة بعض ضباط السفينة كرهائن بينما حمّلوا النقود، ثم أمروا البحارة بالتجذيف إلى الشاطئ. نقلوا بطريقة فعالة جدًا، إلى درجة أن رئيس القراصنة «الذي تأثر بطاعتهم الواعية الشديدة لأوامره، أمر بأن يعطى كل بحار 10 روبلات».

وأطلق سرح سفينة تساريفيتش غيورغي للإبحار إلى باتومي.

عند قرع الجرس بعد سبع ساعات، طارد القوزاقيون والدرك القراصنة البولشفيين على طول الشاطئ من دون إيجاد أي أثر للعصابة أو المال المسلوب. اختبأ ستالين وبولشفيون روس في منزل ستيفان كاببا، أحد أفراد العصابة، كما تذكّرت شقيقته بعد أعوام. ثم شهدت الشقيقة على أنهم انتقلوا إلى منزل آمن آخر تملكه عائلة أتوم، وفي النهاية منزل غفاراميا. يتذكر كامشيش غفاراميا المسنّ كيف وصل ستالين إلى منزله. تحمّس والده عندما طلب منه «تخبئة رئيس العصابة صاحب الهزمات الذي حجز سفينة كاب كودوري، والذي أصبح لاحقًا رئيس هذه البلاد العظيمة».

انتقل ستالين وأفراد العصابة غربا عبر أبخازيا، عبر نهر أنغوري، إلى غوريا. قال الرجال المسنون لكاتب التاريخ الأبخازي وجامعه، فيصل إسكندر، كيف أمر ستالين بقتل سبعة أفراد غير موثوقين في العصابة (بمن فيهم أربعة بحّارين شاركوا في العملية)، ثم قاد مجموعة خيول تحمل النقود عبر الهضاب، مع بندقية قصيرة على كتفه. يخبر اسكندر القصة في قصته الكلاسيكية «ساندرو من شيغيم» Sandro of Chegem. سلّم ستالين النقود إلى أتباعه الأمناء في قتيسي، واستقل القطار إلى تيفليس، تاركًا الجثث «فريسة أبناء آوى».

هل ستالين هو بالفعل من قاد سرقة القراصنة؟ ينطبق وصف الشرطة لرئيس القراصنة، على ستالين بالمظهر والنظرات

والخطاب: غالبًا ما شدد هو على أنه «ثائر وليس مجرمًا». لكن الوصف مبهم وغامض. وتدّعي معظم المذكرات أنه نظّم السرقات[253]، لكنه لم يشارك فيها.

لكننا نعلم من مذكرات سفانيدزي ودافريشوي، أن ستالين حمل سلاحًا، ولم يكن يخجل من استعماله في ذاك الوقت. وشرح أرسينيدزي المنشفي المطّلع جيدًا، أن ستالين «لم يشارك» في سرقة تيفليس الشهيرة، لكنه أضاف قائلًا «كانت هنالك مجموعة كبيرة من المصادَرات». سمع أن «ستالين شارك حتى» في إحداها. كان لستالين علاقات في مرافئ نوفوروسيسك، ونيو آتوس وسوخوم، حيث هاجم القراصنة السفينة. كان قد زار هذه المنطقة في العام 1905. وأكّدت مذكرات الأب غاشيشيلادزي المذكورة آنفًا، ممارسة ستالين قيادة عدل الخرج المليء بالأوراق النقدية على الهضاب.

ولم يكن هذا يشهد على مشاركة ستالين الوحيدة في القرصنة. فقد نظّم لاحقًا سرقة باخرة أخرى وخطط للعديد من عمليات السرقة الأخرى في باكو[254]. وتابع المؤرخ الأبخازي ستانيسلاف لاكوبا، علما بأن أبحاثه الأخرى بالغة الدقة، الأسطورة وتحرّى مصدرها، وقام بمقابلة شاهدين مسنين، كل على حدة، قبل أن يتوفيا، فأكدا أنه قاد الهجوم، وجمع النقود.

وتنطبق التواريخ جيدًا. لم يكن ستالين في المنزل. وقد انتهى مؤتمر باكو. فهذه الأيام القليلة هي من وقت الفراغ. سرقت

السفينة في 20 أيلول/سبتمبر، وكان ستالين يحتاج إلى بضعة أيام ليصل إلى تيفليس. وكما تقرر مع لينين وكراسين في ستوكهولم، كان كامو ورفيقا ستالين ينتظرون في تيفليس للإقلاع في رحلة لشراء الأسلحة للحزب.

لا دليل موثقًا على دور ستالين، لكن مشاركته جديرة بالتصديق على الأقل كثيرًا. ويبدو طبعًا أن توقيت السرقة يعود إلى سبب ما، وقد تلقى كامو المال.

وبعد خمسة أيام على السلب، في 25 أيلول/سبتمبر، غادر كامو تيفليس مع ما يكفي من النقود للسفر حول أوروبا وشراء الأسلحة[255].

* * *

استقل كامو، برفقة الممثل الثائر مديفاني الثرثار، وكافتارادزي، الذي رمى المصباح على ستالين، أولًا إلى سان بطرسبرغ. وقد التقى بهم كراسين، الذي أدار المر«كز البولشفي»، مركزهم السري في فنلندا، مع لينين وحليفه ألكسندر بوغدانوف، الفيلسوف والمنظّم، وأعطاهم التعليمات. وعرف هذا الثلاثي «بالثالوث الصغير».

عرف ستالين كراسين من باكو وستوكهولم. كان يلبس دائمًا القبات البيضاء الجامدة ولحية شارل الأول المشذّبة وقد عاش حياة مزدوجة: من جهة، كان الفاسق الاشتراكي وصديق الملايين؛ ومن جهة أخرى، زوّدت معامله الأجهزة القاتلة

للبولشفيين والمجموعات الإرهابية الأخرى[256]. قال تروتسكي: «كان حلمه أن يبتكر قنبلة بحجم جوزة». لكنه لم يحقق أبدًا «القنبلة الجوزة».

كان كراسين الأول في مجموعة عبّاد العنف المتطورين إلى درجة أنه «أوشك على الوقوع في حي كامو»، الذي وضعه على اتصال بمايير والاش[257] ، وهو بولشفي يهودي عالمي بنظارات وشعر متموج وجميل.

التقى كامو والجورجيون بوالاش في باريس. عمل مسوّي النزاعات اليهودي والأرمني المضطرب عقليًا معًا بشكل جيد، وسافرا إلى لياج في بلجيكا وبرلين ثم التقيا في بلغاريا، لشراء الأسلحة، ومعظمها مسدسات الموسر، وبندقيات مانليشر والذخائر. في فارنا، في البحر الأسود، اشتروا يختا يرشح، اسمه الزارا، وحمّلوه بالأسلحة، وعيّنوا كربّان بحارًا ثائرًا من السفينة الحربية بوتيمكين، ووظفوا أربعة أفراد في الطاقم. تطوّع كامو كطاهٍ ومنفّذ، رابطا السفينة بمرساها كي يتمكّن من تفجيرها، إذا حاول عملاء القيصر الصعود على متنها. في البحر الأسود، هزّت عاصفة الزارا، التي حصل فيها شق وجنحت. أشعل كامو الديناميت الانتحاري، لكنه لم ينفجر. حاول الربان الانتحار، لكنه أخفق. تمت إغاثة الملاحين والطاهي، المتجمّدين، من قبل موكب شراعي كان مارًا من هناك.

غرقت الزارا، وعادت غنائم قرصنة ستالين تتقاذفها الأمواج.

عاد كامو أدراجه إلى تيفليس، حيث كان لستالين فكرة جديدة عن عملية كبيرة للسطو على مصرف. وقبل بضعة أشهر، في تيفليس، صادف شخصًا يدعى فوزنيسينسكي، كان قد درس معه في مدرسة كنيسة غوري وثانوية تيفليس. قال فوزنيسينسكي لصديق المدرسة إنه يعمل الآن في مكتب البريد الصيرفي في تيفليس، ويمكنه الوصول إلى الجداول السرية التي لا تقدّر بثمن، التابعة لمركبة سفر النقود. دعاه ستالين إلى شرب الحليب في حانة الحليب أداميا، حيث أقنعوه بمساعدة البولشفيين على مصادرة المال الذي يمرّ عبر مكتب البريد. اعترف فوزنيسينسكي، الذي خضع للتحقيق السري من الحزب في العام 19، بأنه وافق على المساعدة «لأجل كوبا فقط»، لأن «كوبا كتب قصيدة حول وفاة الأمير أريستافي ذات الطابع الثوري: وقد أثّر فيَّ كثيرًا». في جورجيا فقط، يستطيع الإرهابي تلقي التوقيت والمعلومات عن السرقة لأنه كان شاعرًا حساسًا!

قدّم ستالين فوزنيسينسكي إلى الجماعة، وحافظ على صلته بالرجل المخبر من الداخل، والتقى به كل بضعة أشهر. التقى فوزنيسينسكي للمرة الأخيرة في أواخر العام 1906. يبدو أن الأوخرانا كانت على حق في أن السرقة قد خُططت أصلًا لشهر كانون الثاني/يناير أو شباط/فبراير 1907. لكن لم تجرِ. وفي إجاباته الخاصة الأكيدة والقصيرة لتحقيق مقطعي على يد الحزب المنشفي، أكّد ستالين أنه كان وراء أكثر السرقات شهرة في العالم، قائدًا «الرّجلين المخبرين» بمن فيهما «رفيق يعرفه كوبا من المدرسة»، كان قد عرّفه إلى الجماعة.

«الرجل المخبر» الآخر لدى ستالين، كان غريغوري («غيغو») كاسرادزي، وهو شخص آخر من غوري، نسيب كيكي والأب شاركفياني، وقد أجرت لجنة تقصٍ أخرى في الحزب مقابلة معه. أعدّه هو أيضًا ستالين طوال أشهر قبل السرقة. كان كلاهما في شبكة المخابرات الخاصة التابعة لستالين.

لم يكن كامو يملك الأسلحة الضرورية، بعد غرق زارا، لهذه العمليات الجديدة، فأرسله ستالين لمقابلة كراسين. والمتعاطف الكبير، الأمير كوكي داديياني أعاره جواز سفره، وسمح له بالسفر إلى العاصمة بأناقة. التقى كامو في ملجأ الفينيش، بلينين وكروبسكايا. لاحظ كروبسكايا «كان مقاتلًا جسورًا لا يعرف الخوف، ويتمتع بجرأة لامحدودة وإرادة لا تتزعزع، لكنه كان أيضًا مفرط الحساسية، وساذجًا بعض الشيء...». دعاه لينين «اللص القوقازي»، وكان يرتعش لأنه كان دائمًا يحمل مسدسين، ويدعو بانتظام والدة كروبسكايا النبيلة لشد حزامه. تودد لينين وكروبسكايا، اللذان ترعرعا في الحظوة والثقافة، إلى كامو. كانا يميلان دائمًا إلى سحر (وفائدة) السفّاحين المتوحّشين، تابعين مشاعر باكونين الثائر: كي تحقق الثورة النصر، كتب «يجب أن ننضم إلى عالم السرقة المتهوّر، الثوار الحقيقيين والوحيدين في روسيا».

ابتهج آل لينين بلطف كامو الرقيق العينين، وشعروا بأن هدوءه الغريب قد يتفجّر، في أي وقت، بعنف مجنون. التقى مرة آل لينين على مأدبة الغذاء، قائلًا إنه يحمل هدية لهم، وضعها بتمهّل على الطاولة المغطاة بالمنديل. يخبر كروبسكايا «صمت الجميع.

ظنوا أن «معه قنبلة!»، لكنها كانت بطيخة». عاد كامو إلى تيفليس مع شحنة عبوات ناسفة[258].

أمر لينين، وفقًا لرجل عصابة ستالين كوبرياشفيلي، ستالين بجمع الأموال المطلوبة لدفع تكاليف مؤتمر لندن المقبل. حافظ ستالين على اتصال بكامو و«الرجل المخبر» في النظام المصرفي، لكنه عاد أيضًا إلى باكو، حيث كان مشغولًا في تأسيس الصحيفة الروسية «باكينسكي بروليتاري» (عامل باكو) وتحريرها، مع شوميان وسبانداريان. بدا سوسو الماكر المنخرط في الكثير من الحيل الخادعة، فوق النقد. لكن، بينما كان بعيدًا، لم تكن زوجته محظوظة جدًا.

* * *

في غارة على بولشفي في موسكو، وجدت الأوخرانا ملاحظة تقول: «شارع فريلينسكايا 3، سفانيدزي الخياط، اسأل عن سوسو». وبعد وقت غير طويل، طلب كامو من آل سفانيدزي إيواء «رفيق يهودي من موسكو» لأسبوعين. رحّبت الشقيقات به، لكنه بعد مغادرته بفترة وجيزة، في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1906، اقتحم الدرك المنزل، وسألوا عن سوسو وكاتو. أدركت الشقيقات أن «الرفيق اليهودي من موسكو» كان خائنًا. لكن، لحسن الحظ، لم يجد الدرك سوسو أو ملفاته المخبأة في الداخل، داخل تماثيل عرض الأزياء. لكن كاتو أُوقفت، مع نسيبها، صانع القنابل سبيريدون دفالي، الذي حُكم بالموت. لم تكن هذه مزحة لفتاة حامل في شهرها الرابع.

أسرعت ساشيكو سفاندزي في العمل على مساعدة زوجة ستالين، ملتمسة عطف زبائنها، الذين يتحدر منهم معظم ضباط الدرك: «ذهبتُ لرؤية زوجة الكولونيل ريشيتسكي (التي كنتُ أصنع لها ثوبا في ذاك الوقت)، وطلبت منها تخفيض عقوبة دفالي بالإعدام، وإطلاق سراح كاتو البريئة». تمكّنت زوجة الكولونيل من تخفيض حكم دفالي بالإعدام، وساعدت كاتو الحامل أكثر بالسماح لها بانتظار إطلاق سراحها في مركز الشرطة بدلًا من السجن. كانت الشقيقات تقوم أيضا بصنع الأثواب لزوجة رئيس مركز الشرطة، التي أخذت كاتو فورًا إلى بيتها واعتنت بها.

وعند عودة ستالين بعد تنقّله الكثير والمسعور في القوقاز، دوّن مونوليدزي أنه «أُصيب بالقنوط والاكتئاب الشديد جرّاء ما حصل. وأصرّ على زيارة كاتو»، فذهبت ساشيكو لرؤية زوجة رئيس الشرطة و«قالت لها جاء نسيبنا من قريتنا لزيارة كاتو. سمحت زوجة ضابط الشرطة بذلك، فأخذنا سوسو إلى شقّتهم في الليل، والتقيا هناك. ولحسن الحظ، فإن أيًا منهم لم يعرف سوسو بالشكل. طلبت زوجة ضابط الشرطة أن يُسمح لكاتو الذهاب إلى البيت لساعتين كل مساء.

فكان سوسو وكاتو يلتقيان كل ليلة على هذا الشكل»، حتى إطلاق سراحها بعد شهرين.

بعد إطلاق سراحها بوقت قصير، في 18 آذار/مارس 1907، ولدت كاتو ابنًا، أسمته ياكوف[259]. ووفق نسيب كاتو، كيتيفان جيلوفاني، حضر سوسو الولادة مع والدته. كانت كيكي و«المرأة

الصغيرة» كاتو، بخير. كان ستالين في القمر لأنه أصبح أبًا. لاحظ مونوسيليدزي «بعد ولادة الطفل، أصبح حبه لزوجته وطفله مضاعفًا عشر مرات». ولقّب الطفل «باتسانا» (الغلام). كان ستالين يكتب ليل نهار، لكنه «يغتاظ عندما يشوّش صراخ الطفل على عمله. لكن، حالما تطعمه الوالدة ويتوقّف الطفل عن الصراخ، كان يقبّله، ويداعب أنفه، ويدلّله».

كان عقل سوسو يضجّ بالأفكار. في شهر آذار/مارس من العام ٬، خططت جماعة ستالين لسرقة مركبة سفر في قتيسي، لكن، قبل اليوم المختار، أوقف الرئيس تسينتسادزي. عيّن ستالين كامو كخلف له. كان حيوان ستالين الأليف المضطرب عقليا، غير قادر على التحكم في زمرة اللصوص، يتأرجح دائما بين الحماسة الصرفة والقتل المجنون. عندما كان يسمع بولشفيًا، على الأرجح ستالين، يتجادل بالعقيدة مع منشفي، كان يتعجّب: «لماذا تتجادل معه؟ دعني أشقَّ له صدره».

قام كامو مع حاملات السلاح التابعات لتسينتسادزي، أنيتا وباتسيا وألكسندرا، بتوقيف مركبة القتيسي. لكن القوزاقيين ردوا بإطلاق النار. وجد كامو والفتيات أنفسهم وسط قتال وحشي من إطلاق النار، لكن عندما وصل الأمر إلى ذروته، انقضّت الفتيات على أكياس المال، وحملنها ثم مررنها إلى تيفليس في ثيابهن الداخلية. تتذكر أنيتا داراخيليدزي «أنا وأنيتا لففناها حول أجسامنا». خبأ كامو النقود في أكياس النبيذ، وأرسلها إلى لينين في فنلندا.

أطلع «الرجال المخبرون» أتباع ستالين في بريد المصرف

الجماعة، على أن تسليمًا كبيرًا للمال سيحصل في تيفليس، قد تصل القيمة إلى مليون روبل، ما يكفي لتمويل تنظيم لينين الباهظ طوال سنين. استعد ستالين وكامو لسرقة مشهدية عظيمة.

بالكاد بعد شهر، اختار ستالين مندوبًا لا صوت له لحضور المؤتمر الخامس، وترك لادي وكاتو في تيفليس، وانطلق في رحلة طويلة عبر باكو وسان بطرسبرغ وستوكهولم وكوبنهاغن. كان ستالين، المسافر باسم «إيفانوفيتش»، في طريقه إلى لندن[260].

قرابة 24 نيسان/أبريل، عندما كان في الدانمارك، استقل ستالين القطار نزولًا إلى برلين للقاء لينين. نعلم بأنهم التقوا بالسر في هذه الرحلة، وأن ستالين زار برلين.

كان لديهم موضوع واحد لمناقشته: السطو الوشيك على مصرف تيفليس. كتب تروتسكي، لو ذهب لينين إلى برلين، «فليس للنقاش النظري، بل كرّس وقته بلا شك لمصادرة الملكية الوشيكة وسبل إرسال المال». كانت السرية تستهدف رفاقهم بقدر ما تستهدف الأوخرانا: الحزب، الذي يسيطر عليه الآن المنشفيون، قد حظر اللصوصية.

ثم توجّه لينين وستالين إلى لندن[261]، كل على حدة.

(19)

ستالين في لندن

في الفترة الممتدة بين 27 نيسان/أبريل و10 أيار/مايو 1907، بعد رحلة مملّة، نزل ستالين ومرافقاه، تسخاكايا وشويمان، في هارويش في إنكلترا. وفي طريقهم للحاق بالقطار إلى محطة شارع ليفيربول في لندن[262] ، حيّتهم الصفحات الأولى في الصحافة الإنكليزية، التي هزّتها رؤية «الثوار» الغرباء أحرارًا في العاصمة، التي، كانت في ما مضى كما هي اليوم، ملجأً معروفًا للمتطرفين[263].

استقبل المندوبين، طاقمٌ متناقض من الصحافيين والمصوّرين الإنكليز، واثنا عشر تحريًا من الفرع الخاص، وعميلان من الأوخرانا، فضلًا عن متعاطفين محليين كانوا من الاشتراكيين الإنكليز أو المنفيين الروس.

أعلنت صحيفة «الدايلي ميرور»، التي بدت متعجّبة لأن بعض الثوار كانوا من «النساء اللواتي تحرقهن نار القضية الكبرى»، ولا يحملن الأمتعة في عصر الفخامة في السفر، أن «التاريخ يُصنع في لندن!». «لا رجل فوق سن الأربعين، والكثير من الشبان الصغار في العشرين». كان ستالين يبلغ من العمر تسعة وعشرين، ولينين سبعة وثلاثين (لكن قال ستالين لاحقًا إننا «كنا نناديه دائمًا الرجل العجوز»). وختمت صحيفة «الدايلي ميرور»

«كان حشدًا رائعًا».

وكما في الاتحاد السوفياتي، اعتُبر المندوبون على قدم المساواة، لكن بعضهم كان أكثر تساويًا من الآخرين. قالت «الميرور»، إن ماكسيم غوركي، «مؤلف الروايات الشهير هو في لندن لكن أين يمكث، وحدهم أصدقاؤه الحميمون يعرفون». مكث غوركي مع خليلته الممثلة في الفندق الامبراطوري في ساحة روسيل، حيث انضم إليهما لينين وكروبسكايا. كان الطقس رطبًا وباردًا عندما وصلا. اهتم لينين المهيمن، فتحقق من رطوبة ملاءات غوركي، وأمر بإشعال النار لتدفئة ثيابهم الداخلية الرطبة.

قال لينين لغوركي بينما جفت جوارب اللينينيّين «سيجري شجار قديم مناسب هنا». مكث المندوبون ذوو الدخل الخاص في فنادق صغيرة في بلومسبيري، على الرغم من أن لينين وكروبسكايا أخذا غرفتين في ساحة كينسينغتون، وبالتالي توجّه كل صباح ليشتري السفري المفضّل لديه، السمك وشرائح الشيبس، خارج ساحة الصليب التابعة للملك. غير أن المال كان قليلًا للمندوبين الفقراء كستالين.

تقول الأسطورة إنه قضى أول لياليه مع ليتفينوف، الذي التقى به الآن للمرة الأولى، في فندق التاور هاوس في شارع فيلدغايت، ستيبني، التي أسماها الكاتب الروائي جاك لندن «بيت المنامة الموحش»: يكلّف الأسبوعان ستة بنسات. كانت ظروفها رهيبة، بحيث يفترض أن ستالين قاد تمرّدًا وقام بإعادة إيواء الجميع. سكن في غرفة خلفية ضيّقة في الطابق الأول في شارع جوبيلي

7 في ستيبني، التي استأجرها من إسكافي روسي يهودي، وتشارك فيها مع تسخاكايا وشوميان.

لندن الضبابية والرطبة، كانت مدينة مرعبة بالنسبة إلى زائر من جورجيا. كتب زائر روسي شيوعي آخر، هو إيفان مايسكي، الذي أصبح لاحقا سفير ستالين في لندن «بادئ الأمر، وجدتُ لندن ملتهمة وخنقتني. شعرت بأنني وحيد وضائع في محيطها الصخري الواسع... مع صفوفها المتجهّمة من البيوت الصغيرة التي ابتلعها الضباب الأسود».

إذا كانت لندن غريبة، فقد كانت منطقة وايتشابيل، حيث كانت اللغة الروسية شائعة، أكثر ألفة. عاش مئة وعشرون ألف لاجئ يهودي من المذابح والعصابات والاشتراكيين الروس بينهم، في الطرف الشرقي. زار لينين نادي الثوار رودلف روكر قرب غرف ستالين في ستيبني، حيث أكل السمك اليهودي. ويرجّح أن ستالين فعل ذلك أيضا. ويصعب أن يفوّت ستالين الغابة المتوحّشة لعرض حرب العصابات السلافية والعبرية. تحكّمت العصابات في الطرف الشرقي، وكلها من الامبراطورية الروسية، بما يسمى «البيوت القذرة» «لسارقي الساعات الذهبية» و«النشّالين». تنافست ثلاث عصابات على السيادة: نمور بيسارابيان حاربوا الأودسيّين، الذين حاربوا بدورهم جماهير ألدغيت بقيادة داركي الزنجي (وهو يهودي داكن اللون منضو في عصابة ويدعى بوغار).

عند وصول ستالين والآخرين، تسجّلوا في النادي الاشتراكي

البولندي في شارع فولبورن في طريق وايتشابيل مرورًا من مستشفى لندن[264]. كان تحرّيو الشعبة الخاصة والصحافيون المتحمّسون يراقبونهم، وهم تلقوا مخصصاتها الضئيلة من 2 شلن يوميًا، وإرشادات حول كيفية إيجاد المؤتمر الرئيسي، وكلمات سر لتفادي تسلل الأوخرانا.

بدأ البولشفيون، الذين التقوا في الدور الأعلى في «غرف متواضعة بأثاث قليل يعود إلى ناد اشتراكي مع طاولات وكراسي وتوقيعات غريبة على الجدران»، العمل السياسي في اجتماعهم الخاص بالفصائل، حيث انتخبوا لجنة سرية. وعلى غرار جميع المحاضرين الجيدين، «درسوا خريطة المدينة». لكن، لم يتسنّ ل «الدايلي ميرور» الوقت لهذه التفاصيل الدنيوية. كشف المراسل بإعجاب «يقال إن النساء رائعات نظرًا إلى شجاعتهن وعصبهن الذي لا يجفل. ويدخل التمرّس على المسدس في تمرينهن اليومي. يتدربن باستمرار أمام المرآة فيصبحن ماهرات في تصويب زند البندقية وسحبه... ومعظمهنّ من الفتيات الشابات، وإحداهن في سن الثامنة عشرة تسدل شعرها الأشقر الطويل في لفة طويلة على ظهرها».

بيد أن «الدايلي إكسبرس» الحادة البصيرة، والسريعة الإدراك، لاحظت «رجلًا عازمًا وقويًا كان... يقف في زاوية شارع فولبورن، ومن الواضح أنه أجنبي، وأيضًا رجل رفيع المستوى. ويبدو أنه غير معني، كان مهتماً جدًا... كان السيد سيفيف، أحد رجال الشرطة السرية الروسية، وواجبه أن يراقب الاشتراكيين

الروس باستمرار». وقد أضاف المقال بشكل ملحوظ، «أن أمتعته قليلة».

ثم توجّه المندوبون إلى المؤتمر الخامس للاشتراكيين الديموقراطيين، بالباص، أو سيرًا على الأقدام، إلى أسلينغتون، حيث ذُهلوا لمعرفة أنهم يجتمعون في كنيسة، كنيسة الأخوة في طريق ثاوثغايت: «نزولًا بعد الشوارع المعتمة والوسخة لأحياء الطبقة العاملة، كان الأمر أشبه بعشرات المباني، والجدران المقيتة والملوّثة والنوافذ العالية والضيّقة والسقف الوسخ مع برج الكنيسة القصير». وفي الداخل، وجد المندوبون «مجرّد غرفة كبيرة فارغة تتسع ل 300 أو 400 شخص». لم يتأثر غوركي بديكور الكنيسة، «غير المزخرفة إلى حدّ السخف». كان القس، الإكليريكي ف. ر. سوان، التي شملت رعيّته رئيس الوزراء العمالي المستقبلي رمزي ماك دونالد، تابعًا مسالمًا لويليم موريس.

في الفترة بين 30 نيسان/أبريل و13 أيار/مايو 1907، افتتح أبو الماركسية الروسية، بليخانوف، المؤتمر بعد أن غنى المندوبون نشيد الجنازة عن أرواح رفاقهم الذين سقطوا في المعارك. رأى ستالين كيف أن لينين غالبًا ما جلس مع غوركي الممشوق القامة، والمطارَد، والنحيل، وهو شخصية عالمية شهيرة، وبولشفي جامع للأموال، شاهد مرة عملية شنق في غوري[[265]]. جلس البولشفيون من جهة، والمنشفيون في الجهة الأخرى. وكان كل صوت كناية عن «توتّر إضافي».

حضر 302 مندوب مصوّت يمثّلون 150 ألف عامل. لكن بعد

أيام المجد في العام 1905، كان الحزب في ضيق مريع، وقد مزّقه قمع نيكولاي الثاني. كان هنالك اثنان وتسعون بولشفيًا، ومعظمهم مصمم على متابعة النضال المسلّح في العام 1905، وتفادي المشاركة في الدوما. تخطاهم المنشفيون عددًا بخمسة وثمانين منشفيًا، منهم أربعة وخمسون بونديًا يهوديًا، وخمسة وأربعون بولندًا ليتوانيًا، وستة وعشرون ليتيًا دعموا المشاركة في انتخابات الدوما. أراد لينين أيضًا اعتماد استراتيجية السلاح وصندوق الانتخاب المحبّذ في أيامنا من قبل الجيش الجمهوري الأيرلندي وحماس وحزب الله، فلجأ إلى المساعدة المنشفية لربح هذه المعركة قبل الانقلاب عليهم مجددًا.

كان الحزب بأسره يتقلّص، لكن البولشفيين كانوا متجذّرين في جورجيا إلى درجة أن ستالين وتسخاكايا وشوميان، لم يكونوا سوى مندوبين استشاريين من دون حق التصويت.

يفترض أن ستالين سأل شوميان «من هذا؟»، بينما علا المنصّة متحدّث جديد.

أجاب شوميان: «ألا تعرفه؟ هو الرفيق تروتسكي...». اسمه الحقيقي ليف برونشتين، نجم لندن بلا شك، أنجز برغم الصعاب، الهروب من سيبيريا مندفعًا عبر 400 ميل مرورًا بسهل التندرة على عربة الجليد التي تقودها الرّنة. هنا رأى ستالين للمرة الأولى (وربما صافح) تروتسكي، الذي لم يتذكر من جهته لقاء خصمه الرهيب حتى العام 1913.

بينما كان ستالين يقود ميليشياته في شيوتورا، كان تروتسكي

رئيس سوفيات بطرسبرغ. تروتسكي، اللامع في الكتابة بلا جهد، البليغ في أدائه المذهل، وصاحب اللكنة اليهودية الواضحة، والتافه الوقح، ببذلاته الشديدة التأنق، وريش الضفائر الشبيهة بالعرف المنتفخة بعناية، امتلك إشراقة المشاهير الراديكاليين العالميين، متقدّمًا على ستالين بأعوام ضوئية. وعلى الرغم من أنه نجل فلاح يهودي غني من محافظة خيرسون البعيدة، كان متعجرفًا بشكل مفرط، وينظر إلى الجورجيين «كريفيين»، شديدي الارتباك.

لينين، الذي أطلق عليه لقب «القلم»، نظرًا إلى حسّه الصحافي الفني، اشتكى الآن من أن تروتسكي كان يتعالى. وستالين، الذي توارت هباته في الظل في حن تألّقت هبات تروتسكي تحت الأضواء، كرهه بالنظر. وكتب عند عودته: «كان تروتسكي «وسيمًا، لكن بلا منفعة». وسخر تروتسكي ببساطة من ستالين، قائلًا إنه «لا يتكلّم أبدًا».

هذا صحيح، لم يتكلّم ستالين طوال المؤتمر. عرف أن المنشفيين، الذين كرهوه بسبب ضراوته ولصوصيّته، كانوا يتربّصون له كجزء من حملتهم لحظر السطو على المصارف، وتسجيل النقاط لصالح لينين. وعندما اقترح لينين التصويت على أوراق الاعتماد، تحدّى مارتوف، القائد المنشفي الروسي، بتشجيع من جوردانيا، الثلاثة الذين لم يصوّتوا، ستالين وتسخاكايا وشوميان.

سأل مارتوف «لا يمكن المرء أن يصوّت من دون أن يعلم من المشاركون. من هم هؤلاء الأشخاص؟» أجاب لينين غير عابئ، «لا أعلم حقًا»، برغم أنه التقى ستالين للتو في برلين. خسر

مارتوف تحدّيه.

صرخ جوردانيا «نحن نعترض!»، لكن من غير طائل. فاشمأز ستالين من مارتوف، واسمه الحقيقي تسيديربوم، الذي كان، على غرار تروتسكي، يهوديًا.

ضايق الوجود اليهودي ستالين، الذي آمن بأن البولشفيين هم «الفصيل الروسي الحقيقي»، بينما كان المنشفيون «الفصيل اليهودي». لا بد من أن التذمر حصل في الحانة بعد الجلسات. قال البولشفي أليكسينسك لستالين «بمزاح»، «لن تكون فكرة سيئة بالنسبة إلينا نحن البولشفيين، أن ننظّم مذبحة في الحزب». وفي وقت ذُبح آلاف اليهود في المذابح، كانت «مزحة» من العيار الثقيل[266]. كشف امتعاض ستالين من المفكّرين اليهود، عن عقدة الدونية المتّقدة لديه.

لكن هنا أيضًا، برز ستالين الروسي (لأنه لم يكن ثمة معاداة للسامية في جورجيا، حيث قطن اليهود البابليون طوال ألفيتين من دون تعرضهم لمجزرة واحدة).

وبعد أن أثقل كاهله الشجار التافه في جورجيا والهيمنة المنشفية، كان مستعدًا للتركيز على باكو وروسيا بذاتها. وبالتالي، كتب في اللغة الروسية، لا الجورجية.

سار لينين في سبيله إلى المؤتمر. انتخب البولشفيون أعضاء أكثر من المنشفيين في اللجنة المركزية، في حين تابع في الحفاظ على مركزه البولشفي السري. فكّر ستالين لاحقًا: «الآن عليّ أن أرى

لينين منتصرًا».

غير أن المنشفيين توصّلوا إلى قرار واحد، أثّر في ستالين: اعتمدوا إدانة صارمة لعمليات السطو على المصارف، نصّت على الطرد من الحزب لكل من يخرق القواعد. وعيّنوا الأرستقراطي المنشفي الشاذ، جيورجي شيشيرين (لاحقًا المفوّض الثاني للشؤون الخارجية عن الشعب السوفياتي)، للتحقق من كل عمليات السطو على المصارف منذ مؤتمر ستوكهولم. لاحظ ديفدارياني، صديقه المنشفي، «كان ستالين متحفّظًا جدًا خلال هذا اللقاء، وفي معظم الوقت صامتًا، جاعلًا نفسه في الظل». فهم تروتسكي لاحقًا أن ستالين كان منهمكًا بعمليات السطو على المصارف التي قام بها منذ أيار/مايو 1907: «لماذا تكبّد عناء المجيء إلى لندن؟ لا بد من أن لديه مهمات أخرى».

وفي الخارج، «اجتمع الرجال الإنكليز الفضوليون وحدّقوا فينا كما لو كنا حيوانات من بلاد بعيدة!». حاصرت الصحافة المبنى بينما صورت أول نسخ باباراتزي الثوار الخجولين، الذين توسلوا لهم أن يكفّوا عن هذا العمل. وعنونت «الدايلي إكسبرس» «الثوار الروس خائفون من عدسات الكاميرا!». وقال روسي إلى الصحيفة، «أتعي أن نسخ هذه الصور قد يعني الموت؟»، غير مدرك أن كل التدابير الوقائية لا تجدي نفعًا في هذه الحالة.

كان الأشباح قد دخلوا الكنيسة. وكانت الشرطة السرية الروسية - في السابق كما الآن - مغتاظة من توجّه الإنكليز إلى منح اللجوء للمنشقّين الروس. اشتكى أ. م.

غارتينغ، مدير الوكالة الأجنبية للأوخرانا، المتخذة من باريس مقرًا لها «بسبب الليبرالية في لندن، يستحيل الاعتماد على تعاون قوى الشرطة المحلية». اقتفى عميلان أثر الثوار إلى إنكلترا. واندسّ رجال الشعبة الخاصة والشرطة السرية الروسية في الشوارع لبهجة الصحافة، لكن لم تكن الأوخرانا بحاجة إلى المساعدة الخارجية. فعميلها المزدوج ياكوف زهيتوميرسكي، الذي تلقّى 2.000 فرنك شهريًا، كان أحد الخائنين داخل المؤتمر. وفي أرشيفات الأوخرانا، نجد الخطب التي نقلت بشكل ممل، كما في البرتوكولات الرسمية.

كان لينين في أسعد أيامه في لندن. وداخل الكنيسة، تناول المندوبون الطعام خلال الجلسات، لكن كان المال يتضاءل. قلق لينين من أن البولشفيين التابعين له لم يكونوا يأكلون بما فيه الكفاية، فرتّب الأمور كي تقوم خليلة غوركي بتوزيع البيرة والسندويشات.

وبعد الجلسات، تحدّث لينين مع المندوبين على العشب تحت أشعة الشمس، في الهايد بارك، ووبّخهم على نطقهم اللغة الإنكليزية، وضحك معهم بغير تكلّف، وأعطاهم بعض المعلومات حول المساكن الرخيصة، وأخذهم إلى حانته المفضّلة، كراون أند ولباك في فينسبيري، حيث قيل إن تحريا من الشعبة الخاصة اختبأ في الخزانة ليسترق السمع برغم أنه لم يكن يتكلّم الروسية. في 13 أيار/مايو، يمكن أن يكون ستالين قد حضر سهرة التشلسيا الوحيدة له.

وفي مرة مبكرة للأناقة الراديكالية، دعا الفنان فيليكس موسشيليس الماركسيين إلى حفل استقبال مليء بالضيوف باللباس الليلي في منزله في شارع الكنيسة القديم 123. شرب هناك رمزي ماك دونالد نخب الروس، فردّ بليخانوف ولينين. وعبّر مضيفوهم عن تفاجئهم من أنهم لم يرتدوا ربطات العنق البيضاء.

لم يكن ستالين في تشلسيا في معظم الليالي. قضى معظم وقته في الجانب الصعب من البلدة. وكانت خبرته بالتأكيد كخبرة مايسكي: «كنت مشرّدًا في الشوارع الموحشة، المضاءة بشكل شحيح بمصابيح الغاز القديمة، أعبر الجسور القافرة، وأرى لمحة القنوات المظللة السوداء تحت. رأيت شهوة جوف لندن، وسمعت صراخ المومسات والضحك الرنان الوقح لمرافقيهن الثملين. ووقعت على كائنات مشرّدة تنام على سلالم المتاجر المقفلة». وفي مرحلة معينة، في حانة، قد تتغلّب حيوانات الطرق الشرقي على ستالين. ويفترض أن ليتفينوف قد أغاثه. ووفق كريمته، مازح ليتفينوف بأن هذا كان السبب الوحيد الذي جعل ستالين يعفيه لاحقًا، قائلًا، «لم أنس ذاك الوقت في لندن».

وبالعودة إلى ستيبني، قضى إيفانوفيتش (المعروف أيضًا بستالين)، الذي كان يرتدي الجاكيت وفق طراز رداء التنك، والبنطال الفضفاض والأحذية العالية، ويقرأ معظم الوقت في غرفته، لكنه استخدم أيضًا اسم شاب هو آرثر باكون لنقل الرسائل. يتذكر باكون في مقابلة بعد الحرب العالمية الثانية، «كتب ستالين رسالة إلى شخص على بعد شارع، أو هكذا، وأراد أخذها باليد. لم يكن يعرف كتابة اللغة الإنكليزية، فكتبت زوجة

الإسكافي المغلّف». كان يحصل باكون على نصف بنس لقاء كل نقلة، لكن ستالين أعطاه شلنين، وقال باكون: «كانت هذه نقود، أتعلم». ستالين، إما من باب الكرم وإما الجهل، دفع له 4.6 في المئة أكثر من السعر المعتمد. وأضاف باكون: «كان طعامه المفضّل حلوى الطوفي. كنت أشتري له منها يوميًا».

كان ستالين يعيش في فقر مدقع في الطرف الشرقي، ويرجّح أنه رأى القليل من لندن. كان البولشفيون مهووسين سياسيًا ومحدودين ثقافيًا، ونادرًا ما لاحظوا المعالم الطبيعية أو الثقافية. وكتب تروتسكي، للتمتع بمدينة، «يجب أن تنفق الكثير من نفسك. كان لدي نطاق نشاط واحد بلا منازع: الثورة». وسوسو أيضًا.

نادرًا ما كان يملك المال، لكن خلال الحرب العالمية الثانية أسرّ إلى أحد الديبلوماسيين الشبان، أندري غروميكو، لاحقًا وزير الخارجية والرئيس السوفياتي، أنه قضى وقته «في الكنائس يستمع إلى العظات: أفضل طريقة لتعلّم اللغة الإنكليزية». وعندما أرسل غروميكو كسفير إلى واشنطن، اقترح عليه أن يقوم بالأمر عينه.

في هذه الأثناء، لم يعد المؤتمر يملك المال ليدفع لكل مندوب 65 روبلًا ثمن العودة إلى البيت. ولا بد من فعل شيء. لجأ الاشتراكي الروسي اليهودي فيودور روثشتاين، الذي ساعد على تنظيم المؤتمر، إلى الصحافي اليساري ه. ن. برايلسفورد من «الدايلي نيوز» والنائب من حزب العمال جورج لانسبيري. وتقدّموا إلى الزعيم جوزي فيلز، المالك الأميركي لشركة

الصابون فيلز - نافثا.

أجاب «بارون الصابون» «قبل أن أقرر، أريد أن أرى هؤلاء الأشخاص». فأخذه بريلسفورد ولانسبيري فيلز إلى كنيسة الأخوة لمشاهدة جلسة. تعجّب الفيلادلفي، الذي قدّم الحزب 7.100 استرليني، «كم هم يافعون جميعًا، كم هم منجذبون!». ونصّت اتفاقية قرض فيلز «نحن، الموقّعين أدناه المندوبين»، يجب أن نردّ له المال بحلول 1 كانون الثاني/يناير 1908. وشدد فيلز على أن يتم توقيع الاتفاقية من قبل كل مندوب. وافق لينين، لكنه أمر الثوار باستعمال الألقاب فقط. ووقّعوا على هذا المستند الغريب وفق الأصول، باللغتين الإنكليزية والروسية أو الجورجية. ويرجّح أن لينين وقّع فقط «فلاديمير». ويرجّح أن ستالين استخدم لقبا محببا:

«فاسيلي من باكو». لكن فيلز توفي قبل أن يتسلّم لينين الحكم، وسددت القيمة لورثته في العام 1917.

عندما التقى تشرشل[267] بستالين للمرة الأولى في العام 1942، ارتبطا ببعضهما البعض، بعد بداية باردة، وغير حميمة، في ماراثون الشرب الليلي في الكريملين، حين سأل رئيس الوزراء عن الزيارة إلى لندن.

أجاب ستالين «لينين وبليخانوف وغوركي وآخرون كانوا موجودين».

سأل تشرشل عن العدو الذي كان على ستالين اغتياله منذ عامين

«هل هو تروتسكي؟».

فأجاب ستالين «نعم، كان حاضرًا، لكنه غادر خائب الأمل ولم يُعطَ أي منظمة للتمثيل كزمرة المعركة التي تأمّل الحصول عليها...». حتى بعد ثلاثين عامًا وبعد قتل عدوّه اللدود، افتخر ستالين بأنه قاد زمرة المعركة بينما لم يقم مفوّض الحرب الشهير بذلك.

نقل «كوبا إيفانوفيتش»، آخر الأسماء المستعارة لستالين في الباكينسكي بروليتاريا، «مؤتمر لندن انتهى، بانتصار البولشفيين».

لكن، بقي ستالين وشوميان في لندن لخدمة تسخاكايا، الذي أصابه اعتلال جسدي. يستذكر تسخاكايا «كانت حرارتي 39 وما فوق»، فبقي ستالين وشوميان «للاعتناء بي لأننا كنا جميعًا نقطن الغرفة نفسها».

تقول أسطورة تتردد بين الشيوعيين من ويلز، إنه، بعد المؤتمر، تخلى ستالين عن واجباته في رعاية المريض لزيارة عمال المناجم في منطقة الوديان: ففي النهاية، كانت معقله، شياتورا، في العام 1905 بلدة المناجم. لكن على الرغم من المشاهدات العجائبية «لستالين في ويلز» بين شيوعيي الروندا خلال الحرب العالمية الثانية، لا دليل، مهما يكن بسيطًا، على أنه زار ويلز[268]. كما أنه لم يكن قد اخترع بعد اسم «ستالين». لكن يفترض أنه شوهد على رصيف ليفربول، وهذه نسخة سكوز عن لقائه مع العمال على رصيف السفن في لندن. لكن المحزن أن

«ستالين في ليفربول» و«ستالين في ويلز» ينتميان إلى المعترك الخرافي للميثولوجيا المدنية، والفانتازيا التطلعية الإقليمية، والعبادة الشخصية اليسارية[269].

بعد حوالي ثلاثة أسابيع في لندن، قضى سوسو أسبوعًا في باريس، ثم استعمل الأوراق الثبوتية لجورجي توفي لتوّه، هو سيمون جفيلايا، فوصل إلى بيته في تيفليس عشية السطو الكبير على المصرف[270].

(20)

جنّ جنون كامو:

لعبة اللصوص والقوزاقيين

في 10 أيار/مايو 1907، كان كامو يضع فتيل قنابل كراسين عندما انفجرت في وجهه. كاد يفقد عينه، لكنّه قام بعلاج سري، وتعافى بما فيه الكفاية لقيادة الجماعة في اليوم الكبير الذي اقترب. افتقد أفراد العصابة الآخرون رئيسهم الموقوف، تسانيتسادزي، واعتبروا كامو شخصًا يسعى إلى جذب الانتباه ويروّج لنفسه.

قال كوبرياشفيلي «كان كامو يعتزّ بنفسه كثيرًا، ويتبجّح بقيمته أمام الرفاق المهمين ويتباهى بها».

عاد ستالين بحلول 4 حزيران/يونيو، فورًا بعد أن أطلق رئيس الوزراء بيتر ستوليبين، انقلابه الذي أتى كردة فعل، وأعاد وضع قواعد انتخاب الدوما لضمان الأكثرية المحافظة وكثّف الإجراءات الصارمة على الثوار. تم توقيف العديدين، ونُفي العديد إلى سيبيريا في قطارات سجنية دعيت «عربات ستوليبين»، وشُنق العديدون إلى درجة أن حبل الشنق أسمي «ربطة عنق ستوبيلين». كان هنالك 86 ألف سجين سياسي في العام 1905؛ وفي العام 1909 أصبحوا 170 ألفًا.

جمع كامو فريقا كبيرًا من أفضل السفاحين والساطين على المصارف في جورجيا، بمن فيهم أساس الجماعة وحاملات

المسدسات الخمسة. عاشوا وانتظروا في شقة جماعية صغيرة، بينما استأجر كامو بنفسه منزلًا كبيرًا «يعيش تحت الغطاء كالأمير». اعتبرت الأوخرانا أن ستين لصًا قد اشتركوا في عملية السرقة، فيرجّح أن البولشفيين قد لجأوا إلى مساعدة الاشتراكيين الثوار ورجال البندقية الأبرز الآخرون: غالبًا ما تعاون الإرهابيون. ومؤخرًا عندما زوّد كراسين الاشتراكيين الثوار بالنابل لتفجير منزل رئيس الوزراء ستوليبين بالديناميت. وإذا أمل الاشتراكيون الثوار في الحصول على حصة من الغنيمة، فسيخيب أملهم.

أعلم ستالين اللجنة البولشفية في تيفليس عن أوامر لينين التي أعطاها في برلين؛ فوافقوا على العملية. توقّع القمع المحلي والفضيحة العالمية: استقال كامو والمسلحون بشكل موقت من الحزب، نزولًا عند اقتراح لينين، وبالتالي حرروا أنفسهم تقنيًا من قرار لندن. خطط ستالين وشميان للانتقال إلى باكو مباشرة بعد العملية. انتهى أمر البولشفيين في جورجيا، مع ما لا يتعدّى 500 مشجّع. كان سوسو يحرق متعمّدًا جسوره الجورجية، ويبدأ من جديد في جو طموح أكثر[[271]].

* * *

في أوائل 13 حزيران/يونيو، أكّد كامو لستالين وشوميان أن السرقة ستحصل في ذاك النهار. انتظر أفراد العصابة في حانة تيليبوشوري، حيث يقال إن ستالين شوهد في صبيحة ذاك

اليوم[272] قبل الساعة العاشرة صباحًا: كامو بلباس الضابط، متفاخر متهوّر بسيفه الجركسي، امتطى الجواد خارج ساحة يريفان، فاتخذ أفراد العصابة الشبان والشابات مواقعهم. كان يوم صيف حار.

عندما قضّت القنابل مضجع المدينة، كانت كاتو سفاندزي دجوغاشفيلي تعانق طفل ستالين، لادي، البالغ من العمر ثلاثة أشهر، على الشرفة إلى جوار شقيقتها، ساشيكو. قالت ساشيكو سفانيدزي «هرعنا إلى الداخل، مذعورات تمامًا. طوال بقية النهار، عولج الجرحى في عمليات جراحية موقتة. قفز القوزاقيون والدرك عبر المدينة، يقتحمون المنازل، وطوقوا أقسام المدينة والحواجز، آملين استعادة المال قبل أن يتم ترحيله عن تيفليس.

تقول ساشيكو «في ذاك الليل، عاد ستالين إلى البيت وقال لنا إن كامو وعصابته قد فعلا ذلك، وسرقا 250 ألف روبل للحزب». لا بد من أنه أخبر الشقيقات عن احتراف كامو التمثيل لأنهن أدركن لماذا اقترض لتوه سيف والدهن. تُظهر مذكرات آل سفاندزي أنه، بدلًا من أن تكون كاتو غافلة، ببراءة، عن حياة ستالين المزدوجة، كانت واعية تمامًا إلى أنها اقترنت بأبي الساطين على المصارف في القوقاز. لكن ستالين أعلم العائلة فجأة أن زوجته والطفل سيغادران فورًا إلى باكو. لم يوافق آل سفانيدزي على ذلك. لا بد من أنهم شعروا بالعجز، لأنه حتى في الثلاثينيات تجرأت العائلة على انتقاد ستالين، لأنه أخذها في رحلة

في القطار لمدة ثلاث عشرة ساعة «في صيف حار» وبصحبة طفل. لكن بلا جدوى: «غادر سوسو متوجهًا إلى باكو وأخذ كاتو»، حاملًا 150 ألف روبل لخططه المستقبلية.

نام كامو المريض. وقبل أن يغادر، قدّم بكياسة «إلى الرجل المخبر من الداخل» لدى ستالين 10 آلاف روبل لقاء مساعدته. وقبل فوزنيسينسكي 5 آلاف بلطف.

وبدأت الأمور الآن تسوء من جديد. أعلنت الشرطة أن 100 ألف روبل في الأوراق النقدية التي تحمل رقم 500 تحمل علامات محددة، من AM 62901 إلى 63000.

وأراد بعض أفراد العصابة حرق الأوراق النقدية. لكن كامو رفض. فقد كانت النقود المتبقية تحمل أرقامًا ضئيلة.

أراد كل السفاحين لقاء لينين، لكن كانت عين كامو بحاجة إلى علاج خارجي، فقام هو، الذي يحمل معظم المال، بالذهاب بالقطار عبر باكو إلى لينين في فنلندا. أقرض الأمير كوكي دادياني، الذي حكمته عائلته مرة مينغريليا، كامو جواز سفره. ومضيفًا شريحة جديدة إلى هذا التنكّر المفضّل لديه، تنكّر كامو الآن كالأمير الذي ترافقه عروسه الشابة الجديدة (إحدى فتيات العصابة، لسخرية القدر لكن لفائدتها، هي ابنة رجل شرطة)، في اليوم الذي جاء بعد عرسه.

كانت فتيات الجماعة متمرّسات في إخفاء المال والديناميت: يعطي الديناميت رائحة نتنة حمضية وحادة، بخاصة عندما يربط على جسم يعرق، فكان على السيدات أن يغرقن أنفسهنّ بالعطر. كان

المال أسهل، سافرت الصرة في الثياب الداخلية للعروس وملابسها. ويرجّح أنه تمت رشوة رجال الشرطة الفاسدين كي يغضوا النظر.

سلّم كامو ما يناهز 1.7 مليون جنيه استرليني (3.4 ملايين دولار بالعملة اليوم) إلى لينين، ما يكفي لتمويل الفصيل لبعض الوقت. قضى كامو الصيف مع بطله، مخططًا «لمشهدية» ضخمة. لكن رد الفعل لحق بفترة وجيزة لينين، الذي فرّ إلى جنيف، حيث «المواطنون السويسريون»، كما كتب كروبسكايا، «كانوا خائفين حتى الموت... ويعجزون عن الكلام إلا حول المصادرة الروسية للأراضي». أصبحت جورجيا عنوان العصابات: عندما زارهم تسخاكايا في معطف الشوكا، كاد يغمى على صاحبة الأرض من شدة الذعر، و«في صرخة خوف، دفعت الباب في وجهه».

لم تكن هذه نهاية القصة: صنع السطو على المصرف في تيفليس من كامو أسطورة[273]، لكن تبعاته أسهمت في تحطيم الحزب، وبقيت تهدد بتدمير ستالين حتى العام 1918[274].

* * *

وكما في كل عملية إجرامية ناجحة، تصارع السفاحون بسرعة على الغنائم. نشرت الشرطة الأرقام التسلسلية للأموال المسروقة من 100 ألف روبل. وبالتالي يصعب دفعها كنقود، لكن مزوّر المجموعة الفنية لدى كراسين، المعروف باسم فات فاني، غيّر

بعض الأرقام على الأوراق النقدية. قرّر لينين وكراسين المتابعة، تحديدًا بما أن بقية المال المسروق نظيفة. تم تهريب المال فورًا إلى الخارج. تم غسل بعض المال من خلال بنك كريدي ليونيه. وزّع ليتفينوف النقود على مشغّليه لتغيير المال في مختلف المدن.

وفي هذه الأثناء، قامت الشرطة السرية بسعر جهيد بسحب علامات الوقوف لإلقاء القبض على المجرمين، لكنهم لم يكتشفوا شيئًا ملموسًا. كشف مخبروهم في تيفليس، وتحديدًا شخصيًا يحمل اسم «المرأة السمينة» أو «الفات لايدي»، أن مسلّحي الاشتراكيين الثوار قد شاركوا، لكنهم تعرّضوا لسرقة مغانمهم.

وكان أول مشتبه فيه، الساطي الآخر على مصرف غوري، دافريشوي، الذي كان (وفق تقارير الأوخرانا) «يختبئ في لوزان باسم كامو».

عرفت الأوخرانا أن «كامو أرسل كل المال إلى كراسين ولينين»، لكن الثوار بدأوا الآن يتشاجرون. صرف لينين على الأقل 140 ألف روبل من محصّلات سرقة كامو.

لكن في العام 1908، شرع في حلقة مفرغة بسبب الضغينة الخفية التي شرذمت مجددًا الحزب إلى شطرين اثنين. فكّ صلته ببوغدانوف وكراسين[275]، اللذين اختلسا زهاء 40 ألف روبل من مال تيفليس، لنفسيهما. أرسل ليتفينوف «إرهابيّين جورجيّين» ليبلغاهما أنهما لو لم يُرجعا المال بسرعة، فإن الجورجيين «سيزهقون روح» أحد أفراد اللجنة المركزية.

أصبح لينين بسرعة مجددًا من دون مال. لم يكن السطو على المصارف مصدر تمويله المريب الوحيد. أمر بولشفيّين خبيثين بإغواء شقيقتين لم يسبق لهما أن تزوّجتا، وقد ورثتا ثروة طائلة من عمّهما، شميدت، وكان صناعيًا. ونجحت عملية الإغراء المزدوجة، برغم أن لينين اعترف بأنه ما كان ليستطيع أداء المهمة بنفسه. وسرق أحد اللذين أغروهما، ويُدعى فيكتور تاراتوتا، مبالغ كبيرة من الميراث لينفقه على عيشه الرغيد قبل أن ينقل ما بقي إلى لينين.

قرّر كامو، الموجود الآن في برلين، المساعدة بالقيام بأكبر عمليات السطو على المصارف على الإطلاق: سرقة 15 مليون روبل «موّلت الحزب لمدة ست سنين، لكنّها كلّفت حصد 200 روح». خطط طويلًا للعملية، حاملًا ذخائر الديناميت ومستخدمًا جواز سفر باسم ميرسكي، وهو عميل تأمين، سافر في آب/أغسطس إلى برلين للتزوّد بالمتفجرات. لكن رجل لينين في برلين كان د. زهيتوميرسكي، العميل المزدوج الذي أخبر الأوخرانا عن مؤتمر لندن. لقد خان الآن زهيتوميرسكي كامو.

في الفترة بين 27 تشرين الأول/أكتوبر و9 تشرين الثاني/نوفمبر 1907، هاجمت الشرطة الألمانية غرفة الفندق، حيث ينزل كامو، ووجدت العديد من الأوراق النقدية و200 فتيل ديناميت، واثني عشر فلمينات من الزئبق واثنتي عشرة بطارية كهربائية. تحمّست الأوخرانا، لكن عناصرها لم يتعرّفوا بعد إلى هوية «ميرسكي». بين 31 تشرين الأول/أكتوبر و13 تشرين الثاني/نوفمبر، أعلن غارتينغ، مدير إدارة الاستخبارات الأجنبية التابعة للقيصر،

بنصر، أن «ميرسكي» كان يخطط «لسرقة كبيرة»، وكان يملك بعض الأوراق النقدية من تيفليس، لكن لا دليل على مشاركته في الاعتداء الفعلي. كانت الأوخرانا لا تزال تعتقد أن دافريشوي هو «كامو».

فمن كان «ميرسكي» إذًا؟

في النهاية، حالف الحظ الأوخرانا. في الأول من آذار/مارس 1908، كشف لص بولشفي سابق في سجن قتيسي، يُدعى أرسن كارسيدزي، أن رئيس الساطين على المصارف هو سيمون تير - بيتروسيان، المعروف باسم كامو، والمعتقل اليوم باسم «ميرسكي» في سجن ألت - موابيت في برلين. وأكّد تقرير آخر أن دافريشوي ما زال في المنفى في سويسرا، وليس هو كامو على الإطلاق.

وافقت حكومة القيصر على تسليم كامو، الذي سيواجه حكم الإعدام. وسارع كراسين إلى برلين لتنظيم الدفاع ووظّف المحامي اليساري الألماني، أوسكار كوهن. نصح كراسين كامو بأن يتظاهر بالجنون، وهو مؤهل للعب هذا الدور أكثر من أي شخص آخر.

بدأ كامو التصرّف كشخص مجنون بطريقة لا يمكن سوى للمخبول حقًّا فعلها. وحافظ على هذا النمط طوال عامين كاملين. بدأ، أولًا العراك والبكاء وتمزيق ملابسه وضرب السجّانين. نقلوه إلى زنزانة مثلجة، حيث بقي طوال تسعة أيام. ويبدو أنه لم ينم، وأمضى الليالي واقفًا طوال أربعة أشهر. ثم أضرب عن الطعام،

لكنهم أجبروه على الأكل عبر أنبوب. كان ينتشل الشعر من رأسه. حاول شنق نفسه، لكن انقطع الحبل. شقّ معصمه لكنهم أنعشوه. وفي أيار/مايو من العام 1908، نقلوه إلى مستشفى الأمراض العقلية، بوخ، في برلين ليخضع للتشخيص. قلّد المرضى الآخرين واعتمد حالاتهم المرضية: ادعى أنه نابليون. كان الأطباء مشككين، وقرروا إخضاعه لسلسلة من عمليات التعذيب كانت لتتعذّر على أي شخص آخر. أحرقوه بالحديد الأحمر الحار، ومرّرت الإبر تحت أظافره، لكنّه قاومها كلّها. وفي النهاية، أقرّ الألمان بأنه مجنون، وغسلوا أيديهم من «المعتوه» المثير للمتاعب. سلّموه إلى الروس الذين، بغض النظر عن ذلك، حاكموه على «اعتداء» تيفليس والضحايا الخمسين. وفي المحكمة، سحب كامو البطيء الحركة، والذي يهذي فجأة، عصفورًا، بيتكا الحضيري، من كمّه أثناء المحاكمة، وتوجّه بطريقة مجنونة إلى صديقه الطير بدلًا من المحامين.

كان رئيس الوزراء ستوليبين ونائب الملك، فورونتسوف - داشكوف، مصممين على شنقه. لكن محاميه، كوهن، نظّم حملة إعلان أوروبية ناجحة ضد إعدام المجانين، فقرّر ستوليبين متردّدًا أن الشنق «سيؤثر بشكل غير محبّذ في المصالح الروسية».

وفي الاختبارات، وجد الأطباء الروس أن جلد كامو لا يسجّل أي ألم. ومرورا المزيد من الإبر تحت أظافر أصابعه، ثم أخضعوه للصدمة الكهربائية. فكّر كامو «اللحم المحروق يوخز ويلسع بشكل رهيب». وهذه أيضًا قناعة الأطباء.

في أيلول/سبتمبر 1910، أَعلن كامو مجنونًا وسُجن للأبد في وحدة المجانين المجرمين في قلعة ميتخي. صفّق البولشفيون لبطولة كامو، لكن طبيبًا شرح أنه «وحده المريض المصاب جدًا في حالة الجنون يتصرّف بهذه الطريقة». وكتبت المؤرخة آنا غايفمان: كان كامو مخلوقًا «يحدوه الشغف والقلق الجامح... لا يستطيع العمل بشكل طبيعي... تظاهر بالجنون، وهو في الواقع مجنون».

في هذه الأثناء، تعقّبت الشرطة الأوراق النقدية المعلّمة التي بدأت تدور في كل أرجاء أوروبا. في باريس، وجد ليتفينوف تحريًا تحت سريره في الفندق: أُوقف ومعه اثنتا عشرة ورقة نقدية معلّمة، لكنه نُفي إلى لندن. واعتُقل كراسين في فنلندا. وأُوقف مزوّرو أموال آخرون في ميونيخ وزوريخ وباريس وبرلين وستوكهولم.

أعلنت الأوخرانا المنتشية «لم يحصل المنشفيون على سنت واحد (من نقود سرقة تيفليس)، لذلك يطلبون، على أساس قرارات مؤتمر لندن، طرد كل هؤلاء الذين صادروا الملكية من الحزب».

كان ستالين في مأزق[276].

* * *

فوّض المنشفيون المعتدى عليهم، ثلاث لجان مختلفة، شرعت تعمل طوال عامين من الزمن، لتقصّي الحقيقة في من نظّم السطو على مصرف تيفليس: واحدة يترأسها جوردانيا في تيفليس،

والثانية دجيبلادزي في باكو، والثالثة في الخارج، تحت سلطة شيشيرين. شوّهت عمليات السرقة القاتلة سمعتهم، لكنّه أرادوا أيضًا تدمير لينين، مستخدمين ستالين وكامو.

قام المنشفيون باستجواب كل المتهمين الرئيسيين بشكل وهمي، بمن فيهم ستالين بذاته، الذي أُجريت معه مقابلة على أنه «الرفيق كوبا» في باكو. والأمر العجيب أن هذه المقابلة ما زالت في الأرشيف، وكانت أول دليل مباشر على ضلوعه في هذا العمل. أقر «الرجلان المخبران من الداخل»، كاسرادزي وفوزنيسينسكي، بكل شيء، ولاما ستالين. أكّد لينين براءته الشخصية لشيشيرين، بما أن السارقين «لم يقدهم أي من أعضاء الحزب». وصوّتت اللجان في تيفليس وباكو، وفق أرسينيدزي وأوراتادزي، على طرد ستالين من الحزب. لكن الحزب كان قد انقسم على نفسه، وبالتالي بات السؤال المطروح: هل يتمتّع المنشفيون بسلطة طرد بولشفي.

بيد أنهم جمعوا الدلائل ضد ستالين لمواجهة لينين. وفي آب/أغسطس من العام 1908، التقوا في جنيف، حيث وبّخ مارتوف لينين. وذكر نوي راميشفيلي الأسماء - بمن فيهم المشتبه فيهما عادة كامو وتسينتسادزي - ثم أعلن أن «كل هؤلاء تصرّفوا بتوجيه من الرفيق كوبا».

قفز لينين ليقاطع الجلسة، ونطق بكلام لاذع «لا تُعطِ اسم شهرة هذا الشخص الأخير».

ابتسم راميشفيلي «لن أعطي الاسم، لأننا نعلم جميعًا أنه معروف

بلينين القوقازي». كان ستالين ليفتخر بذلك.

أصرّ لينين «أتتحمّل مسؤولية ألا يتم الإفصاح عن هذه الأسماء للشرطة؟». وأدّت سرية اجتماعات ستالين بلينين دَينها: يمكن المنشفيين أن يعتقلوا ستالين، لكنّهم لا يستطيعون توريط لينين. لكن، إذا كان لا بد من إثبات عن علاقتهما في العامين 1907 و1908، فإن حماية لينين لستالين أكبر إثبات.

يبدو أن ستالين طُرد، لكن بالتأكيد ليس من قبل اللجنة المركزية، بل محليًا، في تيفليس وباكو. وإذا ثبت ذلك، فقد كان هذا حتى وصمة عار حقيقية في شرعية عمله الثوري.

عندما تسلّم البولشفيون الحكم وستالين، أحد مساعدي لينين الأقرب، حاول المنشفيون نسفهما بإعادة القضية بأكملها. نشر مارتوف مقالة في العام 1918 تذكر ثلاثة أمثلة عن عمل ستالين اللصوصي: سرقة تيفليس، وقتل العامل في باكو، والسلب القرصني لسفينة أخرى تدعى نيكولاي الأول من باكو.

والأفظع، أن مارتوف كتب أن ستالين طُرد من الحزب في العام 19. وفي العام 1918، كان ستالين بحاجة إلى مصداقية البولشفي القديم الذي خدم طويلًا، وشعر بالخطر في قصة الطرد. وبالتالي، بطريقة هستيرية تقريبًا، هاجم هذا «العمل الخسيس لرجل غير متّزن ومهزوم»، وقاضى مارتوف «لهذا التشهير القذر» قبل المحكمة الثورية، إحدى المحاكم الأغرب في التاريخ السوفياتي.

لم ينكر ستالين، ولم يقرّ أيضا بدوره في السرقات، لكنه شدّد على أنه «لم أُحاكَم قطُّ في حياتي أمام أي تنظيم حزبي وأُطرد»، وهذا

الأمر صحيح حرفيا على الأرجح لأن اللجان في تيفليس وباكو كانت منشفية، وليست بولشفية، وأي طرد هو غير رسمي. كان الشهود سيُستدعون لاحقًا للمثول أمام المحكمة في موسكو، لكن ذلك صعب خلال الحرب الأهلية. لقد أُلغيت المحاكمة، وخضع مارتوف للتأنيب، لكن ستالين وضّح فكرته.

زمجر على مارتوف، الذي رُحّل إلى المنفى[277] قائلًا «أنت شخص بائس خسيس». وعندما عاد ستالين إلى تيفليس في العام 19 كبولشفي فاتح، واجه صوت استهجان في اجتماع ودعي بشكل علني، ويتهمه: «لص»، في وجهه، فاستشاط غضبًا. ولم يُعَد إلى ذكر لصوصية ستالين وطرده أبدًا من جديد خلال حكمه.

المهم أن لينين لم يأخذ الطرد المحلي لستالين على محمل الجد: «ترتكز عمليات الطرد هذه دائما تقريبا على الأخطاء، أو التقارير غير المتحقق منها، أو سوء الفهم...». بالطبع، عرف أكثر عن الموضوع مما أظهر، لكنه اعترف بشكل متنام، بأن ستالين، الإرهابي ورئيس العصابات والمنظّم السري، يمتلك «الشيء المناسب»[278].

كان الاضطراب بشأن العمل الجورجي عظيما، غير أن عمليات السرقة لم تنته بعد. ما زالت لعبة «اللصوص والقوزاقيين» هائجة وشاقة في باكو، حيث الرهان أكبر منه في تيفليس. وبدت كبيرة جدًا بالنسبة إلى كاتو.

(21)

مأساة كاتو: قلب ستالين من حجر

أسكن ستالين كاتو، ولادي، طفلهما، في شقة عامل في النفط، وغرق في حياة اللصوصية والتجسس واختلاس الأموال ونشر الاضطراب، وهي الأعوام الأكثر ظلمة في مسيرة ستالين بأكملهما. وعلى الأرجح لأنه في جدول آل روتشيلد مجددًا، نقل بسرعة عائلته الصغيرة خارج مدينة باكو إلى «بيت تتري ذي سقف منخفض على شبه جزيرة بايلوف التي استأجرها من مالكها التركي»، مباشرة فوق كهف، على الساحل تمامًا.

جعلت كاتو، مدبّرة المنزل بالفطرة، الكوخ دافئًا ومريحًا، مع سرير خشبي، وستائر، وماكنتها الصغيرة للخياطة في الزاوية. لاحظ الزوار الفرق بين الخارج الوسخ والداخل المرتّب والأنيق. لكن ستالين لم يكن هناك في أغلب الأحيان. لم تكن كاتو تعرف الكثير من الناس، لكن سيرغي أليلوييف زارهم. أصبح مدير معمل الطاقة المحلي، ويقطن مع أولغا والأطفال في فيلا على الشاطئ. هنا في باكو وقعت أصغر بناتهم، ناديزهيدا، التي تلبس فستانًا أبيض جميلًا، على حافة باحتهم المشمسة إلى بحر قزوين. قفز ستالين وأغاثها، وأضحت قصة رومانسية، غالبًا ما أعيد ذكرها عندما كبرت.

ستالين الذي يرتدي دائما علامته التجارية، الفيدورا السوداء، أدلى بخطاب في 17 حزيران/يونيو 1907. وفي اليوم نفسه جاء،

وانهمك في تحرير الصحيفتين البولشفيتين، «باكينسكي بروليتاريا» و«غودوك» (الصفارة). بدأ فورًا في السيطرة على الحزب هناك بسياساته العدائية وترهيبه الإرهابي وجمع التبرعات للعصابات.

في كل أنحاء روسيا، تتذكر تاتيانا فوليخ «غلب رد الفعل، دُمّرت كل الحريات وسُحقت الأحزاب الثورية». لكن باكو، الخاضعة لحكم الشركات النفطية ورجال الشرطة الفاسدين بقدر محافظي القيصر أنفسهم، اتبعت قواعدها الخاصة. كان ستالين في نشاط مستمر في تيفليس، لكن لبضعة أشهر قبل أن يتخذ ستوليبين الإجراءات الصارمة التالية. كان يستطيع أن يجوب شوارع باكو. كانت تيفليس، بحسب تأمل ستالين، «مستنقعًا» أبرشيًا، لكن باكو «كانت أحد المراكز الثورية في روسيا»، وكان نفطها حيويًا للقيصر والغرب، وعمّالها بروليتاريا حقيقية، وشوارعها عنفية وغير خاضعة للقانون. وقد كتب ستالين عن باكو: «معموديّتي الثانية بالحريق» [279].

* * *

كانت باكو مدينة «الفسق والاستبداد والتهوّر»، وفجر «الدخان والظلام». دعاها محافظها الخاص «أخطر مكان في جورجيا». أما بالنسبة إلى ستالين، فقد كانت «مملكة النفط».

سلالة واحدة استحدثت باكو. النوبل، السويديون بالمنشأ، والروس بالصدفة، والعالميون بالغريزة، جمعوا أول ثروة لهم ببيع أراضي

المناجم للقيصر نيكولاي الأول، لكن، في العام 1879، عام اكتشاف أول «نبع» نفط في باكو، أسس الأخوان لودفيغ وروبرت نوبل، شركة النفط للأخوين نوبل في المدينة المعروفة أساسًا بفضل المعبد القديم الزاردشتي، حيث كان كهنة ماجي يمدّون لهب النار المقدّسة المزوّدة بالوقود[280]. كان التنقيب قد بدأ. تفاجأ المقاولون بالنفط في بئر بترولية غزيرة التدفق وكبيرة.

بدأ آل نوبل شراء الأراضي تحديدًا في ما سمّي المدينة السوداء. واخترع أخ آخر، هو ألفرد، الديناميت، لكن اختراع لودفيغ لصهاريج النفط كان بالأهمية نفسها أيضًا. تبع آلُ روتشيلد الفرنسيّون، آلَ نوبل إلى باكو. وبحلول الثمانينيات، كانت شركة النفط في البحر الأسود للبارون ألفونس دي روتشيلد، ثاني منتج للنفط، وعاش عمالها في المدينة الصناعية المسماة المدينة البيضاء[281]. وبحلول العام 1901، أنتجت باكو نصف نفط العالم. وجائزة نوبل، التي تأسست في ذاك العام، موّلتها أرباح باكو.

الطفرة النفطية فيها، كالسباق إلى الألماس في كيمبرلي، أو السباق إلى الذهب في كاليفورنيا، حولت الفلاحين إلى أصحاب الملايين بين ليلة وضحاها. تحوّلت المدينة الفارسية سابقًا المليئة بالغبار والعواصف، والمبنية على حافة بحر قزوين حول الجدران والشوارع العاصفة للقلعة من القرون الوسطى، إلى إحدى أشهر المدن في العالم.

ملأ «ترفها البربري» الصحف الأوروبية، الملتمع بالغنى الآني والإنسانية الملحوظة والسوقية السابقة واللاحقة. يجب أن يكون لكل بارون نفط قصر، ومعظمها بحجم قطعة مدينة. حتى آل روتشيلد بنوا قصرًا، سُمي قصر نوبل فيلا بيتروليًا، وأحاطه منتزه مورق. أصرّ بارون نفط على بناء قصره من الذهب، لكن كان عليه أن يوافق على تغطيته بصفائح الذهب القشرية لأن الذهب يذوب؛ وآخر بنى منزله كجسم تنّين ضخم والمدخل بين فكّيه؛ وثالث بنى قصره الشاسع على شكل رزمة بطاقات مزخرفة بالأحرف الذهبية: «هنا أقطن أنا، عيسى بيك من غاندجي». جنى مغن شعبي ثروته عندما تمت مكافأة أدائه بأرض يندفع منها النفط:

قصره الكلاسيكي الجديد هو الآن مقر شركة النفط في دولة أذربيجان.

كانت باكو مكانًا ينصهر فيه السكان في الفقر المثير للشفقة والغنى الفاحش، وشوارعها، وفق آنا أليلوييف، مليئة «بالمسلمين باللحية الحمراء... وبعتّالي الشارع المسمّين أمبالًا، وقد انحنوا تحت الحمل الثقيل... الباعة المتجوّلون التتريون يبيعون الحلوى، ووجوه غريبة في الحرير الهامس، وأعينهم السوداء المتّقدة تراقب عبر الشّقّ. بدا كل شيء أنه يحصل في الشوارع»، التي تعج برجال القبائل في المعاطف المثنية مع الخناجر المرصّعة بالجواهر؛، الفرس بالصدريات والقبعات اللبادة؛ يهود الجبال في قبعات الفرو؛ وأصحاب الملايين الغربيين في سترة الفراك، وزوجاتهنّ يزدن بالموضة الفرنسية. أسمى ستالين القوى العاملة

من الآذريين الترك والفرس والروس والشيشانيين والأرمن «المشكال الوكني». تتنزّه الأغنياء نزولًا عند المستويات الساحلية المظللة بعربات الحراس الذين يحملون الأسلحة.

غير أن مصدر هذا المال كله، السائل فوق بئر البترول ومصافي النفط، سمم المدينة وأفسد الناس. تقول آنا أليلوييف «سال النفط من كل حدب وصوب. لم تكن الأشجار تستطيع أن تنمو في هذا الجو المسمّم». وفي بعض الأحيان، كانت تخرج فقاقيع من البحر، وتشتعل، فتؤدي إلى أمواج رائعة من الحريق.

كانت المواد السوداء والبيضاء والبلدات النفطية الأخرى، ملوّثة بالأحياء الفقيرة. عمل 48 ألف عامل في ظروف رهيبة، يعيشون ويتقاتلون مع بعضهم البعض في الشوارع المكسوة بالسخام «المفروشة بالنفايات البالية، الكلاب التي نزعت أحشاؤها، اللحم النتن والبراز». كان منزلهم أشبه «بمساكن ما قبل التاريخ». لم يكن أمد الحياة يتعدى ثلاثين عامًا. تغلي حقول النفط «بغياب القانون والجريمة المنظمة وكراهية الآخر. ساد العنف الجسدي والاغتصاب والحقد الدموي في حياة العمال اليومية».

يقول ستالين: كانت باكو «جامحة يتعذّر لجمها»، والبروليتاريا فيها التي تفتقد الجذور، مثالية بالنسبة إلى البولشفيين. كانت تحديدًا فاسدة؛ غموضها الأخلاقي وفرصها النفاقية تناسب سخرية ستالين التآمرية. قيل إنه لا يوجد في المدينة بأكملها إلا عشرة رجال صادقين (سويدي ونوبل بلا شك، وأرمني وثمانية من التتر).

باكو «هي دودج سيتي بأجزائها المُساوية، وبغداد القرون الوسطى، وبيتبيرغ الصناعية، وباريس القرن التاسع عشر، لكنها فارسية جدًا لتكون أوروبية، وأوروبية جدًا لتكون فارسية». كان رؤساء الشرطة فيها معروفين بفسادهم؛ الأرمن والآذريون فيها مسلّحون ومتيقّظون؛ والمسلّحون الكثر، الكوشي، يؤدون الاغتيالات لقاء 3 روبلات للضحية الواحدة، أو يحرسون أصحاب الملايين، أو يحملون «سلاح الموسر». وأفراد العصابات يلوّحون دائمًا بالموسر. كتب عيسى بيك «مدينتنا، لا تختلف عن الغرب البري، تعج باللصوص والسارقين».

في باكو، متحديًا بتهوّر بارونات النفط، و«يمينيي» المنشفيين والبولشفيين، ازدهر ستالين ليصبح مقدّم الثورة والإجرام في مملكة النفط. وعبر باكو[[282]]، وجد متأخرًا، دورًا روسيًا وطنيًا، فترقّى من «غلام ممتهن إلى حرفي الثورة»، فأصبح هنا «لينين الثاني»[283].

* * *

في آب/أغسطس من العام 1907، عندما كانت كاتو الفقيرة تعاني بشكل خطير بسبب الحرارة الخانقة والملوّثة في باكو، عاد ستالين إلى ألمانيا لحضور المؤتمر الدولي الثاني في شتوتغارت. والتقى أليوشا سفاندزي، التي ما زالت تدرس في ليبزيغ. كتب مونوسيليدزي: ارتاد سوسو وأخوه غير الشقيق «المواطن التي تستحق الزيارة، وحضرا اجتماعات العمال الألمان في المطاعم

والمقاهي».

الألمان «هم غريبو الأطوار كالنعجة»، هذا ما قاله ستالين لاحقًا للقائد اليوغوسلافي ميلوفان دجيلا (وقال الشيء نفسه لتشرشل). «حيثما ذهب الرام، يلحقونه». وفي الطريق إلى المؤتمر، شعر بعض الشيوعيين الألمان أنفسهم غير قادرين على مغادرة المحطة لأنه لا وجود لجابي بطاقات السفر. كانوا مطيعين جدًا للقواعد، فقال ستالين «لم يحضروا فعليًا الاجتماع الذي قاموا لأجله بالرحلة كلها». ومازح قائلًا إن رفيقًا روسيًا أظهر لهم «حلًا بسيطًا: غادروا المنصة من دون إظهار بطاقات السفر!»[284].

عاد سوسو إلى باكو في وقت اندلاع اضطراب إثني آخر. في 19 أيلول/سبتمبر، قُتل عامل آذري يدعى خانلار على أيدي الوطنيين الروس. واحتجاجًا على ذلك، أضرب العمال. تحدّث ستالين في الجنازة.

وفي لقاء بعد وقت وجيز، واجه والبولشفيين المنشفيين واستولى على زمام الأمور في التنظيم المحلي: أصبحت باكو مدينة بولشفية. ركّز سوسو عمله، لكن مونوسيليدزي يشير إلى أنه «عندما كان معنيًا، كان ينسى كل شيء»... حتى كاتو.

يقول إليسابيداشفيلي، الذي انضم إليه في باكو «أحبّها سوسو كثيرًا». «الزوجة والطفل والصديق لا بأس بهم إذا لم يُعيقوا عمله، وإذا رأوا الأمور من منظاره.

يجب أن تعرف سوسو لتفهم حبّه».

* * *

«كان الجو حارًا جدًا في باكو»، بالنسبة إلى كاتو. يتذكر مونوسيليدزي «كان سوسو يغادر باكرًا في الصباح ويعود متأخرًا في الليل، في حين تبقى كاتو في المنزل مع طفل هزيل، مذعورة من احتمال اعتقاله». «النظام الغذائي السيئ والنوم القليل والحرارة والضغوطات النفسية المتتالية، أضعفتها. شعرت بالمرض يتملّك أوصالها. هي المحاطة بالغرباء، لم يكن لديها صديق إلى جانبها. وسوسو المنشغل جدًا نسي أمر عائلته!».

عرف ستالين أنه زوج وأب مهمل، لكن، على غرار كثر عانوا في ظل العائلات المفككة، لم يكن في اليد حيلة. لا بد من أنه تكلّم في الموضوع مع إليسابيداشفيلي: «ندم سوسو على ذلك، وكان غاضبًا من نفسه لأنه تزوّج في هذه الظروف».

«صلت» كاتو «أن يعود كوبا عن أفكاره إلى حياة عائلية يعمّها السلام». لكنه اختار رسالة جعلته في العديد من الأوجه بعيدًا عن المسؤوليات الطبيعية لرجل العائلة. كانت الزوجات البولشفيات على علم بذلك. «هل أنا شهيدة؟»، سألت زوجة سبانداريان، أولغا، عن زواجها من صديق ستالين. لكنها ربما وصفت ستالين أيضًا. «أفعل بحياتي بقدر ما أستطيع. سبيلي غير مغطى بالورود، لكنني أنتقيه... ليس مخصصًا للحياة العائلية، لكن ذلك لا يقلّل من جاذبيته. يحمل رسالته...

يمكن أن نحبّ رجلًا ونسامحه على كل شيء لأجل الحُسن الذي في داخله». عرفت كاتو أن ستالين، على غرار سبانداريان، قد

«أقسم أن يبقى إلى الأبد فارس الكأس المقدّس الحقيقي» للماركسية[285].

سمع آل سفانيدزي في تيفليس أولًا، أن كاتو «نحيلة جدًا»، بحسب ما تتذكر شقيقتها ساشيكو، التي دعتها إلى منزلهم الريفي حتى تتعافى.

فأجابت كاتو «كيف عساي أترك سوسو؟».

سمع آل سفانيدزي بعد وقت قصير من أليسابيداشفيلي أنها «مريضة، وكتبوا رسالة طالبين فيها من ستالين أن يُعيدها إلى منزلها». توسلت إليه كاتو. الآن مرضت حقًا، «لكنه استمر في إرجاء الرحلة حتى أمست ضعيفة، أدرك فجأة أنه عليه التصرّف فورًا». في تشرين الأول/أكتوبر، قلق ستالين بما يكفي ليرافقها في طريق العودة إلى تيفليس. لكن الرحلة بذاتها، أكثر من ثلاث عشرة ساعة، كانت موهنة: «كان الجو حارًا جدًا في الطريق، وشربت الماء العكر في إحدى المحطات».

لاحقًا، أسرع سوسو بالعودة إلى باكو، تاركًا إياها مع عائلتها.

ساءت حالها. هي الضعيفة والمرهقة والمتغذية بشكل غير محتمل، التقطت عدوى التيفوس، الذي يترافق عادة مع الحرارة والإسهال. ظهر الطفح الجلدي المنقّط أولًا باللون الأحمر، ثم اسودّ بشكل مشؤوم. يشخّص المؤرخون عادة مرضها بالسل، لكن إذا صحّ ذلك فهو التهاب في الأحشاء. يتوافق الأهل والأصدقاء، الذين لم تكن مذكراتهم متوفرة للمؤرخين السابقين، على تشخيص

حمى التيفوس مع التهاب غشاء القولون. نزفت كاتو دمًا وسوائل في تشنّجات الديزنطاريا البائسة.

هرع ستالين من باكو مجددًا ليجد والدة طفله لادي تحتضر. «رعاها بيأس وحنان، وعانى هو بنفسه»، لكن كان قد فات الأوان. يفترض أنها دعت الكاهن ليعطيها الأسرار المقدّسة الأخيرة، ووعدها ستالين بدفن أورثوذكسي. وبعد أسبوعين من عودتها إلى منزلها، في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1907، توفيت كاتو، في سن الثانية والعشرين فقط، «وماتت بين ذراعيه»[286]، بينما طعنت ستالين فأس الحرب[287].

(22)

رئيس المدينة السوداء:

أصحاب النفوذ بالمال وخدع الحماية والقرصنة

أغلق سوسو عيني كاتو بنفسه. بدا مذهولًا. حاول الوقوف إلى جانب جثة زوجته مع العائلة لالتقاط صورة، ثم انهار. كتب اليسابيداشفيلي «لم يكن يستطيع أحد أن يصدّق أن سوسو مصاب إلى هذه الدرجة». بكى لأنه «لم يستطع أن يجعلها سعيدة».

كان سوسو في يأس كبير، بحيث قلق أصدقاؤه من تركه يحمل الموسر. وقال لاحقًا لحبيبته «تغلّبني الحزن فأخذ رفاقي السلاح بعيدًا مني. أدركت كم من الأشياء لم أقدّرها في الحياة. بينما كانت زوجتي على قيد الحياة، مضت ليال لم أعد فيها إلى المنزل. قلت لها عندما غادرت لا تقلقي عليّ، لكن عندما كنت أعود إلى البيت، كنت أراها هناك. كانت تنتظرني طوال الليل».

أُعلنت الوفاة في صحيفة «تسكارو»[288]؛ وعقد المأتم عند التاسعة صباحًا في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1907، في كنيسة كولوبانسكايا بمحاذاة منزل سفانيدزي، حيث عقدا قرانهما. ثم نُقل الجثمان عبر المدينة ووري الثرى في كنيسة القديسة نينا في كوكيا. كانت الجنازة الأرثوذكسية بمثابة صدمة وهزلية.

يتذكر إيريماشفيلي: كان ستالين، الشاحب اللون والدامع، «مكتئبًا

جدًا، لكنه حيّاني بطريقة مرحة كما في الأيام الغابرة». أخذه سوسو جانبًا. وقال مشيرًا إلى التابوت المفتوح «هذا المخلوق رقّق قلبي الذي من حجر. توفّيت ومعها توفّيت آخر مشاعر الحنان تجاه الإنسانية». وضع يده على قلبه: «المكان مقفر هنا، مقفر ويعجز اللسان عن وصفه».

في الدفن، انهارت سيطرة ستالين الاعتيادية على نفسه. فارتمى في تابوت المقبرة. كان على الرجال سحبه. ووريت كاتو الثرى، لكن لاحقًا، أزعجت الكونسبيراتسيا الثورية أسى العائلة. لاحظ سوسو بعض عملاء الأوخرانا يمشون جانبًا في اتجاه المأتم. فانحدر باتجاه خلف المقبرة وقفز من على السياج، واختفى من مأتم زوجته: تعليق ساخر على الإهمال الزوجي.

توارى ستالين طوال شهرين، عن الأنظار. يقول مونوسيليدزي «غرق ستالين في الأسى العميق. بالكاد كان يتكلّم، ولم يكن أحد يجرؤ على التكلّم معه. كان يلوم نفسه دائمًا لأنه لم يقبل نصيحتنا، ولأنه أخذها إلى باكو في الحر». ربما كان شاعرًا بالغضب المكبوت في منزل آل سفانيدزي. ذهب سوسو إلى أمه في غوري ليحزن.

عندما التقى بأحد أصدقاء المدرسة، «بكى كالطفل الصغير، هو الصلب القاسي».

بكى ستالين بنشيج «تحطّمت حياتي الشخصية. لا شيء يربطني بالحياة ما عدا الاشتراكية. سأكرّس حياتي لذلك!». كان هذا التفكير الذي يستخدمه لينفّس المآسي الفائقة الوصف التي ألحقها

بنفسه، بعائلته وأصدقائه. في سن متقدّمة، تكلّم بحزن وحنان عن كاتو. أدى لها الإطراء المميز. وقّع أولى مقالاته تقديرًا لوالده («بيسو شفيلي»)، لكنه اختار الآن اسمًا آخر: «ك. كاتو» (كوبا كاتو).

وعلى الرغم من أن ابنه في تيفليس، لم يكن ينوي العودة إلى «المستنقع» الأبرشي، حيث كان أصلًا منبوذًا سياسيًا فتخلى عن ابنه لزهاء عشر سنين.

يقول مونوسيليدزي «توفيت كاتو تاركة لادي البالغ ثمانية أشهر لنا». ربّت والدة كاتو سيبورا وآل مونوسيليدزي الطفل، الذي بالكاد كان ستالين يزوره. ربما يذكّره لادي بالكارثة كلها.

لم تكن هذه الطريقة الجورجية. كانت العائلة، المرعوبة من كفاءاته التآمرية، مرتعبة. في مذكراتهم، يكتب آل سفاندزي وأليسابيداشفيلي، بعد ثلاثين عامًا، عن الحكم الديكتاتوري لستالين، لكن قبل الرعب، ودوّنوا بشجاعة معارضتهم لسلوكه، موضّحين أنهم ما زالوا يعزون موت كاتو إلى إهماله.

اختتم مونوسيليدزي قائلًا «بعدئذ، ذهب سوسو إلى باكو ولم أره حتى العام 1912، برغم أننا حصلنا على رسالة من المنفى، طالبًا بعض النبيذ والمربيات»[289].

عندما تحرّر ستالين من الحداد في أواخر العام 1907، انضم إلى سبانداريان المنحطّ، لقضاء عشاء رأس السنة في مطعم في باكو. كان من بين الأصدقاء القدامى في العاصمة الثورية

للامبراطورية. شكّل البولشفيون هناك اجتماعًا لكتلة لمسار ستالين العملي حتى اليوم: بينما تضاءل البولشفيون في روسيا بذاتها، فاض الثوار الروس والقوقازيون إلى باكو، متدخّلين في أغلب الأحيان في عمل ستالين[290]. على الأرجح كان حزبًا، لأن سبانداريان، الذي كان «مقربًا جدًا من ستالين في الطبع الأخلاقي»، كان أيضًا «رجلًا خمولًا وزير نساء منغمسًا في الملذات، ومحبًا للمال». لم يُقلق فسق سبانداريان زوجته أولغا، التي قالت، «لم يقسم أبدًا أن يكون مخلصا لي، فقط ليبقى للأبد فارس فكرة» البولشفة. لكن البولشفي اللعوب صدم رفاقه بالتأكيد. تتذكر تاتيانا فوليخ «كان كل الأطفال في باكو البالغين من العمر حتى ثلاث سنين يشبهون سبانداريان!» رمى ستالين بنفسه مجددًا في العمل، معيدًا لمّ شمل الجماعة. باشر هو وسبانداريان فورًا بالدفع إلى إضرابات واضطرابات أكثر راديكالية، لاجئين في أغلب الأحيان إلى دعم العمال الأميين الآذريين والفرس. كان معظم المفكرين متكبّرون كثيرًا، ليتعاملوا مع هؤلاء الأميين، لكن سوسو نظّم اجتماعات مع المسلمين، الذين صوّتوا له بأعداد كبيرة. كان من مؤسسي الحماة (الطاقة)، وهي مجموعة بولشفية إسلامية. غالبًا ما أخفى المسلمون ستالين في المساجد عندما كان هاربًا.

وفي اشتباك مع المنشفيين، شهر أحد حلفاء ستالين المسلمين سيفًا في وجه دافدارياني.

ومن خلال هذه العلاقات مع المسلمين، ساعد ستالين على تسليح

الثورة الفارسية. أرسل المقاتلين والأسلحة في ظل سيرغو للإطاحة بشاه بلاد فارس، محمد علي، الذي حاول بولشفيوه اغتياله. حتى أن ستالين بنفسه عبر الحدود إلى بلاد فارس لتنظيم أنصاره، وزار روشت: لم يكن مؤتمر طهران في العام 1943 أول زيارة له إلى ايران.

تضايق شوميان من النجاح الساحق للحركة الارتجاعية للقيصر. اتخذ هو ويونوكيدزي، الذي عاد لتوّه من المنفى، مقاربة معتدلة «يمينية» أكثر من ستالين، لكنهما لم يتمكنا من خرق هيمنته. حضّ شوميان على تمالك النفس. وسخر ستالين من وجوده المميّز، فبدأ يكيل له المكائد مع «سباندريان، أقرب صديق له ويده اليمنى». وبعد وفاة ستالين، قيل إنه كنّ الضغينة مع شوميان، لكن في هذا التوتّر مغالاة. فقد عملا معًا على نحو جيّد، مع شك متبادل[291].

بعد فترة وجيزة من عودته، غادر ستالين في رحلة سرية لزيارة لينين، الذي استقر الآن في جنيف. عرفنا أنهما التقيا في العام 190. علمنا بأن ستالين ذهب إلى سويسرا. ذكر ستالين بنفسه هذا الإجتماع في نبشه للماضي من غياهب النسيان. كما التقى ببليخانوف، الذي «أثار سخطه». كان ستالين «مقتنعًا بأنه أرستقراطي بالفطرة». أما ما قلبه ضد الحكيم حقًا، فهو أن «ابنة بليخانوف كانت لديها عادات أرستقراطية، وترتدي آخر صيحات الموضة، وأحذية بكعب عال!». كان ستالين على الأقل زاهدًا، ومنافقًا جزئيًا[292].

لا بد من أن ستالين ولينين ناقشا مسألة المال. كان لينين في نزاع مع المنشفيين، بينما كان يسلك مسلك الضغينة الانقسامية ضد بوغدانوف وكراسين، الذي سرق الكثير من غنيمة سرقة تيفليس، الذي تعرّض بدوره للمطاردة الشديدة من الشرطة الأوروبية. يشرح فوليخ أن التنظيم، المطعون في الصميم بفعل انشقاقات لينين، ومن دونها بسبب القمع الناجح لستوبلين «بحاجة يائسة إلى المال».

يقول كافتارادزي، التابع الأمين لستالين في باكو، من المؤكد أنه «تقرر من جديد الحصول على النقود للحزب». عندما سمع «الرئيس المالي للمركز البولشفي» بكلمة «المال»، لجأ إلى الموسر.

* * *

يقول ساغيراشفيلي، الحاضر هناك أيضًا، «في باكو، كان كوبا حارس المجرمين، «الأشخاص الحادّي الطباع» كما أسماهم، والسفاحين. في أميركا، يُعتبر هؤلاء الرجال أفراد عصابات». لكن ستالين أحاطهم «بهالة المقاتلين الثوريين». اقترح ستالين «تنظيم زمرة المعركة البولشفية». وانضم تسينتسادزي وكوبرياشفيلي وبعض الوجوه الجديدة إلى جماعة ستالين المسماة «الموسريين».

ساعد كافتارادزي سوسو على التخطيط تحت درع هائلة أسماها المركز الرئيسي للدفاع الذاتي. الصديق الحميم الآخر لستالين هو محام شعره أحمر اللون، وُلد في أوديسا، ونجل عائلة غنية في

باكو، متحدّر من أصول بولندية نبيلة: أندري فيشينسكي، البالغ ثلاثة وعشرين عامًا، وهو منشفي، تخلى عن القانون، ونظّم العصابات الإرهابية، وأصبح قاتلًا في العام 1905. لكن ستالين، الذي اعترف ربما بهذا الشرير الشاب غير الرحوم والمفيد، خفف من حدة معاداته الصارمة للمنشفيين. وفوّض فيشينسكي تأمين الأسلحة والقنابل.

قال ستالين لاحقًا «السياسة عمل وسخ. كلنا قمنا بأعمال وسخة لأجل الثورة». أصبح ستالين الأب الفعلي لعملية جمع التبرعات الصغيرة، وذات المنفعة، التي جمعت حقًا عائلة مافيا ناجحة باعتدال، تقوم بعمليات الابتزاز، وتزوير العملات، وابتزاز الأموال، والسطو على المصارف، والقرصنة ورسوم الحماية، فضلًا عن الاضطراب السياسي والصحافة.

يقول أحد «الموسريين» لدى ستالين، إيفان بوكوف[[293]]، إن غاية ستالين كانت «تهديد زعماء النفط والمئات السود (الجناح الأيمن للوطنيين الروس الذين لديهم مجموعات مسلّحة خاصة بهم)». أمر «الموسريين» بقتل العديد من المئات السود، وفق بوكوف. ثم خططت الجماعة لسرقة مصرف الدولة في باكو. يشرح كافتارادزي «أننا علمنا بأنه سيتم نقل 4 ملايين روبل لمنطقة تركستان بالسفينة عبر باكو وبحر قزوين. وبالتالي، في بداية العام 1908 بدأ التجمّع في باكو».

سيأخذون الربان كرهينة: أصداء تساريفيتش غيورغي.

حصل عمل قرصنة على متن سفينة تدعى نيكولاي الأول في

مرفأ باكو: تحقق المنشفيون عن هذا الاعتداء، واتهموا به ستالين، وهو انتهاك آخر لقواعد الحزب. في محاكمة التشهير في العام 19، كان لدى مارتوف ما يكفي من الدلائل عن مشاركة ستالين في سرقة نيكولاي الأول، لدعوة الشهود. لاحقا، كتب تروتسكيت فيكتور سيرج، أن فيشينسكي، قَبِلَ، في قبول طائش، أن يتسلّم البولشفيون الحكم، قال «كان كوبا متورّطا جدًا» في «مصادرة الباخرة نيكولاي الأول في مرفأ باكو».

ثم، «خطرت على بال ستالين فكرة» الهجوم على ترسانة باكو البحرية. تذكّر المسلّح بوكوف، كما دومًا «أخذ المبادرة بتدبير العلاقات (الداخلية) مع البحّارين. نظّمنا عصابة من الرفاق... وهاجمنا الترسانة»، وقتلنا بعض الحراس. لكن سوسو كان يجمع أيضًا المال يوميًا من خلال «مساهمات الصناعيين».

كان العديد من الزعماء والمحترفين من الطبقة الوسطى، مساهمين متعاطفين مع البولشفيين. بيرتا نوسيمبوم، زوجة بارون نفطي، ووالدة الكاتب عيسى بيك، كانت متعاطفة بولشفية. يقول عيسى بيك «موّلت والدتي صحافة ستالين الشيوعية غير الشرعية بألماسها». عجيب كيف أن آل روثشيلد وبارونات نفطيين آخرين، من بين الزعماء الأغنى في أوروبا، موّلوا البولشفيين الذين دمّروا في النهاية مصالحهم. يتذكر أليلوييف مساهمات آل روثشيلد.

ساهم المدير الإداري لدى آل روثشيلد، دافيد لاندو، بشكل منتظم في تمويل البولشفيين، كما دوّنت الأوخرانا، التي دوّن عملاؤها

كيف أنه، عندما كان ستالين يدير حزب باكو، كان رجل دين بولشفي في إحدى شركات النفط «غير ناشط في العمليات، لكنه ركّز على جمع التبرعات وحصل على المال من لاندو لدى آل روتشيلد». ويرجّح أن لاندو التقى بستالين شخصيًا. وادعى مدير تنفيذي آخر لدى آل روتشيلد، هو د. فيلكس سوماري، وهو صيرفي لدى الفرع النمساوي للعائلة ولاحقًا أكاديمي مميّز، أنه أُرسل إلى باكو لتسوية إضراب. سدّد ستالين المال. وانتهى الإضراب.

التقى ستالين بانتظام رجل أعمال بارزًا آخر، هو ألكسندر مانشو، المدير الإداري في شركات النفط «شيبابيف وبيبي - إيبات». يتذكر إيفان فاتسيك، أحد أتباع ستالين الأمناء، «غالبًا ما حصلنا على المال من مانشو لتنظيمنا. في هذه الحالات، أتى إلي الرفيق ستالين. كان الرفيق ستالين يعرفه جيدًا أيضا». كان مانشو متعاطفًا وملتزمًا، أو كان ستالين يبتزّه، لأن رجل الأعمال كان يدفع المال عند الطلب حتى في أقصر مهلة.

كان ستالين يدير أيضا رسوم الحماية والخطف. كان العديد من الزعماء يدفعون إذا رغبوا في حماية حقول النفط لديهم من الحريق أو «الأحداث» التي قد تصيب عائلاتهم. يصعب التمييز بين التبرعات من مال - الحماية، لأن الجرائم التي أطلق عنانها ستالين عليهم الآن، تشمل «السرقات والاعتداءات وابتزاز أموال العائلات الغنية وخطف أطفالهم في شوارع باكو في وضح النهار، ثم طلب الفدية باسم إحدى «اللجان الثورية»»، وفق ساجيراشفيلي، الذي عرفه في باكو. كان «خطف الأطفال مسألة

روتينية في ذاك الوقت»، بحسب ما يتذكر عيسى بيك، الذي كان صبيًا لا يخرج أبدًا من دون جماعة من ثلاثة حراس كوشي و«خادم رابع، مسلّحين، يحومون حوله».

يشير تاريخ باكو إلى أن أكبر عملية خطف درّت الربح لستالين هي خطف موسى ناغييف، وهو بارون النفط العاشر في تراتبية أغنى الأغنياء، وهو فلاح سابق معروف ببخله، أُعجب جدًا بقصر بالاسو كانتاريني في البندقية إلى درجة أنه بنى نسخة (أكبر) عنه - القصر الإسماعيلي البندقي - القوطي العظيم (الآن أكاديمية العلوم). اختطف ناغاييف في الواقع مرتين، لكن حساباته الخاصة لهذه الصدمات ملتبسة وغامضة. لم تحلّ أي حالة، لكن الضلوع البولشفي في المسألة مشتبه به. وبعد سنين، ادعت حفيدة ناغاييف، جيلار - خانوم، أن ستالين وجّه ممازحًا إلى بارون النفط، آيات الشكر لمساهماته الكريمة للبولشفيين[[294]].

قيل إن أصحاب الملايين كناغاييف، كانوا توّاقين إلى الدفع بعد التكلّم مع ستالين «في حديث لعشر دقائق». ربما بفضل نظام طبع نماذج خاصة تقول:

«اللجنة البولشفية تقترح أنّ شركتكم يجب أن تدفع(...) روبل».

سلّم النموذج إلى شركات النفط، وجمع مساعد سوسو الفني النقود «رجل طويل جدًا عُرف «بحارس ستالين»، يحمل مسدسًا مرئيًا. لم يرفض أحد الدفع».

اعتنق رئيس البولشفيين الجريمة المنظّمة في باكو، وغالبًا ما

تداخلت عملياتهم وعمليات «الموسريين». تحكّمت عصابة في الدخول إلى أرض قاحلة في قسم المدينة السوداء. وعقد ستالين «اتفاقية مع العصابة فقط للسماح بدخول البولشفيين، وليس المنشفيين. كان للبولشفيين كلمات سر خاصة». في مدن روسيا الأكثر وحشية، لجأ كلا الطرفان إلى العنف: استخدم زعماء النفط المتوحّشين الشيشانيين كحراس لحقولهم النفطية. أحد بارونات النفط الأغنى، مورتوزا موختاروف، الذي قطن في أكبر قصر في باكو على أساس أنه قصر قوطي فرنسي، أمر رجال كوشي لديه بقتل ستالين الشاب. فضرب الشيشانيون سوسو بشكل رهيب، على الأرجح نزولًا عند أوامر[295] موختاروف.

كانت سرية ستالين مطلقة إلى درجة أن بوكوف «الموسري» قال «كان الأمر أحيانًا ينطوي على الكثير من التآمر إلى درجة أننا كنا نجهل أين هو طوال ستة أشهر! لم يكن لديه عنوان ثابت ولم نكن نعرفه سوى باسم «كوبا». إذا كان عنده موعد، فلم يكن يظهر قط في الوقت المحدد؛ بل يظهر قبل يوم أو بعد يوم. لم يكن أبدًا يغيّر ملابسه، فبدا كشخص عاطل عن العمل». ولاحظ رفاق سوسو أنه مختلف عن القوقازي الشغوف العادي. قال أحدهم «كان الشعور غريبًا عنه. مهما أحبّ رفيقًا، لا يسامحه أبدًا على أصغر نهب لشؤون الحزب. يسلخ جلده وهو حيّ».

نجح مجددًا في جمع المال والأسلحة، لكن كان معه دائمًا هناك كلفة إنسانية. البولشفيون التقليديون، كأليكسينسكي وزيملياشكا، «ناقمون جدًا على مصادرة الأراضي» وعمليات القتل. «لام

ستالين أحد الأعضاء للاستفزاز. لم يكن هناك أي دليل قاطع، لكن هذا الشخص أُجبر على الخروج من المدينة. «حُكم عليه»، «بالموت وإطلاق النار».

افتخر ستالين بنفسه لأنه أسمى نفسه «براكتيك»، أي شخصًا صعب المراس وعمليًا، خبيرًا في ما أسماه «العمل الأسود»، بدلًا من الذكي العذب الحديث. لكن الهبة التي وُهبت له أنه يملك الاثنين معًا. سمع لينين بعد فترة وجيزة وابلًا من الشكاوي حول لصوصية ستالين. لكن بحلول هذا الوقت، كتب فوليخ، أن ستالين «كان الرئيس الحقيقي في القوقاز» مع «الكثير من الداعمين المكرّسين له الذين يحترمونه على أنه الشخص الثاني في الحزب بعد لينين. ومن بين أهل الفكر، كان محبوبًا أقل من سواه، لكن الجميع يعترف بأنه شخص ضروري، ولديه طاقة ونشاط أكثر من سواه».

كان لسوسو «تأثير كهربائي» في أتباعه، الذين اعتنى بهم خير عناية. كان لديه موهبة الصداقة السياسية التي اضطلعت بدور رئيسي في صعوده إلى سلّم السلطة.

انضم إليه شريك غرفته من ستوكهولم، فوروشيلوف، الحرفي النحات المتحمّس، وصاحب الشعر الأشقر[296]، والمتأنق في باكو، لكنه مرض.

قال فوروشيلوف «زارني كل ليلة، كنا نمزح كثيرًا. سألني إذا كنت أحب الشعر وقال قصيدة نيكراسوف بأكملها عن ظهر قلب. ثم غنينا معًا. له حقًا صوت جميل وأذن طروب». قال ستالين

لفوروشيلوف إن «الشعر والموسيقى يرفعان الروح!». عندما أُوقف أليلوييف مجددًا، قلق على عائلته، فعندما أُطلق سراحه أتى لاستشارة سوسو، الذي شدد على أن عليه المغادرة، وأعطاه النقود للانتقال إلى موسكو. «خذ المال، لديك أطفال، يجب أن تعتني بهم».

كان موت كاتو صفعة أليمة، لكن حتى في العام 1908، وجد الأرمل الذي وقّع مقالاته باسم «كوبا كاتو»، متّسعًا من الوقت ليمرح ويسهر، ولم يتواجد قط من دون رفقة امرأة.

(23)

التقاط القمل والقتل والجنون:

ألعاب السجن

عندما كانت الجماعة تنجز بنجاح عملية سرقة، كان ينفق ستالين وسبانداريان بعض مال السرقة على السهر واللهو. وتقول طرفة بولشفية خاصة حول الانشقاقات السياسية اللامحدودة في الحزب، إن سوسو دعا هذه المهرجانات وكلونيني، الانحرافات.

يقول أ. د. ساكفاريليدزي، الذي أدار عمليات ستالين في تزوير العملات، «عندما كان ستالين يجمع بعض المال الإضافي، كنا نعقد اجتماعًا «انحرافيا» في حانة صغيرة نائية، أو غرفة خاصة في مطعم جميل، غالبًا مطعم سفيت في شارع ترايدينغ، حيث نحتفل، تحديدًا بعد الاحتفال بنجاح بعض الصفقات. أحب سباندريان تحديدًا «الانحرافات»، حيث نتكلّم بصراحة، ونأكل بشهية، ونغني بأعلى أصواتنا، بخاصة ستالين». حيثما ذهب سباندريان، كانت الفتيات يلحقنه عادة.

عرّف رفيق من باتومي ستالين إلى شقيقته الحسناء، ألفاسي تالاكفادزي. كانت لا تتجاوز الثامنة عشرة من العمر. «طفلة مدلّلة» باعترافها الشخصي، تطفح بالغيرة الثورية. تشرح «كوبا، رئيس البروليتاريا في باكو، استخدم الغرفة الخلفية لمتجر شقيقي لبيع الزهور في حقل النفط بيبي - إيبات على أنها قاعدته». فأخذ

ستالين تالاكفادزي تحت جناحه، وأعطاها كنية «الرفيق زائد»، نظرًا إلى حماستها. حتى في اللّغة الستالينية الطنّانة الغريبة، تشير مذكّرات الفتاة إلى علاقة وثيقة: «كان كوبا ينيرني أيديولوجيًا، يعقد معي نقاشات عن مواضيع اجتماعية وسياسية، ويطوّر فيّ الوعي الطبقي، ويُطلعني على الإيمان بالنصر». يميل المرء إلى فهم «تطوير الوعي الطبقي» و«الاطلاع على الإيمان بالنصر» كتصغير، لأن ألفاسي تالاكفادزي أعلنت لاحقًا أنها حبيبة ستالين في العام 1908.

كانت هبة التآمر لديه بارعة، وأحيانًا مميتة. أصبحت هذه الحبيبة «خبيرة في خداع الأشباح، لكن كوبا نظّم الحيل المميزة». أمرها في أحد الأيام، بأن تأخذ بعض الملفات السرية إلى حقل النفط بالاخانا، في تابوت. قال ستالين، «يجب أن تؤدي دور الشقيقة المفجوعة التي تدفن شقيقها الطفل المتوفّى بيديها العاريتين»، مرسلًا إياها إلى مدفن، وموجّهًا أداءها كالكاتب المسرحي.

سلّمها رفشًا، وقال لها «ستفكين ربطة شعرك وتحملين التابوت وتبكين وتقولين إنك تُركت وحيدة وتلومين نفسك لموته. لا تدفنيه عميقًا جدًا». أثنى «المدير» على أدائها، مراقبًا إياها بالسر. تأملت لاحقًا «حتى الآن، لا أعرف كيف راقبني بهذه الحدة».

لا يبدو أن ألفاسي تالاكفادزي هي العلاقة الوحيدة مع رفيقة. فقد عرف لودمييا ستال، وهي «ناشطة شهيرة بين النساء» وُصفت لاحقًا بأنها «ممتلئة الجسم، لكن جميلة». هي كريمة مالك معمل الفولاذ من جنوبي أوكرانيا، تكبر ستالين بستة أعوام، وهي

سجينة قديمة. وبعد فترة وجيزة، نُفيت إلى باريس. قيل إن العلاقة كانت متقطّعة، لكن لها تأثير في ستالين الشاب. يمكن أنهما التقيا لاحقًا خلال زيارات ستالين في الخارج لرؤية لينين، التي عملت لودمييا معه عن كثب.

التقيا بالتأكيد مجددًا في العام 1917. لكن لا شيء بقي من صداقتهما، ما خلا تذكارًا مفاجئًا طول الحياة.

* * *

أضاعت الشرطة السرية ستالين عندما تنقّل بين المدن بعد مشهدية تيفليس. عادوا الآن إلى قضيّته. عندما أُوقف السفّاح لدى ستالين، بوكوف، «سألني الدرك: من كان ستالين بذاته، وتحديدًا ما كان دوره في سرقة الترسانة (في مرفأ باكو)؟».

في 15 آذار/مارس 1908، هاجم الدرك اجتماع الحزب في قاعة الشعب. هرب ستالين وشوميان وسبانداريان، لكن الدرك تعقبوا «الموسريين». وبينما حدد تسيننتسادزي والجماعة تاريخ سلب بنك الدولة وسفينة الذهب، هاجم القوزاقيون والدرك «بيتنا الآمن». وفي تبادل إطلاق النار، قُتل العديد من القوزاقيين، لكن الجماعة خسرت أفضل عنصر لديها في الرماية لدى «الموسريين»، إينتسكيرفيلي، المتمرّس في السطو على مصرف تيفليس. تم التخلي عن الخطط. ترك كافتارادزي العمل السري وذهب إلى جامعة بطرسبرغ، لكنه بقي في حياة ستالين حتى النهاية.

ليلة 25 آذار/مارس، هاجم رئيس شرطة باكو «عدة أوكار

للجانحين، حيث أوقف بعض المشتبه فيهم، بمن فيهم غايوز بيسوفيتش نيزهيرادزي، الذي يحمل أوراقًا جنائية، وقد وُضعت لذلك في تصرّف الدرك». كان الرجل يحمل جواز سفر نبيلًا، يدعى نيزهيرادزي، لكن ربما اسم الأسرة «نجل بيسو» دليل أفضل على الهوية الحقيقية لأبرز بولشفي في القوقاز: «لينين الثاني». بعد أربع سنين، حصلت الاوخرانا على ستالين[297].

* * *

عندما وصل السجين الجديد إلى سجن بايلوف في باكو يلبس السمق الأزرق من الساتان وقبعة قوقازية أنيقة، تناقل السجناء السياسيون الآخرون كلمة ضرورة الحذر وأخذ الحيطة. تهامسوا «هذا سري، إنه كوبا!». كانوا يخشون ستالين «أكثر من الشرطة».

لم يخيّب البعبع أملهم. كان «قادرًا بهدوء على تحريض الآخرين، بينما يبقى هو على الخطوط الجانبية. لم يفوّت المخطّط الحكيم أي سبل ضرورية، لكن حاول تفادي المسؤولية العامة». في الأشهر السبعة التي أمضاها في بايلوفكا الشهير، جالسا بين حقول النفط، سيطر ستالين على هيكليات السلطة فيها. قرأ الإسبيرانتو ودرسه، بعدما اعتبره لغة المستقبل[298]، وحرّك سلسلة مطاردات للخونة الذين غالبًا ما انتهى بهم الأمر يواجهون الموت. كان حكمه في بايلوفكا مصغّرًا عن ديكتاتوريته في روسيا.

وضع سوسو في الزنزانة ثلاثة مع أبرز السياسيين البولشفيين

(معظم المنشفيين في الزنزانة سبعة). كان السياسيون منظمين جدًا في بايلوفكا، وكانت لديه حتى لجنة أوراق الاعتماد. في زنزانته، وجد ستالين رفيقه البولشفي براكتيك سيرغو وتابعه المنشفي فيشينسكي. انتُخب المنشفي الرئيس المسؤول عن الطعام، وهو تعيين حسّاس، كونه يستلم سلات منتظمة من الطعام الشهي من زوجته وأهله المترفين. وتشارك بهذا الطعام مع ستالين، وهو كرم حذر قد ساهم ربما في نجاته في مرحلة الرعب.

قسّم الرؤساء الأيام إلى ساعات للراحة والتنظيف والنقاش. عيّن الزعماء رفاق السرير (تشارك ستالين السرير مع غوريلي باسم إيليا ناديرادزي)، والعمل الروتيني المحلي، بما فيه غسل الصحون وتنظيف المراحيض. لكن نموذجيًا، يتذكر ساكفاريليدزي، «غالبًا ما أعفي ستالين من هذه الواجبات».

رسم أحد الذين شاركوه زنزانته، ويُدعى سيمون فيريشاك، وهو منشفي، صورة ثاقبة عن ستالين في بايلوفكا. برغم كرهه لمكره الفج، لكن، رغما عنه، كان معجبًا بثقة ستالين الكبيرة وذكائه الحذر وذاكرته كالماكينة ورباطة جأشه: «كان من المستحيل أن يفقد أعصابه، كالجبل لا يزعزعه شيء!». كان ستالين الوحيد في الزنزانة الذي يستطيع أن ينام ملء عينيه، حتى عندما يسمع السجناء شنق رجل في باحة السجن.

لم يخترع سوسو حكم الإعدام للخونة. يشرح فيريشاك «في بايلوفكا، غالبًا ما كان يقتل المستفزّون»، لكن بعد التحقيق والمحاكمة. قتل ستالين بالوكالة، والخلسة. أولًا، «طعن ميتكا

اليوناني عاملًا شابًا لأنه شبح. أمر كوبا بالاعتداء عليه»؛ ثم «ضرب جورجيًا شابًا في رواق مبنى سياسي. انتشرت كلمة، «مستفزّ!». انضم الجميع، وضربوه بكل ما ملكوا، حتى تلطّخت الجدران بالدماء. أُخرجت الجثة الدامية على نقّالة الموتى. علمنا لاحقًا بأن الشائعة بدأت مع كوبا».

عقد السياسيون نقاشات، غالبًا ما تحوّلت إلى نكد. كره ستالين الاشتراكيين المسيحيين أكثر من سواهم الذين تبعوا ليو تروتسكي. تشاجر سيرغو، الذي كان يضرب دائمًا في البداية ولاحقًا، مع الاشتراكيين الثوار. كتب ستالين لاحقًا لفوروشيلوف أن «سيرغو ضُرب بشدة حقًا، لكن لم يكن أحد من الاشتراكيين الثوار قويًا كفاية لضرب سيرغو»، مدافعًا عن حب الذات لدى أوردهونيكيدزي عندما كان ثلاثتهم يحكمون الاتحاد السوفياتي. والحقيقة، أن الاشتراكيين الثوار تغلّبوا على سيرغو.

تعامل ستالين مع المآزق السياسية بجعل نفسه «أفضل سلطة على ماركس. كانت الماركسية مكانه المفضّل حيث لا منافس له. كان يعرف كيف يعطي معنى لأي شيء، بصيغة مناسبة من ماركس». لكن أسلوبه كان «غير محبب، وخشنًا، ومجردًا من الفطنة، وجافًا ورسميًا»[299].

لكن ستالين فضّل المتشرّدين على الثوار. كان «يُشاهَد دائما برفقة السفاحين والمبتزين والسارقين والمسلحين الخطرين: «الموسريين». هاجم السجناء المجرمون أحيانًا السياسيين، لكن المجرمين الجورجيين، بتنظيم على الأرجح من ستالين، كانوا

حرّاسهم. وعند استلامه الحكم، صدم رفاقه بتعزيز المجرمين في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، لكنه استعمل المجرمين طوال حياته.

اجتمع الصنفان للمراهنة على ألعاب السجن كمباريات المصارعة والتقاط القمل. لم يحب ستالين لعب الشطرنج، لكن «غالبًا ما لعب هو وسيرغو أوردزهونيكيدزي النرد طوال الليل». كانت اللعبة الأكثر وحشية هي «الجنون»، حيث يوضع السجين الشاب في زنزانة المجرمين حتى يصاب بالجنون.

وتوضع الرهانات على كم سيحتاج الشاب من الوقت ليصاب بالانهيار. وأحيانًا كانت تصاب الضحية حقًا بالجنون.

كان السجن مكتظًا بضحايا عمليات القمع التي فرضها ستوليبين: تشارك 1.500 شخص زنزانات بُنيت لتستوعب 400 فقط. عانى ستالين اعتلالًا في صحة الرئة، وصعوبة في التنفّس في الجو الحار. حمل «البرميل» القوي مديفاني، الذي كان في بعض الأحيان، في الزنزانة نفسها، سوسو على منكبيه، ليستطيع التنفّس، ورفعه إلى النافذة العالية بينما ضحك بقية أفراد الزنزانة، وصرخوا: «الطائش، البرميل، الطائش!». وعندما زار «البرميل» لاحقًا ستالين في الكريملين، كان يحيّيه دائمًا بقول: «الطائش، سوسو!».

احتجّ ستالين على الظروف السائدة، واستفزّ السلطات، فأرسلت مجموعة من الجيش لضرب السياسيين. شاهد فيريشاك كوبا المجبر على السير بين الطرفين المتشاجرين، «سار، ورأسه

مرفوع، تحت ضربات أعقاب البنادق، وهو يحمل كتابًا بين يديه». وردًا على ذلك، «حطّم باب زنزانته بدلو النفايات، متجاهلًا تهديد الحراب».

استحال التنقّل «من دون الوقوف على إصبع أحدهم»، لكن الاكتظاظ مثّل فرصة للخداع. نظّم شريك ستالين في السرير ناديرادزي من غوري لزوجته أن ترافق كيكي في زيارة إلى باكو. زارت المرأتان الابن والزوج. حياها ستالين «بمودة كبيرة. انفجرت والدته بكاءً» عند رؤية ابنها الوحيد»، لكنه «هدأ من روعها بالقول إن الثورة لا تصح من دون السجون... تحدثنا بفرح طوال ساعتين كاملتين»، وفق ناديرادزي. لقد جعل ستالين والدته تنقل ملاحظات سرية إلى الثوار في باكو، ما كاد يجعلها قيد التوقيف.

كانت الجماعة تخطط لهروب سوسو. في الليل، استعمل منشار المعادن، الذي هرَّبه إليه السجّان، لقطع قضبان زنزانته. وخارج جدران السجن، انتظر «الموسريون» في اليوم المحدد مع فيتون لنقله بخفة ورشاقة إلى الحرية. لكن يبدو أنه تمت خيانة الخطة، لأنه في اللحظة الأخيرة، أدى القوزاقيون غير القابلين للرشوة، واجبات الحراسة. كان لا بد من إلغاء محاولة هروب ستالين.

احتاج النظام القيصري البطيء، إلى جانب التباسه الاعتيادي وتساهله، إلى وقت أطول من العادة لاكتشاف هويته ومحاكمته. وفي النهاية، حكم بشكل غير صارم، الأمر المثير للتعجّب، بعامين فقط في المنفى في محافظة فولوغدا الأوروبية، بدلًا من

سيبيريا الآسيوية.

قبل رحيل ستالين مباشرة، عمّت الفوضى في بايلوفكا المكتظة بالسجناء، ما أعطى ستالين فرصة محاولة المقايضة بينه وبين سجين آخر. بدا الأمر يسيرًا وفق الخطة[300]: أخذ البديل مكانه. قبّل سوسو المساجين الرفاق قبلة الوداع، وتمت مرافقته من زنزانته[301].

(24)

«ديك النـهر» والمرأة النبيلة

في مكان ما، كانت المقايضة مكشوفة. لا بد من أنه رفع النقاب عن محاولة ستالين الاستبدال حتى قبل أن يغادر بايلوفكا (خانه أحد الأشباح الذي أعلم عن هروبه المخطط له، أو أحبطه حارس تمت رشوته بقيمة لا ترضيه) في وقت نقله إلى مكان نفيه. كان فولوغدا أقرب من سيبيريا، لكن الاتاب تشمل ثلاثة أشهر بما فيها الإقامة في سجن بوتيركي في موسكو، حيث قضى الكثيرون في الرعب الكبير في ظل ستالين.

لم يكن لدى سوسو هذه المرة أيضًا ثياب شتوية. وكتب لشوميان في باكو طلبًا للمساعدة. كتب شوميان «لم نكن نستطيع حتى أن نحصل على بذلة مستعملة، لكننا أرسلنا له خمسة روبلات». ضيّق ستوليبين الخناق على أكثر نظام متحرر في باكو. نجحت الشرطة في سحق البولشفيين هناك، وعضوية الحزب ذبلت، وأُوقف القادة في الحزب أو قُتلوا. قال شوميان «لا مال. الثوار جائعون وضعفاء».

في سجن فولوغدا[302]، قاد ستالين احتجاجًا وتحدى السلطات. قال سجين زميل «لم يكن ينصاع أو يرضخ لأحد، بل انسحب فقط عندما لجأوا إلى القوة». وفي الطريق من مدينة فولوغدا إلى مكانه في المنفى، عانى إما مرض التيفوس، وإما قام بإقناع طبيب

بأن يُنزله في رحاب مستشفى فياتكا. وفي النهاية، وصل ستالين مسافرًا في المزلاج عبر الأراضي المتجمّدة، في أواخر شهر شباط/فبراير 1909، إلى قرية سولفيشيغودسك.

* * *

أول من رحّب به في مجتمع سولفيشغودسك المؤلف من 450 منفيًا، فتاة منفية، معلمة تدعى تاتيانا سوخوفا، يبدو أن علاقة غرامية ربطته بها.

في الوقت القصير الذي أمضاه في سولفيشغودسك، وجد له خليلتين من بين مجموعة السياسيين الصغيرة. لم يكن قط فاسقًا، لكن حتى في سني الغموض الشحيحة هذه، لم يكن قط من دون حبيبة واحدة على الأقل، وأكثر في أغلب الأحيان. والحقيقة أنه أصبح في المنفى متحررًا تقريبًا.

كان ستالين «وسيمًا» بالنسبة إلى النساء، بحسب ما يتذكر مولوتوف، على الرغم من الهزمات والنمش. «لا بد من أن النساء أُغرمن به لأنه كان ناجحًا معهن.

كانت لديه عينان عسليتان. كانتا جميلتين». كان سوسو «جذابًا تقريبًا»، هذا ما قالته زهينيا أليلوييف، أخت الزوجة المستقبلية والخليلة المحتملة، لابنتها. «كان رجلًا نحيلًا وقوي البنية ونشيطًا (مع) كومة شعر وعينين لامعتين». الكل يذكر دومًا هاتين «العينين المتقدتين».

تكتسي ملامحه غير الجذابة أيضًا بسحر معين. مظهره الغامض

وتعجرفه وقساوته وحذره الدقيق ودرسه الهوسي وذكاؤه الحاد، هي ربما عناصر جعلته محببًا لدى النساء. حتى أنه يمكن اعتبار غرابة أطواره ساحرة. ربما غياب الاهتمام لديه كان رهانًا رابحًا، بطريقة أو بأخرى. وبالطبع، عدم قدرته الظاهرة على الاعتناء بنفسه - كان وحيدًا وهزيلًا ووضيعًا. جعل النساء طوال حياته، يتمنين الاهتمام به. تضاف إلى ذلك جنسيّته.

تمتّع الجورجيون بسمعة الشغف والرومانسية. عندما لم يكن ستالين شهوانيًا فظا، كان يلعب لعبة الجورجي الفارس الشهم الذي يطلب يد المرأة، فيغني الأغاني ويُعجب بأثواب الفتيات الجميلات، بينما يقدّم إليهن مناديل الحرير والأزهار. عدا عن أنه كان منافسًا جنسيًا، يبز رفاقه متى ناسبه الأمر، وخصوصًا في المنفى. كان ستالين العابث والحبيب وحتى الزوج أحيانًا، رقيقًا ولديه حس الدعابة. لكن إذا توقّعت النساء الكازانوفا الجورجي التقليدي، فلا بد من أنه خيّب أملهن بمرارة عندما أكسبهن العمر معرفة أفضل فيه.

كان غريبًا، وغريب الأطوار، ويفتقد العاطفة، تشوبه الألغاز والعقد حول شخصيته وعائلته ومظهره. كان حساسًا جدًا لجهة أصابعه الملتوية، فعندما كان أطباء الكريملين يفحصون قدمه لاحقا، أخفى بقية جسده - ووجهه - تحت بطانية. ثم قام حراسه بوضع المساحيق على هزماته لتغطيتها في الصور الرسمية. كان حساسًا حيال عرائه حتى في الحمام الروسي، البانيا، وغير سهل في ما يتعلّق بيده المتصلّبة التي منعته لاحقا من الرقص البطيء مع النساء: اعترف أنه «لا يستطيع أن يأخذ امرأة من خصرها».

كما علمت كاتو خلال زواجها، كان بعيدًا وتصعب معرفته. يسحب نشاطه المليء بالحرارة والأناني، الهواء من كل غرفة ويحبط الضعيف من دون تزويد شريكته بالغذاء العاطفي. لا تعوّض لحظات الحنان عن الانفصال الثلجي وفرط الحساسية الكئيب. وكما اكتشفت ناتاشا كيرتافا، عند معارضته، يصبح بغيضًا وشريرًا.

صنّف النساء في المرتبة السفلى في سلّم أولوياته، بعد الثورة والذاتية والتطلعات الفكرية وعشاء السُّكْر مع الأصدقاء الذكور بكثير. هو الذي يجمع بين الذكورية الخشنة والاحتشام الفيكتوري، لم يكن بالتأكيد من المذهب الحسي أو الأبيقوري. ونادرًا ما تكلم على حياته الجنسية، لكنه لم يكن يلتزم بامرأة واحدة، ما يفسّر تسامحه طوال حياته تجاه الفسق الماجن بين رفاقه. كان سبانداريان في باكو، ولاحقًا في الحكم، يونيكيدزي وبيريا، كلهم منغمسين في الملذات إلى درجة الانحراف التناسلي. وشريطة أن يكونوا كفوئين ومجتهدين وأوفياء، هم في أمان. في حياته الخاصة، نظر إلى الجنس كمسألة أخلاقية أكثر منها كخطر أمني.

ومن جهة، لم يثق بالنساء المجتهدات القويات، كوالدته، واحتقر النساء المدعيات «بالأفكار»، وكره الفتيات الفاتنات اللواتي تفوح منهن رائحة العطر المسرف، اللواتي، على غرار كريمة بليخانوف، ينتعلن «الأحذية بالكعب العالي». فضّل المراهقات اليافعات والمرنات، أو الفلاحات الممتلئات الجسم اللواتي يذعنّ له. ومن جهة أخرى، حتى في الثلاثينات، اتخذ له حبيبات في صفوف الثائرات المثقفات والمتحررات، والمتساويات معه فكريا،

وأحيانًا حتى النساء النبيلات، والأرقى منه اجتماعيًا. لكن الأولوية دائمًا للرسالة الماركسية، وحسّه الخاص بالتفريق.

توقّع من النساء (والأطفال إذا وُلدوا من دون مناسبة)، أن يفهمن عندما يختار الصليبي الماركسي المتسكّع أن يختفي في الهواء العليل.

* * *

كانت تاتيانا سوخوفا جالسة في منزلها مع بعض المنفيين الآخرين عندما نقل أحدهم أن «مجموعة جديدة من المحكومين وصلت، ومن بينهم رفيق من باكو، أوسيب كوبا، وهو شخص محترف، شخص مفتاح». وبعد وقت قليل، دخل أوسيب (مصغّر روسي لجوزيف)، وقد زوّده المنفيون الرفاق بثياب مناسبة، إلى منزلهم «وهو ينتعل الأحذية العالية، المعطف الأسود، قميص الساتان الأسود وقبعة أستراخان عالية مع قلنسوة بيضاء حول كتفيه على الطراز القوقازي».

كان فصل الربيع في سولفيشيغودسك، قاعدة صغيرة لتجارة الفرو من القرون الوسطى، تعود إلى 700 عام، مؤلفة من ساحة غبارية ومنزل تاجر خشب ومكتب بريدي وكنيسة جميلة تعود إلى القرن السادس عشر. كان نهر فيشيغدا يعبر المدينة. عاش عشرة منفيين في منزل جماعي، «خلاص حقيقي بالنسبة إلينا»، وفق تاتيانا سوخوفا، «لأنه السبيل لنبقى ناشطين. كان كالجامعة. هناك محاضرات حتى. من عاش وحيدًا فغالبًا ما بدأ معاقرة الخمر».

كان رئيس الشرطة في المقاطعة، زيفيليف، الملقّب «ديك النهر»، شديد التمسّك بالنظام، وضيّق التفكير، وسريع الغضب، لكنه فكاهي وصاحب صوت عالي الطبقة. هو المعروف «بإله سولفيشيغودسك، والقيصر فيها»، حظر أي اجتماعات تتعدى خمسة منفيين، ومنع مسرحيات الهواة وحتى التزلّج وسباق التجديف وجمع الفطر. وعندما كان يضبط أي مخالفة، يبدأ بمطاردة المنفيين على طول ضفاف النهر كالديك الصغير الغاضب، ومن هنا اللقب الذي أُطلق عليه.

كان ستالين «قاسيًا وجريئًا، ولا يحترم الأعلى منه مرتبة»، وفق رجال الشرطة المحلية. حجزه «ديك النهر» مرة لأنه يقرأ الكتب الثورية بصوت عال، وفرض عليه غرامة بقيمة 25 كوبكًا لأنه حضر مسرحية[303] لكن السرية لفّت السهرات الجامحة بين المنفيين والمغازلات التي لا مفر منها. تتذكر فتاة، هي شورا دوبرونرافوفا «كنا نغني، - وبدأت بالرقص. كان كوبا يصفّق بيديه، وفجأة سمعت صوته يقول، «شورا هي فرح الحياة!». رأيت كوبا ينظر إليّ بابتسامته الغامضة». والتتمة غير موثّقة.

ذهب المنفيون مرة في رحلة بحرية معا، وهم يلوّحون بالرايات الحمراء ويغنون. مشى «ديك النهر» على طول الضفة، وهو يصرخ، «أَوقفوا الغناء!»، لكنه لم يستطع معاقبتهم جميعًا، فنجوا بفعلتهم.

غالبًا ما نظّم ستالين هذه الاجتماعات السرية للمنفيين، لكنه «راقب كل عضو في المجموعة بدقة شديدة»، وفق ألكسندر

دوبروفين، «وطلب تقريرًا عن كل حركة». وتشير مذكرات دوبروفين إلى أن ستالين طارد الخونة وأمر بقتلهم. «كان هناك منفي يدعى مصطفى. اتضح أن هذا المصطفى خائن. ووفق رفيق، أُغرق تحت الضفة العليا لنهر فيشيغدا».

تتذكر تاتيانا سوخوفا، وهي امرأة تبلغ اثنين وعشرين عامًا، وشعرها بني فاتح وعيناها رماديتان «غالبًا ما زرت (ستالين) في غرفته. عاش في الفقر، ونام على قفص خشبي مغطى بألواح خشبية ثقيلة وكيس من القش مع بطانية فالنيلية في الأعلى وغطاء الوسادة زهري اللون». كان يائسًا - وذلك بعد أشهر فقط على وفاة كاتو. «غالبًا ما وجدته نصف مضطجع هناك، حتى في النهار»، لكن، كما حاله دومًا، كانت الكتب راحته وقصره: «لأن الطقس كان باردًا جدًا، التحف بمعطفه، وأحاط نفسه بالكتب». لكنها تقول إنها كانت تبهجه. كانا يمضيان المزيد والمزيد من الوقت معًا، ضاحكين على الآخرين، حتى أنهما ذهبا في مواعيد غرامية على متن السفينة. ويبدو أن الصداقة تحوّلت إلى نوع من العلاقة الغرامية، وبقي ستالين متيّمًا بحب شوخوفا حتى الثلاثينات»[304]. كتب لها لاحقًا، راجيًا السماح لأنه لم يبق أبدًا على اتصال بها: «خلافًا لوعودي، التي أذكر أنها كثيرة، لم أرسل إليك بطاقة حتى! يا لي من وغد حقير، لكن هذا واقع، وإذا أردت، أقدّم إليك اعتذاري... فلنبقَ على اتصال!» ولم يلتقيا مجددًا حتى العام 1912.

* * *

في يونيو، دوّنت الشرطة المحلية أن سوسو حضر اجتماعًا مع كل المنفيين الآخرين بمن فيهم فتاة تدعى ستيفانيا بيتروفسكايا، ربطتها بستالين علاقة غرامية جدية إلى درجة أنه قرر الزواج بها.

كانت ستيفانيا، المعلمة البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، أعلى من ستالين في المرتبة الاجتماعية، وهي امرأة نبيلة من أوديسا يمتلك والدها الكاثوليكي منزلًا في وسط المدينة. حضرت الجيمنازيوم المخصّص للنخبة هناك قبل الانتقال إلى التعليم العالي. أوقفت «المرأة النبيلة بيتروفسكايا»، كما تبدو في تقارير الشرطة»، في موسكو، وأُرسلت لعامين إلى منفى فولوغدا، لكنها أنهت حكمها لتوها عندما التقت أوسيب بكوبا. لم يبق ستالين هناك مطوّلًا، لكن لا بد من أن العلاقة كانت قوية لأنها تسكّعت في أرجاء سولفيشيغودسك من دون سبب وجيه، ثم لحقته إلى القوقاز.

عزل المنفيون عن سياسات الحزب في الخارج، لكنهم تابعوا آخر الانقسامات من النسخ البالية للصحف التي تصل من العائلة والأصدقاء. انزعج ستالين من إقطاعية لينين مع بوغدانوف. «ما رأيك بكتاب بوغدانوف الجديد؟»، سأل سوسو صديقه مالاكيا توروشيليدزي، في جنيف. «بعض الأخطاء الفاضحة التي ارتكبها إيليش (لينين) هي كبيرة ومدوّنة بالشكل الصحيح فيه. كما دوّن أن المذهب المادي لدى ايليش... مختلف عن المذهب المادي لدى بليخانوف الذي...

يحاول إيليش تخبئته».

احترم ستالين لينين، لكن ليس إلى درجة التوقير أبدًا. جاء التأليه والتعظيم بعد وفاة لينين فقط، وبهدف سياسي واضح. الآن نظر إلى انقسامات لينين كتساهل ذاتي مع اللاجئين المدلّلين. في روسيا، حيث كانت البولشفية في انحطاط، لا تستطيع البراكتيكا تحمّل هذه الترهات. أقر زينوفياف «الحزب ككل، لم يعد موجودًا».

كان من الصعب أن البعض («المصفّين»)، اقترح إنهاء الحزب. وفي المقابل، توافق ستالين مع من أسميوا «المصالحين» على أن البولشفيين يجب أن يعملوا مع المنشفيين، أو يختفوا معًا.

كان أكيدًا أن الحزب يحتاج إليه، ولم يكن ينوي التسكّع في أرجاء سولفيشيغودسك: كلما زاد عدد الثوار الذين ينفيهم ستوليبين، قهر النظام أكثر. تضاعف عدد الهاربين. من أصل 32.000 منفي بين العامين 1906 و1909، لا تعد السلطات بأكثر من حوالي 1 نسمة في وقت واحد. كتب سوسو لأليلوييف في سان بطرسبرغ طالبًا عنوانه ومكان عمله، ومن الواضح أنه كان يخطط لرحلة إلى العاصمة. بدأ جمع الأموال: وصلت بعض أوامر المال إلى مكتب البريد. قدّم السجناء لعبة مراهنة ملفّقة حيث ستالين «ربح كامل مبلغ المال من 70 روبلًا».

في أواخر حزيران/يونيو، بعد التفتيش الصباحي لريفر كوك، ساعد سوخوفا ستالين على ارتداء السارافان، وهو ثوب روسي طويل من دون أكمام. لا نعرف إذا كان قد حلق لحيته. لكن بكامل لباسه، سافر برفقة سوخوفا، في الباخرة إلى المركز المحلي،

كوتلاس. في الذهاب، قام بتباه رومانسي، غير خجول من ملابسه الشاذة، قائلًا لسوخوفا: «سأرد ذلك لك يومًا بإعطائك منديلًا حريريًا».

ثم استقل القطار في اتجاه البندقية في الشمال[305].

* * *

يخبر سيرغي أليلوييف، أنه «مرة، في المساء»، وهو ما زال متزوجًا بأولغا الفاسقة، «كنت أتمشى على طول بولفار ليتيني (في سان بطرسبرغ)، عندما رأيت فجأة الرفيق ستالين في الاتجاه المقابل». تلاقى الصديقان.

كان ستالين قد زار شقة أليلوييف ومكان عمله، لكنه لم يجد أحدًا. بيد أن وسط بطرسبرغ عالم صغير. وظّف أليلوييف بوابًا لتخبئة سوسو. غالبًا ما كان البوابون من مخبري الأوخرانا، وبالتالي، إذا تعاطفوا مع البولشفيين، فإن أماكنهم مخابئ مثالية، لا تُفتَّش أبدًا.

خبأ البواب ستالين في كوخ البواب في ثكنة هورس غواردز في شارع بوتيمكين، مباشرة إلى جوار قصر توريدا، الذي كان منزل الشريك السياسي لكاثرين الكبيرة، الأمير بوتيمكين، والآن هو مقر الدوما. وفي الثكنة، «توصل السيارات المسؤولين في البلاط... بينما توجّه ستالين إلى داخل المدينة لزيارة الأصدقاء»، وفق آنا أليلوييف. «يتمشى بجلالة إلى جانب الحراس على بوابات الثكنة، حاملًا لائحة تفقّد الحضور العسكرية تحت ذراعه».

ستالين، الذي يحمل رسالة مرتبطة «بنشر صحيفة»، قام بالاتصالات الضرورية، وتوجّه بسرعة إلى القوقاز.

* * *

في أوائل تموز/يوليو 1909، عاد فبرز في باكو باسم آخر، أوغانيز توتوميانت، وهو تاجر أرمني. لكن الأوخرانا لاحظت عودته: «الاشتراكي الديموقراطي الهارب من سيبيريا قد وصل. هو معروف باسم «كوبا» أو «سوسو». أعلم عميلاً أوخرانا من داخل الحزب البولشفي، «فيكوس» و«ميخائيل»، الآن بانتظام عن ستالين، الذي تألق بلقب «بائع الحليب»[306]، لأنه استخدم مكانًا لبيع الحليب في باكو كقاعدة له. كان يراقب بشكل متقطّع، لأن الشرطة السرية احتاجت إلى أشهر لتحديد هوية سوسو ومطاردته. لماذا؟

هذه من الألغاز الطويلة عن ستالين الشاب: هل كان الديكتاتور السوفياتي المستقبلي عميلًا لدى الشرطة السرية التابعة للقيصر[307]؟

(25)

«بائع الحليب»:

هل كان ستالين عميلًا لدى القيصر؟

في مملكة النفط في باكو، حاول بائع الحليب تعزيز البولشفيين المشتتين، وانضم إلى سبانداريان وسيرغو وبودو مديفاني. لمّ شمل بقية الجماعة و«بدأ التخطيط لهجوم على باخرة»، وفق «الموسري» كوبرياشفيلي، لتمويل صحيفتهم «باكينسكي بروليتاري».

لكن كان ثمة ظلم في التاريخ. كتب ستالين «الحزب يتوعّك. لا شيء حسنًا ليُكتب. ليس لدينا عمال»، اشتكى إلى سخاكايا، مضيفًا أنه يؤمن الآن بضرورة التوحّد مع المنشفيين. كانت المصالحة لعنة بالنسبة إلى لينين، لكن الظروف العصيبة أجبرت ستالين الآن على أن يصبح مصلحًا. الكوميتيتشيكي الصعب، رجال اللجنة داخل روسيا، كانوا محبطين بشكل مضطرد من لينين واللاجئين المتخاصمين: «لماذا يجب أن تفرّقنا هذه «الميول» اللعينة... يا لها من مناوشات بلا طائل. يستحق الطرفان الجلد!». طلب ستالين تعيين مكتب روسي لإدارة الحزب داخل الامبراطورية واستحداث صحيفة وطنية تتخذ من روسيا مقرًا لها، وليس المنفى. اشتكى ستالين كتابة «اللجنة المركزية هي مركز خيالي».

وصلت أفكار سوسو حول مستقبل الحزب، إلى اللجنة المركزية في باريس، التي عيّنته، في كانون الثاني/يناير 1910، في المكتب الروسي الجديد، وهو اعتراف بمثابرته النشيطة ومواهبه التنظيمية. تدرّج من ناشط قوقازي إلى قائد بولشفي روسي، لكن في باكو كان يلعب لعبته الخاصة ضد شوميان.

تذمّرت زوجة شوميان، إكاترينا، ابنة المدير التنفيذي للنفط، قائلة «ركّز ستالين وسبانداريان كل السلطة بين أيديهما». في مواجهة سيطرة ستالين وقمع القيصر، أخذ شوميان، مثل الآخرين، وظيفة منتظمة، عاملًا حتى لدى بارون نفط متعاطف، هو شيباييف: حاول الانسحاب من العمل السري. قال سوسو لتسخاكايا «الكل «عاد إلى صوابه»، وحصل على عمل خاص. الكل سواي، لأنني لم «أعد إلى صوابي». الشرطة تطاردني!». ستالين، الفاسد الأخضر المزرقّ، أبدًا «لم يعد إلى رشده»، وكره من فعل ذلك، كشوميان، «الذي تخلّى عن عملنا منذ ثلاثة أشهر!». حاول أن يستميل شوميان مجددًا إلى الحظيرة. وحده بعد كاتو، احتقر ستالين منزل شوميان السعيد[308]، ولام زوجته إكاترينا: «كأنثى الظبي، لا تفكّر سوى في الطعام، وغالبًا ما كانت ضدي لأنني أشركت إسطفانها في الأعمال السرية التي تشم رائحة السجن». اشتكت إكاترينا شوميان من أن ستالين «كان يتآمر ضد شوميان، ويتصرّف كالمرأة السليطة والمشاكسة».

قام ستالين بزيارات سريعة إلى تيفليس «وهو قلق على المسائل المالية»، وتصغير مصادرة الأراضي وخدع الحماية. توفي والده

من غير أن يعلم، على الأرجح بينما كان هناك. بيسو، الذي أصبح بحلول هذا الوقت ثملًا وميؤوسًا منه، استُقبل في مستشفى ميخايلوفسكي. وتشير السجلات الطبية إلى انهيار حالته الصحية بسبب السل والتهاب القولون وذات الرئة المزمن. توفي في 12 آب/أغسطس في سن الخامسة والخمسين. قام بمحاولة لإيجاد سوسو. ومن دون أي أقارب أو مال، دُفن في مقبرة العائلة للفقراء[309]. بالنسبة إلى البولشفي الذي يوقّع باسم «نجل بيسو»، توفي والدة منذ سنين[[310]].

وبالعودة إلى قزوين، انضمت الآن حبيبة ستالين إليه من المنفى، ستيفانيا بيتروفسكايا، التي وصفتها الأوخرانا بسرعة «كخليلة القائد المعروف لحزب العمال الروسي الاشتراكي الديموقراطي المحلي». لا بد من أنها كرّست نفسها له، لأنها، عند إخلاء سبيلها من المنفى، لم تعد لا إلى موسكو ولا إلى أوديسا، بل لحقت بستالين إلى باكو.

أعطته الآن آخر إطراء له: تخلى عن الاسم المستعار «ك. كاتو»، وأصبح «ك. ستيفين»، استنادًا إلى ستيفانيا... وبعد خطوة «ستالين». اعتماد أسماء الحبيبات كأسماء مستعارة، ميزة في هذه الشوفينية. ليس من حروف بينها. لكن يُظهر توقيع «ك. ستيفين» أن ستيفانيا كانت مهمة بالنسبة إليه. انتقلا معًا، أو، وفقما لاحظت الشرطة، بائع الحليب «تساكن مع خليلته».

* * *

بدأ الآن مزيج من الفضائح المذهلة التي كشفت أن حزب ستالين مشوّه بجواسيس للقيصر. كان رد فعل ستالين في إطلاق العنان لمطاردة هستيرية وقاتلة للخونة التي لم تفلح سوى في القضاء على الأبرياء، وتوجيه الشكوك إليه هو. بدأ الأمر في أيلول/ سبتمبر 1909، عندما حذّر ستالين مصدرٌ في الشرطة السرية من أنه تمت خيانة مطبعته من قبل عميل مزدوج لدى الأوخرانا: كانت على وشك الهجوم، فكان لا بد من نقل المطبعة بسرعة وإعادة تجميعها في مكان جديد.

يتذكر تابعه الأمين، فاتسيك، أن ستالين «هرع إلي وطلب مني الحصول على النقود. جلبت له 600 روبل من مانشو»، البارون النفطي. لكن، لم يكن المال كافيًا.

بعد وقت قليل، «أتى جوزيف فيساريونوفيتش دجوغاشفيلي راكضًا مع بودو مديفاني»، ثم أعطى الزعيم لستالين 300 روبل أخرى.

وجد ستالين للمطبعة مكانًا سريًا جديدًا في مدينة النفط باكو، واضعًا إياها في القبو المظلم وأروقة القلعة الفارسية. لكن اكتشف أن الزوجين اللذين أدارا فعليًا المطبعة قد اختلسا المال. أرسل «الموسريين» لتقفّي أثرهما. هرب الزوج، واستجوبت الزوجة على أيدي مسلّحي ستالين، لكنها هربت بطريقة أو بأخرى قبل أن تتم تصفيتها.

في تشرين الأول/أكتوبر 1909، هاجمت الشرطة منزلًا آمنًا للقبض على البولشفي رفيق ستالين من باكو، بروكوفي

(«أليوشا») جاباريدزي. فوجئ رجال الشرطة بايجاد ستالين وسيرغو مع جاباريدزي. التحري الأول، غير القادر كما دائمًا على التفكير المستقل، ترك بعض رجال الشرطة للحراسة، وذهب لاستشارة المسؤولين الأعلى منه مرتبة. رشا ستالين وسيرغو رجال الشرطة ب 10 روبلات. كان على جاباريدزي البقاء ومواجهة التوقيف، لكن سمح لستالين وسيرغو بالهروب.

اتهم ستالين، في معلومات سرية من أحد مصادره الأخرى في الأوخرانا في باكو، بهذه الخيانات أمين الاتحاد البولشفي لعمال النفط، ليونتييف. قرر ستالين أن هنالك خمسة عملاء مزدوجين من الأوخرانا في الحزب. قرر قتل ليونتييف، لكن ليونتييف دعا الخدّاع، وبرز من جديد وطلب محاكمة في الحزب. رفض ستالين عقد محاكمة لأن هذا سيكشف الأشخاص العاملين داخل الأوخرانا. أعفي عن ليونتييف، ما أثار الشكوك حول علاقة ستالين الخاصة بالشرطة السرية.

قال ستالين لاحقًا «إن خيانة أحدهم تشاركت معه في كل شيء رهيب جدًا، لا يمكن أي ممثل أو كاتب التعبير عنه. هذا أفظع من قضمة الموت!». نظّم ستالين عملية بحث وتحر وحشي في باكو لإيجاد الخونة، الحقيقيين والخياليين، كما فعل في كل الاتحاد السوفياتي في الثلاثينيات. أما الفرق فهو أنه في باكو كان الحزب موبوءًا حقًا بجواسيس الشرطة.

طبع ستالين أسماء «الخونة» الخمسة، لكن أرشيفات الشرطة السرية لا تكشف سوى عن واحد، كان في الواقع، جاسوسًا؛

والآخرون أبرياء جميعا.

تقدّمت عملية المطاردة. عندما زار باكو بولشفي رفيع المستوى من موسكو يدعى شيرنومازوف، «حدّق الرفيق كوبا فيه بازدراء. «أنت خائن!» صرخ». وفي هذه الحالة، كان ستالين على حق.

نقل التشوّش والفوضى إلى الأوخرانا الطربة في باكو من خلال جاسوسيها الحقيقيين الملقّبين «فيكوس» و«ميخائيل»، الخائنين اللذين تسللا إلى صفوف البولشفيين، لكن لم يكشفهما قط ستالين الجنرال في مطاردة الخونة. لا شك بأنه أمر في باكو بقتل الأبرياء بتهمة الخيانة، كما فعل في الرعب.

عمّت الفوضى. أحب سوسو تسوية الفوضى بعمليات القتل الهادئة، لكن هذا لم يفلح هذه المرة. تبادل ورفيقًا آخر التهم تجاه بعضهما البعض بأنهما شبحان.

والحقيقة أن المنشفيين وبعض البولشفيين اشتبهوا في أن ستالين بذاته، من خلال مصادره في الشرطة السرية، هو أكبر خائن. فهل كان يخون الحزب لصالح الشرطة؟ هذه قضية ضد ستالين.

* * *

نمّا ستالين بالتأكيد روابط قيصرية، فتلقى وابلًا من المعلومات السرية الغامضة من مصادره في الشرطة السرية. كان ستالين يسير مرة في شوارع باكو مع رفيق عندما دنا منه ضابط في الأوخرانا. قال «أعلم أنك ثائر. هذه لائحة كل رفاقك الذين سيتم

إيقافهم في المستقبل القريب». وفي مناسبة أخرى، جاء رفيق للقاء ستالين في منزل آمن للحزب وجفل لرؤية ضابط رفيع المستوى في الدرك عند خروجه. واجه ستالين، الذي قال إن الدركي يساعد البولشفيين.

في تيفليس، خلال طراد للثوار، ذُهل ستالين لإيجاد منشفي، هو أرتيوم جيو، في مخبأ سري. قال ستالين من دون تفكير «لم أكن أتوقّع ذلك! ألم يتم توقيفك؟».

ثم دخل شخص غريب. أكّد ستالين لجيو «يمكنك التكلّم بحرية. هو رفيق لي». واتضح أن هذا «الرفيق» شرطي أدلى لاحقًا بلائحة الرفاق - بمن فيهم سيرغي أليلوييف - الذين أُوقفوا في ذاك النهار - وحذّر ستالين من أن الشرطة ستوقفه في ذاك الليل[311].

نقل العميل لدى الأوخرانا «فيكوس»، أن ضابطًا مجهولًا في الدرك قد زار ستالين ومديفاني ليحذرهما من هجوم الدرك على المطبعة. وكما رأينا، لم يتعرّضوا للمطبعة.

فما كانت علاقة ستالين بالشرطة السرية؟

* * *

يصر أرسينيدزي على أن «ستالين كان يعطي عناوين الرفاق الذين لا يعجبونه للدرك للتخلّص منهم. قرر رفاقه أن يخضع للمحاكمة في الحزب... لكن في اجتماع المحاكمة، ظهر الدرك وأوقفوا الحكام وكوبا». في العام 1909، يضيف أوراتادزي،

«اتهمه البولشفيون في باكو بأنه شجب شوميان أمام الشرطة». ادعى جوردانيا أن شوميان قال له ذلك. حتى «ستالين اتهمني. لا يعرف أحد سواه عنوان منزلي الآمن». كان المتهمون الثلاثة من المنفيين المنشفيين. وقد قبلت قصصهم بشكل واسع النطاق.

بدت الشرطة السرية دائمًا مرتبكة بشكل غريب حيال ستالين. اكتشف رئيس الدرك في باكو، الكولونيل مارتينوف، أن بائع الحليب هو سوسو دجوغاشفيلي في كانون الأول/ديسمبر 1909 فقط، أي بعد ستة أشهر تقريبًا من هروبه. فهل كان في حماية المراقبين القيصريين؟

إذا رمى أحدهم في هذا المرجل السام، اتهامات الخيانة ضده في العام 1902، ومصادره في الشرطة السرية وعمليات الهروب من المنفى والسجن، يبدو محتملًا أنه كان عميلًا لدى القيصر[312]. فهل كان الحبر الأعظم المستقبلي للماركسية الدولية، خائنًا بلا مبادئ، ومصابًا بجنون العظمة؟ لو كان ستالين مدعيًا، ألا تكون تجربة السوفيات الكاملة ضرب احتيال أيضًا؟ وهل كل ما فعله، وتحديدًا الرعب الكبير، محاولة لتغطية ذنبه؟ كانت نظرية مغرية، وبخاصة خلال الحرب الباردة.

* * *

لكن القضية ضد ستالين ضعيفة فعليًا. لا تصلح القصص المنشفية عن خيانة شوميان. كان هنالك توتّر لكن لا إقطاعية مع شوميان: الشخصيّتان البولشفيتان العنيفتان في القوقاز كانا «صديقين...

لكن مع ظل». وخلال الفترة الممتدة من 1907 إلى 1910، لم يتم إيقاف شوميان سوى مرة واحدة، في 30 نيسان/أبريل 1909، عندما كان ستالين لا يزال في سولفيشيغودسك. ثم أُوقف شوميان، في 30 أيلول/سبتمبر 1911، عندما سُجن ستالين في بطرسبرغ. ومن غير المرجّح أن يكون ستالين قد نظّم أيًا من التوقيفين.

كان ستالين مرنًا وغير أخلاقي. قادته عقدته المسيحية إلى الاعتقاد أن كل من عارضه هو عدو القضية، وبالتالي أي اتفاق مبرّر، مهما يكن شيطانيًا. لكن لا دليل على أنه خان أي رفيق، أو أنه حوكم من قبل أي محكمة في الحزب.

ليست مصادر ستالين في الشرطة السرية مشبوهة بقدر ما تبدو. عندما زار تيفليس لحضور مؤتمر قصير في تشرين الثاني/ نوفمبر 1909، علمنا، لسخرية القدر من «فيكوس»، عميل الأوخرانا بين البولشفيين، بأنه «بفضل جهود كوبا (سوسو) - جوزيف دجوغاشفيلي، الذي أتى من باكو - قرر المؤتمر ترتيب تسلل أعضاء الحزب إلى مختلف مؤسسات الدولة، وجمع المعلومات المخابراتية للحزب». فكان ستالين المسؤول عن استخبارات الحزب ومخابراته المضادة: دخول الشرطة السرية.

كان عمله إعداد ضباط الدرك أو الأوخرانا، للحصول على المعلومات السرية عن الخونة وهجمات الشرطة، ولتنظيم إطلاق سراح الرفاق الموقوفين بسرعة. وإذا قرأ أحدهم القصص بعناية، يلاحظ أن كل قصة عن اجتماعات ستالين بالشرطة السرية، حتى

الأكثر عدائية، تكشف أنه كان في الواقع يتلقى المعلومات المخابراتية، ولا يعطيها. كانت بعض المصادر كمؤدي دور الشرطة من المتعاطفين؛ ومعظمهم لم يبتغ سوى المال.

العالم السري هو دائمًا السوق. كانت الشرطة القوقازية قابلة للرشوة تحديدًا، وكانت أسعار إطلاق سراح الرفاق معروفة. يفرض حاكم سجن بايلوف 150 روبلًا للسجين لاستبداله بالبديل[313]. في باكو، كان نائب رئيس الدرك، الكابتن فيودور زايتسيف، معروفًا. يتذكر سيرغو «أطلق سراح كل الرفاق بعد فترة وجيزة عبر بعض الدفعات الصغيرة للكابتن زايتسيف، الذي قبل الرشى حالًا». دفع شيبابيف، بارون النفط في باكو، لزايتسيف 700 روبل لإطلاق سراح شوميان. كان الكابتن زايستيف بالتأكيد تقريبًا الدركي الرفيع المستوى الذي يلتقي ستالين بشكل سري. في نيسان/أبريل 1910، أزعجه فساد زايستيف، وصرف من عمله.

تدفق المال من الجهتين. وهميًا دفع لك عملاء الأوخرانا، لكن لم يتلق ستالين مثل هذا الدخل الغريب. حتى عندما كان لديه الكثير من نقود السطو على المصارف، أنفق القليل على نفسه، وغالبًا ما كان لا يحمل المال، في تفاوت ملحوظ مع عملاء الأوخرانا الحقيقيين الذين كوفئوا بسخاء ليعيشوا براحة.

كما أكدت الشرطة السرية أن عملاءها كانوا دائما بشكل وهمي أحرارًا: أرادوا الحصول على أكبر قدر من المال. لكن ستالين أنفق عامًا ونصف العام فقط بين توقيفه بين العامين 1908

و1917. بعد العام 1910، كان حرًا لعشرة أشهر فقط.

كان استشراء الفساد داخل الشرطة السرية القيصرية، بندًا رئيسيًا في القضية ضد ستالين. كان هذا الخطأ عالميًا، ولا يقتصر على ستالين. فقد تسلّلت وكالات الأمن بالكامل بين البولشفيين، لكن لا تنظيم قبل اختراع الكومبيوتر، استطاع أن يستوعب ملايين التقارير وفهرست البطاقات. والحقيقة أن الأوخرانا كانت ناجحة بشكل لافت، إذا ما قورنت مع - فلنقل - وكالات الأمن الأميركية المموّلة بكرم اليوم في عصر الكومبيوتر والمراقبة الالكترونية.

أما في ما يتعلق بعمليات هروب ستالين العديدة من المنفى (والآتي أعظم)، فقد شرح رجل من الشرطة السرية «من لم يهرب لأنه لم يرد ذلك، لأسباب شخصية». وقد أسهمت حرفة ستالين السرية وتملّصه الماكر، واستعمال الوسطاء، في جعل أمر القبض عليه يبدو شديد الصعوبة والتعقيد؛ ردعت قساوته الشهود.

وفي النهاية، يشير الدليل، في أرشيفات الشرطة السرية الباقية العديدة، إلى أن ستالين لم يكن عميلًا قيصريًا، ما لم يكن ذلك قد قلبً في مستند مصيري[314] مخبأ، غير مكشوف عنه في أرشيفات الأوخرانا الريفية، التي فقدها ستالين بذاته وشرطته السرية الخاصة وأعداؤه العديدون وجيوش المؤرخين الذين بحثوا بلا جدوى عن الدليل القاطع طوال قرن من الزمن.

* * *

كان ستالين مؤهلًا أكثر من سواه لهذا الترحال الذي لا يعرف

الاستقرار بين الأضداد. في كل من اعتقالاته التسعة أو أكثر، حاولت الشرطة السرية بشكل روتيني تحويله إلى عميلها المزدوج. وتزامنًا، حاول ستالين، سيّد سهولة الانقياد نحو الإثم، بمثابرة، السعي إلى شرطي ضعيف أو فاسد ليصبح عميله.

عندما وظّف مخبرًا من الشرطة السرية، من كان يلعب بمن؟ من المرجّح أن بعض رجال الشرطة السرية تخطوا ستالين في روح الكونسبيراتسيا، ناقلين إليه أسماء البولشفيين الأبرياء على أنهم «خونة» بغية إحاكة هوس الاضطهاد المدمّر داخل الحزب، وحماية عملائهم الحقيقيين، ما يفسّر لماذا أن معظم «خونة» باكو الذين عدّدهم ستالين، كانوا أبرياء، بينما أن عميلي القيصر الحقيقيين، «فيكوس» و«ميخائيل»، لم يُشتبه فيهما قط.

لكن، في النهاية، كان ستالين ماركسيًا مخلصًا «صاحب التقوى شبه المسلمة»، ولا يسمح لأي صديق أو قريب، بأن يقف بينه وبين رسالته. نظر إلى نفسه كقائد غير مكتشف، لكنه طالما رأى نفسه قائدًا مهمًا وملهمًا من الطبقة العاملة - «فارس الكأس المقدّس»، بكلام سبانداريان. ولحدود علمنا، لم يحد أبدًا عن رسالته حتى في أحلك الأيام - وفي هذا هو فريد تقريبًا.

غير أن نظرية الازدواجية والتجسس تساعد على تفسير بعض جنون التاريخ السوفياتي. هذا هو أساس التفكير السوفياتي المهووس بالاضطهاد، وحماقة عدم ثقة ستالين بالتحذيرات حول خطط هتلر للاجتياح في العام 1941 والجموح الدامي لرعبه.

قد تكون الأوخرانا فشلت في تلافي الثورة الروسية، لكنها نجحت

في تسميم العقول الثورية. فبعد ثلاثين عامًا من سقوط عهد القياصرة، كان البولشفيون ما زالوا يتقاتلون في مطاردة الخونة[315] الذين لا أساس لهم.

* * *

في ربيع العام 1910، كان بائع الحليب سيّد الهروب، إلى درجة أن الشرطة السرية ما عادت تستطيع التعامل معه. قال قائد الدرك في باكو، الكولونيل مارتينوف، «جعلت استحالة مراقبته المستمرة من الضروري اعتقاله؛ عرف بأمر كل العملاء. وحتى العملاء الجدد فشلوا، بينما حاول بائع الحليب الأمرين لإحباط المراقبة ولتعريضها لرفاقه، وبالتالي أفسد كل العملية. يعيش بائع الحليب في الأساس مع خليلته ستيفانيا بيتروفسكايا».

في 23 آذار/مارس 1910، أوقف الكولونيل مارتينوف بائع الحليب، الذي يستخدم الآن لقب «زاخار ميليكيانتس»، «نبيلة مقاطعة خيرسون، ستيفانيا بيتروفسكايا». استجوب الثنائي بشكل منفصل في سجن بايلوف. أنكر بائع الحليب أولًا أنه على علاقة بستيفانيا. لكنه طلب لاحقًا الإذن بالزواج بها. وبدأ ستالين بعد فترة وجيزة بمناداتها «زوجتي».

الجزء الثالث

حين يتنقّل البدر المنير

في بقاع الأثير وضياؤه

الأمير يلعب في الأفق الكبير

حين يغرّد الشادي برفق في المراعي

حين يتردد صدى الأغاني من الأعالي

حين تكنس ريح المرتفعات مجددًا الطرقات

ويوقظ نسيم الغابات الحفيف في الساحات

حين يعود المنفي المهضوم

مجددًا إلى شعبه المظلوم

وحين يبصر المريض المحروم

مجددًا الشمس والنجوم

عندئذ، أنا المظلوم،

وسط الحزن والشقا أجد الراحة

والهنا وآمل بحياة المنى

الراقدة في قلب الضنى!

وعلى بساط هذه الآمال تبتهج روحي

وينبض قلبي بالسلام

لكن أحقيقة هذه الآمال

التي أرسلت إلي في هذه الأيام؟

(26)

خطيبتان ضائعتان

وفلاحة حامل

ادعى ستالين أولًا أنه لم يستخدم قط اسم توتوميانتس، وشدد على أنه ما كان ليستطيع ارتكاب أي جرائم خلال ثورة العام 1905، لأنه كان في لندن طوال العام، برغم أنه أقر بهروبه من المنفى. وعندما سأله الملازم أول بودولسكي عن ستيفانيا، أقر سوسو، وهو في العقد الرابع من العمر، أنه التقى بها في سولفيشيغودسك، لكن «لم أساكنها قط». وسواء أكان خداعًا سريًا أم تخليًا عن نبل الأخلاق، أم اهتمامًا شهمًا لسمعتها، فقد كان قادرًا على الثلاثة. لكنها لم تنكر وجوده. قبل أربعة أيام، قالت ستيفانيا، البالغة من العمر أربع وعشرين، لبودولسكي، «نعم، أعرف دجوغاشفيلي. أقطن معه».

بعد ثلاثة أشهر، قرر الدرك إطلاق سراحها، لكن «بالنظر إلى المشاركة العنيدة (لستالين) في الأحزاب الثورية وموقعه العالي، برغم كل العقوبات الإدارية السابقة، وعمليتي الهروب من المنفى، اقترحت العقوبة القصوى من خمسة أعوام في المنفى السيبيري». كان هذا أقصى الممكن. لكن لسوء الحظ، صُرف الكابتن زايستيف الفاسد لتوّه، وكان الضابط الجديد أقل مرونة.

عند سجن سوسو، زوّده رفاقه ببلغم سجين مصاب بالسل، ورشوا

الطبيب لنقله إلى مستشفى السجن، فتقدّم إلى محافظ باكو بالتماس رومانسي:

«بالنظر إلى السل الرئوي الذي شُخّص عندي... أطلب بتواضع من سعادتكم... أن تنظر إلى صحتي، وتضعني في اعتقال أخف، وتسرّع من إنجاز قضيتي. أطلب من سعادتكم أن تسمحوا لي بالزواج من ستيفانيا لياندروفنا بيتروفسكايا، المقيمة في باكو.

29 حزيران/يونيو 1910.

مقدّم العريضة دجوغاشفيلي».

لا بد من أن ستيفانيا، التي أُخلي سبيلها الآن، قد زارته في السجن وتلقّت اقتراحًا، لأنه في اليوم التالي، كتب لها سوسو مجددًا، داعيًا إياها هذه المرة «زوجتي»:

«علمت من زوجتي التي زارت إدارة الدرك أن سعادتك تعتبر أنه من الضروري نقلي إلى ياكوتسك. لا أفهم هذا التدبير الصارم، وأتساءل إذا كانت المعرفة غير الكافية لوضعي، قد أدت إلى سوء الفهم هذا...».

كانت هذه المناشدات ضد القواعد الثورية، لكن كذبات ستالين المتملّقة لم تؤثر في الكولونيل مارتينوف، الذي أوصى بخمسة أعوام. لكن مكتب النائب الليبرالي في تيفليس، خفّض العقوبة. في 1 أيلول/سبتمبر، حُكم على ستالين بإنهاء نفيه في سولفيشيغودسك، وحُظر عليه دخول القوقاز طوال خمسة أعوام. وبرغم أنه سيعود مجددًا إلى باكو، أجبر ضباط القيصر لسخرية القدر ستالين على الهروب من المحيط، والتركيز في المرحلة الأهم على روسيا

بذاتها.

في 31 آب/أغسطس، كتب نائب المدعي العام لمحافظ باكو: «طلب السجين ج. ف. دجوغاشفيلي، السماح له بالزواج من المواطنة في باكو، ستيفانيا بيتروفسكايا.

هل لدى سعادتكم أي اعتراضات على تحقيقي طلب دجوغاشفيلي؟». وسواء أكان بسبب العمل الورقي غير المتقن، أم الخطأ البيروقراطي، أم الأذى المقصود، استلم حاكم سجن بايلوف الرسالة التالية في 23 أيلول/سبتمبر: «يُسمح للسجين دجوغاشفيلي بالزواج من ستيفانيا بيتروفسكايا: يجب إعلام السجين. وسيُعقد الاحتفال بحضور الحاكم في كنيسة السجن».

عندما أتى السجّانون بهذه الأخبار السارة إلى زنزانة ستالين، كان قد رحل: في هذا اليوم بالذات، «23 أيلول/سبتمبر 1910، نُفي جوزيف دجوغاشفيلي إلى محافظة فولوغدا». وبحلول نهاية تشرين الأول/أكتوبر، عاد إلى سولفيشيغودسك. لا يقتصر الأمر على أنه لم يتزوّج بخطيبته وزوجته غير الرسمية، بل لم يرها مجددًا[316].

* * *

لم يتحسّن سولفيشيغودسك[[317]] في غيابه. كان هناك بعض المنفيين، وكان نظام الشرطة في ظل «ديك النهر» المضحك، صارمًا أكثر من أي وقت مضى. وقلّ ما يجب فعله. لا نعرف إذا فكّر ستالين مجددًا في خطيبته في باكو، لكنه واسى نفسه في ظل

حزن المنفى، بفترة أخرى من ملاحقة النساء، ما أدى إلى زواج شبه رسمي منسي، وابن غير شرعي.

تتذكر منفية رفيقة تدعى سيرافيما خوروشينينا، البالغة من العمر في ذلك الحين اثنين وعشرين عامًا، وهي كريمة معلّم، مثقفة من محافظة بيرم، قائلة «كان العيش مريرًا في سولفيشيغودسك. كانت مراقبة الشرطة قابلة للتحمل، لكن المنفيين ليسوا على قيد الحياة. فقد ماتوا فعلًا. كل واحد يعيش داخل نفسه...

وليس لديهم ما يقولونه. لم يكن هناك ترفيه مشترك حتى، فأخمد المنفيون حزنهم في الشرب». لا بد من أنها أضافت أن السلوى الأساسية الأخرى، بعد معاداة المنفيين الآخرين والثمالة، هي الزنا والفسق. بعد الحرب العالمية الثانية، عندما كان الديكتاتور السوفياتي يناقش فضيحة جنسية ديبلوماسية مع السفير البريطاني، ضحك ستالين عارفًا أن «هذه الأسئلة ناجمة عن السأم والضجر».

مكث ستالين أولًا لدى عائلة غريغوروف. وبينما كان هناك، بدأ علاقة مع المعلمة الشابة، سيرافيما خوروشينينا. انتقلا معًا، ومكثا في غرفة واحدة في منزل أرملة شابة، تُدعى ماريا كوزاكوفا.

لم يكن ستالين وحده الذي وجد في المغامرات الجنسية المواساة. قضى الكثير من الوقت مع المنشفي المتوهّج في بذلة بيضاء، ويدعى ليزهنيف. «كان قد نفي إلى هذا الموضع الخلفي المنعزل من بلدة فولوغدا، لأنه أغوى زوجة المدعي العام في البلدة»، وفق المنفي الرفيق إيفان غولوبيف. «كان يخبرنا عن مغامراته

في فولوغدا، وكان محالًا ألا تنفجر ضاحكًا. كاد ستالين يموت من شدة الضحك!».

لكن، كلما أسرف في شرب الخمر في منزل كوزاكوفا، كان عقل سوسو في مكان آخر. بدأ صاحب اليد الخضراء دائمًا، بزرع أشجار الصنوبر. قرأ كتب التاريخ والمزيد من الروايات، بما فيها روايات تولستوي، التي اشمأز من أفكاره السياسية، لكنه أُعجب بأدبه. كان جاهزًا للهروب بعد فترة وجيزة، وضجرًا حتى البكاء، ويائسًا للحصول على أخبار التطورات من لينين.

في 10 كانون الأول/ديسمبر، وصلت رسالة من المركز البلفشي. رد ستالين بإرسال «أحرّ التحيات إلى لينين»، الذي دعمه على أنه «الوحيد المستقيم» مقابل «الهراء المطلق»، و«افتقاد قاعدة تروتسكي للمبادئ... لينين هو رفيق عنيف يعرف شيئًا أو اثنين». لكن «المهمة الفورية، التي ستنتجح من دون تأخير، هي تنظيم مجموعة مركزية (روسية) تدير كل الأعمال غير القانونية، وشبه القانونية، والقانونية... أسميه مهما شئت. لا يهم. لكن هذا ملحّ بقدر خبز الحياة بذاته. سأبدأ بإنعاش الحزب. أما بالنسبة إلى نفسه، «فلا يزال أمامي ستة أشهر في السجن. بعدها، أنا في خدمتكم». لكن «إذا كانت الحاجة ملحّة، فيمكنني أن أرفع مرساتي حالًا...».

كان مستعدًا للهروب، لكنه بحاجة إلى المال.

في مواجهة الجلبة في الحزب الاشتراكي الديموقراطي داخل روسيا، حاول لينين للمرة الأخيرة أن يتوحّد مع المنشفيين. ووافق

ستالين، شبه المصالح، شبه اللينيني.

وعندما هلك التودد، عاد لينين إلى وضعه الطبيعي من الضغينة المستفيضة.

ترأس سوسو «الذي ارتدى القبعة من فرو القندس»، كل الاجتماعات السرية للمنفيين السبعة في برج الحمام. يتذكر إيفان غولوبيف أنه «غالبًا ما كان مبتهجًا وضاحكًا، ويغني بصوته الجبلي السحري، لكنه احتقر التزلّف». كشف مرة حقيقة عن نفسه: «يجب أن نبقى غير شرعيين، حتى الثورة، لأن التحوّل إلى الشرعية يعني التحوّل إلى شخص طبيعي». لم يرغب ستالين في أن يصبح «شخصًا طبيعيًا». وفي الحياة الطبيعية، كانت لتكون ميزاته الغريبة غير محتملة، لكن في العمل السري الثوري (ولاحقًا خصوصية المزاج وهوس الاضطهاد والقيادة السوفياتية التآمرية)، كانت فضائل «فارس الكأس المقدّس».

كتب في 24 كانون الثاني/يناير 1911، في رسالة أخرى إلى رفيق من موسكو، «أنا أختنق هنا من دون عمل ناشط، أختنق بكل ما للكلمة من معنى». حيّاه: «سوسو القوقازي يكتب إليك. أتذكرني، من باكو وتيفليس في العام 1904». كان الضجر يعذّبه. تكلّم باستمرار على الهروب. هو الغاضب بسبب تضييع الوقت في الفصائل للمنفيين الحاقدين، نفّس عن ازدرائه على الطرفين، حتى لينين: «الكل سمع بأنهم جعلوا من الحبة قبة في الخارج: تكتّل لينين - بليخانوف من جهة وتكتّل تروتسكي - مارتوف - بوغدانوف من جهة أخرى. وكما تناهى إليّ، يفضّل

العمال التكتّل الأول، لكن العامة يحتقرون من في الخارج...».

وصلت أخبار اضطرابات ستالين النفسية بسرعة إلى لينين في المنفى، ما أثار استياءه. وفي هذا الوقت، كان يعقد مدرسة للحزب في لونغجومو قرب باريس، وقد دعا سيرغو إلى الدراسة هناك. دافع سيرغو عن حليفه ستالين. وفي أحد الأيام، كان لينين وسيرغو يتجوّلان في البولفارات.

«سيرغو، هل تعرف جملة «يجعل من الحبة قبة»؟».

أجاب سيرغو «فلاديمير إيليش»، عارفًا أن لينين قد سمع بطريقة أو بأخرى برسالة ستالين: «كوبا صديقنا. عدة أمور تجمعنا».

قال لينين «أعلم. أتذكره جيدًا أيضا. لكن، لم نربح الثورة بعدُ. يجب أن تأتي مصالح الثورة بحسب ما يرغب فيه المرء أو لا. تقول إن كوبا رفيقنا، كما لو أنك تعني أنه بولشفي ولن يخذلنا. لكن، هل تُغمض عينيك على التناقض؟ هذه المزحات العدمية... تُظهر عدم رشد كوبا كماركسي».

أطلق لينين النار بين نظارتي ستالين، لكنه سامح «سوسو من القوقاز» بعد فترة وجيزة. ولاحقًا، أخبر المنشفي أوراتادزي لينين عن طرد ستالين في باكو. أجاب لينين ضاحكًا «لا يستحق الأمر أن نولي الكثير من الأهمية لهذه الأمور»، ما دفع أوراتادزي إلى أن ينمّ له عن اعتداءات ستالين الوحشية. قال لينين «هذا هو بالضبط الشخص الذي أحتاج إليه».

* * *

وصلت أموال الهروب - 70 روبلًا - إلى سولفيشيغودسك، لكنها سُرقت فورًا تقريبًا من ستالين. أرسل المال بالبرقية إلى تلميذ منفي في فولوغدا يدعى إيفانيان. كان من المعتاد إرسال هذه الأموال إلى طرف ثالث لأنه لو لم يكن كذلك، يخسر المنفيون مخصصاتهم. لكن كان هناك دائمًا خطر السرقة.

بين أواخر شهر كانون الثاني/يناير وأواسط شباط/فبراير، اخترع ستالين موعدًا طبيًا للوصول إلى عاصمة المحافظة، مخططًا النزول عند محلة إيفانيان، وجمع المال واستقلال القطار إلى بطرسبرغ. لكن كان للتلميذ أفكار أخرى. عندما وصل ستالين إلى فولوغدا، نقله إيفانيان إلى منزل منفي آخر، هو الكونت أليكسي دورير. لكن أولًا وفق ستالين، «لم يمرر لي إيفانيان المال، لكنه أراني فقط البرقية عن إرساله (مع الكثير من الكلمات التي تم محوها). لم يستطع هو بنفسه أن يشرح «خسارة» المال والكلمات الناقصة في البرقية».

لكن سوسو، وفق بعض الحسابات، قد استقل القطار إلى بطرسبرغ، من غير أن تردعه خسارة المال. وبعد المشي طوال النهار مثقل الكاهل، لاحظ صيدلية تحمل الاسم الجورجي لوردكيبانادزي، ترنّح إلى الداخل واعترف بأنه هارب. أشفق الجورجي على ابن بلده، فخبأه وأطعمه. ذُهل ستالين دائمًا كيف ساعده الغرباء عنه تمامًا.

لكن، كان على ستالين الغاضب أن يعود إلى سولفيشيغودسك. ولا ينسى أبدًا إيفانيان، «مقهقهًا عن «اللص الذي سرق المال،

وعندما التقيت الوغد بعد الثورة، كانت له الجرأة ليطلب مني المساعدة»». لو سرق إيفانيان حقًا مال ستالين، فهذا عمل شجاعة مدهش، وحماقة باهظة النفقة وغير مربحة.

أُردي في العام 1937، وهو لا يزال يحتج مؤكدًا براءته[318].

* * *

كتبت سيرافيما خوروشينينا باقتضاب «كنت أعاقر الخمر أيضًا». ربما كانت فترة الشرب للتعافي من الفترة الفاصلة المحبطة التي أدت إلى جعل علاقة ستالين بها رسمية. بعض الوقت قبل 23 شباط/فبراير، تسجّل هو وسيرافيما خوروشينينا كشريكين متساكنين، وهو نوع من الزواج المدني (لأنها وحدها الزواجات الدينية كانت موجودة في الامبراطورية الأرثوذكسية). هذا ارتباط مفقود كليًا من السيرة الذاتية لستالين، أو أنه قد حذف.

لم يستمتع الثنائي بشهر العسل السعيد طويلًا. «في 23 شباط/ فبراير وبأمر من حاكم محافظة فولوغدا، أرسلت سيرافيما خوروشينينا لتأدية حكم سجنها في نيكولسك». كانت هذه نزوات حكم القيصر الفرد. لم تمنح الوقت لتودّع شريكها. لكنها تركت لستالين رسالة وداع. وتمكن إعادة صياغة ما جاء على لسان ويلد:

خسارة الخطيبة في يوم الزفاف قد يعتبر سوء طالع، لكن خسارة «الزوجة» الجديدة بعد أسبوع يبدو من باب اللامبالاة. انتشر الكلام البهيج من هذا الارتباط المفاجئ، الذي اعتبر شبه زواج،

لأن بولشفيًا يدعى أ. ب. سميرنوف قد جسّ نبضه بوقاحة في رسالة تقول: «سمعت أنك تزوّجت مجددًا».

ما إن فارقت سيرافيما فراشه، حلّت مكانها صاحبة الملك، ماريا كوزاكوفا. تتذكر «كان نزيلًا مهذبًا، هادئًا ورقيقًا. يلبس دائمًا الفيدورا السوداء والمعطف الخريفي.

قضى معظم وقته في المنزل يقرأ ويكتب، وأستطيع سماع صرير الأرض في الليل لأنه أحب السير بينما كان يعمل». سألته في أحد الأيام، عن عمره.

قال «خمّني».

«أربعون؟».

ضحك قائلًا «كلا، أنا في التاسعة والعشرين». كوزاكوفا، التي توفي زوجها في الحرب الروسية اليابانية، كان لها ثلاثة أطفال نهّابين. «أحيانًا كانوا يحدثون ضوضاء غير محتمل إلى درجة أنه كان يفتح الباب ويبتسم ويغنّي معهم». يصعب أن نصدّق أن سوسو كان صاحب مزاج جيد، لكن ماريا أصبحت مكرّسة له، تستمتع لقصصه من الثانوية.

كثّف «ديك النهر»، ربما لأنه اكتشف هروبه الوشيك، بحثه عن غرفة ستالين، ما أغاظ كوزاكوفا. طرقت الشرطة على النوافذ في منتصف الليل، ما جعل الأطفال يستفيقون ويبكون بنشيج، بينما ظل ستالين بهدوء مطلق. صادروا بعض الرسائل من سيرافيما، بما فيها رسالة الوداع، لكنه تابع الاجتماع بالمنفيين الآخرين في النزهات في الهواء الطلق والسهرات لمناقشة الأوضاع السياسية.

أزعجت تصرفاته زيفيليف، لكن ستالين حقق انتقامه. يتذكر غولوبيف «مرة، بين الجمهور المتنزّه، ضربه ستالين إلى درجة أنه ارتعب من الاصطدام بستالين، الذي كان يمازح بأنه بالكاد رآه». والحقيقة، يقول كوزاكوفا «لم أر الشرطة قط خائفة إلى هذه الدرجة من رجل واحد».

ستالين الآن قريب جدًا من نهاية حكمه لعامين، فلا جدوى من الهروب، لكنه كان «يختنق». وقد ضجر كثيرًا من حضور المسرحيات المحلية، بكلفة 25 كوبكًا. ويفترض أن ماريا كوزاكوفا كانت مواساة أخرى. بحلول وقت مغادرته، بدا أنها حامل بولده. ووفق عائلتها، قالت إنها تتوقع طفلًا. ادعى أنه لا يستطيع الزواج بها، لكن وعد بإرسال المال، وهذا أمر لم يفعله بالطبع.

فـ ي 25 أيار/مايو، أوقف «ديك النهر» ستالين لأنه حضر اجتماعًا لثوار آخرين، وحكم عليه بقضاء ثلاثة أيام في السجن المحلي. لكن سوسو نجا من كامل حكمه.

وعندما أطلق سراحه في 26 حزيران/يونيو، لم يعد حتى ليودّع صاحبة الأرض الحامل. «عادت إلى منزلها فوجدت أن المستأجر رحل وأخذ معه أغراضه ووحده الإيجار على الطاولة تحت منديل». لهذا السبب، تردد السكان المحليون في الارتباط بعلاقات غرامية مع المنفيين: فهم يميلون إلى الرحيل على حين غرة.

تركت كوزاكوفا مذكرات خلال الديكتاتورية لم تتضمن بطبيعة الحال اعترافًا بعلاقتهما. لكن في المقابل، يبدو أن الطفل هو ابن

ستالين. لم يحاول ستالين لقاء الطفل، لكن الغريب، أن الصبي قد أُخذ لاحقًا إلى موسكو، وأُعطي وظيفة تفضيلية في أبارات اللجنة المركزية، وتمت حمايته. تمتع بعمل هام[319].

في 6 تموز/يوليو 1911، سافر سوسو على متن باخرة نزولًا في النهر إلى كوتلاس، ثم إلى فولوغدا، حيث أمر بالبقاء لشهرين. كان تحت مراقبة الأوخرانا، منذ أن سكن في عدة أماكن في فولوغدا. أعطاه الأشباح الآن لقبًا جديدًا: «القوقازي».

لم ينته طبع زير النساء الخصيب لديه. قضى القوقازي تحت أعين أشباح الاوخرانا، وقته في إغواء تلميذة مدرسة أنيقة، كانت خليلة أحد رفاقه.

وعندما ناسبه الأمر، استعار منه حبيبته وجواز سفره[320].

(27)

اللجنة المركزية والتلميذة «الفاتنة»

كتب ستالين للينين ما إن استقر في فولوغدا، «أنا مستعد. والبقية وقف عليك»، لكنه أراد التأكد من أنه سيعيّن بالتالي في المركز. «أريد أن أعمل، لكن لا أعمل إلا في بطرسبرغ أو موسكو. أنا حرّ من جديد!».

عامل ستالين كارهيه بجدية قاتلة، لكنه سخر من الشجار بين منفيي لينين. «كتب كوبا أنه لا يستطيع أن يزعج نفسه بالنباح على المصفّين أو فبيرود (فصيلتي كراسين وغوركي على التوالي، كلاهما عارض لينين)، لأنه سيهزأ فقط ممن ينبح» كتب بولشفي لرفاقه في باريس، - حيث سمع لينين على الأرجح عن «عدم رشد» ستالين الأخير. بيد أنه في باريس في نهاية أيار/مايو، عيّنت اللجنة المركزية لجنة تنظيمية روسية، كان سيرغو عضوًا فيها وستالين مبعوث سفر خاصًا، وهي ترقية عرفت بأمرها الأوخرانا بعد فترة وجيزة.

انطلق سيرغو في رحلة إلى روسيا لإعلام التنظيم البولشفي المرهق بالتعيينات الجديدة. راقبت الأوخرانا القوقازي عن كثب أكثر، لكنه كان خبيرًا في خداع الأشباح.

في أوائل آب/أغسطس، حاول الهروب من فولوغدا والوصول

إلى بطرسبرغ في زيارة في الطائرة للقاء سيرغو. «أعطى سيرغو لستالين تعليمات لينين... وطلب لينين أن يذهب إلى الخارج لمناقشة نشاطات الحزب». هذا هروب موقت آخر، لكن ستالين حاول العودة إلى فولوغدا من دون أن يلاحظ الأشباح أنه رحل حتى.

كانت فولوغدا المدينة الأم مقارنة مع سولفيشيغودسك، تضم 38 ألف مواطن ومكتبات ومسارح وكاتدرائية تعود إلى الثمانينيات، وبيتا كان يعود إلى بطرس الكبير، وبيتًا كبيرًا للحاكم. قضى ستالين شهرًا وهو يجمع الأموال لرحلة أطول، وقرأ بشراهة، وزار المكتبة سبع عشرة مرة. كتب رفيقه المنفي من سولفيشيغودسك، إيفان غوليبيف، مضايقًا إياه، «خلت أنك تتجوّل في شوارع أخرى في المدينة، لكنني... علمت بأنك لم تخصص ميزانية، وكنت تتخبّط في ظروف شبه منفى. هذا أمر محزن إذا ما صحّ. فما الذي ستفعله الآن؟ تنتظر؟ قد تجنّ من التعطّل!».

لكن، بدا أن ستالين يتنعّم بترف محجوب في تقشّفه الصارم، ربما لمرة وحيدة في حياته. اكتشفت مراقبة الأوخرانا بسرعة السبب الكامن: تلميذة هاربة كانت خليلة رفيق ستالين في المنفى، بيتر شيزهيكوف. هي بيلاغيبا أونوفريفا، البالغة ستة عشر عامًا، تلميذة في جيمنازيوم توتما، وابنة صاحب أراض صغير ومزدهر في سولفيشيغودسك. شرعت في علاقة غرامية مع شيزهيكوف عندما كان في المنفى في توتما وفرّت معه إلى فولوغدا، حيث التقت القوقازي. وقع شيزهيكوف، الذي التقى سوسو في السجن قبل بضع سنوات، بسرعة تحت سحره، وبدأ بالمهمات وجمع

المال لهروبه التالي. لا يبدو أنه انزعج عندما تحوّلت هذه الصداقة إلى بيت من ثلاثة أزواج مع سوسو.

كانت بيلاغييا تلميذة طائشة ومتمرّدة، لكنها حاولت التأثير في عملاء الأوخرانا بثيابها الأنيقة. أطلقوا عليها اسم «ناريادنايا»: الفتاة الأنيقة أو الفاتنة. لا عجب في أن ستالين الطموح والملتزم بشكل هوسي، كان سعيدًا بتضييع شهر برفقتها. تتذكر «عرفته دائمًا باسم جوزيف». قدّمت الحية حرفيًا إلى حواء الثمرة الممنوعة: «في هذه الأيام، لم يكن من المفترض أن يأكل المرء في الشارع، لكن كانت هناك جادة مظلّلة محاطة بالأشجار. ذهبت إلى هناك مع ستالين الذي غالبًا ما دعاني...

جلسنا مرة على مقعد وقدّم إلي الثمرة: «تناولي البعض. لن يراك أحد هنا...»».

عمل صديقه شيزهيكوف خلال النهار في الكولونيال غودز ستور. وحالما غادر منزله للعمل عند الساعة التاسعة صباحًا، شاهد الأشباح ستالين يدور ويختفي في الداخل. تذكر الفاتنة «كنا سعداء عندما كنا في المنزل، كنا نقرأ بهدوء، عرف أنني أحب الأدب. تكلمنا لوقت طويل على الكتب. كنا نتناول الغذاء معًا، ونتجوّل في الأرجاء لساعات، ونزور المكتبة ونمازح كثيرًا. كنت ساذجة، لكن صغيرة جدًا». علمها سوسو، المعلّم كما حاله دائمًا، الكثير عن شكسبير (بما فيها الانتقادات الأدبية في العاصفة) ورسومات اللوفر (التي لا بد من أنه زارها خلال الأسبوع الذي أمضاه في باريس). والمؤثر أكثر، أنه سكب قلبه عن كاتو: كم

أحبها، وكم أراد أن يطلق النار على نفسه بعد وفاتها، وكيف أخذ منه أصدقاؤه السلاح، وكم صنعت ملابس جميلة. وذكر نجله ياكوف.

كان لستالين «الكثير من الأصدقاء. كان لديه ذوق رفيع، على الرغم من أنه رجل»، مازحت الفاتنة. «تكلّم على المناظر الجنوبية، كم كانت الحدائق جميلة، كم كانت المباني أنيقة. غالبًا ما قال ذلك لي: «أعلم أنك تحبين ذلك في الجنوب. تعالي وشاهديه بنفسك... ستُعامَلين كفرد من العائلة!»».

كانت الفاتنة وقحة وذكية. انجذب ستالين إلى النساء القويات، لكنه فضّل في النهاية ربات المنزل، أو المراهقات الخاضعات. لا شك في أنه تمتّع بالفتيات المراهقات، وهو ذوق أدى إلى مواجهته المتاعب الجدية مع الشرطة لاحقًا، برغم أن القواعد في روسيا القيصرية كانت أكثر تساهلًا مما هي الآن، تحديدًا بعيدًا عن العاصمة، يجب أن يكشف هذا، على الأقل، الحاجة إلى السيطرة والتحكّم من جهة ستالين. لكن لم يكن ذلك هوسًا. كانت بعض حبيباته أكبر منه سنًا.

يبدو أن بيلاغيبيا قد فهمت القوقازي، أفضل من سواها. من المرجّح أنها الشخص الوحيد في حياته الذي أزعجه لغرابته، كشف نفسه أمامها. حتى هذا الرجل الهزيل والسريع الغضب، استمتع بنزوع الفاتنة إلى الأذى والإزعاج. أطلق عليها لقب «بوليا»؛ وأسمته «أوسيب الغريب الأطوار».

تتذكر «كان صيفًا حارًا طويلًا»، لكن عندما انتهى، شعرت بأنها

«لن تراه مجددًا». يشعر المرء بأن لدى ستالين نساء في كل بلدة في هذه المرحلة. قال للفاتنة إنه مرتبط بفتاة أخرى في سان بطرسبرغ، كاتبًا إليها لاحقا: «تعلمين، سافرت إلى سان بطرسبرغ للزواج، لكن انتهى بي الأمر في السجن...». لو كان لأوسيب الغريب الأطوار امرأة أخرى، فإن بوليا الفاتنة، في وسط منزل مؤلف من ثلاثة أزواج، تصعب عليها الشكوى. لكن، من كانت المرأة التي في بطرسبرغ؟

عرفت الفاتنة «دائمًا أنه سيرحل. أردتُ أن أودّعه لكنه لم يسمح لي، قائلًا إنه مطارد». لكن «مباشرة قبل أن يرحل، أتى ذاك الصباح» لأجل فراق حنون ورقيق.

قال «أريد أن أقدم إليك هذا هدية»، وأعطاها كتابًا، «لتتذكريني من خلاله. سيروقك».

قالت الفاتنة «بالطبع».

سألها أوسيب الغريب الأطوار «أعطيني شيئًا لأتذكرك من خلاله».

أعطته، كتذكار، الصليب الذي كانت تعلّقه حول عنقها، لكنه لم يأخذه. وبدلًا من ذلك، قبل السلسلة و«علّقها على ساعته». طلبت منه صورة له، لكن ستالين، الذي كان على وشك الغطس مجددًا في حياته السرية، رفض: «لا أحد يصوّرني. فقط في السجن بالقوة. في أحد الأيام، سأرسل إليك صورتي، لكن الآن، سيجلب إليك المتاعب».

كان الكتاب الذي أعطاها إياه دراسة عن الأدب الغربي، بقلم

كوغان، وهي هدية مميزة من محب للكتب علّم نفسه بنفسه، مع إهداء:

«إلى بوليا الذكية والنارية من أوسيب غريب الأطوار»[[321]].

لم يلتقيا مجددًا، لكنه تابع الكتابة. قال بيلاغيبيا إن رسائله «كانت دائما بارعة جدًا. عرف كيف يكون طريفا حتى في أحلك أيام حياته». لكن، عندما نُفي في العام 1913، «فقدت الاتصال به إلى الأبد».

* * *

برغم أن الفاتنة مبهجة، لم يعد باستطاعة أوسيب الغريب الأطوار الانتظار أكثر. عند الساعة 3.45 مساءً في 6 أيلول/سبتمبر 1، نقل أشباح الأوخرانا أنه، برفقة شيزهيكوف، «وصل القوقازي إلى المحطة مع حقيبتين: صندوق ثياب صغير ورزمة، على ما يبدو شراشف وبطانيات، واستقل القطار إلى بطرسبرغ». لاحظ الأشباح أن ستالين تحقق مرتين من كل الحافلات، مدعيًا أنه يتفقّد سترته الخطافية.

أبرقت الأوخرانا فولوغدا لبطرسبرغ «ذهب دجوغاشفيلي بالقطار الرقم ثلاثة تحت مراقبة العميل الشيكوف». «اطلب منك لقاءه. كابتن بوبيل». لكن سوسو خدع سهرة الاستقبال في المحطة: عندما وصل عند الساعة 8.40 مساءً، كان قد تخلّص من الأشباح.

سخر تروتسكي المتنفّج «وصل الريفي إلى أرض العاصمة».

بحث ستالين أولًا عن سيرغي أليلوييف، لكنه لم يكن في المنزل. فتمشّى نزولًا وصعودًا لنيفسكي بروسبكت حتى التقى بسيليا تودريا، خبيرة الطبيعة الجورجية.

قبل وصول ستالين مباشرة، اغتيل ستوليبين، رئيس الوزراء الروسي، مباشرة أمام مقصورة الامبراطور في مسرح كييف. كان القاتل مخبرًا في الشرطة العسكرية، جسّد مجددًا مخاطر الكونسبيراتسيا. كانت الضحية آخر رجل دولة عظيم في الامبراطورية الروسية.

حذّر تودريا سوسو «هذه الفترة خطيرة. بعد مقتل ستوليبين، الشرطة في كل مكان. والبوابون يتحقّقون من كل الأوراق».

اقترح سوسو «فلنبحث عن مثوى مجاور». قبل المثوى «روسيا» جواز سفر شيزهيكوف.

في منزل أليلوييف، قُرع الجرس. كتبت آنا «كنت سعيدة جدًا لرؤية صديقنا سيليا تودريا، لكنه لم يكن وحيدًا. وقف وراءه رجل هزيل يدعى سوسو في معطف أسود وفيدورا». سألا عن سيرغي أليلوييف، لكنه لم يكن في المنزل، فانتظرا. قرأ سوسو الصحف. وعندما وصل أليلوييف إلى المنزل، حدّقوا عبر النافذة: اعتقلت الأشباح قافلته عندما جمع حقائبه. الآن يراقبون الطريق.

نادى أليلوييف ابنتيه، آنا وناديا، دعاهما إلى الذهاب إلى الخارج إلى الباحة والتأكد إذا كان هناك شبحان في قبعات البولر. لاحظت الفتاتان المتحمّستان شبحًا في الباحة، وآخر في الطريق، وآخرين عند المنعطف.

عاد ستالين لقضاء الليل إلى نزل «روسيا». عند الساعة 7.50 صباحًا في 9 أيلول/سبتمبر، سمع بابه يُقرع.

صرخ سوسو، الكائن الليلي كما دائمًا، «دعوني أنم!». دخلت الشرطة فجأة واعتقلته، ووجدت خرائط وصورًا ورسائل وكتابًا ألمانيًا (ما يشير إلى أن ستالين كان يأمل السفر إلى مؤتمر لينين الوشيك في براغ) وجواز سفر شيزهيكوف، الذي لم يقرض ستالين حبيبته فقط، بل اسمه أيضًا[322].

اعتنت الأوخرانا بالقوقازي، مقفلة عليه في معتقل بطرسبرغ بانتظار الحكم، وأبقته ثلاثة أسابيع، ولم تعلم إدارة الشرطة المحلية أو تسلّمه للدرك. ربما كانوا يقومون بمحاولة تحويله إلى عميل مزدوج كالعادة، لكن في 2 تشرين الأول/أكتوبر أعلموا أخيرًا درك بطرسبرغ، وأوصى الكولونيل سوبيليف عندها بالنفي «إلى سيبيريا الشرقية... لخمسة أعوام».

خفّض وزير الشؤون الداخلية، أ. أ. ماكاروف، الحكم إلى ثلاثة أعوام. سمح لستالين باقتراح فولوغدا كمكان إقامته والسفر بوسيلته الخاصة، بدلًا من سوقه مع مجموعة من المدانين. كان وصف شكله في الملف غير متجانس أبدًا، يمكن أنه يعود إلى رجل آخر. هل كانت هذه حالة أخرى فقط من الوحل اللينيني للنظام القيصري؟ هل تم تزييت راحات اليد في 16 فونتانكا أو في وزارة الشؤون الداخلية؟ هل قام ستالين بصفقة مزدوجة ما، أو كانت الأوخرانا تأمل أن يوافق بلا وعي على أن يقودهم إلى رفاقه؟ لا نعلم. لكن، ما إن أطلق سراحه مع جواز سفره إلى

منفى فولوغدا، حتى لبس سترة الأوخرانا واختفى طوال عشرة أيام في شوارع بطرسبرغ: تقنيًا هاربًا من جديد.

التقى بصديقيه سيرغو وسبانداريان. تقول فيرا شفيتزير، خليلة سبانداريان الأولى، «في كانون الأول/ديسمبر 1911، كان ستالين يتوارى عن الشرطة في بطرسبرغسكايا ستورونا في شقة عائلة تسيماكوف. ذهبنا لرؤيته. عاش في غرفة باردة ضمن منزل خشبي بسقف زجاجي في باحة». أقاموا حفل استقبال بازخًا:

ركض ستالين «نحونا وأمسك بأيدينا وقادنا إلى الغرفة، وهو يقهقه ضاحكًا؛ ونحن نضحك ردًا عليه».

قال «تعلمون كيف تستمتعون».

أجاب سبانداريان «نعم، سنرقص لنحتفل بإطلاق سراحك!».

كان سيرغو وسبانداريان على وشك السفر إلى مؤتمر لينين في براغ، وهو الولادة الرسمية للحزب البولشفي، والطلاق مع المنشفيين. دُعي ستالين. لكن بعد حكمه الجديد، لم يعد قادرًا على الذهاب. نقل سيرغو وسبانداريان رسائله إلى لينين. يتذكر شفيتزير «كان هناك اجتماع صغير في شقتي»، يحضره القوقازيون الثلاثة.

أعطى سيرغو ستالين 50 روبلًا. وفي المقابل، «قضى ستالين كل ليلة في مكان مختلف».

في يوم عيد الميلاد، عاد إلى فولوغدا. سار في الشوارع في

معطف أسود وفيدورا بحثًا عن غرفة للإيجار. كان صاحب النزل الجديد دركيًا متقاعدًا «لم يحب جوزيف فيساريونوفيتش»، لأسباب أبوية وسياسية أيضًا. كان لدى الدركي الكهل وزوجته ابنة مطلّقة تدعي ماريا بوغوسلوفسكايا مع ثلاثة أطفال صغار وخادمة في سن السادسة عشرة. تدعى صوفيا كريوكوفا. عاش سوسو على سرير صغير وراء الستائر قرب الموقد في المطبخ، لكنه بدأ من الواضح بعلاقة أخرى مع ماريا المطلّقة. برغم أن الخادمة صوفيا كتبت مذكراتها في العام 1936، حين لم يكن يمكن تدوين أي شيء صريح حول نقاط ضعف القائد الخاصة، تلمح إلى أن علاقة ما ربطت المنفي بالمطلّقة. «غالبًا ما تجادل مع ماريا وكانت تبكي. كانا يصرخان ويختلفان بغضب تقريبًا. وخلال شجاراتهما، غالبًا ما كنا نسمع أسماء نساء أخريات».

عبث ستالين مع الخادمة، بينما حمى ابنة الدركي الغيورة. تقول الخادمة صوفيا «مرة بعد عطلة رسمية، لاحظت جوزيف فيساريونوفيتش يراقبني من وراء الستائر. كان لي شعر أسود طويل وكنت أرتدي ثوبًا مثيرًا مع تنورة طويلة من القماش الياباني المزيّن بالزهر».

قال ستالين «هذا الثوب يناسبك حقًا. في بلدي الأم، جورجيا، ترتدي الفتيات في سنك، مثل هذا الثوب». كانت صوفيا حساسة في العام 1936 لعدم الكشف عن مدى معرفتها بستالين، لكن يبدو جليًا أنهما أمضيا بعض الوقت معًا لأنها عرّفته إلى والدها الثمل، الذي أحرجها.

طمأنها ستالين «لا تقلقي، كان والدي سكّيرًا أيضًا. والدتي ربّتني». من الواضح أنه أحب التعالي لجهة تعليمه، واللغات الأجنبية التي يعرفها. عندما قرأ زفيزدا («الستارة البولشفية») والصحف الأجنبية، أثّر فيها ترجمته بعض المقاطع إلى اللغة الروسية. تتذكر «جعلني الأمر أضحك حقًا».

كان ستالين يعود إلى المنزل متأخرًا عادة، ولم يكن يزوره سوى رجل أسود طويل، ممكن أنه شوميان أو ياكوف سفيردلوف، وهو بولشفي شاب صاعد. التقى مجددًا بصديقه شيزهيكوف. لم يستعد منزلهم المؤلف من ثلاثة أشخاص لأن الفاتنة عادت إلى المدرسة. لكنها كانت حاضرة في فكره. عند وصوله، أرسل بطاقة بريدية إباحية لأفروديت إلى فينوس المراهقة في توتما: «حسنًا، يا بوليا المتقدة، أنا عالق في فولوغدا وأعانق البيتينكا (شيزهيكوف) «العزيز» «الجميل». فاشربي نخب صحة أوسيب الغريب الأطوار الشهير»[323].

كان ستالين، الذي غازل ابنة صاحب الملك وخادمتها، يقتل الوقت بانتظار التطورات في براغ. وهناك، اختار المؤتمر المؤلف من ثمانية عشر مندوبًا فقط، وهي إشارة إلى مدى تضاؤل الحزب، أول لجنة مركزية بولشفية حقيقية. انتخب سيرغو وسبانداريان، لكن النجم الطالع كان خطيبًا محرّضًا من الطبقة العاملة يدعى رومان مالينوفسكي. ارتعش لينين لموهبة البروليتاري الحقيقية. ابتهج: «يعطي انطباعًا ممتازًا، الأرض غنية!». بدا مالينوفسكي: «طويلًا وقوي البنية ويرتدي على الموضة تقريبًا» مع «شعر

كثيف مائل إلى الحمرة وعينين صفراوين»، أعطته هزماته «تعبيرًا وحشيًا كما لو أنه اجتاز حريقًا». لكن كان له سيئة واحدة: عندما أُوقف في وقت سابق وأُدين بالاغتصاب والسرقة، وظّفته الأوخرانا وأطلقت عليه لقب «بورتنوي» (الخيّاط). كان عميلهم الأعلى أجرًا.

في اللجنة المركزية الأولى، اقترح لينين وزينوفياف زميلًا جديدًا هو ستالين[324]. نقل الخيّاط من باب الواجب إلى صرّافي الرواتب في الأوخرانا، أن ستالين وسبانداريان وسيرغو «انتخبوا في المكتب الروسي ويتلقون أجرًا شهريًا بقيمة 50 روبلًا». وخلافًا للأوخرانا، احتاج ستالين إلى بعض الوقت ليكتشف عن براغ، وكتب لكروبسكايا لمعرفة المزيد من الأخبار. قال كروبسكايا لسيرغو «تلقيت رسالة من ايفانوفيتش (لقب ستالين في الحزب)»، لكن «يبدو جليًا فورًا أنه بعيد كل البعد عن كل شيء، يعيش في الغيوم... يا للأسف، لم يستطع حضور المؤتمر». في رسالة مشفّرة، توسّل ستالين شفيتزير للحصول على أخبار براغ.

كادت العزلة تنتهي. كان سيرغو في طريقه إلى فولوغدا.

في 18 شباط/فبراير 1912، نقل أشباح الفولوغدا أن القوقازي التقى «رجلًا مجهولًا» - بالتأكيد سيرغو - الذي أعلن ترقيته إلى اللجنة المركزية، أعلى جهاز في الحزب، وهو مركز سيحمله لبقية حياته، وسلّمه أجره وعناوين سرية ورموزًا. ومن المرجّح الآن أن ستالين اتفق مع كروبسكايا، صانع الرموز الأول فضلًا

عن زوجة لينين، على استخدام قصيدة غوركي، «أسطورة أولتينيان»، كرمز لهم. لا تزال نسخة القصيدة المكتوبة باليد موجودة حتى اليوم.

وفي هذه الأثناء، أصيب لينين، بالعودة إلى باريس، بالهلع لغياب الأخبار: «لا رسالة من إيفانوفيتش. ما الذي حلّ به؟ أين هو الآن؟ من هو؟» نقل سيرغو أخيرًا للينين أنه التقى سوسو: «قمت باتفاق نهائي معه. هو راض».

حان وقت الاختفاء مجددًا. كلما أراد الاختفاء من فولوغدا، كان سوسو يرشو الشرطة المحلية بخمسة رول ذهبية، وقد هرب خمس مرات، وفق فيرا شفيتزر.

وجدته صاحبة الملك، غافريلوفا، يوضّب أغراضه. «هل أنت راحل؟».

تردد: «نعم أنا ذاهب».

قالت إن عليها إعلام الشرطة.

طلب «هلا فعلت ذلك غدًا؟»، فوافقت.

عند الساعة الثانية فجرًا في 29 شباط/فبراير، نقل رجال الشرطة السريون الذين يتعقبونه أنه استقل القطار إلى موسكو من دون إذن. لكنه تلقى أولًا رسالة أخيرة من فتاة المدرسة. اشترى بطاقة بريدية شهوانية أخرى، تظهر منحوتة لشخصين يتبادلان القبل بطريقة وحشية، وكتب للفاتنة:

«عزيزتي بوليا الفاتنة، حصلت على رسالتك اليوم... لا تكتبي

إلى العنوان القديم، لأن أحدًا لم يعد هناك... أدين لك بقبلة للقبلة، التي نقلها لي بيتر. دعيني أقبّلك الآن. لا أرسل قبلة فقط، لكنني أقبّلك بشغف (لا قيمة للقبلة إذا لم تكن هكذا). جوزيف».

في الليلة الأخيرة في شباط/فبراير 1912، استقل ستالين خلسة القطار، عبر موسكو، إلى العاصمة. كان العضو الجديد في اللجنة المركزية للينين في الطريق[325] .

(28)

«لا تنسَ هذا الاسم وكن حذرًا»

«في يوم بارد كئيب من شتاء بطرسبرغ، كنت أدرس عندما قُرع الباب»، قال كافتارادزي، الذي كان يتابع تحصيله العلمي في جامعة بطرسبرغ بينما يدرّس الرياضيات للشقيقات أليلوييف. «فجأة دخل ستالين. عرفت أنه نُفي. كان ودودًا ومرحًا، كما حاله دائمًا، يلبس معطفًا خفيفًا برغم الجليد القارص... لكنه لا يفك أزراره. «سأمكث هنا لفترة قصيرة... سأرتاح قليلًا فقط. جئت مباشرة من موسكو، ولاحظت أنه يتم تعقّبي في موسكو. وعندما ترجّلت من القطار، اكتشفت شبحًا... يتوارى خارج بيتكم مباشرة!».

لاحظ كافتارادزي «كان الأمر جديًا». انتظر الجورجيان حتى حلّ الظلام. قرر كافتارادزي أنه ما من سبيل سوى الهروب: على ستالين أن يتنكّر بزي امرأة. قدّم كافتارادزي بعض الأثواب وصاغها ستالين. لكن المنظر لم ينجح. قال كافتارادزي «استطعت أن أجلب أثوابًا لسيدات، لكنه استحال جعل ستالين يبدو كامرأة».

فكّر ستالين في أن الشبح «لا يريد أن يوقفني، بل يريد أن يراقب. فسأنام قليلًا».

مازحه كافتارادزي «نعم، نم: ربما لن يستطيع أخذ الجليد، كجيش

نابليون».

أجاب سوسو، الذي نام طوال النهار «سيفعل». لكن عندما برزا في أعلى الشوارع، كان الشبح ما زال هناك. قال سوسو «فلنمشِ قليلًا».

كان جائعًا، فأكلا في مطعم فيدوروف، لكن الشبح عاد وظهر مجددًا. شتمه ستالين «سحقًا! يظهر فجأة من لامكان!».

أحدثت عربة قعقعة نزولًا على الطريق. حيّا ستالين العربة ووثب، لكن الشبح حيّا شخصًا آخر. طارد الفاتونين الواثبين بعضهما إثر بعض نزولًا إلى ليتيني. لكن عندما أدرك أنه قريب من منزل آمن، قفز ستالين من العربة المتحركة فوق ثلج تكدّس، طمره كليًا. قفز الشبح لما بعد، لاحقًا العربة الفارغة[326].

ارتدى ستالين «لباس الكلية الطبية للجيش وخرج». كان هذا لباسه التنكّري المفضّل في بطرسبرغ ذاك العام. بقي حوالي الأسبوع. كانت وظيفته الجديدة تحويل الصحيفة البولشفية الأسبوعية «زفيزدا» إلى صحيفة يومية، «برافدا» (الحقيقة).

جلب ستالين إلى شقة تاتيانا سلافاتينسكايا، في سن الثالثة والثلاثين، وهي بولشفية مثقفة وأنيقة، يتيمة ثقّفت نفسها بنفسها ودرست في المعهد الموسيقي، وأصبحت معجبة بغناء شاليابين. إحدى الشرطيات السريات لدى لينين، تُدعى إيلينا ستاسوفا، درّبتها على وضع الرموز. أوت تاتيانا، التي تزوّجت بثائر يهودي يدعى لوري وهي والدة طفلين، العديد من البولشفيين

الهاربين، وأحدهم «جلب قوقازيًا يحمل اسمًا رمزيًا «فاسيلي» الذي عاش معنا لفترة من الوقت».

لم تكن تحب «فاسيلي»: آخر ألقاب ستالين. «أولًا، بدا جديًا جدًا، مغلقا جدًا وخجولًا، وهاجسه الوحيد عدم إزعاجنا. كان يصعب جدًا أن نجعله ينام في غرفة أكبر ومريحة أكثر، لكن عند الذهاب إلى العمل، كنت آمر الخادمة[327] دائمًا بإعداد العشاء له مع الأطفال. بقي أسبوعًا، وكنت أنقل إليه الرسائل الشفهية كمراسلة». عيّنها ستالين كسكرتيراته لانتخابات الدوما. ويبدو أن سلافاتينسكايا قد تحررت تمامًا بأسلوب أوائل القائلات بالمساواة بين الجنسين. بدأ علاقة مع «عزيزته الحبيبة تاتيانا» التي كانت «معروفة جدًا» بين نبلاء السوفيات في ظل حكم ستالين.

بقي ستالين أحيانًا مع آل أليلوييف. كانت بندقية الشمال صورة عن «الجليد والثلج المتكدّس، ومسارات مزلاج الجليد. «كانت طرقاتها مليئة بعربات الجليد الضعيفة الجودة مع شرائط وأجراس متجلجلة» معلّقة «بالأحصنة الصغيرة القصيرة البدينة» التي تحمل «أثقال المسافرين الضاحكين». كانت آنا وشقيقتها الأصغر سنًا ناديا، متسمّرتين على نوافذهما تتوقان إلى ركوب الخيل، عندما ظهر سوسو: «من يرغب في ركوب عربة الجليد؟ حسنًا، البسن ملابسكن وأسرعن، سنغادر بعيدًا!». ابتهجت الفتيات. تخبر آنا: «قفزنا جميعًا ونحن نصرخ من شدة الحماسة». «الآن دعانا»، «سوسو بنفسه» ولا أحد سواه، ونحن نقرأ مقالاته بوفاء. عرفته الفتيات الآن بشكل أفضل: «متحفّظ غالبًا، يستطيع أيضا

الضحك والممازحة كالصبية، ويخبر القصص المسلية. يرى الناحية المضحكة من الناس ويقلّدهم إلى درجة الكمال، بحيث إن الجميع ينفجر مقهقهًا».

نادى فيديا (شقيقه فيودور)، ناديا! ارتدين ملابسكن». وأمر الخادمة، فينيا: «اجلبي معاطف الفرو!».

في الشارع، صرخ سوسو للسائق: «هلا أخذتنا في جولة على العربة!».

كان ستالين في مزاج جيد: «كل كلمة... تجعلنا نضحك. ضحك سوسو معنا جميعا بينما انزلقت العربة نزولًا إلى سامبسونيفسكي بعد المحطة بقطاراتها البخارية الصغيرة». فجأة، قفز سوسو عن العربة وعاد إلى حياته السرية: «توقّف، سأنزل هنا، يمكنكم العودة إلى البيت». وهكذا، توارى البولشفي ماكافيتي في المحطة. هل كان يمرح حقًا مع الفتيات، أم أن النزهة كلها غطاء لتضليل شبح؟

اختفى ستالين مجددًا. أضاعه الشبح، لكنه حزر عن حق أنه سيعود فيبرز في القوقاز[328].

* * *

في 16 آذار/مارس 1912، نقل العميل المزدوج لدى الأوخرانا «فيكوس» أن ستالين عاد إلى تيفليس، حيث مكث لدى معلّم غناء عمل في مدرسة مجتمع المعلمين، بإدارة إيلينا ستاسوفا الصارمة

[329]. قال لمضيفته «ألا تسأل اسم زائرها». لكن ستالين، ربما لأنه افتقد دفء البلد الأم، غنى معها الأغاني الجورجية.

التقى سوسو بصديقها المنغمس بالملذات وعضو اللجنة المركزية، سبانداريان، وستاسوفا. زار ابنه، ياكوف، الذين رباه آل سفانيدزي «كطفلهم مع أطفالنا». بقي آل مونوسيليدزي مصدومين لإهماله وقلبه القاسي. تشتكي ساشيكو «ابن اختي، الذي تركته والدته يتيمًا، تركه والده يتيمًا تقريبًا أيضًا». لم يبق سوسو طويلًا، فأسرع إلى باتومي ثم إلى باكو[330].

وجد هناك مطاردة أخرى للخونة: كان المنشفيون يتقصّون الحقائق حول سبانداريان، آملين أن يثبتوا أنه إما زوّر طابعًا للحزب وإما أنه جاسوس لدى الأوخرانا. دافع ستالين عن صديقه. رفض المنشفيون السماح له بالمشاركة في تحقيقهم، لكنهم وافقوا على إرسال مبعوث لسماع القصة من جانب ستالين.

كان المبعوث بوريس نيكولايفسكي، المنشفي الذي أصبح، في المنفى المشمس في كاليفورنيا، المؤرخ الإخباري للعمل السري. استشار نيكولايفسكي بولشفيًا، أبيل يونيكيدزي، العراب الأصلي لناديا أليلوييفا، وصديق سفانيدزي، ومن معارف ستالين المشكوك في أمره، الذي دمّره في النهاية.

سأل يونيكيدزي نيكولايفسكي، في مقهى في باكو، «هل سمعت قط باسم «كوبا»؟».

أجاب نيكولايفسكي «كلا».

شرح يانوكيدزي «كوبا رفيق خطير قادر على أي شيء!». كان الجورجيون مختلفين عن الروس: «نحن شعب حاقد وانتقامي».

ضحك نيكولايفسكي وسأل بلهجة قوقازية ماكرة: «هل سيقطعني بخنجره قليلًا فقط؟».

أجاب يانوكيدزي بجدية «لا تضحك، سيقطع صدرك إذا اعتبر ذلك ضروريًا. ليست روسيا الكبرى هنا: هذه روسيا القديمة. لا تنس هذا الاسم وكن حذرًا جدًا».

سيدفع يانوكيدزي كثيرًا للجرأة والصراحة في الكلام عن رفيقه «الخطير».

يخبر نيكولايفسكي الحذر: كان ستالين «منتظرًا عندما وصلت، جالسًا في الظل كي يراقبني بسهولة». ربما فسّروا مسألة سبانداريان، لكن بينما كان في باكو أمر ستالين «الموسريين» بقتل بحّار سابق من باخرة المعركة بوتمكين، الذي اتهمه بأنه جاسوس لدى الأوخرانا. لاحظ نيكولايفسكي «لقد أطلقت عليه الرصاص وغادر إلى الموت، لكنه استعاد وعيه وادعى إعادة التأهيل».

أمر المنشفيون نيكولايفسكي، الذي أصبح الآن «مهتمًا جدًا بمآثر كوبا القديمة»، بتقصي الحقائق. لكن نيكولايفسكي أُوقف. واختفى ستالين مجددًا[331].

* * *

قال كروبسكايا لسيرغو، الذي كان في كييف، «نحتاج إلى إرسال

«إيفانوفيتش» (ستالين) إلى بطرسبرغ فورًا». ستالين وسيرغو، الجورجيان اللذان يؤديان التجاهل المتغطرس للآخرين، سيسيطران لاحقا على الاتحاد السوفياتي معا، مرحا في مقامهما الرفيع الجديد في اللجنة المركزية. تذمّر ستاسوفا من أن «سيرغو و«إيفانوفيتش» يواصلان إعطاء الأوامر، لكنهما لا يقولان شيئًا عما يحصل من حولنا». وبعد بضعة أيام، أوقف سبانداريان.

سارع ستالين شمالًا، وتوقف لحديث سريع مع صديقة سبانداريان، فيرا شفيتزر، في مقصف المحطة في روستوف - أون - دون، للقاء سيرغو في موسكو[332]، حيث زاروا مالينوفسكي. خانهم. وبينما غادر الجورجيون موسكو، لاحظوا الأوخرانا تتعقّبهم. رآهم الأشباح متجهين إلى القطار، لكن ستالين قفز من القطار إلى خارج المحطة. وفي بطرسبرغ، احتاجت الأوخرانا إلى ستة أيام لتدرك أن سوسو لم يصل أبدًا.

قرّرت الشرطة السرية، بمساعدة مالينوفسكي وعملاء مزدوجين آخرين، التخلّص من اللجنة المركزية. وفي 14 نيسان/أبريل، أُوقف سيرغو أيضا، لكن سوسو المتآمر الكبير، تمكّن من خداع الأشباح لفترة أطول، ووصل إلى العاصمة بسرية.

تلقت الثورة فجأة زخما دمويا. في 4 نيسان/أبريل، أطلقت الجيوش على حقول الذهب السيبيرية في ريفر لينا، النار على العمال وقتلت 150 منهم. تهلل سوسو في زفيزدا «كسرت طلقات اللينا ثلج الصمت، ويتدفق من جديد نهر الاستياء الشعبي. الثلج انكسر. وبدأ الأمر!». انتشرت الإضرابات عبر

الامبراطورية. وزير الشؤون الداخلية، ماخلاكوف، يتعرض للاختبار في الدوما، أجاب بتعجرف: «هكذا كان. هكذا سيكون».

كان ستالين خارجًا عن طوره لشدة الحماسة. أطلق في مقالة «نحن نحيا!». وأعلن لينين «دمنا القرمزي يغلي مع نار القوة غير المفجّرة!»، و«الثورة تنبعث من جديد».

في بطرسبرغ، مكث ستالين لدى ن. ج. بوليتييف، وهو شاعر بروليتاري ونائب بولشفي في الدوما، تمتّع منزله بالحصانة البرلمانية، ورأى تاتيانا سلافاتينسكايا، مساعدته. من «منزل بولاتييف المحظور مسّه»، «بدأ ستالين بإدارة الصحيفة الأسبوعية «زفيزدا»، كاتبًا تيارًا من المقالات الشغوفة. نبذها تروتسكي معتبرًا إياها «اللغة التبشيرية للمعهد الكهنوتي في تيفليس»، لكنها كانت أمورًا محرّضة، ليست أبدًا كالكلام الفارغ الأيديولوجي الرديء في المستقبل. قرأت الفتيات أليلوييف المقالات بصوت عال لبعضهن البعض. وبدأ الشعار المفضّل: «ترقد البلاد في الأغلال والأصداف على قدم مستعبديها». وكتب سوسو «بدمه القرمزي الذي يغلي» استغاثة يوم أيار/مايو المحبوبة جدًا، التي كانت نشيدًا مدهشًا لطبيعته العزيزة، آخر التأملات في أيام كشاعر رومانسي: «الطبيعة تستفيق من حلمها الشتوي.

تتحول الغابات والجبال إلى الأخضر. تعشق الزهور المروج والمراعي. وتشرق الشمس بحرارة أكبر. ونشعر في الهواء بسعادة الحياة الجديدة، ويبدأ العالم في رقصة الفرح»[333].

يتذكر ستالين «في نيسان/أبريل 1912، اتفقنا على منصة «برافدا» ونجحنا في المسألة الأولى». كانت الصحيفة البولشفية اليومية الأولى - المؤسسة في ثلاث غرف صغيرة، شرعية -، لكن كان على رئيس تحريرها غير الشرعي، ستالين، إدارتها من الظل. موّل «برافدا» فيكتور تيخوميرنوف، نجل زعيم كازان الذي ترك له 300 ألف روبل، وكان صديق الطفولة فياشيسلاف سكريابين، «مولوتوف». مرّر تيخوميرنوف آلاف الروبلات عبر مولوتوف، مؤسس «برافدا».

قرّر ستالين أنه حان الوقت للقاء هذا الشاب. قيل لمولوتوف أن ينتظر في الباحة وراء شقة طبيب أسنان قرب مطبعتهم. ظهر ستالين فجأة، كما لو من لاشيء، من وراء كومة من حطب الوقود. أحب سوسو تنمية هذا السر: بالتأكيد أبهرت جاذبيته الماكرة مولوتوف الثقيل، لكن الأصغر سنًا، الذي لم يلتق قط عضوًا حقيقيًا في اللجنة المركزية.

«لم أر كيف بدا، لكنه ارتدى لباس تلميذ عصبي نفسي. عرّفنا عن أنفسنا». لاحظ مولوتوف الهزمات واللهجة الجورجية. «ناقش فقط أهم المسائل من دون إضاعة ثانية من الوقت على أي شيء غير ضروري. قدّم بعض المواد إلى «برافدا». لا إيماءات زائدة. ثم اختفى فجأة كما ظهر. تسلّق السياج، وكل ذلك ببساطة ونعمة كلاسيكيتين».

في اليوم التالي، هرع مولوتوف، كالمتيّم في الحب تقريبًا، إلى صديق: «هو مدهش، يملك الجمال الثوري الداخلي، بولشفي حتى

العظم، مجتهد وبارع كمتآمر...». وعندما التقيا مجددًا، تكلما طوال الليل. كانت بداية الشراكة التي ستدوم للسنين الإحدى والأربعين التالية.

كان حذر سوسو حساسًا: كان عمليًا آخر عضو طليق في اللجنة المركزية. كان سيرغو وسبانداريان خلف القضبان. في 22 نيسان/أبريل 1912، نشر العدد الصفر من «برافدا». وعندما تجوّل ستالين خارج الملجأ البرلماني في شقة بوليتاييف، أوقفته الأوخرانا. وبحلول حزيران/يونيو، بفضل خيانات مالينوفسكي، وهو عضو واحد غير فعّال في اللجنة المركزية كان طليقًا، أصبح التنظيم مجددًا على الأنقاض. هرعت ستاسوفا من تيفليس لإصلاح بعض الضرر، لكنها أيضًا أوقفت.

في 2 تموز/يوليو، حُكم على ستالين بالنفي ثلاثة أعوام، وأُرسل إلى سيبيريا[334]. أطرت عليه لاحقًا حاشيته لقب «دكتور علم الهروب». كان هذا أقصر نفي له.

(29)

الهارب: قفزة كامو وآخر عملية سطو

على مصرف في الطريق إلى تومسك، في مكان ما قرب فولوغدا، وجد ستالين بوريس نيكولايفسكي، المحقق في باكو لدى المنشفيين. لم يتخل سوسو عن شيء، لكنه استعار كوب الشاي الأزرق العزيز على نيكولايفسكي، ثم سرقه.

ووضع على متن باخرة في أوب إلى كولباشيفو، حيث نزل من السفينة لأسبوع والتقى سيمون فيريشاك، في 18 تموز/يوليو 1912، وصل إلى تومسك وهو زميل زنزانته، المنشفي في سجن بايلوف. تعشى ستالين مع فيريشاك وسيمون سورين، وهو منشفي وعميل لدى الأوخرانا، قبل ركوب باخرة أخرى صعودًا في النهر إلى وجهته، ناريم، حيث رحّب به ياكوف سفيردلوف، وهو شاب آخر عضو في اللجنة المركزية.

كان يمكن ناريم أن تكون أفظع. وهي مستوطنة تضم ألف شخص و150 منزلًا، وتقع ضمن الحزام الزراعي. ضجّت الغابات بالحياة، لكن الصيف كان حارًا، واحتشد في الأراضي المستنقعية البعوض، - ومع العديد من المنفيين، الذين أداروا حتى المقهى الخاص بهم، ومتجر اللحم ومحال السلع الاستعمارية، إضافة إلى مكتبي هروب، الأهم بالنسبة إلى ستالين.

تتذكر صاحبة الملك ييفروسينا أليكسييفا «وصل إلى منزلي بقميص بيضاء مفتوحة على الرقبة، مزخرف روسي ترك صدره مكشوفًا». حاولت أن تصدّه لأنه كان لديها منفيان يعيشان في غرفتها الإضافية، لكن «ذهب إلى غرفة المنفيين، ونظر حوله، وتكلّم مع رفاقه، ثم انتقل إلى هناك»، مع سفيردلوف.

ياكوف سفيردلوف، نجل الطابع اليهودي الغني من نيزهني نوفغورود، البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، ارتدى النظارات الدائرية و«الشعر الخصب الأسود»، لكن سمته المدهشة أكثر، أنه من هذا الوجه الحليم على ما يبدو «صاحب اللطف الملحوظ»، انفجر «صوت مدوّ: الشيطان يعرف كيف يمكن هذا الصوت الوحشي أن يخرج من هذا الرجل الصغير»، ضحك مولوتوف. «بوق أريحا!» بدا كمفكّ يهودي يشمئز منه ستالين، لكن سفيردلوف كان منظمًا لا يعرف الرحمة والادعاء. تشارك البولشفيان الأكثر تأثيرًا في روسيا، الغرفة نفسها، وأزعج أحدهما الآخر.

تفادى ستالين، المغرور الكسول دائما، حصّته من العمل المنزلي. وانتهى الأمر بسفيردلوف الموسوس أن قام بذلك بنفسه. «أحببت أن أزحف إلى البريد في يوم سفيردلوف للقيام بذلك»، ضحك ستالين عندما أخبر الذكريات لسفيردلوف وفتيات أليلوييف. «كان على سفيردلوف الاعتناء بالمنزل، سواء أأحب ذلك أم لم يحب. يحفظ الموقد مشتعلًا ويقوم بالتنظيف... كم من المرات حاولت أن أخدعك وأتخلص من العمل المنزلي. كنت أستفيق عندما يكون دوري، وأبقى ممددًا كما لو كنت نائمًا».

أجاب سفيردلوف «أوَتظن أنني لم ألاحظ؟ لاحظت جيدًا».

سمع الجورجيون المحليون، بقيادة منفي معروف ب «الأمير»، عن سوسو، «الرجل العظيم»، الذين قدموا إليه وليمة جورجية. غنى الضيوف باللغتين الروسية والجورجية، ورقصوا الليسغينكا. وفي الرقصة، التقت ربة منزل محلية تدعى لوكيريا تيهوميروفا، تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، «بالجورجي الذي يرتدي معطفًا أسود من زرّين»، عرّف عن نفسه بأنه دجوغاشفيلي. لكن هذه المرة، لم يتكبد عناء المغازلة، بل جلس فقط وابنة أخت لوكيريا البالغة من العمر عامين على ركبتيه، ولم يشرب الخمر حتى.

قالت عابثة «شاب صغير جدًا وتدخّن الغليون». لكن سوسو لم يتلقّف الطُّعم. جالت الكثير من الأمور في عقل العضو في اللجنة المركزية: «برافدا»، وانتخابات الدوما، وعملية سطو كبيرة على مصرف. لم يكن يخطط للبقاء طويلًا.

شجع لينين وكروبسكايا، اللذان انتقلا من باريس إلى كراكو، سوسو وسفيردلوف على الهروب. رحل سفيردلوف أولًا، لكن أعيد اعتقاله. ثم حان دور سوسو.

قالت صاحبة الملك أليكسييف «يا بني، خذه بالسفينة إلى مرفأ النهر».

قال سوسو لها «أنا أترك كتبي لرفاقي»، وتصدّق «بالتفاح والسكر وقنينتي فودكا فاخرتين من الرزمة التي تلقّاها». ثم بدأ برحلة مع ياكوف وأغافون أليكسييف في زورقهما الطويل. في

«الغسق في الليل المظلم، لا ضوء قمر»، يتذكر ياكوف أليكسييف، جذّفوه إلى حاجز الماء في النهر، وسألوه متى سيعود.

أجاب «ترقّبوا مجيئي عند رؤيتي». في الأول من أيلول/سبتمبر، استقل الباخرة إلى تومسك. لحقه سفيردلوف وسافرا معًا. اتخذ ستالين، الأناني والقائد دائمًا، موقف المسافر التجاري على متن القطار. فاشترى بطاقة من الدرجة الأولى، وأجبر بشكل مؤذ سفيردلوف المصغّر على أن يختبئ في سلة ملابسه الوسخة. واجها دركيًا، شك في أمر ملابس الغسيل وكان على وشك طعنها بحربته عندما صرخ سفيردلوف: «هناك رجل هنا!». رشا ستالين المبتسم الشرطي في الوقت المناسب.

وصلا إلى بطرسبرغ[335]. أمضى الهارب الخصيب ثمانية وثلاثين يومًا فقط في ناريم[336].

* * *

في 12 أيلول/سبتمبر تقريبًا، كان ستالين الأشعث «بلحيته الطويلة، وقبعته المتجعّدة، وحذائه البالي، وسترة جاكيت قديمة وقميص سوداء»، يتجوّل مجددًا نزولًا وصعودًا إلى نفسكي بروسبكت، ويبدو للريبة كمدان هارب بين مرتادي الجادات والسيدات المطابقات للزي الحديث والأنيقات، عندما رأى كافتارادزي.

قال ستالين «أنا هربت من ناريم. وصلت بأمان، لكن لا أحد في البيت الآمن... وقد التقيتك على الأقل». تفاجأ كافتارادزي بهذه

الرؤية السيبيرية الشعثاء. «كانت نظرته غير مناسبة لنيفسكي بروسبكت». لكنه قاده فورًا إلى منزل آمن جديد يعود إلى «أرملة أميرال متقاعد»، على الأرجح البارونة ماريا شتاكيلبيرغ، المتحدرة من كاثرين الكبيرة، التي أجّرت الغرف للطلاب الجورجيين. انتقل ستالين وسفيردلوف الآن إلى منزل آل أليلوييف الآن.

زار ستالين شقة ستاسوفا، حيث جمع خزينة سي سي التي تركتها إيلينا مع شقيقها عند توقيفها، ثم اصطدم بحبيبة قديمة.

قالت تاتيانا سوخوفا «كنت في طريقي لأعلّم نزولًا عند نفرسكي بروسبكت عندما شعرت فجأة بيد رجل على كتفي. جعلني الأمر أقفز، لكن صوتًا مألوفًا توجّه إلي بالقول: «لا تخافي، يا رفيقة تاتيانا، هذا أنا!». وكان الرفيق أوسيب كوبا واقفًا إلى جانبي». اتفقا على اللقاء في «اجتماع «لبعض العمال»». ثم مشيا معًا، «وبينما مررنا على مقهى، أخذ الرفيق كوبا قرنفلة حمراء وقدّمها إلي».

بعد أيام تلت، وصل إلى تيفليس، حيث تجمّع أفراد العصابة البولشفية. كان كامو في الخارج[337].

* * *

كان ستالين يراقب عن بعد، لصّه المعتوه، كامو. في تيفليس، كان يعدّ بودو مديفاني وتسينتسادزي لإطلاق سراح السجين من وحدة قلعة ميتيخي للمجانين المجرمين، حيث سجّل طبيب تصرّف كامو

الغريب: «يدّعي أن الفئران تزعجه، على الرغم من أن مبناه لم يكن فيه فئران. يعاني المريض الهلوسات. يسمع أصواتًا غريبة، ويتحدّث إلى شخص ما، ويسمع الجواب». والحارس الذي راقبه «لاحظ أن تيربيتروسيان يستفيق في الليل، ويمسك شيئًا في الهواء، ويزحف تحت الطاولة، محاولًا إيجاد شيء... يدّعي أن أحدًا يرمي الحجارة في الغرفة، وعندما يسأل من، يجيب، «شقيق الشيطان»». والحقيقة أن كامو كان يخطط لهربه.

كان سجّان كامو ساذجًا، يدعى براغين، قام تدريجيًا بسحره ثم وظّفه كمهرّب بضائع. التقى مديفاني وشقيقات كامو ببراغين، وأعطوه أدوات الهرب، والمنشار والحبل، التي قام نقلها خفية إلى المريض. نشر كامو القضبان الحديدية، واستبدلها بالمعجون المصنوع من خبزه. تطلب الأمر خمسة أيام ليفصل الأصفاد، التي استبدلها بالأسلاك.

في 15 آب/أغسطس 1912، لوّح مديفاني وموسريو تسينتسادزي، بالمنديل ثلاث مرات من الطريق. كسر كامو الأصفاد والقضبان ونزل عبر الجدران. تمزّق الحبل، وكامو، الذي شعر بالقليل من الألم، سقط في الكورا. قذف بأصفاده إلى النهر وسار إلى أقرب شارع، حيث صعد إلى ترام (لتضليل كلاب البحث والتحري)، قبل الإقدام على لقاء «الموسريين».

في إحدى الليالي، تتذكر ساشيكو سفانيدزي، بينما كانت الشرطة تمشط المدينة وأثارت الصحافة موضوع الهرب، «أتى الرفيق بودو مديفاني وقال لميشا (مونوسيليدزي، زوجها) إنهم أطلقوا

سراح كامو من مستشفى الأمراض العقلية في الليلة السابقة... أتوا بكامو، وبقي لمدة شهر لدينا». كانت ساشيكو، ونجل ستالين وأولادها في البلاد، لكن كامو اهتم بمونوسيليدزي طوال شهر عبر طهو الأطباق الشهية له. ثم كامو، المتنكّر، هرب إلى الخارج من خلال باتومي واسطنبول.

يتذكر كروبسكايا «أتى كامو إلينا في باريس. عانى كثيرًا بسبب الانفصال عن إيليش (لينين) من جهة، وبوغدانوف وكراسين[338] من جهة أخرى»، المرتبك بالشقاق بين الأبطال الثلاثة الذين قام لهم بأفظع عمليات السطو على المصارف. تردّد كامو ولينين «استمع بشفقة كبيرة على الرجل الجريء كثيرًا، والساذج وصاحب الروح السريعة الغضب». عرف لينين، كما ستالين، أن الاهتمام والرعاية الصحية هما سبل للتحكم بمحميّيه السياسيين، وتبرع لينين بتسديد كلفة العملية الجراحية لعين كامو المتضررة. وبعد الجراحة في بروكسل، بدأ كامو بتهريب الأسلحة إلى روسيا. وأُلقي القبض عليه في بلغاريا وإسطنبول، وحاول في كل مرة التحايل على طريق الحرية. وبالعودة إلى تيفليس، جمع كامو الجماعة. وكان يتوقّع قدوم ساعي بريد بمبلغ كبير من النقود نزولًا من الطريق العام إلى المدينة. وقرابة 22 أيلول/سبتمبر، وصل أيضًا إلى تيفليس ستالين، الموكل بالمسائل المالية للحزب داخل روسيا.

وكان من المرجّح الآن أن تسينتسادزي، كما ذكر ستالين بعد الحرب العالمية الثانية، أعطى لأفراد العصابة تعليماته في غرفة

خاصة في تاماشيف كارافانسيراي في ساحة يريفان قبل السير على الطريق العام كادزهورسكوي.

* * *

ف ي 24 أيلول/سبتمبر، نصب كامو وتسينتسادزي، مع كوبرياشفيلي وحوالي ثماني عشر رجلًا مسلحًا، كمينًا لحافلة البريد على بعد ثلاثة أميال خارج تيفليس.

ورمى رجال الطريق العام القنابل على الشرطة والقوزاقيين: قُتل ثلاثة رجال شرطة وحوذي يمتطي الجياد. وأصيب شرطي رابع، لكنه فتح النار على سارقي المصرف. وتطوّر السلب إلى إطلاق نار ضار. أخفق المسلحون في الإمساك بالمال، واحتشد القوزاقيون. وعندما تراجعت الجماعة، لاحقهم القوزاقيون، لكن تسينتسادزي وكوبرياشفيلي، أطلقا النار، وغطيا انسحابهما، آخذين سبعة قوزاقيين في معركة قافزة نزولًا عند الطريق العام كادزهوركسي.

كانت الطلقة الأخيرة للجماعة. وتم تعقّب كامو نزولًا إلى مخبئه مع ثمانية عشر فردًا من العصابة. وتم توقيفهم. وتلقى كامو أربعة أحكام بالموت.

كتب كامو إلى تسينتسادزي، «أنا مستسلم للموت. أنا هادئ جدًا. على مقبرتي، يجب أن يكون العشب قد نما بارتفاع ستة أقدام. لا يمكن أحدًا أن يهرب من الموت إلى الأبد. يجب أن يموت المرء في أحد الأيام. لكنني سأجرّب حظي مرة أخرى. وربما في أحد

الأيام، سنضحك على أعدائنا مجددًا[339]...». بدا الأمر غير مرجّح كثيرًا[[340]].

لم يتباطأ سوسو في تيفليس.

(30)
الفالينتينا الغامضة

عاد ستالين إلى بطرسبرغ. حرّر «برافدا»، ومكث لدى مولوتوف وتاتيانا سلافاتينسكايا، في غضون أيام من السرقة الفاشلة. سكب المقالات الكثيرة[341]، وكتب مسودّة المانيفستو، وترأس تسمية انتخابات الدوما. وبعد الإشراف على اختيار المرشحين البولشفيين في بطرسبرغ في أواسط تشرين الأول/ أكتوبر، أشرف على تسمية مالينوفسكي في موسكو.

كانت حياة سوسو في نشاط مستمر، وفق سلسلة متعبة من «ليالي السهر... كان يطير من مكان إلى آخر، يعبر الشارع بعد الشارع لتضليل الأوخرانا، جاعلًا طريقه عبر الممرات الخلفية»، وفق ما تشرح آنا أليلوييف. «وإذا صدف أن مر بمقهى للعمال»، كان «يجلس هناك لشرب فنجان شاي حتى الساعة الثانية صباحًا»؛ أو إذا لاحظه دركي، «يدّعي أنه سكّير ويندفع إلى مقهى، ويجلس هناك حتى الفجر مع السائقين وسط رائحة التبغ الرخيص النتنة قبل الخلود للنوم لدى أحد أصدقائه...»، وبخاصة شقة آل أليلوييف مع أولغا الشهوانية وبناتها المفعمات بالحياة. غالبًا ما كان ستالين «يمر بهن»، ويجلس على الأريكة في غرفة الطعام «ويبدو مرهقًا».

كانت الفتيات يفرحن دائما برؤيته؛ وترعاه والدتهن اولغا. كانت

أولغا تقول لسوسو «إذا شعرت بأنك تحتاج إلى الراحة، اذهب وتمدد على السرير. ليس من الجيد محاولة النوم وسط الهرج والمرج هذين...». وإذا ما قرأنا بين سطور روايات آنا، نرى أن علاقة مميزة كانت تربط سوسو بأولغا، أقله في تفانيهما للقضية. عندما تركن بيتهن، كان يقول لأولغا، «تعالي معي». وأولغا «لا تطرح أي أسئلة. تضع عليها معطفها وتخرج مع ستالين. وقد خططا لعملهما، يستأجران سيارة ويخرجان في نزهة. يعطي ستالين إشارة والأم تخرج. كان بالطبع يضلل الشرطة التي تتعقّبه. تابع ستالين رحلته وحده».

دعا ستالين أولغا إلى مسرح مارينسكي: «رجاءً، أولغا، فلنذهب إلى المسرح فورًا. ستكونين في الوقت المحدد للافتتاح». لكن، قبل المسرحية، أضاف، «أردت كثيرًا حضور المسرحية لمرة واحدة، لكن لا أقدر». كان على أولغا أن تغادر وحدها، وتسلّم رسالة إلى مقصورة في مارينسكي.

في 25 تشرين الأول/أكتوبر 1912، تم انتخاب ستة بولشفيين وستة منشفيين في الدوما الامبريالي. ليست نتيجة سيئة. كارلو شخيدزي، المنشفي الذي اعتدى عليه ستالين في باتومي في العام 1901، انتُخب رئيسا لكتلة الديموقراطيين الاشتراكين ونائبه مالينوفسكي. ومن بين «البولشفيين الستة»، قامت الأوخرانا بمحاولة تأمين انتخاب عميلين في الدوما، وهو إنجاز للكونسبيراتسيا. وأخذوا الأوخرانا مباشرة إلى دائرة لينين الداخلية.

دفع ستالين في «برافدا»، إلى المصالحة مع المنشفيين. وعندما خطط البولشفيون لمظاهرة خارج الدوما، أقنعهم المنشفيون بالتخلي عنها، ما أقلق لينين الذي قصف ستالين بمقالات تهاجم سياسة المصالحة التي يتبنّاها. واللافت أن ستالين قلب سبعة وأربعين مقالًا للينين. لينين، الآن في كراكوف، استدعى ستالين وأعضاء الدوما الستة. يتذكر أحد البولشفيين الستة «الرفيق ستالين، قال فورًا إنه على المندوبين البولشفيين زيارة لينين في الخارج».

في 28 تشرين الأول/أكتوبر، راقب الأشباح ستالين وهو يزور صديقه كافتارادزي. وتبعوهما عندما ذهبا لتناول الطعام في مطعم فيدوروف، وهي مطاردة محببة، لكن بعد العشاء أدرك عملاء الشرطة أنه اختفى. بحثوا عن سوسو، لكنه توارى عن الأنظار[342].

أمر لينين فالينتينا لوبوفا، وهي واحدة من الفتيات المتحررات القادرات من الجيل البولشفي، بمرافقة ستالين. فوّضت «وزير الخارجية» والمسوّي السري لدى لينين ألكسندر شوتمان، للإتيان بستالين في كراكوف «بأقصى سرعة وأمن مطلق. هذا بتوجيه من لينين». وصل ستالين «إلى بطرسبرغ برفقة فالينتينا لوبوفا». وبعبارة شوتمان اللبقة «مكث في الفندق كمواطن فارسي، يحمل جواز سفر فارسيًا في جيبه».

شرح شوتمان المسالك السرية إلى كراكوف: المسلك الجنوبي الأكثر خطورة عبر أبو، أو المسلك الأطول والأكثر أمنا سيرًا

على الأقدام عبر الحدود السويدية في هابارندا. اختار ستالين طريق أبو، ثم انطلق ستالين مع فالينتينا لوبوفا، وتسلل إلى خارج بطرسبرغ في كارة مغطاة. استقلا القطار إلى فنلندا من محطة ليفاشوفو، مستعملين جوازات السفر الروسية. وفي فنلندا، سلمهما إينو راخيا، حارس لينين لاحقًا، جواز سفر فنلنديًا، ورافق الثنائي إلى المركب البخاري أبو.

«تحقق رجلا شرطة من المستندات... على الرغم من أن الرفيق ستالين... لم يكن يشبه أبدًا الفنلنديين، جرى كل شيء بشكل سعيد من دون عقبات». استقل ستالين وفالينتينا المركب عبر البلطيق إلى ألمانيا.

كانت هذه من علاقات سوسو الغامضة. كانت فالينتينا، الملقّبة ب «الرفيقة فيرا»، حسناء متزوجة ببولشفي كان يعمل في السر مع الأوخرانا: وكان الحزب في أوج فساده بالخونة. لا نعلم إذا كانت تدرك أن زوجها عميل مزدوج، لكن كان لينين يثق بها تمامًا. وتُظهر مذكرات شوتمان أن سوسو (في المستندات الفارسية، اسمه مجهول) كان يسافر مع فالينتينا لبعض الوقت. أتيا أولًا إلى هلسنكي، وتشاركا غرفة في نزل، «في أواخر الصيف»، ربما في أيلول/سبتمبر، مباشرة بعد هربه من ناريم. ويشير شوتمان إلى أنهما كانا معا. مسافرين مئات الأميال بعد أيلول/سبتمبر 191، كانا على ما يبدو متحابين، وتشارك العلاقات الصغيرة بين الرفاق الذين يلقى بهم معا في مهمات خطرة. وعندما أُعدم زوج فالينتينا لاحقا كخائن، لا بد من أن ذلك ساهم في زيادة انعدام ثقة

ستالين بالزوجات الغادرات[343].

استقل الثنائي القطار إلى كراكوف في جليقية، وهي مقاطعة في الامبراطورية المزدوجة لامبراطور هابسبرغ - الملك فرانز – جوزيف[344].

* * *

أُعجب لينين بكراكوف. كانت العاصمة الجليقية مدينة بولندية قديمة. وناووس الملوك البولنديين موجود في القصر الملكي. وهنا تأسست جامعة جاغيلونيان في العام 1364.

تشارك لينين وكروبسكايا ووالدتها شقة في طريق لوبوميرسكي 49 مع عضو في الحزب الاشتراكي، يدعى زينوفياف وزوجته وابنه، ستيفان. وشكّل لينين وزينوفياف مكتب الشؤون الخارجية في الحزب مع كروبسكايا كأمين المكتب. كانت كراكوف تفرقع تحت وطأة الأزمة السياسية، وذكّرت لينين ببلده الأم. قال كروبسكايا إنه «خلافا للمنفى في باريس أو سويسرا، هناك علاقة وثيقة بروسيا». أربعة آلاف من سكانها البالغ عددهم 150 ألف نسمة، هم من المنفيين من الامبراطورية الروسية، ومعظمهم بولنديون. «أحب إيليش كراكوف كثيرًا. كانت بمثابة روسيا تقريبًا».

استمتع لينين بالتزلج على الجليد، بينما كان كروبسكايا يقوم بالتسوّق في المجمّع اليهودي القديم حيث الأسعار أقلّ. «أحبّ إيليش الحليب الحامض وويسكي الذرة البولندية». كان يلعب لعبة

اللقيطة مع نجل زينوفياف تحت الأثاث. وكان يقول «توقّف عن التدخل، نحن نلعب»، نابذًا مقاطعته، لكنه كان ينتظر بلهفة وشوق ستالين والستة.

وصل ستالين في الأسبوع الأول من تشرين الثاني/نوفمبر، والتقى بأتباع لينين، ونام على الأريكة في مطبخهم. سُحر ستالين ومالينوفسكي ونائب آخر في الدوما، مورانوف، بلينين الذي وبّخهم أيضًا، واحتج بضراوة ضد أي اجتماع أو مصالحة مع المنشفيين: كان على بولشفيّيه أن يبقوا حزبًا مستقلًا.

قد يكون لينين نبيلًا مثقفا، لكن، بالمرح البسيط والإرادة الحديدية، كان خبيرًا في التعامل مع رجال العمل الأصعب. رحّب بستالين وطمأنه: الخبز والملح قرّبا بينهما. كان كروبسكايا يقدّم السجق «الألماني»، الذي عانى بسببه ستالين طوال يومين، لكنه لم يستطع بعدها إلا أن يقول للينين: «أنا جائع. أرغب بالكباب حتى الموت!». ووافق لينين، «أنا أيضًا، نهم، لكنني أخشى مضايقة ناديا. هل لديك المال؟ هيا، فلنذهب لتناول الطعام في مكان ما...». لكنهما اختلفا على التكتيكات.

كانت واحدة من بين عدة مناسبات حين كان لينين أكثر تشددًا من ستالين، الذي دمدم بأن «إيليش يوصي بسياسة متشددة للستة، وهي سياسة تهديد أكثرية الفصيلة (المنشفيين)، لكن إيليش سينسحب...» بعد عشرة أيام، عاد ستالين إلى بطرسبرغ، على الأرجح وفق جواز مرور بولوباسكا، يسمح للعائلات التي لديها أقارب خارج الحدود بعبور الحدود ذهابًا وإيابًا.

ظن أن لينين بعيد المنال بطريقة خرقاء، وبقي مُصلحًا عنيدًا.

نظر لينين في إمكانية نزع ستالين من «برافدا»[345]. وعندما اجتمعت الدوما الجديدة، قرأ مالينوفسكي مانيفستو، يرجّح أن ستالين هو من كتبه، كان ودودًا بالنسبة إلى إخوانهم المنشفيين المقصيين. ومتحديًا لينين، التقى ستالين سرًا حتى بجوردانيا وجيبيلادزي، العدوين المنشفيين لوقت طويل[346].

قصف لينين ستالين بالطلبات للقيام برحلة أخرى إلى كراكوف لمناقشة السؤال الوطني، ومشكلة «برافدا». حاول كروبسكايا أولًا أن يغري ستالين للذهاب إلى كراكوف ليُعفيه من مشقة التوقيف: «اطرد فاسيلياف (ستالين) في أقرب وقت ممكن، وإلا فلن نحميه. نحتاج إليه وقد أدى مهمته الأساسية».

لكن ستالين تملص من هذه الرحلة، بداعي المشاكل الصحية.

كتب كروبسكايا لستالين «إلى ك. س. صديقي العزيز»، في 22 كانون الأول/ديسمبر، مستعملًا للمرة الأولى اختصارًا لاسمه الجديد، كوبا ستالين. «يبدو أنك لا تنوي المجيء إلى هنا... وإذا صحّ ذلك، فنحن نعترض على قرارك... نحن نشدد على الإطلاق على أن تأتي للزيارة... بغض النظر عن صحتك. نحن نطلب وجودك بصراحة تامة، ولا يحق لك أن تفعل غير ذلك». أعد ستالين لرحلته، مجددًا مع لوبوفا. سرّ لينين وكروبسكايا: «نأمل أن ينجب فاسيا (ستالين) وفيرا (فالينتينا) قريبًا الأطفال (الدوما الستة)».

في 15 كانون الأول/ديسمبر، توقفت الدوما عن العمل لمناسبة عيد الميلاد[347]. غادر ستالين وفالينتينا متوجهين إلى كراكوف، ومن المرجّح أنهما سلكا المسار المباشر، لكن الأخطر. وفي القطار باتجاه الغرب، كان راكبان يقرآن بصوت عال من صحيفة وطنية. صاح ستالين عليهما «لماذا تقرآن هذه الزبالة!». ترجّل هو وفالينتينا عند مدينة بولندية على الحدود الروسية النمساوية واستعدا للعبور على الأقدام، كمهرّبي البضائع[[348]].

كانت هذه أطول رحلة لستالين إلى الخارج، وقادته إلى فيينا، حيث تقاطع الحضارات، ليلة الحرب الكبرى.

(31)

فيينا في العام 1913: **الجورجي المذهل والفنان النمساوي والامبراطور العجوز**

لم يكن ستالين يعرف أحدًا في المدينة الحدودية الصغيرة، لكنه كان خبيرًا في فن تصويب الأمور العشوائية. سار في الشوارع حتى سأله إسكافي: «هل أنت غريب؟» أجاب ستالين «كان والدي عاملًا إسكافيًا في جورجيا»، عارفًا أن الجورجيين والبولنديين تشاركوا في غلال روسيا سجن الأمم. «يجب أن أعبر الحدود». عرض البولندي عليه أن يقلّه، رافضًا قبول أي مبلغ من المال. توقّف ستالين، وهو يخبر هذه القصة بعد الثورة، «كما لو أنه يحاول التحديق في الماضي»، ثم أضاف: «أرغب في معرفة مكان هذا الرجل اليوم، وما حلّ به. يا للأسف، نسيت اسمه ولا يمكنني البحث عنه». وعلى غرار الكثير من الأشخاص الذين ساعدوا ستالين في شبابه، يمكن أن يكون الإسكافي قد رغب فعلًا في دفن الجورجي في الغابات بين الامبراطوريات. لم يذكر ستالين قط أنه كان لديه رفيقة في ذاك الوقت: فالينتينا لوبوفا.

عبر الحدود في جاليسيا البولندية، كان ستالين محبطًا لشدة رغبته في الوصول إلى لينين، لكنني «كنت جائعًا جدًا». ذهب إلى مطعم المحطة في تريزبينيا، حيث جعل نفسه أضحوكة. دعا النادل البولندي باللغة الروسية. «وقف النادل أمام الكثير من

الطعام»، لكن تم تجاهل ستالين إلى أن فقد أعصابه: «هذا مُخزٍ! تم تقديم الطعام إلى الكل ما عداي!». لم يقدّم البولندي حساءه؛ كان على ستالين أن يجلبه بنفسه. «وفي ثورة غضبي، رميت بالصحن على الأرض، وقذفت بروبل إلى النادل، وهربت!». كان شديد الجوع عندما وصل إلى أتباع لينين.

بالكاد حيّينا بعضنا البعض عندما وصل فجأة.

«أعطاني لينين شيئًا لآكله في وقت واحد. كنت نصف ميت. لم آكل شيئًا منذ مساء البارحة».

«لماذا لم تأكل في ترزيبينيا؟ هناك مطعم جيد».

أجاب ستالين «لم يعطني البولنديون شيئًا لآكله».

ضحك لينين «يا لك من مجنون، ستالين! ألا تعلم أن البولنديين ينظرون إلى اللغة الروسية كلغة القمع[349]؟».

لا بد من أن لينين تعجّب من هذا العمى - أو «الشوفينية الروسية الكبرى» - في «خبرته» المفترضة حول الوطنيين، لكن ستالين اختار عداءً روسيًا عميقًا لأي نوع من الاستقلال البولندي[[350]].

ارتبط الرجلان ببعضهما البعض كما لم يسبق لهما أن فعلا. قال ستالين في سن متقدّمة «إنهما التقيا بطريقة مضيافة جدًا. «هو (لينين) لم يسمح لي بالذهاب إلى أي مكان، أقنعني بأن أبقى مع عائلته. تناولت الفطور والغداء والعشاء هناك. وقد خرقت القواعد المعتمدة مرتين فقط: حذّرت كروبسكايا من أنني سأتناول العشاء

في الخارج، وزرت الأجزاء القديمة من كراكوف حيث الكثير من المقاهي». كان المطعم الأحب إلى ستالين هو هاويلكا، الذي لا يزال موجودًا في ساحة السوق المركزية. عندما تعشى ستالين في الخارج، قلق لينين.

«اسمع، أيها الرجل العجوز، هذه المرة الثانية التي تتعشى فيها في الخارج. ألا نعاملك جيدًا؟».

«كلا، أيها الرفيق، أنا مسرور بكل شيء، لكني أشعر بأنني غير مرتاح لأنك تقدّم كل شيء».

شدد لينين «لكنك ضيفنا. كيف كان العشاء في مطعمك؟».

«الطعام جيد، لكن البيرة ممتازة».

أجاب لينين «آه، الآن أفهم. تفتقد بيرتك. ستحصل الآن على البيرة في البيت أيضًا». وطلب من حماته أن تقدّم قنينتين أو ثلاث قناني من البيرة إلى الضيف يوميًا.

تأثر ستالين مجددًا بعناية لينين.

يتذكر كروبسكايا «كان إيليش منزعجًا جدًا من «برافدا»». والحقيقة أن لينين كان ساخطًا لافتتاحيات ستالين التوفيقية. «كان ستالين غاضبًا أيضًا. كانوا يخططون لكيفية ترتيب الأمور. كان لينين يفكّر مليا في مشاكله المزدوجة حول تأكيد التحكّم ب «البرافدا»، وابتكار سياسة القوميات، والترويج لتابعه وهو موضع تقدير.

احتاج إلى خبير بولشفي في القوميات غير روسي، وبالتأكيد غير

يهودي. وقبل ثلاث سنين، رحّب بستالين على أنه خبير في القوميات أكثر من جوردانيا. كان هذا حلًا يقتل عصفورين بحجر واحد.

اقترح لينين أنه، بدلًا من العودة إلى بطرسبرغ، يبقى ستالين لكتابة تحقيق حول سياسة القوميات البولشفية الجديدة. ووافق ستالين.

قرابة 28 كانون الأول/ديسمبر 1912، انضم إلى لينين وستالين وزينوفياف مالينوفسكي ونائبان آخران في الدوما، صديقة ستالين فالينتينا لوبوفا وثنائي بولشفي غني عاش في فيينا، ألكسندر وإيلينا تروتيانوفسكي، مع مربية طفلهما، لاتفيان. تتذكر المربية البالغة من العمر تسعة عشر عامًا، أولغا فايلاند «لم يتكلّم كوبا بصوت مرتفع جدًا»، لكن «بطريقة مقاسة ومقصودة... بمنطق غير قابل للجدل». «كان يذهب أحيانًا إلى الغرفة الأخرى ليذرع المكان جيئة وذهابًا، مستمعًا إلى الخطب».

قاوم ستالين لينين، المدعوم الآن بقوة من مالينوفسكي، للأسباب الأكثر ريبة. تشاطر لينين والأوخرانا، معارضتهما أي توحّد مع الاشتراكيين الديموقراطيين. وبالتالي أمرت الشرطة السرية مالينوفسكي بأن يدفع بهذا التشدد، بينما كان ستالين لا يزال يدّعي أنه يستطيع أن يهدي بعض المنشفيين. وأمل أن يرى لينين أنه «من الأفضل التعاون وتأجيل السياسات المتشددة لفترة من الزمن». وفضلًا عن ذلك، احتاجت كتلة أعضاء الدوما الستة إلى قائد حقيقي: هو بنفسه، بلا شك.

«هناك جو لا يحتمل هنا»، تذمر ستالين في رسالة إلى بطرسبرغ. «الكل مشغول جدًا، سحقًا مشغول، (لكن) وضعي ليس بالفعل سيئًا كثيرًا». ثم كتب رسالة محبة تقريبًا إلى صديقه القديم كامينيف: «أرسل إليك قبلة إيسكيمو على الأنف، لتزهق روحي إذا كنت أكذب! اشتقت إليك، أقسم بذلك كالكلب! لا يمكنني أن أقوم بمحادثة من القلب إلى القلب مع أحد، لا أحد على الإطلاق، ما عداك. ألا يمكنك بطريقة أو بأخرى أن تأتي إلى هنا، إلى كراكوف؟».

لكن أصبح لستالين صديق جديد في كراكوف: مالينوفسكي. المغتصب المدان والخائن الأوخرانا، أكبر من ستالين بعامين، يستمتع الآن بأجر وافر من الاوخرانا بقيمة 8.000 روبل سنويًا: أكثر من مدير الشرطة الامبريالية، الذي يحصل على 7.000 فقط.

يتذكر مولوتوف «كان مفعمًا بالحياة وواسع الحيلة ووسيمًا، ويشبه تيتو بعض الشيء». وكتب ستالين له بحرارة، مرسلًا الحب إلى «ستيفانيا والأولاد». شجب مالينوفسكي بمكر البولشفيين الآخرين على أنهم خونة، لإبعاد الشبهات عنه، لكن ضغط الحياة المزدوجة بدأ يقوده إلى الانهيار.

في الاجتماع الأخير في ليلة رأس السنة 1912، استسلم ستالين للينين. تحمّس لينين لكامينيف «كل القرارات تقبل بالإجماع». «إنه نجاح كبير». لكن انسحاب ستالين لم يكن مريرًا. وأعاد الاجتماع، كما نقل مالينوفسكي لمموّلي الأوخرانا، تأسيس الآلة

البولشفية: مكتب الشؤون الخارجية (لينين وزينوفياف مع كروبسكايا كأمين)، إلى جانب المكتب الروسي، الذي يسيطر عليه ستالين وسفيردلوف، الآن رئيس التحرير في «برافدا»، مع فالينتينا لوبوفا كأمينة[351]. نقل ستالين من «برافدا» لكنه برز ككبير البولشفيين في روسيا (بأجر: 60 روبلًا شهريًا)، في رسالة راقية للعب دور المنظّر. كان ستالين يكتب بقسوة حول مسألة القوميات، ويطرح عليه لينين الاقتراحات. أرسل ستالين أول مسودة له، إلى بطرسبرغ.

لاحقًا، ذهب لينين والبولشفيون إلى المسرح للاحتفال بالسنة الجديدة، «لكن المسرحية كانت سيئة جدًا»، بحسب ما تتذكر أولغا فايلاند. «خرج فلاديمير إيليش مع زوجته». وشوهد لينين وستالين وآخرون في السنة الجديدة 1913، في غرفة خاصة في مطعم. عندما أصبحت فايلاند امرأة مسنّة، أفشت أن ستالين بدأ العبث معها. «بدا لينين مبتهجًا جدًا وممازحًا وضاحكًا. بدأ الغناء، وانضم حتى إلى الألعاب التي كنا نقوم بها[352]».

* * *

بعد فترة وجيزة، وصل ستالين إلى شقة آل ترويانوفسكي في فيينا المتجمدة، المكسوّة بالثلج. دعاهم لينين «الشعب الطيّب... لديهم المال!». كان ألكسندر ترويانوفسكي نبيلًا شابًا وسيمًا، وضابطًا في الجيش: حوّلته مشاركته في الحرب الروسية - اليابانية إلى الماركسية والآن يحرر «البروسفيشيني» (التنوير) ويموّلها، التي

تنشر طروحات سوسو. وهو الضليع في اللغتين الألمانية والإنكليزية، عاش مع زوجته الجميلة النبيلة بالمولد، إيلينا روزميروفيتش، في شقة واسعة ومريحة في 30 شونبرونرشلوس ستراس[353]، البولفار الذي سافر عليه ذهابًا وإيابًا الامبراطور فرانز جوزيف، يوميًا من منزله في قصر شونبرن إلى مكتبه في هوفبرغ.

هابسبرغ كايسر القديم صاحب الشاربين، الذي حكم منذ العام 184، سافر في عربة مطلية بالذهب تقودها ثمانية أحصنة بيضاء، مؤنسنة بحوذيين يرتديان البزات الملوّنة بالأبيض والأسود، والشعر المستعار الأبيض، برفقة فرسان هنغاريين بفرو النمر الأصفر والأسود على أكتافهم. لما أمكن ستالين أن تفوته رؤية العظمة الآيلة إلى الزوال، ولم يكن الديكتاتور المستقبلي الوحيد الذي يرى ذلك: يعود مظهر التيتان من القرن العشرين في فيينا في كانون الثاني/يناير 1913، إلى مسرحية توم ستوبارد[354]. في منزل نوم للرجال في مالديمانستراس، في بريجيتينو، عالم آخر من عناوين ستالين الضخمة بطريقة أو بأخرى، عاش شاب نمساوي كان فنانًا فاشلًا: أدولف هتلر، في سن الثالثة والعشرين.

تشاطر سوسو وأدولف أحد مشاهد فيينا: يتذكر أعز صديق لهتلر كوبيزيك، «غالبًا ما رأينا الامبراطور العجوز عندما كان يقود عربته من شونبران إلى هوفبرغ».

لكن الديكتاتورين المستقبليين لم يكونا قابلين للإزاحة، ومزدريين:

لم يذكره ستالين قط و«لم يقم أدولف بضجة صاخبة من أجله، لأنه لم يكن مهتمًا بالامبراطور، بل الدولة التي كان يمثلها فقط».

في فيينا، كان هتلر وستالين، مهووسين كليهما، بطرائق مختلفة، بالعرق. وفي هذه المدينة من الخطباء المسنّين، المفكرين اليهود وزعماء الدهماء العنصريين، وقاعات البيرة والقصور، فقط 6.8 في المئة كانوا فعليًا من اليهود، لكن تأثيرهم الثقافي، المجسّد بفرويد وماهلر وويتجينستاين وبوبر وشنيتزلر، كان أعظم. كان هتلر يصوغ نظريات فولكيش المعادية للسامية حول التفوّق العنصري، الذي، كفهرير، سيفرضها على امبراطوريته الأوروبية؛ بينما ستالين، العامل ببحثه على المقالة حول القوميات، كان يضع إطاراً لفكرة جديدة للامبراطورية الدولية مع سلطة مركزية وراء واجهة مستقلة، نموذج الاتحاد السوفيتي.

وبعد حوالي ثلاثين عامًا، تصادمت أيديولوجيتهم وهيكليات الدولة في أفظع نزاع في التاريخ البشري، وأكثره وحشية.

لم يندمج اليهود في أي من الرؤى. تصدّوا لهتلر، ودغدوه، لكنهم أزعجوا ستالين وأربكوه أيضًا، الذي هاجم طبيعتهم «الصوفية». لقد مثّلوا العرق كثيرًا بالنسبة إلى هتلر، ولم يكونوا أمة كافية بالنسبة إلى ستالين.

تشاطر الديكتاتوران الناشئان التسلية في فيينا: أحبّ كلاهما السير في المنتزه حول قصر فرانز جوزيف شونبران، إلى جوار حيث مكث ستالين. حتى عندما كانا متحالفين في معاهدة مولوتوف - ريبنتروب للعام 1939، لم يلتقيا أبدًا. كانت هذه النزهات

القصيرة، على الأرجح، التي قرّبت بينهما أكثر.

* * *

«هذه الأسابيع القليلة التي أمضاها الرفيق ستالين معنا كرّسها كلها للقضية الوطنية»، وفق مربية ترويانوفسكي، أولغا فايلاند. «أشرك الكل من حوله. حلل البعض أوتو بور، والآخرون كارل كوتسكي». وعلى الرغم من الدراسة المتقطّعة، لم يستطع ستالين قراءة جارمن، فساعدت المربية، كما فعل شاب بولشفي آخر التقى به الآن للمرة الأولى: نيكولاي بوخارين، جنية مفكّرة بعينين لامعتين ولحية العثنون. «أتى بوخارين إلى شقتنا يوميا»، وفق أولغا فايلاند، «بينما عاش ستالين هناك أيضا». وفي وقت عبث ستالين موعودًا مع المربية، كانت تفضّل بوخارين الظريف والخبيث. فضلًا عن ذلك، كان واجبها المهني أن تنظّف قمصان ستالين وملابسه الداخلية، التي كانت تحديًا لها، كما اشتكت بعد وفاته.

كانت العلاقة بين ستالين وبوخارين جيدة. كان ستالين يراسله من المنفى، وهي بداية ائتلاف وصل إلى ذروته في الشراكة السياسية في أواخر العشرينيات. لكن سوسو، المختنق، وصل حتى عبادة بوخارين وجسده القاتل. والصداقة التي بدأت أواصرها تتوطّد في فيينا، انتهت برصاصة في رأس بوخارين.

نقل تروتسكي «كنت جالسًا على الطاولة قرب السّماور في شقة سكوبيليف... في العاصمة القديمة لهابسبرغ»، وفق تروتسكي، الذي يعيش أيضًا في فيينا، «عندما انفتح الباب فجأة بدقة ودخل

رجل مجهول. كان قصير القامة... هزيلًا... جلده الرمادي والبني مغطّى بالهزمات... لم أر شيئًا في عينيه يشبه الصداقة». كان ستالين، الذي «توقّف عند السماور وصنع لنفسه كوب شاي. ثم، كما أتى بصمت، غادر، تاركًا انطباعًا يائسًا جدًا وغير عادي عليّ. أو ربما الأحداث اللاحقة ظللت اجتماعنا الأول».

كان ستالين يحتقر تروتسكي أصلًا، وقد دعاه «البطل المزعج صاحب العضلات المزيّفة». ولم يغيّر رأيه فيه أبدًا. وتروتسكي، من جهته، قد تأثر بعيني ستالين الصفراوين: كانتا «تومضان بالمكر».

كان في بقاء ستالين لدى ترويانوفسكي وحي: كانت خبرته الأولى والأخيرة للحياة الأوروبية الحضرية، كما أقر هو بنفسه. عاش في الغرفة التي تطلّ على الشارع، و«عمل هناك طوال أيام». وفي الغسق، كان يجول في منتزه شونبران مع آل ترويانوفسكي. وعند العشاء، كان يتحدث أحيانًا عن ماضيه، يتذكر لادو كيتخوفيلي، وكيف أطلقت النار عليه في السجن. كان نكد المزاج بطبعه. كتب إلى مالينوفسكي، بالعودة إلى بطرسبرغ «مرحبا، صديقي»؛ «حتى الآن أنا أعيش في فيينا وأكتب بعض الهراء. أراك قريبا». لكنه تحسّن. تقول أولغا فايلاند «هو الخجول والوحيد في البداية، أصبح أكثر راحة ومرحا». لم يشعر بأنه غير مرتاح بأسلوب ترويانوفسكي الأنيق الأرستقراطي. على العكس، بقي معجبًا به طوال حياته.

تقول أولغا فايلاند «القضية الوطنية كانت المسألة الوحيدة التي

تدور حولها المحادثات». كانت غالينا ترويانوفسكي الصغيرة، طفلة نشيطة على علاقة طيبة مع ستالين. «أحبّت أن تكون برفقة الكبار»، ولعب ستالين معها، واعدًا إياها بأن يجلب لها «جبالًا من الشوكولاتة الخضراء من القوقاز». «كان يضحك بصوت مرتفع جدًا»، عندما لم تكن تصدّقه. لكنها غالبًا ما كانت تردّ عليه بالمضايقة: فتشتكي «أنت تتكلم دائمًا عن الأوطان!». جلب ستالين الحلوى للطفلة في منتزه شونبران. راهن مرة مع والدتها بأنه لو نادى كلاهما غالينا، فستذهب إلى ستالين للحصول على الحلوى. وجرّبا نظريته: أسرعت غالينا إلى سوسو، مؤكدة نظرته الساخرة من الطبيعة البشرية[355].

طلب ستالين الآن من من مالينوفسكي أن يعيد المسودة الأولى من مقالته كي يراجعها، مضيفًا، «قل لي:

1 - كيف حال برافدا؟

2 - كيف حال فصيلتك؟

3 - كيف حال المجموعة؟... فسيلي». أعاد كتابة المقالة قبل أن يرحل عن فيينا إلى الأبد[356].

انتظره لينين في كراكوف؛ واندسّت الخيانة في بطرسبرغ[357].

(32)

كرة الشرطي السري:

الخيانة المتنكّرة

يخبر ستالين «عدت إلى كراكوف لرؤية لينين». «بعد يومين، دعاني لينين، ولاحظت المخطوطة مفتوحة على المكتب. طلب مني الجلوس إلى جانبه».

كان لينين متأثرًا. «هل أنت من كتب هذا بالفعل؟»، سائلًا ستالين، بطريقة لاحظ فيها ستالين بعض الاستعلاء.

«نعم، أيها الرفيق لينين، كتبته. هل ارتكبت خطأً ما؟».

«لا، بل على العكس، هذا مدهش حقًا!».

كان لينين مصممًا على نشر هذه القطعة كنص سياسي. «هذا المقال جيد جدًا!»، قال لكامينيف. «هذه مسألة نضال ولن نستسلم مقدار أنملة على معارضتنا المبدئية للتافهين البونديين!». وفي كتاب إلى غوركي، صفّق لستالين على أنه «جورجيّه المذهل».

نشر ستالين المقال في آذار/مارس 1913 بلقبه الجديد «ك. ستالين»، في المرة الثانية استعمله. تطوّر منذ العام 1910 عندما بدأ توقيع المقالات ب «ك. س.»، ثم «ك.

سافين» و«ك. سولين».

استدعت الحياة التآمرية قائمة من الألقاب، غالبًا ما كانت تُختار

عشوائيًا. قد يكون إيليانوف أخذ اسم «لينين» من النهر السيبيري لينا، لكنه استعمل 160 لقبًا معا. وحافظ على «لينين» لأنه صادف أنه اللقب الذي استعمله في المقال، «ما العمل؟»، الذي عُرف من خلاله. واستعمل سوسو على مثاله «ستالين» عندما نشر المقال حول القوميات الذي ذاع صيته من خلاله، وهذا من الأسباب التي جعلت هذا الاسم يبقى. لو لم يكن ميلودراميًا مهووسًا بنفسه، لكان عُرف في التاريخ «كفازيلياف»، أو «ايفانوفيتش».

كانت جاذبيته الأخرى شبه الغامضة «بلينين» بذاته، لكن ستالين أيضًا صمم الألقاب من أسماء نسائه: من الجدير بالتصديق ظاهريًا أن حبيبته لودميا ستال، ساعدت على الإيحاء بهذا. ما كان ليعترف بذلك أبدًا. قال باعتداد بالنفس لشخص أجرى معه مقابلة «أطلق عليّ رفاقي هذا الاسم». «اعتبروا أنه يناسبني». وعلم مولوتوف أن هذا لم يكن صحيحًا، قائلًا «هكذا أسمى نفسه». لكن هذا «الاسم الصناعي» العزيز، يعني الرجل الفولاذي، ناسب طبعه، وكان رمز كل ما يجب أن يكون عليه البولشفي[358].

كان الاسم روسيًا، برغم أنه لم يتوقف أبدًا عن كونه قوقازيًا، جامعًا بين «كوبا» الجورجي و«ستالين» السلافي (برغم أن رفاقه نادوه «سوسو»). وبالتالي اعتمد ما يسميه المؤرخ روبرت سيرفيس «الشخص الثنائي الوطنية». بعد العام 1917، أصبح رباعي الوطنية: جورجيا بالوطنية وروسيًا بالوفاء ودوليا بالأيديولوجيا وسوفياتيًا بالجنسية.

بدأ الأمر بلقب - وانتهى بامبراطورية ودين. عندما كان ستالين ديكتاتورًا، كان يصرخ على ابنه الضعيف فاسيلي لأنه يستغل ألقابهم: «أنت لست ستالين وأنا لست ستالين! ستالين هو قوة سوفياتية!».

في أواسط شهر شباط/فبراير 1913، عاد «كوبا ستالين» المنحوت جديدًا إلى بطرسبرغ، حيث كان البولشفيون مسرعين، ويتعرضون للخيانة في كل مرة، من مالينوفسكي[359].

* * *

نُقل ستالين إلى آل تروسانوفسكي في كتاب فتحته الأوخرانا «إنه مهرجان كامل من الاعتقالات والتفتيشات والغارات». وأضاف أنه لم ينس وعده لغالينا البالغة من العمر ستة أعوام: «سأرسل الشوكولاتة إلى غالوشكا».

ستالين، الذي أعطاه لينين السلطة الآن، لكن طوّقه عمل الأوخرانا القوي، لم يحاول الهرب حتى. بل بقي في شارع شباليرانايا في وسط المدينة في شقة نائبي الدوما، باداييف وساموييلوف، وكان يحضر الاجتماعات في منزل النائب الصديق بتروفسكي. ونظرة ستالين، في كتاب آخر، «لا أشخاص كفوئين. ويصعب عليّ التعامل مع كل شيء».

كان التحدي الأول الذي طرح أمامه، هو الدفاع عن نجمه البرلماني، مالينوفسكي، من اتهام صادم. فقد أظهر مقال أن مالينوفسكي جاسوس لدى الاوخرانا. وبما أن المقال قد وقّع تحت

«ت»، اعتبر البولشفيون أن الكاتب هو منشفي، مارتوف (واسمه الحقيقي تسيديربوم) أو أخو زوجته فيودور دان. «أتى البولشفي فاسيلياف (ستالين) إلى شقتي (كان يعرف باسم «يوسكا كوريافيي» (جو بوكس) محاولًا وقف الشائعات بحق مالينوفسكي»، وفق فيودور دان. حذّر جو بوكس زوجة دان ليدا من أنها ستندم على ذلك لو حاول المنشفيون تشويه سمعة مالينوفسكي.

لكن، بفضل مالينوفسكي، ترصد الآن كل خطوة يقوم بها ستالين من قبل مدير الشرطة الامبريالية بنفسه. في 10 شباط/فبراير، أوقف سفاردلوف، وقد خانه مالينوفسكي. قرّر ستالين الآن أن يعيّن رفيقه من باكو، شوميان، محررًا ل «برافدا»، لكن مالينوفسكي أقنع لينين بأن الأرمني سيكون توفيقيًا جدًا، كستالين بنفسه. دعم لينين مرشّح مالينوفسكي، شيرنومازوف، الذي، كما تنبأ ستالين في باكو، كان عميلًا مزدوج لدى الاوخرانا.

في شباط/فبراير 1913، خدع مالينوفسكي اللجنة المركزية بأكملها في روسيا، ما عدا ستالين وبتروفسكي غير الفعّال. وكانت الأوخرانا مصممة على وقف أي اجتماع للاشتراكيين الديموقراطيين: وستالين الموفِّق كان التالي.

مساء السبت، 23 شباط/فبراير، قام المتعاطفون مع البولشفيين بحفل لجمع التبرعات وحفلة تنكرية في سوق كالاشنيكوف، يصعب أن يكون مكان ستالين المعتاد.

لكن كانت الفتيات أليلوييف متحمّسات بشأن ذلك. وتحدّث ستالين

ومعلّم الرياضيات، كافتارادزي، عن الذهاب للمشاركة.

وبعد ظهيرة ذاك اليوم، زار ستالين مالينوفسكي. وطلب العميل المزدوج منه أن يأتي إلى الحفلة. ستالين - كما قال لاحقًا لتاتيانا سلافاتينسكايا - رفض، قائلًا «لم يكن في مزاج جيد، ولم يكن لديه الثياب المناسبة. لكن مالينوفسكي تابع الإلحاح»، معيدًا التأكيد له أن الأمن مستتب. فتح الخائن النشيط خزانة الثياب الممتازة الخاصة به لستالين، مقدمًا طوقًا ثابتًا وقميصًا وربطة عنق حريرية ربطها حول رقبة ستالين.

أتى مالينوفسكي مباشرة تقريبًا من اجتماع مع مراقب الأوخرانا، مدير الشرطة الامبريالية بيليتسكي، واعدًا إياه على الأرجح بتسليم ستالين.

كتبت خليلة ستالين، تاتيانا سلافاتينسكايا «ذهبت أنا وفاسيلي (ستالين) إلى الحفلة. كانت جميلة». جلس ستالين، في ربطة عنقه الباذخة، إلى طاولة مع نواب الدوما البولشفيين. «تفاجأت حقا لرؤية... صبينا الجورجي العزيز... في حفلة مكتظة كهذه»، هذا ما قاله دميان بيدني، وهو شاعر بروليتاري، أصبح في العشرينيات من أقرب رجال حاشية ستالين، لينين لاحقًا. «كان من الوقاحة حقًا الذهاب إلى هناك. هل كان عمل الشيطان أو مجنون دعاه إلى الذهاب؟ قلت له، «لن تهرب»». ألمح بيدني إلى وجود خائن بينهم.

قرابة منتصف الليل، تموضع ضباط الأوخرانا باللباس الرسمي، بدعم من الدرك، في آخر صالة الحفل حيث جلس الضيوف إلى

الطاولات.

لاحظت تاتيانا أن «ستالين كان يتحدث إلى مالينوفسكي بنفسه»، عندما «لاحظ أنه ملاحق».

اقترب التحريون من طاولة ستالين وسألوه اسمه. فأنكر أنه دجوغاشفيلي. ووقف الرفاق من حوله وحاولوا تهريبه إلى مكان آمن وراء المسرح. تقول سلافاتينسكايا «ذهب إلى غرفة ملابس الفنانين وطلب منهم أن يأتوا بي». ومجددًا، لجأ ستالين إلى التنكّر، لكنه استطاع أن يقول لتاتيانا إنه «زار مالينوفسكي قبل الحفلة وتمت ملاحقته من هناك». ارتدى ستالين ثوبا طويلًا. وهو خارج من غرفة الملابس، لاحظ شرطي سري أحذيته الكبيرة (وبالطبع شاربيه!). «قبض عليه الشرطي بالصراخ».

«دجوغاشفيلي، أخيرًا قبضنا عليك!».

«لست دجوغاشفيلي. اسمي إيفانوف»، أجاب ستالين.

«أخبر هذه القصص لجدّتك!».

انتهى الأمر.

«طلب منه عميلان سريان أن يذهب معهما. جرى الأمر كله بهدوء. واستمرت الحفلة الراقصة». أسرع مالينوفسكي «وراء الرفيق ستالين «محتجًا» على إيقافه وواعدًا باتخاذ إجراءات لإطلاق سراحه...».

كتب لينين ببراءة إلى الخائن «لمناقشة كيفية إحباط أي اعتقالات أخرى». قلق لينين وكروبسكايا من أن «فاسيلي» (ستالين) هو

«محميّ جيدًا». وقد تأخر الوقت:

«لماذا لا توجد أخبار عن فاسيلي؟ ما الذي حصل له؟ نحن قلقون».

نظر إلى اعتقال ستالين كنجاح كاف بالنسبة إلى مدير الشرطة بيليتسكي لإعلام وزير الشؤون الداخلية ماكلاكوف بنفسه، الذي أكّد في 7 حزيران/يونيو 1913 توصية اللجنة الخاصة: حكم على ج. ف. دجوغاشفيلي بالسجن لأربع سنين في توروخانسك، وهو عالم سيبيري مظلم من الفجر الجليدي، الذي نسيته الحضارة[360].

الجزء الرابع

فوق هذه الأرض... كالشبح

يجوب من باب إلى باب

ماسكًا العود... في يده

يجعله يترنم بعذوبة بألحان

حالمة كشعاع من نور الشمس،

تحس فيه بثقة النفس

والحب العميق

أسر صوته قلوب الكثيرين

نبض، تحول إلى حجر

أنار عقول الكثيرين

وتحول إلى ظلمة أبدية

لكن بدلًا من التمجيد

كلما تحركت القيثارة

احتشدت الجماهير أمام المنبوذ

ملأوا الوعاء بالسم...

قالوا له: اشرب هذا،

أيها الملعون، هذا نصيبك المحتوم!

لا نريد حقيقتك ولا ألحانك السماوية!

سوسيلو (جوزيف ستالين)

(33)

«حبيبتي، أنا في ضِيق شديد»

كشفت الباخرة، التي نقلت ستالين ببطء عبر نهر ينسي من كراسنويارسك في أواسط تموز/يوليو 1913، سيبيريا بعزلتها التي لا يمكن تخيلها وضخامتها الهائلة.

كانت وجهته، توروكهانسك، وهي أكبر من بريطانيا وفرنسا وألمانيا مجتمعة، وبرغم ذلك يسكنها 12 ألف شخص فقط.

تدفق نهير ينسي من خلال أودية ضيقة ذات منحدرات مرتفعة، حتى يتسع بعيدًا فيتمكن المرء من رؤية اتساعه المتلألئ دون رؤية أي يابسة على الإطلاق. كانت غابة سيبريا كثيرة التلال، تملأها أشجار الصنوبر الكثيفة التي تتسلق إلى سلاسل من سهول جبلية منبسطة. خضراء وخصبة في الصيف، ولكنها جرداء وبيضاء بجليد شتائها الذي يستمر تسعة أشهر في السنة عندما تنخفض الحرارة إلى ما دون الستين درجة تحت الصفر. وبين قرى الفلاحين والمُدانين، تناثرت في المساحات الشاسعة بعض الخيام وحيوانات الرّنة الخاصة بقبائل التنغوس والأوستياك الشامانيّين.

إن لعبة الهرب ثم الاعتقال ثم الهرب مجددًا، قد انتهت. وهذه كما

وصفها روبرت سيرفيس، «مخيم اعتقال بحواجز أرضية». في هذه المرة، برغم أن ستالين لم يدرك ذلك بعد، كان للأوتوقراطية نيات صادقة وصريحة معه. استغرق منه أكثر من أسبوع من بيتسبيرغ للوصول إلى العاصمة الإقليمية، كراسنويارسك، ومن هناك أُرسل شمالًا إلى توروكهانسك. أصبحت موطن ستالين لمدة أربع سنين، إلا أنها دخلت قلبه ولن تغادره إطلاقًا.

بعد سفرٍ استمر ستة وعشرين يومًا، نزل من السفينة في العاشر من آب/أغسطس في قرية موناستيرسكو؟[361]، عاصمة إقليم توروكهانسك.

كتب إلى زينوفيف (ولينين) في كراكو، «كما ترون، أنا في توروكهانسك. هل وصلتكما رسالتي التي بعثتها من الطريق؟ لقد كنت مريضًا. أحتاج إلى فترة للشفاء.

أرسلا إلي بعض المال». كان يخطط مسبقًا للهرب. «إن احتجتما إلى أي مساعدة، فأَعلماني وسآتي على الفور».

كان لينين بحاجة إلى مساعدته حقًا. ففي السابع والعشرين من تموز/يوليو، كان قد عُقد اجتماع لمجلس المدينة وأمر فيه بأن يعود ستالين وسفيردلوف من المنفى.

أرسل إلى كل منهما ستين روبلًا، إلا أن مالينوفسكي خانهما مجددًا وكشف الخطة لقسم الشرطة السرية، أوخرانا، التي بعثت ببرقية إلى قائد شرطة توروكهانسك إيفان كيبيروف تحذره فيها من أن ستالين قد هرب من تنفيذ الحكم. كان ضباط تلك الأماكن

هم أنفسهم منفيون بالفعل: كيبيروف نفسه، من أوسيتيا، كان قد خُلع من منصبه في شرطة باكو وعُيّن في توروكهانسك لجنح غير معروفة. وربما بسبب أصولهما المشتركة من أوسيتيا، ناصرا ستالين.

حُدد لسوسو البقاء في ميروديخا، وهي قرية صغيرة إلى الجنوب حيث مد نفوذه سريعًا. كان المنفي الذي يدعى إينوكنتي دوبروفينسكي، قد غرق في النهر ذلك الصيف، تاركًا خلفه مكتبة مثيرة للإعجاب. تقضي قواعد التشريفات الخاصة بالمنفيين تقاسم مكتبات الموتى منهم، إلا أن ستالين صادر الكتب، ورفض مشاركتها مع أحد، ثم بدأ بقراءتها بنهم شديد. كانت حياة المنفيين تدور حول هذا النوع فقط من الصراع التافه الذي امتلك ستالين الخبرة المتميزة في إثارته. شعر المنفيون الآخرون بالغضب الشديد - اشتكوا عليه وقاطعوه. تواجه فيليب زاكهاروف، البولشفي، مع سارق الكتب، لكن ستالين تعامل مع زائره المتجرئ كما يستقبل الجنرال الديكتاتوري الجندي الذي أظهر قلة الاحترام بالمثول أمامه بطلب. تصرف ستالين مثل خوزيان، القائد، قبل زمن طويل من أن يصبح ديكتاتورًا لروسيا - فهو في الحقيقية يفعل ذلك منذ الطفولة.

بعد أسبوعين فقط، توجب نقله (مع مكتبته الجديدة حتمًا) إلى قرية أخرى، هي كوستينو. وهناك وجد أربعة منفيين آخرين، وأخذ هذا الأستاذ المخفق يقضي وقته في تعليم القراءة لمجرمين من جورجيا. كما علِم سريعًا بأن زميله القديم في السكن سفيردلوف،

كان في الجوار في سيليفانيكا[362].

في العشرين من أيلول/سبتمبر تقريبًا، قام ستالين بزيارة سفيردلوف، الذي كان يعيش في غرفة حمّام قروية. وأثناء مكوثهما معًا في ذلك الحمام المُحول، حلما بالهرب. «كنت قد ودّعت للتو فاسكا [ستالين]، ضيفي هنا لمدة أسبوع»، قال سفيردلوف لمالينوفسكي، آخر قائد شيوعي حرّ في روسيا. «إن كنت تملك بعض المال لي أو «لفاسكا» (ربما كانوا قد أرسلوا بعضًا منه)، فأرسله... كتبنا الأسبوع الماضي بطلب بعض الصحف والمجلات. ابذل ما بوسعك». كان مالينوفسكي بالتأكيد يبذل ما بوسعه لخيانة هذين الهاربين المفعمين بالأمل.

في الأول من تشرين الأول/أكتوبر، اقترح لينين ومجلس المدينة مجددًا، كرد على عرض ستالين لزينوفيف، تحريره هو وسفيردلوف، مخصصين 100 روبل لهذا المشروع. وفي غضون تسعة عشر يوما، كان ستالين قد تلقى عرضا من رفيق في بيترسبيرغ للهرب إلى العاصمة. تحضر ستالين وسفيردلوف لهذا الهرب المليء بالتحدي، بإنفاق كافة أموالهما وائتمانهما. زودهما المدير البولشفي للشركة الكندية لتجارة الفرو (ريفيلون) بالطحين والسكر والشاي والتبغ؛ وتبرع الطبيب المحلي بالأدوية؛ وآخرون زوروا جوازات السفر.

أصبح الاختصاصي في علم الهرب، جاهزًا تقريبًا، لكن الشتاء يتقدم الآن إلى غابة الصنوبر. أصبح الأمر أكثر صعوبة وإنهاكًا من أي شيء شهده الجورجي من قبل.

وسريعًا ما أصبح في أدنى منحدرات حياته حتى الآن. إن الحياة اليومية في توروكهانسك، عُني بها أن تكون صراعًا. وفي حال كانت حياة معظم المنفيين من قبل امبراطور روسيا أشبه بالإجازة، فإن توروكهانسك هي الموت البطيء: توفي العديد من المنفيين هناك بسبب أحوال الطقس القاسية. وبحلول أول تشرين الثاني/نوفمبر، كانت الحرارة 33 درجة تحت الصفر، وتتجه إلى خمسين درجة تحت الصفر. تجمد اللعاب على الشفاه، وتبلورت الأنفاس. جعل البرد المعيشة أكثر غلاءً. وكتب ستالين مناشدًا صديقته تاتيانا سلافاتينسكايا. وذعره واضح:

«تاتيانا إلكساندروفنا، أشعر بالخجل الشديد من كتابة هذا، لكن ليس لدي خيار آخر - إن حاجتي مُلحة! لا أملك أي نقود. لقد فرغت جميع المؤن التي أملكها. كان لدي بعض المال، لكنني أنفقت كل شيء على الملابس السميكة والأحذية ومؤن الطعام التي أصبحت باهظة الثمن هنا... أقسم إني لا أعرف ما الذي سيحدث لي.

هل بإمكانك إزعاج بعض الأصدقاء وإرسال 30 روبلًا إلي؟ وربما المزيد في ما بعد. ستكون سبب خلاصي، وكلما كان ذلك أسرع فهو أفضل، بالنظر إلى أن الشتاء قد حل قاسيًا (درجة الحرارة البارحة 33 درجة تحت الصفر)... آمل أن تتمكني من القيام بذلك. لذا، عزيزتي، ابدئي بذلك. وإلا فإن قوقازي مقايضة الكلاشينكوف سيهلك»...

لم ترسل إليه تاتيانا ملابسه القديمة وحسب، بل اشترت له أيضًا

ملابس داخلية شتوية. وعندما وصلت، شعر بالإثارة: «عزيزتي تاتيانا، وصلني الطرد. لكني لم أطلب ملابس جديدة، الملابس القديمة فقط، وبرغم ذلك، أنفقت أموالك على ملابس جديدة. حبيبتي، أشعر بالخزي لأنك أنت بحاجة إلى المال، لكني لا أعرف كيف أشكرك!». حتى مع ملابسه الجديدة، طلب ستالين من تاتيانا بعض المال: «حبيبتي، إن حاجتي تزداد مع مضي كل ساعة. أنا في ضيق شديد: والأسوأ من كل شيء هو مرضي، سعال في الرئتين. أحتاج إلى الحليب والمال. لا أملك أيا منهما. حبيبتي، إن وجدتِ مالًا، أَرسليه على الفور. إن الانتظار لفترة أطول أمر لا يُحتَمل»...

لابد من أنه كان يبعث الرسائل إلى جميع أصدقائه ولا سيما مالينوفسكي، الرجل نفسه الذي وضعه في سيبيريا:

«مرحبا، صديقي، أشعر بالقليل من الاستياء بالكتابة إليك، لكن الحاجة ضرورية. لم أعانِ مسبقًا أي وضع بغيض كهذا. لقد أنفقت جميع أموالي، أعاني سعالًا شديدًا، متزامنًا مع درجات الحرارة المنخفضة (37 درجة تحت الصفر)، وتدهور عام في صحتي. لا أملك أي مؤونة، ولا خبزًا أو سكرًا أو لحمًا أو كيروسينًا. لقد أنفقت جميع أموالي على حاجيات الحياة والملابس والأحذية... أحتاج إلى الحليب، وخشب الوقود، لكن... المال! لقد نفد المالي مني، يا صديقي. لا أعرف كيف سأقضي فصل الشتاء... لا أملك عائلة ثرية أو أصدقاء، ليس لدي أحد أطلب منه، لذا أكتب إليك مستغيثًا...».

اقترح ستالين على مالينوفسكي أن يطلب من المنشفي كارلو تشاكيدزي، الذي كان قد عذّبه في باتومي، «ليس فقط بصفته رفيقي، بل لأنه رئيس الحزب. لا أريد أن أموت هنا من دون أن أبعث إليك حتى برسالة. إن المشكلة ملحة لأن الانتظار يعني التضور من الجوع، وأنا ضعيف ومريض مسبقًا». كان قد حصل على 44 روبلًا من الخارج، من بيرني في سويسرا، ولا شيء غيرها. حاول جمع المال بطريقة أخرى. زعم زينوفيف أنهم كانوا ينشرون مقالة عن قومياته على شكل كتيب:

«إذًا، آمل (أملك الحق في أن آمل) أجرًا لذلك (فالمال هو عصب الحياة في هذا المكان المشؤوم، حيث لا وجود لشيء سوى السمك). آمل أنه لو حدث ذلك، فستدافع عني وتبعث إلي بالأجر... أناشدك، اللعنة... هل يجب عليّ الخمول هنا لأربع سنين أخرى؟ جوزيف».

أجاب مالينوفسكي بصيغة واضحة: «أخي العزيز، سأبيع الحصان: لقد طلبت 100 روبل من أجل ذلك».

وبرغم ذلك، وبرغم وصول تمويل الإنقاذ بمئة روبل، تم إرساله إلى سفيردلوف. استاء ستالين لذلك بشدة: أيريدون سفيردلوف فقط وليس هو؟

لكن الأحوال تطورت قليلًا. أجاب زينوفيف بأنهم كانوا ينشرون كتيب ستالين. حصل على 25 روبلًا من باداييف، وهو نائب في الدوما (البرلمان)، لكنه كان بحاجة إلى المزيد. لابد من أنه كان قد كتب إلى جورجيا، إلى والدته وإلى عائلة سفانيدز، ذلك أنه

تلقى طردًا من تيفليس، وكتب مناشدًا عائلة أليليفا أيضًا.

لم تصل الكتب والأموال المطلوبة من زينوفيف. يئس ستالين مجددًا: «كتبت أنك سترسل الدين بكميات صغيرة. أرسلها بأسرع ما يمكن مهما كان صغر تلك الكميات. إني بحاجة ماسة إلى المال. إن الأمر سيكون أفضل لولا مرضي الشديد الذي يتطلب المال... أنا بالانتظار».

كان ستالين يكتب مقالة أخرى بعنوان «الاستقلال الوطني - الثقافي»، وكان سيرسلها، من خلال سيرجي أليليفا، إلى ترويانوفسكي لصحيفته «بروسفيتشيني».

لكنه أصيب باستياء كبير من زينوفيف، ليكتب إليه في الحادي عشر من كانون الثاني/يناير 1914، مشيرًا إلى نفسه بضمير الغائب: «لماذا التزمت الصمت، يا صديقي؟ لم أستلم رسالة منك منذ ثلاثة أشهر. ستالين... يأمل أن يحصل على الأجر المناسب، وبذلك لن يعود بحاجة إلى طلب المال من أحد. أعتقد أنه يمتلك الحق في التفكير في ذلك. لم ينسَ ستالين أبدًا معاملته على يدي زينوفيف، الخطيب المؤثر واللاجئ اليهودي المتكبر، تلك الأمور التي احتقرها».

في كانون الثاني/يناير 1914، بعد ستة أشهر من القلق والنضال، بدأت الأموال بالتدفق: نقل الشرطي كيبيروف إلى رؤسائه أن ستالين قد تلقى 50 روبلًا من بيترسبيرغ، و10 روبلات من ساشيكو (سفانيدز) مونوسليدز في تيفليس، 25 من باداييف، بالإضافة إلى 55 أخرى من بيترسبيرغ، ما يكفيه تقريبا لشراء

حذاء للهرب.

عرف مدير الشرطة الملكي، بيليتسكي، (ربما من مالينوفسكي) أن الهرب أصبح وشيكًا. بعث ببرقية إلى توروكهانسك بأن كلًا من ستالين وسفيردلوف قد تلقيا 50 روبلًا إضافية للتجهيز للهرب. وأكد مخبر محلي من أوخرانا أن دجوغاشفيلي وسفيردلوف يفكران في الهرب... على أول باخرة عبر نهر ينسي هذا الصيف. أمر بيليتسكي: اعمل كافة الاحتياطات لمنع هذا! قرر الأوخراني وضع دجوغاشفيلي وسفيردلوف في قرية في الشمال، حيث لا وجود لأي منفيين آخرين، وإلحاق مفتشين لمراقبتهما على نحو خاص.

«كانت تلك أخبارًا رهيبة. تم نقلي أنا ودجوغاشفيلي إلى حوالي فيرستًا نحو الشمال؛ 80 فيرستًا شمال الدائرة القطبية الشمالية»، قال سفيردلوف الكئيب لأخته سارة، لقد أُجبرنا على الابتعاد حتى عن مكتب البريد. يأتي البريد مرة واحدة في الشهر مشيًا على الأقدام لثماني أو تسع مرات فقط في السنة... اسم المكان هو كوريكا».

لقد تم إبعاد ستالين[363] إلى أقصى مكان في المنطقة القطبية الشمالية[[364]]؟

(34)

1914: الكوميديا الجنسية في القطب الشمالي

في حال أطلق ستالين على كوستينو «المكان المشؤوم»، فإن كوريكا هي حفرة التجمد المروعة: مكان يعتبر فيه المرء نفسه منسيًا بالكامل، بل يمكن أن يفقد فيه عقله أيضًا: إن عزلتها الموحشة واكتفاءها الذاتي الإجباري، سيظلان مع ستالين طوال حياته. في آذار/مارس 1914، تم نقله هو وسفيردلوف شمالًا على عربة يجرها حصان مع ضابطي الشرطة المسلحين، لاليتن وبوبوف.

وصلوا هناك ليجدوا أن اسم القرية كبير جدًا على كوريكا، وبدا جميع سكانها أقرباء فعليًا. تتألف من ستة وسبعين قرويًا، موزعين بين ثمانية وثلاثين رجلًا وتسع وعشرين امرأة، جميعهم محشورون في ثماني عزب متداعية للسقوط، وهي بيوت قروية خشبية صغيرة، أشبه بالأكواخ منها بالمنازل. وينتمي معظم سكان هذه القرية الصغيرة المهجّنة إلى ثلاث عائلات؛ هي تاراسيف وسالتيكوف وأيتام عائلة بيربريغن السبعة[365].

* * *

«كنت في أحد أيام الاثنين، أغلي الماء للاغتسال»، قالت أنفيسا تاراسيف[[366]]؟ «عندما رأيت رجلًا - بلحية وشعر داكنين

كثيفين - يدخل مع صندوق صغير وفراش محبوك. «مرحبًا كوزيناكا [ربة المنزل]، سأمكث معكم»، قال، ثم وضع حقيبته كأنه كان يعيش معنا دائمًا. لعب مع الأطفال و... عندما عاد الرجال، قال، «أنا من بيترسبيرغ. اسمي هو جوزيف دجوغاشفيلي».

انتقل ستالين وسفيردلوف إلى عزبة ألكسي وأنفيسا تاراسيف. جرت الأمور بشكل جيد في البداية. تعايش المنفيان بسهولة مع تاراسيف، الذي وافق على تلقي حوالتهما المالية. كان لا يزال الطقس باردًا هناك، لكن الثلج يذوب. إن الحياة في كوريكا محكومة بالطقس: عندما يتجمد نهر ينيسي، يسافر المحليون فوق النهر المتجمد بواسطة العربات الجليدية، يجرها فريق من الرنة والكلاب. وبعدها يأتي طقس الطرق السيئة عندما تصبح الطرق مُوحلة جدًا وغير سالكة. وفي أيار/مايو، تبدأ البواخر بالتجول على النهر جيئة وذهابًا لبضعة أشهر؛ بعدها يتنقل المحليون على القوارب باتجاه مصب النهر، لتسحبهم من الضفاف فرق من الكلاب، إلى أن يعود التجمد من جديد.

إن الرنة وذئاب الثلج والتنغوس، وحدها القادرة على العمل في أواسط الشتاء القاسي. عندما يتوجب على الجميع ارتداء معاطف من فرو الرنة. لاحظت ليديا بيربريغن البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، وهي من عائلة الأيتام، أن ستالين لا يرتدي سوى معطف خفيف. زودته على الفور بلباس كامل - من الحذاء حتى القبعة - مصنوع من فرو الرنة.

في المكان الجديد، يكون الاستقرار صعبًا جدًا. كتب سفيردلوف في الثاني والعشرين من آذار/مارس. «يكفي سوءًا أني لم أكن أملك غرفة خاصة». كان النزيلان الشيوعيان ودودين مع بعضهما البعض في البداية: نحن اثنان نتشارك فيها. صديقي القديم، دجوغاشفيلي، من جورجيا، هنا معي: التقينا في أماكن نفي في السابق. إنه صديق جيد، لكن - حتى بعد قضاء عشرة أيام معًا فقط، كان هناك لكن مشددة - إنه منعزل[367] وأحادي جدًا في كل نواحي الحياة اليومية.

«والأسوأ هو أن عائلة تاراسيف تمتلك فقسا صغيرًا من الأطفال المسببين لضجة كبيرة. تجاور غرفتنا غرفة الضيوف»، تذمر سفيردلوف في الرسالة، «لا نملك مدخلًا منفصلًا. الأطفال في كل مكان طوال اليوم، يزعجوننا». لكن سفيردلوف كان أيضًا مستاءً من صمت رجال قبيلة تونغوس، الذين كانوا يزورون المنفيين، مرتدين ملابس من الرأس إلى القدمين مصنوعة من فرو الرنة. أصبح أهالي تونغوس جزءًا من حياة ستالين. كانوا صارمين، صيادين ورعاة بدويين بملامح شرقية، يعيشون بانسجام مع حيوانات الرنة، ويؤمنون بمزيج من الأورثوذكسية البدائية والروحانية القديمة، يترجم كلامهم الشامانات (وهم كهنة يستخدمون السحر لمعالجة المرضى، لكشف الغيب، والسيطرة على الأحداث) - إن كلمة شامان هي في الواقع كلمة من أصل تونغوسي.

يجلس أهل تونغوس، ويبقون صامتين لنصف ساعة قبل أن

ينهضوا ويقولوا «وداعًا، يجب أن نذهب». يأتون في المساء، عند حلول الوقت الأمثل للدراسة، تتنهد سفيردلوف. إلا أن ستالين تصاحب مع هؤلاء الرجال، على نحو مختصر تمامًا، كما هي حاله.

لم يكن التوتر ناجمًا فقط عن الأطفال والأعمال المنزلية. فقد كان ستالين النزق والحقود قلقًا بشأن المال الذي يتم إرساله إلى سفيردلوف كتمويل للهرب، وليس إليه. فبعد أيام من وصوله، لم يكن ستالين قد تلقى المئة روبل التي وعده بها مالينوفسكي، ولا الأجور والكتب من زينوفيف. هل كان زينوفيف يقلل من احترامه؟ هل كان سفيردلوف يخونه؟

الجورجي واليهودي، محور الارتكاز الضائع في الحزب البولشفي في الامبراطورية الروسية، أسيران في قرية بثمانية أصفاد يفصلها عن أوروبا العديد من الفروق الزمنية، بدآ سريعًا في إثارة غضب بعضهما البعض في أحد جوانب غرفتهما الداكنة الصغيرة، كتب سفيردلوف عن أنانية زميله في الغرفة، بينما كتب ستالين على الجانب الآخر، بأسوأ نقد لاذع مضطرب، لمالينوفسكي يطلب منه تفصيل ما حصل للمئة روبل:

«قبل خمسة أشهر، تلقيت دعوة من رفيق لي في بيترسبيرغ للذهاب إلى هناك والعثور على مال من أجل الرحلة. أجبته قبل أربعة أشهر، لكن لم أحصل على أي رد. هل يمكنك شرح سوء التفاهم هذا؟ ثم، بعد ثلاثة أشهر، وصلتني بطاقة بريدية من كوستيا [يعرض مالينوفسكي بنفسه بيع الحصان... مقابل مئة

روبل]. لم أفهمها، ولم أحصل على المئة روبل. حسنًا، وبعدها، الرفيق أندري [اسم مستعار لسفيردلوف] حصل على هذا المبلغ... لكني أفترض أنه له وحده. لم تصلني أي رسالة من كوستيا منذ ذلك الحين. لم يصلني شيء من أختي ناديا [كوربسكي] طوال أربعة أشهر».

استنتج ستالين أنهم اختاروا رجلًا آخر لإطلاق سراحه: سفيردلوف. «هل أنا محق، يا أخي؟ أطلب، يا عزيزي، جوابًا دقيقًا مباشرًا لأني أحب الوضوح تمامًا، كما آمل أن تحب الوضوح أنت»[368].

* * *

لم يكن هناك رجلان يحبان الوضوح أقل من ستالين ومالينوفسكي، المتآمرين والمُرائيين الخبيرين في صنع المكائد. وبينما أخذ الأول يغلي باستياء من بعيد، كان عالم الثاني يتداعى بكامله. هناك سبب مقنع لم يقم مالينوفسكي ببيع الحصان من أجله، أو الرد على رسائل ستالين. كان صديق ستالين الروماني المقرب، مدمن كحول هستيريًا، يتجرع الفودكا بطريقة مزدوجة من قِدر الشاي، وعلى حافة الانهيار العصبي. في النهاية، صرف وزير الداخلية الجديد ومدير الشرطة مالينوفسكي من الخدمة، واستقال من الدوما في الثامن من أيار/مايو 1914. تفجرت قضية مالينوفسكي على نحو شعبي واسع بوجه الحكومة والشرطة.

أما أقوى المدافعين عن مالينوفسكي في الحزب فهو لينين... وستالين. لا بد من أن لينين قد عرف، قال مالينوفسكي في ما بعد، لكنه كان مخطئًا. لم يكن لينين ليصدق الحقيقة. لكنه عزز من أهمية المجد الذي كسبه مالينوفسكي في الدوما ومساعدته على إلحاق الهزيمة (أو الإنهاء عن طريق الاعتقال) بمفاوضي السلام (بمن فيهم ستالين)، ليستنتج أنه في حال كان جاسوسًا، «فإن الشرطة السرية قد كسبت من ذلك أقل مما فعل حزبنا[369]»؟

لم يشك ستالين، المُشخص له بجنون الارتياب، في أكبر خائن في حيلته السياسية. فقد لعبت قضية مالينوفسكي دورها في جعله هو - ورفاقه - مصابين بجنون الارتياب على نحو مهووس. دخل مالينوفسكي الوعي البولشفي، مثل شبح بانكو. أسر التاريخ السوفياتي. ومنذ ذلك الحين، في عالم كونسبيرتسا البولشفي، لم يكن هناك شيء غريب جدًا. وإن كان من الممكن لمالينوفسكي أن يكون خائنًا، فلم لا يكون المسؤولون السوفيات كذلك، لم لا يكون مستشارو القادة كذلك. لم لا يكون زينوفيف وكامينيف وبوكهارين ومعظم المشرّعين الشيوعيين، ليطلق النار عليهم جميعًا كجواسيس في الثلاثينيات بأوامر من ستالين؟[370].

* * *

في المنطقة القطبية الشمالية، أثار ستالين قلق نفسه ورفيقه في الغرفة بشأن المئة روبل المفقودة. «هناك رفيق [في كوريكا]»، قال سفيردلوف، «نعرف بعضنا البعض جيدًا، لكن الشيء

المحزن هو أنه في المنفى يظهر المرء صريحًا، يكشف جميع خصوصياته الصغيرة. والأسوأ هو أن هذه «الأشياء الصغيرة» تهيمن على العلاقة. ليس هناك فرصة كبيرة لإظهار الجانب الجيد».

ومع رحيل الشتاء، حذرت أوخرانا مجددًا في السابع والعشرين من نيسان/أبريل 1914 بأن الشيوعيين يعملون على تنظيم فرار رجلي الحزب المشهورين، سفيردلوف ودجوغاشفيلي. كان ستالين وسفيردلوف قد استعارا قارب فيودور تارسيف عدة مرات، لكن رجال الشرطة قد منعوا الرحلات النهرية. وفي أيار/ مايو، عندما امتلأ ينسي مجددًا بالبواخر، انتقل استياء كوريكا من كآبة البرد إلى وباء البعوض. و«سريعًا ما توقف ستالين عن التحدث معي»، كتب سفيردلوف، و«أعلمني بأنه عليّ تركه وحده والعيش على نحو منفصل». «انتقلنا نحن الاثنين، وجد ستالين ملجأً موقتًا في عزبة فيليب سالتيكوف. لم يفد الانتقال في إنهاء كآبة ستالين القطبية. تعرفين الظروف المروعة التي عشتها في كوريك»، قال سفيردلوف لزوجته كلافيديا، التي كانت في منفى مجاور. «بدا أن الشفقة تمتلك مكانًا في شخصيته، فلم نعد نتكلم أو نلتقي ببعضنا البعض». امتلأت رسائل سفيردلوف بالتوتر والكآبة (والقوائم اللامبالية)، لهذا الوجود الذي لا هدف منه.

«تناولتُ السمك. كانت مالكة الأرض تعد لي الفطائر. كنت أتناول سمك الحفش، والسلمون الأبيض مع البطاطس المخفوقة والكافيار، والحفش المملح، وأحيانًا، كنت أتناولها نيئة. أشعر بأني لا أملك أي طاقة حتى لإضافة الخل. لقد انتهت كل حياتي

الطبيعية. لم أكن أدرس إطلاقًا. أنام في أوقات غريبة. وأحيانًا أمشي طوال الليل، وأحيانًا أنام في العاشرة صباحًا».

لا بد من أن ستالين قد عاش على النحو نفسه، لم تفته الساعات الليلية لسيبيريا.

«في عالم مؤلف من ثمانية أكواخ، لا بد من أن السكان بكاملهم كانوا مدركين هذا الانفصال. لم تنسجم شخصياتنا وحسب»، يقول سفيردلوف نادمًا. لكن ربما كان هناك سبب آخر كبير، لكنه غير محكي لعدم الانسجام هذا: إنه فتاة[371].

* * *

لم يمض وقت طويل على استقرار ستالين وسفيردلوف مع عائلة تاراسيف حتى لاحظ الجورجي تلك الفتاة الشابة بين أيتام عائلة بريبريغان. كانوا خمسة أخوة وأختين، نتاليا وليديا. لم نعرف أي تفاصيل عن كيفية تطور ذلك. لكن في وقت ما من أوائل العام 19[illegible]، أقام ستالين، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، علاقة مع ليديا، البالغ عمرها ثلاثة عشر عامًا.

يمكن تخيل لقطة من ستالين وليديا معًا يترنحان من حفل إلى حفل، حيث تذكر هي الاحتفالات الثملة: كان ستالين في وقت فراغه يحب الذهاب إلى الحفلات الراقصة المسائية، حيث يمكن أن يكون شديد الابتهاج أيضا. أحب الغناء والرقص. كان يحب، على نحو خاص، أغنية: «أنا أحرس الذهب، الذهب... أنا أدفن الذهب، أدفن الذهب، احزري أين، أيتها الآنسة الرقيقة ذات الشعر

الذهبي»... كان كثيرًا ما يشارك في حفلات أعياد الميلاد. تم تدوين ذكريات عشيقة ستالين البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا بعد عشرين سنة، حيث كان في أوج ديكتاتوريته، بينما ظلت هي ربة منزل سيبيرية. إن المسؤول عن تسجيل ذكرياتها لم يكن يجرؤ على تسجيل طريقة إغوائها، إلا أن المذكرات تتسم بنقص لباقتها. «كان يحب الزيارات المفاجئة للأشخاص، «تقول ليديا، وتقصد نفسها. «ويفرط في الشرب أيضا». أكانت تلك هي الطريقة التي أغواها بها - أو هي التي فعلت؟ فالفتيات في أماكن مثل كورياك، ينضجن باكرًا، ولم تبد ليديا إنسانة خجولة.

ربما لم يوافق سفيردلوف على إغواء ستالين لفتاة في الثالثة عشرة من عمرها؛ فتاة مراهقة تقع في حب جورجي في الثلاثينات من عمره. وربما قام ستالين بطرده بعيدًا بهدف التمتع بالمزيد من الخصوصية مع عشيقته الصغيرة. لكن هذا مجرد بداية الفضيحة.

خضع البولشفيان، وهما يتجاهلان بعضهما البعض، لمراقبة شديدة من مفتشي الشرطة السرية، لالتين وبوبوف، ذوي المهمة الواحدة، وهي ضمان عدم هربهما.

وفي حالات حدوث ذلك، يصبح رجال الشرطة إما رفاقًا، وإما خدمًا شخصيين للمنفيين... وإما أعداءهم اللدودين. أصبح إيفان لالتين بلحيته الحمراء وطباعه النزقة عدوًا لستالين على الفور.

وحال خروج ستالين للصيد ببندقيته، اعترضه الشرطي. سُمح له بامتلاك بنادق صيد مع رخصة، لكنه رفض تسليم بندقيته إلى

الشرطي. وفي المشاجرة التالية لذلك، انقض الشرطي لالتين على جوزيف فيساريوفيتش وحاول تخليصه من سلاحه. بدأ القتال. سحب الشرطي سيفه وتمكن من جرح ستالين في يده. بلّغ ستالين عن لالتين إلى الكابتن كيبيروف.

وبحلول أوائل الصيف، مهما يكن التحرك سريًا حول الأكواخ الثمانية، عرف الجميع تقريبا بعشيقة ستالين الصغيرة. ووجد بذلك الشرطي المجلجل بسلاحه فرصته للنيل من الجورجي المتغطرس.

* * *

في أحد الأيام، يذكر فيودور تاراسيف، القروي الوحيد الذي تجرأ على تسجيل القصة، «كان ستالين يمكث في المنزل، يعمل، ولا يغادره. وجد الشرطي هذا مثيرًا للشك وقرر الاطمئنان. من دون أن يطرق الباب، اقتحم الغرفة».

زعم تاراسيف بتحفظ أن ستالين كان يعمل وحسب، وبرغم ذلك وجد المفتش ذلك مثيرًا للشك. شعر ستالين بالغضب الشديد لهذه المقاطعة. أكدت المذكرات على نحو وافق عليه الجميع، هدوء ستالين أثناء إجرائه الأبحاث: لذا هل كان هناك شيء غير اعتيادي في ذلك الحين؟ وأخيرًا، فاجأه رجال الشرطة عمدًا من دون طرق الباب. بدا الأمر كأن الشرطي قد أوقع بستالين وليديا في موقف حرج جدًا.

هاجمه ستالين. سحب الشرطي سيفه مجددًا. وأثناء الشجار التالي، جُرح ستالين من رقبته بالسيف، الأمر الذي أشعل غضبه وأخرج

الشرير داخله!

«رأينا هذا المشهد»، يقول ترافيس». كان الشرطي يهرب بعيدًا في اتجاه نهر ينسي، يلوح بجبن بسيفه أمامه، بينما يطارده الرفيق ستالين بحالة من الاهتياج الشديد والغضب، وقبضتا يديه محكمتا الإطباق».

في حال كان الأمر سرًا، فُضح الآن. وبرغم أن المعتقدات المحلية لا تشجع على إقامة العلاقات مع المنفيين، كان قدر الفتيات المحليات أن يجذبن أولئك الثوريين المتعلمين ذوي الخبرة المحنكة بالحياة وهم في أواسط أعمارهم. هذا الاغتصاب المشروع لم يكن اغتصابًا بالقوة، وإنما إغواء قديم الطراز، لأنه، تبعًا لتحقيقات تالية من قبل رئيس الشرطة السوفياتية السرية إيفان سيروف، فإن ستالين قد بدأ العيش معها. وعلى نحو مفترض، كانت تشاركه غرفته، ولهذا السبب أمسكهما الشرطي معا. وفي تقريره لنيكيتا كروشتشيف وبولتبيرو في العام 1956، الذي ظل سريًا حتى القرن الواحد والعشرين، أشار الجنرال سيروف إلى أن عيشهما معًا أمر مثير للصدمة، تمامًا كالإغواء[372]؟

انتقل ستالين إلى عزبة بيربريغن. كانت هناك غرفتان وسقيفة للماشية في الشتاء. كان الأقارب السبعة ينحشرون في غرفة كئيبة موحشة.

استأجر ستالين الغرفة الثانية القذرة، التي لا يمكن الوصول إليها سوى عن طريق غرفة العائلة والماشية. احتوت فقط على طاولة مغطاة بالصحف، وسرير على حوامل خشبية، وشباك صيد

وحبال وعقد، جميعها من صنع ستالين. كل شيء كان مغطىً بالغبار الأسود بسبب الموقد القصديري الأسود في منتصف الغرفة.

كان زجاج النوافذ محطمًا، لذا أغلقها ستالين بقصاصات من الصحف القديمة أو الألواح الخشبية. النور الوحيد في هذا الشفق القطبي، حيث يدوم الليل أحيانًا طوال اليوم، هو الضوء، لكنه غالبًا ما ينقصه الكيروسين. أما الحمام فهو حمام خارجي. كان أفراد عائلة بيربريغين فقراء وسخين، في أحد الأيام يأكلون حساء الملفوف، وفي التالي، لا شيء. لكنهم امتلكوا بقرة واحدة.

في الليل، كانت ليديا تزحف إلى غرفته، كما يذكر أول مؤرخ لحياة ستالين، إيساد بي، الذي لا بد من أنه تحدث مع منفيين آخرين. ومن دون شك، لم تخجل من ذكر ما هي الملابس الداخلية التي فضلها. كان يرتدي ملابس داخلية بيضاء وقميص بحارة مخططة، وقد أفضت بذلك مع محاورها العام 1952، عندما كان ستالين مبجلًا، كأنه نصف إله.

لم يكن الإخوة مسرورين لهذه العلاقة. هناك إشارات لاستيائهم: كان ستالين يحصل على طعامه وخبزه من المالكة القديمة، وليس من عائلة بيربريغن، برغم أن ليديا زعمت أنسبب هذا هو أن الفتيات صغيرات كثيرًا ولا يعرفن الطهو. لكن، بصفتهن يتيمات، كانت الفتيات يطبخن لأخويهن منذ سن صغيرة. ويبقى الاحتمال الأرجح هو أن سوسو وعشيقته حُرما من طعام العائلة.

ربما كان من الممكن احتمال هذه العلاقة لولا حصول الأسوأ:

حملت ليديا بطفل ستالين. غضب لذلك الأخوة بيربريغن، على الرغم من أن قانون شرعية العلاقة لم يكن مطبقًا بجدية في المجتمعات النائية في المنطقة القطبية الشمالية، حيث تتزوج الفتيات ويرزقن بأطفال في أعمار مبكرة. وبحسب ما ذكره الجنرال سيروف، هدد الشرطي لالتين حتى بعد هربه من الغاضب ستالين، بإثارة دعوى جنائية لعيشه مع فتاة قاصر. وعد ستالين الشرطي بالزواج من فتاة عائلة بيربريغن عندما تصل إلى السن المناسبة. ومجددًا، خطبها ستالين، وقبلت العائلة، سواء أكان بامتنان أم بسخط، بهذه العلاقة[373]؟ وفي المقابل، شارك ستالين أسماكه مع العائلة كفرد منها. في الواقع، عامل ليديا كزوجته الشابة. عندما زارته صديقته القديمة إلزفيتا تاراسيف، أخذ ستالين يصدر أوامره: ليديا، ليديا، لقد جاءت الجدة للشاي! أكرمي ضيافتها.

كان تدخل الشرطي هو القشة الأخيرة. اشتكى ستالين إلى الكابتن كيبروف، الذي ناصر زميله القوقازي. فقد امتلك ستالين قرية كاملة من الشهود على سحب الشرطي قليل الحظ سيفه على المنفي والمطاردة المذلة له على طول ضفة النهر. وبرغم ذلك، تطلب الأمر من ستالين جرأة كبيرة لتقديم شكوى ضد الشرطي في الوقت الذي سيُرزق فيه بطفل من فتاة قاصر. وتمامًا كما هو الأمر مع وباء ستالين بإعجابه بذاته، أجدت الخطة نفعها.

في صيف العام 1914، في شهر حزيران/يونيو تقريبا؛ وافق كيبروف على إبدال لالتين، مخبرًا نائبه، «حسنًا، دعنا نرسل

ميرزليكوف إلى كوريكا. وبالنظر إلى أن دوجاشفيلي مهتم جدًا بإبدال مفتشه، دعنا نبعده عن الطريق». وفي تبادل الأدوار، خشي الشرطي لالتين من سجانه، وذلك لسبب وجيه. وصل بديله، ميخيل ميرزليكوف الآن. أخذ ستالين على الفور دور السيد الممثل للأرستقراطية، بينما أصبح الشرطي هو نفسه الخادم والمنقذ والحارس لما بقي من فترة عقوبته.

ظل ستالين يدرس قضية القوميات، والإنكليزية والألمانية. «عزيزي»، كتب ستالين الأكثر ابتهاجًا الآن إلى زينوفيف في عشرين أيار/مايو، «أدفأ التحيات إليك... أنا أنتظر الكتب... كما أطلب منك أيضًا أن ترسل إلي صحفًا إنكليزية (قديمة أو جديدة، لا يهم - إنها فقط من أجل المطالعة، بالنظر إلى أنه لا يوجد شيء بالإنكليزية هنا، وأخشى أن أفقد كامل مهاراتي باللغة الإنكليزية إن لم أتدرب»...

أما خطبة سوسو لليديا، فقد كانت العلاقة بحد ذاتها في الواقع، تسلية موقتة سوف يتم التخلي عنها أثناء طريقه في المهمة الثورية. أما الحمل فيفترض أنه أمر مزعج. وبرغم ذلك، زعم المحليون أن ليديا كانت واقعة في حب ستالين. ولم يكن ذلك آخر حمل لها منه[374].

في أواخر الصيف، غادر سفيردلوف كوريكا وانتقل إلى سيلفانيكا، في الوقت الذي وصل فيه سورين سباندريان، أفضل صديق لستالين، إلى موناستيرسكوي المجاورة.

في أواخر آب/أغسطس 1914، استقل ستالين القارب باتجاه

مصب النهر للاجتماع مع سباندريان. وفي الوقت نفسه الذي تم فيه اغتيال الأرشيدوك فرانز فيرديناند، وريث عرش هابسبيرغ، في سارايفو، تلك الطلقة التي أرسلت روسيا والأمم العظمى إلى الحرب العالمية الأولى: دفع مصاصو الدماء البرجوازيون في البلدان المحبة للقتال، العالم إلى مجازر دموية. كتب ستالين قتل، دمار، تجويع... وعبودية بالجملة، لتتمكن حفنة صغيرة من السارقين المتوجين بالعرش أو غير المتوجين من نهب الأراضي وجمع ملايين الأموال غير المحدودة.

وبانتشار النور فوق أوروبا بكاملها، وجد ستالين نفسه بعيدًا، منسيًا، غاضبًا ومنشغلًا ضد إرادته مع فتاة مراهقة قروية حبلى، وفي منتصف لاشي، سوى فضيحة جنسية قطبية. لم يكن العام 1914 أفضل أوقاته. ومع تصارع القوى العظمى، ابتلعت الثلوج الشمس والأخبار من العالم الخارجي. واختفى ستالين في شتاء سيبريا[375].

(35)

الصيّاد

بصفته المنفي الوحيد في كوريكا ذات النور الشفقي والثلج المحيط، بدأ ستالين في العيش على مقربة من قبائل تونغوس والأستياك البدائية. لم يكن هناك سوى القليل للقيام به، إلا صراع البقاء: حيث تعوي ذئاب السهول القطبية عند أطراف القرية. عندما كان ستالين يذهب إلى المرحاض الخارجي، يطلق النار من بندقيته لإخافة الذئاب. وعندما يسافر، تنطلق عربة الجليد مسرعة تحت عويل الذئاب اللامتناهي. كانت الذئاب في كوريكا قد اقتحمت وعي ستالين، فدائمًا ما كانت تحوم بعداء حول كوخه السيبيري. أخذ يرسمها على الوثائق أثناء الاجتماعات، وخاصة عند انتهاء حياته عندما نظم آخر حملة ثورية: مؤامرة الأطباء. في منفاه الأخير، قال للزوار، «اعتاد القرويون على إطلاق النار على الذئاب المجنونة».

وبرغم ذلك، تكيّف ستالين مع الأمر نوعًا ما: بدأ يستمتع بكوريكا. وعلى نحو غريب، أصبحت من أسعد أيام حياته الكئيبة. أما أفضل رفاقه فهو كلب صغير يدعى ستيبان تيموفيفيش، أو تيشكا كاختصار، قدمه السكان المحليون إليه كهدية؛ وصياد تونغوسي يدعى مارتين بيتيرين، ومفتش الشرطة ميرزلياكوف. كان حمل ليديا يتضح على نحو متزايد. وازدادت إمكانية احتمال سيبريا ذلك أن ستالين بدأ الآن بتلقي حوالات مالية منتظمة: بين عامي

19 و1916، تلقى عشرة، بقيمة تتجاوز المئة روبل بالإجمال، لذا تمكن من شراء الطعام والملابس ودفع الرشى عند الضرورة [376]؟.

أصبح الصياد المنعزل، دورًا ناسب صورته عن نفسه كرجل مبعوث في مهمة مقدسة، ينطلق في الثلوج بصحبة بندقيته، لكنه لا يرتبط مع أحد سوى إيمانه، ينقصه كل تلك الأحاسيس البرجوازية، لكنه دائما ما يعرض جموده القطبي حتى عندما تقلقه المأساة. وقد ظل، طوال حياته، يمتع عائلة أليليفا أو بولتبورو بأساطير مغامراته السيبيرية. حتى عندما حكم روسيا، ظل ذلك الصيادَ المنعزل.

* * *

أوسيب، أو بوكماركد أوسكا، كما يسمونه، يغامر وحيدًا في لباس يغطيه من رأسه إلى قدميه بفرو الرنة. أصبح صيادًا محترفًا وصديقًا مقربًا لرجال القبيلة. لم يسمح له لالتين بامتلاك بندقية، لذا، كما يذكر واحد من المحليين، أخذنا البندقية إلى الغابة وتركناها على حافة شجرة متفق عليها مسبقًا ليعثر عليها هو. كان يطلق النار على الذئاب القطبية وطيور الحجل والبط أثناء الرحلات الطويلة.

بدأ القرويون يحترمون بوكماركد أوسكا مع غليونه وكتبه. «أحبه السكان المحليون»، يقول ميرزلياكوف. كانوا يزورونه ويجلسون طوال الليل معه. وكان يزورهم هو أيضًا ويحضر حفلاتهم

الصاخبة. كانوا يحضرون له السمك ولحم الغزال الذي كان يشتريه. أعجب جدًا بهدوئهم الموجز، وذُهل باحترامهم للشامان ومعتقداتهم الراسخة، بالرغم من الأورثوذكسية الاسمية، في الآلهة والأرواح التي سكنت أراضي سيبيريا. وبالإضافة إلى هذا كله، أخذ يدرس تقنيات صيدهم للسمك والحيوانات، وينسخها.

كان السمك والرنة سلعتهما المستمرة. كانت الرنة، القادرة على العيش على أغطية من الأشنة، تُعامل باحترام مقدس من قبل رجال القبيلة، حيث تعتبر كوسيلة مواصلات (تجر العربات الجليدية)، وللباس (الفرو)، والاستثمار (يملك الرؤساء الأغنياء قطعانًا يصل عددها إلى 10 آلاف) والطعام (لحم الرنة المغلي)، كل ذلك في شيء واحد. علّم بيتران، ربما من الأوستياك، صديقه فن اصطياد السمك من نهر ينسي. أعد ستالين مشروع صيده وحده، وحفر ثقبه الجليدي الشخصي، يذكر ميرزلياكوف، الذي تعتبر مذكراته، المسجلة العام 1936، أفضل سجل لحياته في كوريكا. تبعًا لقصة ستالين القوطية نوعًا ما، فإنه تعلم اصطياد السمك ببراعة في حفرته الجليدية، التي همس عنها أهالي أوستياك برهبة: «أوه، إن الأرواح السماوية تمتلكه». استمتع ستالين بطعامه من السمك: هناك الكثير من الأسماك، لكن المالحة ثمينة بقدر الذهب، ولا يتوجب عليهم سوى رمي السمك في ملحق المنزل الخارجي حيث تصل الحرارة إلى ما دون العشرين درجة، يكومونها كقطع متجمدة من الخشب. وبعدها يكسرون قطع الخشب، ويتركونها تذوب في أفواهنا. وبدأ أيضًا بالتقاط أسماك الحفش الضخمة.

يذكر، في إحدى المرات، «واجهت عاصفة عند النهر. بدا كأنه قد انتهى أمري، لكني تمكنت من الوصول إلى الضفة. وفي وقت آخر، كان عائدًا إلى المنزل مع أصدقائه من الأوستياك مع حظ وافر من الحفش والسلمون المالح عندما انفصل عن الآخرين. عندها هبت عاصفة قوية على السهل القطبي فجأة. كانت كوريكا لا تزال بعيدة، لكنه لن يتخلى عن أسماكه، التي ستعمل على إعالته لأسابيع، لذا أكمل مشيه بإجهاد حتى رأى أجسادًا تناديه من بعيد، لكنها اختفت:

كانوا رفاقه، لكن، عند رؤيته مغطى من رأسه إلى قدميه بالجليد الأبيض، اعتقدوا أنه روح شريرة وهربوا. وعندما وصل أخيرًا إلى كوخه واندفع فيه، صاح رجال الأوستيك: هل هذا أنت، أوسيب؟

بالطبع إنه أنا وأنا لست روح الغابة! أجابهم قبل أن يغط في نوم عميق لثماني عشرة ساعة.

لم يكن يتوهم أنه في خطر - فقد اعتاد رجال القبيلة على فقدان الرجال في رحلات صيد السمك. أذكر أنه في الربيع أيام المياه المرتفعة، خرجنا ثلاثين رجلًا للصيد، وفي المساء عندما عدنا، نقصنا واحدًا، يذكر ستالين. كانوا يشرحون عادة أن رفيقهم قد ظل هناك. شعر ستالين بالذهول حتى أخبره واحد بأنه قد غرق. إن عدم اكتراثهم قد حير ستالين، لكنهم فسروا ذلك: لماذا نشفق على الرجال؟ يمكننا دائمًا جلب المزيد منهم. أما الحصان، فحاول جلب حصان! استخدم ستالين هذا القول في خطاب العام 1935

ليوضح قيمة الإنسان، لكن التجربة الثانية في الحقيقة هي التي علمته مقدار رخصه.

ذهبت في رحلة صيد في الشتاء، قال ستالين للرفاق خروشيف وبيريا في أحد اجتماعات العشاء بعد الحرب العالمية الثانية، «أخذت بندقيتي، وقطعنا نهر ينسي على أدوات التزلج على الثلج لحوالي 12 فرستًا، ورأينا بعض طيور الحجل على الشجرة. كنت أملك اثنتي عشرة طلقة وهناك أربعة وعشرون حجلًا. قتلت اثني عشر منها، وجلس البقية هناك وحسب، لذا اعتقدت أن بإمكاني العودة وإحضار اثنتي عشرة طلقة أخرى. وعندما عدت، كانت لا تزال تجلس هناك».

«لا تزال تجلس هناك»؟ نبهه خروشيف. طلب بيريا من ستالين أن يكمل.

«هذا صحيح»، افتخر ستالين، «لذا قتلت اثنتي عشرة أخرى، قيدتها في حزامي، وسحبتها إلى المنزل معي». عندما قال هذا لأخي زوجته يوري زهادنوف، تباهى في قصته بأنه قتل ثلاثين طيرًا، وكانت الحرارة أربعين تحت الصفر، وأجبرته عاصفة ثلجية هائلة على التخلي عن طيور الحجل والبندقية، وعن الأمل أيضًا. لكن لحسن الحظ، وجدته النساء (ربما ليديا) مغمى عليه تحت الثلج الذي تكدّس فوقه وأنقذته، ونام بعدها لست وثلاثين ساعة[377]؟

«جمع ستالين خزانة دواء صغيرة وأصبح أقرب شيء يعرفه أهالي كوريكا عن الطبيب: ساعد جي. في. الناس بتقديم الدواء،

عالج الجروح باليود ووصف العقاقير. علّم رجال القبيلة الاغتسال»، يقول ميرزلاكوف، و«أذكر مرة كيف غسل واحدًا منهم بالصابون». كان يعاني الروماتيزم، ويشعر المرء المصاب بها بالراحة أثناء الاستحمام، لكن ألمه استمر حتى سن متأخرة، حيث اعتاد أن يجلس على سخانات الكريملين أثناء الاجتماعات الطويلة. كان بارعًا في اللعب مع أطفال تونغوس، يغني ويلهو معهم، وأحيانًا يخبرهم عن طفولته الحزينة هو.

كانت داشا تراسيفا الصغيرة تركب على ظهره، تسحب شعره الداكن السميك، وتصيح، «اصهل كالحصان يا عم!». وعندما مرضت بقرة فيودور تراسيف بالمغص، أثار ستالين إعجابه بالمهارات التي كان قد تعلمها وهو صبي صغير في جورجيا: ذبح البقرة وقطع اللحم إلى شرائح مثل المحترِف فعلًا.

كان ستالين لا يزال يستمتع بالحفلات. في منزل تراسيف، كان الشبان يجتمعون على شكل دائرة للاحتفال. كان ستالين يرقص في المنتصف، ثم يبدأ الغناء. يذكر زائر إلى كوريكا، هو داريا بونامريفا، أن أغنية «أنا أدفن الذهب، أدفن الذهب»، كانت دائمًا أغنيته المفضلة. «كان خبيرًا في الرقص»، تقول أنفيسا تراسيفا، وعلمه للشباب.

أحيانًا، كان الجورجي من الجبال الخضراء القوقازية ينظر إلى الغابة. في هذه الغابة البغيضة، تكون الطبيعة قاحلة غير مثمرة - النهر في الصيف، الثلج في الشتاء، هذا كل ما تقدمه الطبيعة هنا. وقد كتب على نحو متألم لأولغا أليليفا في الخامس والعشرين من

تشرين الثاني/نوفمبر 1915، «سأصاب بالجنون بسبب اشتياقي إلى المناظر الطبيعة»...

كان يقضي الكثير من الوقت وحده أيضًا. يكتب في الليل. «كلبي تيشكا هو رفيقي»، قال ستالين غارقًا في ذكرياته. «في ليالي الشتاء، إن كنت أملك الكيروسين وقادرًا على القراءة والكتابة، يدخل، يضغط بقرب على قدمي ويئن كأنه يتحدث معي. أنحني لأربت على رأسه، وأقول، «هل تشعر بالبرد، تيشكا؟ دفّئ نفسك!». ومزح بأنه كان يحب مناقشة السياسة الدولية مع كلبه، ستيبان تيموفيفيتش، وهو كما يتضح أول ناقد كلبي في العالم. بالنسبة إلى ستالين، تمتلك الحيوانات الأليفة ميزات تفوق تلك التي يمتلكها البشر: تؤمّن تعاطفًا غير أناني وإعجابًا حنونًا، كما أنها لا تخون أسيادها إطلاقًا (ولا تصبح حبلى بسببهم). وبرغم ذلك، يمكنهم التخلي عنها من دون الشعور بالذنب.

كان السكون والعزلة عن اللعبة السياسية، ونقص مواد القراءة، تصيبه بالكآبة على نحو مؤلم، ولا سيما عندما يطيل التفكير بلينين وزينوفيف. هل نسياه؟ أين كانت مقالته الأخيرة؟ لماذا لم يتلق الأجر؟ في شتاء العام 1915، سألهم على نحو ساخر: كيف حالي؟ ماذا أفعل؟ أنا لست بخير. لا أفعل شيئًا تقريبًا. وماذا يمكنني أن أفعل مع ذلك النقص الكامل في الكتب الجادة؟... في جميع أماكن النفي التي ذهبت إليها، لم أشعر ببؤس الحياة كما هي الحال هنا.

حتى هذا الماركسي المتعصب، المقتنع بأن تطور التاريخ سيجلب

الثورة والديكتاتورية إلى الطبقات الكادحة، كان يشك أحيانًا في أنه سيعود. حتى لينين راودته الشكوك في شأن الثورة. يسأل كروباسكي، «هل سنعيش لنراها؟». وبرغم ذلك لم يبد أن ستالين فقد الإيمان إطلاقًا. «إن الثورة الروسية محتمة، تمامًا كشروق الشمس»، كما كتب العام 1905 ولم يغير وجهة نظره. «هل يمكنكم منع الشمس أن تشرق؟» عندما تمكن من الوصول إلى الصحف، ناقش القائد المستقبلي على نحو متحمس تقرحات الحرب مع ميرزليكوف. أثناء الحرب العالمية الثانية، كان يقتبس أحيانًا الأمثلة من الحرب الأولى التي تتبعها من كوريكا[378]؟.
وبترنح الامبراطور الروسي من خسارة خاطئة إلى أخرى، كان لا بد لستالين من أن يتوقع أن هذه الحرب، تمامًا كمثيلتها في 190، ستجلب الثورة أخيرًا. ربما لم يكن يخدع أوخرانا عندما قال لبتروفسكاي في بتسبيرغ: أحدهم نشر إشاعة بأني لن أقضي كامل عقوبتي. يا له من هراء! أقسم وستحل عليّ اللعنة إن لم أحافظ على وعدي، بأن هذا لن يحدث. سأبقى في المنفى حتى تنتهي عقوبتي [العام 1917]. كنت أفكر في الهرب في السابق، لكن الآن، أرفض تلك الفكرة بالكامل. أحس أحدهم بمشاعر قلقه: إن لم يساعده لينين وزينوفيف، فلن يساعدهما.

في شهر كانون الثاني/ديسمبر 1914 تقريبًا، ولدت ليديا الطفل[379].

(36)

روبنسون كروزو في سيبيريا

توفي الطفل بعد ذلك بوقت قصير. لم يعلق ستالين على ذلك إطلاقًا، لكنه كان حتمًا في كوريكا في ذلك الوقت، ولا بد من أن جميع الموجودين كانوا على علم بذلك. وسواء أغفر أخوة ليديا لنزيلهم الفاسق أم لا، فإن علاقته مع ليديا استمرت.

جعل الشرطي الجديد، ميرزلياكوف، حياةَ ستالين أكثر سرورًا. لم يتجسس على أعماله، أو يلاحقه أو يفتشه، وسمح له بالالتقاء بأصدقائه، والذهاب في رحلات صيد طويلة، وحتى الاختفاء لأسابيع في النهاية. في الصيف، «كنا نذهب بالقارب... يجره الكلاب وعند العودة، نجذف. في الشتاء، كنا نذهب على ظهر الحصان، ويقوم ستالين، المكسو بالفرو، وهو يدخن سيجاره، بإرسال ميرزلياكوف النصف شرطي والنصف خادم لجلب بريده. بعد عشرين سنة تقريبًا، كان ستالين لا يزال ممتنًا لميرزلياكوف - وربما، أنقذ حياته؟»[380].

في شباط/فبراير 1915، في أيام شهور الظلام الدائم بلا فارق بين النهار والليل، زاره سباندريان وعشيقته فيرا شفيتزر. كانا قد قطعا 125 ميلًا عبر نهر ينسي المتجمد على مزاليج، تسيرها طاقة الكلاب، ويزعجها الذئاب باستمرار. وفي النهاية، تمكنا من رؤية تلك المستوطنة الصغيرة من بعيد، وعزبة سوسو المغطاة

بالثلج، حيث شاهداه يخرج مبتسمًا للترحيب بهما. كما استقبلهما أيضًا معظم السكان والشرطي بالترحيب.

«مكثنا في منزل جوزيف فيساريونفيتش ليومين». لاحظت فيرا أن سوسو، المصاب بالتهاب المفاصل، كان يرتدي سترة يدخل فيها ذراعًا واحدة فقط. أدركت في ما بعد أنه يحب أن يرتدي ملابسه على هذا النحو ليتمكن من إبقاء يده اليمنى متحررة. خرج ستالين، مسرورًا لرؤيتهما، إلى النهر، وعاد فخورًا بسمكة حفش ضخمة على كتفه: «ليس هناك سمك صغير في حفرتي الثلجية».

جاء سباندريان وشفيتزر لمناقشة محاكمة خمسة نواب من الدوما الشيوعي ومحرر صحيفة «برافدا» كامينيف في بيترسبيرغ. كان لينين قد صرح بأنه يأمل أن يُلحق الألمان الهزيمة بالروس، وبذلك، يتم تسريع الثورة والحرب المدنية الأوروبية. دعم الماركسيون الروس حرب روسيا الوطنية شريطة أنها حرب دفاعية. وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1914، اعتقل كامينيف والنواب بتهمة الخيانة؛ وأثناء محاكمته رفض كامينيف اتباع الروح الانهزامية غير الوطنية لدى لينين، وبرغم ذلك، اعتبر مذنبًا ونفي إلى سيبريا.

اشمأز ستالين وسباندريان من تصرف كامينيف. «إن هذا الرجل غير جدير بالثقة»، صرح ستالين، «يمكنه خيانة الثورة». وهكذا، وهو مغطى بالقماش المشمع، وبملابس من فرو الرنة من رأسه حتى قدميه، ويقوده رجال قبيلة تونغوس، اصطحب سباندريان وفيرا ستالين معهما عائدين إلى موناستيرسوكي، حيث

أنارت الأضواء الشمالية بتألق السهول القطبية الجرداء. بدأ ستالين بالغناء فجأة، كتبت شفيتزر. انضم سورين إليهم وكان من الرائع جدًا سماع الأنغام المشهورة تحملني بعيدًا بينما كانت عربة الجليد تندفع ليومين على الجليد تحت ذلك الشفق الذي لا ينتهي.

كتب سباندريان وستالين إلى لينين. أثار ستالين، الصياد الشيوعي الذي لم يعد ينتحب بشأن الأموال والكتب غير المرسلة، صميم الرجولة العسكرية التي ستمثل السلطة الشيوعية:

«أبعث بتحياتي إليك، إلى فلاديمير إليتش، تحيات حارة. تحياتي إلى زينوفيف، وإلى ناديجدا! كيف هي الأحوال، كيف صحتك؟ أعيش كما السابق، أمضغ خبزي وأكمل بقية عقوبتي. أشعر بالملل، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ كيف هي الأمور معك؟ لا بد من أنك تحظى بوقت أكثر بهجة... لقد قرأت مقالة صغيرة بقلم بليخانوف في صحيفة «ريتش» - يا لها من امرأة عجوز ثرثارة وعنيدة! نعم!... وأولئك المراقبون مع عملائهم [في الدوما]...؟ ليس هناك أحد لتوبيخهم، الشيطان يعرف! لكنهم لن يبقوا من دون عقاب حتمًا؟ أبهجْنا وأعلمْنا بأنه سيكون هناك عضو عما قريب لتلقينهم درسًا جيدًا!».

يذكر لينين عن الجورجي المهتاج في المنفى. «كوبا بخير»، أعلم رفاقه؛ ثم بعد بضعة أشهر، سأل: «طلب كبير. جدوا اسم العائلة لكوبا (جوزيف دج؟ لقد نسيت). هذا هام».

عندما انتهى إذن غياب ستالين، عاد إلى كوريكا لقضاء ما تبقى من فصل الشتاء الطويل. ذاب الثلج عن نهر ينسي. في أيار/مايو

19، جلبت القوارب البخارية أصحابًا ممتعين من كراسنوياراسك. وصل كامينيف إلى موناسترسكو مع نواب الدوما. كان سفيردلوف وسبانداريان في الجوار. أثناء تموز/يوليو 1915، تم استدعاء ستالين إلى اجتماع في المنزل يشاركه فيه كامينيف وبيتروفسكي في موناستريسكوي.

استمتع القادة الشيوعيون بلقاء صيفي رائع يجتمع فيه الشمل. والتقطوا صورًا[381] للمجموعة.؟ لكن بالنسبة إلى الشيوعيين الروس، حتى إجازتهم كانت سياسية، تشتمل على تحذيرات رسمية ومحاكم. دعم ستالين وسباندريان لينين، وقررا محاكمة كامينيف في موناستريسكوي.

أعطى كامينيف لستالين كتاب «الأمير» (ذا برينس) للمؤلف ماتشيفيلي، ربما كهدية غير حكيمة لشخص كان قد اتبع مسبقًا مبادئ ماتشيفيلي بما يكفي. وأثناء عشاء مليء بالخمر، سأل كامينيف كل من حول الطاولة عن أعظم متع الحياة. البعض ذكر النساء، وآخرون أجابوا بجدّية بأن المتعة هي الارتقاء بمادية جدلية إلى نعيم للعمال. ثم أجاب ستالين: «إن متعتي الكبرى هي اختيار ضحية لأحدهم، أجهز خطة لأحدهم بدقة، أخمد الثأر المشتعل، ثم أذهب للسرير. لا شيء أحلى من هذا في العالم كله؟»[382].

أثناء محاكمة كامينيف، حصل ستالين على الصوت المرجّح لإصدار القرار. ولطالما كانت المراوغة هي إنشاء حلفاء جدد.

هاجم كامينف، ثم غادر إلى كوريكا قبل التصويت الأخير، منقذًا بذلك حياة الضحية. ناصر كامينيف الجورجي الفاضح، بينما اعتبره ستالين ودودًا، لكنه ازدراه كرجل وسياسي: «رأيت غرادوف [كامينيف] والمجموعة في الصيف»، كتب إلى زينوفيف. «إنهم كالدجاج الضعيف. أهؤلاء هم «صقورنا»!».

عاد ستالين لقضاء شتاء طويل آخر في كوريكا. في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر، بعد انخفاض الثلج، حصل على الإذن برؤية طبيب في موناسترسكو. وأثناء وصوله بملابس فرو كاملة على عربة جليدية بأربعة كلاب، اندفع إلى منزل سباندريان وقبّل صديقه على وجنتيه، وفيرا مرتين على شفتيها.

«أوه كوبا!» تعجبت، مسرورة لرؤيته. «أوه كوبا!» كان سباندريان، المصاب بداء السل والتوتر العصبي، أحيانًا شديد الاهتياج إلى درجة أن عضة بعوضة تجعله يشقق ملابسه إلى مزق. كان سورين يشعر بالكآبة، لكن ستالين كان مبتهجًا جدًا، يذكر زميله المنفي، بوريس إيفانوف، ولطالما أثاره وصوله.

وصلت رسالة إلى ستالين من ينوفيف، رد عليها على نحو ساخر:

«صديقي المخلص!

وصلتني رسالتك أخيرًا. اعتقدت أنك نسيتني تمامًا، يا عبد الرب، لكن اتضح أخيرًا أنك لم تفعل... وما الذي يمكنني فعله بنقص كامل في الكتب؟... لدي الكثير من الأسئلة والمواضيع في عقلي، لكن من دون موارد. أنا أتلهف إلى أن أكتب إليك، لكن لا أملك شيئًا أدرسه... سألتني عن أموالي. ولماذا سألت عن هذا؟ ربما

تملك بعض المال - ألا تفكر في مشاطرتي إياه؟ افعل إذًا! أقسم إنها ستأتي في وقتها المناسب!

صديقك المخلص دجيغاشفيلي».

حال وصوله، ساعد ستالين على إغاظة الإقطاعي المحلي، الأمر الذي لطالما استساغه، كرياضة خبيثة وإثارة سياسية. وجد المنفيون الشيوعيون في موناستريسك، بقيادة سباندريان، أنهم ينقصهم الكثير من السكر والفرو في ذلك الشتاء، فقاموا بسرقة محل ريفيلون للتجارة المحلية ببضائعه الثمينة. وأثناء تحقيق الشرطة، بلّغ منفي اسمه بيتخوف عن السارقين. وبسبب انعزالهم واضطرابهم في عقوبتهم في سيبيريا، انحاز المنفيون إما مع السارقين وإما مع المخبر. أراد سباندريان معاقبة بيتخوف وحاكمه في محاكمة أخرى للحزب. دعم سفيردلوف بيتخوف، وأراد محاكمة سباندريان للسرقة نفسها. لكن سفيردلوف نفسه أصبح مقربًا جدًا من الشرطة المحلية، يعطي دروسًا لضباط الشرطة السرية. اتهم سباندريان وحلفاؤه سفيردلوف بأنه جاسوس أوخرانا الفاسد أخلاقيًا.

قاطع سفيردلوف محاكمة الحزب، التي صوت فيها سباندريان وفيرا وخمسة آخرون بإدانة بيتخوف. جلس ستالين، الذي جعل نفسه يواجه الطرد في جلسات مشابهة، بفخر على السياج، ممتنعًا عن التصويت لطرد بيتخوف، مفسرًا ذلك بأنه يتوجب عليهم طرد كل من بيتخوف وسفيردلوف. أصبح الشجار حادًا جدًا إلى درجة أن بعضًا من مجموعة سفيردلوف قد تأذى فعلًا من الضربات.

إن المنفى هو الأسوأ، كتب سفيردلوف، «ليس هناك أثر للمجتمع أو القيادة: العزلة والبُعد هما أمران لعينان ومهلكان. أصبح الآن سباندريان مريضًا على نحو خطير... حيث بدأ يسعل دمًا»[383].

* * *

«قضينا وقتا طويلًا في القرية»، يقول ميرزلياكوف، مرسال الشرطة لدى ستالين. «ليس لدي فكرة من كان يشاهد. جي في [ستالين] عاد في النهاية إلى محطة الشرطة بنفسه ليقول إن بإمكاننا العودة».

في كوريكا مجددًا، نجا ستالين في شتاء 1915 - 1916 في غرفته المليئة بالسخام، والفاقدة للهواء النظيف عند عائلة بيربريغن، ليستمر في علاقته الجنسية مع ليديا. كان مسرورًا لتلقي طرد من أوليغا أليليفا في بيترسبيرغ التي أثارت عاطفة نادرة:

«أنا ممتن لك جدًا، مع فائق الاحترام أوليغا، لمشاعرك الطيبة والخالصة تجاهي! لن أنسى أبدًا موقفك المتعاطف معي. أتطلع إلى هذه اللحظات التي أتحرر فيها من المنفى وأتمكن من العودة إلى بيترسبرغ لأشكرك شخصيًا وسيرجي على كل شيء. بقي أمامي سنتان. وصلني الطرد. شكرًا لك. أطلب شيئًا واحدًا فقط - لا تضيعي أموالك عليّ؛ أنت بحاجة إلى المال أيضًا - أرسلي إلي من فضلك بطاقات تحمل مشاهد للطبيعة»...

أرسلت آنا وناديا أليليفا، حيث أصبحت ناديا الآن في الرابعة

عشرة من عمرها، إلى بطلهما المنفي بذلة جديدة، وخبأتا له ملاحظة صغيرة في الجيب.

في آذار/مارس العام 1916، عندما كان من الممكن استخدام المزلجة على نهر ينسي، توجه ستالين عائدًا لرؤية سبانادريان في موناستريسكوي لبعث رسائله. تذكر فيرا. بالمناسبة، اشتكى إلى الرفيق في الخامس والعشرين من شباط/فبراير، «أخبرني من فضلك ما الذي حدث للمقالة بقلم كي ستالين عن الاستقلال الوطني الثقافي - هل تم نشرها أم ضاعت بطريقة ما؟ إني أحاول معرفة المزيد عنها منذ سنة ولم أجد شيئًا... ما الذي أفعله؟ إني بالتأكيد لا أضيع وقتي! المخلص لك جوزيف». لقد تم إرسال المقالة إلى لينين بواسطة أليليفا، لكنها ضاعت في مكان ما للأبد.

وجد ستالين أن سباندريان مريض على نحو خطير بداء السل والفشل القلبي: توسل إلى الأرمن كي يتم نقله من توركاناسك. ولقلقه على سباندريان، توسل ستالين أيضًا إلى السلطات. بعد بضعة أيام، عاد إلى كوريكا. وتلك، كما تقول فيرا شفيتزر، «كانت آخر مرة التقى فيها مع سورين سباندريان؟»[384].

أثناء الصيف، جعل النزيل الجورجي ليديا تحمل للمرة الثانية، ومن ثم ابتعد على نحوه الاعتيادي. عرف المنفيون المحليون، كما كتب واحد منهم، وهو إيفانوف، أن ستالين قد اختفى من كوريكا - هرب لبضعة أشهر. أين كان؟ لم يكن ميرزليكوف واثقا هو نفسه. سمح لجي. في. بالصيد وحده على مجرى النهر في جزيرة بولوفينكا في نهر ينسي طوال الصيف... صدقت الإشاعات بأنه

لم يهرب بعد. تساءل الشرطي ما الذي يمكن أن يفعله ستالين على هذه الجزيرة النائية. إنه مكان فارغ «غير مأهول»، هذه هي بولوفينكا. مجرد رمل. أين كان يصطاد؟ لم يكن هناك أحد. لكن اتضح أن ستالين قد قضى وقته فعلًا في بولوفينكا الفارغة.

لم يكن يمكث في هذه الجزيرة النائية سوى القليل من الصيادين المحليين، فقد كانت غنية بفرائسها. كشفت ستيباندا دوبيكوفا أن أوسيب قضى الكثير من وقته في الصيف هناك. ساعدناه على بناء كوخ صغير لشخص واحد فقط من قضبان الأغصان. كانت ستيباندا وعائلتها، الذين عملوا على بناء كوخهم الخاص أيضًا، في بولوفينكا. «اعتاد أوسيب على زيارة كوخنا وكنت أطبخ له سمك الحفش المشوي المفضل لديه. قضى ستالين أسابيع وحيدًا بالكامل في هذا الكوخ المخصص لرجل واحد، يصطاد لنفسه، راضيًا بذلك الانعزال المفرط. لكن أحيانًا لم يكن يمكث على جزيرته أيضًا».

«جاء ستالين لرؤيتنا»، نقل باديفا، وهو نائب في الدوما، في ينيسيسك. «التقينا هناك... وبرغم سرية زيارته، عرف جميع المنفيين بأن الرفيق ستالين كان هنا ومر لزيارتنا. لا بد من أنه زار كوستينو أيضا، لأنه في طريق عودته جاء إلى ميروديكا حيث احتفل مع المنفي الجورجي، نيستو روخادز، الذي عزف الأكورديون والبالالايكة. انضم ستالين بمعطفه الطويل وقبعته مع غطاء الأذنين وحذائه الأحمر، إلى الشبان المحليين، الذين كانوا يقضون الأمسيات بالتحدث والغناء والرقص».

لم يُعلِم ميرزلياكوف الكابتن كيبيروف باختفاء ستالين الصيفي. انتشر الخبر، لكن كيبيروف، سواء برشوة أو بفتنة، كان آخر رجال الشرطة المحرّضين من ستالين، لم يفعل شيئًا حتى سمع رؤساؤه بأن المنفي الجورجي قد اختفى، وبذلك، اعتقل فودور تاراسيف. عوقب تاراسيف بسنة ونصف السنة في السجن لمساعدته في الهرب من خلال إعارته قاربه. أما ستالين فلم يعاقب[[385]] على ذلك؟.

ما الذي كان يفعله ستالين في صيف العام 1916؟ الأرجح أن حاجته إلى الخروج من كوريكا لها علاقة بحمل ليديا الثاني؛ وهذا هو سبب غموض ميرزلياكوف الشكوكي، لكن اللبق. قد يكون أخوة عائلة بيربريغن قد شعروا بالاستياء مجددًا: عندما عاد ستالين في أوائل الخريف انتقل من منزل عائلة بيربريغن إلى منزل إلكسي تراسيف قبل عودته إلى منزل بيربريغن مجددًا عندما كانت ليديا، وهي في الخامسة عشرة من عمرها الآن، على وشك الوضع. يبدو أنه احتفل بصخب وزار أصدقاءه في جولته المحلية التي وصلت إلى ينسيسك وكراسونراسك، لكن المحليين زعموا أنه كان يبحث عن طريقة لتجنب الزواج بعشيقته الشابة الحبلى[386]. وبحلول 1916، وصل العفن في رأس الامبراطورية إلى أطرافها البعيدة. «ضعفت مراقبة الشرطة السيبيرية. تمكنا من الهرب من جميع ضباط الشرطة وحرسها»، قال باديف.

لم تكن الحرب تجري على نحو جيد. كان الامبراطور قد غادر

بيترسبيرغ (التي أعيد تسميتها ببيتروغراد لتبدو أقل جرمانية)، وتلقى الأوامر من جيوشه. في بيتروغراد، سيطرت زوجة الامبراطور الغبية والعُصابية الخرقاء، ألكسندرا، على الحكومة. وبتلقين من راسبوتين وطاقم متوسط الجودة من الدجالين والمستفيدين من الحرب، وظفت وطردت أكثر الوزراء فسادًا وغير كفاءة. لا أحد عرف بالأمر، لكن ثلاثة قرون من حكم رومانوف هي مجرد أيام تمضي.

(37)

مزلجة ستالين المسيّرة بالرنة والابن السيبيري

في تشرين الأول/أكتوبر 1916، أُلزم ستالين، الماركسي المتعصب بذراعه المصابة، بالتجنيد مع زملائه المنفيين. كان قد تفادى بنجاح اختياره لأكثر من عقد. يشير استدعاء المنفيين إلى نقص في طاقة الرجال كمورد لحرب رومانوف، إلا أن ستالين والضباط المحليين عرفوا أن ذراعه غير لائقة، ولن يجتاز الفحص الطبي بنجاح.

زعم المحليون في توروكهانسك أن ستالين قد أقنع كبيروف بوضع اسمه على لائحة المجندين بشهادة مزورة. خدعة رتبت لإذن غيابه الصيفي الطويل. أو هل تطوع بهدف الهرب من الالتزامات العسكرية والأشهر الأخيرة له في كوريكا؟

تذكر فيرا شفيتزر، «شكّل قائد الشرطة كيبروف المجموعة الأولى من تسعة منفيين، ليتم إرسالهم إلى كراسنويارسك. لم يضيع ستالين وقته في كوريكا. ألقى تحية الوداع على الفور، مقدمًا هدية إلى السيدة التي كانت تعتني به وهي صورة تحمل توقيعه ومعطفين. وبعدها، تلقى وداعًا كبطل حقيقي، وانطلق مع ميرزلاكوف إلى موناستيرسكوي».

بعد ذهابه، في شهر نيسان/أبريل 1917، ولدت ليديا ابنها وسمته ألكسندر. لم تُعلِم والده بذلك حتى بعد مضي وقت طويل - ولم

يراسلها ستالين إطلاقًا. لكنه سمع بطريقة ما: قال لأخوات أليليفا إنه قد أصبح والدًا لطفل سيبيري أثناء منفاه الأخير. لم تنتبه أي مشاعر أبوة، أو حتى فضول عاطفي.

تخلى ستالين عن ابنه، لكن توروكهانسك جعلته أكثر ميلًا إلى الروسي نوعًا ما. ربما جمّدت سيبيريا بعضًا من المشاعر الغريبة خارجه. فقد جلب معه إلى الكريملين الاعتماد على الذات والاحتراس والبرودة والعزلة الخاصة بالصياد السيبيري. قال القائد العسكري الأسمى ستالين الحقيقة العام 1947 عندما كتب لواحد من رفاقه في الصيد في كوريكا: «لم أنسكم أو أنس أصدقائي في توروكهانسك. وربما لن أنساكم أبدًا». وقد عبّر عن ذلك مولوفتوف على النحو الأمثل:

«ظلت قطعة صغيرة من سيبريا داخل ستالين لبقية حياته[387]؟».

* * *

في حوالي الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر العام 1916، جمع كيبروف مجموعتي المنفيين معًا، حيث بلغ عددهم عشرين بالإجمال، لرحلة إلى كراسنويارسك - كتب سفيردلوف أن ستالين كان بين الرفاق. حُرم سفيردلوف من مجد الموت المحتم في مكان منسي في الجبهة الشرقية لأنه كان يهوديًا، إحدى الميزات القليلة لمعاداة السامية عند رومانوف. أما الآخرون فتوسلوا إلى ستالين ليتصالح مع سفيردلوف ويصافح يديه. لكن ستالين رفض.

«غادر المجندون في موكب ساحر على المزاليج التي تحمل رايات مزخرفة، وتجرها الرنة. أعطي المنفيون، مع عزف المندولين والبالالايكة، معاطف سيبيرية من الفرو، وأحذية طويلة وقفازات وقبعات مصنوعة جميعها من فرو الرنة»، كما يذكر مسافر آخر هو بوريس إيفانوف. «تتسع كل مزلجة لشخص واحد يسافر فيها حيث يوجد داخلها نوع من المهد مصنوع من الكتان، إلا أن رجال الشرطة رافقوهم وهم ينطلقون بسرعة على طول نهر ينسي المتجمد، ليجتازوا خمسا وعشرين مستوطنة صغيرة، أُمرت جميعها بتقديم الأسرّة ووسائد الريش السمينة والحليب واللحم والسمك. كما مكثنا في بعض الأماكن لأيام».

قرر ستالين، وهو يتولى القيادة، أنه ليس هناك سبب يدفعنا إلى العجلة. كنا منهكين، لكن لمَ يتوجب علينا الإسراع ليتم اختيارنا؟ يذكر مسافر مرافق. كان يقول، «لا يزال أمام الألمان الكثير من الوقت ليعدّوا اللحم المفروم منا».

أقام المنفيون أيضًا الحفلات في ليلة أو ثلاث ليالي، وقاد ستالين فيها الغناء. تذمر رجال الشرطة وأرسلوا ببرقية إلى كيبروف، الذي هدد بإرسال الجنود الروس خلفنا، لكننا بعثنا ببرقية إليه: «نحن مستعدون لجنودك». اشترك ستالين في اختيار كلمات البرقية. كان قد عمل على تحويل الرحلة إلى رحلة فسوق استمرت لشهرين تقريبًا بقيادة الرنة. في مكان ما على طول الطريق، احتفل أولئك الفاسقون برأس السنة العام 1917.

* * *

وأخيرًا، في التاسع من شباط/فبراير تقريبًا، وصلت المزاليج إلى كراسونيارسك. وتنفيذًا لوعدهم، سمحت الشرطة للمنفيين بالاستقرار لبضعة أيام قبل إعلام القائد العسكري. انتقل ستالين إلى شقة إيفان ساولوف، وهو شيوعي روسي، ثم استدعى فيرا شفيتزر من أتشينسك. أخبرته بأن سباندريان قد توفي.

تقدم ستالين إلى طبيب الفحص الطبي، الذي اعتبره غير ملائم للخدمة العسكرية بسبب ذراعه. كان هذا أمرًا جيدًا، لكنه محرج بالنسبة إلى قائد اعتبر نفسه، بعينيه هو، جنديًا بقدر ما هو سياسي. عندما أشارت آنا إليليفا إلى أنه غير ملائم في المذكرات التي نشرت بعد الحرب العالمية الثانية تمامًا، لم يسامحها ستالين إطلاقًا.

في السادس عشر من شباط/فبراير، طلب من حاكم ينيسيسك السماح له بقضاء الأشهر الأربعة الأخيرة من حكم نفيه في أتشينسك المجاورة، وهي قرية كبيرة بستة آلاف ساكن وكنيستين وأكواخ تتألف من طابق واحد، وباتجاه الغرب على طول سكة حديد ترانس - سيبريا، حيث كانت تعيش فيرا شفيتزر وكامينيف.

في الحادي والعشرين من شباط/فبراير، انتقل إلى شقة فيرا شفيتزر في أتشينسك، على بعد آلاف الأميال إلى الغرب، في الوقت نفسه الذي كانت فيه زوجة الامبراطور ألكسندرا قد بدأت تفقد السيطرة على بيتروغراد. في الثالث والعشرين، أثار الحشود الشغب في العاصمة، في الوقت الذي استقر فيه ستالين في واحد من أكواخ أتشينسك. لم تكن لديه أي أدوات، تذكر ابنة مالكة

المنزل، «كان يرتدي معطفًا أسود وقبعة من الفرو الرمادي فقط. يغادر المنزل بعد الغداء ويعود في الليل متأخرًا. لكن كثيرًا ما كانت تزوره امرأة داكنة البشرة مع أنف يوناني وسترة صفراء اللون، وكانا يقضيان الكثير من الوقت معًا - اعتاد أن يرافقها إلى الباب، مغلقًا الأبواب بنفسه. كانت المرأة هي فيرا شفيتزر، التي لم يعد ينفصل عنها طوال تلك الأيام العشرة: كانت تمكث معه. أشارت المذكرات إلى أنهما كانا يعيشان معًا، لكننا لم نعرف إن كانا أي شيء سوى زملاء في الغرفة، بالرغم من أن شفيتزر كانت دائمًا ما تحييه بقبلات على الشفتين: أوه كوبا! أوه كوبا!» يوم الأحد، في السادس والعشرين من شباط/نوفمبر، قُتل خمسون شخصًا في نزاع بين حشود بيتروغراد وكوساكز. شجعت إراقة الدماء الحشود. بدأ الجنود بمغادرة الامبراطورية الروسية. في اليوم التالي، اقتحم الحشود مخزن الأسلحة، مستولين على 150 ألف بندقية، ومضرمين النار في مركز الشرطة، ومعدمين رجال الشرطة. قُذف أحدهم من نافذة على بعد أربعة طوابق، أمام الجماهير، وباستخدام العصا وأعقاب البنادق، ضربوه حتى أصبح عجينة دموية.

«كان أتشينسك غافلًا عن ذلك. شغل كامينيف وزوجته أوليغا، أخت تروتسكي، البهو الرئيسي. كنت أقضي الأمسيات عند عائلة كامينيف»، يذكر أناتولي باكلوف، الابن المنفي لتاجر استخراج الذهب. «كان ديجغاشفيلي، أو أوسيب كما كنا ندعوه، ضيفًا متكررًا في منزلهم. وكان كامينيف، المتحدث البارع والخطيب الضليع، يحجب نور ستالين الباهت والذابل، والمجرد من

المشاعر أو الكياسة. عندما كان يقول شيئًا، يتجاهله كامينيف بتعليقات قصيرة مزدرية. أما ستالين قليل الكلام والكئيب، فكان ينفث الدخان من سيجاره ويزعج دخانه زوجة كامينيف الجميلة، لكن العقيمة والمتقلّبة، والتي كانت تسعل وتطلب من ستالين التوقف. لكنه لم يكن يوليها أي اهتمام».

في بيتروغراد، لم يعد قيصر روسيا يحكم. في الأول من آذار/مارس، في قصر توريدا، تأسست حكومة موقتة تحت رئاسة الأمير الأسبق جورج لفوف. في البناء نفسه، انتخب مجلس السوفيات من العمال والجنود لجنة تنفيذية، يرأسها الماركسي الجورجي المَنْشفيّ كارلو تشخيدز. حاول القيصر المنعزل والكئيب والمُهمَل على نحو قد فات أوانه، العودة إلى العاصمة. لكن بجنوح القطار الإمبراطوري إلى بسكوف، استنزف دعم جنرالاته.

في الثاني من آذار/مارس، قام نيكولاس الثاني، مصرحًا بأنه قد اقتنع تمامًا بأنه قد وُلد للتعاسة، وبأنه قد جلب التعاسة لروسيا، وبالتخلي عن العرش ليس من أجل ابنه ألكسي المصاب بمرض الناعور، بل من أجل أخيه النبيل الروسي ميشيل، الذي خلف مايكل الثاني، لكن تقنيًا فقط.

بعث وزير العدل الجديد، ألكسندر كيرينسكي، برقية إلى أشينسك للأمر بإطلاق سراح نواب الدوما المنفيين: الأمر كله بيد الشعب. أُفرغت السجون، اعتُقل الوزراء، ويحرس الشعب زوجة امبراطورنا. بحلول تلك الليلة، عرف أشينسك أن الثورة قد حانت

أخيرًا، لكن الجميع كان يتحدث همسًا عنها.

«في اليوم الذي وصلنا فيه التلغراف، كان ذلك يوم السوق. قررت أنه لا يتوجب ترك القرويين المحليين يغادرون السوق غير مدركين الأمر... ركضت لأخبرهم... بأنه لم يعد هناك قيصر روسي»، تذكر المحررة الشيوعية ألكسندرا بوميرانتسيفا التي شاركت سالتين منزله. «في طريقي، التقيت بالرفيق ستالين الذي نظر إلى وجهي المُثار».

«إلى أين تركضين؟»، سألني.

«أنا أركض إلى السوق لأخبر القرويين عن الثورة».

وافق ستالين على ذلك - ثم اتجهت إلى مكان السوق.

في الثالث من آذار/مارس، تخلى ميشيل الثاني عن العرش عندما لم تعد الحكومة قادرة على ضمان سلامته. في الرابع عشر، عقد محافظ أشينسك اجتماع بلدية اقترح فيه كامينيف إرسال برقية يؤيد فيها لباقة النبيل ميشيل المدنية. سيعيش كامينيف ليندم على غريزته غير الشيوعية في شكر حكام رومانوف. في الصباح التالي، ذكر ستالين، الذي كان بعيدًا في كراسنويارسك ذلك اليوم، «سمعت عن الأمر من الرفيق كامينيف نفسه، الذي جاء ليخبرني بأنه فعل شيئًا غبيًا». أنكر كامينيف توقيعها واتهم ستالين بالكذب.

أرسل ستالين برقية إلى عائلة أليليفا في بيتروغراد: كان في طريقه إليهم. قضى الأمسية الأخيرة في أشينسك مع شفيتزر. في السابع من آذار/مارس، نقلت العربات كامينيف وشفيتزر وستالين إلى المحطة، حيث افترقوا بابتهاج. استغرقت الرحلة أربعة أيام.

عند كل محطة، تنافس الشيوعيون العائدون إلى أوطانهم مع الخطباء المحليين المنفيين في التحدث مع الحشود. قدم كامينيف الخطابات؛ اكتفى ستالين بالمشاهدة. ضحك على هؤلاء المتحدثين، وقلدهم في ما بعد لسذاجتهم المفرطة بالحماسة: الثورة العظيمة، التي طال انتظارها، حبيبتي الثورة قد حانت أخيرًا!».

في صباح الثاني عشر من آذار/مارس 1917، وصل ستالين إلى بيتروغراد، مرتديًا بذلته التي ارتداها في حفلة تموز/يوليو 19، وحذاءه الروسي الطويل، ويحمل حقيبة مجدولة صغيرة وآلة كاتبة[388].

الجزء الخامس

إلى رافايل إيرستافي

عندما ينقلك عويل القرويين المُنهَكين

إلى دموع الشفقة تتأوّه للسماوات،

آهٍ يا «بارْد»، على قمة رؤوس البشر؛

تسمو بك رفاهية الناس بسرور،

تصدر ألحانك بعذوبة،

كرجل بعثته السماء؛

لينشد أنغامه للوطن،

هذا هو حبك،

من أجلها، تصدر قيثارتك أنغامها

رنين يبهج القلب...

ثم، آهٍ يا «بارد»،

سيستمع إليك الجورجي كنصب سماوي

ولأن أعمال الماضي وكوارثه توجتك بالحاضر.

شقت كلماتكم في قلبه الجذور عميقة؛

احصد، أيها القديس العجوز،

ما زرعت في شبابك؛

وكمنجل، استعمل صياح المتعاطفين:

مرحى لرافايل!

ليت هناك الكثير من الأبناء مثله في أرض الأجداد!!

سوسيلو (جوزيف ستالين)

(38)

ربيع العام 1917: **القائد المضطرب**

كان الثلج الأزغب الناعم يتساقط، تقول فيرا شفيتزير. «حال نزولنا من القطار، شعرنا بتفجر عاصفة سياسية وثورية في العاصمة. كان ستالين، عضو مجلس المدينة، قد عاد، وأحلام حياته قد تحققت. وبرغم ذلك، لم يكن هناك حفل استقبال في محطة نيكولاس. ترك سوسو وفيرا الحماسة تحملهما إلى الشوارع: نحلق معًا بين حشود المدينة، مشينا على طول نيفسكي بروسبيكت».

لم يعد ستالين بحاجة إلى أن يخشى الاعتقال أو أن يبحث عن صديق قديم لإنقاذه وهو يجوب الشوارع. لقد غيّر إطلاق النار والشغب والاهتياج الناجم عن ثورة شباط/فبراير، العاصمة بالكامل: أصبحت الآن المدينة الأكثر تحررًا في أوروبا. انطلقت سيارات الليموزين، والرولز رويس الملكية المصادرة، والسيارات المصفحة، في أنحاء المدينة، تصيح بمزاميرها، مليئة بالعمال، وبجنود وفتيات يرتدين ملابس خفيفة جدًا، يلوحون بالأعلام والبنادق المُهددة. أخذت الوكالات تطلق الصحف لتعرض كافة وجهات النظر الجديدة، بينما ظهرت كتيبات إباحية صارخة تروي الشبق المرضي السحاقي الفاسق للامبراطورة المخلوعة وحفلاتها الجنسية الجماعية مع راسبوتين. أما الشرطة المكروهة - المتفرعنة -. فقد رحلت؛ تحطمت صقور الرأس

المضاعف، إلا أن صراع الطبقات لم يبدأ بعدُ حقًا. هدد عمال المصانع الكبرى المسلحون والمختالون، البورجوازيين المتوترين، وبرغم ذلك، كانت المسارح لا تزال تعمل - كانت مسرحية «ماسكوريد» لليرمونتوف تُعرض في مسرح أليكسندرينسكي - وكانت المطاعم الأنيقة تفتح بعد انتهاء قتال الشوارع.

كانت هناك اجتماعات[389] وخطابات في كل مكان؟ يذكر مولوتوف، أول تجربة للحرية بمعناها الكامل. حتى أن العاهرات واللصوص عقدوا اجتماعات وانتخبوا قادتهم. انقلب كل شيء: ارتدى الجنود قبعاتهم بطريقة معاكسة، بحيث وضعوا مؤخرتها للأمام، وارتدوا ملابس عسكرية غريبة الشكل؛ واستعارت النسوة الخوذات العسكرية والسراويل القصيرة. شعر الناس فجأة بأنهم متحررون في هذا الكرنفال المحموم، حيث اعتبر أورلاندو فيغاس أن الأفعال الجنسية، من التقبيل والملاطفة حتى الجماع، كانت تتم في الشوارع علنًا نتيجة الحماسة المفرطة[390].

* * *

اتجه ستالين وفيرا مباشرة إلى مركز السلطة. أثناء تحدثه معنا، وصل الرفيق ستالين من دون أن يدرك إلى قصر توريدا، حيث التقيا صدفة بإلينا ستاسوفا ومولوتوف. في تلك الليلة، قام ستالين ومولوتوف وفيرا شفيتزر والمكتب الحكومي الروسي، بمناقشة الوضع. لم يكن أحد منهم واثقًا مما هي الخطوة التالية.

كانت روسيا امبراطورية، لكن ما هي الآن؟ كتب النائب في الدوما فاسيلي شولغين، إن النظام السياسي الذي وجدوه في القصر لم يكن جمهوريًا أو ملكيًا: صيغة لدولة من دون اسم. ترأس الأمير لفوف، رئيس الوزراء المحترم، مجلسا من المحافظين والليبراليين من أعضاء الحزب الديموقراطي التأسيسي. كان مجلس السوفيات، بقيادة تشخيدز، والمتضمن المناشفة والبولشفيين والقادة السوفياتيين، يتمتع بقوة تماثل قوة الحكومة. كان كيرينسكي وحده يدير الاتحاد السوفياتي والحكومة معًا: وحده كيرينسكي هو من عرف كيفية الرقص على المستنقع الثوري. لكنه في الحقيقة، لم يعرف كيف؛ وحتى الآن، لم يعرف أحد.

عندما تنازل القيصر الروسي عن العرش، كانت وحوش الغابة في الخارج: تروتسكي وبوخارن في نيويورك، لينين ومارتوف في سويسرا. أما البولشفيون المرتبكون فقادهم في بيتروغراد ألكسندر شليبنيكوف الابن، وهو عامل في الثالثة والثلاثين من عمره، ومولوتوف[391] البالغ سبعة وعشرين عامًا؟ كان هناك أقل من 25 ألف بولشفيّ في روسيا بكاملها، وحوالي ألف ناشط قديم فقط.

قبل أيام، كان لينين قد اعترف بأن الثورة قد لا تحدث إطلاقًا في حياتنا. عندما سمع ذلك، تعجب كروباسكايا. ربما تكون خدعة أخرى. إنها صاعقة، تعجب لينين.

يا لهذه المفاجئة! بدأ يرسل التعليمات إلى مولوتوف وشلايبنكوف:

«لا بد للحرب من أن تتوقف. عارضت الحكومة الموقتة. لكن الآن، في اجتماع للمجلس، تمنى ستالين، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين، وكامينيف، في الرابعة والثلاثين فقط، أن يُحكما السيطرة ويفرضا نفوذهما على لينين، راغبين لفترة موقتة في دعم الحكومة شريطة أن تقاتل في حرب دفاعية، وتعمل على تطوير الحريات المدنية الأساسية.

كان هناك شجار. المجلس يرفض كامينيف، مطالبًا بتفسير للخيانات التي اقترفها، وموافقا فقط على تعيين ستالين في دور استشاري... نظرًا إلى بعض صفاته الشخصية الأساسية بالنسبة إليه. فأنانيته ووقاحته (وربما مغامراته الجنسية) مشهورة بسوء سمعتها[392].

* * *

عندما عادت آنا أليليفا إلى الوطن، إلى شقة العائلة، الواقعة في الضواحي الآن، والتي يصلها فقط قطار صغير خاص بالضواحي، وجدت بعض الرفاق يتحدثون هناك (كان يونكيدز قد وصل باكرًا)، لكنني نظرت إلى مكان وضع الملابس، ولم أعرف لمن المعطف الأسود والوشاح الطويل المخطّط على الطاولة.

من هنا؟ سألت.

لقد عاد ستالين، قال أحدهم، من المنفى. وصل للتو! ركضت لتحيته - كنا نتوقع قدومه! كان يمشي جيئة وذهابًا. دُهشت آنا لمقدار تغيره. كانت ملابسه نفسها: بذلة سوداء وقميص أزرق،

لكن وجهه قد تغير. لم يكن متعبًا ونحيلًا، وليست وجنتاه مجوفتين وحسب، بل أيضًا بدا أكبر سنًا. عيناه فقط ظلتا نفسيهما تمامًا كابتسامته الساخرة.

«أرأيت! وجدتك!»، قال ستالين. «ركبت القطار وتوقعت ألا أراك أبدًا! كيف حالك؟ كيف أوليغا وسيرجي وبافيل وفيدي؟ وأين ناديا؟». كان سيرجي يدير محطة الطاقة؛ وأوليغا تعمل كممرضة؛ وبافيل في الجبهة؛ وفودور يدرس؛ أما ناديا ففي درس الموسيقى.

«هل أنت جائع؟»، سألت آنا، تشعل تحت إناء الشاي، لحظة دخول والدهم المنزل. تبادل الرجال الأخبار بأصوات مهتاجة. ثم، وصلت ناديا، بعينيها السوداويين، باهتياج وحيوية، ترتدي معطفًا وقبعة. جوزيف هنا. رحب الوالدان وأبناؤهما بستالين وأحاطوا به. وجد نفسه بطل عائلة تشيخوفيان ذات العلاقات الحميمة، التي تعيش في نعيم الطبقة الوسطى. شيء لم يعرفه هو من قبل إطلاقًا. كان الجميع يضحك عند تقليد ستالين للخطباء القرويين، وهم يتحدثون في المحطات وقت عودته من المنفى. جهزت آنا وناديا الطاولة، وهو يتذكر بحيوية مغامراته في المنفى. وافق على قضاء الليلة عندهم، يتخذ فراشه في غرفة الطعام إلى جانب سيرجي.

«ما الوقت الذي تستيقظون فيه صباح الغد؟ يجب عليّ الذهاب إلى «برافدا» غدًا صباحًا».

«نستيقظ باكرًا»، قالت أوليغا. «سنوقظك». أوت أوليغا والفتيات

إلى النوم في الغرفة المجاورة، لكنهن لم يتمكنَّ من النوم، خاصة عندما بدأت ناديا بإعادة قصص سوسو عن الخطباء. كان الأمر مضحكًا كثيرًا. «انفجرنا ضحكًا»، قالت آنا. «حاولنا التوقف، لكننا لم نتمكن، نضحك بصوت أعلى فأعلى».

«اصمتن، أيتها الفتيات!» صاح والدهن.

«دعهم سيرجي»، تدخّل ستالين. «إنهن شابات، دعهن يضحكن!».

في الصباح، استقلوا القطار إلى المدينة، أخبروا سوسو بأنهم سيذهبون لرؤية شقة جديدة في شارع تينث روزهديستفينسكي. وأثناء نزوله من القطار، صاح ستالين: هذا جيد - لكن احرصوا على تخصيص غرفة لي...[393].

* * *

شق ستالين طريقه للقيادة، ليس في قصر توريدا، لكن في المقر الرئيسي للبولشفيين، الذي شغل الآن القصر المشبع بالآثام لخليلة الامبراطور الروسي ماتيلدي كسيشينسكايا[394]؟. هذا العرين من الرفاهية، من الجوائز والألماس المواجه لقصر وينتر، تبعًا لوصف تروتسكاي، كان قريبًا على نحو استراتيجي من حصن بيتر آند بول بالإضافة إلى مصانع فيبورغ.

في غرف الرقص ومخادع راقصة الباليه، أكد ستالين آرائه، معارضًا البغيض مولوتوف والمكتب الروسي الحكومي. في

الخامس عشر من آذار/مارس، تولى ستالين وكامينيف السيطرة على «برافدا»، وانضما إلى اللجنة التنفيذية الدائمة للسوفيات. «لقد أطيح بي»، قال مولوتوف. «طردني ستالين وكامينيف على نحو حساس، لكنه بارع، لأنهما يملكان سلطة أكبر، ولأنهما أكبر بعشر سنين، لذا لم أقاوم». وبتعيينه الممثل البولشفي للجنة التنفيذية في السوفيات، لقي ستالين الترحيب في قصر توريدا من زملائه الجورجيين وتشخيدز وإراكلي تسيريتلي، الخطيب النجم. شعر ستالين بالإثارة من السياسة الجديدة، لكن حتى في تلك الأيام المشوشة، رأى الحياة كنضال مانوي بين النور والظلام. إن موكب الثورة الروسية، يتقدم بسرعة البرق، لكن ألقِ نظرة حولك تَرَ العمل الشرير المتواصل لقوى الظلام. كان هادئًا ومحترسًا. أثناء العمل في السوفيات، يذكر الكاتب اليومي المنشفي، نيكولاي سوخانوف، أنه ترك انطباعًا لدي قوامه... ذلك الغموض الكئيب.

في سويسرا النائية، كان لينين يتهجم دونما جدوى على الحكومة الموقتة ويطالب بالسلام الفوري مع ألمانيا. لكن في بيتروغراد، تأرجح ستالين وكامينيف يمينًا نحو التوفيق المعتدل، على أمل إغواء الشيوعيين الراديكاليين والدوليين للانضمام إلى الحزب. كانت فكرة غبية قليلًا، وخاصة بالنظر إلى إصرارهم على سياسة أجنبية متطرفة[395] لكنهم خلقوا الفوضى والسخط بين أعضاء الحزب، كما تذمر شلايينكوف. استمتع مولوتوف بمعرفة أنه محق في معارضة أكثر خطوطهم دفاعًا، فالخطأ الكبير، خطأ ستالين. سخر تروتسكي بأن ستالين وكامينيف قد حولا البولشفيين

إلى مجموعة برلمانية سرية للضغط على البرجوازية.

وبرغم ذلك، بالغ نقاد ستالين بالسخرية من الحماقة التي ارتكبها. كان حذرًا بالتأكيد، وشاحبًا في تلك الأيام العشرة، لكن سياساته كانت معقولة وعقلانية وتكتيكية في اعتدالها. اعترف تروتسكي بأن ستالين كان يتحدث عن إدانات خفية للعديد من البولشفيين القدماء - ولمعظم المناشفة. حتى أن كروبسكاي، عند سماعه حديث لينين المتطرف، قال، «يبدو أن إليش قد فقد عقله». لم يمتلك المناشفة بعدها أي أمل في إسقاط الحكومة الموقتة - كان لينين متهورًا، لكنه بعيد.

بالإضافة إلى أن لينين نفسه لم يلتزم ببرنامجه الراديكالي: قام على الفور بالتراجعات والمساومات قبل العودة إليه في نهاية العام.

في المنفى السويسري، تفجر لينين بالمشاعر أثناء قراءته خطابًا لتشخيدز عن استرضاء البولشفيين. «إن هذا هراء ببساطة!»، صاح.

«فلاديمير، يا لها من لغة!»، أجاب كروباسكاي.

أكرر: هذا هراء!

بدأ لينين يخط رسائله من بعيد لتصحيح حماقة كامينيف وستالين. كانت مقالات ستالين تُنشر يوميًا تقريبًا.

ثم، في الثامن عشر من آذار/مارس، توقف ستالين عن الكتابة لأسبوع، ربما ليعيد تقييم سياساته: فسيأتي

لينين[396] .

(39)

صيف 1917: البحارة في الشوارع

في السابع والعشرين من آذار/مارس 1917، ركب لينين وكروبسكاي وزينوفيف، ونصير ستالين الجورجي، تاسخاكاي، على متن قطارهم المشهور «سيلد ترين».

بعد شهر تقريبًا من ثورة شباط/فبراير، وجد لينين أخيرًا طريقة للعودة إلى روسيا. في غضون ذلك، كان قد استمتع بأهواء ركوب القطار، متظاهرًا بأنه سويدي أصم وأبكم، أو بالركوب في جولة على متن طائرة مقلقلة ذات سطحين في أنحاء أوروبا الوسطى. قال، لا بد لنا من الذهاب إلى الوطن. لكن، كيف؟ لحسن الحظ، صدق القائد الألماني الأعلى أن إقحام لينين ومرضه البكتيري الثوري، قد ينشر العدوى في روسيا بفيروس اللاعنف، وبذلك يخرجها من الحرب[397].

سيطر لينين على «سيلد ترين» تمامًا كما سيسيطر على روسيا نفسها: ربما كان سيوافق على منع التدخين في حقبتنا، وأصرّ على تطبيق قوانين التدخين وحقوق تفتيش مراحيض القطار بكامله - مزح البولشفي كارل راديك، «إنها لتحضيرات قيادة الحكومة الثورية. سُمح للمدخنين بإشعال سجائرهم في المرحاض فقط، بينما سُمح لغير المدخنين بدخول مراحيض الدرجة الأولى ومنحهم ذلك الأولوية».

في الثالث من نيسان/أبريل، توقفوا عند محطة بيلوستروف في فنلندا، عند الحدود الروسية، التي أطلق عليها كروبسكاي بتفاخر عربات السكة الحديدية الرديئة والخاصة بالطبقة الثالثة، العزيزة علي. رحبت صديقة ستالين لودميلا ستال بكروبسكاي مع وفد من النساء. صعد كامينيف بابتهاج إلى متن القطار للترحيب بلينين، إلا أنه شعر بالصدمة.

ما هذا الذي كنت تكتبه بحق الجحيم؟ صاح لينين. لقد قرأنا بعض إصدارات «برافدا»، وشتمناك كثيرًا عليها.

تقدم القطار إلى محطة فنلندا في بيرتروغراد. صعد ستالين العربة لتحية صاحب السلطة، الذي لا يزال في السادسة والأربعين من عمره. بقبعته المسطحة، وبذلته التويدية ومظلته البرجوازية، كان هذا الرجل الصغير الأصلع غريبا على روسيا، الجديدة والقديمة. وبرغم ذلك، كان لينين هذا أكثر غضبًا، وأكثر عنفا وفاقدًا للصبر والرحمة، أكثر من الرجل نفسه الذي ذهب إلى المنفى قبل عشر سنين: وإن كان ينقصه حقد سوسو الشخصي الانتقامي، فقد كان يشبه ستالين أكثر من تلك الصورة الأبوية الرقيقة التي رسمتها له في ما بعد الدعاية الروسية. «لا يمكنني سماع الموسيقى كثيرًا»، قال بعد سماع سوناتة أباسونوتا لبيتهوفن. «تجعلني أرغب في قول أشياء لطيفة غبية وأربت على رؤوس الناس. إلا أنه يجب على المرء الآن ضربهم على الرأس، ضربهم بلا رحمة». كان لينين مهتاجًا لمعركته التالية.

حملة قتال تتلو الأخرى. وكان ستالين سيقول الأشياء نفسها. فهما

مقبلان من عالمين مختلفين - أحدهما بتصرفات الرجل النبيل، والآخر بالرجل القروي - تبادلا المشاعر نفسها وأيدا طرقًا متشابهة.

لا نعرف ما الذي قاله لينين في العربة[398]، لكن على نحو عملي حال التقائهما معًا، تخلى ستالين عن كامينيف الضعيف ودعم صاحب السلطة.

قبل منتصف الليل تمامًا، ترجّل لينين من العربة مع ستالين، راقب مولوتوف، الذي كان حاضرًا. وجد لينين، الشهير والغامض، محطة فنلندا في مهرجان ثوري. دوت الفرقة العسكرية بترنيمة النشيد الوطني الفرنسي، بينما فحصت الأضواء الحشود المتلهفة. استعرض لينين حرس الشرف من البحارة الثوريين من قاعدة كرونستادت، وألفي عامل من مصنع بيوتيلوف، وحشدًا يلوح بأعلام حمراء ومجموعة كبيرة من السيارات المصفحة.

رافقت كتيبة من الحراس الحمر وهم عمال بولشفيون مسلحون - لينين إلى الحجرة الامبراطورية في المحطة حيث لاقاه الرئيس السوفياتي، تشخيدز. إلا أن لينين أسرع إلى سيارة مصفحة، وهو يقول للحشد (بمن فيهم مولوتوف وفوروشيلوف وأليليفا)، إن الحكومة الموقتة، بخطاباتها العذبة ووعودها العظيمة، تخدعكم تمامًا كما تخدع الشعب الروسي بأكمله. وقد صدم ذلك الخطاب، كما كتب واحد من الشهود، وأذهل التابعين والمؤيدين... كأنه قصفة رعد. لا بد للبولشفيين من أن يطيحوا بالحكومة، وينهوا

الحرب الامبراطورية الجائرة، وينقلوا السلطة إلى السوفياتيين فورًا.

اعتقد العديد أن صاحب السلطة قد أُصيب بالجنون، وأنه خارج الصورة. «لقد أفل نجم لينين»، قال المنشفي سكوبيليف للأمير لفوف. وبرغم ذلك، حتى خصومه لم يتمكنوا سوى من التعجب من ثقته الهائلة: يقول سخانوف، «عرض لينين قوة مذهلة، سلطة جبارة للهجوم».

جاب لينين بسيارته المصفحة الشوارع، محاطًا بالفرقة المدوية، والعمال والجنود، في اتجاه قصر كسيشينسكايا، حيث، في غرفة رسم راقصة الباليه ذات الأعمدة البيضاء، خاطب البولشفيين الشكوكيّين. في الصباح التالي، خاطبهم في الغرفة الرقم 13 في قصر توريدا. كان الجميع مصعوقين، قال مولوتوف. في البداية، دعمته أليكسندرا كولونتاي فقط من دون أي تحفظ. قال تروتسكاي، «لم يكن البولشفيون مستعدين للينين، تمامًا كما كانوا غير مستعدين لثورة شباط/فبراير».

* * *

أقنع عمل لينين البطولي ستالين، الذي اعترف: لقد اتضحت العديد من الأمور على نحو أفضل. اشتاق الناس إلى السلام والأرض، لكن حكومة النيات الحسنة أصرت على تشريف الامبراطور الروسي، وعودته إلى القتال ضد ألمانيا، وأخرت على نحو غبي مسألة استقرار الأرض حتى انتخابات المجلس التأسيسي. بعد أشهر، وجد لينين وحده بالتدخل الفرصة النادرة للاستيلاء على

روسيا. وبعد السادس من نيسان/أبريل، بدأ لينين وستالين العمل جنبًا إلى جنب في صحيفة «برافدا»[399].

في الثامن عشر من نيسان/أبريل، وجد لينين مساعدة أيضا من الخطأ الكبير الذي اقترفه وزير الخارجية ميلوكوف، الذي أصدر مذكرة دبلوماسية يُعلم فيها بريطانيا وفرنسا بأن روسيا تنوي ضم الأقاليم العثمانية، بحرب امبراطورية من دون امبراطور. كان مجلس السوفيات قد دعم الحكومة الموقتة، شريطة أن تشن حربًا دفاعية فقط. وحطمت موجة من الاستياء الوزارة الهشة. وشكل الأمير لفوف ائتلافًا جديدًا مع كيرينسكاي على أنه وزير الحرب.

طالب البولشفيون الراديكاليون بثورة مسلحة. أما لينين، كبداية للعديد من مثل هذه التراجعات بعد الوصول مع جميع الأسلحة الأيديولوجية المتقدة، وجب عليه كبت رجاله المتهورين: لم تكن الثورة أمرًا صحيحًا... في الوقت الراهن. عندما بدأ المؤتمر البولشفي في الرابع والعشرين من نيسان/أبريل في غرفة رقص كسيشينسكايا، دخل لينين كأنه مفتش يزور الصف. وحتى وصول لينين، اعتقد لودميلا ستال، أن جميع الرفاق كانوا يهيمون في الظلام. أما ستالين فقد كان خارج ذلك الظلام بالتأكيد. وعندما تهجم كامينيف على لينين، استهزأ ستالين من حلفائه السابقين. أصبح كلينين مجددًا، لكن هذا لم يعنِ أنهما اتفقا على كل شيء [400]؟.

قدم ستالين تقريره عن المسألة القومية. فاز بالنقاش، إلا أنه لا

يزال معروفًا على نحو مثالي بسرقته القوقازية، واحتاج إلى دعم لينين. كنا نعرف الرفيق كوبا لعدة سنين، صرح لينين. اعتدنا رؤيته في كراكو حيث كان مكتب الحكومة الرسمي. كان نشاطه في القوقاز مهمًا. فقد كان عاملًا جيدًا في جميع أنواع الأعمال المتطلبة تحمل المسؤولية. تذكر مولوتوف لينين وهو يشرح جوهر الانجذاب إلى ستالين: «لقد كان شخصية قيادية، حيث من الممكن توكيل ستالين بأي مهمة».

في التاسع والعشرين من نيسان/أبريل، حل ستالين في المرتبة الثالثة بسبعة وتسعين صوتًا في انتخابات مجلس المدينة، تمامًا بعد لينين وزينوفيف، وأظهرت تلك النتيجة مكانته في الحزب. أخذ ستالين الآن يقضي معظم وقته في السوفيات، يعمل في تحرير صحيفة «برافدا»، أو يعمل في مجلس المدينة مع لينين. اختار مجلس المدينة لينين وستالين وكامينيف وزينوفيف على أنهم دائرة إصدار القرار في المكتب الحكومي الرسمي، لأول مرة، كسلف للجنة التنفيذية الشيوعية المتمتعة بالسلطة بكاملها[401].

في الرابع من أيار/مايو، وصل تروتسكي أخيرًا من أميركا، وأبهر على الفور بيتروغراد، متحدثًا كل ليلة تقريبًا في سيركي موديرني الممتلئ بكامله حيث كان يُحمل غالبًا إلى المسرح من قبل الحشد. لاحظ سوكهانوف، أنه كان ثملًا لكثرة شعبيته.

عرف لينين قيمة تروتسكي وتودد إليه، يدعوه إلى الانضمام إلى البولشفيين بعد أسبوع. والشيء الوحيد الذي فرقهما، كما قال

لينين، هو الطموح. أما ستالين فلا بد من أنه كان مستاءً من عودة نجم الثورة هذا. كان من المفترض أن يكتب أكثر من ستين مقالة العام 1917، لكن تروتسكي سخر من أنه كان يقدم وحسب تعليقات غبية على أحداث لامعة. وعندما عيّن لينين وفدًا للتفاوض مع تروتسكي، تم تجاهل ستالين على نحو مفهوم.

* * *

على نقيض تروتسكي، لم يترك ستالين بصمته في العام 1917. عبر عن ذلك بنفسه في أحسن وجه: قبل الثورة، قاد حزبنا تحركًا سريًا. كان حزبًا سريًا. أما الآن فقد تغيرت الظروف، ولم تعد تناسبه حقًا. فقد ازدهر في الظلال.

كان العام 1917 هو حقًا تجربة ستالين الوحيدة في سياسات الديموقراطية الصريحة، وهي تعتبر بصعوبة بالغة البيئة المثالية لشخص تدرب على مكائد سفك الدماء في القوقاز. تحدث بهدوء وبلهجة جورجي ساخرة. «لم أفهم الكثير مما قاله»، نقل الشاهد، «لكني لاحظت شيئًا واحدًا: جميع جمل ستالين كانت عبارات حادة وجازمة يميزها وضوح الصيغة». اعتقد العامل الذي رآه يتحدث أن ما قاله بدا جيدًا ومفهومًا وبسيطًا، لكن بطريقة ما، لا يمكن أحدًا تذكر خطابه بعد انتهائه. كان يتجنب إلقاء الخطابات في الاجتماعات الجماهيرية، إلا أن الإلقاء المتواضع البسيط المناقض لفن الخطابة، قد أثبت أنه مؤثر على نحو مفاجئ، ومقنع للكثيرين ممن لا يثقون بالمفكرين المُبهْرَجين.

عندما استولى لينين على السلطة، وهو محاصَر من جميع

الجهات، ويدير حكومته مثل البطانة التآمرية، شعر ستالين بالراحة مجددًا.

* * *

في الثالث من حزيران/يونيو، وصلت المعجبتان الشابتان بسوسو، آنا وناديا أليليفا، لتبجيل بطلهما في الكونغرس الأول للسوفيات في المدرسة العسكرية في جزيرة فاسيلفسكي. حضر ستالين وسفيردلوف جلسات الافتتاح - كانا أول الواصلين مع لينين. «رأيت الثلاثة يدخلون القاعة الفارغة»، نقلت آنا أليليفا، التي كانت تعمل لصالح الحزب. لم نكن قد رأينا ستالين لعدة أيام، وظلت غرفته في الشقة فارغة.

«يجب أن نزوره»، همست فتاة المدرسة ناديا. «ربما يكون قد غير رأيه بشأن المجيء للعيش معنا في شقتنا». وفي اليوم التالي، شهدوا اللحظات الأكثر إثارة في الكونغرس.

لم يكن هناك أي حزب في روسيا تجرأ على قول: «اتركوا السلطة لنا وحسب»، دوىّ بذلك المنشفي تسيريتيلي.

في تلك اللحظة، نهض لينين من كرسيه، وصاح: هناك مثل هذا الحزب!

لاحظ فيريشتشاك، زميل ستالين في زنزانة بيلوفكا، أن لينين وزينوفوف وكامينيف هم المتحدثون الرئيسيون، لكن سفيردلوف وستالين يوجهان بصمت العمل البولشفي - تلك هي المرة الأولى التي أُدركت فيها الأهمية الحقيقية للرجل.

ترك ستالين انطباعًا مؤثرًا في تروتسكي، الذي كشف وصفه سبب فقدانه الصراع معهم على السلطة. كتب قائلًا، إن لستالين أهمية كبيرة في الخفاء. إنه يمتلك موهبة إقناع القادة العاديّين، ولا سيما أولئك الموقتين. «لم يكن يُعتبر القائد الرسمي للحزب»، يقول ساغيراشفيلي، وهو جورجي منشفي آخر في بيتروغراد طوال العام 1917، لكن الجميع أصغى إلى ما أراد قوله، بمن فيهم لينين - كان ممثلًا عن الأعضاء المجندين، الرجل الذي يعبر عن آرائهم ووجهات نظرهم، الأمر الذي لم يكن معروفًا للاجئين سياسيين مثل تروتسكي. كان سوسو القائد غير المشكوك في أهليته للقوقازيين. شعر لينين بذلك، كما عبر ساغيراشفيلي، وكان يعرف أنه يقف خلفه عدد لا يُحصى من القادة من جميع الأقاليم[402]. وبينما كان تروتسكي يثب مرحًا على المسرح في سيركوس، وجد ستالين حلفاء جدد، مثل الشاب الذي كان قد طرده على نحو غير رسمي من البيورو، مولوتوف[403].

* * *

انتقل ستالين للعيش مع مولوتوف، الذي كان يقطن في شقة فسيحة في شارع شيروكايا، مقابل نهر النيفا في بيتروغراد سايد، مع ثلاثة رفاق آخرين. «كان ذلك نوعا من المجمع الودود»، قال مولوتوف. اعتذر ستالين، على نحو غير معتاد، إلى مولوتوف لما أطلق عليه الأخير «أكبر خطأ» يقترفه ستالين. «كنت الأقرب من الجميع إلى لينين في المرحلة الأولية في نيسان/أبريل»،

اعترف ستالين. أصبح الاثنان صديقين، فضلًا عن أن مولوتوف، الذي لم يتم انتخابه إلى مجلس المدينة في نيسان/أبريل، كان بحاجة إلى نصير. كانا متناقضين: مولوتوف، القوي والمتلعثم في كلامه والمرتدي للنظارات، كان مُملًا، والأصح أنه برجوازي. لكنهما تشاركا في التعصب الماركسي، والميول نحو الإسراف في الشرب، وإيمان كإيمان روبيسبيري بالثورة، وعقدة النقص الانتقامية، وإيمان ببراعة ستالين.

كان ستالين في حالة انتقال مستمرة، يعمل في الليل ثم يلتمس أماكن النوم في منازل الأصدقاء. وكثيرًا ما كان ينام حيث يعمل في قصر كسيشينسكايا. عملت تاتيانا سلافانتسكايا هناك كمساعدة في مجلس المدينة تحت سلطة سفيردلوف وستاسوفا. وساعدت لودميلا ستال في تحرير رابوتنيستا (المرأة العاملة) وإدارة العلاقات مع بحارة المرفأ العسكري كرونستادت: ولا بد من أنهما التقيا معًا. حيث يُقال إن ستالين قد أشعل علاقته العاطفية مجددًا مع ستال. وإن كان ذلك صحيحًا، فهي لم تكن الوحيدة.

لم يستفد ستالين من إخلاص مولوتوف السياسي وإقامته في منزله وحسب. «لقد سرق فتاتي، مارسيا»، ضحك مولوتوف. لم تكن مارسيا هي المرأة الأخيرة التي يضحي بها مولوتوف بها من أجل أهواء ستالين.

في وقت باكر من المساء، وصلت آنا وناديا أليليفا إلى برافدا لرؤيته. كانت المكاتب مزدحمة ومليئة بدخان السجائر. أخبرهما المساعد بأن ستالين منشغل، تقول آنا، «لذا بعثنا برسالة نقول فيها

إننا راغبات في رؤيته، فخرج للقائنا».

«حسنًا، أهلًا»، قال سوسو، متبسمًا بشغف، «أنا مسرور لمجيئكما. كيف هي الأحوال في المنزل؟».

«غرفتك بانتظارك»، قالت الفتاتان.

«يا للروعة، لكني مشغول جدًا»، قال لهما. «لكن أَبقيا تلك الغرفة لي».

بعدها، جاء أحدهم وأسرع ستالين لمصافحته - ثم عاد إلى العمل مسرعًا[404].

* * *

كان العام 1917، كما وصفه لينين، مطاردة بخطوتين إلى الأمام، وخطوة إلى الخلف. في حزيران/يونيو، طالب الراديكاليون في الجناح المسلح للحزب البولشفي - المنظمة العسكرية، التي زعمت في ذلك الوقت ولاء 60 ألف جندي لها -، بمظاهرة مسلحة. لقد تم تحديد يوم لهذه الثورة غير المخطط لها: العاشر من حزيران/يونيو. في اجتماع الحزب، أيدهم لينين. كان من الخطأ فرض الأمور، تمامًا كما هو من الخطأ عدم انتهاز الفرصة. عبّر ستالين عن رأيه بذلك، وساعد في التخطيط للمظاهرة، وصاغ بيانها: «عند رؤية العمال المسلحين، سيختبئ البرجوازيون». إلا أن كلًا من زينوفيف وكامينيف، قد عارضها.

في التاسع من حزيران/يونيو قرأ المناشفة جهارًا في مجلس السوفيات، مناشدة ستالين، واستنكر تسيريتيلي المؤامرة البولشفية

للقبض على السلطة. احتاج لينين إلى دعم السوفيات، آملًا أن يستخدم شرعيته كغطاء لانقلابه العسكري البولشفي. وبدلًا من ذلك، منع السوفيات المظاهرة. وبعد ساعات من الذعر، وافق لينين على إلغائها: «إن أي حركة خاطئة من حزبنا يمكنها تحطيم كل شيء». أصبح الآن حذرًا تمامًا كما كان ستالين وكامينيف في شهر آذار/مارس. وفي الحادي عشر من ذلك الشهر، هدد ستالين ناقدًا التأرجح الذي لا يحتمل، بالتخلي عن منصبه.

أطلق السوفيات، من دون شك، مظاهرته في الثامن عشر من حزيران/يونيو، لكن البولشفيين منعوها، حيث نشر ستالين بيانه في «برافدا». كان ذلك انتصارًا للدعاية. في يوم شمسي مشرق، كتب ستالين في اليوم التالي، «عمود المظاهرات لا ينتهي. من الصباح إلى المساء، موكب من الملفات نحو حقل مارس، غابة من الرايات... زئير متواصل من الحشد... استبدلت الترنيمات الوطنية والدولية بنشيد «ضحاياكم هالكون»». كان هناك صرخات من أجل «كل السلطة للسوفياتيين!». لكن، لا وجود لأي فوج واحد أو عامل يعرض «الثقة بالحكومة الموقتة!». في هذه الأثناء، خلال الحرب المستمرة ضد ألمانيا الامبراطورية، أمر كيرينسكي، وزير الحرب، بالهجوم على أمل أن يدعم الحكومة. أما ذلك الهجوم، آخر بقايا حرب روسيا، فقد كان كارثة[405].

كان لينين منهكًا: يعاني آلامًا في الرأس. ذهب للعلاج في حمام شمس في فيلا إلى جانب البحيرة في فنلندا. لكن الحكومة ترنحت

مجددًا: أوقف هجوم كيرينسكي، بينما تحركت فنلندا وأوكرانيا نحو استقلالهما. وسرعان ما استقال وزراء الحزب الديموقراطي التأسيسي (كاديت)، معترضين.

أثناء غياب لينين، قررت منظمته العسكرية[406] القبض على السلطة. «لقد أضيئت السماء ليلًا بشفق قطبي شمالي»، كتب ساغيرشفيلي، بحيث يتمكن المرء من قراءة صحيفته في الخارج. لم يكن الرجال قادرين على النوم، وعملت قوى خفية على سحبهم إلى الخارج، للتجول في الشوارع. رفعوا أعينهم إلى هذا المشهد السماوي: إلى الصراع الجليل بين الظلام والنور.

* * *

في الثالث من تموز/يوليو، انطلقت حشود من الجنود والبحارة والعمال، محملين برشاشات مع أحزمة رصاص من ذخيرة حربية متقاطعة على صدورهم، نحو قصر توريدا، وهو فوج الرشاشات البولشفي الأول في طليعة الجيش. أوقفت السيارات تحت تهديد السلاح، وتمت مصادرتها. وبانطلاق السيارات والشاحنات المصفحة المليئة بالمسلحين في أنحاء الشوارع، بدأت بعض الفرق بإطلاق النار بشكل عشوائي على أصحاب المحلات في نيفسكاي بروسبيكت.

اندلعت الشجارات بالبنادق. هناك في القاعدة البحرية «كرونستدت»، أثار البحارة الشغب. قتلوا 120 ضابطًا بمن فيهم الأميرال، ثم طالبوا بأن يعطيهم لينين وزينوفيف وكامينيف

الأوامر للسيطرة على العاصمة. وعندما لم يحصلوا على أي إجابة، اتصلوا بستالين، الجالس في مكتبه في «برافدا» مع الشاعر البولشفي ديميان بيدني: هل يجب أن يسيروا مع بنادقهم؟

«بنادق»؟ أجاب ستالين. «رفاقك أبرع من ذلك... أما بالنسبة إلينا نحن الكتّاب، فدائمًا ما نصطحب معنا بنادقنا وأقلامنا، في كل مكان معنا، [لكن] بالنسبة إليك وإلى جيشك، أنتم أبرع من ذلك!». كان ستالين قد شجع جزئيًا هذا الانقلاب العسكري، غير المقصود نوعًا ما، وهو يسأل، «هل يمتلك الحزب الحق في التبرؤ من الأمر والوقوف متفرجا؟». ربما كان تروتسكي محقا في أن ستالين هو واحد من المنظمين لثورة تموز: كلما بدأ الشجار، سواء أكان في ساحة في تيفليس، أم في سجن بوكا، أم في شارع بيتروغراد، دائمًا ما يجاهد لجعله عنيفًا إلى أقصى ما يمكن.

اهتاجت الجماهير المدججة بالبنادق حول قصر توريدا، متوقعة من السوفيات إحكام السيطرة على السلطة، تطبيقًا لشعار لينين: السلطة للسوفياتيين. لكن في الداخل، لم يرغب تشخيدزي والسوفيات، أثناء مناقشة شكل الوزارة الجديدة، في السلطة. بل خافوا منها. اهتاج الحشد من ممانعة السوفيات. في تلك الأثناء، أجدت إجابة ستالين الغامضة نفعها: كان بحارة كرونستادت في طريقهم.

في قصر كسيشينسكايا، فقد ستالين وأعضاء مجلس المدينة أعصابهم فجأة، ودعوا إلى عودة لينين من الإجازة. «كان بإمكاننا السيطرة على السلطة»، قال ستالين، لكن ضدنا، كانت ستثور

الجبهات والأقاليم والسوفياتيون. أسرع ستالين إلى توريدا ليطمئن تشخيدز والسوفيات، ولكن فات الأوان.

كان لينين على متن القطار المتجه إلى بيتروغراد، عندما سمع ستالين بأن وزير العدل بافيل بيرفيرزيف على وشك اتهام القائد البولشفي بالخيانة، كاشفًا أنه كان يتلقى تمويله من الامبراطور الألماني. كان هذا صحيحًا إلى حد ما، إلا أن ستالين عاد إلى قصر توريدا، وناشد رفيقه الجورجي تشخيدز حجب القصة. وافق تشخيدز، لكن بعد فوات الأوان.

في الساعات الباكرة في الرابع من تموز/يوليو، أسرع لينين إلى القصر. يجب أن تُضرَبوا بالسياط على هذا!»، صاح بالمتهورين البولشفيين.

وفي صباح ملبد بالغيوم، حكم 400 ألف عامل وجندي الشوارع المهجورة، وانضم إليهم على الفور عشرون ألف بحار، كانوا مدججين بالسلاح، وصلوا بأسطول صغير من القوارب. لم تكن لديهم أي خطة: كان البحارة البارعون مع عزف فرقهم النحاسية أكثر اهتمامًا بالاستعراض أمام رفيقاتهم في أرجاء الشوارع، وإرهاب البرجوازيين: بحارة مع رفيقاتهم بملابسهن الخفيفة وأحذيتهن العالية، يتجولون في كل مكان. ذكر ستالين أن الشوارع كانت مشاهد من الابتهاج. تجمّع البحارة خارج قصر كسيشينسكايا للمطالبة بالقيادة: أين كان لينين؟ حاول الاختباء في القصر قبل الظهور على نحو مرتبك، لإلقاء خطاب لم يقدم فيه شيئًا.

توجه البحارة، يدعمهم عشرون ألف عامل إضافي من بوتيلوف، إلى قصر توريدا للوصول إلى قرار بشأن مجلس السوفيات المرتبك الذي خيب أعضاؤه آمالهم.

كانت هناك مشاهد قبيحة[407]؛ لكن في الخامسة مساءً، فُتحت أبواب السماء: انهمر المطر على الثورة غير المقصودة. تفرقت الحشود. أعفى حرس إزميلوفسكاي الأوفياء السوفياتيين المُحاصرين، والمنكشفين الآن بشكل واضح. تراجع لينين ومجلس المدينة البولشفي المكتئب على نحو مثير للشفقة. لقد انتهت أيام تموز/يوليو.

قررت الحكومة، بدعم من شعبية كيريسكاي المتزايدة، أن تقضي على البولشفيين. وبالرغم من مناشدات ستالين، نشر وزير العدل بيرفيرزيف دليلًا على التمويل المالي الألماني للينين. غيّر العديد من الجنود رأيهم عند الحديث عن الخيانة.

في فجر الخامس من تموز/يوليو، اقتحم جنود الحكومة صحيفة «برافدا»، إلا أن ستالين كان قد هرّب لينين قبل دقائق فقط. وطوال الليل، أخذت المدافع وثماني سيارات مصفحة مواقعها لقصف قصر كسيشينسكايا، إلا أن البولشفيين لم يمتلكوا أي قوة للدفاع عن حصونهم. أسرع ستالين إلى الحصن البولشفي، حصن بيتر آند بول، حيث تمكن من إقناع البحارة بعدم قبول المعركة. وأخذ يتردد جيئة وذهابًا بين الجنود وقصر كسيشينسكايا لتفادي المجزرة، ثم طلب من تشخيدزي وتسيريتيلي في قصر توريدا ضمانًا لعدم إراقة الدماء في حال استسلم البولشفيون داخل القصر

والحصن. وافق تسيريتيلي: «رمقني ستالين بنظرة محيرة ثم غادر».

في السادس من تموز/يوليو، سلّم 500 بولشفي نفسه في قصر راقصة الباليه، ثم عاد ستالين إلى حصن بيتر آند بول للإشراف على استسلامه.

أُعجب لينين بمقدرة ستالين المتواصلة على حل المشكلة. لكن كنتيجة لإخفاقهم المشؤوم، كتب جون رييد، وهو صحافي شيوعي من فورتلاند في أوريغون، انقلب الرأي العام ضدهم. تراجعت جماعاتهم العاجزة عن القيادة إلى فيبورغ كوارتر، تتبعهم مطاردة وحشية من البولشفيين.

تولى كيرينسكاي، البالغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا، والرجل الوحيد الذي تمكن من توحيد اليمين واليسار، منصب رئاسة الوزراء. وعلى نحو ساخر، كان ابن مدير مدرسة لينين في سيمبيرسك هو المتحدث بحماسة متقدة - إن الاهتياج المفاجئ وارتعاش الشفاه والتروي النائم لإيماءاته، جعلته أشبه بشخص ممسوس. أمر وزير العدل لدى كيرينسكاي باعتقال[408] لينين؟.

كان البولشفيون على شفير الهلاك. أما لينين ففي خطر. وتحمل ستالين مسؤولية سلامته[409].

(40)

خريف 1917: **سوسو وناديا**

قام ستالين بنقل لينين خمس مرات خلال ثلاثة أيام أثناء مطاردة كيرينسكاي لصاحب السلطة. تم اعتقال تروتسكي وكامينيف، لكن لينين، عاد بحراسة ستالين، إلى المخبأ. اقتحمت الشرطة منزل أخت لينين. أسرعت كروبسكاي إلى مكان إقامة ستالين ومولوتوف في شارع شيروكايا لمعرفة مكان تواجد لينين.

في ليلة السادس من تموز/يوليو، أسرع ستالين بلينين إلى مكان الاختباء الخامس، شقة عائلة أليليفا الجديدة العصرية، في شارع تينث روزدستفينسكايا السابع عشر، حيث كان هناك الحاجب والخادمة بزيهما الرسمي.

«أَرني جميع المداخل والمخارج»، قال لينين حال وصوله، متفحصًا العليّة أيضًا. أعطيناه غرفة ستالين، قالت أوليغا. كان لينين مبتهجًا على نحو مثير للاستغراب، رغم مكوثه لمدة أربعة أيام عصيبة. عادت آنا أليليفا لتجد شقتها مليئة بأشخاص متوترين لا تعرفهم. «عرفتُ على الفور الشخص الذي تم تعريفي إليه في البداية».

جلس لينين على الأريكة بلا سترة، مرتديًا صُدْرة وقميصًا بلون فاتح مع ربطة عنق. في تلك الغرفة المكتظة على نحو لا يطاق، استجوبها لينين بشدة: عما رأته في الشوارع؟

«يقولون إنك رحلت إلى كرونستادت، وتختبئ في سفينة كنس الألغام».

«هاه هاه!»، ضحك لينين بابتهاج انتشر بسرعة. بعدها سأل ستالين والآخرين: ما رأيكم يا رفاق؟

قضى لينين الأيام وهو يكتب. كان ستالين يزوره يوميا. أخذ يدرس بهدوء التغيرات السياسية في قصر توريدا، حيث التقى مصادفة بسيرغو أوردجونكدز. كلاهما كان قلقًا من أن العديد من البولشفيين البارزين رأوا أنه لا يجب على لينين الاختباء، بل عليه الظهور [لمواجهة المحاكمة]. كتب سيرغو «ذهبنا معًا لرؤية لينين». أما الحكومة فطالبت باستسلامه. في منزل عائلة أليليفا، ناقش لينين وستالين وسيرغو وكروبسكاي وأخت لينين، ماريا، ما الذي يجب عليهم فعله.

فضل لينين في البداية تسليم نفسه. خالفه ستالين الرأي. اعتقد أنه يجب أولًا على لينين وزينوفيف الانتظار وتسليم نفسيهما فقط عندما تصبح سلامتهما مضمونة، لكن زيارته إلى قصر توريدا أقنعته بأن هذا أمر مستحيل، فحذره قائلًا، «يريد أرستقراطيو بروسيّا (اليونكر)[410]؟ أخذك إلى السجن، لكنهم سيقتلونك في الطريق». وصلت ستاسوفا لتنقل خبر نشر المزيد من الأدلة عن خيانة لينين. علت وجهه رعشة قوية، وصرح [لينين] بإصرار مطلق بأنه سيتوجب عليه الذهاب إلى السجن لتبرئة اسمه في محاكمة.

«دعينا نودع بعضنا»، قال لينين لكروبسكاي. «ربما لن نتمكن

من رؤية بعضنا البعض مجددًا».

أُرسل ستالين وسيرغو مجددًا إلى قصر توريدا لالتماس ضمان كي لا يُوقع اليونكر بإليتش. نقل ستالين عند عودته إجابة، «المناشفة لا يمكنهم توقع ما الذي سيحدث».

أصبح ستالين وسيرغو واثقين الآن من أن لينين سيُقتل إن سلّم نفسه. حث ستالين والآخرون إليتش على ألا يظهر إطلاقا، تقول كروبسكاي. أقنعه ستالين...

وأنقذ حياته». كان ستالين على حق: واجه عضو الدوما السابق، بولوفتيف، الضابط المسؤول عن اعتقال لينين. «كيف يجب عليّ إيصال هذا السيد، لينين؟»، سأل الضابط، «كاملًا أم مقطعًا؟».

استمر النقاش في الأخذ والرد. فجأة، سحب سيرغو خنجرًا خياليًا وصاح مثل قاطع الطريق الجورجي: سأقطّع أي شخص يريد أن يعتقل إليتش!

* * *

بدا أن ذلك قد حسم الأمر. يجب أن يتم تهريب لينين إلى خارج بيتروغراد: أخذ ستالين على عاتقه مهمة تنظيم رحيل لينين. وافق عامل اسمه إيميليانوف[411] على تخبئة لينين في كوخه في رازليف إلى الشمال من بيتروغراد.

عملت أوليغا وآنا أليليفا على خدمة ضيوفهما بنشاط. كانتا تحاولان المستحيل لتطمئنا إلى أن لينين وستالين يتناولان الطعام على نحو ملائم.

«ما الذي تطعمينه لستالين؟»، سأل لينين. «من فضلك، أوليغا، يجب أن تراقبيه، إنه يفقد وزنه».

كان ستالين في تلك الأثناء يتأكد من أن لينين يتناول طعامه بشكل جيد: «حسنًا، كيف هو وضع المؤن؟ هل يأكل إليتش جيدًا؟ قدمن الأفضل إليه». كان ستالين يأتي أحيانًا بالمزيد من الطعام.

عمل لينين وستالين بعناية على دراسة خطط الهرب. في الحادي عشر من تموز/يوليو، وصل ستالين قبل موعد المغادرة، واحتشد الجميع في غرفة لينين لتقديم نصائحهم بشأن طرائق التنكر. حاولت أوليغا وضع الضمادة على رأسه، لكن ذلك لم يُجد نفعه. لم يقترح أحد منهم ارتداء ملابس نسائية.

«ألن يكون من الأفضل لو حلقت»، اقترح لينين. بعد لحظة، جلس لينين ووجهه مغطى بالصابون أمام مرآة الحلاقة المدورة إلى جانب لوحة لتولستوي في غرفة نوم ستالين. عمل سوسو شخصيًا كحلاق له، ليحلق لحية لينين وشاربه.

«ذلك جيد جدًا الآن». أعجب لينين بنفسه في المرآة. «سأكون مثل قروي فنلندي، ولن يقدر أحد على معرفتي إلا بصعوبة شديدة».

في الثاني عشر من ذلك الشهر، رافق ستالين وأليليفا لينين إلى محطة بريمورسكي لتنفيذ مخطط اختفائه: اختبأ عند رازليف قبل الانتقال إلى حظيرة في فنلندا.

يسافر جيئة وذهابًا. أصبح ستالين وسيلة اتصاله الوحيدة مع بيتروغراد. «اعتاد أحد أبنائي على إحضار ستالين إلى الحظيرة

[حيث كان لينين مختبئا] بواسطة القارب»، ذكر إيميليانوف.

وفي وابل من المقالات، شجب ستالين علاقة دريفوس الجديدة بكيرينسكي: «الافتراءات التافهة ضد قائد حزبنا، وقراصنة الأقلام في صحافتنا المرتشية». سخر خصيصًا من الأغبياء العميان من المناشفة لتصرفهم كضحايا يسهل افتراسها. قال إن كيرينسكي سيُغرقهم مثل ذباب في الحليب.

سلموا البولشفيين؟ جعل المناشفة يطلبون من كيرينسكي ذلك في مثال نادر عن الهجاء الستاليني. «بخدمتكم، أيها السادة، قسم الاستخبارات. ننزع السلاح من الثورة؟ ببالغ السعادة، أيها السادة من مالكي الأراضي والرأسماليين».

عمل ستالين كأنه قائد بولشفي - ونقل منزله: وهذا سيغير حياته[412].

* * *

لا أحد يراقب المبنى، طمأنته أوليغا أليليفا عندما جاء للزيارة في أحد الأيام. «من الأفضل أن تعيش معنا، لترتاح وتنام بشكل ملائم».

انتقل ستالين من شقة مولوتوف إلى شقة عائلة أليليفا. كانت الغرف مليئة بالهواء النقي، ومضاءة ومريحة؛ المطبخ والحمام، وحتى (الدُّش)، عصرية وأشبه بالقطعة الفنية. أما الخادمة، التي تعيش في غرفة صغيرة، فكانت تطهو الوجبات. احتل ستالين غرفة نوم فيودور (التي هي بالأصل غرفة لينين)، والتي تتباهى

بتواجد سرير حقيقي فيها، ومرآة مدورة على منضدة حلاقة خشبية، ومكتب مزخرف، ولوحة للورد بيرون. عند إفطار اليوم التالي، قال إنه لم ينم بهذا الشكل الجيد منذ وقت طويل.

تواجد سوسو وحيدًا مع أوليغا في أوقات كثيرة. حيث كان سيرجي يدير مصنع توليد الطاقة؛ وناديا تقضي الإجازة الصيفية في موسكو؛ وآنا تعمل في الحزب. اعتنت أوليغا به: اشترت له بذلة جديدة. طلب منها خياطة بعض الحشوات، وياقتين مخمليتين مرتفعتين داخل البذلة مع أزرار ليتمكن من إغلاقها للأعلى حتى الرقبة، لأن إصابته بالتهاب الحلق جعلت الياقة وربطة العنق غير مريحتين[[413]].

ظلت حياة ستالين فوضوية: يشتري طعامه وهو في طريقه عائدًا إلى المنزل: رغيفًا من الخبز وبعض السمك أو السجق من متجر في الشارع. كان يعمل بلا كلل في تحرير «برافدا». يكتب الكثير على مكتبه بالحمالة الذهبية المستندة إلى مجموعة الأقلام التي طُبع شكلها على أصابعه. أحيانًا يعود إلى المنزل، وأحيانًا أخرى لا يعود. وحالما يتغلب عليه التعب بما يكفي يسقط على سريره مع سيجاره المشتعل، يكاد يحرق المكان بكامله.

في أواخر تموز/يوليو، انتقل مجددًا أثناء الكونغرس السادس، المنعقد سرًا في مبنى رهباني في سامبسونفسكي بوليفارد، تحسبًا لأي اقتحام للشرطة[414] وبصفته القائد النائب، قدم ستالين التقرير الرئيسي، يحث فيه الممثلين البالغ عددهم ثلاثمئة، على التركيز

في المستقبل: يجب أن نستعد لأي شيء. وبعد تقديمه لتقرير آخر عن الوضع السياسي، أصر على أن تقوم روسيا بثورتها الخاصة وتتوقف عن الإيمان بأن أوروبا وحدها هي القادرة على إنارة الدرب، وذلك مقدمة لشعاره الشهير، الاشتراكية في بلد واحد». ربما يكون لينين هو من كتب تقرير ستالين الثاني، أو على الأقل وضع مسودته معه، إلا أن شريكه الحقيقي في إعادة بناء الحزب هو سفيردلوف، الذي تصالح معه أخيرًا.

«ألقى تقرير الرفيق ستالين الضوء بصورة كاملة على نشاط مجلس المدينة»، صرح سفيردلوف. و«بهذا يظل أمامي تحديد نفسي في المجال الضيق للنشاط التنظيمي لمجلس المدينة».

تم اختيار ستالين كرئيس التحرير لصحيفة الحزب، وعضو في الجمعية التأسيسية. لكن عندما تم انتخاب مجلس المدينة، ظهر بعد كامينيف وتروتكسي. كان البولشفيون لا يزالون في فترة ضعف، لكن ستالين تظاهر بأن فترة السلام مع الحكومة الموقتة قد انتهت. والأيام ستكون عنيفة، والأزمة تستجر الأزمة[415].

عاد إلى عائلة أليليفا. كانت إجازات ناديا الصيفية قد انتهت. عادت إلى منزلها مستعدة للمدرسة.

* * *

في ذلك الصيف، عمل ستالين سرًا مع الأختين في شقة أليليفا، حيث أصبح روح الحزب وحياته. «كان سوسو لا يعود إلى المنزل لأيام طويلة أحيانًا»، كتبت آنا أليليفا، ثم يأتي فجأة في

منتصف الليل ليجد الفتيات نائمات في غرفتهن. كانوا على مقربة حميمة من بعضهم: فقد كانت غرفة نوم ستالين وناديا متصلتين بباب.

كان بإمكانه رؤية مرآتها من سريره أو مكتبه.

«ماذا؟ هل أنتن في السرير؟»، يوقظ الفتيات. «استيقظن أيتها الكسالى! أحضرت لكنّ السمك والخبز!». تنهض الفتيات ويغادرن خلسة إلى غرفة نوم سوسو، والتي يعمها الابتهاج على الفور وتمتلئ بالضجيج. كان ستالين يروي الدعابات ويقلّد جميع الأشخاص الذين التقى بهم في النهار، بطريقة لطيفة، وأحيانًا خبيثة.

كان الطالب المثقف ذاتيًا والمراهقات المتعلمات جيدًا، يتناقشون في الأدب. أحب المزاح والضحك مع أصدقائهن. يسليهن بقصص عن مغامراته في المنفى، عن تيشكا، الكلب السيبيري. يقرأ لهن كتبه المفضلة، لبوشكين وغوركي وتشيخوف، ولا سيما قصص تشيخوف؛ تشاميليون وأنتر بريسبيف، لكنه كان يعشق دوشينكا بشكل خاص، ويحفظها غيبًا. كان يتحدث كثيرًا عن النساء. إنها حقًا دوشينكا، كان يقول عن النساء ذوات العقل الخفيف، اللواتي يعشن فقط من أجل أحبائهن من دون أي وجود مستقل لهن. سخر من خادمتهم، الفتاة الريفية بانيا، وأطلق عليهن جميعًا الألقاب. عندما يكون في مزاج جيد على نحو خاص، تقول آنا، «خاطبنا مثل «يبيفاني - ميتروفاني»»، وتلك مزحة على اسم مالكة الأرض في منفاه. «حسنًا، يبيفاني، ما الجديد؟». كان يرحب

بالفتيات كذلك. «أوه، أنت ميتروفاني، أنت هي!» وأحيانًا كان يناديهن باسم تيشكا تيمنًا بالكلب.

كانت يتحدث عن السياسة مع سيرجي والفتيات: كانوا أعضاء من الأسرة البولشفية. كانت ناديا فخورة جدًا لأنها بولشفية إلى درجة أنها كانت تتلقى السخرية لذلك في المدرسة. أما عرابها ينوكيدز وكالينين وسيرغو وسفيردلوف، فهم مسبقًا بمثابة أعمامها... فقد اختبأ لينين في منزلهم.

في أيلول/سبتمبر، تذكر آنا، «أحضر ستالين معه إلى المنزل رفيقًا قوقازيًا... بجسد جميل مع شعر أسود ناعم ووجه شاحب... صافحنا جميعًا بخجل، مبتسمًا بعينيه الكبيرتين اللطيفتين». «هذا كامو»، قال ستالين، «استمعن إليه. في جعبته الكثير من القصص الممتعة! «سُرَّت الفتيات: هذا هو كامو، الذي أمتعهن بحياته شبه الخيالية. قضى ذلك المتهور المضطرب عقليا خمس سنين في سجن خاركوف، وأطلقت الثورة سراحه. كان قد خطط للهرب، مثل رواية (كونت مونتي كريستو)، كرجل ميت في تابوت، حتى اكتشف أن السجانين يحطمون كل جماجم الجثث الخارجة من السجن بالمطرقة، تحسبًا لأي خطأ. تحدث كامو كثيرًا عن ستالين، ثم ارتفع صوته الهادئ اللطيف. كان قد جاء كامو إلى بيتروغراد يبحث عن مهمة جديدة، لكن علاقته مع عائلة أليليفا ستوصله إلى مأساة.

* * *

في اليوم التالي لعودة ناديا، بدأت تنظف الشقة، تدفع الكراسي

بصوت عالٍ جدًا، إلى درجة أن ستالين، عندما كان يعمل على مقالة، خرج من غرفته غاضبًا. «ما الذي يحدث هنا؟»، سأل سوسو. «ما هذه الفوضى!؟ أوه، هذا أنت! يمكنني أن أرى الآن ربة منزل حقيقية تباشر عملها!».

«ما الأمر؟ أهذا أمر سيئ؟»، أجابت المراهقة المهتاجة بشدة.

«بالطبع لا»، أجاب الضاحك سوسو» إنه شيء جيد! هيا انطلقي... اعرضي ذلك على البقية!

كانت ناديا فتاة المدرسة، كما ذكرت أختها آنا، مرحة جدًا وصريحة وعفوية وتتمتع بروح مبتهجة. وبرغم ذلك، كان نشوؤها في هذه العائلة البدوية البوهيمية، الذي يقاطعها زائرون مستمرون، واضطراب والدتها، قد جعلاها تطور مسحة جادة ومتزمتة، كالتماس للنظام والأمن.

«فقد والدي وأمي انضباطهما كالمعتاد»، كتبت ناديا إلى صديقة لها. أخذت تستخف باعتماد والدتها على العلاقات الجنسية الزائلة. «نحن الأطفال قد كبرنا»، كتبت في ما بعد، و«نريد أن نفعل ونفكر في ما يجلب لنا السرور. الحقيقة هي أن [أوليغا] لا تمتلك حياة خاصة بها، ولا تزال امرأة شابة تتمتع بالصحة. لذا يجب عليّ استلام أعمال المنزل». ربما اعتبرت والدتها مثل دوشينكا، بطلة قصة تشيخوف.

وعلى نحو تدريجي، طوال ذلك الصيف المليء بالأحداث، أصبح ستالين وناديا قريبين: كانت معجبة به سابقًا كصديق جورجي للعائلة وبطل بولشفي. «قضيا صيف العام 1917 بكامله معًا في

شقة واحدة. وأحيانًا وحدهما»، تقول ابنة أخت ناديا، كيرا أليليفا. «رأت ناديا الثورة العاطفية في جوزيف. وقالت والدتي إنه كان جذابًا جدًا. وقد وقعت ناديا في حبه من دون شك. لقبها باسم تاتكا؛ وهي كانت تناديه بسوسو أو جوزيف».

لا بد من أن ستالين، الطفل الوحيد لوالدة بدون زوج بالإكراه، قد افتقد ضحك الحياة الأسرية وحيويتها وعبثها. كان قد استمتع بذلك في منفاه، وكان قد مضى عقد الآن منذ زواجه من كاتو سفانيدز. لطالما أحب ذلك النوع من الفتيات، تلك التي تطهو وتنظف وتعتني به، مثل كاتو، ووالدته. في الواقع، قالت سفانيدز إن ستالين وقع في حب ناديا لأنها ذكرته بكاتو.

«ببطء، وقع ستالين في حبها»، قالت كيرا أليليفا. علاقة حب حقيقية. يمكن سوسو أن يكون هو والدها، كان أعداؤه يزعمون أنه كان كذلك في الحقيقة. لم تصادق التواريخ على ذلك، لكن لا بد من أن ناديا عرفت أن سوسو أقام علاقة مع والدتها الشبقة في السابق. أهناك تنافس بين الوالدة وابنتها على نزيلهما الجورجي؟

«لطالما امتلكت أوليغا مشاعر خاصة تجاه ستالين»، كتبت سفيتلانا، ابنة ناديا وستالين. لكن أوليغا لم توافق على علاقة ناديا، بذلت ما في وسعها لتُخرجها من هذه العلاقة، ولقّبتها بالغبية السخيفة. لم تكن لتقبل بهذه القرابة أبدًا. أكان السبب هو معرفتها بطبيعة سوسو، أم لأنها أقامت معه علاقة هي نفسها، أم بسبب الأمرين معا؟ على أي حال، كانت «الغبية السخيفة» ناديا قد وقعت مسبقًا في حب سوسو. بعد بضعة أشهر، قالت بفخر

لصديقتها الحميمة، «لقد فقدت الكثير من الوزن، يقول الناس إني واقعة في الحب».

تحدث ستالين في ما بعدُ، كيف فضل ناديا على أختها الأكبر سنًا: «كانت آنا متحذلقة نوعا ما وثرثارة على نحو مُتعب، بينما كانت ناديا ناضجة بالنسبة إلى عمرها، بتفكيرها واتزانها». فهمته بشكل أفضل. كان محقًا في شأن آنا، التي ستقوم بإزعاجه لبقية حياته، لكنه كان قد نسي شيئًا في ناديا.

كانت هذه المراهقة، بطريقتها الخاصة، عُصابية، محطمة وكئيبة، كما كان هو ربما أكثر كآبة. أُعجب ستالين بصرامة ناديا، التي ستتحطم في ما بعد على نحو كارثي، بعلاقته البدوية وأنانيته العنيدة. بل الأسوأ، سوف تستر شدة إخلاصها الاضطرابَ العقلي في العائلة: اضطرابًا ثنائيًا قد يُفقدها في النهاية صفة مدبرة المنزل الهادئة. «لكنه أُعجب بشخصيتها الصعبة»، قالت كيرا أليليفا. كانت ترد عليه وتحد من مكانته. إن تحدي فتاة المدرسة الجميلة والمخلصة بعينيها الغجريتين الوامضتين، قد أثار إعجاب ستالين. إلا أن علاقتهما في النهاية كانت هالكة ومشؤومة.

«لا نعرف بالتحديد متى أصبحا حبيبين. أصبحا زوجين علنًا بعد عشرة أشهر. لكن العلاقة ربما قد بدأت في هذا الوقت»[416].

* * *

كان البولشفيون على وشك تحقيق الخلاص المفاجئ: ليس ذلك الذي خطط له لينين أو ستالين، وإنما شخص من الجناح اليميني

متطلع ليصبح ديكتاتورًا عسكريًا. عمل كيرينسكي على ترقية قائد جديد للقوات المسلحة، هو الجنرال لافر كورنيلوف، وهو قروي سيبيري بعينيه الخائفتين المائلتين، ورأسه الأصلع وشاربه المجنح، ظهر كرجل روسي كامن على حصانه الأبيض ليطهر بيتروغراد من البولشفيين ويعيد النظام. لكن كورنيلوف كان مزهوًا بنفسه كثيرًا مثل كيرينسكي - امتلك حارسا شخصيًا من التركمان المدججين بالسيوف وبكسوة قرمزية اللون، لكنه لا يتمتع بذكاء يماثل ذكاء كيرينسكي. قيل إنه امتلك قلب الأسد، وعقل الخروف. وبرغم ذلك، بدا كورنيلوف رجل الساعة، وبدأ بقراءة كتب عن نابليون، الأمر الذي دائمًا ما يكون إشارة سيئة عند رجل الساعة.

حاول كيرينسكي استرداد القوة المسيطرة على مؤتمر موسكو الذي ضم جميع الأحزاب، بعيدًا عن العاصمة المضطربة. كتب ستالين في إحدى استعاراته الدينية، أن «بيتروغراد بالغة الخطورة؛ لقد هربوا منها... كهرب الشيطان من الماء المقدس». كان على حق: ففي موسكو، سرق الجنرال أضواء الشهرة من كيرينسكي. لكن الرجلين اتفقا على أنه يجب على كورنيلوف أن ينطلق بالقوات المسلحة إلى بيتروغراد لإعادة النظام. راودت كيرينسكي، الذي توهم أنه البونابرت الروسي، الشكوك عندها في أن الجنرال يخطط لانقلاب عسكري. كان هناك فائض خطير من النابوليين. تجاهل كيرينسكي رأي الجنرال، الذي قرر الانطلاق إلى بيتروغراد، على كل حال.

انتظرت العاصمة بتلهف. وجد كيرينسكي، معيّنًا نفسه قائد القوات

المسلحة، أنه لا يتمتع بأي دعم عسكري، وأَجبر على الاعتماد على السوفيات، وأعاد تنظيم الحراس الحمر البولشفيين. اعتُقل الجنرال، وتقسّم مجلس الوزراء. عيّن كيرينسكي نفسه بعد ذلك ديكتاتورًا على مجلس ذي خمسة رجال.

ونجا، لكن، مثل ميخائيل غورباتشيف بعد انقلاب آب/أغسطس العام 1991، كخجول مخفق، ومدمن على تعاطي الكوكايين والمورفين، استعاد السيطرة، لكنه لم يعد يحكم؛ فقط يتمتع بفخامة جناح ألكسندر الثالث في قصر وينتر.

لدينا على الأقل حكومة «جديدة» (صنف جديد!) من خمسة رجال، مزح ستالين في الثالث من أيلول/سبتمبر: اختارها كيرينسكي، وصادق عليها كيرينسكي، ومسؤولة أمام كيرينسكي. انطلقت القوة البولشفية في المصانع وبين الجنود وبحارة ميناء كرونستادت. كتب تروتسكي، أن ذلك الجيش الذي ثار ضد كورنيلوف هو الجيش الذي سيحقق ثورة تشرين الأول/ أكتوبر[417].

كشفت فترة حكم ستالين القصيرة كقائد بولشفي، تعجرفه المفرط الذي لطالما ميّزه. أخضع مجلس المدينة المنظمة العسكرية تحت سيطرة مُحكمة. استولى ستالين بوقاحة على أموالهم، وقاد صحيفتهم («سولدات») بأسلوب يفتقد المبادئ، ومخالف لأكثر المبادئ أساسية في ديموقراطية الحزب. ناشدوا مجلس المدينة.

وفي وصف مسبق للستالينية، نقدوا نظام الاضطهاد والكبت بكامله في شخصيته الغريبة، على نحو مفرط. غيّر ستالين

توجهات المنظمة العسكرية أمام محاكمة الحزب[418]. نظف حلفاءه سفيردلوف ودزيرزهينسكاي الفوضى التي سببها[419]. إلا أن تروتسكي وزينوفيف وكامينيف ظهروا الآن مجددًا من المخبأ والسجن. في الرابع من أيلول/سبتمبر، انضم تروتسكي إلى ستالين في اللجنة التنفيذية المركزية لكونغرس السوفيات، وفي «برافدا». انكسف نور ستالين من جديد. وتركزت الأضواء على تروتسكي.

كان ستالين كثيرًا ما يلتقي برفيقه المنشفي القديم ديفيد ساغيرشفيلي في ممرات معهد سمولني[420]. وعندما اتهمه ساغريشفيلي ببث أكاذيب مناهضة للمناشفة في صحيفته «برافدا»، ضحك بطريقة مبتهجة كما بدا وشرح، بقول مأثور لجورج أورويل: «إن للكذبة تأثيرًا يفوق تأثير الحقيقة». أما الأمر الأساسي فهو الحصول على الغرض المرجو. وكما قال ستالين لمولوتوف في ما بعد، إن الحقيقة تحميها كتيبة من الأكاذيب.

في النهاية، سقطت بيتروغراد والسوفيات في موسكو بين يدي لينين. لكن البولشفيين كانوا لا يزالون مختلفين بشأن الخطوة التالية. إنه لينين، بمجرد قوة الإرادة، هو من قادهم إلى ثورة تشرين الأول/أكتوبر: أحيانًا يمكن شخصًا واحدًا أن يغير مسار التاريخ. وبرغم ذلك، هدد كامينيف بإعادة توجيه التاريخ بنفسه، عرض البولشفي المعتدل طريقا مختلفا بالكامل. وفي الرابع عشر

من أيلول/سبتمبر، بدأ في محاولة التفاوض لإنشاء ائتلاف بين المناشفة والسوفيات في مؤتمر الدولة الديموقراطي في مسرح أليكسندرينسكي.

ذُعر رجل السلطة، المختبئ في هيلسينكي، واستاء بشدة. وفي الخامس عشر من أيلول/سبتمبر، أرسل مجلس المدينة رسالة إليهم يأمرهم بالاستيلاء على السلطة لصالح البولشفيين وحدهم.

«لن يغفر التاريخ لنا إن لم نحصل على السلطة الآن!»، كتب لينين. إلا أن كامينيف وزينوفيف خشيا أن يفقدا كل شيء. لقد عادت أيام نيسان/أبريل من جديد: لم يكونا وحدهما اللذين اعتقدا أن لينين مُضلَّل بشدة: كنا مشدوهين!»، اعترف بوخارين. وفي اجتماع مجلس المدينة التالي، الذي حضره تروتسكي وكامينيف وسفيردلوف وشوميان، من القوقاز، قام ستالين بدعم لينين، واقترح أن يتم توزيع الرسالة على نحو سري لمنظمات الحزب الأساسية. رفض مجلس المدينة بنسبة أصوات 6 مقابل 4، وهي نتيجة استثنائية قبل شهر تمامًا من ثورة تشرين الأول/أكتوبر التي كشفت شعبية طريقة كامينيف. وبرغم ذلك، قام المتطرفان الراديكاليان، ستالين وتروتسكي، عند رؤيتهما أنه لا حاجة إلى أي تحالف منشفي، بدعم لينين. وفي مجلس المدينة المنعقد في الحادي والعشرين من أيلول/سبتمبر، طالب ستالين وتروتسكي بمقاطعة ما قبل البرلمان القادم، حيث أمل كامينيف أن يستمر في تشكيل ائتلافه، لكنهما هُزما مجددًا على نحو حاسم.

تبجح لينين بأن كامينيف وزينوفيف كانا خائنين بائسين!

سيطر البولشفيون في الخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر، على اللجنة التنفيذية السوفياتية. بدأ تروتسكي، العائد كرئيس للسوفيات بعد ثلاث عشرة سنة من الاعتقال والنفي والهجرة، في تأكيد القيادة السوفياتية للجيش. كان قد انضم هو وحزبه إلى البولشفيين للتو، لكن، بينما ظل لينين مختبئًا، استمر تروتسكي في العمل ليلًا في سيركي موديرن المكتظ.

قام لينين بقصف كامينيف والبولشفيين بوابل من المقالات والرسائل السرية، محتجًا بأن الوقت قصير، مع بدء كيرينسكي بقمع آخر، ومع استدعاء الكونغرس الثاني للسوفيات إلى المثول في بيتروغراد. وهكذا، توجب عليهم امتلاك السلطة أولًا، أو المشاركة في الائتلاف، وتخبئة أنفسهم بعار أبدي، وتدمير أنفسهم كحزب!.

عاد لينين سرًا من فنلندا للاختباء في الشقة المريحة لمارغريتا فوفانوفا في فيبورغ، التي استمر منها في الإفاضة بنكده الراديكالي. يعتمد نجاح الثورة الروسية والثورات في العالم فقط، على قتال ليومين أو ثلاثة أيام»، صرح، يخشى من انتشار وجهة نظر كامينيف. «من الأفضل الموت كرجل من أن تسمح للأعداء بالمرور!».

وعندما انقلب مجلس المدينة، قدّم استقالته. «كانت تلك الرسائل مكتوبة بقوة استثنائية»، كتب بوخارين، و«هددنا بجميع أنواع العقوبات». في غضبه الشديد، بدأ لينين يبدو كأنه مخبول تمامًا. في الواقع، أجرى ستالين، وهو محرر صحيفة الحزب («طريق

العمال»)، مراقبة على جميع خطابات لينين الجريئة، لينشر بدلًا منها مقالات سابقة أكثر اعتدالًا.

كان ذلك الرسول الغاضب يتحرر من سجنه أحيانًا. في صباح أحد الأيام، قبل ثورة تشرين الأول/أكتوبر تمامًا، تذكر آنا أليليفا، «طُرق الباب. رأيت رجلًا صغيرًا بعض الشيء يرتدي معطفًا أسود وقبعة فنلندية عند عتبة الباب».

«هل ستالين في المنزل؟»، سأل باحترام.

«يا إلهي، تبدو مثل الفنلندي تمامًا، فلاديمير إليتش»، تعجبت آنا لرؤية لينين. بعد محادثة قصيرة، غادر هو وستالين معًا...

بعد بضعة أيام، استولى هذان الرجلان الصغيران، اللذان كانا يجوبان شوارع بيتروغراد متنكرين غير معروفين، على الامبراطورية الروسية. شكلا أول حكومة ماركسية في العالم، ظلت في الذروة طوال حياتهما، مضحين بملايين الأرواح في مذبحة لا ترحم من أيديولوجيتهما الثائرة، وحكما الامبراطورية، في ما بينهما، للأعوام الستة والثلاثين القادمة[421].

(41)

شتاء العام 1917: العدّ التنازلي

بدت بيتروغراد في تشرين الأول/أكتوبر العام 1917 هادئة. لكن عند تجاوز السطح اللامع، كانت المدينة ترقص بنشوة من الملذات المستمرة. «عملت أندية المقامرة على نحو متواصل من الغسق حتى الفجر»، قال جون ريد، برفقة الشمبانيا المتدفقة والرهانات التي تصل إلى عشرين ألف روبل. في مركز المدينة ليلًا، أخذت العاهرات يَجبُن بمجوهراتهن وفروهن الباهظ الشوارع، ويملأن المقاهي... «ازدادت السرقات إلى حد كبير، أصبح فيه من الخطر المشي في الشوارع»، كتب إليا إهرينبيرغ، وهو واحد من كتّاب ستالين المفضلين في ما بعد. عاشت روسيا كأنها على رصيف محطة القطار، تنتظر صفارة الحارس. عمل الأرستقراطيون على بيع الكنوز الثمينة في الشوارع، وازداد نقص الطعام سوءًا، وطالت صفوف الانتظار، بينما ظل الأغنياء يتناولون طعامهم عند دونون وكونستانت، وهما مطعمان فاخران، وتنافس البرجوازيون للحصول على بطاقات لسماع أغاني تشاليابين.

يحوم أشخاص غامضون حول النساء المرتعشات الواقفات في الصفوف انتظارًا للخبز والحليب، يهمسون بأن اليهود قد احتكروا مؤونة الطعام... «مكائد الملك، جواسيس الألمان، والمهرّبون يتآمرون في مخططاتهم»، نقل ريد. وأثناء هطول المطر، أثناء

البرد القارس، أخذت المدينة العظيمة النابضة تحت السماء الرمادية تندفع أسرع فأسرع نحو... ماذا؟ أجاب تروتسكي عن سؤال ريد، مجيبًا الحشد المفعم بالضجيج في سيرك موديرن: لقد انقضت أيام الكلمات.

لقد حانت ساعة القتال حتى الموت بين رجال الثورة وأعدائها! وفي الرفاهية المنعزلة في قصر وينتر، انتظر كيرينسكي، يقضي الأيام الباقية في سلطته مع جرعات المورفين والكوكايين.

* * *

في العاشرة مساءً، في الليلة المظلمة الماطرة بتاريخ العاشر من تشرين الأول/أكتوبر 1917، انتهز لينين فرصته لإقناع مجلس المدينة: أخذ البولشفيون الأحد عشر من المرتبة العليا ينسلون واحدًا تلو الآخر، من سمولني إلى مواعيدهم في 32 إكاربوفكا إمبانكمينت، وهي شقة عند مستوى الشارع في مقاطعة بيتروغراد، تملكها غالين فلاكسيرمان، وهي زوجة بولشفية للكاتب المنشفي سوخانوف. «أوه، النكات الفريدة لسخرية التاريخ، تذكر. هذه الجلسة العليا والحاسمة وقعت في منزلي... لكن دون علمي».

كان بعض أولئك الأحد عشر شخصًا، متخفيا: لينين حالق للحيته وشاربه، الذي اعتقد كروبسكايا، أنه بدا تمامًا مثل الكاهن اللوثري، يرتدي شعرًا مستعارًا مجعدًا لا يناسبه، ظل ينزلق من رأسه الأصلع. وعندما بدأ لينين مخاطبة ستالين وتروتسكي وسفيردلوف وزينوفيف وكامينيف ودزيغينسكي في غرفة حارة

مزودة ببطانية تغطي النافذة، قدمت غالينا فلاكسيرمان السّلامي والجبن والخبز الأسمر، بينما كانت تغلي إناء الشاي في الممر. لكن أحدًا لم يكن قد تناول الطعام بعد.

«إن الوضع السياسي جاهز تمامًا لنقل السلطة»، صرح لينين، لكن عندها احتج البولشفيون عليه أيضًا. لم يتم تسجيل محضر اجتماع الجلسة، لكننا نعلم بأن ستالين وتروتسكي قد دعما لينين منذ البداية. ظل كامينيف وزينوفيف، الذي طوّل لحيته وقص خصلات شعره للتنكر، غير مقتنعين. كان الجدل متوترًا وعاطفيًا، لكن تروتسكي كتب أن أحدًا لم يتمكن من أن يجاري أفكار لينين وإرادته وثقته وشجاعته. تغلب لينين تدريجيًا على الاضطراب والشك، اللذين تم استبدالهما الآن بموجة من القوة والتصميم. في الساعات الأولى، كان هناك طَرق قوي على الباب. هل كان ذلك من شرطة كيرينسكي؟ إنه أخو غالينا فلاكسيرمان، يوري، الذي جاء للمساعدة في تقديم السجق وتولي إعداد الشاي. صوّت مجلس المدينة على قرار غامض لصالح الثورة. ومن دون وضع أي خطة عملية للعصيان المسلح، حتى ولو موقتًا، في تلك الليلة، يذكر تروتسكي، ناصر تسعة لينين ضد زينوفيف وكامينيف، اللذين كانا مقتنعين تمامًا بأن المناداة بثورة مسلحة الآن تعني المغامرة، ليس فقط بمصير حزبنا، بل بمصير روسيا والثورة الدولية.

جائعين ومضطربين من توتر الأحداث، انقض الفائزون على السجق، وأخذوا يسخرون من زينوفيف وكامينيف[422].

بعد خمسة أيام، في السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر، في اجتماع سري آخر في مجلس الدوما لمقاطعة ليزنوي في الضواحي الشمالية، وبخ لينين، بدعم من ستالين وسفيردلوف (بينما كان تروتسكي غائبًا في السوفيات)، الشكوكيين مرة أخرى. «لن يغفر التاريخ لنا أبدًا إن لم نستولِ على السلطة الآن!»، صاح بذلك، وهو يعيد شعره المستعار المقلقل إلى مكانه.

«لا نملك الحق في أن نغامر ونخاطر بكل شيء في آن واحد»، أجاب زينوفيف.

دعم ستالين لينين قائلًا: يجب اختيار التاريخ بصورة تعود علينا بالنفع جيدًا. «لا بد من أن مجلس المدينة»، قال الطالب السابق الذي اعتبر الماركسية عنده تدينًا ظاهريًا، «قد امتلك إيمانًا أكثر»... هناك صنفان هنا: الأول يؤمن بانتصار الثورة... والآخر لا يؤمن بالثورة ويعتمد فقط على البقاء في المعارضة... كما أن اقتراحات كامينيف وزينوفيف... قد منحت أعداء الثورة الفرصة لتنظيم أنفسهم، حذر ستالين: سنواجه تراجعًا متواصلًا ونخسر الثورة بكاملها.

فاز لينين بعشرة أصوات مقابل اثنين. انتخب مجلس المدينة ستالين وسفيردلوف ودزيرغينسكي واثنين آخرين، للمركز الثوري العسكري، ليصبحوا جزءًا من لجنة تروتسكي الثورية - العسكرية في السوفيات. أما العضو الذي سيقبض على زمام السلطة، فلم يتم اختياره بعدُ. انطلق لينين بشعره المستعار ليعود إلى مخبئه عندما أحس كيرينسكي بازدياد الخطر: كانت

بيتروغراد في خطر من الألمان المتقدمين. أعلن استدعاء الأفواج المُوالية من الجبهة. لم يكن هناك وقت يضيعونه.

بعدها، في الثامن عشر من تشرين الأول/أكتوبر، نشر كامينيف هجوما على الخطوة الهدّامة للثورة في صحيفة ماكيسم غوركي، «نوفايا جيزيون» (الحياة الجديدة). أما سخرية العام 1917، فهي أنه بالرغم من قبضة لينين الحديدية كان كامينيف المشبع بترجيح العاطفة على العقل، كما وصفته كلمات تروتسكي، هو البولشفي الوحيد الراسخ على مبدئه بصدق. لقد خان كامينيف وزينوفيف مجلس المدينة! تفجر لينين غضبًا بقوله: «أطالب بترحيل كل من هذين المفسدين للإضراب». لكن زينوفيف أصر، في رسالة، على مواصلة النقاش سرًا. ونشر ستالين، بصفته رئيس التحرير في «رابوتشي بات»، الرسالة[423].

في اجتماع مجلس المدينة المليء بالمواجهات في العشرين من تشرين الأول/أكتوبر، هاجم تروتسكي ستالين على هذا الفعل. قدم ستالين بتجهم استقالته. ورُفضت، لكنها كانت إشارة إلى أول اصطدام بين الجبارين البولشفيين. طالب تروتسكي بترحيل مفسدي الإضراب؛ عارضه ستالين باقتراح أن يطلب منهما تسليم نفسيهما مع البقاء في مجلس المدينة. حاول كامينيف الاستقالة من مجلس المدينة، لكنه أزيل فقط من القيادة. جهز ستالين الشعب للثورة في مقالة صرحت: «البولشفيون أطلقوا النداء: تجهزوا!»[424].

كان البولشفيون يتجهزون هم أنفسهم. في مكتب الطابق الثالث في سمولني، عقد تروتسكي وسفيردلوف الاجتماع التنظيمي الأول للجنة الثورية العسكرية (MRC): كانت بولشفية في السر، لكنها تستفيد من العمل تحت درع السوفيات. وهذه، وليس مركز ستالين، ستكون المكتب الرئيسي للثورة: وهو لم يكن عضوًا فيها[425].

في الحادي والعشرين من ذلك الشهر، صرحت MRC بأنها السلطة التشريعية في حصن بيتروغراد. وضع ستالين، في المركز السياسي للحزب، مسودة جدول أعمال الكونغرس الثاني للسوفيات، منصّبًا نفسه للتحدث عن القوميات، ولينين عن الحرب والسلطة، وتروتسكي عن الوضع الراهن[426]. وفي الثالث والعشرين، تولى MRC قيادة حصن بيتر آند بول. أصبح كل شيء جاهزًا: حتى مولوتوف المصاب بقصر البصر، تدرب على إطلاق النار من المسدس في مكتبه في سمولني. نقل ستالين في ذلك اليوم، هذه الحكومة الحالية من مالكي الأراضي والرأسماليين، لا بد من أن يتم استبدالها بحكومة جديدة من العمال والفلاحين...

وإن عملنا جميعًا بثبات وإخلاص، فلن يجرؤ أحد على مقاومة إرادة الشعب».

في فجر يوم الثلاثاء، بتاريخ الرابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، اقتحم كيرينسكي صحيفة ستالين في ترود بريس. وبينما

كان ستالين يراقب، حطم الجنود ماكينات الطباعة، وصادروا الآلات، ووضعوا الحرس على المكاتب. وجب عليه الآن إعادة آلة الصحافة البولشفية إلى العمل: تمامًا كما تقوم الانقلابات العسكرية الحديثة بالاستيلاء على محطة التلفاز، لم يكن في العام 19 من الممكن تخيل قيام ثورة من دون صحيفة. استدعى ستالين قوات الحراس الحمر من أجل الإمدادات العسكرية، بينما تمكن من نشر الصحف المطبوعة مسبقًا. أرسل فوج فولكينيا مرافقة. وبحلول منتصف اليوم، استعاد ستالين السيطرة على صحفه. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، قال إن الصحيفة قد نهضت من جديد. إلا أنه لم يتمكن من حضور اجتماع مجلس المدينة، حيث تم توزيع مهام الانقلاب العسكري. اتهمه تروتسكي بالهرب من اللعبة لأنه لم يكن على أي لائحة من لوائح المهام:

بوبنوف: السكك الحديدية؛

دزيرجينسكي: البريد والتلغراف؛

ميليوتن: الدعم الغذائي؛

بودفويسكاي [الذي تحول إلى] سفيردلوف: مراقبة الحكومة المؤقتة؛

كامينيف وفينتر: مفاوضات مع السوفيات اليساريين [الجناح الراديكالي للثورات الاشتراكية]؛

لوموف ونوغين: إرسال المعلومات إلى موسكو.

لم تحقق هذه القائمة من ذوي المراتب المتوسطة شيئًا: لينين، في

المخبأ، وتروتسكي، الذي فاته حضور الاجتماع، لم يكن مذكورًا حتى، بينما مفسد الإضراب كامينيف كان متضمنًا. تبع المؤرخون، كما هو مألوف، نسخة تروتسكي عن الأحداث (المُجحفة بالكامل، لكن مكتوبة بتميز)، في التأكيد أن ستالين قد فوت حضور الثورة، لكن ذلك لم يتحمل التدقيق. لم يكن نجم اليوم، ولكن المهمة العسكرية فاتته، لأنه كان منشغلًا جدًا بالصحيفة المُعتدى عليها، وليس لأنه لم يكن ذا أهمية سياسية. بل على النقيض: حتى تروتسكي اعترف بأن الاتصال مع لينين كان بصورة أساسية يتم عن طريق ستالين، وهو دور ذو أهمية (بالرغم من أنه لم يتمكن من منع نفسه من إضافة، «بسبب كونه الشخص الأقل أهمية لدى الشرطة»).

لم يكن تخلف ستالين عن الثورة سوى لبضع ساعات خلال يوم الرابع والعشرين من ذلك الشهر، بينما تواصلت الثورة في الحقيقة ليومين آخرين. كان في الصحيفة طوال اليوم، ثم استدعاه لينين: «كشفت مارغاريتا فوفانوفا أن ستالين كان ينوي تقديم خطاب في ذلك اليوم في معهد بولي تكنيكال لكن وجب علينا فجأة تسليمه ملاحظة من في. إي. كان لينين ينتفض من الغضب في شقة فوفانوفا. لو كان ستالين قد أسرع بالوصول إليه، لوجده يتبجح قائلًا، إن الحكومة تترنح! يجب أن تتلقى الضربة القاضية بأي ثمن... لا يجب علينا الانتظار! قد نفقد كل شيء!».

وصل ستالين إلى معهد سمولني حيث كان هو، مع تروتسكي، يخاطبان المندوبين البولشفيين، الذين وصلا للتو من أجل الكونغرس السوفياتي، يقدمان الانقلاب العسكري كأنه رد فعل

على الكبت الحكومي للبولشفيين، وليس كثورة[427]. إنهم قادمون إلينا محاربين، شرح ستالين. الحكومة الموقتة تترنح. لقد طُلب من السفينة الحربية أورورا أن تطلق النار على الجسور، بغض النظر عما إن كان أي جسر من أولئك لنا. هناك تمرد بين اليونكر والقوات، وقد تم تجهيز رابوتشي بوت مجددًا. لم يصبح نظام الإرسال ملكنا بعد. أما مكتب البريد فهو لنا... كان الحراس الحمر والقوات البولشفية يتقدمون إلى الأمام.

«التقيت ستالين عشية الثورة في منتصف الليل في سمولني»، قال ساغيراشفيلي. كان ستالين متحمسًا جدًا، إلى درجة تناقض رزانته وسريته المعتادة، كشف أن الموت قد انتشر. في تلك الليلة، عشية ثورة أكتوبر المجيدة، وصل ستالين إلى المنزل إلى عائلة أليليفا. «نعم، كل شيء جاهز»، قال للفتيات. «سننطلق غدًا. نتحكم في جميع مقاطعات المدينة. سنستولي على السلطة»[428].

عمل ستالين على إبقاء لينين مطّلعًا. كان رجل السلطة يرسل ملاحظات ساعية تقريبًا إلى MRC ليحثهم قبل افتتاح الكونغرس. كان مخططًا عقده في اليوم التالي، لكن لينين أصر على تقديمه. ممَّ يخشون؟! كتب في إحدى الملاحظات: «اسألوا فقط إن كان لديهم مئة جندي جدير بالثقة، أو حراس حمر مع بنادقهم. هذا كل ما أحتاج إليه!».

ليس من المستغرب شعور لينين بالسخط. فإن ثورة أكتوبر ستصبح واحدة من الأحداث الشهيرة في القرن العشرين، تحولها

دعاية السوفيات إلى أسطورة، وتصورها بطريقة رومانتيكية في كتاب جون ريد («عشرة أيام صدمت العالم»)، وتخلدها برائعة إيزينستين السينمائية («أكتوبر»)، وتسخر منها لمبالغات ستالين المختالة. إلا أن حقيقة أكتوبر مهزلة أكثر من كونها مجدًا. على نحو مأساوي، إن الثورة الحقيقية، الدموية التي لا ترحم، بدأت لحظة انتهاء هذه الكوميديا.

كان لينين لا يزال محتجزًا في شقة فوفانوفا. لم يتمكن من فهم سبب التأخير. «إن كل شيء معلق على خيط الآن»، كتب تلك الليلة. يجب أن يتم إصدار قرار هذه القضية من دون أي تأخير هذا المساء! أخذ يمشي في الطابق، جيئةً وذهابًا. توسلت إليه فوفانوفا ألا يخرج ويعرّض نفسه لخطر الاعتقال. أخيرًا في العاشرة والخمسين دقيقة مساءً، لم يتمكن ستالين من تحمل الوضع أكثر من ذلك.

(42)

ثورة أكتوبر المجيدة العام 1917:

الثورة الفاسدة

«ذهبت إلى حيث لا تريدني أن أذهب»، خربش لينين إلى فوفانوفا. «طلب إليتش استدعاء ستالين إليه»، ذكر راخيا، حارس لينين الشخصي. ثم أدرك أن هذا سيضيع الوقت. لصق شعره المستعار المجعد، ووضع قبعة العامل على رأسه، ولف ضمادة حول وجهه وارتدى نظارات عملاقة، ثم انطلق هو وراخيا في ظلمة الليل.

صعد لينين على متن الترام. كان متوترًا بشدة إلى درجة أنه استجوب، وهو يلهث، جابية التذاكر المشدوهة قبل إعطائها محاضرة في الاستراتيجية الثورية. لم يكن واضحًا بعدُ إن اكتشفت هوية ذلك الوغد المرتدي الشعر المستعار والنظارات والضمادة، لكن ربما كان هناك العديد من المجانين المتجولين في المدينة ذلك المساء.

بالقرب من المقر الرئيسي البولشفي في سمولني، أوقفته بالفعل دورية حكومية على متن الفرس، لكنها أطلقت سراحه على أنه ثمل لا يسبب أي أذى. لم يكن ثملًا، لكن كان مؤذيًا حقًا.

عند منتصف الليل تقريبًا، وصل لينين إلى سمولني العظيمة، «المشعة من الأضواء»، كما وصفها ريد، الناشطة مثل خلية

النحل الهائلة. كان الحراس الحمر، وهم مجموعة من الصِّبْية المحتشدين بملابس العمال، يحملون بنادق مع حرابها، ويتحدثون باهتياج معًا، يدفئون أيديهم حول مشعلة ضخمة. أزرت محركات السيارات المصفحة، ودارت محركات الدرجات النارية، لكن أحدًا لم يعرف لينين. لم يكن يحمل أوراقا، لذا رفض رجال الحراس الحمر عند البوابات، السماح له بالدخول.

«يا لها من فوضى!»، صاح راخيا. «أنا مفوض [للكونغرس]، ولا يسمحون لي بالدخول». دعمه الحشد، ودفعوا الاثنين إلى الداخل: دخل لينين أخيرًا، يضحك!

لكن عندما رفع غطاء رأسه، انتُزع شعره المستعار[[429]]؟.

كانت سمولني معسكر تخييم. أثناء اجتماع السوفيات في قاعة الرقص الفاخرة، تغطت الأرضيات بالصحف والأقمشة والبطانيات. كان الجنود يَغِطّون في النوم في الممرات. امتزجت رائحة دخان السجائر والعرق والبول مع رائحة الملفوف المغلي من حجرة الطعام في الأسفل. أسرع لينين عبر الممرات، مثبتًا شعره المستعار بيده، محاولًا إخفاء هويته. إلا أن المنشفي، دان، تمكن من كشفه.

«لقد عرفني البغضاء»، دمدم لينين.

في الساعات الباكرة من يوم الأربعاء، الواقع في الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، ارتدى لينين معطفه الجلدي وغطاء الرأس، وانضم إلى الغرفة الرقم 36 في سمولني لاجتماع

طارئ لمجلس المدينة. حتى أن زينوفيف وكامينيف قد تلقيا دعوة إلى الحضور. أصر لينين على الإسراع في الثورة. كان مندوبو الكونغرس مجتمعين في المبنى نفسه.

«بدأ لينين في وضع مسودة المراسيم الأساسية بخصوص الأرض والسلام، وهو لا يزال مرتديًا زيه التنكري، بشكل غريب نوعًا ما»، قال تروتسكي غارقًا في التفكير. تواصل الانقلاب العسكري. «ظل مجلس المدينة يقيم جلسات مستمرة في غرفة صغيرة حول طاولة مضاءة على نحو سيئ، ومَعاطف مرمية على الأرض»، ذكرت المساعدة البولشفية، سارة رافيتش. ظل الناس يطرقون الباب على نحو متواصل، ويجلبون أخبارًا عن آخر نجاحات الثورة. ومن بين الحاضرين، لينين وتروتسكي وزينوفيف وكامينيف وستالين. وصلت الرسائل؛ أُرسلت الأوامر من MRC في الغرفة 10، ولينين ومجلس المدينة في الغرفة 36؛ وكلاهما يعمل بسرعة هائلة. كانوا يتلقون [الأخبار] ويبعثون بالرسل اللاهثة، وبمفوضين يمتلكون سلطة الحياة والموت، وسط طنين التلغرافات.

«كان ستالين ينطلق مسرعًا من غرفة إلى أخرى»، قال ساغيراشفيلي، المتواجد في سمولني. «لم أره في مثل هذه الحالة من قبل». لم يكن معتادًا على مثل هذا العمل السريع والمنفعل على الإطلاق. دوّت أصوات إطلاق النار في أنحاء العاصمة، لكن لم يكن هناك قتال. تمت السيطرة على محطة توليد الطاقة الكهربائية ومكتب البريد الرئيسي ومحطة نيكولاس. أمّنوا جميع الجسور باستثناء جسر نيكولاس إلى جانب قصر وينتر. في

السادسة صباحًا، سقط بنك الولاية (ستيت بانك)؛ وفي السابعة صباحًا، سقط سنترال الهاتف المركزي؛ وفي الثامنة صباحًا، محطة وارسو[430]. لكن البحارة البلطيك الأساسيين قد تأخروا. استمرت الحكومة في عملها - أو على الأقل نجت - طوال اليوم.

كان كيرينسكي في المقر الرئيسي للطاقم المساعد، غارقًا في استيعاب الأخبار السيئة. في التاسعة صباحًا، أدرك أخيرًا أن القوات المتواجدة عند الجبهة وحدها قادرة على حماية بيتروغراد، وهو وحده يمكنه جمع شملهم. لكنه لم يتمكن من إيجاد سيارة حتى صادر رجاله سيارة رينو من السفارة الأميركية، وسيارة ليموزين سياحية كبيرة من بيرس آرو. ترك كيرينسكي حكومته في جلسة طارئة في قصر وينتر، وانطلق إلى خارج المدينة.

في سمولني، تجهز الكونغرس للبدء - لكن قصر وينتر لم يسقط بعد، وحتى لم يُحاصَر -. ظل القصر هو مركز الحكومة، يحرسه ٤ طالب عسكري يافع، وكتيبة من النساء وبعض الوحدات البحرية من كوساكس. أقنع مصور بعض هؤلاء النساء بأن يأخذن وضعيات للتصوير على تروسهن. «سيطر جو مهتاج وساخر هناك»، قال لويس برانت الأميركي وهو، واحد من العديد من الصحافيين الذين شهدوا ذلك اليوم. في الخارج، ببطء مذهل، جمعَ البولشفيون قواتهم.

في الداخل، كان الوزراء، كما وصفهم وزير العدل ماليانتوفيتش، رجالًا هالكين، كرههم الجميع، يحومون داخل شرك فئران ضخم.

بدأ لينين وتروتسكي وستالين وينوكيدز والشاب مولوتوف، من بين الآخرين، مناقشة الحكومة الجديدة بعد اجتماع مجلس المدينة الرسمي: يجب عليهم أولًا مناقشة الاسم الذي سيطلقونه عليه. أراد لينين تجنب المرادف الرأسمالي الذي تحمله كلمة الوزارات: مصطلح غبي مبتذل. اقترح مصطلح المفوضين.

لدينا العديد من المفوضين مسبقًا، قال تروتسكي. ماذا عن «مفوضية الشعب»؟ «مجلس مفوضية الشعب» مع رئيس المجلس بدلًا من رئيس الوزراء[431].

هذا رائع! تعجب لينين. يمتلك الاسم طابعًا مخيفًا للثورة!

حتى في هذه اللحظة، انطلقت ألعاب التواضع التكتيكي، الإنكار الزاهد لكونه جزءًا من الثقافة البولشفية. قدم لينين تروتسكي على أنه رئيس المجلس. لكن لا يمكن يهوديًا أن يكون رئيس المجلس لروسيا. رفض تروتسكي، بإصرار أن يكون الرئيس هو لينين. ربما يكون لينين هو من قدم ستالين كمندوب الشعب لشؤون القوميات. وهو أيضًا، رفض على نحو متواضع، مصرًا على أنه لا يمتلك أي خبرة، ومنشغل كثيرًا في مجلس المدينة، ومسرور لأن يكون مجرد عامل في الحزب، هذا ما قاله ينوكيدز في ما بعد لساغيراشفيلي. ربما يكون لينين قد رد على ستالين بضحكة مدوية: هل تعتقد أن أحدنا يمتلك خبرة في هذا؟ أصر لينين، بينما قبل ستالين أول عمل حقيقي له منذ أن كان يعمل كراصد جوي في مرصد تيفليس قبل سبعة عشر عامًا. لم يبدُ الأمر حقيقيًا: لم يأخذ بعض من أعضاء المجلس صانع الحكومة هذا على محمل

الجد.

عندما افتتحت أبوب المقر الرئيسي البولشفي، هبت عاصفة من الهواء النتن ودخان السجائر إلى الخارج، وتمكن جون ريد من إلقاء نظرة سريعة ليرى مجموعة من الرجال الأشاعث ينحنون فوق خريطة على ضوء كهربائي خافت... لكن لم يكن أحد قد سيطر على القصر بعد[432].

* * *

كان لينين مهتاجًا بشدة. أمر تروتسكي وMRC، حصن بيتر آند بول بالتجهيز لقصف قصر وينتر بالقنابل من مقابل نهر نيفا مباشرة، لكنهم وجدوا ست بنادق فقط. خمس بنادق لم يتم تنظيفها منذ أشهر؛ وواحدة تعمل فقط. قال الضباط للبولشفيين إن البنادق تالفة. أصدر المفوضون أوامرهم، وهم غير مدركين أن البنادق تحتاج إلى التنظيف فقط، للبحارة كي يجلبوا بعضًا من بنادق التدريب ذات الرصاصات عيار ثلاثة إنشات إلى الموقع، ولكنهم اكتشفوا أنه لا توجد طلقات لهذه البنادق، وأن البنادق تفتقد أجهزة التسديد. وفي وقت لاحق من بعد الظهر، اكتشفوا أن البنادق الأصلية تحتاج إلى مجرد التنظيف.

كان لينين، هناك في سمولني، كعادته، مهتاجًا. كانت واجهة المبنى الضخمة تتلألأ من الأضواء... تحركت سيارة مصفحة ضخمة بلون الفيل، تحمل علمين بلون أحمر يطيران من قمتها، بتثاقل يرافقها دوي صفارة الإنذار... زأرت الممرات المضاءة

على نحو خافت بدوي الأقدام والصياح والنداء، وبجنود في معاطف خشنة بلونها المتسخ، وعمال مسلحين بقمصانهم السوداء. كان يُرى القائد مثل كامينيف أحيانًا مهتاجًا أثناء نزوله على السلم.

كان مجلس وزراء كيرينسكي لا يزال يضع سلطته على قصر وينتر، لكن لينين لم يعد قادرًا على تأخير أول ظهور له في السوفيات. في الثالثة ظهرًا، قدمه تروتسكي.

انتقلت السلطة إلى لينين. وعندما عاد إلى الغرفة 36، لم يكن القصر قد سقط بعد.

أخذ لينين يمشي في مكتبه الصغير مثل أسد في القفص. أخذ في إي [لينين] يوبخ، ويصيح. «احتاج إلى قصر وينتر بأي ثمن»، يذكر نيكولاي بودفويسكي من MRC.

«كان مستعدًا لإطلاق النار علينا!»، عندما تم اعتقال بعض من الضباط العسكريين، بعض القادة في سمولوني، بينهم لينين من دون شك، أرادوا إطلاق النار عليهم بهدف إخافة الآخرين. كان دائمًا متلهفًا إلى البدء بإراقة الدماء.

بحلول الساعة السادسة في ذلك المساء، قرر القادة العسكريون داخل القصر، الذين لم يتناولوا الطعام طوال اليوم، مغادرة مواقعهم لتناول العشاء. غادرت قوات كوساكس أيضًا، المستاءة من اليهود والفتيات في الداخل. فقد كانت بعض الفتيات من كتيبة الإناث، يتنقلن كثيرًا جيئةً وذهابًا.

أما المسرحية الساخرة لأخطاء البولشفيين، فلم تنته بعد: حيث كانت إشارة اقتحام القصر هي فانوس أحمر يُرفع على سارية

العلم في حصن بيتر آند بول، لكن عندما حانت اللحظة الكبرى، لم يتمكن أحد من رفع مثل هذا الفانوس لأنهم لم يتمكنوا من إيجاد واحد. توجب على المفوض البولشفي الخروج بحثًا عن هذه القطعة النادرة. عُثر أخيرًا على ضوء، لكن من لون مختلف. ولزيادة الأمور سوءًا، فقد أحاسيسه في الظلام وسقط في المستنقع. وعندما خرج منه، لم يتمكن من رفع الضوء، سواء أكان الأحمر أم غيره. لم يتم إرسال الإشارة إطلاقًا.

وأخيرًا، في السادسة والنصف، بتاريخ الخامس والعشرين، أصدر البولشفيون أوامرهم للسفينتين العسكريتين (أورورا وأمور) بالانطلاق إلى أعلى النهر. بعثوا إنذارهم: يجب على الحكومة والجنود الاستسلام. ينتهي هذا الإنذار عند السابعة وعشر دقائق، وبعدها نفتح نيراننا على الفور. انتهت مدة الإنذار كما ينبغي.

* * *

لم يحدث شيء. تم تأخير القصف بعرض وهمي لإيقاف الثورة، برغم الأوامر المهتاجة الصادرة من لينين وتروتسكي.

أصبح محافظ بيتروغراد، غريغوري شريدر، بلحيته البيضاء، والذي كان يناقش في مجلس المدنية كيفية تجنب قذف القصر بالقنابل، يتوسل فجأة للدفاع عن الحكومة بنفسه. دعمه أعضاء مجلس المدينة. وبهذا، انطلق المحافظ الذي أصبح عرضة للخطر، وأعضاء المجلس ووزير الاقتصاد، بروكوبوفيتش، والبرجوازيون بملابسهم الأنيقة، بالعباءات ذات الياقات المخملية والسترات السوداء الطويلة وساعات الجيب، جنبًا إلى جنب

كبطاريق في الاستعراض. لم يكن أيٌّ منهم مسلحًا باستثناء المظلة والفانوس والسّلامي: عشاء المدافعين عن القصر. تقدموا في البداية إلى سمولني، حيث استقبلهم كامينيف، الذي أيّد مولوتوف في مرافقتهم إلى قصر وينتر. استعراض من المظلات والسلامي، برفقة مولوتوف البدين والأخرق، اتجه إلى نيفسكي بروسبيكت. كانوا ينشدون الترانيم الوطنية الفرنسية، حتى أوقفتهم نقطة التفتيش التابعة للحراس الحمر خارج محطة كازان.

«طلب المحافظ أن يفسح الحراس الحمر الطريق، أو يطلقوا النار على مواطنين عُزل»، وفقًا لما قاله جون ريد الذي سجل الحوار.

«كلا، لن نطلق النار على مواطنين روس عزل»، قال قائد نقطة التفتيش.

«سننطلق إلى الأمام! ماذا يمكنكم أن تفعلوا!»، أصر بروكوبوفيتش وشريدير. «ماذا يمكنكم أن تفعلوا؟».

«لا يمكننا السماح لكم بالمرور»، تمتم الجندي. «سنفعل شيئًا ما».

وبعدها، قال البحار وهو يضحك: سنضربكم!». قهقه، مفسدًا الجو المبجل الذي أحاط المتظاهرون به أنفسهم. «سنضربكم».

انتهت محاولة الإنقاذ بقهقهات، لكن القصر لا يزال صامدًا، حتى برغم أن المدافعين عنه أخذوا يثملون على نحو متزايد من محتويات مخزن الخمر الفاخر للقيصر الروسي. في تلك الأثناء، كانت السيارات تعبر الجسور، والترام يدمدم على طول الشوارع. وفي تلك الليلة كان تشاليبين يغني في «دون كارلوس» في

نارودني دوم. في أنحاء نيفسكي، بدا أن العالم بأكمله يحتفل. أما العاهرات، مثل الجرذان على سفينة، أو طيور الكناري في مناجم الفحم، حيث اختبارات وجود الخطر، فكن لا يزلن يتجولن في بروسبيكت بحرية. قال ساغيراشفيلي، «كانت الشوارع تفيض بجميع أنواع الرّعاع».

وأخيرًا، عند التاسعة وأربعين دقيقة مساءً، أطلقت سفينة الأرورا طلقة فارغة: إشارة للهجوم. أصيبت الكثيرات من كتيبة الإناث بالذعر داخل القصر، نتيجة الصوت المدوي إلى درجة أن العديد منهن دخلن في حالة من الصدمة، ووجبت تهدئتهن في الغرفة الخلفية. وخارج القصر، تمكن القائدان البولشفيان، بودفويسكي وفلاديمير أنتونوف - أوفسينكو، اللذان أراد لينين إطلاق النار عليهما لعدم كفاءتهما، من جمع قوة ساحقة.

تمكن مطلقو المدافع في حصن بيتر آند بول من إطلاق وابل من ست وثلاثين طلقة بطول 6 إنشات. اثنتان منهما فقط أصابتا القصر، لكن نجحت الأخريات في إرعاب المدافعين. أصابت السيارات المصفحة الجدران بنيران البنادق الآلية، واكتشفت مجموعات صغيرة من البحارة والحراس الحمر، أن القصر لم يفتقد وسائل الدفاع وحسب، بل كانت أبوابه غير مقفلة أيضًا. اعترف أنتنوف - أوفسينكو، بأنه «كان للهجوم طابع غير منظم بكامله. حوالي الثانية ليلًا، تمكنوا من الدخول وبدؤوا يتجولون في أنحاء الغرف».

في صالة سمولني ذات الثريا المعتمة بغيمة زرقاء ملوثة من

الدخان والحرارة الخانقة للأجسام البشرية غير المستحمة، لم يكن من الممكن تأخير افتتاح الكونغرس، «المؤلف (كما جاء في كلمات سوخانوف) من بولشفيين بدائيين... ساذجين عابسين». لكن وزارة كيرينسكي لا تزال تسيطر على القصر، لذا لم يكن من الممكن للينين الظهور بعد: بدلًا من ذلك، تولى تروتسكي المنصة باسم البولشفيين. وعندما هاجم مارتوف والمناشفة عمل لينين الجنوني والإجرامي، أجاب تروتسكي، بوجهه النحيل الشيطاني بسخرية خبيثة، بواحدة من أكثر طرائق الرفض إذلالًا في التاريخ: أنتم مفلسون مثيرون للشفقة! اذهبوا حيث تنتمون... إلى مزبلة التاريخ!

«إذًا، سنرحل»، أجاب مارتوف. مشى المناشفة بغباء خارج الصالة... نحو التاريخ: لم يعودوا أبدًا إلى أبواب السلطة. أما ساغيراشفيلي، المنشفي الذي لم يوافق على المقاطعة، فأخذ يمشي في ممرات سمولني وحده حتى وضع ستالين يده فوق كتفه بطريقة ودودة جدًا، وبدأ التحدث معه باللغة الجورجية، محاولًا تجنيده بين البولشفيين. رفض ساغيراشفيلي، لكن العديد من المناشفة السابقين غيره، مثل فيشينسكاي، سيصبحون من أكثر أتباع ستالين ولاءً[433].

في الطرق والجسور بالقرب من القصر، شتت دوي البنادق الكبرى أخيرًا الباحثين عن المتعة. «حتى العاهرات، ذكر ساغيراشفيلي، اختفين من نيفسكي بروسبيكت، حيث كنَّ سابقًا يحتشدن كأسراب الطيور».

كان وزراء كيرينسكي، حول طاولة والبليارد في الغرفة الذهبية المرصعة مع قماشها القرمزي المطرز، حيث تناول نيكولاس الثاني وعائلته طعامهما قبل عام 1905، لا يزالون يناقشون من هو الشخص الذي سيتم تعيينه في منصب الديكتاتور. وفجأة، تخلوا عن هذه التمثيلية التحذيرية، وقرروا الاستسلام... عندها فُتح الباب.

(43)

السلطة: ستالين خارج الظلال

«انقض رجل صغير على الغرفة، مثل رقاقة جرفتها الموجة، تحت ضغط من الحشد الذي اندفع خلفه... يمتلك شعرًا طويلًا صدئ اللون، ويرتدي نظارات، وله شارب قصير مشذّب ضارب إلى الحمرة ولحية صغيرة»، كما وصفه ماليانتوفيتش، وزير العدل. كانت ياقته وقميصه وأطراف أكمامه ويديه، كتلك التي يمتلكها الرجل القذر جدًا.

الحكومة الموقتة هنا، قال نائب رئيس الوزراء كونوفالوف. «ماذا تود»؟.

«باسم اللجنة الثورية العسكرية»، أجاب أنوتونوف - أوفسينكو، «أصرح بأنكم جميعًا... رهن الاعتقال».

كان ذلك حوالي الساعة الواحدة وخمسين دقيقة مساءً، في السادس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر. بدأ سادة قصر وينتر الجديد في سلبه، يُخرجون السجاد والستائر والبياضات والخزف الصيني والأطباق منه. أدخل أحد الجنود بعضًا من ريش النعام في قبعته، بينما عمل خدم القصر القدامى، وهم لا يزالون يرتدون زيهم الأزرق والأحمر والذهبي، في محاولة إيقاف السلب. لم يكن هناك أي اقتحام لقصر وينتر: تأذى عدد أكبر من الأشخاص عند تصوير مشهد الاقتحام في فيلم إيسينستين. أبدى ساغيراشفيلي

ملاحظته قائلًا: «لقد جرف نهر النيفا حكومة كيرينسكي بعيدًا».

وبنزوح الوزراء إلى حصن بيتر آند بول، فقد أنتونوف - أوفسينكو، كامل السيطرة داخل القصر، وتعرضت بعض فتيات كتيبة الإناث للاغتصاب.

وذُكر أن قضية مخازن النبيذ ازدادت خطورة. امتلكت مخازن نيكولاس الثاني النبيذ الحلو (توكاي) من عهد كاثرين العظيمة، والكثير من تشاتيا ديكويم للعام 1847، المفضلة لدى الامبراطور، لكن: فوج بريأوبرازينسكي... ثمل بالكامل. كما أن بافلوفسكي، عماد ثورتنا، لم يتمكن من المقاومة هو الآخر. أرسلنا حراسًا من وحدات أخرى منتقاة - ثملوا جميعهم بالكامل. وضعنا حرسًا من لجان الأفواج، استسلموا هم أيضًا. أرسلنا سيارات مصفحة لطرد الحشد، لكن بعد برهة، بدأوا أيضًا في الترنح على نحو مثير للشك.

وعندما حل المساء، بدأت حفلة عنيفة من السكّر والتهتك.

استدعى أنتونوف - أوفسينكو غاضبًا، منظمة إطفاء بيتروغراد. حاولنا إغراق مخازن النبيذ بالمياه - لكن رجال الإطفاء... ثملوا بدلًا من ذلك. بدأ المفوضون بتحطيم الزجاجات في ساحة القصر، لكن الحشد أخذ يشرب من القنوات. أفسدت نشوة الثمالة المدينة بكاملها.

عيّن مجلس مفوضي الشعب تحت رعاية لينين، مفوضًا خاصًا لقصر وينتر يتمتع بسلطة مطلقة. لكن أنتونوف - أوفسينكو أشار على نحو ساخر، «لم يبدُ أن هذا الشخص هو الآخر جدير

بالثقة».

أعلن كامينيف في مجلس السوفيات، كارهًا، أن قصر وينتر قد سقط أخيرًا. في تلك اللحظة نفسها، نزع لينين شعره المستعار، مسح المساحيق وخرج كقائد لروسيا[434].

في تلك الأثناء، تلهفت آنا وناديا أليليفيا، إلى رؤية افتتاح الكونغرس، ومشيتا إلى سمولني، وتسللتا إلى الصالة الكبرى نفسها: «من رؤية الإثارة والابتهاج، حكمنا أن شيئًا هامًا قد حدث. وهناك فجأة، بين الحشد المندفع نحونا، رأينا ستالين، الذي أشار إليهما بالتقدم».

«أوه ها أنتما! إني مسرور لمجيئكما. هل سمعتما الخبر؟ لقد سقط قصر وينتر ورجالنا في الداخل!».

كاد البولشفيون ينهارون من الإنهاك. أيام ثورة أكتوبر/تشرين الأول، شرح فودور أليليفا، وهو أخو آنا وناديا الأكبر، ومساعد سوسو الجديد، «لم ينم القائد ستالين لمدة خمسة أيام. كانوا يتناولون الطعام أحيانًا، وأحيانًا أخرى يغطّون في نوم خفيف على الأرض».

«كانت المدينة هادئة. «ربما لم تكن بمثل هذا الهدوء طوال تاريخها»، كتب جون ريد. وبوصول الأخبار إلى سمولني بأن المدينة قد أصبحت أخيرًا بأيدي البولشفيين، بدأ لينين بالاسترخاء، يطلق الدعابات (على حساب كامينيف)، مضطجعًا فوق الصحف على الأرض. كانت الممرات لا تزال مليئة بالرجال المسرعين،

الوسخين، بأعينهم المتعبة، لكن في غرفة اللجان تمدد الناس نائمين على الأرض، والبنادق إلى جانبهم.

«نام قائد البولشفيين الأعلى حيث كان يجلس أو كان يستلقي أحيانًا على أرض المكاتب في سمولني. ظل ستالين منهكًا من التعب، وصاحيًا، يضع مسودة المناشدة إلى الشعب، حتى غط أخيرًا في النوم أثناء جلوسه على الكرسي خلف طاولته»، يقول فودور أليليفا. تقدم المبتهج لونارتشارسكي (مندوب الشعب للشؤون الثقافية) إليه على رؤوس أصابعه وهو نائم وقبله على جبينه. استيقظ القائد ستالين وضحك بمرح على إي. في. لونارتشارسكي لوقت طويل.

نام لينين وتروتسكي إلى جانب بعضهما البعض، فوق كومة من الصحف. «أتعرف»، تنهد لينين أمام تروتسكي، «إن الأمر يصيب رأسي بالدوار لمجرد انتقالي بهذه السرعة من القضاء والمخبأ إلى السلطة!»[435].

* * *

عند السادسة صباحًا في السادس والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول، ومع انتشار شحوب سماوي باهت فوق الشوارع الفارغة يُعتم نيران الحراسة، وظل الفجر المنبثق فوق روسيا، طلع النهار على مدينة تعيش أقصى إثارتها واضطرابها. عادت الشوارع سريعًا إلى طبيعتها. أشار شليبانيكوف إلى أن البرجوازيين من ضباط الحرس، حتى العاهرات، خرجوا مجددًا إلى الشوارع.

ومع افتراض اجتماع الكونغرس عند الواحدة ظهرًا، بدأت الوفود في التجمع أولًا، لكن بحلول السابعة مساءً، لم يكن لينين قد ظهر بعد.

أخيرًا، عند الثامنة وأربعين دقيقة مساءً، وصل أمام التصفيق الصاخب، رجل قصير ممتلئ الجسم، برأس كبير منتصب فوق كتفيه، أصلع ومنتفخ، بعينين صغيرتين، وأنف أفطس، وفم عريض: قائد شعبي غريب، وصفه ريد، هو قائد بفضل الفطنة والجدية وافتقاده حس المرح، لا يقبل بالتسوية أو التعاطف.

«سنتقدم الآن لرسم النظام الاشتراكي! صرح لينين ببساطة. تحدث وإحدى قدميه مرفوعة عن الأرض بشكل اعتيادي. لاحظتُ وجود ثقب في حذائه»، نقل مولوتوف.

أعلن كامينيف[436] عند الثانية والنصف مساءً، الحكومة الجديدة على منصة كونغرس السوفيات. ظهر ستالين على القائمة باسم جي في دجوغاشفيلي - ستالين.

لم يكن معروفًا بعدُ بين العامة، أو مبجَّلًا من قبل البولشفيين الذين كانوا في الهجرة. سيظل غموضه في العام 1917 وصمة محرجة لهذا الرجل النحيل جدًا، لكنه حاول إصلاحها بتطرف كاذب في الشخصية. لكن الحقيقة هي إعجاب لينين وجماعة من القادة البولشفيين منذ القدم، بهذه الكفاءة العنيفة.

«في تلك الأيام»، يقول فودور أليليفا، «بصراحة مطلقة، لم تنشر مذكراته بسببها، كان الرفيق ستالين في الأصل معروفًا فقط بين

دائرة صغيرة من الأشخاص، من أولئك الذين قابلهم بالصدفة... في السلك السياسي أو خلفهم في مناصبهم... في تمييز العمل الحقيقي والإخلاص الحقيقي عن الثرثرة بالكلام الفارغ والضوضاء».

كانت الحكومة السوفياتية تعمل الآن بكاملها على مدار الساعة، في غرفة واحدة، إلى طاولة واحدة. «بعد تحقيق النصر، انتقل ستالين إلى سمولني»، يذكر فودور أليليفا. و«طوال الأيام الثلاثة الأولى، لم نغادر»، يقول مولوتوف. «كنت أنا هناك وزينوفيف وتروتسكي، وفي المقابل هناك ستالين وكامينيف. حاولنا التوقف والبدء على نحو متكرر لتخيل الحياة الجديدة». عندما قرر كامينيف وتروتسكي أنهما يرغبان في إلغاء حكم الإعدام في الجيش، كما ذكر ستالين في ما بعد، سمعهما لينين. «يا لهذا الهراء!»، صاح بهما. «كيف تمكننا إقامة الثورة من دون إطلاق النار والقتل؟». كان لينين يعني ذلك حقًا.

كان الانقلاب العسكري سهلًا على نحو مثير للاستغراب، لكن النزاع الحاسم للحفاظ على السلطة بدأ فورًا. لم يكن لينين يرغب في مشاركة حكومته مع المناشفة وجمهوريات السوفيات، لكن كامينيف أصر على إجراء حوارات للقيام بذلك وحسب. وعندما فشلت، استقال من منصبه. في تلك الأثناء، حشد كيرينسكي قوات كوساك في مرتفعات بولكوفو خارج المدينة، وأطلق عمال السكة الحديدة من المناشفة إضرابهم، مطالبين بالائتلاف. ونظم ستالين، برفقة سفيردلوف وسيرغو ودزيرغينسكي، الدفاع عن بيتروغراد.

شكل لينين وتروتسكي وستالين ثلاثية لا يمكن فصلها في أشهر السلطة الأولى تلك. محاصرًا من الداخل والخارج، يحتقره القابلون بالتسوية المذلة والعمال الفاشلون والمدّعون المتبجّحون داخل حزبه، قسّم لينين نبلاءه بين رجال الفعل والجادين «الممتنعين عن الشراب». كان هناك الكثير من الجادين. لو أن الجمهورية السوفياتية استقرت في اتزان مسالم، مع اتجاه الجادين، يمثلها رجال مثل كامينيف وبوخارين، لمنحها ذلك اتجاهًا مختلفًا تمامًا. لكن الأمر لم يكن كذلك. فقد كان لينين يقضي كل ساعة تقريبًا مع أشجع مؤيديه. وقد أملى في الساعات الأولى هذه، مرسومًا من دون تاريخ، يوضح مكانة ستالين وتروتسكي الخاصة كما يلي:

«تعليمات إلى الحراس عند استقبال مجلس مفوضي الشعب:

لا يُسمح لأحد بالدخول من دون دعوة خاصة باستثناء: رئيس مجلس مفوضي الشعب لينين...».

ثم قبل الأسماء المطبوعة لمساعدي لينين الشخصيين كتب، ربما لينين نفسه، بخط اليد:

«المفوض للشؤون الخارجية تروتسكي

المفوض لشؤون القوميات ستالين».

«لم يكن لينين ليتمكن من الاستمرار من دون [مساعدة] ستالين حتى ليوم واحد فقط»، كتب ستاينسلو بيستكوفسكي، البولشفي البولندي الذي أصبح لاحقًا المساعد الرئيسي لستالين في مفوضية القوميات. كان لينين يطلب من ستالين أحيانًا أن يصادق على

إمضاء مراسيم المجلس. «كان مكتبنا في سمولني تحت جناح لينين. على مدار اليوم، كان يستدعي ستالين عددًا لا يحصى من المرات، ويأتي إلى مكتبنا ويصطحبه بعيدًا. وفي إحدى المرات، وجد بيستكوفسكي الرجلين على أعلى السلالم يدرسان الخرائط معًا».

«جاء رجلان من عصابة ستالين القوقازية، كامو وتسيتسادز، إلى بيتروغراد. وجدتُ ستالين وحيدًا في الغرفة»، يقول تسينتسادز. «كنا مسرورين جدًا لرؤية بعضنا البعض. لكن في تلك اللحظة نفسها، دخل لينين الغرفة».

«التقِ بكوتي تسينتسادز»، قال ستالين للينين (الذي كان يعرف كامو مسبقًا)، «الإرهابي سارق البنوك القديم في القوقاز».

وبرغم ذلك، كان ستالين يتواصل مع مساعده بيستكوفسكي فقط بالدعابات. كان متقلب المزاج جدًا وقليل الكلام، ليتمكن من الثرثرة معه، على عكس الرجال البولشفيين الآخرين الثرثارين[437].

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، أنشأ مجلس المدينة مكتب القيادة الأساسي - تشيفيركا، المجموعة الرباعية، مع لينين وستالين وتروتسكي وسفيردلوف، على أنهم أقوى الرجال سلطةً في روسيا، ومخولون حل أمور جميع المسائل الطارئة. لكن سفيردلوف، الذي أصبح الرئيس الاسمي (رئيس اللجنة التنفيذية المركزية للسوفيات) قضى وقته في إدارة سكرتارية الحزب. وكنتيجة لذلك، كما ذكر تروتسكي، «اقتصر

الأربعة على المجموعة الثلاثية».

انطلق لينين مع معاييره الراديكالية والقمعية: السلام، الأرض، الخبز!. بدأ محادثات سلام مع امبراطورة ألمانيا. وعندما نقل تروتسكي، مفوض الشعب للشؤون الخارجية، عن الكونغرس أخباره، أجاب لينين: سأتشاور مع ستالين وأعطيك إجابتي. وفي السابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، تم منع الصحافة المعارضة وأنشأ لينين في مجلس المدينة، في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر، على نحو فعال، ديكتاتورية الأوليغارشيين البولشفيين. وفي الرابع من ذلك الشهر، منح مجلس مفوضي الشعب نفسه السلطة ليقود دون السوفيات. عملت MRC في البداية كقوات للينين، لكن في السابع من كانون الأول/ديسمبر شكل مفوضية استثنائية، جميعها من الروس، بهدف النضال ضد مناهضي الثورة والمدمرين Sabontage، المعروفة من تجمع الأحرف الأولية بكلمة Cheka، بوجود دزيرزينسكي رئيسًا لها. إ ن Cheka - سلف ل OGPU, NKVD, KGB، وما يعرف اليوم باسم FSB - تمتلك سلطة تتجاوز القانون على الحياة والموت.

«في تلك الحالة، لماذا نتكلف عناء إيجاد مفوض الشعب للعدل؟»، تحدى إسحاق تشتينبيرغ لينين، وهو سوفياتي يساري. «دعونا نطلق عليها، بصدق، مفوضية الإبادة الاشتراكية!» «هذا كلام جيد!»، أجابه لينين. «وهذا بالتحديد ما سيحدث!».

قال لرفيق آخر: «إننا مشتركون في الإبادة. ألا تذكر ما الذي قاله

بيساريف: كسّروا، هدّموا كل شيء، اضربوا وهدّموا! كل شيء يُكسر نفاية لا يمتلك الحق من أن يعيش! لا ينجو إلا الجيد». أوصت تعليمات لينين بإطلاق النار والقتل و«شنق الطُفيليين... العناكب... العلق». سأل: «كيف يمكنكم إقامة الثورة من دون جنود جاهزين للقتل؟ إن لم نكن قادرين على إطلاق النار على المخربين من (الحرس الأبيض)، فأي ثورة هذه؟ ليست سوى كلام فارغ ووعاء من العواطف!». وطالب بأن يجدوا له أشخاصًا أكثر قسوة. لكن ستالين وتروتسكي كانا قاسيين بما يكفي. فقد قال تروتسكي، يجب أن نضع نهاية لذلك لمرة واحدة نيابة عن كل المرات، لهراء قدسية الحياة الإنسانية». وأظهر ستالين رغبة مشابهة في الإرهاب. وعندما اقترح البولشفيون الأوسيتيون تصفية الخائنين في أيام الثورة الأولى، أجاب بالتأكيد: إن فكرة معسكر الاعتقال فكرة رائعة.

«بدأ يشعر بثقة أكبر بنفسه، «كتب تروتسكي». لاحظت سريعًا أن لينين كان يُقدّم ستالين، يُقيّم صلابته وثباته وعناده ومكره، على أنها صفات ضرورية في الثورة[438]. أما مولوتوف، الذي كره تروتسكي، فقد حكم بأن هناك سببًا لقيام لينين بتمييز ستالين وتروتسكي كقائدين بارزين من بين الآخرين، على أنهما الأكثر موهبة.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، فهم سوخانوف أن ستالين يحمل بين يديه قدر الثورة والدولة. يقول تروتسكي إن الجورجي أصبح معتادًا على السلطة.

وبرغم ذلك، لم يكن من الممكن تجاهل ستالين إطلاقًا. الفطنة، الثقة، الذكاء، المواهب السياسية، الإيمان والخبرة بالعنف، الحساسية، حب الانتقام، السحر، الحساسية، تحجر القلب، نقص العاطفة، تفرد الرجل المطلق الغريب، جميعها أمور مناسبة - لكن ينقصها المنبر. وفي العام 1917، وجد المنبر.

لم يكن ليتمكن من الوصول إلى السلطة في أي وقت آخر في التاريخ: فقد تطلبت تزامن الرجل المناسب مع الوقت المناسب. إن ظهوره غير المحتمل كجورجي يحكم روسيا قد أصبح محتملًا فقط من خلال الطابع الدولي الذي تحمله الماركسية. أما حكمه الاستبدادي، فقد أصبح ممكنًا في الظروف المزعجة لروسيا السوفياتية، وذلك التعصب الوهمي لأيديولوجيتها النصف دينية، والذكورية البولشفية المتحجرة، والروح الإجرامية للحرب العالمية الأولى، ورؤية لينين النزّاعة للقتل في ديكتاتورية من الطبقة الكادحة. لم يكن ستالين ليكون ممكنًا لولا أن قام لينين، في الأيام الأولى للحكم، بتطبيق طريقة كامينيف المعتدلة في خلق الآليّة لسلطة مطلقة وغير محدودة. هذا هو المنبر الذي تجهز ستالين له على نحو متميز. يمكن ستالين أن يصبح ستالين الآن.

بعد أشهر من ثورة أكتوبر، استخدم لينين وأقطابه تلك السلطة للقتال في الحرب المدنية. في ذلك الحين شهد ستالين، مع كتائبه، تلك السلطة غير المحدودة في شنّ الحرب وتغيير المجتمع بالقتل العشوائي. ومثل الصبية في أول رحلة صيد لهم، تضرجوا بالدماء لكثرة الإثارة والاختيال. إن شخصية ستالين، المتأذية والموهوبة، كانت مؤهلة ومنجذبة بشدة نحو مثل هذا الافتراس

الوحشي. وبعد ذلك، لم تكن آلة الكبت والقسوة ونفسية جنون الاضطهاد الشاعرة بتآمر مستمر ورغبة بالحلول الدموية المفرطة لجميع التحديات، مجرد صفة مسيطرة، لكنها متألقة ومؤسساتية وسامية نحو إيمان بولشفي لاأخلاقي يسيطر على حماسة المُحرر. في بيروقراطية واسعة تُدار كقرية منحازة إلى أقاربها، أظهر ستالين نفسه كسيد للسياسة الشخصية[439]. كان الراعي لتلك النزعات الوحشية، وتشخيصاتها أيضًا: كان محقًا عندما صرح تكفيريًا العام 1929: لقد حولني الحزب إلى نمطه الخاص. لقد تطور هو والحزب معًا، لكن مخلوق المخبأ هذا، بتطرفه غير المحدود، والاكتئاب والظلام الحاقد، لطالما كان بإمكانه الاستمرار بذلك.

لقد ترعرع في القوقاز المتعصب؛ قضى فترة نضجه بكاملها في مخبأ تآمري، في تلك البيئة الغريبة حيث العنف والفتن والولاء، هي السلع الأساسية؛ ازدهر في غابة النزاع المستمر والدراما والتوتر؛ وصل إلى السلطة كذلك الشيء النادر - رجل العنف والأفكار معًا، خبير في العصابات، وماركسي ورع، لكن، فضلًا عن كل شيء آخر، كان يؤمن بنفسه وبالقيادة المتحجرة الخاصة، كالطريقة الوحيدة لحكم بلد يعيش في أزمة، ولتقديم مثال مطلق لمدينة مثالية حقيقية.

في حكومة غير محدودة تديرها مؤامرة كبرى من إراقة الدماء وتأييد عشائري، من هو الشخص الأكثر أهلية للنجاح؟

* * *

إن تراقص السلطة بين تروتسكي وستالين، بدأ منذ البداية تمامًا، في الاجتماع الأول للحكومة الجديدة، المناسبة التاريخية التي تصادمت فيها الزلات الشخصية والمكائد مع قدسية المادية الجدلية.

عقد المجلس الأول - مجلس مفوضي الشعب تبعا للفظ البولشفي - في مكتب لينين في سمولني، الذي كان لا يزال موقتا ينقصه الكثير، إلى درجة أن الاتصال الوحيد مع امبراطوريته الجديدة هو حفرة ضيقة لفتاة الهاتف والآلة الكاتبة خلف حاجز خشبي ينقصه الطلاء. «لم يكن من الصدفة حتما أن رفيقي لينين البارزين، ستالين وأنا»، كتب تروتسكي، «هما أول الواصلين».

بعد ذلك، خلف الحاجز الخشبي، سمع كلاهما التنهدات المغوية والعاطفية: الحديث من طبيعة عاطفية في غناء أجش [لمفوض الشعب للشؤون البحرية] ديبينكو، وهو بحار بلحية سوداء، في التاسعة والعشرين من عمره، عملاق مرح وواثق من نفسه، وأصبح مؤخرًا على علاقة بألكيندرا كولونتاي، وهي امرأة من جذور أرستقراطية تقترب من السادسة والأربعين من عمرها. في هذه اللحظة الهامة، وجد ستالين وتروتسكي نفسيهما يسترقان السمع إلى آخر علاقة فاضحة لكولونتاي، التي دارت حولها الكثير من الثرثرة في دوائر الحزب.

نظر تروتسكي وستالين إلى بعضهما البعض: هذان المخلصان الماركسيان المتعجرفان المقدسان، المديران البارزان، المفكران البارعان، المنفذان الإجراميان، الغريبان المتطرفان، اليهودي

والجورجي. سرُ ستالين بذلك، لكن تروتسكي شعر بالصدمة. «جاء ستالين إليّ بنوع من السرور غير المتوقع، وأشار بكتفيه نحو الحاجز وقال، بابتسامة متكلفة: إنه مع كولونتي، مع كولونتي!»[[440]]. لم يكن تروتسكي مسرورًا بذلك: بدت إيماءته وضحكته بالنسبة إلي غريبة وبذيئة على نحو لا يطاق، وخاصة في هذه المناسبة، وفي هذا المكان.

«أهذه هي علاقتهما!»، قال تروتسكي بسرعة، «أحس ستالين بأنه اقترف خطأً».

لقد حدث المذهل وغير المتوقع: ستالين، ابن الإسكافي الجورجي، على مقربة من ذروة الحكومة الروسية الأوليغارشية؛ وتروتسكي في اللحظة نفسها تقريبًا، هو منافسه الطبيعي.

قال تروتسكي، «لم يحاول ستالين إطلاقًا إشراكي في محادثة ذات طبيعة شخصية». تغير وجه ستالين. لمعت عيناه المهتاجتان بوميض الحقد[441] .

الخاتمة

نينيكا العجوز

كبر نينيكا في العمر

خذله كتفا البطل...

كيف يمكن هذا الشعر الرمادي المتعب أن يسحق الإرادة الحديدية؟

آه، يا أمي! كثيرًا يلوح بمنجل الضبع،

عاريَ الصدر، في آخر حقل الذرة ينفجر فجأة بالزئير

لا بد من أنه كدّس جبالًا من الحزم، جبنًا إلى جنب

وعلى وجهه المقيّد بالعرق المتساقط اندلعت النيران والدخان

لكنه لم يعد قادرًا على تحريك ركبتيه الآن،

عجز من الكبر يتمدد أو يحلم أو يحكي قصص ماضيه

من وقت إلى آخر يسمع الأصوات؛

أصوات الغناء في حقول الذرة المجاورة

وقلبه القاسي في السابق

بدأ يخفق من السعادة

يجر نفسه ليخرج، مرتجفًا

يتحرك بضع خطوات على عصا الراعي

وعندما يلمح بعينيه الرجال

يبتسم بارتياح.

سوسيلو (جوزيف ستالين)

الطاغية العجوز: إحياءً لذكرى الماضي

على التلال الخضراء فوق غاجرا المطلة على شاطئ البحر الأسود، هناك جلس رجل جورجي عجوز، صغير القامة، صلب الجسد، كبير البطن، مع شعر رمادي خفيف وشارب، يرتدي سترة قصيرة رمادية وبنطالًا فضفاضًا، على شرفة القصر المطلة على المنحدر، في الوكر المحصن، بإطلالته البانورامية، يتحدث مع ضيوفه العجائز عن أيام طفولتهم معًا...

كانت أطباق كباب لحم البقر والخضار المتبلة الجورجية منتشرة حول الطاولة مع زجاجات النبيذ الأحمر المحلي، بينما كان الرجال يتحدثون بالجورجية عن زمن الصبا في غوري وتيفليس، وعن دراستهم في المعهد، وعن راديكاليتهم أيام الشباب. لم يهم انفصالهم وسلوكهم طرقا مختلفة، ذلك أن المُضيف لم ينس أبدًا أصدقاءه وزملاءه في الدراسة.

في الأعوام التي سبقت وفاته، بدا القائد ستالين، رئيس الحكومة السوفياتية والقائد الأعلى للحزب الشيوعي، فاتح برلين والحبر الأعظم للماركسية العالمية، سوسو العجوز، منهكًا من قضاء أكثر من خمسين سنة في التآمر، وثلاثين سنة في الحكومة، وخمس سنين في حرب ديكتاتورية، وتقاعد ليقضي عدة أشهر في فيلته المفضلة المطلة على شاطئ البحر الأسود النصف مداري في موطنه، ويقضي أيامه في الاعتناء بالحديقة والقراءة - أما أمسياته الدافئة فيتحدث فيها عن ذكرى الماضي.

كان يتحدث أحيانًا مع زميلته مولوتوف وفوروشيلوف، وأحيانًا إلى نوابه وأنصاره الجورجيين، إلا أن ستالين كثيرًا ما كان يدعو ضيوفًا جورجيين من الذين عرفهم في شبابه. وعندما يتسنى له الوقت، كما ذكر الساذج تشاركفيني، المبعوث الأول للحزب الجورجي، الذي كان يذكّر ستالين بالأب كوت تشاركفيني من غوري، يتصل بزملائه في المدرسة. اعتاد ستالين على رواية قصص عن طفولته، ومن ثم يتذكر أصدقاءه ويرغب في رؤيتهم. لهذا، كان يرتّب أمر دعوتهم إلى المنزل في غارجرا. كان ستالين يستمتع بالتخطيط لحفلات العشاء هذه: «دعونا ندعُ بيتر كاباناجي وفاسو أغناتاشفيلي... أتساءل كيف حال تسيرادز؟

كان مصارعًا مشهورًا... سيكون من اللطيف أن ندعوه أيضًا و...

عندئذ يجتمع كابانادز وإغناتشفيلي والعجائز الآخرون، ويتم إيصالهم من تيفليس إلى البحر الأسود صعودًا إلى التلال، في طريق ذي انحدار شديد، عبر البوابات المعدنية والحرس العسكري طوال الطريق، إلى قصر ستالين السري بحراسته المشددة، كولدستريم.

ومن هناك، يوصلهم الحراس إلى ستالين، الذي كان غالبًا ما يقلّم الأزهار، أو يزيل الأعشاب الضارة حول أشجار الليمون، أو يقرأ على الشرفة، أو يكتب في المنزل الصيفي الخشبي المثبت على حافة المنحدر، أو يلعب البليياردو. تقدم العشاء سيدات خفيات نوعا ما يرتدين المآزر، ويختفين على الفور. يفتح ستالين النبيذ الجورجي، ويتقدم الجميع لتناول الطعام، المجهز مسبقًا على شكل

البوفيه.

«يستمتع الضيوف بوقتهم»، يقول تشاركفياني. كان ستالين ودودًا ويشعر بالحنين إلى وطنه - لكن هناك أيضا ذكريات عن غضبه الديكتاتوري. على مائدة العشاء، كانت هناك لحظات غير سارة عندما لاحظ ستالين علبة من السجائر الجورجية تحمل صورة فتاة بوضعية بذيئة. وعلى نحو مفاجئ، فقد السيطرة على أعصابه: متى رأيتم امرأة مهذبة في مثل هذه الوضعية؟ هذا غير مقبول!

وعد تشاركفياني والموالون الآخرون بإعادة تصميم علبة السجائر. هدأ ستالين. غالبًا ما كان سوسو وأصدقاؤه القدامى يتحدثون عن المسرح والفن والأدب، وعن السياسة قليلًا. تذكر على نحو مؤثر زوجتيه كاتو وناديا؛ تحدث عن مشاكل أطفاله - ومشى بيتر كابانج برزانة حول الطاولة ليهمس تعازيه على موت ياكوف، ابن ستالين. أومأ ستالين بحزن: العديد من العائلات تفقد أبناءها. وبعدها سرد قصصًا عن ثمالة والده، وعن مباريات المصارعة في غوري، وعن مغامراته العام 1905، وعن غرابة كامو وتسيينتساج، وعن لصوص البنك، وأعماله البطولية في المنفى. لكن دائمًا ما كان يسيطر عليهم الظل المخيف للمحاكمات الصورية، والثمن الإنساني المخزي للثورة، والسعر الباهظ لقاء رغبة ستالين في السلطة.

يذكر ستالين حياة البولشفيين القدامى، ويحكي النوادر عنهم. ذكر أسماء جعلت الضيوف يرتعشون قليلًا، لأنهم كانوا أشخاصًا عمل ستالين بنفسه على قتلهم بسرور. كان يقول أحيانًا بعد التفكير،

إنهم أَعدموا عن طريق الخطأ، بأوامر منه. «كنت متفاجئًا»، يقول تشاركفياني، بأنه «عندما ذكر الأشخاص الذين تمت تصفيتهم ظلمًا، تحدث بتجرد المؤرخ الهادئ. لا يظهر أي حزن أو غضب، بل يتحدث من دون أي سخط، بنبرة من المرح الخفيف»... أما المرة الوحيدة التي شرح فيه ستالين هذا التعاطف، في وقت سابق، ففي رسالة إلى والدته. أنت على دراية بالقول: «ما دمت على قيد الحياة، فسأستمتع بزهوري البنفسجية. وعندما أموت، يمكن دودة القبر أن تستمتع بها».

عند تأمله حياته السابقة، يذكر الديكتاتور العجوز: إن المؤرخين هم نوع من الأشخاص الذين لا يكتشفون فقط الحقائق المدفونة تحت الأرض، بل تلك الموجودة في أعماق المحيط، ويكشفونها إلى العالم. سأل، همسًا تقريبًا: هل بإمكانك كتمان السر؟

كان ستالين أحيانًا ينظر عبر الزجاج بكآبة، وهو يذكر حياة عائلته وأصدقائه ومعارفه الذين شكلت أقدارهم المختلطة عالمًا صغيرًا من المأساة المروعة أثناء حكمه[442].

* * *

«كان ستالين ابنا سيئًا ومهملًا، تمامًا مثلما هو كزوج وأب»، كتبت ابنته سفيتلانا أليليفا ستالين. كرس وجوده بكامله لشيء آخر، للسياسة والنزاع.

وبذلك، كان الأشخاص غير المقربين من الناحية الشخصية دائما أكثر أهمية بالنسبة إليه من أولئك المقربين. بل أسوأ من ذلك، فقد

سمح لسياسته وشجعها في الواقع، على أن تدمر حيوات أحبائه وتهلكها.

بحلول العام 1918، كان معظم أولاد أليليفا يعملون لدى ستالين. عندما تم إرسال ستالين إلى تساريستن (ستالينغارد) العام 1918 أثناء الحرب المدنية، اصطحب معه عشيقته ناديا أليليفا وأخيها فودور، في قطاره المصفح، كمساعدين له. وعندما عادوا، كانت ناديا زوجته فعليًا، حيث انتقلت إلى شقته في الكريملين وأكرمته بطفلين، ابن، فاسيلي[443]، وابنة، سفيتلانا. وعملت ناديا بعد الحرب الأهلية لفترة وجيزة كواحدة من سكرتيرات لينين.

تزوجت آنا أليليفا أيضا أثناء الحرب الأهلية. رافقت ستالين وجيرزهينسكي في مهمتهما للتحقيق في سقوط بيرم، حيث وقعت في حب مساعد جيرزهينسكي البولندي، ستانيسلاس ريدينز، الذي أصبح شرطيًا سريًا رفيع المستوى وعضوًا في محكمة ستالين. خدم أخوهم بافيل كدبلوماسي ومفوض عسكري في مفوّضية الدفاع. وتألقوا جميعًا في بطانة ستالين. وبرغم ذلك، كان تأثير ستالين في العائلة كنذير الشؤم.

كانت المأساة الأولى تتعلق بفودير الذكي، لكنه الضعيف. أثناء الحرب المدنية، جُنّد في القوات الخاصة التي يدربها كامو. كان هذا الرجل المصاب بالذهان، وسارق البنوك في السابق، مهووسًا باختبارات الولاء تحت تهديد النار. ولهذا الغرض، ابتكر خطة لتزييف اعتقال الأعداء البيض لوحدته. في الليل يعتقل الرفاق ويقودهم إلى الخارج ليطلق النار عليهم. وفي حال بدأ أحدهم

يلتمس الرحمة وتحول إلى خائن، يطلق النار عليه... «بهذه الطريقة»، قال كامو، «يتأكد حتمًا من أن رجاله لن يخذلوه». كشف أحدهم عن نفسه - فأطلق عليه النار فورًا. وبعدها جاء الاختبار الحاسم: شق صدره وأخرج قلبه. ثم قال فودير، ها هو قلب ضابطكم!

«فقد فودير عقله. جلس بصمت لعدة أعوام في المشفى»، قالت ابنة أخته سفيتلانا. وببطء، تمكن من العودة إلى الكلام، وأصبح إنسانًا من جديد. لم يعمل إطلاقًا، لكنه عمّر أكثر من ستالين.

كان الزواج من ناديا حدثًا سعيدًا في البداية نوعًا ما. انتقل أفراد من عائلة أليليفا إلى شقة ستالين ومقره الريفي، زوبالوفو، وهو على نحو ساخر مقر سابق لبارون النفط في باكو. بدت ناديا راضية بأن تصبح ربة منزل، وأمًا، لكنها سريعًا ما اشتاقت إلى مهنة جادة. فقد عمل ثقل شخصية ستالين، والضغط السياسي للحرب على الفلاحين، وجهد تربية طفلين، والدراسة من أجل الحصول على الشهادة، بالإضافة إلى غيرتها المهووسة من عبثه المعتاد، على تحطيم ناديا. ونتيجة الإصابة بالاكتئاب، انتحرت في تشرين الثاني/نوفمبر 1932.

أما والدا زوجة ستالين، سيرجي وأوليغا، فعاشا في الكريملين، وفي الدّاشة (وهو بيت ريفي روسي) برغم تدميره لعائلتهما. وبعد وفاة ناديا، تقرب ستالين، محطم القلب، من زينا أليليفا، زوجة البافيل، وربما أدى ذلك إلى نشوء علاقة بينهما. وإن كانت الحال كذلك، فقد انتهت في الوقت الذي أطلق فيه ستالين محاكماته

الصورية.

اعتُقل ستانيسلاس ريديز وأُطلق عليه النار برغم توسلات زوجته آنا. توفي بافيل أليليفا في ظروف مشبوهة. بعد الحرب العالمية الثانية، قامت أخت زوجة ستالين آنا وزينا، بإزعاجه من خلال التدخل في العائلة والقضايا السياسية، وأصبحتا مقربتين كثيرًا إلى العديد من اليهود الخاضعين للتحقيق. وبإذن من ستالين، كتبت آنا مذكراتها، لكنه اتضح في النهاية أنها تنقصها اللباقة على نحو مميّز، وخاصة بشأن ذراعه المتيبسة. أمر باعتقال المرأتين. وعندما تم إطلاق سراحهما بعد وفاته، كانتا مقتنعتين بأن ستالين هو من أطلق سراحهما، رافضتين تصديق أنه هو نفسه كان المسؤول عن مأساتهما. فقدت آنا عقلها في السجن، ولكنها عاشت حتى عام [444] 1964.

* * *

أما عائلة ستالين الأخرى، عائلة سفانيدز، فلم تكن محظوظة هي أيضا. لم ير ابنه، ياكوف، والدَه مجددًا حتى العام 1921، عندما أحضره خاله، أليوشا سفانيدز، وأخت كامو إلى موسكو. انتقل إلى منزل ستالين وناديا، لكن أساليبه الجورجية البطيئة أغاظت والده. وعندما أخفق ياكوف في الانتحار، الذي كان عملًا يميل إلى كونه طلبًا للمساعدة، ضحك ستالين لأنه عاجز حتى عن إطلاق النار بشكل صحيح على نفسه.

ظل أليوشا سفانيدز، الذي تزوج بمغنية يهودية جميلة، صديقًا

مقربًا منه. كان هو وسوسو كالأخوة. اشتغل في الخارج، ثم عاد في أوائل الثلاثينيات كنائب رئيس لبنك السوفيات. وبعد انتحار ناديا، أصبحت عائلة سفانيدز، ومن ضمنها أخوات كاتو، مقربة جدًا إلى ستالين: عملت ماريكو في موسكو كسكرتيرة لأبيل نوكيدز، بينما ظلت ساشيكو سفانيدز مونوسيلدز عدة مرات مع ستالين.

تنافست زوجة أليوشا ماريا وأخته ساشيكو، مع نساء عائلة أليليفا، آنا وزينا، في العناية بستالين. وفي أوائل الثلاثينيات، عشن معه فعليا، لكن منافستهن أزعجت الديكتاتور.

في العام 1935، طلب زوج ساشيكو، مونوسيليدز، من ستالين مساعدة مالية، فرد عليه:

«لقد بعثت بخمسة آلاف روبل لساشا (ساشيكو). إنها كافية لكما في هذه الأثناء. لا أملك المزيد من المال، وإلا لكنت أرسلته. هذه هي المبالغ التي أتلقاها من خطاباتي ومقالاتي... لكن يجب أن يظل الأمر بيننا (أنت وأنا وساشا). لا يجب أن يعرف أحد بالأمر، وإلا فسيبدأ أقاربي الآخرون ومعارفي في الطلب مني، ولن يتركوني وحدي إطلاقًا. لذا يجب أن يظل الأمر كذلك. ميشا! دمتم بخير! أبعث بتحياتي لأصدقائنا!

المخلص

سوسو

19 شباط/فبراير 1935

ملاحظة: إن قابلت والدتي، ابعث لها بتحياتي».

توفيت ساشيكو بمرض السرطان العام 1936، لكن أختها ماريكو اعتُقلت في قضية ضد مديرها ونكيدز. في السنة التالية، أمر ستالين باعتقال أليوشا سفانيدز وزوجته. أخبر الشرطة السرية السوفياتية بأن تطلب من أليوشا الاعتراف بأنه جاسوس ألماني مقابل الإبقاء على حياته. رفض أليوشا ذلك متحديًا.

«يا لهذه الكبرياء الأرستقراطية»، قال ستالين. تم إعدام أليوشا وزوجته ماريا وأختها ماريكو العام 1941 مع تقدم الألمان. وأثناء المحاكمات الصورية، أحب ستالين تبرير اعتقال العائلات الأخرى البارزة، بقوله: ما الذي يمكنني فعله؟ عائلتي أنا في السجن!

أما ابن ستالين، ياكوف، من كاتو سفانيدز، فتزوج في الثلاثينيات ورُزق بابنة، أسماها غالينا، لا تزال على قيد الحياة. أثناء الغزو الألماني، اعتقله النازيون. اعتقد والده أنه قد خانه واعتقل زوجته. لكن ياكوف انتحر من دون خطأ. وبعد ذلك، اعترف ستالين نادمًا بأن الصبي كان رجلًا حقيقيًا[445].

* * *

أما بالنسبة إلى النساء في حياته، فكانت أقدراهن غامضة غالبًا، لكنهن اكتسبن القليل من الفائدة عندما أصبح عشيقهن قائد السوفيات.

الحسناء، فتاة المدرسة، بيلاغيا أونوفريفا، أصبحت مُدّرسة، لكنها

تركت مهنتها العام 1917 وتزوجت بميكانيكي اسمه فومن. تم استهداف والدها وأخوتها كونهم مزارعين أغنياء، أثناء حرب ستالين على الفلاحين في أوائل الثلاثينيات، ونفوا إلى سيبيريا. في العام 1937، اعتُقل زوجها وسجُن على أنه مخرّب محتمل. ونتيجة لذلك، فقد ابنها المنحة للدراسة في جامعة لينينغراد. ولهذا السبب كتبت إلى ستالين. أُعيدت المنحة. لكن تم اعتقال زوجها مجددًا العام 1947 وعوقب بالسجن عشر سنين كعدو للشعب.

عندما أجريت معها مقابلة العام 1944 بشأن القائد، طلب شرطي سري بطاقات البريد وكتاب قدمه ستالين إليها. «حياتي كانت صعبة ومليئة بالتنقلات»، أجابته، «امتلكتُ عائلة كبيرة، ولم أتمكن من الاحتفاظ بكل شيء، لكني احتفظت بالكتاب. لذا من المخزي أن أعطيك إياه لأنه الذكرى الوحيدة، ليس لأنه من ستالين، بل من رجل اسمه جوزيف. هذا ما أطلقه عليه. أقول إننا كنا صديقين. والكتاب عزيز عليّ، يمكنك أخذه عندما أموت». لكن الناشطين الشيوعيين صادروا الكتاب.

عملت لودميلا ستال لعدة أعوام في مجلس المدينة، وكُرِّمت، وساعدت ستالين في تحرير أعماله في الدائرة السرية لمجلس المدينة، وأصبحت عضوًا في مفوضية التحكم المركزية. لكن، في العام 1937، أطلق النار على أخي زوجها، الجنرال، وتم اعتقال ابنتها وابنها ونفيهما لمدة ثماني سنين. وطُردت هي وأحفادها من المنزل في إمبانكمينت، حيث يعيش العديد من النخبة. وقد أرّخ أحد أحفادها الكاتب، يوري تريفونوف، التجربة في روايته القصيرة «منزل في إمبانكمينت».

وفي حدود معرفتنا، تعرف ستالين إلى واحدة فقط من صديقاته[446]. في العام 1915، تذكر شريكته في سولفيتشيغودسك، أنها تاتينا سوكوفا، انتقلت إلى موسكو وأرادت رؤية الرفيق ستالين بشدة. «كتبتُ له. فوجئتُ لسماع صوته على الهاتف في ذلك المساء». في اليوم التالي، التقيا في مكتبه في أولد سكوير: «تحدثنا عن عملي، عن أصدقائنا المشتركين، وعن سولفيتشيغودسك».

العام 1929، عندما كان ستالين يستريح في ماتسيستا في الجنوب، اتصلت به سوكوفا، المدرّسة، مجددًا. «جاء ثلاثة شبان ببدلات بيضاء اللون واصطحبوني».

أخذوها إلى فيلته، حيث رحبت بها ناديا أليليفا وستالين. استغرقوا في ذكرياتهم إلى مائدة العشاء. سألتها ناديا عن الشاب ستالين في أيام المنفى.

وصفتُ شكله، وقلت إنه الرفيق ستالين لم ينفصل أبدًا عن قبعته البيضاء». ضحكت ناديا، تقول إنها لم تتخيله متأنقًا إطلاقًا!. ثم أراها ستالين، بفخر، ثمرات الطماطم في حديقته، واصطحبها إلى ميدان الرمي إلى جانب المنزل، حيث أصاب نقطة الهدف ببندقيته. سمح لها بإطلاق النار من مسدس مونتي كريستو الإنكليزي الصغير - لكنها أخفقت. «كيف ستتمكنين من الدفاع عن نفسك؟»، سألها ستالين. وعندما أخبرته بأنها تلقت معاملة سيئة في المشفى، دمدم: لا بد من أن يتم تأديبهم.

لكن، في العام التالي، تورطت سوكوفا بمحاكمة ستالين لرامزين

والآخرين. التجأت إليه فاستقبلها. «هل هذه هي المرة الأولى التي تقعين فيها في المأزق؟»، سألها، مضيفًا «أنا دائما أقع في المشاكل بنفسي». اتصل بعد ذلك بمؤسستها وحماها. «من الآن فصاعدًا، عليك الدفاع عن نفسك».ولم يلتقيا على الإطلاق بعد ذلك[447].

* * *

ترك ستالين على الأقل ولدين غير شرعيين في حياته. لم يتلق أحد منهما أي مساعدة مباشرة من والده.

كونستانتين كوزاكوف، ابن ستالين من ماريا، مالكة الأرض في سولفيتشوغودسك، حظي بالمهنة الأكثر إمتاعًا بين الاثنين. عندما رأت كوزاكوف منصب ستالين في الحكومة العام 1917، كتبت له تطلب المساعدة. وعندما لم تتلق أي إجابة، تقدمت إلى مكتب لينين، حيث كانت زوجة ستالين ناديا لا تزال تعمل. ومن دون إخبار ستالين، زادت عائدات كوزاكوف، لكنها أخبرت الوالد بعد ذلك.

لكن ستالين لا بد من أنه ساعد على إدخال الصبي إلى جامعة لينينغراد. في العام 1932، جعلته الشرطة السرية السوفياتية يوقع تصريحًا يعد فيه بعدم مناقشة أصوله إطلاقًا.

درّس الفلسفة في معهد لينينغراد الميكانيكي العسكري، وتلقى ترقية للعمل في الإدارة الشيوعية لمجلس المدينة في موسكو من قبل أندريه زدانوف، الرفيق الأقرب إلى ستالين. قال كونستانتي

في ما بعد، إن زدانوف عرف أصوله. لم يلتق بوالده أبدًا، «بالرغم من أن ستالين توقف مرة ونظر إليّ وشعرت بأنه يريد إخباري شيئًا. أردت استعجاله للقيام بذلك، لكن شيئًا ما أوقفني. لوح بغليونه ثم أكمل طريقه». أثناء الحرب العالمية الثانية، قُلد كونستانتي منصب الكولونيل، لكن والدته توفيت من الجوع أثناء حصار لينينغراد.

في صيف العام 1947، استدعي كوزاكوف إلى مكتب زدانوف حيث وجد رئيس الشرطة السرية الخائف، والمتأنق، فيكتور أباكوموف. اتهموا نائب كوزاكوف بكونه جاسوسًا أميركيًا، وبأن كوزاكوف متورط في ذلك. لم يصادق ستالين على اعتقاله، لكن كوزاكوف تعرض لمحاكمة في محكمة الشرف، وطُرد من الحزب. كان له ثلاثة أطفال، لكنه لم يتمكن من إيجاد عمل حتى كبواب.

بعد موت ستالين واعتقال بيريا، انضم مجددًا إلى الحزب، ورُقي ليصبح مديرًا لوقت طويل في التلفزيون السوفياتي، في وزارة الثقافة. ومات العام 1996.

* * *

ترك ستالين ليديا بيربريغن مع الابن ألكسندر، الذي وُلد ربما في أوائل العام 1917. تزوجت بعد ذلك بصياد قروي، يُدعى ياكوف دافيدوف، تبنى ألكسندر كابن له. أصبحت ليديا مصففة شعر في إغاركا ورزقت بثمانية أطفال آخرين. «لم يساعدها ستالين إطلاقًا»، كما ذكر سيروف، الجنرال في الشرطة السوفيتية

السرية.

أُخبر ألكسندر بالحقيقة من قبل والدته ليديا بعد أعوام من انتهاء علاقتها بستالين، يقول ابنه يوري. التزموا الصمت بشأن ذلك، وعرف القليل من السكان المحليين فقط في كوريكا، من هو والده في الحقيقة.

أصبح ألكسندر عامل بريد ومدرّسا في كومسومول، لكن الشرطة السوفياتية السرية، استدعته العام 1935، إلى كراسنويارسكي للتوقيع على وعد، مشابه لذلك الذي وقعه كوزاكوف، بألا يتحدث عن أصوله أبدًا. ثم صدر اقتراح بأن ينتقل إلى موسكو، لكنه رفض، خائفًا دائمًا مما قد يحدث له. خدم ألكسندر دافيدوف في الحرب العالمية الثانية كجندي، وجُرح ثلاث مرات، ثم رُقي إلى رتبة رائد في الحرب الكورية. أدار المخزن العسكري في نوفونوزنيتسك، بلدة المناجم، حيث تزوج ورزق بثلاثة أطفال، ليموت العام 1937. «أخبرني والدي بأني حفيد ستالين»، يقول يوري، الذي يعيش مع أسرته في نوفوسيبيرسك[448].

* * *

وإلى أن عمل ستالين على تنظيم احتلال جورجيا مجددًا العام 1921[[449]]، عاشت والدته في بلد مختلف. وبعد ذلك، اجتمع سوسو مجددًا مع كيكي أثناء زيارته المريرة إلى تيفليس، حيث وجد نفسه مكروهًا لكونه الفاتح الدموي وقاطع طريق سابقًا.

كتب ستالين رسائل إلى كيكي على نحو منتظم، لكنه أبقى على

مسافة بينهما. كانت مفعمة بالحياة وعذبة الحديث، وظلت الشخص الوحيد في حياة ستالين التي تجرأت وسألت: أتساءل لماذا لم يتمكن ابني من مشاركة السلطة مع تروتسكي؟ لم يكن ستالين ليحتمل مثل هذا الاستقلالية.

جاءت كيكي في زيارة قصيرة إلى موسكو والتقت بناديا. «هذه المرأة زوجتي»، حذرها ستالين. «لا تحاولي جلب المشاكل لها أبدًا». فضلت العيش في شقة مكونة من غرفتين في قصر فيسيروي القديم في غولوفينسكي بروسبكت في تيفليس. أرسلت إليها ناديا الرسائل التي تحمل الأخبار وصورًا لأطفالها. وعندما كان ستالين يصعد إلى السلطة، كانت رسائله قصيرة:

«أمي، أطال الله عمرك!

المخلص،

مع القبلات

سوسو

1 كانون الثاني/يناير 1923».

اشتكت كيكي من أن ابنها لم يكن يُوليها الانتباه الكافي: «ماما، أعلم أنك خائبة الأمل فيَّ، لكن ما الذي يمكنني فعله؟ أنا مشغول جدًا ولا أجد الوقت الكافي للكتابة. أنا غارق في هذا الأمر ليلًا ونهارًا. المخلص. مع القبلات. سوسو، 25، كانون الثاني/يناير 19»؛ أو ربما تجاهلته وأكملت حياتها هي: «ماما، كيف حالك؟ لم تكتبي إليَّ منذ وقت طويل. ربما أنت منزعجة مني. لكن، ماذا

أفعل؟ أنا منشغل جدًا. أرسلت إليك 150 روبلًا، لا يمكنني إرسال المزيد. إن احتجت إلى المزيد، أخبريني كم. المخلص، سوسو».

أما نقص المودة بينهما فكان أكثر وضوحًا بعد انتحار ناديا:

«تحياتي إلى أمي،

وصلني المربى والزنجبيل والحلوى الجورجية. الأطفال مسرورون بها كثيرًا، ويبعثون بشكرهم. أنا بخير، لا تقلقي عليّ. يمكنني تحمّل قدري. لا أعرف إن كنت بحاجة إلى المال، أم لا. أرسلت إليك 500 روبل تحسبًا. أبعث أيضًا بصورة لي وللأطفال... أرجو أن تحظي بصحة جيدة ومعنويات مرتفعة.

قبلاتي الحارة.

ابنك سوسو

24 آذار/مارس 1934

ملاحظة: يبعث الأطفال بتحياتهم. بعد وفاة ناديا، أصبحت حياتي الخاصة شاقة جدًا، لكن الرجل القوي يجب أن يظل شجاعًا دائمًا».

عندما زارها لآخر مرة العام 1936، قالت إنها تتمنى لو أصبح كاهنًا. وهذا أدهش ستالين نوعًا ما. أرسل إليها الأدوية والملابس. وعندما ساءت حالتها، شجّعها:

«مسرور لأنك بصحة جيدة». كتب لها العام 1937. «هذا دليل على أن عائلتنا قوية!». توفيت بعد فترة قصيرة من ذلك أثناء

المحاكمات الصورية. لم يحضر ستالين جنازتها، لكن كُتب على إكليل الزهور: «أمي الحبيبة. من ابنها جوزيف دجوغاشفيلي. دفنت بجنازة فخمة في كنيسة هولي ماونتن»[450].

* * *

ظل ستالين على اتصال مع أصدقائه القدامى من غوري وتيفليس. كان يكتب إليهم أحيانًا ملاحظة، أو يرسل إليهم المال من دون أن يتوقعوا ذلك. وفي حال استغاثوا به، أحب مساعدتهم. في العام 1933، كتب إلى كابانادز:

«مرحبا بيتا، كما ترى... أبعث إليك بألفي روبل. لا أملك المزيد الآن. هذه الأموال التي أتلقاها لقاء النشر، ولا تُقبل العديد منها، لكن احتياجاتك حالة خاصة بالنسبة إلي... سيتم منحك، غير هذه الأموال، قرضًا بثلاثة آلاف روبل. أعلمت بيريا بهذا... أتمنى دوام الصحة والسرور».

أثناء الحرب، تمتع كاباندزي وغلورجيدز، وكلاهما كاهن سابق، وتسيرديز، صديقه في المصارعة، بحظ أوفر. في التاسع من مايو/أيار 1944، لاحظ ستالين أن الأموال تتكدس في خزنته (من رواتبه كالأمين العام للحزب ورئيس الوزراء والقائد الأعلى ومفوض الشعب لشؤون الدفاع والنائب للسوفيات الأعلى). لم يكن يتمكن من إنفاق المال، فخربش هذه الملاحظة:

«1- إلى صديقي بيتر كابانادز - 40 ألف روبل؛

2- 30 ألف روبل إلى غريشا غلورجيدز؛

3- 30 ألف روبل إلى ميخيل تسيرادز».

قالت رسالة غلورجيدز: «غريشا! اقبلي مني هذه الهدية الصغيرة. المخلص سوسو». كان متسامحًا مع أولئك الذين لم يتدخلوا أبدًا في الشؤون السياسية، لكن ليس من المحتمل أن يكون قد بخل على إريميشفيلي ودافريتشوي. فقد عارضاه سياسيًا[451].

وعندما استولى ستالين على جورجيا العام 1921، حضر إريميشفيلي جنازات أولئك الذين سقطوا في المعركة، ووجد نفسه يقف إلى جانب كيكي دجوغاشفيلي.

«كيكي، إن ابنك هو الملام على هذا»، قال إريميشفيلي، الذي عرفها جيدًا من غوري. اكتبي له في موسكو: «لم يعد صديقي أبدًا!». وعندما زار ستالين تيفليس في وقت لاحق تلك السنة، اعتقل إريميشفيلي، لكن أخته استغاثت بستالين الذي أظهر لطفه الخيّر لها: «يا لها من مأساة! أتألم عليه حقا. آمل أن يتمكن إريميشفيلي من إيجاد طريقه ليعود إليّ!». أمر ستالين بأن يطلق سراحه، ثم دعاه في ما بعد. رفض إريميشفيلي المجيء. اعتُقل مجددًا، ووجد نفسه تحت سيطرة تسينتساديز: رجل من عصابة ستالين، والآن شرطي سري رفيع المستوى. طرده ستالين إلى ألمانيا، حيث عبث مع الفاشية، وكتب مذكراته العدائية.

هرب غريب الأطوار دافريتشوي، ابن ضابط الشرطة في غوري، وأحد الشركاء في السطو على البنوك، إلى باريس. وأصبح باسم جين فايولان، طيارًا مشهورًا في الحرب العالمية

الأولى، وعمل كجاسوس فرنسي. تزعم بعض القصص أنه أقام علاقة مع المومس الشهيرة بسمعتها السيئة، ماتا هاري، وتم إعدامه للخيانة العام 1917. لكن القصة الحقيقية لعلاقته الجنسية لم تكن أقل دراماتيكية. شك العميل الفرنسي في المغامِرة الجميلة والطيّارة الشابة، مارثا ريتشارد، بأن تكون جاسوسة ألمانية. وظفوا الطيار دافريتشوي لمراقبتها. وقعت في حب زوزو دافريتشوي، وبدآ علاقة حميمة جدًا إلى درجة أنه هدد بالانتحار إن تم اعتقالها. تمكن من إثبات براءتها؛ انضمت إلى الاستخبارات الفرنسية وأُرسلت إلى مدريد، حيث أغوت رئيس الاستخبارات الألمانية، وهو في السبعين من عمره.

اتصل ستالين بدافريتشوي العام 1936، ودعاه إلى العودة. وبحكمة منه، بقي دافريتشوي في باريس. وبعد وفاة ستالين مباشرة، صرح دافريتشوي في مقابلة:

«أنا أخو ستالين غير الشقيق» توفي العام 1975 بعد قضاء حياة وُصفت في نعيه بأنه عاشها كثوري وطيار وجاسوس وكاتب... مذهل. نشرت مذكراته المتميزة على نحو غامض في فرنسا العام 1979.[452]

ظل كامو بطلًا للبولشفيين، بالرغم من سلوكه المرّوع مع فودور أليليفا. لكن هذا المغفل الخطير لم يكن يتناسب مع الأعمال السلمية. أصبح عضوًا في منظمة تشيكا، لكن وحشيته كانت مزعجة حتى لهم أيضًا. بحلول العام 1922، عاد إلى تيفليس موظفًا في استخبارات الجمارك. عندما أراد لينين قضاء إجازة

قوقازية، أصر كامو على مرافقته: لم يأتِ لينين أبدًا. وتبعًا لأسطورة تيفلس، كان كامو يعاقر الخمر كثيرًا، ويثرثر عن دور ستالين في سرقة بنك تيفليس، وهذا موضوع حساس[453]. كان يركب دراجته الهوائية عائدًا إلى المنزل بعد بدئه بكتابة مذكراته عندما دهسته شاحنة. يقال إن ستالين هو من قتله: حيث تؤكد الدعابة، أنه بدا بمحض الصدفة أن هذه هي الدراجة الهوائية الوحيدة في تيفليس التي يجب أن تدهسها هذه الشاحنة الوحيدة.

دُفن كامو في بوشكين غاردينز خارج تيليبوتشوري تافيرن في ساحة يريفان، وكمشهد لبطولته الشهيرة. وُضع تمثاله مكان تمثال بوشكين. أمر ستالين في ما بعد بإزالة نصبه التذكاري. ودُفن كامو مجددًا في مكان آخر[454].

* * *

قام أغناتاشفيلي، حامي سوسو، ووالدُه ربما، بتعليم ابنيه الناجيين، ساشا وفاسو، في مدرسة خاصة في موسكو. كانت العائلة تعمل في استثمار المطاعم، وسريعًا ما توسع عملها خارج غوري. أسس أغناتاشفيلي وأبناؤه مطاعم في باكو، بينما تأهل فاسو من جامعة خاركوف، ليصبح مدرّس مادة التاريخ.

توفي العجوز أغناتاشفيلي العام 1929، وقد كان مقربا جدًا من ستالين حتى يومه الأخير. أدار ساشا أغناتاشفيلي خمسة مطاعم في تيفليس حتى العام 1929 تقريبًا. في أوائل الثلاثينيات، تم اعتقال الأخوين. اتصل ساشا بيونوكيدز، الذي أطلق سراحه

وجلبه إلى موسكو، حيث استقبله ستالين. أَطلق سراح فاسو على الفور أيضا. وظف ستالين ساشا في الشرطة السرية السوفياتية، وعينه ليدير البيت الريفي في بوليتبورو في كريميا قبل ترقيته إلى دائرة حرسه الخاص. أصبح ساشا، صاحب المطاعم الرأسمالي في السابق، رئيسًا لقسم طعام ستالين، المعروف باسم القاعدة، وهو منصب يحتاج إلى الكثير من الثقة بالنسبة إلى ديكتاتور مُصاب بجنون الاضطهاد، اعتاد على استخدام السم للآخرين، وخشي هو نفسه منه. أصبح أغناتاشفيلي متذوق طعام الديكتاتور، ومن ذلك صدر لقبه داخل الشرطة السوفياتية السرية: الأرنب. عُرف سرًا داخل الشرطة، بأنه قريب ستالين، أو أخوه، حتى لدى الجنرال فلاسيك، الذي عرف الديكتاتور أكثر من أي شخص آخر.

أما فاسو، الذي كان فيديراليًا - اشتراكيًا، وليس حتى منشفيًا، فتمت ترقيته ليصبح محررًا لصحيفة «تيفليس»، ثم إلى سكرتير للسوفيات الأعلى في جورجيا، ليكون عيني ستالين وأذنيه في جورجيا.

عاش ساشا «الأرنب» بالقرب من قصر ستالين كونتسيفو، كمكان إقامته الرئيسي، وكثيرًا ما تناول العشاء معه. أثناء زيارة ستالين لموسكو، مكث مع ستالين طوال الوقت، كما ظلا قريبين من كيكي. كشفت رسالة ساشا أغناتاشفيلي إلى والدة ستالين في عيد ميلادها عام 1934، علاقتهما الخاصة الروحية:

«أمي، زرت البارحة سوسو وتحدثنا لوقت طويل... ازداد

وزنه... خلال السنين الأربعة الأخيرة، لم أره بمثل هذه الصحة الجيدة: أكثر وسامة مما يمكنك تخيله.

كان يمزح طوال الوقت. من قال إنه كبر في السن؟ إنه أصغر بأربع سنين. لا أحد يعتقد أنه تجاوز السابعة والأربعين!».

تذكر ستالين العام 1940، عامل الأحذية العجوز الذي كان يعمل عند والده، داتو غاسيتاشفيلي، الذي كان لطيفًا جدًا معه عندما كان صبيًا. «هل لا يزال داتو على قيد الحياة؟»، سأل ساشا فجأة. «لم أره منذ سنين». استدعى أغناتاشفيلي داتو، الذي كان لا يزال إسكافيًا في غوري، إلى موسكو.

في أحد الأيام، وصل ستالين وبيريا ورئيس الحرس الشخصي، فلاسيكا، عند أغناتاشفيلي لتناول وليمة جورجية: اجتمع ستالين مجددًا مع داتو. وعندما سخر منه ستالين، أجاب الإسكافي العجوز بجرأة: «هل تعتقد أنك ستالين بالنسبة إلي كما بالنسبة إلى الآخرين؟ أنت بالنسبة إلي ذلك الصبي الصغير نفسه الذي كنت أحمله بين ذراعي. وإن أكملت، فسأنزل لك بنطالك وأصفعك على مؤخرتك حتى تصبح حمراء أكثر من علَمك!». ضحك ستالين. لكنه، على نحو منذر بالسوء، لاحظ زوجة ساشا: كان «الأرنب» قد رُزق بزواج سعيد، لكن على نحو خطير من زوجة ألمانية وثنية كانت سابقًا زوجة لرجل أعمال يهودي - أرمني: وتعيش ابنتهما في أميركا.

«زوجتك في مزاج سيئ»، قال ستالين. «هل هي مستاءة مني؟».

شرح ساشا أنه بسبب كونها ألمانية، كانت تخشى على نفسها وعلى ابنتها في أميركا.

«وقعنا اتفاقًا مع ألمانيا، لكنه لا يعني شيئًا»، طمأنها ستالين، تبعًا لما ذكره حفيد ساشا، غورام راتيشفيلي. الحرب محتمة. وستكون أميركا وبريطانيا حليفتينا.

عند اجتياح الألمان العام 1941، اعتقلت زوجة أغناتاشفيلي وأطلق عليها النار. «اختفت وحسب، ولم تعد أبدًا»، قال حفيد ساشا، لكن ساشا لم يذكر ذلك لستالين إطلاقًا. عرف أغناتاشفيلي قوانين محكمة ستالين.

«أثناء الحرب، عندما كان أغناتاشفيلي جنرالًا وقتها، رافق ستالين إلى طهران ويالطا. رئيس طهاة جورجي مسؤول فقط عن إعداد النبيذ والكباب، أصبح الآن برتبة فريق!»، انتقد كروشتشيف في مذكراته. «كلما عدتُ من الجبهة، ألاحظ أنه تلقى ميدالية أو اثنتين كمكافأة! حتى أن ستالين وبخني أمام هذا الفريق مرة من أجل المؤن: حتى أنه كان يثمل مع ستالين والبقية». كان ستالين القائد الروسي حساسًا جدًا لمثل هذه المواقف - وعرف أيضًا من بيريا عن الفساد في تأدية واجبات منزله[455]، فنقل أغناتاشفيلي ليصبح مدير البيت الريفي في كريميا للتجهيز لمؤتمر (الثلاثة الكبار في يالطا). لكنه أهمل أغناتاشفيلي بعد ذلك.

توفي «الأرنب» بمرض السكري العام 1948. ظل فاسو أغناتاشفيلي مقربا من ستالين، يحضر حفلات العشاء تلك الخاصة بأصدقاء غوري القدامى. لكن عند وفاة ستالين، قام بيريا بطرد

فاسو وحبسه. عندما سقط بيريا، أطلق سراح فاسو، ليتوفّى العام 1956[456].

* * *

كان قدر رفاق ستالين البولشفيين مأساويًا، بغض النظر عن قدر الشعب السوفياتي. أطلق النار على كامينيف وزينوفيف العام 193، وبوخارين العام 1938؛ وقُتل تروتسكي بالجليد والثلج العام 1940... كل ذلك تنفيذًا لأوامر ستالين. «أثناء العامين 1937 و1938، أطلق النار على ما يقارب مليون ونصف مليون شخص.

ووقّع ستالين شخصيًا على قائمة وفيات لحوالي 39 ألف شخص تقريبا؛ العديد منهم أصدقاؤه القدامى. كانت جورجيا، على يد صديق طفولة ستالين بيريا، متضررة على نحو خاص: تم التخلص من 10 في المئة من الحزب الشيوعي؛ وأطلق النار على 425 من أصل 644 مفوضًا في كونغرس الحزب الجورجي العاشر.

أما الضحية النجم، فهي صديق ستالين القديم، بودا («البرميل») مديفاني، الذي كان قد أنقذ حياته عدة مرات في السابق. لكن مديفاني كان قد عارض ستالين العام 1921، ومزح الممثل السابق الثرثار على نحو فاقد للاحترام، بأنه يجب على البيرا وضع حارس مسلح حول منزل كيكي، ليس لحمايتها، لكن كي لا تتمكن من إنجاب ستالين آخر. تصالح ستالين مع بودا في

العشرينيات. وعندما كان في موسكو، كان بودا يمكث معه أحيانًا. كان ستالين كثيرًا ما يزور عائلة مديفاني في جورجيا، بل أصبح عرابًا لابنها. إلا أن ستالين لم ينس أبدًا معارضة مديفاني. في العام 1937، اعتُقل للتآمر على قتل ستالين، وأطلق عليه النار بعد ذلك بوقت قصير، مع معظم أفراد أسرته.

تكشف قضية رفاق سوسو الجورجيين الثلاثة، كيف يمكن الأمور أن تظهر على نحو مختلف في عالم العشوائية الشيطانية. متفائلًا، لطيفا، باحثًا عن المتعة، وراضيًا، أصبح أبيل يونكيدز، عراب ستالين، سكرتير اللجنة التنفيذية المركزية، المسؤول عن الكريملين، وفيلات الحزب والباليه البولشفي، الذي استخدمه كوكالة مواعدة خاصة له، ليشتهر بسمعته السيئة بخصوص ميوله إلى مراهقات الباليه (وأمهاتهن).

كان العم أبيل من الأصدقاء المقربين إلى ستالين، لكنه كان دائمًا ما يحتفظ برأيه الخاص. في مذكراته عن مطبوعات باكو، رفض مدح ستالين لأمور لم يفعلها.

«طلب مني كوبا أن أخبره أنه عبقري، لكني لن أفعل هذا»، تذمر. كان شاكًا في أمر المعارضة المتزايدة، مفتخرًا بنفسه لأنه يحمي الرفاق الجورجيين المضطهَدين.

وبرغم ذلك، كان يقضي العطلة هو وستالين معًا، يبعثان إلى بعضهما البعض رسائل محبة. وبرغم ذلك، اختار ستالين العام 1، يونكيدز على أنه أول شخص من دائرته الداخلية، لتتم تصفيته، حتى برغم أنه لم يكن عضوًا في أي معارضة رسمية. تم اعتقاله

وإطلاق النار عليه العام 1937.

كان كافتارادز، في المقابل، عضوًا في كل معارضة منذ العشرينيات وبعد ذلك. لم يلق بفانوس على ستالين وحسب، بل دعم في ما بعد مديفاني في البداية، ومن ثم تروتسكي. وبرغم ذلك، أنقذه ستالين في كل مرة، ساعده، وعمل على ترقيته.

في العام 1937، تم اعتقال كافتارادز (مجددًا) كعضو في مؤامرة ميديفاني، وعوقب بالموت لتخطيطه لقتل ستالين. تم قُتل الآخرون جميعًا أيضًا، لكن الديكتاتور استثنى كافتارادز بوضع إشارة إلى جانب اسمه على قائمة الموتى. وقام ستالين في العام 1940، مقررًا أنه تجاهله، بإطلاق سراحه ودعاه إلى العشاء في الليلة نفسها. انسجما معًا، بالرغم من أن ستالين هزئ منه، «أفكر في أنك أردت قتلي». وبعد بضعة أيام، تناول هو وبيريا العشاء في شقة كافتارادز: كان مضيفهما قد نُصّب رئيسًا لدار النشر الرسمية، ثم نائبًا لوزير الخارجية، وسفيرًا إلى رومانيا. وعمّر أكثر من ستالين، ليتوفى العام 1961.

كان سيرغو أوردزونيكدز، في حلول الثلاثينات، آخر بولشفي قديم يمتلك نفوذًا لتحدي ستالين. وبصفته منفذ قوانين ستالين، استولى على القوقاز عامي 1920 و1921، وساعد على إبطال المعارضات في العشرينيات، وأدار الصناعة الثقيلة في خطة خماسية حتى الثلاثينيات. لم يكن هو وستالين ينفصلان. كانا يعيشان في البناء نفسه، يكتبان إلى بعضهما البعض رسائل حميمة، ويقضيان الإجازات معا. لكن في العام 1937، تصادما.

انتحر سيرغو في الكريملين.

* * *

وبرغم ذلك، نجا بعض من رفاقه السابقين[457]. خدم كالينين من العام 1919 حتى وفاته العام 1946 كرئيس للدولة (رئيس السوفيات الأعلى). وخدم المارشال فوروشيلوف كمفوض الدفاع، وهو التابع الفاسد أثناء المحاكمات الصورية، والعامل الأخرق في فنلندا وأثناء الحروب الوطنية الكبرى. عمل ستالين على تعذيب فوروشيلوف كونه عميلًا إنكليزيًا. وبرغم ذلك، عمّر أكثر من سيده، ليصبح رئيس السوفيات حتى العام 1960.

وأصبح ميوير والاتش باسم ماكسيم ليتفينوف، مفوض الشعب للشؤون الخارجية في الثلاثينيات، وفي ما بعد سفير السوفيات في واشنطن. كان صريحًا في نقده لستالين، الذي خطط لإصابته بحادث سيارة مميت، لكنه سمح له بالنجاة، ربما لأنه تذكر أن ليتفينوف قد أنقذه من عمال المرفأ في لندن، لكن الأرجح هو مكانته الدولية. قام ستالين بترقية مضيفه في فيينا، ترويانوفسكاي، ليجعله أول سفير سوفياتي إلى الولايات المتحدة الأميركية، وسمح له بالعيش، بالرغم من أنه كان هو وليتفينوف ينتقدانه سرًا.

عندما التقى بستالين مجددًا العام 1918، كان فيشينسكاي يتمتع بالذكاء الكافي، كي لا يكشف سياسته غير الجديرة بالثقة، أو يذكّر ستالين بأفضاله التي قدمها إليه في سجن بايلوف: قام رسميًا بعرض خدماته على نحو لائق. وكونه متمردًا متعطشًا للدماء،

ومخيفًا بمثل ما هو جبان ومُكره، أصبح جنرال الوكالة السوفياتية، الباحث النجم في محاكمات الثلاثينيات السياسية، والعام 1949، آخر وزير خارجية لدى ستالين. توفي العام 1954.

عمل مولوتوف كرئيس للوزراء من عامي 1930 إلى 1941، ومفوض الخارجية من 1939 حتى 1949. بدأ ستالين يعتبره الناجح المحتمل، لكنه العام 1952، شجب على نحو غامض شريكه القديم. بعد اختياره للتصفية[[458]]، تم إنقاذ حياة مولوتوف بموت ستالين، لكنه ظل مخلصًا له. أصبح وزير الخارجية مجددًا، لكنه فشل في الإطاحة بخروشتشيف العام 1957. تم نفيه كسفير إلى منغوليا. عاش حتى العام 1985، وهو لا يزال يرى ستالين في أحلامه[459].

* * *

حتى يومه الأخير، لم يتوقف ستالين أبدًا عن محاولة تمجيد ماضيه والتخلص من أخطائه السابقة. عمل تدينه على خدمة تعجرفه المخزي، وساهم في قوته السياسية، وبرغم ذلك أحب التظاهر بالتواضع أمام زملائه. في الحقيقة، كان ذكيًا جدًا كي لا يقدّر أن العديد من الترنيمات في شبابه كانت سخيفة. عندما رأى «شباب القائد» للكاتب الجورجي غامساخورديا، كتب: «طلبت منك منع نشر كتاب «غامساخورديا» في روسيا. جي ستالين».

وشعر بالغضب الشديد أيضا بكتاب «البدع الجورجية» للكاتب

فيدوروف الذي تم نشره العام 1940، ليخربش بالقلم الأخضر: «كان الرفيق بوسبيلوف أحمق تعوزه اللباقة ليوافق على نشر كتاب فيدوروف الذي يتكلم علي من دون أخذ موافقتي أو علمي. يجب أن يتم سحق كتاب فيدوروف، ومعاقبة بوسبيلوف. ستالين».

وعندما سألت ساموبلوفا، وهي رفيقة بولشفية قديمة من أيام باكو، إن كانت قادرة على عرض أدلة عن كتب ستالين القديمة ومقالته في متحفها، تلقت هذه الملاحظة الخطية: لم أعتقد أنك ستكونين بمثل هذا الغباء عندما تكبرين! في حال تم نشر الكتاب بملايين النسخ، لماذا تحتاجين إلى المخطوط؟ حرقت جميع المخطوطات الأولية! عندما جمع كتاب من مذكرات العام 1905، كتب سوسو ثلاث كلمات: «لا تنشر! ستالين»[460].

* * *

إلى مائدة العشاء في فيلته المطلة على شاطئ البحر، قام ستالين الهرم برواية قصص لأصدقائه القدامى عن أشخاص من الماضي، بعض منهم أهلكهم في أسرّتهم، والعديد توفوا في زنزاناتهم برصاصة خلف رأس كل منهم.

أكد ذلك الرجال العجائز أيضًا. «تذمروا»، ذكر مولوتوف، «بشأن الرشوة والفساد في مكان آخر». وشخص آخر من أولئك الذين يعشقهم ستالين على نحو خاص من الجورجيين العجائز، يقول خروشتشيف، «أخبر ستالين عن الوضع السيئ بين العصابات في جورجيا. ثار سخط ستالين وأطلق حملة تطهير في

وطنه».

بدأ العجائز الحضور بالغناء حيث كان العديد منهم قد غنى مع ستالين في الكورس في غوري وفي المعهد بردائهم الأبيض. تُسمع الأغاني الجورجية في وقت متأخر من الليل، وهي تنطلق من فيلا كولدستريم، وأحيانًا مع مرافقة المضيف، المغني العجوز البارع بصوته العذب...

كان سوسو عجوزًا صلبًا وكثير النسيان. وبرغم ذلك، حتى وفاته في عمر الرابعة والسبعين، في الخامس من آذار/مارس 1953، ظل غلام الكورس المعمر هذا رجلًا سياسيًا فريدًا من نوعه، مصابًا بجنون العظمة والاضطهاد، ورئيسا شاذًا للمأساة الإنسانية على ميزان تنافسه عليه ألمانيا الهتلرية فقط. وهو المسؤول عن موت حوالي 20 إلى 25 مليون شخص، تخيّل ستالين أنه امبراطور «أحمر» عبقري وسياسي وعسكري وعلمي وأدبي، وحاكم للشعب.

ربما يتوجب أن يقول ستالين الشاب الكلمة الأخيرة. في آب/أغسطس 1905، قام سوسو، البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، بتقليد مثل هذا المصاب بجنون الاضطهاد المخدوع في مقالة نادرة، لكنها معبرة عن ذاتها لبروليتارياتيس بردزولا. كتب حينها، «ينبثق أمام أعينكم أبطال قصة غوغول الذي، تخيل في نوبة من الجنون، أنه ملك إسبانيا». وهذا، ختم ستالين الشاب، «هو قدر جميع المصابين بجنون العظمة»[461].

أسماء ستالين وألقابه في المقالات وأسماؤه المستعارة

جوزيف فيساريونوفيتش دجوغاشفيلي	سوسو
سوسيلو	بيسو
كوبا	بيتروف
إيفانوفيتش	كوبا إيفانوفيتش
بيسوشفيلي	إيفان إيفانوفيتش فيساريونوفيتش
غالياشفيلي	سيمونجفيلايا
كي. كاتو	غايوز بوسوفيتش نيزهيرادز
أورغانيز توتوميانتس	زاخار ميليكيانتس
بيتر تشيزهيكوف	فاسيلي، فاسيليف، فاسيا، فاسكا
أودبال أوسيب	أوسيب كوبا
إيفانوف	بوكماركد أوسكا
القوقازي	ميلكمان
بوكماركد ون	لوبير - غيزا
ستاغيرير - كونكولا	بوكماركد - تشوبورا
ديفيد	بريست
الأب كوبا	غيورغي بيردزينوشفيلي
كي. ستيفين	إيوسكا كوريافي - جو بوكس
كي. ست	كي. سافين
كي. سولين	كوبا ستالين
جي. دجوغاشفيلي - ستالين	جي. في. ستالين

الشكر

ساعدني في عملي على كتاب «ستالين» العديد من الأشخاص في العديد من البلدان والمدن، بمن فيهم الناشرون الذين أتعامل معهم في جميع أنحاء العالم، ولا سيما في أماكن زارها شخصية كتابي. كان الجيمع كرماء جدًا معي في وقتهم ومعلوماتهم. ولا حاجة إلى القول إن جميع الأخطاء الواردة في هذا الكتاب هي أخطائي وحدي.

يتوجب عليّ في البداية شكر عرّابي في كتابة التاريخ الروسي، الذين عملوا على تدقيق عملي وتحسينه، وعلموني - كما آمل - كيفية الكتابة بشكل أفضل: إيزابيل دي ماداريياغا كانت وتظل أول نصيرة تاريخية لي، وتظل كتبي، كما آمل، تعرض فوائد إشرافها الصارم والمفيد على كتابي الأول «كاثرين العظيمة والأمير بوتيمكين».

في هذا الكتاب، كنت محظوظًا بشدة لتلقيَّ مساعدة من عظيمين في تاريخ السوفيات، روبيرت كونكويست والبروفسور روبرت سيرفيس، اللذين قاما بلطف منهما بقراءة النص لتصحيح الأخطاء. وأدين بالكثير لبروفسور الدراسات الروسية والأوراسية في جامعة أم تي هولوك، ستيفن جونز، رئيس السلطة على الاشتراكية الجورجية، الذي شاركني في أعماله، وأجاب عن أسئلتي، وصحح النص لي على نحو متقن. وقام الدكتور ديفيد أندرسون، المحاضر الأسمى في أنثربولوجيا القطب الشمالي، في

جامعة أبيردين، بتصحيح الأقسام السيبيرية بلطف وصبر بالغين. كما قدم الدكتور بيرز فيتيبسكاي، رئيس الدراسات الأنثروبولوجية والشمال الروسي في معهد أبحاث سكوت بولار، في كامبردج، نصائحه إلي عن الأنثروبولوجية السيبيرية، وسمح لي باستخدام واحدة من صوره. وعليّ أيضًا شكر البروفسور دونالد ريفيلد، الذي شاركني بسخاء في معرفته الواسعة عن الأدب الروسي والثقافة الجورجية والتاريخ البولشفي السياسي، بالإضافة إلى اتصالاته في جورجيا، وسمح ليّ أيضًا باقتباس تراجمه المتميزة لشعر ستالين بالكامل.

وأنا ممتن كثيرًا للبروفسور جورج هيويت لمساعدته الرائعة لي في لات القوقاز واتصالاته في أبخازيا، التي لم تكن لتقدر بثمن. ولا يمكنني إيفاء الدكتورة كلير مورديان حقها بالشكر الكثير، حيث تقيم في باريس، التي، حتى ولو لم نلتق إطلاقًا، وضعت تحت تصرفي معرفتها الموسوعية عن التاريخ القوقازي، واتصالاتها الواسعة مع العائلات الجورجية - الأرمنية المهاجرة، وقابلت الشهود العجائز وقادتني إلى مصادر جديدة.

أما أساس المادة الجديدة في هذا العمل، فيأتي من القوقاز. في جورجيا، يجب عليّ أن أقدم شكري في البداية إلى الرئيس والسيدة الأولى، مخيل وساندار ساكاشفيلي. فعلى نحو مأساوي، تعرضت أرشيفات المعهد الجورجي للماركسية واللينينية (GF IML)، للدمار، ولم يتمكن سوى المرسوم الشخصي للرئيس بالسماح لي بالاطلاع على المصادر التي شكلت جوهر هذا الكتاب. قدمت نتاليا كانتشيلي، مساعدة رفيعة المستوى إلى

الرئيس، وجهدًا عظيمًا في جعل هذا ممكنًا، وأنا ممتن لها للأبد. كما بدأ غيلا تشاركفياني، وهو صديق قديم ومحنك في السياسة الجورجية المعاصرة، بالإضافة إلى كونه ابن واحد من أصدقاء ستالين المقربين، في مساعدتي عندما كنت مراسل حرب في القوقاز أوائل التسعينيات، لكنه ساهم في تمكيني أيضًا من الوصول إلى مخطوط مذكرات والده، وعثر لي على جميع المساعدين في جورجيا. وقدمت ابنة أخيه نيستن تشاركفياني، وهي نفسها مؤرخة متميزة للستالينية، مساعدة هائلة في الأرشيفات، التي تعرفها على نحو بارع، وفي العثور على مصادر ومذكرات جدية ومقابلة شهود جدد؛ كما قرأت وصححت النص لي. وأدين بالكثير لنينو كيريسيلديز، وهو مؤرخ بارع، وباحث مُجد، ومترجم متميز من جورجيا. كما أقدم شكري أيضًا إلى رئيس أرشيف GF IML، فازها إبانويدز.

وعمل الكثير غيرهم على تقديم المساعدة إلي في جورجيا، مثل: بيتر مامرادز، وهو صديق قديم آخر من اضطرابات السياسة الحديثة، عثر لي على شهود جدد وشاركني في معلوماته عن فولكلور ستالين في جورجيا. وصديقي البرفسور زاكرو ميغريليشفيلي قدم مساعدته مجددًا في الوصول إلى مخطوط لكافتاراديز لم يتم نشره، عن مذكرات لزوج أمه، ووضح لي السطو على البنك في تيفليس. والشكر أيضا للبروفسور نوغزار سورغولادز. كما أني ممتن بشدة لصديق آخر، هو جورج تارخان مورافي، ساعدني من محض الصداقة المخلصة وروح الفضول، وقدم إلي اتصالاته ومعرفة واسعة من المصادر وأجداد

أسرته.

وشاركني البروفسور فاهتانغ غورولي في أبحاثه الأرشيفية الفريدة. وساعدني جيا سولكانيشفيلي في القضايا الصغيرة والكبيرة، وأدين له بالكثير ما حييت. قدم نيك تاباتادز، رئيس روستافي - 2، المحطة التلفزيونية الجورجية، التشجيع والمساعدة؛ وساعدني التقرير التلفزيوني في محطاته على العثور على المزيد من الشهود والمصادر. وأشكر أيضًا تمارى ميغريليشفيلي، التي سمحت لي بالإعلان عن بحثي لمصادر وشهود في مكتبتها «بروسبيرو بوكس»، وهي الأفضل بين موسكو وبيت المقدس؛ كما اشكر كلًا من ليكا باسيليا؛ في غوري، ومدير متحف ستالين، غايوز ماخنياشفيلي.

وفي أرشيفات باتومي، في أدجاريا، قام، ميميد جيخاشفيلي، المؤرخ المتميز لما وراء القوقاز، لكنه أيضًا تحفة تاريخية هو نفسه، وابن أخي نيستور لاكوبا، ونائب ملك أبخازيا أيام ستالين، بمساعدتي على العثور على مصادر جديدة وصور هامة على نحو كبير في هذا الكتاب.

وفي أبخازيا، عليّ أن أتقدم بالشكر لسلافا لاكوبا، وهو مؤرخ متميز للبولشفية وأبخازيا والقوقاز، وكان كريمًا جدًا معي في مشاركتي في أعماله، فضلًا عن جميع مصادره. وقام كل من جورج هيويت ودونالد ريفيلد بمساعدتي في هذه الغاية المرجوة، تمامًا كما فعل الدكتور راتشيل كلوج.

وفي باكو، أذربيجان، الشكر لفود أخوندوف، وهو صديق قديم

آخر وخبير في اقتصاد النفط وأصحاب الملايين؛ وفيكرت أليف وزيما بابإيفا، مدير ونائب مدير أرشيف مدينة أزيري (GIA AR & GA AR)؛ وميميد جيخاشفيلي أيضًا.

وفي برلين وباكو، أدين بالكثير للبروفسور جورغ بابيروسكي، الخبير الرئيسي في باكو وثقافة العنف في القوقاز، الذي كان كريمًا جدًا بمعلوماته؛ ولألكسندر فريسي لترجمته من الألمانية.

وفي فيينا، أقدم شكري إلى الأمير كارل شوارزنبيرغ، وبيتر وليلا مورغان وجورج هامان. وزارت ليسا ترين الشقة التي كان ستالين يعيش فيها، والتقطت صورًا رائعة منها. وفي فنلندا، الشكر للمحررين على مساعدتي في بحث تابير، أليكسي سيلتالا؛ وفيوكو تاربيلا؛ والكاتب أرانو ليتينين؛ والخبير الفنلندي بشؤون لينين وستالين وفنلندا، أنتي كوجولا. وفي السويد، الشكر لبير فوستنو وجميع المحررين في نورستدس - بريسما، ومارتين شتوغارت من داغينت نيهتير، والباحث جيني لانكجير، وكارين ألتينبيرغ، وبير موغرين. وفي هولندا، أتوجه الشكر إلى الباحثين الهولنديين بشؤون ستالين، إريك فان ري ومارك جانسين لمشاركتي في أبحاثهما.

وفي كراكو، في بولندا، أقدم الشكر إلى مخرجة الأفلام واندا كوسيكا وصديقتها مارتا سزوستكيوكز لمساعدتهما.

في روسيا، لم يكن كتاب «ستالين» ليتم إنجازه لولا المساعدة والسخاء والتشجيع من أوليج خليفينكو، عميد مؤرخي ستالين،

والباحث الأسمى في أرشيف الدولة للاتحاد الروسي السابق - (GARF)؛ وألكسندر كامينسكي، البروفسور في التاريخ الروسي القديم والقديم - الحديث في جامعة روسيا للعلوم والدراسات في موسكو. أما المصدر الروسي الأساسي لكل من كتبي عن ستالين، فهو الأرشيف الرئاسي لأرشيف روسيا للتاريخ الاجتماعي والسياسي (RGASPI). كذلك أوجه شكري إلى المدير الدكتور كيريل أم إندرسون، ونائب المدير الدكتور أوليغ في نوموف، ورئيس القسم والخبير في صحف ستالين وكتاباته لاريسا إي روغوفاليا. لكني أدين بالشكر الأكبر للدكتورة غالينا بابكوفا، وهي محاضرة بارعة في تاريخ القرن الثامن عشر في جامعة موسكو، وساعدتني كثيرًا في هذا الكتاب، تمامًا كما في الكتب السابقة.

وقدم إلي المساعدة في روسيا كل من: فلاديمير غريغوريف، ناشر وسياسي؛ أناتولي تشيركماسوف وزويا بيلياكوف في سينت بيترسبيرغ، ودميتري ياكوشكين، وإدوارد رادزينسكاي، وروي وزهوريس ميدفيديف، وبوريس إليزاروف وأرنكادي فاكسبيرغ ولاريسا فاسيليفا وماشا سلونيم وديمتري خانكين، وأناستاسيا ويبستر وتوم ويلسون وديفد كامبيل ومارك وراتشيل بولونسكاي والدكتور لوبا فينوغرادوف. وأوجه امتناني إلى متحف أليليفا في بيترسبيرغ. أما في أتشينسك، فأتقدم بالشكر إلى مدير المتحف القومي في أتشينسك؛ في فولغدا، والشكر إلى مدير أرشيف التاريخ الحديث لإقليم فولوغدا VOANPI وإلى مدير أرشيف إقليم فولوغدا (GAVO).

وفي أميركا، الشكر يعود إلى البروفسور جي أرتش جيتي من جامعة كاليفورنيا لمشاركته السخية لملف يزهوف؛ وإلى البروفسور رون سوني؛ وإلى الدكتور تشارلز كينغ من جورجتاون؛ ورومان براكمان لمشاركته اللطيفة في بعض من المصادر الأصلية. وأنا ممتن جدًا للأمير ديفيد تشافتشافيدز والأميرة ماروسيا تشافتشافيدز، وريدجيب جوردانيا ونيكول جوردانيا، وموسى ترين كليبنكوف وزوجها الراحل والفريد والمفقود باول كليبنكوف، الذي شجعني كثيرًا؛ وللأمير والأميرة كونستانتينا وآن سيدامون إريستوف.

وفي ستانفورد، كاليفورنيا، الشكر لكارول إي ليدينهام وإرينا زاستيفا، لمساعدتهما في أرشيفات أوخرانا وبوريس نيكولافسكاي؛ وأليكس دوران والدكتور بوريس أورلوف في إسرائيل؛ وفي باريس، الشكر للدكتور جورج ماموليا.

ربما يكون الشاهد الأكثر إثارة الذي قابلته هو مريم سفانيدز، البالغة من العمر 109 أعوام، وهي قريبة لزوجة ستالين التي لا تزال تذكر موتها العام 1907. ومن أجل مقابلاتهم ومذكراتهم وأجداد عائلاتهم، أتوجه بالشكر إلى ساندرا رويلوفز ساكاتشفيلي (التي يروي كتابها قصصًا عن كيفية تقديم عائلة زوجها الملجأ إلى ستالين)، وإتيري أودزهونيكيدز (ابنة سيرغو)، والجنرال أرتيم سيرغيف (ابن بالتبني لستالين)، وغالينا دجوغاشفيلي (ابنة ستالين)، وأبناء أخوات ستالين وإخوانه ليوند ريدنز وكيرا أليليفا وفلاديمير أليليفا (ريدينز)، والجنرال ستيبان ميكويان (ابن أناستاس) وابنته أشكين ميكويان، وأخي زوجة ستالين يوري

زدانوف (ابن أندري)، وإزولا ميديفاني (أرملة ابن بودو)، وسوزانا توروشيلدز (ابنة مالاكيا)، ومارثا بيشكوفا (أخت زوجة بيريا، وحفيدة غوركي)، وفياتشيسلاف نيكونوف (حفيد ومؤرخ لمولوتوف)، والراحلة مايا كافتاراداز (ابنة سيرجي كافتارادز)، والراحل أوليغ ترويانوفسكاي (ابن ألكسندر)، وكاتيفان جيلوفاني (قريب عائلة سفانيدز)، وميميد جيكاشفيلي (ابن أخت نيستور لاكوبا)، وريدجيب جوردانا (ابن نوي)، وتانيا ليتفينوفا (ابنة ماكسيم)، وغورام راتيشفيلي (حفيد ساشا أغناتاشفيلي)، وجيا تارخان - مورافي، وتينا أغناتاشفيلي، وفاجها أوكوجافا، وشالفااتشيشيلادز (حفيد الأب كسيان)، وسيرج تشافيرديان (شافيرديان)، وثاماز ناسكيداتشفيلي، وإراكلي دي دافريتشوي، وألكسندر دي دافريتشوي وأنيكدافريتشاشفيلي (حفيدين وزوجة لحفيد آخر لجوزيف سوسو دافريتوي)، وجوليان زي ستاروستيك.

أما في بريطانيا، فقد ساعدني الدكتور جون كالو، مدير مكتبة أبحاث ماركس التذكارية (www.marx-memorial-library.org) والخبير المتميز بلينين في لندن، وبشدة بخصوص رحلة سويلش أيام ستالين وعن أحداث العام 1907؛ وكذلك أندي بروكس، والأمين العام للحزب الشيوعي الجديد؛ وفرانسيس كينغ من مجتمع التاريخ الاشتراكي؛ وتوني أتينيزا؛ وباول بارات ودونكان هيجيت من ويسترن ميل.

وفي بريطانيا وفرنسا، وضع السير إفيلين دي روثستشيلد أرشيفات روثستشيلد تحت تصرفي، حيث عملت ميلان أسبري

في التقصي عن اتصالات ستالين من أجلي؛ وأقدم شكري إليهما معًا.

وأشكر أيضًا المساعدة التي قدمها، سواء بمقدار صغير أو كبير، أندرو ربرتس، ورنالد هارود؛ وجون ويثيرو؛ ومحرر صاندي تايمز»؛ ومحرر الصور «في صاندي تايمز»، ري يلز؛ وميكلس كون؛ ولين بلافاتنيك؛ كلير وريموند (فيسكونت) أسكيث؛ وجون فيكتوريا هيومان؛ وديفيد كينغ؛ وأندرو كوك، لتحقيقاته في الفرع الخاص (سبيشال برانتش)؛ ورير تاتينا سيمونيان؛ وجيوفري إليوت؛ والدكتور دان هيالي، الخبير في الجنس والجريمة في روسيا الامبراطورية والستالينية؛ وروزموند ريتشاردون؛ والدكتور كاثرين ميريدال في كامينيف؛ ومارك فرانتشيتي؛ وسيرجي ديغتاريف - فوستر؛ وناتا جالورجي؛ وجون هاليدي؛ وإنغابورغا داباكوناتي؛ ولورانس كيلي؛ وليدي ألكسندرا جوردون - لينوكس؛ وديفيد ستيوارت - هيويت؛ واللورد بروس دونداس؛ والمبجل أولغا بوليزي؛ وأنتوني بيفور؛ وستيفن ناش، والسفير الأول لجورجيا؛ أندرو مير؛ ودونالد ماكليان، والسفير إلى جورجيا وزوجته مايديا؛ ومدربي ستيوارت تيلير من (www.bodyarchitecture.co.uk) الذي يثير أعصابي دائمًا. والشكر دائمًا لتشارلز وباتي بالمر، وتومكلينسون، لدعمهم وتشجيعهم.

والفضل الخاص يعود إلى أستاذي الروسي، غالينا أوليكسوك.

وأتوجه بالشكر إلى محرري الإنكليزي، إيون تريوين من ويدنيفلد

ونيكولسون، الذي قام ببراعة واحتراف بتدقيق جميع كتبي التاريخية؛ والمساعدين التحريريين آنا هيرفي وبيا هيميغ؛ وآلان سامسون، مدير النشر؛ والملك المبدع للنشر، بيتر جيمس؛ أما الخرائط فهي من ديفيد هوكسلي. والشكر أيضًا إلى محرر الغلاف، سوزان لامب من فونيكس. أما في نيويورك، فأرغب بالتوجب بالشكر إلى المحرر الأميركي سوني ميهتا الفريد وزميله، جوناثان سيغال، في ألفريد كنوبف.

ويظل عميلي، جورجنا كابيل من «كابيل آند لاند»، مفعمًا بالحيوية من دون كلل، وفعالًا على نحو رائع. وأدين بالشكر الخاص للورد وليدي ويندفيلد، ولأنثوني تشيثام، لحكمتهما ودعمهما وصداقتهما على مر السنين.

كما عليّ شكر والديَّ، الدكتور تيفين وأبريل سيباغ - مونتيفوري، أولًا لتحليلهما الطبي والنفسي البارع لستالين؛ وثانيًا لمهاراتهما التحريرية المتميزة (ولو كانت لا ترحم)؛ وأخيرًا لكونهما الصديقين الأكثر روعة والأبوين الألطف اللذين يحلم بهما أي ابنز أهدي هذا الكتاب إلى ابني ساشا. لكن لا بد من أن أذكر النور الساطع الآخر في حياتي، ابنتي ليلي. وهما أشعر بالخزي عندما أقول، كانا قادرين على تمييز صورة ستالين قبل تمييزهما الأطفال. وقد جعلت مربية أطفالي الرائعة، جين روي، العمل في المنزل متعة.

وأخيرًا ولكن أولًا، زوجتي العزيزة سانتا التي استمتعت مع أولئك الساحرين اللامعين كاثرين العظيمة والأمير بوتيمكين، لكنها

اعتبرت الوجود الدموي لستالين في زواجنا تجربة محنة. وبالنظر إلى أننا ندخل فترة الانتهاء من الستالينية، لا بد من أن أشكر سانتا على تشجيعها المشرق وسحرها اللامع وعطائها الذهبي من الإبداع والضحك والحب.

ملاحظة حول المراجع

يرتكز هذا الكتاب بشكل عام على البحث في الأرشيف، ولا سيما أرشيف ستالين لدى المعهد الماركسي - اللينيني للحزب الشيوعي، وأرشيف التاريخ الاجتماعي والسياسي للدولة الروسية R في موسكو في روسيا، وGF IML في تبيليسي، في جمهورية جورجيا، فضلًا عن أرشيف دولة الاتحاد الروسي GARF في موسكو، وأرشيف متحف ستالين في غوري، وأرشيف باتومي، وأرشيف الدولة في باكو في جمهورية أذربيجان، وأرشيف نيكولايفسكي، وأرشيف مكتب باريس للأوخرانا، في جامعة ستانفورد، بكاليفورنيا.

كنت محظوظا كثيرًا في إيجاد مصادر جديدة، لم يتم نشرها، أو أنها نُشرت جزئيا وقلَّما استخدمها المؤرخون. وتُعدّ المصادر المؤرشفة أكثر وثوقا من التاريخ الشفهي، غير أنها بالطبع خاضعة للأخذ والردّ أيضًا، ولا بد من تحليلها بإمعان. لكن غالبًا ما يتّضح أن القصص المناهضة للستالينية ليست محط ثقة.

تم تدوين الكثير من مصادر الأرشيف التي استعملت في هذا الكتاب، كالذي دوَّنه مؤرِّخو الحزب الرسميون خلال فترة ارتقاء ستالين إلى الحكم، وعبادة الفرد، والمحاكمات الغيابية، من العشرينيات حتى الخمسينيات. ويفترض بما دُوِّن في الثلاثينيات، أنه جُمع في جورجيا، حين قام بهذه العملية الأباراتشيك أو الموظفون الشيوعيون العاملون بإمرة الأمين الأول القوقازي

المرعب لافرينتي بيريا، التابع لستالين. وبالتالي، لا بد للمرء من أن يكون واعيًا دائمًا أنها دوّنت تحت الضغط العارم لتصوير ستالين بصورة بهية. وفي كل الأوقات، يجب على المرء أن يكون مدركًا الظروف، ويحاول ولوج اللغة البولشفية لمعرفة ما الذي يحاول الشهود حقًا قوله لنا.

لكن المدوّنات قبل المحاكمات في مرحلة الرعب العام 1937، هي في الأغلب صريحة، ليس فيها مراعاة لقدر ستالين. وفي الأمر غرابة: فالقصة التي تضمّنت ازدراءً لستالين ووردت في مذكرات رسمية، إنما هي قصة صحيحة إلى حد بعيد. وكان العديد من الشهود ساذجين للغاية أو صريحين، بحيث إن مذكراتهم لم تكن قابلة للتداول في ذاك الوقت، أو قابلة للتداول فقط بأجزاء صغيرة. لم يتم إتلاف هذه المذكرات، لكنها حُفظت ببساطة في الأرشيف. وتم تحرير الكثير منها، ثم نسخت وأرسلت الى أرشيف موسكو المتعلّق بستالين، وهذا ما يفسِّر الاختلافات القائمة بين النسخ المتوفرة. لكن النسخ الأصلية ظلت في الأرشيف المحلي.

تم إجراء مقابلات مع الكثير من الشهود مرات عدة، لذلك نجد في بعض الأحيان ثلاث نسخ من أقوال الشاهد نفسه، وكلّ نسخة مختلفة عن الأخرى. وفي الأغلب الأعم تكون النسخة الأولى هي الأكثر صراحة. كان بعض الشهود مراعين، لكن دقيقين في انتقاداتهم: مذكرات آل سفانيدزي، التي لم تُنشر بمعظمها على حد علمي (ما خلا مذكرات ماريا سفانيدزي، زوجة أليوشا، وهي تغطي الثلاثينيات)، كانت ناقدة لستالين بطريقة مدهشة، على

الرغم من أنه كان ديكتاتورًا، وبرغم أن آل سفانيدزي من أشد المقرّبين إليه في دائرته المغلقة.

كل كلام عن قتل الخونة وعمليات السطو على المصارف، سعى ستالين إلى إلغاء تفاصيله، وقمع مروِّجيه. فحاكم منهم يولي مارتوف في العام 1918 في محاولة لوقف منشوراتهم، وتابع قمعهم عندما تسلّم مقاليد الحكم. لكن المذكرات، على الرغم من التثبيط الرسمي، وجدنا فيها تفاصيل حول دور ستالين الذي يؤكد أهمية هذا «العمل الأسود» في ربيع العمر. تقول المذكِّرات إن الخائن كان يُقتل من دون تحديد أن أحدًا أمر بقتله. لكن، من الواضح أن ستالين له باع في الأمر.

وهذا ينطبق أيضًا على حالات إحراق الممتلكات عمدًا.

كشف كثير من الناس العاديين عن الواقع من دون قصد، وتحديدًا حبيبات ستالين، اللواتي لم يكن قادرات على التكلم بصراحة على علاقاتهن الشخصية مع القائد حتى لو حملن منه.

العديد من قصص الطفولة والنفي والمعركة الثورية وعمليات السطو على المصارف، هي، على ما آمل، اكتشافات قيمة بنظر المؤرخين. وتتمتع مذكرات كيكي تحديدًا بالفصاحة. يخال المرء أن ستالين كان ليكره المذكرات، التي كما أعلم لم تُرسَل نسخ منها إلى موسكو، ولم تُنشر لا باللغة الروسية ولا بالإنكليزية. أظن أن ستالين لم يعلم قط بأنها وُضعت. لكن هناك أيضًا مجموعة من المواد الأخرى التي تخبرنا الكثير عن ستالين الشاب.

في جورجيا، عملتُ جاهدًا على كشف النقاب عن العديد من

المذكرات التي لم تُنشر بعد من أرشيف العائلة الخاص. وتطبّق مجددًا كل القواعد العادية، للحماية تحديدًا من الأمجاد المزيفة لأولئك الذين يدّعون العلاقة الحميمة مع السيد العظيم والشهير. فمذكرات مينادورا أوردزهونيكيدزي توروتشيليدز، أدَّت إلى اعتقالها العام 1937 هي وزوجها الذي أُردي رميًا بالرصاص، أما هي فأُخلي سبيلها. آنذاك اقتطعت ست عشرة صفحة من المخطوطات.

في جورجيا، وإلى حد أقل في روسيا، يمكن المرء أن يقابل بعض الشهود النادرين: في بيت الشعب القديم في تبيليسي، قابلت مريم سفانيدزي، وهي نسيبة كاتو زوجة ستالين، والبالغة من العمر 1 أعوام؛ كما تكلّمت مع مقربين آخرين مثل كيتيفان جيلوفاني التي قدّمت ذكريات مفيدة. وقدّمت حفيدة ستالين، غالينا («غوليا») دجوغاشفيلي أجزاء مفيدة من أحجية الصور المقطوعة، وكذلك بنات أوردزهونيكيدزي وليتفينوف من بين آخرين. وكان الأكثر قيمة غورام راتيشفيلي، الحفيد المبتهج للجنرال ساشا أغناتاشفيلي، الذي استطاع في النهاية سد الثغرات التي ظهرت في حكاية العائلة في كل قصة تاريخية عن ستالين (بما فيها قصتي) حتى يومنا هذا.

وهناك العديد من المذكرات المنشورة منذ العشرينيات التي لم يستطع ستالين فرض الرقابة عليها. فمذكرات كوت تسينتسادزي مثلًا محرجة جدًا. وعلى الرغم من أنها محدودة ومحترسة، فقد كشفت أن ستالين أمر بعمليات القتل والسطو على المصارف في وقت كان يحاول فيه بجنون إثبات شرعيته البطولية، السياسية

والأيديولوجية، لخلافة لينين. ولدى تسلّمه السلطة المطلقة بعد العام 1929، حاول ستالين، إلى جانب بيريا، نزع لبّ العديد من مذكرات تسينتسادزي. ومثال آخر على ذلك مذكرات مساعد ستالين بيستكوفسكي العام 1917، حيث نُشرت النسخة الأولى منها العام 1922. لكن عند إعادة نشرها في العام 1930 تم تطهيرها.

وينطبق الأمر على يونيكيدزي وماخارادزي وشوتمان وآخرين كثر.

بيد أن الكتابات الرسمية لعبادة الفرد لها استعمالاتها أيضًا. كتاب سميربا لاكوبا والمجموعات حول مظاهرة باتومي وأيام ستالين في المدرسة، وكتاب «التاريخ» لبيريا، كلها مؤلفات ترويجية لستالين، مليئة بالأكاذيب والمغالاة، لكن الاقتباسات من المذكرات هي دقيقة. برغم أنها محررة انتقائيًا، حاولت أن أراجع مقطعيًا وأقارن بين الكتب والأصل.

لا بد من أن يكون المرء دقيقًا في المؤلفات المعادية لستالين بأقلام المنفيين أمثال إيريماشفيلي ونيكولايفسكي وفوليخ وأوراتادزي وفيريشاك وأرسينيدزي وآخرين كثر.

سيطر تروتسكي وسوخانوف على القصص الغربية لستالين. كانا ضد ستالين، فاعتُبرا أنهما على حق. الآن، عند التحليل عن كثب، غالبًا ما يتضح أنها تحتوي على أخطاء يمكننا عرضها، وتخمينات مجحفة يمكننا التقليل من شأنها، لكنها تبقى ذات فائدة كبيرة.

كنت محظوظًا جدًا لأنني وجدت مراجع منفيين أقل شهرة، مثل جوزيف دافريشوي وخاريتون شافيشفيلي ودافيد ساجيراشفيلي، وكلهم عرفوا ستالين جيدًا، وكل واحد ترك مصادر مؤذية، وأحيانًا غير موثوقة، لكنها لا تقدّر بثمن. يشعر المرء بأن هؤلاء الثلاثة، برغم أنهم ضد ستالين، حاولوا إنصافه. أما ملفات الأوخرانا الدرك، فبعضها نشرته البولشفية، وبعضها لم يُنشر ويُحفظ في الأرشيف، وتلك التي في مكتب باريس قابعة في ستانفورد، هي قيّمة جدًا، لكن، لأنها مستندة إلى مراقباتهم الملتبسة وذكائهم المريب الخاص، غالبًا ما تُعدّ خاطئة تمامًا.

تتمتع بعض المذكرات والسير الذاتية بقيمة أكبر مما قد نخال. كتاب جون ريد «عشرة أيام هزّت العالم» Ten Days that Shook the World، متعاطف كثيرًا مع الأسطورة البولشفية، ويعرف القليل عما كان يحصل داخل الحزب، لكنه تقرير مدهش. وكذلك أمر مذكرات دافيد ساجيراشفيلي. غالبًا ما تجد أن السير الذاتية الأولى لستالين مطّلعة جدًا بشكل غريب: عرف بوريس سوفارين العديد من اللاعبين، ووصل إلى الشهود في المنفى. والأكثر إثارة للعجب هو «ستالين: مسيرة متعصّب» Stalin: Career of a Fanatic بقلم أسعد بيك، وهو أول سيرة حياة حقيقية عن ستالين، قد استعملت مع تحفظات واضحة.

مذكرات خورتشيف ومولوتوف وميكويان ويوري زهدانوف

(التي نُشرت حديثًا) وغيرها، مفيدة، لكن مع بعض التحفظات.

استعنت من دون إذن بالعديد من الأعمال الأدبية المنشورة بشكل عام أو بالتفصيل، وحاولت أن أكون دقيقا في تحديد المصدر. غير أن بعض الكتب بارزة جدًا وأرغب في اعتبارها مصادري الأساسية التي لجأت إليها في كتابي: كتاب ألكسندر أوستروفسكي «كتو ستويال زا سبينوي ستالينا؟»، هو العمل الدراسي الأفضل حول علاقات ستالين مع الأوخرانا مع العمل الضخم: من غير المرجّح تحسينه؛ كتاب ستيفان جون «الاشتراكية بالألوان الجورجية» Socialism in Georgian Colors، هو مدهش، ولا بد من قراءته؛ النصوص الإنشائية للبروفسور رونالد ساني «رجل الرحلة للثورة» Journeyman for the Revolution، و«ما وراء التاريخ النفسي» Beyond Psychohist؛ كتاب ميكلوس كان «ستالين: صورة مجهولة» Stalin: An Unknown Portrait ينضم إلى كتابي حول ستالين وهو عمل بطولي مدهش في مجال البحوث والفهم؛ كتاب روبرت كونكيست «الرعب الكبير» Great Terror و«ستالين: مدمّر الأمم» Stalin: Breaker of Nations هما عملان أوليان يعرِّفان بستالين حتى يومنا هذا؛ كتاب بوريس إيليزاروف «تاينايا زهزن ستالينا» Tainaya zhizn Stalina زاخر باكتشافات الكاتب المهمة في مجال الأرشيف؛ من شعر ستالين، اعتمدت بالكامل

على نقل دونالد رايفيلد وترجمته بالكامل؛ وحول الشرطة السرية، استعنت بكتابي كتب جوناثن دابليو دالي حكم الفرد تحت الحصار: «الشرطة الأمنية والمعارضة في روسيا في فترة 1866 - 1905»

Autocracy under Siege: Security Police and Opposition in Russia 1866-1905

و«الدولة اليقظة: الشرطة الأمنية والمعارضة في روسيا 1906-1917»

The Watchful State: Security Police and Opposition in Russia 1906-17؛

مقدمة آنا غايفمان اللافتة، «روسيا تحت القيصر الأخير: المعارضة والدمار 1894-1917»

Russia under the Lat Tsar: Opposition and Subversion 1894-1917،

تشرح مختلف الحالات النفسية للثائر؛ في حين أن كتابها البارز ذو شالت كيل: الإرهاب الثوري في روسيا 1894-1917

Thou Shalt Kill: Revolutionary Terrorism in Russia 1894-1917

كان مصدري الأساسي حول الإرهاب؛ السير الذاتية الحديثة

لروبرت سيرفيس حول لينين وستالين صالحة للمحاضرات، لكنها قابلة للقراءة؛ في باكو، كتاب جورج بابيروفسكي المهم الذي أطاح بكل ما سبقه، «دير فيند إيست أوبيرال: ستالينيسموس ايم قوقازوس»
Der Fein dist uberall: Stalinismus im Kaukasus هو العمل الوحيد الذي يشرح ثقافة العنف القوقازي.

في الثورات، استعنت بكتاب أبراهام أشير الرائع 1905؛ كتاب أورلاندو فيجيز البارز «مأساة شعب» A People's Tragedy؛ أعمال ريتشارد بايب المدهشة الكثيرة بما فيها «الثورة الروسية» The Russian Revolution، «قضية ديغايف» The Degaev Affair و«لينين المجهول» The Unknown Lenin؛ وكتاب ألكسندر رابينوويتش «البولشفيون يتبوأون السلطة» The Bolsheviks Come to Power.

ملاحظة: انظر جدول المصطلحات أدناه، بخصوص الملفات التي أُخذت منها المعلومات عن ستالين:

الملحق: Appendix

أرشيف: Archive

الصندوق: Box

طبعة: (.ed. or (eds

الملفّ: Folder

رسالة: Letter

رقم: (No. (Nos

ملاحظة: Note

ص.: (.p. (p. p

الجزء: Parts

المقطع: Section

الفقرة: Series

المجلّد: Volume realpage40

الملفات/المتاحف

RGASPI Rossiiskii Gosudarstvennyi Arkhiv Sotsialno Politicheskoi Istorii, Moscow, Russia

GARF Gosudarstvennyi Arkhiv Rossiiskoi Federatsii, Moscow, Russia

GF IML Georgian State Filial of Institute of Marxism-Leninism Tbilisi, Georgia ABM Achinsky Oblastnoi Muzei, Achinsk, Russia MSIR Musei Sovremennoi Istorii Rossii, Moscow, Russia

VOANPI Vologdsky Oblastnoi Arkhiv Noveishei Politicheskoi Istorii, Vologda, Russia

GAVO Gosudarstvenny Arkhiv Vologodskoi Oblasti, Vologda, Russia

GIAG Georgian State Historical Archive, Tbilisi, Georgia (Sakartvelos Sakhelmtsipo Saistorio Arkivi) Archives of the Hoover Institution on War, Revolution and Peace, Stanford, California

GDMS Gosudarstvennyi Dom-Muzei I. V. Stalina, Gori, Georgia Gosudarstvennyi Istoriko-Memorialny St-Peterbugsky Muzei `Smolny', St Petersburg, Russia Muzei Alliluyeva, St Petersburg, Russia GTsMSIR Gosudarstvennyi Tsentralnyi Muzei Sovremennoi Istorii Rossii, Kseshinskaya Mansion, St Petersburg, Russia

GMIKA Khariton Akhvlediani State Museum, Batumi, Georgia

TsGAA Central State Archive of Adjaria, Batumi, Georgia

DMS Stalin House-Museum (former house of Watchmaker Simhovich), Batumi, realpage41 Georgia

GK Guram Kahidze's private museum, Batumi, Georgia

KTA Private Archive of Konstantin Ter-Akopova, Batumi, Georgia

GIAA Gosudardvennyi Istoricheskiy Arkhiv Azerbaijana, Baku, Azerbaijan Stockholm City Archives, Sweden

Office of the Governor of Stockholm, Sweden

PRO Public Records Office, London UK

Lenin Museum, Tampere, Finland

فيديو

Baku, City of Dreams, produced, written and directed by Fuad Akhundov

المراجع

PRIMARY

Alexandrov, G. F., et al. (eds.), Iosif Vissarionovicl .Stalin, Kratkaya biografiya, Moscow 1946

Alliluyeva, A. S., Vospominaniya, Moscow 194(.[[Also: "Vospominaniya," Roman-gazeta, 1947

Alliluyev, Sergei, "Vstrechi s tov. Stalinym, .Proletarskaya Revolyutsiya, no. 8, 1937

.Alliluyev, Sergei, Proidennyi put, Moscow 194(

Alliluyev, Sergei, and Alliluyeva, Anna, Th(Alliluyev Memoirs, ed. David Tutaev, London .1968

Alliluyeva, Svetlana, Twenty Letters to a Frienc .London 1967

Alliluyeva, Svetlana, Tolko odin god, New Yor .1969

.Alliluyeva, Svetlana, Only One Year, London 197:

Alliluyeva, Svetlana, Dvadtsaty pisem k drugu .Moscow 1981

Alliluyeva, Svetlana, Dalyokaya muzika, New Yor

.1988

Alliluyev, V. F., Khronika odnoi semi, Moscow .2002

Anninsky, L., et al. (eds.), Stalin v vospominaniyakh sovremennikov i dokumentov .epokhi, Moscow 2002

Arkhivnye materaly o revolyutsionnoy delayatelnosti I. V. Stalina," Krasny Arkhiv, no. 2 .(105), 1941

Arkomed, S. T., Robochee dvizhenie i sotsial demokratiya na Kavkaze, Moscow-Petrograd .1923

Arsenidze, R., "Iz vospominanii o Staline," Novy .Zhurnal, no. 72, June 1963

.Artyom: see F. A. Sergeev

Badaev (Badayev), A., The Bolsheviks in the .Tsarist Duma, London 1929

Badaev, A., Bolsheviki v gosudarstvennoi Dume .Vospominaniya, Moscow 1954

Bagirov, M., Iz istorii bolshevistskoi organizatsi .Baku i Azerbaijana, Moscow 1948

Baikaloff, A. V., "Turukhanskie bunt politicheskikh

.ssylnykh," Sibirskie Arkhiv, no. 2, Prague 1929

.Baikaloff, A. V., I Knew Stalin, London 194

Barbusse, H., Stalin: A New World through On .Man, New York 1935

Batumskaya Demonstratsia 1902 goda, Mosco .1940

Bazhanov, B., Bazhanov and the Damnation o .Stalin, Athens, Ohio 1990

Beria, L. P., K voprusu ob istorii bolshevistskik .organizatsiyakh v Zakavkaze, Moscow 1935

.Beria, L. P., Lado Ketskhoveli, Moscow 193

Beria, S., Beria My Father: Inside Stalin's Kremli .London 2001

Bessedovsky, G., Revelations of a Sovie .Diplomat, London 1931

Bibineishvili, V. (Baron), Za chetvet veka, Mosco .1931

The Bolsheviks and the October Revolution: Th Minutes of the Central Committee of the Russian Social-Democratic Party (Bolsheviks), .August 1917-February 1918, London 1974

.Bukharin, N., How It All Began, New York 199

.Bulgakov, Mikhail, Batum, Moscow 200

.(Charkviani, Candide, “Memoirs” (ms

Chavichvili, Khariton, Patrie, prisons, exil—Stalin .et nous, Paris 1946

Chavichvili, Khariton, Révolutionnaires russes .Genève en 1908, Geneva 1974

Chernenko, K. (and Moskalev, M. A.), I.V., Stalin .sibirskoi ssilke, Krasnoyarsk 1942

Chetvertyi (obedinitelnyi) sezd RSDRP, Mosco .1949

Chetvertyi (obedinitelnyi) sezd RSDRP. Protokol .Aprel–Mai 1906, Moscow 1959

Dan, F., Proiskhozhendenie bolshevizma, Ne .York 1946

Dan, Lydia, “Bukharin o Staline,” Novy Zhurna .no. 75, March 1964

.Dan, L. O., Iz arkhiva L. O. Dan, Amsterdam 198

Dastakian, Nikita, Il venait de la Ville Noire souvenirs d’un Arménien du Caucase, Paris .1998

Davrichewy, Josef, “Je suis le demifrère d .Staline,” Miroir de l’Histoire, December 1967

Davrichewy, Josef, Ah! Ce qu’on rigolait bien ave .mon copain Staline, Paris 1979

Djilas, Milovan, Conversations with Stalin, Nev .York 1962

Djugashvili, Galina (Gulia), “Ded, papa, mama .drugie,” Druzhba Naradov, no. 6, 1993

Effendiev, “Istoriya rabochego dvizheniy turetskogo proletariata,” in Iz prochlogo. Stati i vospominaniya iz istorii bakinskoi organizatsii, .Baku 1923

Elwood, R. C. (ed.), Vserossiyskaya Konferentsiy Rossiiskoi Sotsial-Demokraticheskoi Rabochei .Partii 1912 goda, London 1982

.(Gachechiladze, S., “Memoirs” (mss, Tbilis

.Gio, Artyom, Zhizn podpolschika, Leningrad 192

Gogebashvili, Y. (ed.), DedaEna, Tiflis 1912 an .1916

.Gorky, Maxim, Days with Lenin, London n.

.Gromyko, A. A., Memoirs, London 198

Iosif Vissarionovich Stalin, Kratkaya biografia .Moscow 1938–47

Iremaschwili, Stalin und die Tragödie Georgiens .Berlin 1932

.Iskander, Fasil, Sandro of Chegem, London 1979

Istoricheskie mesta Tbilisi. Putevoditel po mestam, svyazannym s zhiznyu i deyatelnostyu I.V. Stalina, ed. Georgian Filial of the Institute of .Marx-Engels-Lenin, Tbilisi 1944

Ivanov, B. I., Vospominaniya rabochego .bolshevika, Moscow 1972

.Jordania, Noe: see Zhordania

Kaganovich L. M., Tak govoril Kaganovich, ed. F .Chuev, Moscow 2002

Kaminsky, V., and Vereshchagin, I., "Detstvo yunost vozhdya. Dokumenty, zapiski, rasskazy," .Molodaya Gvardiya, no. 12, 1939

Kavtaradze, S., Iz vospominanii o tov. Staline .Voroshilovgrad 1936

Kavtaradze, S., "Iz vospominanii," Oktyabre, no .11, 1942

.(Kavtaradze, S., "Memoirs" (mss in Georgian

Kennan, G., Siberia and the Exile System, London .1891

Khatissian, Alexander, “Memoirs of a Mayor,” .Armenian Review 2 (3), September 1949

Khrushchev, N. S., Khrushchev Remembers .London 1971

Khrushchev, N. S., Khrushchev Remembers: The .Glasnost Tapes, London 1990

Kollontai, A., Iz moey zhizhni i raboty, Moscow .1974

Krasin, L. B., “Bolshevistskaya partiinaya tekhnika,” in Tekhnika bolshevistskogo podpolya, Sbornik statei i vospominanii, .Moscow 1925

Krupskaya, N., Vospominaniya o Lenine, Moscow .1968

.Krupskaya, N., Memoirs of Lenin, London 197

Kvashonkin, A. V., Khlevnyuk, O. V., Kosheleva, L. P. and Rogavaya, L. A. (eds.), Bolshevistkoe .rukovodstvo. Perepiska 1912–27, Moscow 1996

Lado Ketskhoveli. Sbornik dokumentov .materialov, Tbilisi 1969

Lakoba, Nestor, Stalin i Hashimi 1901–2, Sukhum .1934

.Lansbury, George, My Life, London 1928

Lenin, V. I., Polnoe sobranie sochineniyi, Moscow .1958–65

Lenin, V. I., Biograficheskaya khronika, 12 vols. .Moscow 1970–82

Lenin, V. I., Perepiska V.I. Lenina i rukovodimykh im uchrezhdenii RSDRP s mestnymi partiinymi .organizatsiyami 1905–7, Moscow 1982

Lobanov, M. (ed.), Stalin: v vospominaniyakh sovremenikov i dokumentov epokhi, Moscow .2002

.Ludwig, Emil, Stalin, New York 1942

Lunacharsky, A., Revolutionary Silhouettes, New .York 1968

Makharadze, F., Ocherki revoliutsionnogo .dvizheniya v Kavkazi, Tiflis 1927

Makharadze, F., and Khachapuridze, G. V., Ocherki po istorii rabochego i krestyanskogo .dvizheniya v Gruzii, Moscow 1932

Medvedeva-Ter-Petrossian, S. F., “Tovarish

Kamo," Proletarskaya Revolyutsiya, no. 8/9, .1924

Meshcheryakov, N. L., Kak my zhili v ssylke .Leningrad 1929

Mgeladze, A., Stalin kakim ya ego znal, Tbilis .2001

Mikoyan, A. I., The Memoirs of Anastas Mikoyan vol. 1: The Path of Struggle, Madison, .Connecticut 1988

.Mikoyan, A. I., Tak bylo, Moscow 199

Molotov, V. M., Sto Sorok Besed s Molotovym .ed. F. Chuev, Moscow 1991

Molotov, V. M., Molotov Remembers, ed. F .Chuev, Chicago 1993

Molotov, V. M., Poluderzhavnyi vlastelin .Moscow 1999

Nikolaevsky, Boris, Power and the Soviet Elite The Letter of an Old Bolshevik and Other Essays, .New York 1965

Nutsubidze, Ketevan, and Shalva Nutsubidze .Nakaduli, Tbilisi 1993

Orlov, Alexander, Secret History of Stalin'

.Crimes, London 1954

O Stepane Shaumiane, Vospominaniya, ocherk stati, sovremennikov, Moscow 1988.

Perkins, Frances, The Roosevelt I Knew, New Yor 1946.

Pestkovsky, S. "Vospominaniya o rabote v Narkomnatse 1917–1919," Proletarskaya revolutyutsiya, no. 6, 1930.

Pestkovsky, S., "Ob oktiabrskikh druakh v Pitere," Proletarskaya revolutyutsiya, no. 10, 1922.

Protokoly Tsentralnogo Komiteta RSDRP(b) Avgust 1917-Fevral 1918, Moscow 1958.

Protokoly Vserossiiskogo (martovskogo) soveshchaniya partiinykh rabotnikov 27 marta–2 aprelya 1917 goda," VIKPSS, no. 6, 1962.

Pyati (londonskii) sezd RSDRP, Protokoly, Aprel-Mai 1907 goda, Moscow 1963.

Raskolnikov, F. F., "Priezd tov. Lenina v Rossiyu," Proletarskaya Revolyutsiya, no. 1, 1923.

.Rasskazy o velikom Staline, Tbilisi 194

Rasskazy starikh robochikh Zakavkazya o velikom Staline, Moscow 1937.

Reed, John, Ten Days That Shook the Worlc .London 1982

Revolyutsiya 1905 goda v Zakavkaze. Istpartotde .TsK KP (b) Gruzii, Tiflis 1926

.Roelofs, see Saakashvi

Rokhlin, A. (ed.), Dvadtsat piat let Bakinskc .organizatsii bolshevistikov, Baku 1924–25

Saakashvili, Sandra Roelofs, Story of an Idealist .Tbilisi 2005

Sagirashvili, David, "Stalin iz vospominanii rasmyshlennii," Vestnik instituta po izuchenii .istorii i kultury SSR, no. 9, March–April 1954

Sagirashvili, David, "Stalin and Social Democracy The Political Diaries of David A. Sagirashvili," up. dissertation by Roy Stanley De Lon, Georgetown .University, Washington, D.C. 1974

Samoilov, F., "Bolshevistskaya fraktsiya I\ Gosudarstvennoy Dumy v Yeniseiskoi ssylke pered fevralskoie revolyutsiey," Proletarskaya .Revolyutsiya, no. 2/3, February–March 1927

Samoilov, F., Po sledam minuvshegc Vospominaniya starogo bolshevika, Moscow

.1934

Schlyapnikov, A. G., Semnadtsatyi god, Moscow .Petrograd 1923

Sedmaya (aprelskaya) vserossiiskaya konferentsiya RSDRP (bolshevikov). Petrogradskaya konferentsiya obshchegorodskaya konferentsiya RSDRP .(bolshevikov), Aprel 1917 goda, Moscow 1958

.Serge, Victor, Portraite de Staline, Paris 194

.Sergeev, F. A., Statii, rechi, pisma, Moscow 198

Shaumian, S., Izbrannye proizvedeniya, Moscov .1957 and 1978

Shestoi sezd RSDRP(b), Avgust 1917 goda .Protokoly, Moscow 1958

Shotman, A. V., “Kak iz iskry vozgorelos plamya, .Molodaya Gvardiya, 1935

Shveitzer, Vera, Stalin v turukhanskoi ssylke .Vospominaniya podpolshchika, Moscow 1940

Sidamon-Eristoff, Prince Simon C., For My Grandchildren: The Memoirs of Colonel Prince .Simon C. Sidamon-Eristoff, privately published

.Souvarine, Boris, Staline, Paris 193

Spandarian, S. (Timofei), Stati, pisma, dokument
.1882–1916, Yerevan 1940 and 1958

Stal, Ludmilla, “Rabotnitsa v Oktyabre,
.Proletarskaya Revolyutsiya, no. 10, 1922

Stalin v vospominaniyakh sovremenikov
dokumentakh epokhi, ed. M. Lobanov, Moscow
.2002

Stalin, I. V. (K.), “K natsionalnomu voprusu
evreiskaya burzhuaznaya i bundovskaya
kulturnonatsionalnaya avtonomiya,”
.Prosveshchenie, no. 6, June 1913

.Stalin, I. V., Sochineniya 1–13, Moscow 1952–5

.Stalin, I. V., Works 1–13, Moscow-London 195

Stalin, I. V., “Sam o sebe, redakzionnaya pravk
sobstevennoy biografii,” Izvestiya TsK KPSS, no.
.9, 1990

Stalin, I. V., Iosef Stalin v obyatiyakh semi: i
lichnogo arkhiva, ed. Y. Murin and V. Denisov,
.Istochnik 1993 and Moscow 1993

Stalin, I. V., Slovo tov. Staliny, ed. R. Kosolapov
.Moscow 2002

Stalin-Kaganovich Correspondence 1931–193

ed. R. W. Davies, Oleg Khevnuik and E. A. Rees, .New Haven 2003

Stasova, E. D., Stranitsy zhizhni i borby, Moscov .1957

Stasova, E. D., “Partiinaia robota v ssylke i Petrograde,” in V gody podpolya: sbnornik .vospominii 1910g–fevral 1917, Moscow 1964

Stopani, A., Iz proshlogo. Stati i vospominania i istorii bakinskoi organizatsii i rabochego .dvizheniia v Baku, Baku 1923

Sukhanov, N., Zapiskie o russkoi revolyutsii, Berli .1922–23

Sukhanov, N., The Russian Revolution 1917: .Personal Record, Oxford 1955

.Suliashvili, D., Uchenicheskie gody, Tbilisi 194

Sverdlov, Y., Izbrannye proizvedeniya, Moscov .1957

Sverdlova, K. T., Yakov Mikhailovich Sverdlov .Moscow 1957

Talakvadze, S., K istorii Kommunisticheskoi part .Gruzii, Tiflis 1925

Toroshelidze, Minadora Ordzhonikidze

.(“Memoirs” (mss, Tbilisi

Tovstukha, I. P., Iosif Vissarionovich Stalin Kratkaya biografiia, Moscow and Leningrad .1927

Trifonov, Y., Otblesk kostra. Ischeznovenie .Moscow 1988

.Trotsky, L. D., Moya Zhizn, Berlin 1930

.Trotsky, L. D., Stalin, London 1968

.Trotsky, L. D., My Life, London 2004

Troyanovsky, Oleg, Cherez godi i rasstoyaniya .Moscow 1997

Tsereteli, I. G., Vospominaniya o fevralsko .revoliutsii, Paris 1963

Tsintsadze, Kote, “Chemi Mogonebani (My Memoirs 1903–1920),” Revolyutsiis Matiane, .nos 2–3, Tiflis 1923–24

Tsintsadze, Kote, Rogor vibrdzolot proletariati diktaturistvis, chemi mogonebani (How to Struggle for the Dictatorship of the Proletariat: .My Memoirs from 1903 to 1920), Tiflis 1927

Uratadze, G., Vospominaniya Gruzinskogo sotsial .demokrata, Stanford 1968

Vazek, I., V gody podpolya in Rasskazy starykl rabochikh Zakavakazya o velikom Staline, .Moscow 1939

Vereshchak, S., “Stalin v tyurme,” Dni, 22 and 2 .January 1928

Voroshilov, K. E., Stalin i Krasnaya Armiya .Moscow 1937

Voroshilov, K. E., Rasskazy o zhizni, Moscov .1968

.Vstrechi s tov. Stalinym, Moscow 193

Vstrechi s vozhdem. Sbornik vospominanii .vstrechakh s tov. Stalinym, Saransk 1940

Yaroslavsky, E., Landmarks in the Life of Stalin .London 1942

Yaroslavsky, E., “Tri vstrechi,” Pravda, 2 .December 1939

Yenukidze, Abel, Istoriya organizatsiya i rabot nelegalnykh tipografii RSDRP na Kavkaze za vremya ot 1900po 1906g, in Tekhnika .bolshevistskogo podpolya, Moscow 1925

Yenukidze, Abel, “Iz proshlogo nashei partei,” i Iz proshlogo. Stati i vospominaniya iz istorii

.bakinskoi organizatsii, Baku 1923

Yenukidze, Abel, Nashi podpolnye tipografii na .Kavkaze, Moscow 1925

Zhdanov, Yuri, memoirs of Stalin, Komsomolsky .Pravda, 10 January 2007

Zhordania, N. (interview by N. Vakar), “Stalin po vospominanyam N. V. Zhordania,” Poslednie .Novosti, 16 December 1936

.Zhordania, N., Moya Zhizn, Stanford 1968

Zhukov, G. K., Vospominaniya i razmyshleniya .Moscow 1995

SECONDARY

Abramov, A. N., Nachalo revolyutsionno .deyatelnosti I.V. Stalina, Leningrad 1939

Agursky, M., “Stalin’s Ecclesiastical Background, .Survey, no. 4, 1984

.Akopian, G. S., Stepan Shaumian, Moscow 1973

Antonov-Ovseenko, A., The Time of Stalin .Portrait of Tyranny, New York 1980

Antonov-Ovseenko, A., Stalin bez Maski, Moscow .1990

Applebaum, Anne, Gulag: A History, London .2003

Ascher, Abraham, The Revolution of 1905 .—Russia in Disarray, Stanford 1988

Ascher, Abraham, The Revolution of 1905 .—Authority Restored, Stanford 1992

Avtorkhanov, A., Stalin and the Soviet Communis .Party, London 1959

Baberowski, Jorg, Der Feind is überall .Stalinismus im Kaukasus, Munich 2003

.Baedeker, Karl, Baedeker's Russia, London 1914

Baynac, J., Kamo: L'homme de main de Lénine .Paris 1972

Bezirgani, G., "Koba i Kamo," Perspektivi, no. 6 .1991

.Biagi, E., Svetlana: The Inside Story, London 1967

Black, Conrad, FDR, Champion of Freedom .London 2003

Bjorkegren, Hans, Ryska Posten: de ryska revolutionarerna i norden 1906–17, Stockholm .1985

Brackman, Roman, Israel at Noon, New Yor
.2006

Brackman, Roman, The Secret File of Josepl
.Stalin: A Hidden Life, London 2001

Burleigh, Michael, Sacred Causes: Religion anc
Politics from the European Dictators to Al
.Qaeda, London 2006

Carswell, John, The Exile: The Life of Ivy Litvinov
.London 1980

Charroux, Robert, “Révélations sur l’enfance d
.Staline,” Miroir de l’Histoire, October 1963

Clements, Barbara Evans, Bolshevik Feminist: Th
Life of Alexandra Kollontai, Bloomington,
.Indiana 1979

Clements, Barbara Evans, Bolshevik Womer
.Cambridge 1997

Cohen, S. F., Bukharin and the Russiar
.Revolution: A Political Biography, London 1974

Conquest, Robert, The Great Terror: Stalin’
.Purge of the Thirties, London 1973

Conquest, Robert, Stalin: Breaker of Nations
.London 1993

Cooper, Julian, Maureen Perrie, and E. A. Ree (eds.), Soviet History, 1917–53: Essays in .Honour of R. W. Davies, London 1995

.Dadiani, S., Stalin v Chiaturu, Tbilisi 194

Daly, Jonathan W., Autocracy under Siege Security Police and Opposition in Russia, 1866– .1905, DeKalb, Illinois 1998

Daly, Jonathan W., The Watchful State: Securit Police and Opposition in Russia 1906–17, .DeKalb, Illinois 2004

Daushvili, A., Story of Soso Djugashvili, Tbilis .2000

.Delbars, Yves, The Real Stalin, London 195

De Lon, Roy Stanley, “Stalin and Socia Democracy: The Political Diaries of David A Sagirishvili,” unpublished dissertation, .Georgetown University, Washington, D.C. 1974

.Delo provokatora Malinovskovo, Moscow 199

Deutscher, I., Stalin: A Political Biography, Londo .1966

Dubinsky-Mukhadze, I. M., Ordzhonikidze .Moscow 1963

Dubinsky-Mukhadze, I. M., Shaumian, Moscov
.1965

Dubinsky-Mukhadze, I. M., “Mikhail G. Tskhakay
.(Tsakhaya),” Voprosy Istorii KPSS, no. 5, 1965

.Dubinsky-Mukhadze, I. M., Kamo, Moscow 197

Elliott, Geoffrey, From Siberia with Love, Londo
.2004

Elwood, R., Roman Malinovsky: A Life without
.Cause, Newtonville 1977

.Emelianov, Y., Stalin Put k Vlasti, Moscow 200

Emuksuzian, V. S., Suren Spandarian, Moscov
.1982

Essad Bey, Stalin: The Career of a Fanatic, Londo
.1932

Essaiashvili, V. G. (ed.), Orcherki istor
.Kommunist Partii Gruzii, Tbilisi 1957

Ettinger, Elzbieta, Rosa Luxemburg: A Life
.London 1988

Farnsworth, Beatrice, Alexandra Kollonta
Socialism, Feminism and the Bolshevik
.Revolution, Stanford 1980

Felstinsky, Y., Bil li Stalin agentom Okhranki Sbornik statei, materialov i dokumentov, .Moscow 1999

Ferguson, Niall, The World's Banker: The Histor .of the House of Rothschild, London 1998

Ferguson, Niall, The War of the World, New Yor .2006

Figes, Orlando, A People's Tragedy: The Russia .Revolution, 1891–1924, London 1996

Fishman, W. J., East End Jewish Radicals, Londo .1975

Fishman, W. J., Streets of the East End, Londo .1979

Fishman, W. J., East End, 1888: A Year in London Borough among the Labouring Poor, .London 1988

Fuller, William C., Jr., The Foe Within: Fantasie of Treason and the End of Imperial Russia, .Ithaca, New York 2006

Futrell, Michael, Northern Underground, Londo .1963

Geifman, Anna (ed.), Russia under the Last Tsar

Opposition and Subversion, 1894–1917, Oxford .1999

Geifman, Anna, Thou Shalt Kill: Revolutionar .Terrorism in Russia, 1894–1917, Princeton 1993

Getzler, I., Martov: A Political Biography of a .Russian Social Democrat, London 1967

Getzler, I., Nikolai Sukhanov: Chronicler of the .Russian Revolution, London 2002

Gorodetsky, E., and Y. Sharapov, Sverdlov .Moscow 1971

Guruli, Vakhtang, Materials for Stalin's Biography .Tbilisi 1998

Hall, Coryne, Imperial Dancer: Mathilde Kschessinskaya and the Romanovs, London .2005

Hamann, Brigitte, and Thomas Thorton, Hitler' Vienna: A Dictator's Apprenticeship, Oxford .1999

Haupt, Georges (ed.), Les Bolsheviks par eux même (Makers of the Russian Revolution), Paris .1969

.Hosking, G., Rulers and Victims, London 200

Ilizarov, B. S., Tainaya zhizn Stalina. P
materialam ego bibliotek i archiva. K istoriografii
.stalinizma, Moscow 2002

.Imnaishvili, R., Kamo, Tbilisi 195

Ivanova, L. (ed.), Stranitsy slavnoi istori
Vospominania o Pravde 1912–17g, Moscow
.1962

.Jones, J. Sydney, Hitler in Vienna, London 198

Jones, Stephen F., Socialism in Georgian Colors
The European Road to Social Democracy, 1883–
.1917, Cambridge, Massachusetts 2005

Kaptelov, B., and Z. Peregudova, "Byl li Stali
.agentom Okhranki?," Rodina, no. 5, 1989

Kennan, George, Historiography of the Earl
Political Career of Stalin, American Philosophical
.Society, no. 3, 1971

Kershaw, Ian, Hitler 1889–1936: Hubris, Londo
.1998

Khlevniuk, Oleg, In Stalin's Shadow: The Career o
.Sergo Ordzhonikidze, New York 1993

King, Greg, The Court of the Last Tsar, Londo
.2006

Klier, J., and S. Lambroze, Pogroms: Anti-Jewisl Violence in Modern Russian History, Cambridge .1992

Knight, Amy, Beria: Stalin’s First Lieutenant .Princeton 1993

Kolesnik, A., Khronika zhizni semia Stalina .Kharkov 1990

Kujala, Antti, “Russian Revolutionary Movemen and the Finnish Opposition, 1905,” Scandinavian .Journal of History, no. 5, 1980

Kujala, Antti, “Finnish Radicals and the Russiai Revolutionary Movement, 1899–1907,” .Revolutionary Russia 5, December 1992

.Kujala, Antti, et al., Lenin Ja Suomi, Helsinki 198

Kun, Miklos, Stalin: An Unknown Portrait .Budapest 2003

Lakoba, S., “Legendarnoe nacholo veka, .Sovetskaya Abkhazia, no. 145, 28 July 1982

Lakoba, S., Boeviki Abkhazii v revolyutsii 1905– .godov, Sukhum 1984

Lakoba, S., Ocherki politecheskoi istorii Abkhazi .Sukhum 1990

Lakoba, S., Otvet istorikam iz Tbilisi, Sukhum 2001.

Lakoba, S., et al. (eds.), Istoria Abkhazia, Gadau 1993.

Lang, D. M., Modern History of Georgia, London 1962.

Lauchlan, Iain, Russian Hide-and-Seek: The Tsarist Secret Police in St. Petersburg, 1906–14, Helsinki 2002.

Lee, Eric, “Eremin Letter: Documentary Proof That Stalin Was Okhrana Spy?,” Revolutionary Russia 6, June 1993.

Levine, Isaac Don, Stalin’s Great Secret, New York 1956.

Lieven, D., Russia’s Rulers under the Old Regime, New Haven 1989.

Lieven, D., Nicholas II: Emperor of All the Russias, London 1993.

Lincoln, W. Bruce, Passage through Armageddon: The Russians in War and Revolution, 1914–18, New York 1986.

Loginov, V., Taini Stalina, Moscow 199[illegible].

London Landmarks: A Guide with Maps to Places Where Marx, Engels and Lenin Lived and .Worked, London 1963

.Ludwig, E., Stalin, New York 1942

McNeal, R., Bride of the Revolution: Krupskaya .and Lenin, London 1973

.McNeal, R., Stalin: Man and Ruler, London 1988

.Maisky, Ivan, Journey into the Past, London 1962

.Marcou, Lily, Staline: Vie privée, Paris 1996

Maskulia, A. V., Mikhail Tskhakaya, Moscow .1968

Medvedev, Roy A., Let History Judge: The Origins .and Consequences of Stalinism, London 1971

Medvedev, Zhores A., and Roy A. Medvedev, The .Unknown Stalin, London 2003

Merridale, Catherine, “The Making of a Moderate Bolshevik: An Introduction to L. B. Kamenev’s Political Biography,” in Julian Cooper, Maureen Perrie and E. A. Rees (eds.), Soviet History, .1917–53, London 1995

Montefiore, Simon Sebag, Stalin: The Court of .the Red Tsar, London 2003

Moore, James, Gurdjieff, Shaftesbury, Dorse
.1991

Moskalev, M. A., Bolshevistskie organizats
Zakavkazya periode pervoi russkoi revolyutsii,
.(Moscow 1940 (See also Chernenko

Muravyova, L., and I. Sivolap-Kaftanova, Lenin ir
.London, Moscow 1981

Nikolaevsky, Boris, “Bolshevistsky Tsentre,
.Rodina, no. 3/5, 1992

Nikolaysen, H., SD Networks in Transcaucasia an
Stalin: The Rise of a Regional Party Functionary,
.1887–1902, Stanford 1991

.Nikonov, V., Molotov Molodost, Moscow 200

Obolenskaya, R., Kamo: The Life of a Grea
.Revolutionist, London n.d

Ostrovsky, Alexander, Kto stoyal za spinc
.Stalina?, St. Petersburg 2002

.Owen, Frank, Three Dictators, London 194

Palmer, Alan, The East End: Centuries of Londo
.Life, London 1982

Pares, Bernard, The Fall of the Russian Monarchy
.London 1939

Pearson, Michael, Inessa: Lenin’s Mistress .London 2001

Phillips, Hugh D., Between the Revolution and the West: A Political Biography of Maxim M. .Litvinov, Boulder, Colorado 1992

Pipes, Richard, Formation of the Soviet Union Communism and Nationalism, 1917–23, .Cambridge, Massachusetts 1964

Pipes, Richard, Revolutionary Russia, Cambridge .Massachusetts 1968

Pipes, Richard, Russia under the Old Regime .London 1982

Pipes, Richard, The Russian Revolution, 1899- .1919, London 1990

Pipes, Richard, The Unknown Lenin, New Haven .1996

Pipes, Richard, The Degaev Affair, New Haven .2003

Pope, Arthur Upham, Maxim Litvinov, London .1943

.Porter, Cathy, Alexandra Kollontai, London 1980

Pospielovsky, Dmitri, The Russian Church under

.the Soviet Regime, 1917–82, New York 1983

Rabinowitch, A., Prelude to Bolshevism: Th Petrograd Bolsheviks and the July 1917 Uprising, .Bloomington, Indiana 1968

Rabinowitch, A., The Bolsheviks Come to Powe The Revolution of 1917 in Petrograd, Chicago .2004

.Radzinsky, E., Stalin, London 199

.Radzinsky, E., Alexander II, New York 200

.Raguza, Imam, La Vie de Staline, Paris 193

Rayfield, D., Stalin and the Hangmen: A Authoritative Portrait of a Tyrant and Those .Who Served Him, London 2004

Rayfield, D., “Stalin the Poet,” PN Review 44 .Manchester 1984

.Reiss, Tom, The Orientalist, New York 200

.Richardson, R., The Long Shadow, London 199

Rieber, A., “Stalin: Man of the Borderlands, .American History Review, no. 5,2001

Robbins, Richard G., The Tsar’s Viceroys, Ithac .1987

Rokhlin, A., “Gde pryatali nezakonnorojdennogo syna Stalina?,” Moskovsky Komsomolets, no. 114, 22 June 1996.

Roobol, W. H., Tsereteli: A Democrat in the Russian Revolution: A Political Biography, The Hague 1976.

Rothstein, Andrew, Lenin in Britain, London 1970.

Ruud, Charles A., and Sergei A. Stepanov, Fontanka 16: The Tsar’s Secret Police, Quebec 1999.

Schorske, Carl E., Fin de Siècle Vienna, London 1961.

Service, R., The Bolshevik Party in Revolution: A Study in Organizational Change, London 1979.

Service, R., “Joseph Stalin: The Making of a Stalinist,” in John Channon (ed.), Politics, Society and Stalinism in the USSR, London 1998.

Service, R., Lenin: A Biography, London 2000.

Service, R., A History of Modern Russia from Nicholas II to Putin, London 2003.

Service, R., Stalin: A Biography, London 2004.

Seton-Watson, H., The Russian Empire, 1801-

.1917, Oxford 1967

Sheinis, Z., Maxim Maximovich Litvinov, Moscov .1989

Shub, David, “Kamo: Legendary Old Bolshevik o .the Caucasus,” Russian Review, 19 July 1960

Slavin, B., “Stalin i Okhranka,” Alternativy, no. 1 .1990

Slusser, R., Stalin in October: The Man Wh .Missed the Revolution, Baltimore 1987

.Smith, E. E., The Young Stalin, New York 196

Stugart, M. (readers’ queries), Dagens Nyheter .Stockholm, 22 March 2004

Sukhodeev, V., Stalin v zhizn i legendakh .Moscow 2003

Sukhotin, Y., “Bastard krasnogo vozhda,” Cha .Pik, no. 189, 21 October 1995

Suleymanov, Manaf, Eskitdiklarim, Okhuduglarim Gorduklarim [What I Saw, What I Read, What I .Heard; Russian title Dni Minuvshie], Baku 1996

.Suliashvili, D., Uchenichesky gody, Tiflis 194

Suny, R. G., “A Journeyman for the Revolution

Stalin and the Labour Movement in Baku, June
.1907-May 1908," Soviet Studies, no. 3, 1972
Suny, R. G., The Making of the Georgian Nation
.London 1989
Suny, R. G., "Beyond Psychohistory: The Young
.Stalin in Georgia," Slavic Review 50, Spring 1991
.Thompson, Bruce, Hitler's Vienna, London 198
Thompson, Bruce, Schnitzler's Vienna, London
.1990
Tolf, Robert W., The Russian Rockefellers: The
Saga of the Nobel Family and the Russian Oil
.Industry, Stanford 1976
Tucker, R. C., Stalin as Revolutionary, 1879–1929
.A Study in History and Personality, London 1974
Tucker, R. C., Stalin in Power: The Revolution
from Above, 1929–41, New York and London
.1990
Ulam, Adam, Lenin and the Bolsheviks, London
.1966
.Vakar, N.: see Zhordania
Vaksberg, Arkady, Stalin's Prosecutor: The Life of
.Andrei Vyshinsky, New York 1990

Van Ree, Erik, "Stalin and the National Question,
.Revolutionary Russia 7, December 1994

Van Ree, Erik, "Stalin's Bolshevism: The Firs
Decade," International Review of Social History
.39, 1994

Van Ree, Erik, "Stalin's Bolshevism: The Year o
Revolution," Revolutionary Russia 13, June
.2000

.Vasileva, L., Kremlin Wives, London 199

.Vasileva, L., Deti Kremlya, Moscow 200

.Vitebsky, Piers, Reindeer People, London 200

Volkogonov, D., Stalin: Triumph and Traged
.New York 1988

Volkogonov, D., Lenin: Life and Legacy, Londo
.1995

Williams, Robert C., The Other Bolsheviks: Leni
and his Critics, 1904–14, Bloomington, Indiana
.1986

Yagubov, S., Stalin byl voxhdem rabocheg
.dvizheniya v Baku, Moscow 1947

.Yergin, Daniel, The Prize, London 199

Zhukov, Y., “Gori-Tbilisi,” Novy Mir, 12 Decembe
.1939

البوم صور



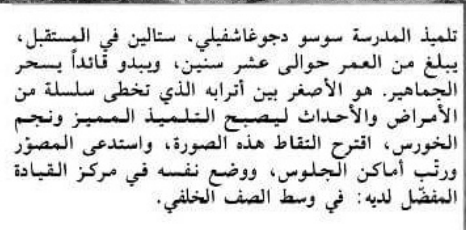
1878 -1904

ستالين الدكتاتور القاسي والمهووس بذهان الاضطهاد في التدريب: المشغل السري الأعلى، وزعيم المتآمرين الحذر، والسياسي من الطراز الأول، والمخطط للعنف الاجرامي والسياسي، والمتعصّب الماركسي. بالفيدورا والقبة الصلبة وربطة العنق الحريرية.

صورة فوتوغرافية التقطتها الشرطة للمشتبه فيه في العام 1912.

–





تلميذ المدرسة سوسو دجوغاشفيلي، ستالين في المستقبل، يبلغ من العمر حوالى عشر سنين، ويبدو قائداً يسحر الجماهير. هو الأصغر بين أترابه الذي تخطى سلسلة من الأمراض والأحداث ليصبح التلميذ المميز ونجم الخورس، اقترح التقاط هذه الصورة، واستدعى المصوّر ورتّب أماكن الجلوس، ووضع نفسه في مركز القيادة المفضّل لديه: في وسط الصف الخلفي.



أصبح سوسو مقاتلا في الشارع وقائد عصابة، ومتلاعبا ساحرا في الشوارع القاسية في غوري، إحدى البلدات الأكثر عنفا في الإمبراطورية القيصرية:
يحتفل بالعطل الدينية بالشجار المنظم الذي يشمل السكان كلهم، من الأطفال الى الشيوخ.

مسقط رأس ستالين هو المنزل على اليسار.

_

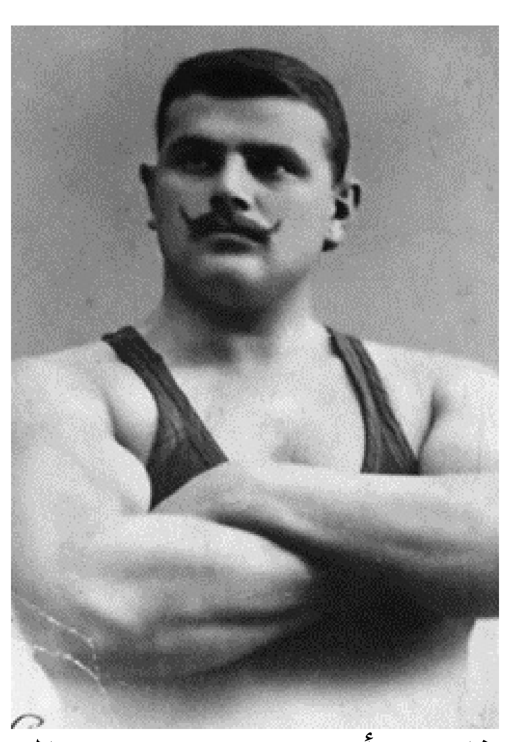
على اليمين: كيكي دجوغاشفيلي: والدة ستالين الاستثنائية في سن متقدمة. كانت في شبابها؛ جميلة، وذكية لكن قويّة ومتهكمة وصريحة، مثل نجلها، حماها الرجال الأقوياء من بيسو.
على اليسار: الأب المشكوك بأمره: الصورة الرسمية لـ «المجنون بيسو» دجوغاشفيلي، وهو إسكافي ومدمن على الكحول، يضرب زوجته وطفله.
رفض ستالين ان يؤكد ان هذا والده الذي افقدته الغيرة صوابه.

_



هل هو والد ستالين الحقيقي؟ كوبا اغناتاشفلي، ملاكم وصاحب نزل غني، كان بطلا محليا أحب سوسو وموّلة وحماه.

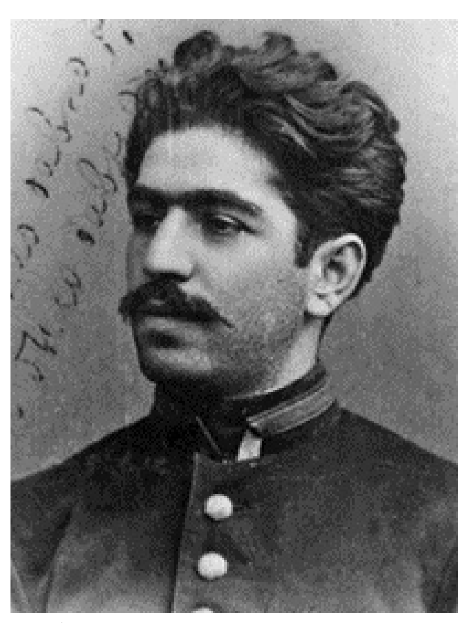
-



هل هذا هو أخو سوسو غير الشقيق؟

ترعرع سوسو مع آل أغناتاشفيلي المفعمين بالحياة، بمن فيهم ملاكم ومقاول آخر هو ساشا، الذي رقّاه لاحقا إلى مرتبة رجال الكرملين. عُيّن جنرال مفوضية الشعب للشئون الداخلية في الاتحاد السوفياتي في ظل ستالين، وهو متذوق للطعام. أطلق علية لقب «الأرنب».

_



رئيس شرطة غوري دميان دافريشوي، الذي لطالما غازل كيكي إلى درجة ان بيسو حاول قتله.

كان نجله جوزيف صديق الطفولة، وادّعى انه أخو ستالين غير الشقيق. أصبح هو وستالين من الساطيّن على المصارف، والإرهابيين الأكثر شهرة (ونجاحا) في القوقاز.

_

على اليسار: مصدر بهجة والدته: في العام 1893، درس سوسو دجوغاشقيلي، التلميذ الموهوب ورئيس الخورس، الكهنوت في ثانوية تيقليس، الأشبه بالمدرسة الرسمية الإنكليزية الفيكتورية التي يديرها الكهنة. نشر المراهق سوسو بسرعة.

–



يرتدي مدرعة الكهنوت في الصف الخلفي (الثاني جهة اليسار).
اعتنق الماركسية وأدار نزاعا فظيعا مع الكاهن الذي اسماه
«البقعة السوداء».

–





باتومي 1902: تبجح ستالين قائلا: «حصلت على عمل لدى آل روتشيلد!». في اليوم التالي احترقت مصفاة روتشيلد (أعلاه). في الأعلى: (لهب مماثل في مصفاة أخرى).

أطلق ستالين وهو في سن الرابعة والعشرين العنان لأعمال الشغب في مرفأ باتومي للنفط.

أمر هنا بأول عملية قتل للخونة، وغاص في العلاقات الغرامية، وتسبب في مجزرة، وطبع كتاباته بمساعدة قاطع طرق ملم ودود هو هاشيمي سميريا.

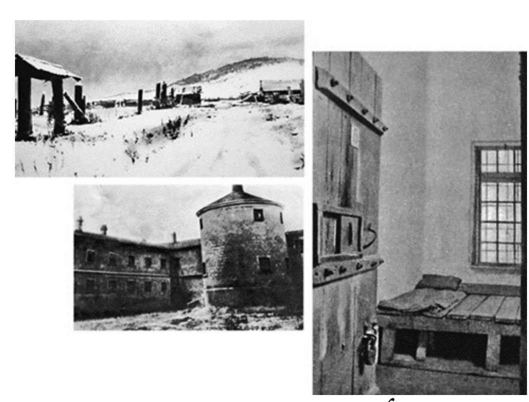
–



في أول عملية توقيف له، هيمن ستالين على السجن، وقتل الأعداء، وتحدى السلطات في سجن قتيسي، رتب الماركسي صاحب الشعر الطويل هذه الصورة قبل ان يتم إرسال رفاقه الى المنفى السيبيري، ووضع نفسه في وسط الصف الامامي (الرقم 4).

في نوفايا اودا؛ منفاه الأول اسرف في شرب الخمر مع الأصدقاء المجرمين، واستعدّ للهروب...

-



في نوفايا اودا؛ منفاه الأول (اعلى اليسار) اسرف في شرب الخمر مع الأصدقاء المجرمين، واستعدّ للهروب...
سجن قتيسي من الخارج، وزنزانة ستالين (إلى اليمين)

_

حتى كثائر معدم وغامض؛ لم يبق ستالين قط من دون مجموعة من الأصدقاء؛ المتزوجين وغير المتزوجين والشبان والعجزة والفلاحين والمفكرين والنساء النبيلات.

كانت اولاهن امرأة جميلة متزوجة، هي ناتاشا كيرتافا (على اليسار) لكنّه غضب عندما رفضت الانتتقال معه. وعرّف على شبه الغجرية أولغا اليوليبفا (على اليمين) زوجة رفيق ستالين البلشفي سيرغي، تعدد علاقاتها الغرامية. ويرجّح انها ارتبطت بعلاقة مع ستالين وبقيت مكرّسة له.

–



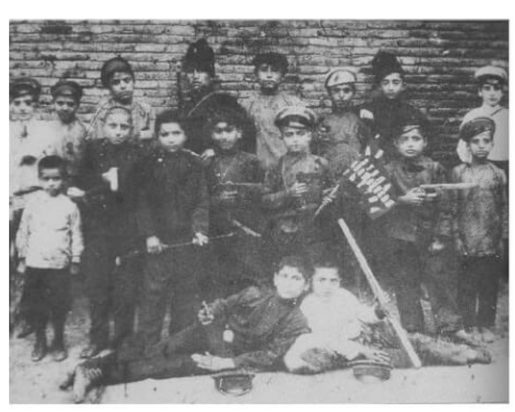
أصبحت اولغا أيضا حماته المستقبلية. مع أولادها؛ بافيل، وفيودور، وآنا، وناديا.

-



كان كامو المضطرب عقلياً، صديق الطفولة، والسفاح، الذي يلبس معطف (الشوكا) الجورجي؛ (رجلاً استثنائياً) غالبا ما توسل الى ستالين: «دعني أذبحه»، وهو الساذج والحبيب والممتهن الفرّار والساطي على المصارف، والقاتل وسيّد التنكر- من الغسّالة الى الأمير- قاد عملية سرقة تيفليس لستالين. وعندما أوقف، تظاهر بالجنون طوال أعوام، وعانى عذابات كبيرة، بحيث ان الأطباء استنتجوا انه مجنون حقاً.

–



التآمر: خلال ثورة 1905، ادار ستالين شبكة من أطفال الشوارع النشالين، الذين هربوا الأسلحة ونقلوا الرسائل الشفهية، كقسم الاستخبارات الخاص به.

_



وفي هذه الاثناء، تمت ملاحقة ستالين ومراقبة العملاء او «الاشباح» في الشرطة السرية لدى القيصر، والاخرانا، الذين يقفون بلباسهم في الشارع، لكنه أصبح خبيرا في الخداع والتسلل الى داخل الشرطة السرية ذاتها.



فلاديمير إيليش لينين، في الوقت الذي التقى فيه ستالين، الذي يجّله لكن كان لديه دائماً آراؤه الخاصة. أصبح ستالين، عبر عمليات السطو على المصارف والعصابات، جامع التبرعات الأول لصالح لينين.



ستالين، الموقوف في العام ١٩٠٦.

ليون تروتسكي، المفكّر اليهودي التافه واللامع، رئيس سوفيات بطرسبرغ، أوقف في العام ١٩٠٥. التقى بستالين في لندن، فكرهه بمجرّد النظر إليه.





كاتو سفانيدزي (الى اليمين وأقصى اليمين)، زوجة ستالين الأولى التي حكم عليها بالموت كانت صانعة ملبوسات جميلة في العام ١٩٨٩، ولديها علاقات مع النبلاء، وكان له منها ولد، هو ياكوف.

–



The Daily Mirror

RUSSIAN REVOLUTIONISTS MEET SECRETLY IN A CHURCH HALL.

ستالين في لندن: في هذه الرحلة، أمر لينين بالسطو على مصرف تبفليس لصالح ستالين. تغلّب العاملون في رصيف السفن الإنكليز تقريباً على ستالين، لكنه تعلّم اللغة الإنكليزية بالاستماع إلى الخدمات الكنسية. تصدر الراديكاليون الإرهابيون الصحف في لندن. اختبأ الثوار من مصوّريهم (الصورة المقابلة، إلى اليسار الأعلى). وعندما فرغوا من المال، كان على لينين اقتراض المال من جوزيف فيل، وهو مليونير أميركي يعمل في مجال الصابون، شدد على أن يوقّع كل مندوب على الاتفاقية (أدناه). وقّع الكل مستخدمين الألقاب: «فازيلي من باكو (الورقة اليمنى، ثمانية نزولاً إلى اليسار) هو على الأرجح ستالين.



MAY 25, 1907. THE DAILY MIRROR.

RUSSIAN REVOLUTIONISTS AFRAID OF THE CAMERA.



A band of Russian revolutionists entering the Brotherhood Church Hall, Southgate-road, N., where their meetings are being held.—(Park.)

JUNE 27, 1907. THE DAILY MIRROR.

RAIN OF BOMBS.

Revolutionaries Hurl Destruction Among Large Crowds of People.

TIFLIS, Wednesday.—About ten bombs were hurled to-day, one after the other, in the square in the centre of the town, which was thronged with people at the time.

The bombs exploded with terrific force, many people being killed and injured.

Window-panes, doors, and chimneys were shattered over a large area.—Reuter.

TIFLIS, Later.—It now appears that the bomb outrage was connected with an attack on a Treasury van which was escorted by five Cossacks and two other soldiers.

The van, which was proceeding from the Post Office to the local branch of the Imperial Bank, contained a sum of £25,000. When the van reached the Erivan-square, a bomb was thrown, and an appalling explosion ensued, striking terror among the large number of people in the square, scattering them in all directions.

In order to increase the confusion the robbers threw bomb after bomb, which burst with deafening reports. Two employees of the Imperial Bank were hurled out of the van, which, together with the bags containing the money, disappeared without leaving any trace behind it.

The number of victims has not yet been ascertained, but it is known that two soldiers were killed and that the robbers got away with the sum of £25,000.—Reuter.







نظّم ستالين عملية السطو على مصرف تيفليس ـ الجريمة والوحشية التي تبتغي الربح ـ وقد تصدّرت عناوين الصحف العالمية (أعلاه على اليمين). بدت الجريمة المثلى، لكن الشرطة الأوروبية طاردت أفراد العصابة والمال. والنتيجة دمّرت ستالين تقريباً. أوقف كامو المتهوّر المجرم ورئيس السـاطين على المصارف في برلين (أعلاه). كان النبيل الفقير سيرجو أوردزهونيكيدزي (إلى اليسار)، الذي أصبح لاحقاً حليف الكريملين الموثوق، لكن المحكوم، تلميذ ستالين.






باكو، مدينة الظفرة النفطية التي يغيب عنها القانون. مليئة بأصحاب الملايين المتفاخرين، حيث عانق ستالين العصابات واختلاس الأموال والقرصنة لتمويل لينين.
نبع النفط في باكو (أعلاه في اليسار) وحقول النفط الجهنمية (ادناه الى اليسار).
هذا أعلاه الى اليمين، كان قصر ناغييف: وهو زعيم صنع نفسه بنفسه، يمكن انه اختطف نزولا عند أوامر ستالين.
ادناه الي اليمين: بارون النفط في باكو موخناروف (مع زوجته) الذي امر ستالين بأن يتعرض للقتال أو يقتل.

-







كانو، زوجة ستالين، توفيت بشكل رهيب: انفطر قلبه (أعلاه، الى اقصى اليمين). لامته العائلة: قال ان حنانه مات معها. رمى نفسه على تابوتها. ثم بالكاد هرب من الاعتقال في مأتمها، راكضا الى جدار المدفن. بعد كانو استمتع ستالين بعده علاقات غرامية مع؛ على سبيل المثال ألفانسي تالاكفادزي (الى اليسار) لوديا ستال (الى اليمين). البلشفية الروسية المتمرسة التي قد تكون الهمته اسمه الشهير.

–

ازدهر ستالين في العالم الباطني، المتسارع، داخل السجن وخارجه، مُطارداً الجواسيس في حزبه الخاص وهارباً بشكل متكرر من المنافي السيبيرية. هنا في صور فوتوغرافية لدى الشرطة: أعلاه إلى اليسار، ستالين في باكو في العام 1908، وأدناه في «درك اكو» في العام 1910: يده اليسرى الأقصر واضحة. كانت الازمان أصعب: يبدو جلياً هزيلاً.







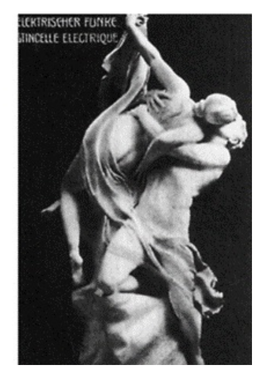
1910 -1917

المحتالان القوقازيان: ستالين (الى اليمين) مع صديقة المفضّل سورين سبانداريان، وهو مستهتر ارمني مثقف وبلشفي لا يرحم، وحليف في باكو، حيث قيل عن سبانداريان إنه أب لنصف الأولاد دون الثالثة من العمر. وهنا التقيا في سيبيريا في العام 1915.

-







تعددت علاقات ستالين في المنفى، وأغوى النساء وخطط لعمليات الهروب.

في اعلى اليسار؛ العلاقة السعيدة مع فتاه المدرسة الجذابة بيلاغييا (الملقبة الفاتنة من قبل الاوخرانا).

أرسل بطاقاته البريدية المليئة بالشغف مع صور لثنائي يمارس الحب (اعلى اليمين).

في أسفل اليسار؛ البطاقة البريدية التي أرسلها الى حبية أخرى، المعلمة تاتيانا سوخوفا.



صاحبة الأرض والخليلة ماريا كوزاكوفا في سن متقدم في الخمسينات مع قسطنطين، نجلها من ستالين وطفلة.

_



ستالين يتم توقيفة مجددًا عام 1911، بعد ان غدا من ضمن الحزب البولشفي

_



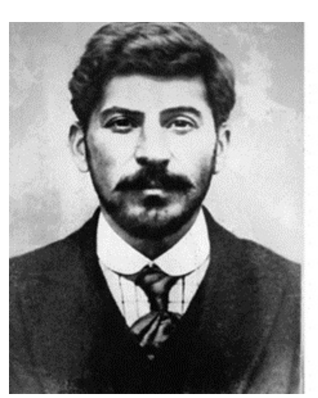
إلى اليسار: فيينا 1913- ستاليين، وهتلر، تروتسكي، وتيتو يقطنون المدينة نفسها. وفي الصورة مبنى منزل ستالين الفخم الذي أصبح اليوم فندقا يحمل لافتة باسم ستاليين.

إلى اليمين: كراكاو 1912- 1913: يوم كان ستالين يقطن في منزل لينين.

–

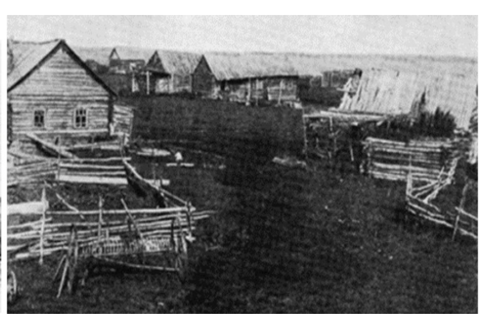


الخيانة في العام 1913: كان رومان مالينوفسكي، المغتصب واللص السابق والنجم البلشفي، العميل المزدوج العالي الاجر لدى الاوخرانا. لم يعتبر لا ستالين ولا لينين خائنًا. لكن رتب توقيف ستالين بدفعة الى الذهاب الى حفل جمع التبرعات.

تاتيانا سلافاتينسكايا، خليلة ستالين، كان على موعد معها عندما تمت خيانته. حاول الهرب متنكرًا.

رفض ستالين، العضو في اللجنة المركزية؛ الذهاب الى حفلة كوكتيل، لكن مالينوفسكي أقنعه، وأعاره ربطة العنق الحريرية هذه. وكان يلبسها عندما قُبض عليه.

مسرحية الجنس في القطب الشمالي.

كان الهروب من كوريكا (الصورة على اليمين) في المنطقة القطبية الشمالية مستحيلا.

أحب ستالين الصيد والعيش مع رجال قبيلة اوستياك وبناتهم (الصورة على اليسار).

–





في العام 1914، واسى نفسه بإغواء ليديا بيريبريغينا البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما، والتي فاجأ معها رجل الشرطة المحلي، وطاردة في ارجاء القرية بيف المبارزة.

الى اليمين ليديا المتوسطة العمر بعد الحرب العالمية الثانية. على اليسار ستالين ونجلة ليديا غير الشرعي ألكسندر.

_



الصيف السيبيري في العام 1915: التقى المنقبون البلشفيون للشرب والتنزه والاكل في الهواء الطلق، والقيام بمحاكمة رفاقهم. في الخلف ستالين في الفيدورا (الثالث من اليسار) بين سبانداريان في قبعة قماش (الثاني من اليسار)، وكامينيف بالشاربين (الرابع من اليسار) بينما سفيردلوف في القميص الأبيض والنظارات هو الثالث من اليمين. شريكة سبانداريان فيرا شفيتزر تجلس في الامام. والطفل هو نجل سفيردلوف، اندري، الذي أصبح في المستقبل معذباً يعمل في الشرطة السرية لدى ستالين.

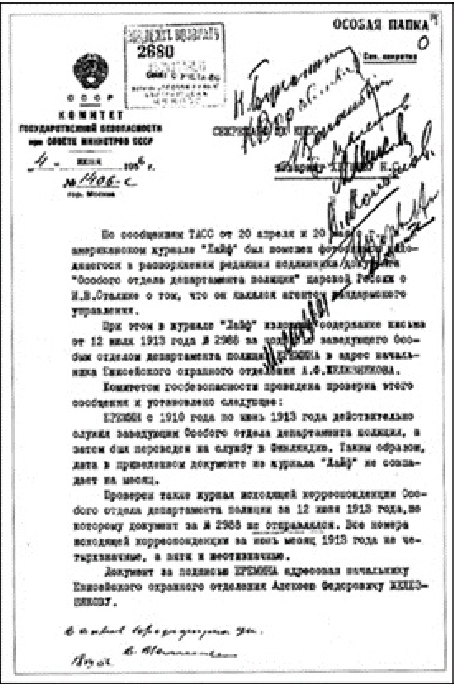
 

التقى ستالين بمعظم كبار السوفيات خلال شبابه، ولم ينس ابدًا أي استخفاف او شجار. وفي الثلاثينات، أطلق العنان للرعب الكبير لتصفية العديد منهم، وقتل العديد من رفاقه، لأنه لابد من غربلة الصورة.

أولا في العام 1936، أطلق الرصاص على كامينيف ومُحي مكانه. الى جوار ستالين (الصورة الى اليسار). في العاميين 1937و 1938 امر ستالين بإطلاق النار على حوالي مليون ونص مليون نسمة. واورديت المجموعة الظاهرة في الصورة بطريقة وحشية ايضاً. واختفى خمسة اشخاص اخرون (الصورة الى اليمين).



كانت فيرا شفيتزر حبيبة سباندريان. وبعد وفاته، انتقلت للعيش مع ستالين. عند سقوط القيصر، استقلا القطار معا الى بتروغراد.



ОСОБАЯ ПАПКА

Сов. секретно

СССР
КОМИТЕТ
ГОСУДАРСТВЕННОЙ БЕЗОПАСНОСТИ
при СОВЕТЕ МИНИСТРОВ СССР

4 июля 1956 г.
№ 1406-с
гор. Москва

СЕКРЕТАРЮ ЦК КПСС
товарищу [illegible] Н.С.

По сообщениям ТАСС от 20 апреля и 20 [illegible] американском журнале "Лайф" был помещен фото[illegible] дящегося в распоряжении редакции подлинника [illegible] "Особого отдела департамента полиции" царской России о И.В.Сталине о том, что он являлся агентом [illegible] управления.

При этом в журнале "Лайф" изло[illegible] содержание письма от 12 июля 1913 года № 2988 за [illegible] заведующего Особым отделом департамента полиции [illegible] в адрес начальника Енисейского охранного отделения А.Ф.ЖЕЛЕЗНИКОВА.

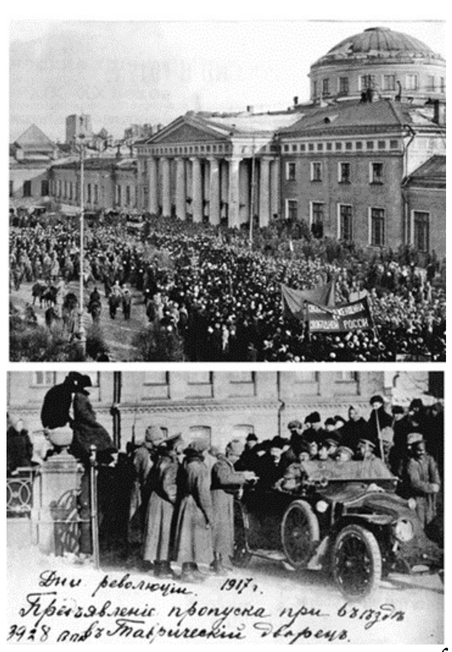
Комитетом госбезопасности проведена проверка этого сообщения и установлено следующее:

ЕРЕМИН с 1910 года по июнь 1913 года действительно служил заведующим Особого отдела департамента полиции, а затем был переведен на службу в Финляндию. Таким образом, дата в приведенном документе из журнала "Лайф" не совпадает на месяц.

Проверен также журнал исходящей корреспонденции Особого отдела департамента полиции за 12 июля 1913 года, по которому документ за № 2988 не отправлялся. Все номера исходящей корреспонденции за июль месяц 1913 года не четырехзначные, а пяти и шестизначные.

Документ за подписью ЕРЕМИНА адресован начальнику Енисейского охранного отделения Алексею Федоровичу ЖЕЛЕЗНЯКОВУ.

بدأ إغواء ستالين ليديا بيربيريغينا البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما؛ من باب الإساءة أكثر منه الأسطورة، وفي العام 1996، امر خروتشيف رئيس اللجنة لامن الدولة، اكي جي بي؛ بالبحث: هذه مذكرته السرية جدا التي تثبت كل شيء، بتوقيع خروتشيف وفوروشيلوف وبوليتيورو.



ثورة شباط/ فبراير- أذار/مارس 1917: عندما وصل ستالين من سيبيريا في بتروغراد، سار فورا بحماسة الى قصر توريدا لبوتمكين (أعلاه)، المركز السياسي الفوضوي والمضطرب، ومرتع السوفيات والدوما والحكومة، والجنود الناهبين (أدناه)

١٩١٧ ـ ١٩١٨



قضى ستالين ولينين ربيع العام 1917 يعملان في المقر الرئيسي البلشفي، ذلك القصر الحديث المشهور برداءة سمعته لكسيشينسكايا، عشيقة رومانوف وباليرينا، وهو المكان الذي خاطب منه لينين الجماهير في نيسان/أبريل.

_



حاول لينين، بعد مطالبته بثورة عاجلة، كبت المتهورين البلشفيين، لكن أيام انقلاب تموز المخفق من قبل ستالين كادت تفقدهم الثورة.







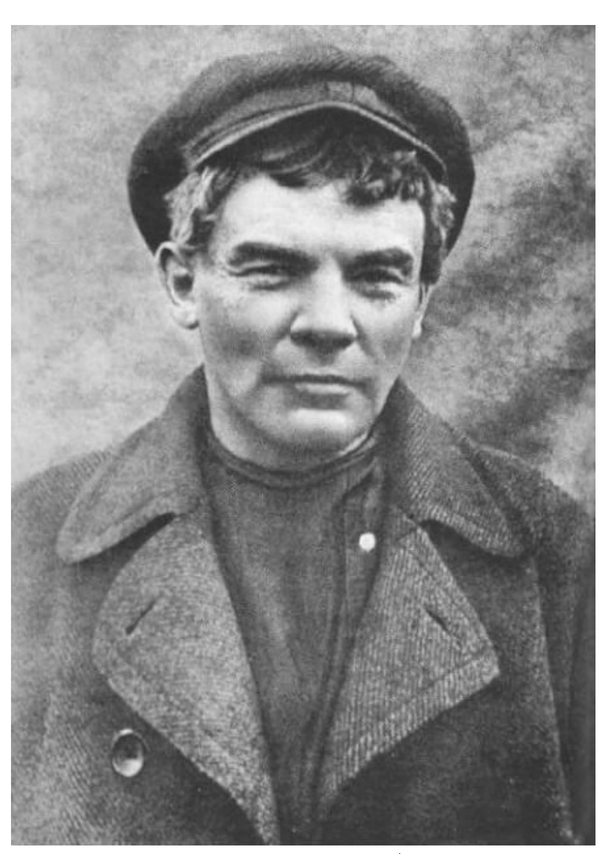
الحب في الثورة: كان ستالين قد عرف ناديا اليليفا منذ ان كانت طفلة، (في الاعلى يسارا)، لكن عندما التقيا مجددا في صيف 1917، كانت في السادسة عشرة من عمرها فتاة في المدرسة (في الأعلى يمينا وفي الأسفل). كانت تبجل ذلك الجورجي البطل الذي أمتعها بالدعابات والقراءات والسخريات.





قضى ستالين الصيف مختبئًا في شقة عائلة أليليفا، مبجلاً من قبل ناديا.

في الأعلى: سرير ستالين مع مرآه حلاقة استخدمها من اجل لينين. كان بإمكان ستالين من سريرة رؤية غرفة نوم ناديا، من خلال باب مجاور (في الأعلى) وقد وقعا في الحب خلال ذلك الصيف.



وضع لينين، وهو في خطر حقيقي، سلامته بين يدي ستالين، خبيرة في العالم الخفي، الذي نقلة الى شقة عائلة أليليفا. وحلق له ووضع له الشعر المستعار، ثم هرّبه إلى فنلندا.

_



الثورة: مع سيطرة القوات البلشفية على قصر وينتر، شكّل لينين، المنهك الذي فقد صبره، وتروتسكي وستالين، حكومة جديدة في مقرهم الرئيسي، في سمولني، مدرسة الفتيات سايقا التي ترعاها تسارينا الكسيندرا. وبعد ذلك، نام تروتسكي ولينين على الأرض فوق الصحف، نام ستالين على الكرسي. قبلة لوتارتشارسكاي، مفوض الشعب للشؤون الثقافية الجديد، على جهته، فأستيقظ ستالين ضاحكا.

-

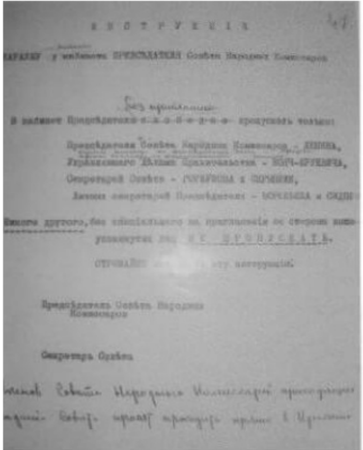


أطلق ستالين على حكومته (مجلس مفوضي الشعب): وهنا، لينين (في المركز) كرئيس للحكومة، ستالين (في الأعلى يسارا)، تروتسكي (الصف الثالث يمينا)، وبين الاخرين، لوتارتشارسكاي (الصف الثاني يمينا).

أطلق النار على الاثنين الاخرين في المحاكمات الصورية التي امر بها ستالين.

–





ИНСТРУКЦІЯ

КАРАУЛУ у кабинета ПРЕДСѢДАТЕЛЯ Совѣта Народных Комиссаров

В кабинет Предсѣдателя [illegible] пропускать только:

Предсѣдателя Совѣта Народных Комиссаров – ЛЕНИНА,

Управляющего Дѣлами [illegible] – БОНЧ-БРУЕВИЧА,

Секретарей Совѣта – [illegible],

[illegible]

Никого другого, без [illegible] НЕ ПРОПУСКАТЬ.

[illegible] эту инструкцію.

Предсѣдатель Совѣта Народных Комиссаров

Секретарь Совѣта

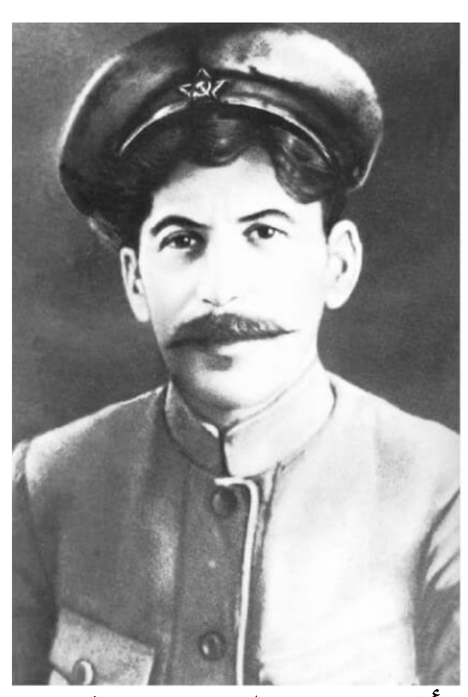
[illegible]

أصبح ستالين على الفور، مع تروتسكى، مثير المشاكل المستمر لدى لينين.
فى الاجتماع الأول للحكومة الجديدة (الى الأعلى)، يحوم ستالين المضطرب الى جانب لينين مباشرة.
وفى الأسفل: قائمة بأوامر لينين الى حرّاسه بشأن الدخول الى مكتبة. وضحت كتابات لينين بعد السطر الثالث بأن ستالين وتروتسكى وحدهما يمكنهما الدخول بدون موعد.



السلطة أخيراً. بعد ثماني عشرة سنة في التخفي، أصبح جوزيف دجوغشفيلي ـ ستالين، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً، مفوض الشعب لشؤون القوميات.

بلشفية تطالب بالمساواة بين الجنسين، ومتحررة جنسياً، ألكسندرا كولونتاي وعشيقها الشاب، البحار القوي، بافيل ديبينكو. في اجتماع الحكومة الأول، مزح ستالين مع تروتسكي عن همسهم العاطفي خلف الحاجز، وبخه تروتسكي، فلم يُجريا مثل هذا النوع من المحادثات بعد ذلك إطلاقاً.



ستالين يعلن الحرب: أثناء نضال حكومة ستالين للنجاة من حرب مدنية بدائية وإرهاب وحشي، ازدهرت حياة ستالين. أصبحت وحشية جنون الاضطهاد عنده السمة الحاكمة للإمبراطورية السوفياتية.

-

الفهرس:

ملاحظة: انظر جدول المصطلحات أدناه، بخصوص الملفات التي أُخذت منها المعلومات عن ستالين:

الملفات/المتاحف

المراجع

البوم صور

Notes

[←1]

تم وضع ارقام الهوامش التي وردت باللغة العربية بين قوسين معكوفين [...]، اما الهوامش التي وردت باللغة الإنجليزية والتي تم استخراجها من النسخة الإنجليزية للكتاب؛ فتركت بدون اقواس ليسهل على القارئ التفرقة بينهم. (فريق الكتب النادرة).

[←2]

Historians will find out: A. Mgeladze, Stalin kakim ya ego znal (henceforth Mgeladze), p. 240-1. GRASPI 558. 11. 787. 2 Stalin to Zhdanov and Pospelov 24 Sept. 1940-ban this book. All children alike: E. Radzinsky, Stalin, p. 11. All childhoods are the same, burn this: D. Volkogonov, Stalin: Triumph and Tragedy, p. 241. Boris Ilizarov, Tainaya zhizn Stalina (heneceforth Ilizarov), p. ..99

[←3]

This account of the Tiflis expropriation is based on the many sources listed in this note. On her role and that of others: GF IML 8.2.2.64, Alexandra Darakhvelidze-Margvelashvili, recorded 21 Feb. 1959. On his role, on cowardly comrades, who did what: GF IML 8.2.1.624.1–26, Bachua Kupriashvili. Kote Tsintsadze, Rogor vibrd-zolot proletariatis diktaturistvis:chemimogonebani (henceforth Tsintsadze), pp. 40–49. GF IML 8.5.384.3–10, Autobiographical notes by Kamo; GF IML 8.5.380.5–6, Personal File and Questionnaire, filled in by Kamo on day of his death. GF IML 8.2.1.50.239–55, D. A. Khutulashvili (sister of Kamo). The gang; Eliso hides; Stalin head of that organization: Archives of the Hoover Institution of War, Revolution and Peace, Stanford (henceforth Stanford), Boris Nikolaevsky Collection (henceforth Nikolaevsky), box 207, folder 207–10, letter from Tatiana Vulikh; folder 207–11. Tiflis Committee approves robbery: Razhden Arsenidze, interviews nos. 1–3, 103–4, Nikolaevsky box 667, series 279, folder 4–5, Inter-University .Project on History of Menshevik Movement

On Okhrana investigation/suspicions of coming robbery in Caucasus; 14 and 18 Jan. 1908: Stanford,

Paris Okhrana archives, box 209, folder XXB.2, letter on suspects, 13 Feb. 1907. Arrest of Kamo and full biography, 31 Oct./13 Nov. and 27/14 Nov. 1908; and 14 Nov./21 Oct. 1907: Suspect in Tiflis expropriation—Josef/Soso Davrichewy: Stanford, Okhrana box 209, .folder XXB.1

Letter, R. Arsenidze to Boris Nikolaevsky, 8 Jan. 1957, on investigation by Silvester Jibladze and fights with Menshevik about Kvirili expropriation money: .Nikolaevsky box 472, folder 2

Grigory Uratadze, Vospominaniya (henceforth Uratadze), pp. 163–66—Stalin, the main financier of the Bolshevik centre, did not participate personally; .pp. 71–72 on giving expro money to Shaumian

On Kamo’s role: I. M. Dubinsky-Mukhadze, Kamo, pp. 71–84; David Shub, “Kamo.” Obeying Stalin from Gendarme report, R. Imnaishvili, Kamo, section 1, pp. 52–55; the expropriation, p. 59; betrayal of Kamo by Arsen Karsidze, p. 34. Account of expropriation as told by Kamo to his wife: S. F. Medvedeva-Ter-Petrossian, “Tovarish Kamo.” Jacques Baynac, Kamo, pp. 90–100. Anna Geifman, Thou Shalt Kill, pp. 112–16,212 and 299, including Kamo killing for Stalin. On psychology of Kamo and terrorists: “Introduction” in Anna Geifman (ed.), Russia under the Last Tsar, pp. 1–14. Jonathan Daly, The Watchful State, p. 67. Radzinsky, Stalin, p.

61. Robert C. Williams, The Other Bolsheviks .(henceforth Williams), pp. 113–15

Pretty girls, Stalin's iron discipline: Khariton Chavichvili, Patrie, prison, exil, p. 145. Lenin under attack from Mensheviks: Khariton Chavichvili, Révolutionnaires russes à Genève en 1908, pp. 80–83. Stalin and Shaumian in London, permission for expropriation, morning meeting, division of spoils: G. S. Akopian, Stepan Shaumian, pp. 44, 64. Vahtang Guruli, Svodnaya Gruzia no. 152 (225), 24 Sept. 1994, p. 4:SR theory and also Kamo accompanied by daughter of deputy police chief of Shora-pani. On Okhrana informer reports that SRs conducted Tiflis expropriation and money stolen by Kamo, Tiflis Okhrana agents "N" and "Bolshaya" on 2 July and 15 July 1907: Vahtang Guruli, Josef Stalin Materials for the Biography, pp. 9–11, in Central Georgian State .Historical Archive 95.1.82.15, 21, 23

Lenin and Krasin create the "Technical Group," bombs and money: L. B. Krasin, "Bolshevistskaya .partiianaya tekhnika," pp. 8–13

Lenin and Krasin fight for the money under Menshevik attack: Boris Niko laevsky, "Bolshevistskiy Tsentre," Rodina no. 2, 1992, pp. 33–35, and no. 5, pp. 25–31. Kamo on train with girl, policeman's daughter: Baron Bibineishvili, Za chetvet veka

.(henceforth Bibineishvili), pp. 92–94

Memoir of boys working for Stalin and other comrades by D. Chachanidze: GF IML 8.1.2.4. Joint operations and assassinations with Anarchists and no mention of arrest at time of expropriation: Tsintsadze, p. 111. Kamo confides in Davrichewy that Stalin in charge, viceroy furious, Stalin’s operations; Stalin opens era of the holdup, Gori connection, Kamo kills for Stalin: Josef Davrichewy, Ah! Ce qu’on rigolait bien avec mon copain Staline (henceforth Davrichewy), pp. 237–39,174–77, 188–89. Stalin in Tiflis engaged in preparations, in Baku by 17 June, quote from L. D. Trotsky, Stalin on roof by G. Besedovsky, expulsion from Caucasus Regional Committee but supported by Lenin and CC: Alexander Ostrovsky, Kto stoyal za spinoi Stalina? (henceforth Ostrovsky), pp. 259–62. The other insider in bank/mail, G. Kasradze introduced to Kamo and Kasradze later interrogated by N. Jordania and admitted role in expropriation thanks to .Stalin: GF IML 8.2.1.22

That day on Yerevan Square: Roy Stanley De Lon, Stalin and Social Democracy, 1905–1922: The Political Diaries of David A. Sagirashvili (henceforth Sagirashvili), pp. 183–86. Candide Charkviani, “Memoirs,” p. 15, on Kamo and Kote. Robert Service, Stalin, p. 163. Okhrana on Kamo spending all July with

Lenin at dacha: Edward Ellis Smith, The Young Stalin (henceforth Smith), pp. 200–206. Boris Souvarine, Staline, pp. 93–110. Essad Bey, Stalin (henceforth Essad Bey), p. 82. L. D. Trotsky, Stalin, pp. 96–100. Miklos Kun, Stalin: An Unknown Portrait (henceforth .Kun), pp. 73–75

On Tiflis: Stephen F. Jones, Socialism in Georgian Colors (henceforth Jones), pp. 160–67. Razhden Arsenidze, "Iz vospominaniya o Staline" (henceforth Arsenidze). Boris Bazhanov, Stalin, p. 107. A. V. Baikaloff, I Knew Stalin, p. 20. Arrest of Djugashvili, known as teacher of workers and said to be always holding himself apart: GMIKA 116, Report of Chief of Kutaisi Province Gendarmerie to the Police Department, 9 Apr. 1902. Armenian Review no. 2 (3), 7 Sept. 1949, p. 114. Martov libel case: RGASPI 558.2.42. Kun, pp. 81–84; Pravda, 1 April 1918; Vperod, 31 March 1918. Stalin's role: interviews with Voznesensky, 20 Sept. 1907, and 10 June 1908, and with Comrade Koba (J. Stalin), 19 Mar. 1908: RGASPI 332.1.53: 15 (2) O2. 23 (10), 1905–1910, TSL Organized Committee to Investigate Tiflis Expropriation. Stalin on the bank robbery: GDMS 87.1955–368.11–13, Alexandra "Sashiko" Svanidze-Monoselidze: Kamo's sword. The other inside man: GF IML 8.2.1.54.214–15, Kote Charkviani, in which the

memoirist, recording his memoirs in 1936, specifies how Stalin and Kamo groomed Gigo Kasradze, who was the brother-in-law of the priest's son Kote Charkviani. International newspapers: Moskovskie Vedomosti, 14, 15, 16, 17, 21 June 1907. Isari, 14 July 1907. Le Temps, 27 June 1907. Daily Mirror, 27 June .1907. The Times, 27 and 29 June 1907

[←4]

في العام 1903، انقسم حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي إلى فصيلين: البولشفيين في ظل لينين، والمنشفيين في ظل مارتوف. وكانا في صراع في ما بينهما، لكن بقيا جزءًا من الحزب نفسه حتى العام 1912 عندما انقسما رسميًا، ولم يتوحّدا بعد أبدًا. ونظّم لينين (وقاد) عصابة سرية من ثلاثة رجال تسمى المركز البولشفي، لجمع المال بالسطو على المصارف والعمليات الإجرامية المنظّمة.

[←5]

Berlin: Ostrovsky, pp. 256–59. I. V. Stalin, Sochineniya, 13:122 Stalin to Ludwig; also Smith, pp. 198–99. .Trotsky, Stalin, pp. 96–107

[←6]

Arsenidze, p. 220—young men followed Stalin. GF IML 8.5.384.3–10, Autobiographical notes by Kamo. Stalin's magnetism by Kamo's sister Dzhavaira Khutulashvili: Kun, p. 75. Kamo's face: Sergei Alliluyev and Anna Alliluyeva, Alliluyev Memoirs, pp. 220–21. Role of girls, .etc.: GF IML 8.2.1.624.1–26, Bachua Kupriashvili

[←7]

GDMS 87.1955–368.11–13: Alexandra “Sashiko” .Svanidze-Monoselidze

[←8]

Davrichewy, pp. 174–77, 188–89, 237–39. Charkviani, ."Memoirs," p. 15—Kamo truly amazing

[←9]

المسافات في هذه القرية الريفية صغيرة جدًا. معهد اللاهوت ومنزل عائلة ستالين وقصر فايسروي والمصرف، لا تبعد سوى دقيقتين سيرًا على الأقدام، عن مكان السطو على المصرف. لا تزال معظم المباني في باحة يريفان (لاحقًا بيريا، ثم لينين، والآن الحرية)، وهي مسرح العملية هنا، قائمة: حانة تيليبوشوري (الآن خالية من أي أمراء أو لصوص)، معهد اللاهوت (الآن أصبح متحفًا)، قاعة المدينة والمركز الرئيسي للقيادة القوقازية، بنك الدولة وقصر فايسروي (حيث عاشت والدة ستالين طويلًا) تغيّر كلاهما. ولا أثر لكارافانسيري وحدائق بوشكين ومستودع أحذية إديلخانوف (حيث عمل ستالين) والبازارات.

[←10]

On the balcony as the bombs explode: GDMS 87.1955–.368.11–13, Alexandra "Sashiko" Svanidze-Monoselidze

[←11]

ما كان ستالين ليشكر آل سفانيدزي على صراحتهم. كانوا عائلته المقربة طوال ثلاثين عامًا. توفيت شقيقة زوجته ساشيكو، التي تركت مذكراتها في العام 1934، بمرض السرطان في العام 1936، وإلا لكانت لقيت مصير شقيقتها ماريكو وشقيقها أليوشا وزوجته. تُستخدم مذكرات ساشيكو سفانيدزي هنا للمرة الأولى، وتُستعمل أيضًا مذكرات بعض الذين سطوا على المصرف، مثلًا كامو وباشوا كوبرياشفيلي وألكسندرا داراخفيليدزي، التي تُركت غير منشورة، أو غير كاملة للمرة الأولى.

[←12]

Kun, p. 69, quoting Shaumian’s son Levan—interview with Kun. Dirty business: Stalin to Yuri Zhdanov, see S. Montefiore, Stalin: The Court of the Red Tsar .(henceforth Montefiore), p. 507

[←13]

Stalin's knowledge of the bank robbery before and after: GDMS 87.1955–368.11–13, Alexandra "Sashiko" Svanidze-Monoselidze. Souvarine, Staline, p. 100, quoting Tsintsadze. Charkviani, "Memoirs"—the fanatic Marxist. Minadora Ordzhonikidze-Toroshelidze, "Memoirs"—"man in grey," possibly a reference to .Leonid Andreyev's play Life of Man

[←14]
.Davrichewy, pp. 237–39, 174–77, 188–89

[←15]

RGASPI 558.4.647—Stalin carries Mauser: see Kun, p. 117. Arsenidze interviews, Nikolaevsky box 667, series .279, folder 4–5. See chapter 18, note 1

[←16]

RGASPI 332.1.53:15 (2) O2. 23 (10), 1905–1910, TSK Organized Committee to Investigate Tiflis Expropriation. GDMS 87.1955–368.11–13: Alexandra “Sashiko” Svanidze-Monoselidze. GF IML 8.2.1.54.214–15, Kote Charkviani. GF IML 8.2.1.22, memoirs of G. Kasradze quoted by Ostrovsky, pp. 259–67. Razhden Arsenidze, interviews nos. 1–3, 103–4, Nikolaevsky box 667, series 279, folder 4–5.GF IML 8.2.1.624.1–26, .Bachua Kupriashvili

[←17]

GF IML 8.2.1.624.1–26, Bachua Kupriashvili. Trotsky, Stalin, p. 104, quoting Bessedovsky on Sumbatov. Baikaloff, I Knew Stalin, p. 20. Radzinsky, Stalin, p. 61, quotes P. A. Pavlenko. Arsenidze, interviews nos. 1–3, .103–4, Nikolaevsky box 667, series 279, folder 4–5

[←18]

Report of Chief of Kutaisi Gendarmerie Maj.-Gen. Shopchansky: Batumskaya Demonstratsia 1902 goda .(henceforth Batumskaya), pp. 235–36

[←19]

Handwritten account by Raphael Bagratuni of the memoirs of his relation the Okhrana officer Alexander Bagratuni/Bagratov sent to Isaac Don Levine: thanks to Roman Brackman private collection. This source is highly dubious yet its claims are well informed on details that have only recently surfaced in the Okhrana files in Tiflis and Stanford, such as the fact that the Okhrana expected the expropriation earlier in the year and the involvement of the SRs of Tiflis. His reference to a mansion perhaps has the same source as the Trotsky-Bessedovsky tale of Prince Sumbatov’s house. Tbilisi folklore: Dr. Peter Mamradze interview on stories .of Kamo’s drunken claims in early 1920s

[←20]

Arsenidze, interviews nos. 1–3, 103–4, Nikolaevsky box .667, series 279, folder 4–5

[←21]

GF IML 8.2.1.624.1–26, Bachua Kupriashvili. Dubinsky-Mukhadze, Kamo, pp. 71–84. GF IML 8.2.1.5. RGASPI 558.6.658; Ostrovsky, p. 454; Niall Ferguson, The World's Banker: History of the House of Rothschild, pp. 1034–36, Appendix One, "Prices and Purchasing Power." A scholar of Imperial Russia, Greg King, simply converts Romanov-era roubles into today's U.S.$ by multiplying by ten, which turns 341,000 roubles into $3.4 million (one halves that dollar figure to convert into today's pounds sterling). None of these figures, however, gives the real value of the rouble in 1907; see Note on "Money." Contemporaries reckoned that the Emperor of Russia's private fortune of land, art, palaces, jewels and mineral wealth was about 14 million roubles. In today's money, that is only about £70 million ($140 million). One simply has to conclude that the bank robbery scored a very substantial amount of money. Greg King's The Court of the Last Tsar, pp. 231–39. GDMS 87.1955–368.11–13: Alexandra "Sashiko" Svanidze-Monoselidze. Capt. Zubov bribed: .Ostrovsky, pp. 545–47

[←22]

Nadezhda Krupskaya, Memoirs of Lenin (henceforth Krupskaya), pp. 40 and 151–52. Radzinsky, Alexander II, p. 227, on Bakunin. Frank Owen, Three Dictators, pp. .114–15

[←23]

في العشرينيات، قبل أن يصبح ديكتاتورًا، ذهب ستالين بعيدًا لإخفاء دوره في مصادرة الملكيات. وفي العامين 923 و1924، نشر رئيس العصابة، كوت تزينتسادزي، الذي كان في ذلك الوقت معارضًا لستالين، مذكراته في صحيفة جورجية صغيرة. وأُعيد نشرها في العام 1927، لكن نُزعت لاحقًا الصفحات المتعلقة بعلاقة ستالين بالاغتيالات والسرقات، وهي عملية استمرت في الثلاثينيات تحت حكم بيريا. واليوم يصعب كثيرًا إيجادها.

[←24]

Uratadze, p. 234. Kun, p. 127. Davrichewy, pp. 237–39, 174–77, 188–89. GDMS 87.1955–368.11–13: Alexandra "Sashiko" Svanidze Monoselidze. Owen, Three Dictators, pp. 114–15. GF IML 8.2.1.624.1–26. Dubinsky-Mukhadze, Kamo, pp. 71–84. Akopian, Shaumian, p. 64. GF IML 8.2.1.5. RGASPI 558.6.658. .Ostrovsky, p. 454

[←25]

Beso-Keke marriage. The main source of this chapter, unless otherwise stated, is Keke herself in her memoirs, .GF IML 8. 2. 15

E. G. Djugashvhili, recorded on 23, 25, 27 Aug. 2-15 1935 by L. Kasradze (henceforth Keke). Marriage records: GF IML 8. 5. 213 and RGASPI 558. 4. 1. 1 Zaria Vostoka 8 Jun. 1937 and RGASPI 558. 4. 665 M. K. Abramidze-Tsikhatatrishvili. Keke chestnut hair, slender, large eyes: GF IML 8. 2. 1. 1. 143-6 M. K. Abramidze-Tsikhatatrishvili. Keke pretty, Beso runt: Davrichewy, p. 26. Beso's originality: GF IML 8. 2. 1. 48 N. Tlashadze. Gori weddings: D. Suliashvili, .Uchenichesky gody (henceforth Suliashvili), p. 24

Sources quoted from: V. Kaminsky and I. Vereshchagin, `Detstvo i yunost vozhdya' (henceforth Kaminsky-Vereshchagin). The home: V. Vishnevsky, `Domik v .Gori', Zaria Vostoka 27 Dec. 1937, pp. 27-8

Georgian behaviour ritualized: D. Rayfield, Stalin and the Hangmen, p. 15. Singing on way to market: Kun, p. .227

[←26]

ظلت المذكرات في أرشيف الحزب الشيوعي الجورجي، منسية طوال سبعين سنة. ولم تُستخدم قط في عبادة ستالين: يبدو أن ستالين لم يقرأها أو يعلم بوجودها حتى، لأنه، بحسب علم الكاتب، لم ترسل إلى أرشيفات ستالين في موسكو. لم يرد أن ينشر آراء والدته. وعندما أجرت مجلة «هيلو» في العام 1935 في الصحافة السوفياتية مقابلة مع كيكي، أنّب ستالين بغضب المكتب السياسي: «أطلب منكم منع الرعاع الماديين الذين تسللوا إلى صحافتنا من نشر أي «مقابلات» أخرى مع والدتي وكل الإعلانات الأخرى كافة. أطلب منكم إعفائي من الإثارة المزعجة لهؤلاء الأنذال!». لا بد من أن كيكي، صاحبة الإرداة الصلبة دائمًا وغير المتأثرة بسلطة ولدها، قد سجّلتها سرًا وتحدّته بين 23 و27 آب/أغسطس 1935 قبل وفاتها بقليل.

[←27]

كان الأوسيتيون من سكان الجبال شبه الوثنيين الذين يعيشون عند الحدود الشمالية لجورجيا، وضمّ بعضهم إلى الجورجيين، على الرغم من أن معظمهم بقي منفصلًا بكل فخر: بين العام 1991 و1993، حارب الأوسيتيون الجنوبيون الجورجيين، وهم الآن مستقلّون. وعندما دخل والد ستالين الذي يحتضر المستشفى، كان لا يزال مسجلًا كأوسيتي. كان أعداء ستالين، من تروتسكي إلى الشاعر ماندلستام في قصائده الشهيرة، يستمتعون بمناداته ب «الأوسيتي» لأن الجورجيين نظروا إلى الأوسيتيين كبربر ووقحين، واعتبروهم في بداية القرن التاسع عشر، غير مسيحيين. بدا دجوغاشفيلي بالتأكيد كما لو كانت له جذور أوسيتية: أي «أنه ابن دجوغا» في جورجيا. تقول والدة ستالين إن بيسو قال لها إن الاسم يرتكز على دجوغي الجورجية أو ذات الجذر «جماعة»، لأنهم كانوا من الجماعة، ويقودهم جيري من قبل الأوسيتيين الغزاة. فقدت وثاقة الموضوع لأنه، في حين ولادة ستالين، تحوّل أهل دجوغاشفيلي إلى جورجيين. كتب ستالين بذاته عن الموضوع: «ما الذي يجب فعله مع الأوسيتيين... الذين انضموا إلى الجورجيين؟».

[←28]

Ossetia: Kun, p. 19. Genealogichesky Zhurnal no. 1 .2001, pp. 39-40. Stalin, Works, 2: 363

[←29]

Beso's own account of his origins: Keke, pp. 2-15. Davrichewy, p. 26. The best review of the evidence is .by Ostrovsky, pp. 76-82

Zaza: M. Lobanov, Stalin: v vospominaniyakh sovremennikov i dokumentov epokhi (henceforth Lobanov), p. 13. Beso death, registered as `Ossetian': .GF IML 8. 14. 160. 1-8

[←30]

Geladze family: Ostrovsky, pp. 82-4. Keke, pp. 2-15. Kaminsky-Vereshchagin, pp. 22-101, especially G. I. Elisabedashvili (p. 25) and Maria Abramidze-.Tsikhatatrishvili

[←31]

Davrichewy, p. 26. GF IML 8. 2. 1. 48 N. Tlashadze. GF IML 8. 2. 1. 49. 185. 210 Kote Khakhanashvili. GF IML 8. .2. 1. 9. Ivan Geldiashvili

[←32]

اخترع ستالين لاحقًا الكثير من الأمور عن حياته: كان تاريخ ميلاده الرسمي في 21 كانون الأول/ديسمبر 1879، بعد عام تقريبًا، تاريخًا غير صحيح. وقد التزم عادة بتاريخ 6 كانون الأول/ديسمبر 1879 حتى أجرت مقابلة معه في 1920 صحيفة سويدية. في العام 1925، أمر أمينه توفستوخا بتسجيل التاريخ 1879 رسميًا. وهنالك العديد من التفسيرات، بما فيها رغبته في إعادة تكوين نفسه. ومن المرجّح، أنه نقل التاريخ لاحقًا لتفادي التجنيد الإلزامي. أما في ما يتعلق بالبيت حيث وُلد، فإنه الكوخ الموجود اليوم وحده في بولفار ستالين في غوري، المحاط بالمعبد الإغريقي الذي بُني في الثلاثينيات من قبل نائب ستالين القوقازي، ولاحقا رئيس الشرطة السرية، لافرانتي بيريا، قريبًا من متحف ستالين المشابه للكاتيدرال. لم يعش دجوغاشفيلي هناك طويلًا.

[←33]

Births: GF IML 8. 2. 213. 41-53. RGASPI 71. 10. 275. 24/558. 4. 2. 1. RGASPI 558. 4. 2. 2. New dates: Kun, p. 8; Ostrovsky, p. 83. `Kogda rodilsa. I. V. Stalin', Izvestiya TSK KPSS no. I 1990, p. 132. Stalin looked more and more like Beso; GF IML 8. 2. 1. 53 Alexander M. .Tsikhatatrishvili

[←34]

أصبح ستالين الديكتاتور، بستانيًا ممتازًا، يزرع الليمون والطماطم، والأهم: الورود والميموزا. كانت الأغاني الجورجية المفضّلة له «اذهب بعيدًا أيها السنونو الأسود» Fly Away Black Swallow، و«سوليكو» Suliko.

[←35]

GF. IML 8. 2. 1. 53 Alexander M. Tsikhatatrishvili. Author’s interview with Gulia (Galina) Djugashvili, .daughter of Yakov Djugashvili

[←36]

Nikita Khrushchev, Khrushchev Remembers, 1: 301-2 (henceforth Khrushchev). Stalin speech to generals of VVS RKKA and government on 22 March 1938, quoted in Ostrovsky, p. 55. Dato: GF IML 8. 2. 1. 8 Dato .Gasitashvili. Kamo: GF IML 8. 2. 1. 50

Dzhavaira Khutulashvili née Ter-Petrossian, 239-55 .Kamo's sister

[←37]

والشاي والخمر، وفي أفضل الحالات البيض والدجاج. ومن يرغب في الحصول على اللحم، يجب أن يشتري خروفًا كاملًا (4 إلى 5 روبلات)، أو خنزيرًا رضيعًا (2 إلى 3 روبلات).

[←38]

Suliashvili, p. 8. Charkviani, `Memoirs’, pp. 1-2. Keke GF IML 8. 2. 1. 53 Alexander M. Tsikhatatrishvili. Author’s interview with Gulia (Galina) Djugashvili. Baedeker, p. .446

[←39]

.Davrichewy, pp. 26–28. Keke

[←40]

Paternal candidates: author’s interviews with Koba Egnatashvili’s grandson Guram Ratishvili, son of Sasha Egnatashvili, about the family house, Koba’s wrestling and businesses, attitude to Stalin, substitute father, great affection and later destiny of Egnatashvili boys Vaso and Sasha. There are hugh inaccuracies in most accounts of the Egnatashvili connection, but Stalin was very close to Sasha Egnatashvili. Within NKVD attitudes to Stalin's relationship with Egnatashvili. GARF 7523. 107. 127. 1-6 General N. Vlasik and others interrogations. Guran Ratishvili is by far the most revealing and intelligent of the family witnesses. On genetic connection: author's interview with Tina Egnatashvili, great-niece. Davrichewy, pp. 26-8, and see also Davrichewy, `Je suis le demi-frère de Staline', where Gori Mayor Jourouli is quoted as saying, `As far as I know, Soso was the natural son of pristav Damian Petrovich Davrichewy, my friend... Everyone knew about the liaison with the pretty mother of Soso, Kato ïKedeü. Besides, the armed attack on pristav Davrichewy is the proof'. Stalin's fondness for Father Charkviani, and closeness to Egnatashvili family: Charkviani, `Memoirs'. Stalin's comment about priest as father- `Comrade Liapidevsky, your father was a priest - mine was a priest too' - quoted in Robert Tucker, Stalin

.in Power, New York 1990, p. 627. Mgeladze, p. 242. V Sukhodeev, Stalin v zhiznin i legandaakh, pp. 19-20 on rumours that Stalin said Egnatashvili father and Egnatashvili married Beso to Keke to hide his sin. Prince Amilakhvari: Davrichewy, p. 69. Stalin and Beso: GF IML 8. 2. 1. 1. 143-6 M. K. Abramidze-Tsikhatatrishvili. GF .IML 8. 2. 1. 53 Alexander M. Tsikhatatrishvili

[←41]

Sergo Beria, Beria my father (heneceforth Beria), p. 21. .Keke

[←42]

Mgeladze, p. 242-`I got the impression Stalin was illicit son of Egnatashvili’. Author’s interviews: Guram Ratishvili, and Galina `Gulia’ Djugashvili adds another variant that Stalin and the Egnatashvili children were :both suckled by the same wetnurse

they were `milk brothers'. Davrichewy, pp. 26-8; Mayor Jourouli in Davrichewy, `Je suis le demi-frère de Staline'. Tucker, Stalin in Power, p. 627, Within NKVD, on Egnatashvili relationship to Stalin: GARF 7523. 107. .126. 1-6 General N. Vlasik interrogation

[←43]

Pride in father: RGASPI 558. 4. 663 Fyodor Alliluyev. Khrushchev, 1: 301-2. Dreams clipped: `Anarchism of Socialism' in Stalin, Works, 1: 296-372. three cobblers-Stalin, Kaganovich and Mgeladze: Mgeladze, p. 237. RGASPI 558. 11. 1549. 45 valiant son: Stalin to Keke 24 Mar. 1934. Beso tells stories of bandit-heroes: RGASPI 558. 4. 665 G. Elisabedashvili

[←44]

Mgeladze, p. 242. The three sons of Egnatashvili who died of smallpox were born around the same time as Stalin; the two surviving sons Vano and Sasha were .born later. Tucker, Stalin in Power, P. 627. Keke

[←45]

GF IML 8. 2. 1. 53 Alexander M. Tsikhatatrishvili. .Lobanov, pp. 13-14: memoir of David Papiashvili

[←46]

.'Khrushchev, 1: 301-2. Keke. Charkviani, `Memoirs

[←47]

كان أدولف هتلر يتلقى الضرب من والده الثمل، ألويس. لكن، برغم ذلك، لم يصبح ستالين من الذين يضربون زوجاتهم أو أولادهم، لكنه كان، في المقابل، زوجًا ووالدًا مدمّرًا. أقله يُلام جزئيًا لوفاة زوجتيه باكرًا. تخلى عن أطفاله غير الشرعيين، وتجاهل ابنه ياكوف لحوالى خمسة عشر عامًا ثم تنمّر عليه. وأفرط من زواجه الثاني، في ترقية ابنه فاسيلي وسحقه، على حد سواء. كان أحيانًا يُعمل السوط، لكن ابن الديكتاتور أصبح بنفسه طاغية فاسدًا ولا سيطرة لأحد عليه. أصبح فاسيلي مدمنًا على الكحول، وميؤوسًا منه. وربما ورث هذا الإدمان عن بيسو. كان ستالين محبًا لابنته سفيتلانا حتى أصبحت مستقلة: صفعها مرة عندما كانت مراهقة، لكن فقط عندما كانت على علاقة مع فاسق متزوّج في العقد الرابع. ويمكن لمعرفة المزيد عن قصة زواجه الثاني ومصير أولاده، مراجعة كتاب «ستالين: بلاط القيصر الأحمر» Stalin: The Court of the Red Tsar، للمؤلف نفسه.

[←48]

Keke. Moving house nine times: Ostrovsky, pp. 88-9. Violence: Kun, p. 12. Misery: Merzliakov in Molodaya Gvardiya no. 12 1939, p. 37. Cossack’s whips: Stalin, Works, I: 25-7. Josef Iremashvili, Stalin und die Tragôdie .Georgiens (heneceforth Iremashvili), pp Beso's violence: N. Kipshidze. Keke's violence: .9-12 ,5-6 Hana Moshiashvili-quoted in Radzinsky, Stalin, p. 24. Svetlana on knife-throwing, beatings by Keke quoted in Service, Stalin, p. 20. Beating: GK Zhukov, Vospominaniya i razmyshleniniya (heneceforth Zhukov), 3: 215. Chase with whip, strangling Keke, :Stalin cut, treat like a dog, help, he is killing my mother .Davrichewy, pp. 30-5

[←49]

كان داتو لا يزال يعمل إسكافيًا بعد خمسين عامًا، في العام 1940، عندما أمر ستالين أحد آل أغناتاشفيلي بدعوته إلى موسكو لعقد اجتماع. راجع: الخاتمة.

[←50]

Keke. R. G. Suny, `Beyond Psychohistory: The Young Stalin in Georgia'. Stalin teaches Charkviani children to read: Charkviani, `Memoirs'. Davrichewy, pp. 30-1. GF IML 8. 2. 1. 10. 23-47 Simon Gogchilidze. Lessons in secret, Beso drags by ears, my sister: GF IML 8. 2. 1. 54. 202-15 Kote Charkviani. Stalin speech VVS RKKA and government on 22 March 1938: Ostrovsky, p. 55. Barber-quack; too much reading; coat to hide Soso to .school: GF IML 8. 2. 1. 0 Anna Nikitin-Geladze

[←51]

Keke. Davrichewy, pp. 26-31. Davrichewy, `Je suis le demi-frère de Staline', including Gori Mayor Jourouli .quotation

[←52]

Zhukov, 3: 215. Svetlana Alliluyeva tapes: Stalin on mother, `He loved her' etc - see Rosamund Richardson, .The Long Shadow, p

Svetlana Alliluyeve, Twenty Letters to a Friend, pp. .93 153-4, 204. Iremashvili, pp. 5-7. Beria, pp. 20-1. RGASPI .558. 4. 664 P

Kapanadze. Haughty, proud, Keke works for her family and Kulijanav sisters, Koba accuses Chernomazov; 1906 recruits Nato to newspaper: GF IML 8. 2. 1. 15. 266-72 .Natalia Dondarov (Azarian). Keke

[←53]

ما زالت المدرسة في غوري، وقد جُددت في العام 2006: حتى شجب خروتشيف ستالين في العام 1956، حملت كتابة: «هنا في مدرسة الكنيسة السابقة، تعلّم ستالين العظيم من 1 أيلول/ديسمبر 1888 إلى تموز/يوليو 1894».

[←54]

هذه من ذكريات بيتر كابانادزي، الصديق الحميم لستالين، الذي حافظ على علاقة صداقة معه. ونُشرت مذكرات كابانادزي المكتملة في الثلاثينيات، لكن هذه من التفاصيل التي استُثنيت من النسخة الرسمية. تظهر في النسخة الأرشيفية.

[←55]

First day of school: GF IML 8. 2. 1. 24 V. Ketskhocveli GF IML 8. 2. 1. 41 I. Razmadze; RGASPI 558. 4. 665 S. P. Gogchilidze. Chintz bag: Molodaya Gvardiya no. 12 .1939, pp. 35-7. Iremachvili, pp. 4-7 Keke

[←56]

يُعزى الضرر الذي لحق باليد اليسرى، إلى عدة أسباب، منها حادث مطرقة، وتشوّه خلقي، والتهاب في الطفولة، وإصابة في المصارعة، وشجار حول امرأة في شياتورا، وحادث عربة، وضرب من والده، وكلها حوادث ممكنة بحسب ستالين (ما عدا التشوّه الخلقي منذ الولادة). ويلفّ الغموض الحادث ربما لوجود حادثين اثنين فعليًا: هذا الحادث الأقل خطورة عندما بدأ بالمدرسة (وفق كيكي)، أو في سن السادسة (وفق التقارير الصحية اللاحقة) التي يرجّح أنها ألحقت الأذى باليد، وهي إصابة أصبحت ظاهرة أكثر في سن متقدّمة. وبعد زمن ليس ببعيد، تعرّض لحادث أكثر خطورة حين أصيب بقوة، واحتاج إلى علاج في تيفليس، ما أضرّ برجليه. ويبدو أن كيكي تمزج بين الأحداث كلها في مذكراتها، في سن الثمانين.

[←57]

Keke. Versions of carriage accident: Ostrovsky, p. 89. Game of carriage chicken: Suliashvili, p. 9. Quack: .Alliluyev Memoirs, p

Stalin jumping: RGASPI 558. 4. 665 Peter .189 Kapanadze. GF IML 8. 2. 1. 10. 23-47 Simon Gogchilidze. GF IML 8. 2. 1. 9 Anna Nikitin-Geladze. Blue coat, red scarf, freckles: GF IML 8. 2. 1. 9 Grisha .Glurjidze

[←58]

GF IML 8. 2. 1. 54 Kote Charkviani. Keke

[←59]

Stalin’s home: Iremashvili, pp. 8-10. Plank-bed: GF IML 8. 2. 1. 10. 23-47 Simon Gogchilidze. GF IML 8. 2. 1. 15. .266-72 Natalia Dondarov (Azarian). Keke

[←60]

Picturesque and savage: Imam Raguza, Stalin, p. 23. .Ostrovsky, p. 90. Davrichewy, pp. 78-9

[←61]

كانت محاطة بدول على شكل أشباه ممالك، كالأمراء باغراتيون - موخرانسكي، والنبلاء كالأمير أميلاخفاري. نبلاء جورجيا كثر -6 في المئة من السكان - لكنهم أُفقِروا، وأصبحوا بالتالي أقل عزلة منهم في روسيا بذاتها. بنى فايسروي القوقاز، الدوق الكبير ميخائيل نيكولايفيش، وبني شقيق ألكسندر الثاني، قصر ليكاني الغوتي في الجوار في بورزهزمي، حيث اصطاف آل رومانوف حتى الثورة. وعندما تبوأ ستالين السلطة، لم يكن مهتمًا جدًا بالعودة إلى غوري، لكنه أمضى أول عطلة بعد الحرب الأهلية مع زوجته الحامل الشابة، ناديا أليلوييفا، في قصر ليكاني. والجدير ذكره أنه بينما تدهورت حالته الصحية، أمضى آخر عطلة جورجية له في العام 19 في ليكاني. كان قصرًا جميلًا ولا يزال، ويرمز إلى نجاح صبي محلي. وهو الآن المقر الصيفي لرئيس جورجيا.

[←62]

Street culture: Raguza, Stalin, p. 23. Suliashvili, pp. 42-6. Z. Gulisov, Materialy dela opisany mestnostey i plemen kavkazy, Tiflis 1886. Stalin's participation, B. Ivanter and A. Khakhonov, quoted in Kaminsky-Vereshchagin, pp. 29-32, 48-50. Keenoba: GF IML 8. 2. .1. 49. 185-210 Kote Khakhanashvili

[←63]

How aristocrats lived: Simon Sidamon-Eristoff, For My Grandchildren, pp. 21–23. Prince Amilakhvari teaches Stalin swimming: Davrichewy, p. 70. Damage to aristocracy in Caucasus; 6 percent of population in Georgia as opposed to 1.4 percent in European Russia: Jones, pp. 1–29. Wrestling bouts, Stalin, Egnatashvilis: .Charkviani, “Memoirs,” p. 3

[←64]

Street fighter: GDMS 2.1955–148.1–11, Comrade Stalin in Gori Church School by Sandro Elisabedashvili (cousin .(of G. Elisabedashvili

[←65]

حتى لو تباهى ستالين المسنّ بنفسه كمصارع قوي: عندما التقى مارشال تيتو بعد الحرب العالمية الثانية، جعل اليوغوسلافي الوسيم بطريقة أو بأخرى، ستالين يشعر بأنه أكبر سنًا، وأضعف. فسحب فجأة تيتو عن الأرض وتباهى «ما زلت أتمتع بالقوة». رُعب اليوغوسلاف وارتبكوا، لكن هذا كان آخر عرض للمصارعة في غوري.

[←66]

هذه القصص، من جيورجي اليسابيداشفيلي ونسيبه ساندرو، عن القنفذ الصغير الشرير الذي يستغل ويدمّر تقريبًا مورد رزق عامل صناعي أو مقاتل في الشارع، موجودة في الأرشيفات، لكنها لم تظهر طبيعيًا في سيرة حياة ستالين، وبقيت غير منشورة.

[←67]

Stalin gang and schoolboys. Catapulting the cows, naughty, running: RGASPI 558.4.665.14, G. Elisabedashvili, and fuller versions GDMS 1955–146.1–11, “My Memories of Comrade Stalin” by G. Elisabedashvili. Gangfights, Gorijvari, singing Suliko, calm and brutal, push to extremes: Davrichewy, pp. 82–84, 72–76, 45–49, 60–61. Amilakhvari’s gardens: ,RaguzaStalinpp. 34–35. Gori days, Eristavi’s gardens , and swimming: David Papitashvili and commander and stone slinging, sultan and ministers and Georgian stories of Saakadze and others, A. M. Tsikhatatrashvili, all in Kaminsky-Vereshchagin, pp. 3–32. Wrestling schoolboys at castle: Suliashvili, p. 12. Kamo: Kamo’s sister Dzhavaira Khutulashvili, quoted in Kun, p. 75. Tough school of swimming: GDMS 2.1955–148.1–11, Sandro Elisabedashvili (cousin of G. Elisabedashvili). Like a fish: GF IML 8.2.1.49.185–210, Kote Khakhanashvili. Wounded arm, beaten up, when Soso grows up to be a priest: GF IML 8.2.1.10.23–47, Simon Gogchilidze. Stalin beats up sneak, devoted friend: GF IML 8.2.1.54.202–15, Kote Charkviani. Explosions and catapults: GF IML 8.2.1.226–39, Petre Adamashvili. .Wrestling with Tito: Montefiore, p. 470

[←68]

لم يدفع هذا المرسوم المجنون ستالين وحده إلى الثورة، لكن ضمن جودة لغته الروسية، على الرغم من اللكنة الجورجية الواضحة التي لم يخسرها قط، ما سمح له بأن يحكم الامبراطورية الروسية بسهولة.

[←69]

كان المراقب في المدرسة بوتيرسكي شخصًا نموذجيًا: قزمًا وممتلئ الجسم بشاريين باللون الأحمر. عندما يسمع كلامًا باللغة الجورجية، يصرخ: «لا تتكلموا بهذه اللغة!».

[←70]

كسياسي، كان ستالين ممثلًا من الطراز الأول. شعر الأقطاب الذين عرفوه جيدًا في السلطة، بأنه يمثّل: أسماه خروتشيف «رجل الأقنعة». ولاحظ كاغانوفيتش وجود أربع أو خمس نسخ مختلفة من ستالين. وشعر ميكويان ومولوتوف، كلاهما، في مراحل زمنية مختلفة، بأن ستالين يمثّل مسرحية. وفي ما يتعلق بالرسم، كانت عادته الوحيدة رسم الذئاب في الاجتماعات الطويلة.

[←71]

طلب ستالين في كل مفاصل حياته من التابعين له، أن يكونوا مستعدين كما هو: قال نائبه في الثلاثينيات، لازار كاغانوفيتش، إنه يستعد للاجتماعات مع ستالين كتلميذ المدرسة. وفي الأرشيفات، هناك ملاحظة بخط ستالين لرفيقه سيرجو أوردهونيكيدزي من الثلاثينيات، عندما كانا أكثر القادة السوفيات نفوذًا: «سيرجو، لقاء الغد عن الإصلاح المصرفي. هل أنت مستعدّ؟ من الضروري أن تكون مستعدًا». وخلال الحرب العالمية الثانية، كان يمزّق إربا أي شخص لا يكون مستعدًا بالكامل.

[←72]

School: Stalin gains a year: RGASPI 558.4.669, P. Kapanadze. Keke. Strong will, always with a book, painting, Greek, improve yourself: GF IML 8.2.1.226–39, Petre Adamashvili. A. Gogebashvili, in charge of Psalms, and Gendarme, quoted in Ostrovsky, pp. 91–99. Stalin best pupil: Suliashvili, p. 13; and Lavrov in uniform, Russian language, pp. 16–23. Kaminsky-Vereshchagin, pp. 35, 42, 51–58. Poems at Gori: GDMS 3(1).1955–146.1–20, "My Memories of Comrade Stalin," by G. Elisabedashvili. Stalin threatens Lavrov with death: GDMS 2.1955–148.9–11, "Comrade Stalin at Gori Church School," by Sandro Elisabedashvili. Beautiful alto and Shakespearean comedy: GF IML 8.2.1.49.185–210, Kote Khakhanashvili. Psalm prize, people attend weddings just to hear Stalin, grand manner, protest: GF IML 8.2.1.10.23–47, Simon Gogchilidze. GF IML 8.2.1.54.202–15, Kote Charkviani. Books in belt: GF IML 8.2.1.9, Ivan Geldiashvili. Be prepared: RGASPI 558.11.778.45, Stalin to .Ordzhonikidze

[←73]

Keke. RGASPI 558.4.662. Kun, p. 11. “Don’t worry, Mummy”: Kaminsky-Vereshchagin, p. 37. Accident: GF IML 8.2.1.10 S. P. Gogchilidze. “Detskie i scholy gody Iosefa Vissarionovicha Dzhugashvili”: GF IML 8.2.6.306. “Sore legs”—J. Djugashvili to rector of seminary, 15 Nov. 1897: RGASPI 558.4.32. Geza: RGASPI 558.4.665, .G. Elisabedashvili; also GDMS

[←74]

Adelkhanov incident in Tiflis: Keke, and also interview withPravdaOct. 1935. RGASPI 558.4.655, S. P. 27 , Gogchilidze. See alsoMolodaya Gvardiyano. 12, 1939, pp. 43–45: Beso’s words recalled by S. P. Gogchilidze and Masho Abramidze—how Egnatashvili tried to ,persuade Beso. The Adelkhanov factory: ServiceStalin, p. 24. Stink: M. Isaev in Kaminsky-Vereshchagin, p. 45. The seminal moment, “If Beso had prevailed, no Stalin”: ,the phrase is that of ServiceStalinp. 25. Letters , mention me: GF IML 8.2.1.10.23–47, Simon .Gogchilidze. Year off: GF IML 8.6.306

[←75]

لم يكن معلّم الغناء الأستاذ الوحيد الذي ساعد ستالين. كان نسيب دافيتاشفيلي الأكبر، معلّمًا ملهمًا آخر للأدب الروسي. وكتبت كيكي بعد سنين «أذكر كيف ميّزتُ ابني سوسو، وقال لي عدة مرات إنك أنت ساعدته على أن يكبر على حب الدراسة. وبفضلك، أتقن اللغة الروسية».

[←76]

House on Sobornaya Street; Stalin’s rebellion: Iremashvili, pp. 7–10. Work for Beliaev: RGASPI 71.10.273. Joins Kulijanav sisters: Keke. Expulsion from school, scholarship, high marks: RGASPI 71.10.275. See also RGASPI 558.4.655, G. Elisabedashvili, and RGASPI 558.4.243, S. P. Gogchilidze. Scholarship: Ostrovsky, pp. 96–97. Pneumonia and scholarship doubled: GDMS 89, A. Gogebashvili. Reading, books, writing: Suliashvili, p. 15. Memoirs of Mikha Davitashvili, G. Parkadze and Grisha Glurjidze: RGASPI 558.4.651 and GF IML 8.2.1.9. Influence of Z. Davitashvili: letter, E. Djugashvili to Z. Davitashvili, 15 Sept. 1927, quoted in Ostrovsky, p. 93. Social improvement ambitions and influence of father’s stories of bandits like Arsene Odzelashvili: RGASPI 558.4.655, G. Elisabedashvili. Reading all night and influence of Lado Ketskhoveli, book subscription, Darwin, doubts about God: memoirs of G. Glurjidze, P. Kapanadze, G. Elisabedashvili and Demna Shengelaya, .quoted in Kaminsky-Vereshchagin, pp. 50–54

[←77]

Charkviani girl in love: GDMS 3(1).1955–146.1–20, “My Memories of Comrade Stalin,” by G. Elisabedashvili. Stalin on the sister—she was thirteen and he may have been much younger than her: Charkviani, “Memoirs.”

[←78]

Hanging: Grigory Razmadze, Suliashvili, p. 20. G. ”,Glebov, “Ocherk A. M. Gorkogo o GoriZaria Vostoka no. 223, quoting Peter Kapanadze on 28 Sept. 1939, and article fromNovoe ObrezrenieFeb. 1892; 15 , ,Kaminsky-Vereshchagin, pp. 48–50.A.M. Gorky Nejegorodsky Listok.Nov. 1896 26 ,

[←79]

حتى كديكتاتور وفاتح برلين في السبعين من العمر، تابع الدراسة. قال في حوالى العام 1950، «انظروا إليّ، أنا مُسن وما زلت أدرس». وتحمل كل الكتب في مكتبته علامات واضحة لملاحظات هامشية. تجاهل أخصامه كتروتسكي، هذه الحماسة المتعمدة والمجتهدة للتعلم الذاتي، التي أجاد إخفاءها بتصرفاته الفجة كفلاح وحشي، وذلك على مسؤوليتهم.

[←80]
إنها لسخرية القدر، نظرًا إلى العدد الهائل للكنائس الجميلة والقديمة التي هدمها ستالين لاحقًا، وعدد الكهنة الذين أعدمهم.

[←81]

لم ينس ستالين أبدًا معلّم الغناء. عندما كان يكتب إلى كيكي من المنفى أو تحت الأرض، غالبًا ما كان يرسل تحياته إلى سيمون غوغتشيليدزي. كانت كيكي ترى التحيات المكتوبة لغوغتشليدزي، وتُبقي يدها على بقية الرسالة، فتقول: «يمكنك قراءة الفقرة التي تخصك، لكن لا حاجة لك إلى أن تقرأ البقية، وتعلم أين هو ابني الآن».

[←82]

This account of Stalin's enrolment at the seminary is based on Keke, GF IML 8.2.15.2–15. Exam results at church school: RGASPI 71.10.275. Keke's efforts, exams, offers, fees: GF IML 8.2.1.10 and RGASPI 558.4.665, S. P. Gogchelidze. RGASPI 558.4.61. On fees of 140 roubles per annum: Ostrovsky, pp. 108–10. On ,entrance enrolment: RGASPI 558.4.10. TuckerStalin as Revolutionaryhenceforth Tucker), pp. 80–82.) Encouraged to denounce other students: see Smith, p. 37. Help from Egnatashvili: author's interview with Guram Ratishvili, grandson, Tbilisi. Help with "famous Princess Baratov" and fees from Davrichewy: .Davrichewy, p. 31

[←83]

كان تلاميذ الثانوية بأكثرهم من أبناء الطبقة العليا والأقل نبلًا والكهنة، وليسوا الأكثر ثراءً، لكن أفضل حالًا من ستالين. كان نجل رئيس شرطة غوري دافريشوي وصبية آخرون في حال أفضل من ستالين، كرفيق ستالين المستقبلي كامينيف، يحضرون جيمنازيوم الصبية في تيفليس. تم إرسال ولدي أغناتاشفيلي الغنيين، باسو وساشا، إلى الجيمنازيوم في موسكو. وخلال حكم ستالين، حملت الثانوية اللوحة التالية: «ستالين العظيم -قائد حزب في كاي وبروليتاريا العالم -عاش في الثانوية اللاهوتية سابقًا ودرس فيها، من 1 أيلول/سبتمبر 1894 إلى 29 أيار/مايو 1899، قائدًا أوساط العمال غير الشرعيين في تبليسي».

[←84]

,Keke. Routine: Domentii GogokhiaMolodya Gvardiya no. 12, 1939, p. 65. RGASPI 558.4.665, G. Parkadze. ,Jones, pp. 51–52. Kun, pp. 21–31. Philip Makharadze Ocherki revoliutsionnogo dvizheniya v Zakavkazipp. , ,57–58. Tucker, pp. 82–83. ServiceStalinpp. 33–37. , Marks: RGASPI 558.4.17, 558.4.48, 558.4.665, ,558.1.4326, 558.3.25. TrotskyStalinp. 10. Stalin , changed, pensive: V. Ketskhoveli inLiteraturnii Kritik no. 12, 1939, pp. 103–5. Calm: GF IML 8.2.1.12, Said .Devdariani

[←85]

«إلى الأرشمندريت سيرافيم، حضرة الرئيس الموقّر لثانوية تيفليس الأرثوذوكسية، من الصف الثاني التلميذ جوزيف دجوغاشفيلي: تعرف حضرتك كل الظروف المثيرة للشفقة لوالدتي التي تعتني بي. لم يهتم بي والدي منذ ثلاث سنين. هذا عقابه لي لأنني أتابع دراستي ضد مشيئته... لهذا السبب، أنا أتقدم إلى حضرتكم للمرة الثانية. أرجوكم «على ركبتي» مساعدتي وقبولي على حساب الدولة بالكامل. جوزيف دجوغاشفيلي 25 آب/أغسطس، 1895».

[←86]

Father: Charkviani, “Memoirs.” Choir: RGASPI 71.10.404. Father sees rector and Stalin’s attitude: GDMS 3(1).1955–146.1–20, “My Memories of Comrade Stalin,” by G. Elisabedashvili. Keke at seminary: GF IML .8.6.306

[←87]

Humiliating, ransacking of boxes: Stalin to Ludwig in ,StalinSochineniyaGood marks: RGASPI .14–3:113 , 558.4.30 and 37. Atheist in first year, Simon Natroshvili story, five roubles for singing in choir: Charkviani, “Memoirs.” Poet, burning eyes: Lev Kotyukov, “The ”,Forgotten Poet Josef DjugashviliZavtrano. 41 (46), .1994

[←88]

كان ستالين مغمورًا بالشعر الجورجي: أحب أريستافي، وكان شافتشافادزي «كاتبًا رائعًا ذا دور كبير في حركة تحرير جورجيا»، وتحمّس لأكاكي تسيريتيلي: «تعلّم جيلي أشعار تسيريتيلي عن ظهر قلب، وبفرح... القصائد الجميلة والعاطفية والموسيقية، وقد دُعي عن حق عندليب جورجيا». لكن بالنظر إلى الوراء، «قيّم» ستالين أيضًا هؤلاء الشعراء سياسيًا، قائلًا إن تسيريتيل كتب «أشعارًا جميلة، لكنها من حيث الأيديولوجيا بدائية ومحدودة». لم يكن ستالين البولشفي الشاعري المستقبلي الوحيد: في الوقت نفسه بالضبط، في مدرسته في أوديسا، كتب الأشعار أيضًا ليون برونشتاين الشاب، وهو الذي سيصبح تروتسكي في المستقبل والمعاصر له. تخطى تروتسكي ستالين بكثير ككاتب، لكن ليس كشاعر. لو خصص أحد زملاء ستالين قصيدة لأمير، لكانت استعملت ضدهم في الرعب. في العام 1949، لذكرى ميلاد ستالين الرسمي السبعين، عهد عظيم البوليتبورو بيريا بسرية إلى أفضل المترجمين الشعراء، بمن فيهم بوريس باسترناك وأندريا تاركوفسكي، لابتكار نسخة روسية عن الأشعار، لم يعتبروا مؤلفي الأشعار لكن اعتبر أحد الشعراء أن «هذا العمل يستحق جائزة ستالين من الدرجة الأولى»، على الرغم من أنهم تلقفوا ربما ناظم الشعر الشاب. وفي غمرة انهماكهم بالمشترع، تلقوا الأمر الصارم، من ستالين بنفسه، وهذا واضح، لوقف العمل.

[←89]

Analysis and quotations of Stalin's poetry are based on Donald Rayfield's translations and criticism in PN Review vol. 44 1984, pp. 45-7. I must also thank Professor Rayfield for his personal guidance. Giving up .poetry: Stalin to Levan Shaumian: Kun, p. 4
Stalin welcomed by cultural elite: Service, Stalin, p. 40. Kotyukov, `The Forgotten Poet Josef Djugashvili'. Mandelstam, Pasternak: Montefiore, pp. 117-18

[←90]

اقترح بيديكر، «زيارة سريعة، خاصة إذا شاركت النساء، هي الأفضل في العربات... السلامة العامة غير مؤمنة دائمًا؛ من الأفضل تفادي السفر وحيدًا أو عرض الكثير من المال (للسماح بحمل مسدس، راجع ما جاء آنفا). ننصح بمراقبة ثاقبة للممتلكات لأن السكان الأصليين لا ينفرون سرقة الأموال الضئيلة». يضيف بيديكر أنه حتى رسالة الدخول من فايسروي، أو إلى الأمراء المحليين، هي محدودة الاستعمال في «تخطي الصعوبات التي قد تنشأ: يمكن تخطيها فقط بالمشية العازمة»، وربما باللجوء إلى المسدس المذكور سابقًا.

[←91]

Tiflis, porridge of peoples: Jones, pp. 159-63. Lima and Bombay: Jones's description, p. 81. Tiflis: Baedeker, pp. 465-71. Founding of Mesame Dasi, Kvali: Jones, pp. 49-.50, 66-70. GF IML 8. 2. 1. 9 Anna Nikitin-Geladze

[←92]

بطل هوغو، سيموردين «لم يره أحد قط يبكي... (لديه) فضيلة لا يمكن بلوغها. هو رجل عادل، لكن مرعب. لا حلول نصفية بالنسبة إلى كاهن - ثائر (الذي) يجب أن يكون سيئ السمعة ومهيبًا. كان سيموردين مهيبًا... منفرًا وصارمًا وغير مضيف... نقيًا، لكنه كان عابسًا.

[←93]

Books: GF IML 8. 2. 1. 9 G. Glurjidze. From Stalin, Tolstoy etc G. Glurjidze, G. Parkadze, G. Glenov, quoted in Kaminsky-Vereshchagin, pp. 66-71. Stole from bookshop: M. Chaureli in Vstrechi s tov. Stalinym, pp. 156-7. Hugo's 1893 hero and Vanity Fair see Tucker, pp. 85-7, 132. Nekrasov and Chernyshevsky: Radzinsky, Alexander II, pp. 91 and 157-60. Dostoevsky: Rayfield, Stalin and the Hangmen, p. 22. Gogol, Saltykov, Shakespeare, Maupassant etc: A. A. Gromyko, Memoirs, p. 101. Beria, p. 143. Stalin, Gogol: Stalin, Works, I: 151. By heart: K. Voroshilov, Rasskazy o zhizhni, p. 247. Seminary reading, woodpile, inquisitor Abashidze, reading at night in church: Iremashvili, pp. 19-21. Punishments: RGASPI 558. 4. 48, 665 and 53. GF .IML 8. 2. 1. 12

.Said Devdariani 176-83

[←94]

.Iremashvili, pp. 17-19

[←95]

.Das Kapital: Service, Stalin, p. 41

[←96]

كان هؤلاء الماركسيون الشبان ينسخون كتابات ماركس بخط اليد، ويوزعون المخطوطات. وعندما أتى صديقه في غوري كوت خاخاناشفيلي إلى بيته ومعه بعض الأعداد الماركسية، استعارها ستالين، لكنه رفض لاحقا إعادتها: «لمَ تحتاج إليها؟ أَمْرِرْها إلى الكثير من الأيادي يتعلّمْ منها الناس». كما اختلس كتابًا باللغة الألمانية. لكن لم توصله دراسات اللغتين الإنكليزية والألمانية إلى طلاقة اللسان: حتى في أوائل الثلاثينيات، كان يطلب من زوجته ناديا أن ترسل إليه كتابًا باللغة الإنكليزية للدراسة في العطل. قالت كيكي على العشاء «إنها غلطتي، يا بني، أن نتناول الطعام من دون نبيذ».

[←97]

Sochineniya, 13: 113-14. RGASPI 558. 4. 30 and 37. Charkviani, `Memoirs'. Practical Marxism vs academic: GF IML 8. 2. 1. 12. 176-83 Said Devdariani. Laughing at peasants and urinating on icons: GDMS 3(1). 1955-146. .11-19 `My Memories of Comrade Stalin' by G Elisabedashvili, and RGASPI 558. 4. 665. 29. Marx books: GF IML 8. 2. 1. 49. 185-210 Kote Khakhanashvili. English books: GF IML 8. 2. 1. 12. 176-83 Said .Devdariani

[←98]

G. Ninua, Zaria Vostoka 17 Jul. 1939. A. Okuashvili, Zaria Vostoka 18 Sept. 1935. Stalin’s account: Stalin, .Sochineniya, 8(1948): 174

More practical Marxism: GF IML 8. 2. 1. 12. 176-83 Said Devdariani. Visit to Jordania: N. Vakar, `Stalin po .vospominaniyom N. N

Jordania’, Posledniya Novosti 16 Dec. 1936, p. 2. Jornania: Uratadze, p. 11. Room on Mt David, journal: D. Gogokhiya in Kaminsky-Vereshchagin, p. 72. Views evolving: Suny, `Beyond Psychohistory', p. 55. Lado, Jordania and Jibladze return and Kvali: Ostrovsky, pp. 121-3. Avoiding mother: Keke. Iremashvili, pp. 20-3. .Kvali letter refused: GDMS 1955-146. 17 G

Elisabedashvili. Home bedbugs: GF IML 8. 2. 1. 12. 176-83 Said Devdariani

[←99]

Alliluyev Memoirs, p. 44

[←100]

Charkviani, `Memoirs'. Davrichewy, p. 174. Marxism Stalin, Works, 1: 296-372 `Anarchism or Socialism?' and .1: 4 Brdzola issue I

Trotsky, My Life, pp. 129-30. Tucker, pp. 88-93. Stalin version of Marxism, see Service, Stalin pp. 48-53. .Credo: Ilizarov, p. 227

.'Sergo Kavtaradze `Memoirs

[←101]

Inquisitor Abashidze: Iremashvili, pp. 19-21. .Punishments: RGASPI 558. 4. 48, 665 and 53

[←102]

GDMS 3(1). 1955-146. 11-19 G. Elisabedashvili, also RGASPI 558. 4. 665. 29. GF IML 8. 2. 1. 49. 185-210 Kote Khakhanashvili. GF IML 8. 2. 1. 12. 176-83 Said .Devdariani

[←103]

يردد معظم المؤرخين التأكيد أن ستالين لم ير بيسو أبدًا بعد العام
. لكن قراءة العديد من المصادر في الأرشيف، فضلًا عن مذكرات كانديد
شاركفياني، تشير إلى أنه قابل والده المدمن على الكحول لاحقًا.

[←104]

في أيلول/سبتمبر 1931، حاول معلّم التاريخ المسن، الذي يتسكّع في زنزانات قلعة -سجن ميتيخي في تيفليس، الحصول على طلب استئناف من تلميذه القديم، الآن الديكتاتور السوفياتي. فكتب ستالين إلى بيريا، نائبه القوقازي: «نيكولا دميترييفيش ماخاتادزي البالغ من العمر 73 عامًا في سجن ميتيخي... أعرفه منذ الثانوية، ولا أظن أنه قد يمثّل خطرًا على السلطة السوفياتية. أطلب منك إخلاء سبيل الرجل المسنّ، وأطلعني على النتيجة».

[←105]

Abashidze stories: D. Gogokhiya, Simon Natroshvili, P. Talakvadze and Black Spot G. Elisabedashvili, Kaminsky-Vereshchagin, pp. 66-7, 84-7. Renan's Life of Jesus Christ: RGASPI 558. 4. 676. Molodaya Gvardiya no. 12 1939: P. Talakvadze, pp. 84-5. Marks, letter to Serafim, reprimands: RGASPI 558. 4. 48, 558. 4. 665, 558. 1. 4326, 71. 1275. Refusal to cut hair: Kun, pp. 27-8. :Punishments

RGASPI 558. 4. 53, 558. 4. 665, 558. 4. 53, 558. 4. 663, 558. 4. 60. Keke visits: Keke. Beso last meetings: GF IML 8. 2. 1. 54. 202-15 Kote Charkviani. GF IML 8. 2. 1. 9 Anna Nikitin-Geladze. No more embracing: GF IML 8. 2. :1. 9 Grisha Glurjidze. Teacher in Metekhi

RGASPI 558. 11. 76. 113 Stalin to Beria 19 Sept. 1931

[←106]

Debauches: Kun quoting A. Avtorkhanov, p. 30. Lessons in secret, Beso drags by ear; my sister: GF IML 8. 2. 1. 54-202-15 Kote Charkviani. Lisa Akopova: RGASPI 558. 1. 721. RGASPI 558. 11. 775. 10-13 letter about Praskovia Pasha Mikhailovskaya, fathered by Stalin in 1899. Ilizarov, pp. 284-6. Rayfield, Stalin and the Hangmen, pp. 13-14. Stalin reading Napoleon: memoir of Nikolai Popkhadze, seminarist and cousin of Svanidzes, told to Peter Mamradze. Kote Charkviani's sister: see G. Elisabedashvili, RGASPI 558. 4. 665 and .'GDMS 3(1) 1955-146. 1-20 Charkviani, `Memoirs

[←107]

جورج غوردجييف، الكاتب الروحاني «للقاء الرجال الاستثنائيين» Meetings with Remarkable Men، دجال بالنسبة إلى البعض، وكاهن مشعوذ بالنسبة إلى البعض الآخر. يدّعي أنه ذهب إلى الثانوية مع ستالين، الذي، بحسب قوله، بقي مع عائلته في تيفليس. لكن غوردجييف، ذا الأصول الأرمنية، كان متحررًا من قيود التقليد: وُلد في العام 1866، يكبر ستالين باثني عشر عامًا، ولا دليل على أنه ذهب إلى الثانوية بتاتًا. دخل ستالين الثانوية خلال الفصل الدراسي. ويدعي غوردجييف أن «الأمير نيجيرادزي» هو رفيق: «نيجيرادزي»، وهو لقب استعمله ستالين لاحقًا في باكو. لكن لا دليل على أن أيًا من ادعاءات غوردجييف صحيح.

وخلال حكمه، اضطهد ستالين الروحانيين وتحديدًا «أتباع غوردجييف»، الذين غالبًا ما أطلقت عليهم النار.

[←108]

في 4 أيلول/سبتمبر 1943، استُدعي البطريرك الروسي المنفي سيرغي ومطرانان إلى حديث ليلي غريب في الكريملين: حيث كشف ستالين أنه قرر إعادة البطركية والكنائس والثانويات الكنسية. اعتبر سيرغي أنه ربما من المبكر جدًا فتح الثانويات. أجاب ستالين، «الثانويات أفضل»، لكنه تأمّل بمكر، «لماذا ليس لديكم ملاك تعليمي؟ أين اختفى المعلّمون؟». وبدلًا من الإجابة بالقول إن ستالين قام بتصفية «الملاك» بشكل منهجي، مازح سيرغي برهافة: «أحد الأسباب هي أننا نعدّ الشخص للكهنوت فيصبح مارشال الاتحاد السوفياتي». فاستغرق ستالين في ذكريات الثانوية حتى الساعة 3 صباحًا، وختم بالقول «نيافتك، هذا كل ما أستطيع فعله لك الآن»، متمنيًا للكهنة نومًا هنيئًا.

[←109]

Expulsion?: RGASPI 558. 1. 635 Stalin interrogation, Baku 26 Mar. 1910: unexpectedly charged 25 roubles. :Failure to pay fees

RGASPI 71. 10. 275 Yelena Tskhakaya. Old friends: RGASPI 558. 1. 5378 P. Kapanadze. Kun, pp. 7-34. Smith, pp. 52-3. Illness: Keke Djugashvili to H. Knickerbocker: New York Post 1 Dec. 1930. Money to Kapanadze: RGASPI 558. 1. 5978 and 5080. Betrayed forty students: Simon Vereshchak, `Stalin v tyurme', Dni 22 Jan. 1928. `I was expelled for Marxist propaganda': E. Yaroslavsky, Landmarks in the Life of Stalin, 1939, p. 14; also RGASPI 558. 4. 4349. Lack of funds: RGASPI 558. 4. 214. Church offer to be teacher: RGASPI 558. 4. 65. Expulsions: Kaminsky-Vereshchagin, p. 88. Yenukidze, quoted by Trotsky, Slatin, p. 21. Davrichewy, p. 67. Ostrovsky, pp. 153-5. On God: Molotov, Molotov Remembers (henceforth Mototov Remembers), p. 212. Priests teach how to understand people, and remark to Churchill-past belongs to God: Stalin to Marshal Vasilevsky in Volkogonov, Stalin, pp. 470 and 228. To Harriman - only God can forgive and may God help this enterprise: see A. Harriman and Elie Abel, Special Envoy to Churchill and Stalin (New York 1975), p. 154. Meeting with Patriarch Sergei and Metropolitans Nikon :and Alexei 4 Sept. 1943

Dmitri Pospielovsky, The Russian Church under the Soviet Regime, 1: 200. For a fuller account: V. Alexeev, `Neofizialny dialog (o vstreche Stalina s rukovodstvom pravoslavnoi zerkvi)', Agitator no. 6 1989. See also .Michael Burleigh, Sacred Causes, p. 236

Giag 440. 2. 12. 440. 2. 64, and RGASPI 558. 4. 53. Lack of funds: RGASPI 558. 4. 214. School results on the :Svidetelstvo Certificate

GF IML 8. 1. 414. Executor of God's Will: letter from Stalin to Kosygin 22 Oct. 1946: displayed at TsMSIR. Stalin did return to the Seminary to raise funds for the .Party during 1904-5, terrorizing the teachers

[←110]

Leaving the Seminary: Keke, Frances Perkins, The Roosevelt I Knew, p. 142. Christian gent: Conrad Black, FDR: Champion of Freedom, p. 1080. Stalin and Tulin (Lenin): RGASPI 558. 4. 669 Peter Kapanadze. If no Lenin: Mgeladze, p. 82. Hiding out: Maria Makhstoblidze in Ostrovsky, p. 144. Criticism of Jordania: RGASPI 558. 4. 665 D. Kalandarashvili. James .Moore, Gurdjieff, pp .368-9

[←111]
لا يزال المرصد موجودًا، على الرغم من أنه مهدَّم ككل المؤسسات في جورجيا. صمدت غرفة ستالين، مع بعض ممتلكاته المحتملة واللوحة القديمة: «ستالين العظيم - قائد الحزب الشيوعي السوفياتي وبروليتاريا العالم - عاش وعمل هنا، في مرصد الأرصاد الجوية في تيفليس، من 28 كانون الأول/ديسمبر 1899 الى 21 آذار/مارس 1901، وقاد أوساط العمال الاشتراكيين الديموقراطيين غير الشرعيين».

[←112]

Weatherman: GF IML 8. 2. 1. 5 V. F. Berdzenoshvili. Pay: RGASPI 558. 4. 66. Observatory: Istoricheskie .mesta Tbilisi. pp. 30-4

[←113]
Keke. RGASPI 558. 4. 665 G. Elisabedashvili. GF IML 8. 14. 160 Vano Ketskhoveli

[←114]

Jones, chs 3 and 4. Service, Stalin, pp. 52-3. Kun, pp. 53-4. Alliluyev Memoirs, pp. 23-5

[←115]

GDMS 1955-146. 16-31 G. Elisabedashvili. Look: Iremashvili and Trotsky, quoted in Radzinsky, Stalin, p. .47

[←116]

Workers' circles: M. A. Moskalev, Bolshevistsky organizatsii Zakavkazya periode pervoi russkoi revolyutsii, p. 17. Molodaya Gvardiya vo. 12 1939, p. .101: 10 Jun. 1926

[←117]

Early Christians: Trotsky, My Life, p. 137. Committees: .Trotsky, Stalin, pp. 53-4. Alliluyev Memoirs, pp. 23-34

[←118]

Gendarme reports Capt. V. B. Lavrov to Col. E. P. Debil: GIAG 153. 2. 302, GARF 124. 11. 1902. 127, GARF 102. .7. 1902. 175. GF IML 8. 14

Matiorz Grikurov: Stalin and Beso at Adelkhanov 3 .160 .shoe factory, Alliluyev Memoirs, pp. 23-34

[←119]

في روسيا، غالبًا ما تعاطفت الطبقات التجارية والمتوسطة، التي لم يكن لها نفاذ إلى السلطة السياسية، مع الثوار، لكن في جورجيا يمكن الاعتماد أيضا على الوطنية المحلية، وشبكة من العشائر العائلية للوصول الى النبلاء الأعلى. حاول آل شيرفاتشيدزي أن يكونوا من رجال الحاشية الملكية الأوائل في بطرسبرغ، في حين ارتبطوا بالثوار في الدول الأبخازية. كان الأمير غورغي شيرفاتشيدزي مستشار بلاط الامبراطورة النبيلة ماريا فيودوروفنا وأرملة ألكسندر الثالث ووالدة نيكولا الثاني.

بعد الثورة حتى الثلاثينيات، تلقى آل شيرفاتشيدزي الذين ما فتئوا في الاتحاد السوفياتي، الحماية من القائد البلشيفي المحلي وحاشية ستالين نيستور لاكوبا.

[←120]

Stalin worships Lado Kestkhoveli and Sasha Tsulukidze: A. Yenukidze, Nashi podpolnye tipografii na Kavkaze, p. 24. Tsulukidze in Tshkakaya's words: Voprosy Istorii KPSS no. 5 1965. I. Dubinsky-Mukhadze, `Mikhail G. Tskhakaya', pp. 111-12. `Friend of Illich-Mikho', Literaturanaya Gruzia no. I 1965, pp. 15-20. Anna Alliluyeva in Alliluyev Memoirs, pp. 24-7, 36-40, 47-8. .Kun, pp
Richardson, Long Shadow, p. 117. Beria, p. 150. .192-8 L. Vasileve, Kremlin Wives, pp. 55 and 70. Svetlana Alliluyeva, Dalyokaya musika, pp. 251-2, and Dvadtsaty pisem k drugu, pp. 39-47. See L. P. Beria, Lado Ketskhoveli, pp. 5-65. Also: Beria p. 308

[←121]

Svanidzes: GF IML 8. 2. 1. 34. 343-51 Mikheil Monaselidze. Kamo: no decent people, enthralled - see Dzhavaira Khutulashvili in Kun, p. 75. Radzinsky, Stalin, p. 60. Stalin reading Napoleon: memoir of Nikolai Popkhadze, seminarist and cousin of Svanidzes told to Peter Mamradze. GDMS 1955-146. 16-31 G. Elisabedashvili. `Soso's gramophone' and teaching mentally limited Kamo, giving nickname: GF IML 8. 2. 1. 7. 64-84 G. F. Vardoyan. GF IML 8. 5. 384. 3-10 .Autobiographical notes by Kamo, GF IML 8. 5. 380 Personal File and Questionnaire filled in by Kamo 5-6 on day of his death

[←122]

GDMS 1955-146. 16-31 G. Elisabedashvili. Memoir Nikolai Popkhadze to Peter Mamradze. Sagirashvili, pp. .168-77

[←123]

SD Split: Jones, chs 3 and 4. Services, Stalin, pp. 52-3. Kun, pp. 53-4. Arsenidze, quoted in Kun p. 54. Muddled .young: S. T

Arkomed (Grigol Karadzhian), Rabochee dvizhenie, pp. 55-6. Iremashvili, pp. 21-2. RGASPI 558. 4. 665 G. .Elisabedashvili

Davrichewy, pp. 124-5. N. Vakar, `Stalin po vospominaniia N. N. Zhordania', Poslednye Novosti 16 Dec. 1936

[←124]

Gendarme reports, Capt. V. B. Lavrov to Col. E. P. Debil: GIAG 153. 2. 302, GARF 124. 11. 1902. 127, GARF 102. .7. 1902. 175. GF IML 8

Matiorz Grikurov. Alliluyev Memoirs, pp. 24- 3 .160 .14 .7, 47-8

[←125]

أهم ثوري روسي في جورجيا في ذاك الوقت، كان فيكتور كورناتوفسكي، الطويل القامة والمحدوب والأصلع، وقد شارك لينين في منفاه في سيبيريا، والتقى حتى بليخانوف في زوريخ. لم يكن العديد من الثوار الناشطين قوقازيين، بل روس. في محطة السكك الحديدية، ساعد ميخائيل كالينين الأنيس والبني اللحية سيرغي أليلوييف، وهو عامل آخر في السكك الحديدية ذو أصول فلاحية التقاه سوسو الآن: وأصبح رئيس دولة لفترة طويلة لدى ستالين. كان القادة الآخرون جورجيين:

جوردانيا ودجيبلادزي وميخا تشاكايا وفيليب ماخارادزي، كلهم من مؤسسي المجموعة الثالثة في العام 1892.

[←126]

Teacher: Raguza, Stalin, p. 65. Mochalov in Service, Stalin, p. 51, April 1901 riot: Alliluyev Memoirs, pp. 49-51. Istoricheskie mesta Tbilisi, pp. 68-73. Conscription: Davrichewy, p. 31. Police interrogation including `exempted from conscription 1901 due to family .matters': RGASPI 558. 4. 214

[←127]

Shaumian, Vedenev murder, Lelashvili: Ostrovsky, pp. 585-9. Memoir of Nikolai Popkhadze, seminarist and cousin of Svanidzes, told to Peter Mamradze. Shaumian: Anastas Mikoyan, Memoirs, 1: 72

[←128]

تفادى ستالين بالعمل السري، التجنيد في الجيش أيضًا في العام 1901. وفي توقيفه الأخير في العام 1913، قال للشرطة إنه «أُعفي من التجنيد لأسباب عائلية في العام 1901». ساعد ضابط شرطة غوري دافريشوي على تأمين الأوراق التي تسمح له بالهروب من الخدمة العسكرية، وفقا لمذكرات نجله، ربما بذكر مشاكل ستالين العائلية ونقل تاريخ ميلاده إلى العام اللاحق إلى 21 كانون الأول/ديسمبر 1879. لم تتم مضايقة ستالين مجددًا بفكرة التجنيد حتى العام 1916.

[←129]

عندما اغتيل وزير الشؤون الداخلية بليهفي في العام 1904، وجد مدير الشرطة لوبيخين أربعين من رسائله الخاصة في خزانة القتل: كان الوزير يراقب رئيس الشرطة التابع له.

[←130]

في الثمانينيات، ربى الكولونيل ج. ب. سوديكين من الأوخرانا في بطرسبرغ، إرهابيًا شابًا من «إرادة الشعب» يدعى ديغاييف. وتمكن رجل الشرطة بنجاح من أن يصبح «سيد الثورة في روسيا». لكن لا بد من تسديد ثمن ما: أجبر الكولونيل حتى على إعطاء أوامر القتل لإخفاء عميله المزودج. ثم في العام 1883، ضلّله ديغاييف للذهاب إلى اجتماع وقتله. ثم اختفى ديغاييف. تعرّض بعد أعوام طويلة، أستاذ الرياضيات في جامعة شبه غربية أميركية غامضة لديغاييف، وهي قصة أخبرها بدقة ريشارد بايب في «قضية ديغاييف» Degaev Affair. فهذه التكتيكات هي مراهنة مميتة دائما. في أيامنا، تعلّم ضباط المخابرات الأميركية الذين أطلقوا المجاهدين الأفغان لمقاتلة السوفيات، وضباط المخابرات الإسرائيلية الذين غضوا الطرف بداية عن الراديكاليين الإسلاميين في الضفة الغربية لإضعاف منظمة التحرير الفلسطينية، أمثولات مشابهة عندما تطوّرت منظماتهم لتصبح القاعدة وحركة حماس على التوالي.

[←131]

لم تستطع الأوخرانا تجاهل براعة الثوار الاشتراكيين القتلة. في إشارة إلى القاعدة وهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، أدى نجاح الطائرات إلى استعمال هذه الماكينات الجديدة كأسلحة. اعتبر إرهابيو الثوار الاشتراكيين الطيران كغرض، ذا سطحين، مزوّدًا بالديناميت وموجهًا إلى القصر الشتوي، فأمرت الأوخرانا في العام 1909 برصد كل الطيران، فضلًا عن الأشخاص الذين يتعلمون الطيران وأعضاء النوادي الجوية. والعلامة على امتياز الأوخرانا، أنه في العام 1909، اعتبر خيالًا تصوّر جريمة تتخطى نطاق مكتب التحقيقات الفيديرالي «أف بي آي» والوكالة المركزية للاستخبارات («السي آي أيه») في القرن الحادي والعشرين.

[←132]

Konspiratsia and the secret world is based closely on the following sources: Richard Pipes, The Degaev Affair, pp. 26, 87, master of the revolution. Jonathan Daly, Autocracy under Siege, pp. 6, 9, 21-37, 38-44, 87-96; .who learned from whom?, pp. 95-131

Radzinsky, Alexander II, pp. 91, 153-62, 217-22, 340. Perlustration, creation of Okhrana, codenames, danger of flying suicide-bombers: Charles A. Ruud and Sergei A. Stepanov, Fontanka 16: The Tsar's Secret Police, pp. 54-6 and 69-79. On flying suicide-bombers: Iain Lauchlan, Russian Hide-and-Seek, p. 361. Poles and Jews more .hanged: Rayfield, Stalin and the Hangmen, p. 31

Yard-keepers and Georgian cult of loyalty and violence: Jones, p. 99. Yenukidze on vengeance: Nikolaevsky box 207, folder 207-15 BN letter to T. Vulikh 8 Aug. 1949. Stalin and spook: GF IML 8. 2. 1. 54. 202-15 Kote .Charkviani. Davrichewy, p. 31. RGASPI 558. 4 .214

[←133]

Avoiding spies and laughing at them: GDMS 1955-146.
16-31 G. Elisabedashvili

[←134]

Neopublikovannye materialy iz biografii t. Stalina', Antireligioznik vol. 12 1939, pp. 17-21: memoir of .bookshop owner Ambako Chelaidze

[←135]
GDMS 1955-146. 16-31 G. Elisabedashvili. Ostrovsky, .pp. 166-7

[←136]

Iremashvili, pp. 21-2. RGASPI 558. 4. 665 G. Elisabedashvili. Davrichewy, pp. 124-5. Vakar, `Stalin po .vospominaniia N. N Zhordania'. Jones, pp. 72-4

[←137]

November meetings, Gendarme reports: GIAG 153. 2. 302/102. 00. 1898. 5-52/153. 1. 3431/2. GARF 102. 00. 1898. 5. 52. B. List of twenty-four delegates to the Conference: GDMS 93. 3 M. Gureshidze. Ostrovsky's .version is the most convincing: Ostrovsky, pp

Slanderer sent to Batumi: Uratadze, pp. 66-7. .167-70

Muddled youngster: Arkomed, Rabochee dvizhenie, pp. 55-6. Iremashvili, pp. 21-2. RGASPI 558. 4. 665. G. Elisabedashvili. Davrichewy, pp. 124-5. Vakar, `Stalin po .vospominaniia N. N. Zhordania'. S

Talakvadze, K istorii Kommunisticheskoi partii Gruzii, 1: .59-63. Jones, pp. 106-7

[←138]

تواريخ هذه المذكرات مهمة دائمًا. في المذكرات المكتوبة في العام 1، يشير فاداشكوريا إلى أن ستالين أمر بالقتل، وهو أمر ساذج ليسجّل في ذاك العام؛ أمر لا يفكّر في تدوينه أحد بعد عام خلال الرعب الكبير، أو لاحقًا. ونُشرت قصة أن ستالين كان يشتبه في الشبح ويتّضح لاحقًا أنه على حق، كجزء من عبادة الشخصية.

تظهر قصة البوليس الذي قتل فقط في الأرشيف الأصلي، ونشرت هنا للمرة الأولى.

[←139]

GF IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki. RGASPI 558. 4. 537 D. A. Vadachkoria. Porfiro Kuridze in .Batumskaya, pp. 63-70

.Chernomorskii Vestnik 5 Jan. 1902

[←140]

GF IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki. Throughout this chapter I have drawn on Batumskaya: Kote Kalandarov, pp. 36-40; Porfiro Lomdzharia, pp. 41-9; Gerasim Kaladze, pp. 49-55; Illarion Darakhvelidze, pp. 55-63; Porfiro Kuridze, pp. 63-70; Khachik Kazarian, pp. 75-8; G. Chkaidze, p. 124; Hashimi Smirba pp. 150-71. GF IML 8. 2. 1. 20 K. Kandelaki. RGASPI 558. 4. 537 .D. A

Vadachkoria (official version Batumskaya, pp. 106-12). Porfiro Kuridze, Bakinsky Rabochyi 12 Jan. 1937. Chernomorskii Vestnik 5 Jan. 1902

[←141]

New Year's Eve: GF IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki. Lomdzharia bandit, visits to Tiflis: GDMS .1955-146. 29-44 G Elisabedashvili. GMIKA 18. 50 Kote Kalandarov. GMIKA 26. 104. 33-42 Porfiro Kuridze. Batumi: Annals of the Working Collective Batumi, p. 315. Jones, pp. 28 (Mandelstam quote) and 87-8. Ostrovsky, pp. 170-1 Robert W. Tolf, The Russian Rockefellers: The Saga of the Nobel Family and the Russian Oil Industry, pp. 87-.90

[←142]

يشير كانديلاكي، في المذكرات المسجلة في العام 1935، قبل الرعب، بشدة إلى أن ستالين كان يحرق المباني عمدًا لدى آل روثشيلد. وتضع القصص الستالينية، التي نقلها كانديلاكي، حدًا إلى أي إشارة إلى أن القائد كان محرق مبان عمدًا، أو قاتلًا، أو سارق مصارف. أو مضللًا. وينشر سجلّ كانديلاكي هنا للمرة الأولى. وغالبًا ما حسبه المؤرخون دافيد كانديلاكي، تاجرًا شابًا في الثلاثينيات استخدمه ستالين كمبعوثه السري لفتح باب المفاوضات مع هتلر، في محاولة سبقت معاهدة مولوتوف - ريبنتروب في العام 1939 بثلاثة أعوام. أمر ستالين بقتل دافيد كانديلاكي في العام 1937. لكن لم يكن الأخير قسطنطين -أو كوتسيا - كانديلاكي من باتومي، لاحقًا منشفي ووزير المالية في الجمهورية الديموقراطية الجورجية المستقلة من العام 1918 حتى العام 1921.

[←143]

When Porfiro Lomdzharia came out of prison, Jeune gave him 400 roubles for his brother Silvester's funeral and the substantial sum of 3,000 roubles. Since the Lomdzharia brothers were Stalin's enforcers with whom he often stayed, it is likely that he was involved. Later, Stalin raised money using protection-rackets, by threatening the families of businessmen or by demanding money in return for not striking. Perhaps the 3. 000 roubles was to prevent any more fires at the refinery. RGASPI 161. 1. 11. GF IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki, including Armenian help with printing :from Spandarian. Spandarian lover

Nikolaevsky Vulikh in box 207-9. Spandarian womanizer and fate of wife of Bolshevik: Olga Spandarian letter to Shaumian in Vestnik Archivov Armenii no. 1 1996 `Suren Spandarian in Siberian exile'. RGASPI 558. 4. 537 D. A. Vadachkoria and official version Batumskaya, pp. 106-12. Bakinsky Rabochyi 12 Jan. 1937. Porfiro Kuridze. François Jeune: Otar Gogolishvili in interview with Ostrovsky, pp. 586-7. Payments to and from Lomdzharia: GARF 102. 1900. 4871. I. S. Chulek, Ocherki istorii Batumskoi kommunisteskoi organizatsis, .Batumi 1970, pp. 90-1

[←144]

كان هذا ليثير غضب ستالين: هذا النوع من التفاصيل الشخصية التي أسقطها المحاورون الأكثر تطورًا في الثلاثينيات من مذكراتهم. سجلت ناتاشا كيرتافا مجموعتين من المذكرات: واحدة في العام 1934؛ والأخرى في العام 1937. وغني عن القول أن قصة التقبيل غير المنشورة لا تبدو سوى في المجموعة الأولى، قبل الرعب.

[←145]

Kirtava: GF IML 8. 2. 1. 26. 22-6 (1934) and 8. 2. 1. 26. 36-9 (1937) Natalia Kirtava-Sikharulidze's memoirs. GMIKA 19. 51: Natalia Kirtava-Sikharulidze memoirs. GF .IML 8. 2. 1. 43. GARF 3. 1905. 272

[←146]

GF IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki. GMIKA 18. 50 Kote Kalandarov. GMIKA 26. 104. Porfiro Kuridze memoirs, pp. 33-42.

Batumskaya, pp. 36-78, 124. Stalin's despotism: Lavrov in GARF 102. 00. 1898. 5-52- V. Hiding in skirts: Interview with Suren Levonian on mother Terun Levonian story.

[←147]

March: GF IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki. GMIKA 26. 104 Porfiro Kuridze memoirs, pp. 33-42. Batumskaya, pp. 36-78, 124, 203-27. GMIKA 105, 106, 154 Despina Shapatava. Rothschilds manager, .Wanstein hit: GF IML 8. 2. 1. 9 Theofile Gogiberidze Changing clothes and wearing hoods: GM IML 8. 2. 1. 15. 174-81 I. Doborjinidze. Hooded Koba: see K. Kalandarov in Batumskaya, p. 70; you'll never be revolutionary, Vadachkoria, p. 86; conspiracy and mystery, P. Kuridze, p. 96; no moustaches or beard, p. 99; hooded and riot and Stalin puts on plays, Vera Lomdzharia, p. 102; demonstration, I. Darakhvelidze, .pp. 116-17; Stalin calm, K Kandelaki, pp. 118-26; Stalin helps wounded, p. 157. GF .IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki

[←148]

أصبحت مظاهرة باتومي وقصة سميربا أساطير ستالينية أوّلية. عندما كتب رئيس أبخازيا، أحد رجال حاشية ستالين المفضّلين، نيستور لاكوبا، «ستالين إيه هاشيم» (ستالين وهاشيم) في العام 1934، عزّز عبادة الشخص التي بدأت في العام 1929. قلق أمين ستالين، إيفان توفستوخا على النص، كاتبًا لستالين ثم للنائب لازار كاغانوفيتش، «لا يزال نص هاشيمي... بحاجة إلى تصحيح بعض الأمور وإعادة كتابتها... ما العمل؟ هل يجب رميه؟». لم يحصل ذلك. حاز نشره تأييد لاكوبا، لكن ليس لوقت طويل. بعد عام، تمّ التقدم على كتابه بالمغالاة الواسعة في «تاريخ التنظيم البولشفي في القوقاز» History of the Bolshevik Organization in the Caucasus، لبيريا. عدّل ستالين بنفسه، وفقًا لنجل بيريا، المخطوط، «فشطب أسماء واستبدلها باسمه». وتلاه في العام 1937 مجلّد كبير بعنوان «مظاهرة باتومي للعام 1902» Batumi Demonstration 1902. انتقل بيريا لتدمير خصمه لاكوبا، وسمّم له ثم قتله وعذّب زوجته وأولاده شخصيًا. راجع: «ستالين: بلاط القيصر الأحمر» Stalin: The Court of the Red Tsar، للاطلاع على كامل القصة. أما في ما يتعلق بهاشيمي سميربا بذاته، فغيّر منزله في العام 1916، ودفن المطبعة في حديقته. توفي في العام 1922 في سن الحادية والثمانين. وفي سبعيناته، كان ستالين يضحك بينه وبين نفسه على سميربا. عرف أن كتاب لابوكا اعتُبر بشكل عام ترويجيًا. وفي النهاية، يدعي أن ستالين كان «أعظم رجل في العهد بأكمله، كما يعطي التاريخ للبشرية مرة واحدة كل مئة أو مئتي عام». لكن ستالين شدّد على أن «ما جاء في ذاك الكتاب صحيح، وهذا ما حصل بالفعل».

[←149]

Hashimi Smirba: GH IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki. GMIKA 21. 57 Hamdi Smirba memoirs, p. 16, and 22. 58 Hashimi Smirba, pp. 1-9. GMIKA 26. 104. 33-42 Porfiro Kuridze. Batumskaya, pp. 150-71. Stalin in women's dresses: Suren Levonian interview on mother Terun Levonian in Batumi. On truth of Smirba story: Stalin in Charkviani, `Memoirs'. On Nestor Lakoba, see Montefiore, pp. 179-80. Jordania's reaction: Zhordania, `Stalin', p. 2. Trotsky, Stalin, pp. 31-2. Stalin, Works, 1: 25. Stalin on his Gurian bodyguards and on losing people but winning: Mgeladze, p. 77. Stalin amends .Beria's book: Beria, p. 18

[←150]

في بداية العام 1939، أوكل مسرح الفنون في موسكو إلى الكاتب اللامع، والعامل بأبخس الأسعار، ميخائيل بولغاكوف، كتابة مسرحية رومانسية عن ستالين الشاب في باتومي للاحتفال بالذكرى الستين لولادة الديكتاتور في شهر كانون الأول/ديسمبر. لا بدّ من أن ستالين أعلن انتهاء التوكيل. أُعجب ببولغاكوف -كما تشيكوف، وهو طبيب ممارس تحوّل إلى كاتب، تحديدًا لروايته «الحارس الأبيض» The White Guard. ونسخته المأساوية «أيام التربينات» The Days of the Turbins. كانت المسرحية المفضّلة لدى ستالين: شاهدها خمس عشرة مرة. لكن كما مع باسترناك وتشوستاكوفيتش، لعب ستالين لعبة القطة والفأر. اتّصل شخصيًا ببولغاكوف ليؤكد له أنه سيمنحه عملًا، ثم شدّ الخناق عليه من جديد. كان يولغاكوف، كباسترناك، معجبا بمضطهده الكلي النفوذ، وعبث بفكرة المسرحية منذ العام 1936، على الرغم من أنه علم «بأنها تمثّل خطرًا بالنسبة إلي». استند في المسرحية إلى كتاب «مظاهرة باتومي للعام 1902» The Batumi Demonstration 1902، ويفترض أنه استند إلى محادثات مع الشاهدين، وأنهى بولغاكوف المسودّة في يونيو 1939، وأسماها أولًا «الكاهن» The Priest، وهو لقب ستالين بين العمال، ثم «حصل في باتومي» It Happened in Batumi، وفي النهاية «باتومي فقط». لا تحتوي الرواية الرومانتيكية على علاقات غرامية، لكنها تشير إلى علاقة ستالين بناتاليا كيرتافا، لأن رفيقته في المسرحية هي ناتاشا، التي تعود إلى شقيقة كيرتافا ولودزهاريا معًا. أُعجب الأباراتشيك، أي الموظفون، بالمسرحية فوافقوا عليها. وفي آب/أغسطس، استقلّ بولغاكوف، الذي أعلن أنه يريد مقابلة الشاهدين وقراءة الأرشيفات، بالقطار إلى باتومي برفقة زوجته إيلينا.

لكن، لم يرد ستالين أن ينسف موقعه كرجل دولة (كان على وشك التوقيع على معاهدة مولوتوف - ريبينتروب، مع هتلر) بأي إفشاءات واردة في هذه الأرشيفات، وقد استخدم العديد منها في هذا الكتاب. استدعي البولغاكوف عبر تلغراف: «لم تعد الرحلة ضرورية. عودوا إلى موسكو». شعر بولغاكوف بالمرض. وقرأ ستالين المسرحية. وقال في زيارة إلى مسرح الفنون، إلى المدير، إن «باتومي» تحفة جيدة، لكن لا يمكن تمثيلها على المسرح، مضيفًا (بخبث): «كل الشبان سواسية، فما الغرض من كتابة مسرحية عن ستالين الشاب؟». كانت المسرحية أثرًا أدبيا تجاريًا لبوغالكوف، الذي أنهى بشكل سري كتابة تحفته الفنية ضد «ستالين المعلم والمارغاريتا» The Master and Margarita، قبل وفاته في العام 1940.

[←151]

Funerals, arrest: police officer report 6 Apr. 1902, Batumskaya, p. 177 and report of Jakeli, p. 178. GMIKA 115 Capt. Jakeli report on arrest of Stalin, involvement on 9 March. Letters to mother and Iremashvili; report of chief of Kutaisi Province Gendarmerie to the Police Department 9. Apr. 1902, arrest of Djugashvili known as teacher of workers and said to be always holding himself apart, keeping himself secret: GMIKA 116 Illarion. On Stalin and Bulgakov: M. Bulgakov, Batum, Radzinsky, Stalin, pp. 9-11 quotes Elena Bulgakova; and Elena Bulgakova's diaries 1939; also account of V. I. .Nemirovich-Danchenko, Arts Theatre Director

See: itlibatum. ru. GF IML 8. 2. 1. 20. 155-222 Kotsia Kandelaki

[←152]

Uratadze, pp. 66-9, 208-10. GF IML 8. 2. 1. 20. 155-222 .Kotsia Kandelaki

[←153]

Gendarme inquiries and Stalin's notes: RGASPI 558. 4. 80, and 83. Batumskaya pp. 233-5. Reports of Capt. .Jakeli 9 Apr. 1902, Maj

Gen. Shopchansky 9 Apr. 1902, Report of Gendarme-Department Tiflis (Stalin member of Tiflis Committee) 1 May 1902, arrest report of Policeman Chkhikvadze 6 Apr. 1902, report of Policeman Gogoria in Gori (Iremashvili interrogated, two men come to meet Keke and take her to Batumi) 16 Jun. 1902; Jakeli 16 Oct. 1905 on great success in 1901; Col. Lavrov on great discord between juniors and old Socialists 9 Feb. 1903; GMIKA 153, 116, 118 Stalin 1 May 1902, 119, 120 Eremov, 121, 125 Chopura and Mohevi. GF IML 8. 2. 1. .20. 155-222 Kotsia Kandelaki

[←154]

.GDMS 1955-146. 33-40 G. Elisabedashvili

[←155]
قالت كيكي بتهكّم لمحاور في العام 1935 إنها «سعيدة؟»، عندما سؤلت إذا كانت سعيدة بأنها والدة ستالين. «هل تسألني بأي نوع من السعادة شعرت؟ العالم أجمع سعيد وهو يرى ولدي وبلادنا. فكيف سأشعر كأم برأيك؟».

[←156]

Keke: Mgeladze pp. 154-5. Police reports and Keke’s requests: RGASPI 71. 10. 401 and 404. RGASPI 558. 4. :405. Trip to Batumi

Keke. Visit again to Batumi spring 1903: see Keke's obituary Zaria Vostoka, 1937. Kun, p. 42. On Keke's .interview 1935, R. W

Davies, O. V. Khlevnuik, E. A. Rees (eds), Stalin- .Kaganovich Correspondence, p. 295

[←157]

طوّر ستالين بسرعة حرفته السرية. عمل مؤيد له في باتومي لصالح الشركة التي زوّدت السجن بالحطب. وفي أحد الأيام، عندما فوتح بالموضوع، قال إنه يساعد على تسليم الحطب، ويجب أن يتبع تعليماته بدقة. سلّم زند الخشب، وحمله إلى الباحة. وعند الساعة الثالثة مساءً بالتحديد، قاد السجان سجينًا واحدًا، هو ستالين، الذي أعطاه رسالة ملحة لتسليمها في باتومي.

[←158]

Prison culture: GMIKA 19(51) N. Kirtadze-(Kirtava)-Sikharulidze, pp. 39(1)-42(4); Stalin gives message, p. 32(128); Gerasim Kaladze, pp. 42(1)-50(9); V. Chaidze, p. 96; V. Kalandze, p. 136. Stalin and the sympathetic guard: Chaureli in Vstrechi s vozhdem narodov/Vstrechi s tov. Stalinym, p. 154. How to communicate: Bibineishvili, pp. 59-63. Leniency: Rayfied. Stalin and the Hangmen, p. 31. Stalin prefers convicts: Khrushchev, 1: 301. Stalin lonely: Oleg Troyanovsky, Cherez gody, p. 162. Studying and prisons barbarous/paternalist: Trotsky, My Life, pp. 35, 147 and 180. Second school: Stalin, Works, 2: 28-32. Ordzhonikidze's reading, Stalin's memo on prison 1937: Volkogonov; Stalin, p. 9. Prison culture, news of Soso's :arrest, arguments in jail

Alliluyev Memoirs, pp. 43-5, 55-64; prison visits, pp. 33-5. Stalin's prison routine: Kalandadze, quoted in trotsky, .Stalin, p. 35

[←159]

جسّد لينين بنفسه حلم ستالين كفارس في تنظيم عسكري -ديني. وأكّد كاشفًا نفسه «حزبنا ليس مدرسة للفلاسفة، بل حزب قتالي. يشبه (الحزب) حتى الآن عائلة ذكورية مضيافة. الآن يجب أن يصبح كالقلعة، أبوابها مفتوحة فقط لمن يستحق». وأي سبيل آخر يُعتبر «تدنيسًا لقدس الأقداس».

[←160]

Lenin and What is to be Done? Tucker, pp. 23-31. .Stalin, Works, 1: 63-74

[←161]

GMIKA 19(51) N. Kirtadze-(Kirtava)-Sikharulidze, pp. .(39(1)-42(4

[←162]

Story of Christofore Imnaichvili told to author by Tamaz Naskidashvili, letter 20 Oct. 2005

[←163]

Innocent in Batumi, guilty in Tiflis and lost in prison system: RGASPI 558. 4. 79, 558. 4. 90; GARF 102. 00. .1898. 5-52-V, 102. 00
A. GF IML 8. 1.-5-59 .1898 .00 .102 ,825-16 .1902 772,5. 268. Ostrovsky, pp. 185-96. Batumskaya, pp. .171-4

[←164]

Hospital: GF IML 8. 2. 1. 20

[←165]
.RGASPI 558..4. 619 Stalin to Prince G. S. Golitsyn

[←166]

كقائد سوفياتي، ازدرى ستالين تساهل القيصر، وصمّم على تلافيه بالقمع الخاص الذي اعتمده. كتب في ذروة الرعب في العام 1937 «كانت السجون أشبه بالاستراحات منها بأي شيء آخر. يُسمح للسجناء بإقامة العلاقات الاجتماعية، وكتابة الرسائل إلى بعضهم البعض بإرادتهم، وتلقي الطرود...!».

[←167]

Exarch: Ostrovsky, p. 195. Transfer to Kutaisi: GMIKA 19(51) N. Kirtadze-(Kirtava)-Sikharulidze, pp. .(39(1)-42(4

[←168]

At Kutaisi prison: GMIKA 19(51) N. Kirtadze-(Kirtava)-Sikharulidze, pp. 39(1)-42(4). Group phtotograph and :28 Jul. protest

Batumskaya, pp. 95-9, 137-8: Dzuku Lolua and Varden .Chaidze. Uratadze, pp. 66-9, 208-10

[←169]

RGASPI 558. 4. 79, 558. 4. 90; GARF 102. 00. 1898. 5-52 V, 102,00. 1902. 825-16, 102. 00. 1898. 5-59-A. GF IML .8. 1. 772, 5. 268

.Ostrovsky, pp. 185-96. Batumskaya, pp. 171-4

[←170]

اعترفت السلطات القيصرية بأنه، بسبب التحديات الخاصة بالدلائل والسرية، لا تمكن محاكمة الإرهابيين والثوار من قبل هيئة المحلفين أو القاضي: أوصى ضابط الدرك المحلي، بحكم للجنرال الحاكم المحلي الذي أحاله على اللجنة الخاصة، وقد نفّذ خمسة ضباط عدل وداخلية الحكم. وأكّد الحكم وزير الداخلية، ووقّعه القيصر. حُكم على ستالين عادة بهذه الطريقة. وبين العامين 1881 و1904، حكم 11.879 شخصًا فقط بهذا الشكل، أما خلال حكم ستالين لمدة زمنية مماثلة تقريبًا، فقد تم نفي 28 مليون شخص، والملايين منهم لم يعودوا أبدًا. وفي ما يتعلق بالإعدام في ظل حكم القياصرة، كان من الملحّ أكثر شنق البولنديين الكاثوليك واليهود في المقاطعات الغربية، وأُعطي الأولوية على شنق الروس الأرثوذوكس أو الجورجيين.

[←171]

Sentencing: RGASPI 558. 4. 619, GARF 102. 7d. 1902. 175; RGIA 1405. 521. 482. Finding Stalin: GIAG 13. 27. 5451 and 5461; 84. 2. 1960 and 1272; GIAG 17. 2. 1272; GF IML 8. 5. 204. Batumskaya, pp. 257-65. Ostrovsky, pp. 197-200. GMIKA 19(51). 39(1)-42(4)N. Kirtadze-(Kirtava)-Sikharulidze. Money: GF IML 8. 2. 1. 13 memoirs L. Janelidze. 28 million: A. Applebaum, .GULAG, p. 518

[←172]

Etap: tooth arsenic amputation: Charkviani, `Memoirs'. Beaten up, and shackles: kun, pp. 60-1. Racing the .train: Smith, p. 112

.Criminals: Molotov Remembers, pp. 145-6

[←173]

RGASPI 558. 11. 1494 Abram Gusinsky. Peasants: .'Charkviani, `Memoirs

[←174]

Vstrechi s vozhdem, p. 28-memoirs of grandson of Martha Litvintseva and Mikhail Gulkin. B. Ivanov, `V .Novoi Ude', Pravda 25 Dec. 1939

[←175]

عندما وصل لينين، أنّب ناظر المحطة، واستفاد من مكتبة التاجر المحلي. جلب زوجته ناديا كروبسكايا وحماته للاعتناء به، حتى أنه وظّف خادمة لتنظيف المنزل.

عامل آل لينين الفلاحين بتواضع، وقد كانوا، بحسب ما كتب كروبسكايا، «مهذبين في سلوكهم». سحرت لينين مناظر «إيطاليا السيبيرية»، وهو جو مريح للكتابة. كتب كروبسكايا، «لم يكن المنفى عامة سيئًا جدًا». أعطى النظام حظوة للنبلاء والروس والجورجيين الأرثوذكس على اليهود والبولنديين. أُوقف لينين وصديقه يولي مارتوف في الوقت نفسه للاتهامات نفسها، لكن، بينما تمتع النبيل الروسي لينين بعطلة القراءة المشهدية، كافح قائد الاشتراكيين الديموقراطيين، اليهودي مارتوف، لينجو من الجليد القطبي غير الباعث على الأمل في توروخانسك.

[←176]

Exile: allowance-see Molotov Remembers, p. 133. Charkviani, `Memoirs'. Trotsky on Olympus in .Volkogonov, Trotsky, p. 11

Krupskaya, p. 33. Lenin in exile: Service, Lenin, p. 110. Joy of letters Yenukidze to Voroshilov: RGASPI 71. 2. 41. :Women, and duel

Molotov Remembers, p. 128. Lezhnev: Kun, p. 112. Voroshilov, Yenukidze, women: Vasileve, Kremlin Wives, p. 80. Love under boulders: Trotsky, My Life, p. 85. Sverdlov in Tucker, p. 158. Exile, Jews: Davrichewy, .p. 129

[←177]

Khrushchev, 1: 301. Khrushchev mentions `first exile' and `Vologda' which was Stalin's second exile, but it .seems to belong to this first exile

[←178]
حتى في هذا الوقت المبكر، كان لينين وستالين، ويُزعم أنهما بطلا البروليتاريا، ضد انخراط العمال الحقيقيين. آمنا بالأوليغارشية، أو حكم القلة التي تحكم باسم العمال، وهو مفهوم أصبح «ديكتاتورية البروليتاريا». كان ستالين مقتنعًا بأن انتخاب العمال في لجان الحزب، سيضمّ عدة ثوار هواة والمزيد من عملاء الشرطة.
كان أتباع لينين أقلّ تعاطفًا مع تطلعات الفلاحين للحصول على الأراضي. وآمن معظم الاشتراكيين الديموقراطيين الجورجيين بمشاركة عمالية وفلاحية أوسع، وتحويل ملكية الأراضي إلى الفلاحين، فأصبحوا منشفيين. كان المنشفيون الجورجيون تحت الجمرات كجوردانيا، فعّالين جدًا وشعبيّين بشكل مطّرد. وكانوا أكثر عنفا من المنشفيين الروس. كان دجيبلازي ونويه راميشفيلي متحمسين للرعب ومصادرة الأراضي، تمامًا كستالين حتى العام 1907. لكن البولشفيين كانوا في النهاية أكثر انضباطًا وأقل رحمة، ومتصالحين مع فكرة الرعب والقتل. ولزيادة الأمور تعقيدًا، هنالك البولشفيون المعتدلون ككامينيف، والمنشفيون المتطرّفون.

[←179]

Lenin, letter to Stalin and Second Congress: Stalin, Works, 6: 52-4. Tucker, p. 122. Service, Stalin, pp. 50-5. .Iremashvili, pp

.Uratadze, p. 67. Bibeneishvili, pp. 80-3 .212-13

[←180]

في العام 1934، كتب الأطفال الذين زوّدوا الهارب بالخبز، إلى ستالين، الذي ردّ مع هدية لهم: الراديو والفونوغراف. وفي العام 1947، كتب المتقاعد كونغاروف: «يا جنرال الاتحاد السوفياتي الرفيق ج. ف. ستالين، أعتذر كثيرًا عن إزعاجك، لكنك قطنت في العام 1903 عندي، وأخذتك شخصيًا في العام 1904 إلى زهاركوفو في طريقك إلى محطة تيريت. وعندما استجوبتني الشرطة كذبت بأنني أخذتك إلى بالاغنسك. ولأنني كذبت، سُجنت وتلقيت عشر جلدات. أسألك أن تساعدني». ومن غير المرجّح أن يكون كونغاروف قد اخترع هذا الأمر، لكن ستالين قرأ الرسالة وقال إنه لا يتذكّر، طالبًا المزيد من التفاصيل من كونغاروف. ربما كانت مذكرات ستالين في المنفى الأول أقل حيوية، لكن يرجّح أنه دارى ضيمًا ضد كونغاروف لأنه رفض مساعدته على الهروب.

[←181]

Two escapes: RGASPI 558. 4. 659 (also Sergei Alliluyev, Proidennyi put, p. 109). RGASPI 558. 1. 14. RGASPI 558. .11. 1494 A. Gusinsky

RGASPI 558. 4. 655 M. I. Kungarov letter. K. Chernenko, I. V. Stalin v sibirskoi ssilke, pp. 22-5, 32-7. Drink for .driver: GF IML 8. 5

Stalin boats of tricking peasant driver of sledge .205 and showing sword, as told by Stalin in 1910 to Ivan .Kukulava: GF IML 8. 2

Police spy ID: GF IML 8. 2. 1. 7 D. .202-10 .27 .1 Vadachkoria. I. Petrov, `Pervye shagi revolyutsionoi deatelnosti tov Stalina', Molodoi Bolshevik vol. 21 1939, p. 25. Sieve: Trotsky, My Life, p. 37. Trotsky in Volkogonov, Trotsky, pp. 44-5. Boots and Sergei Alliluyev's many escapes: Radzinsky, Stalin, p. 76. Police card: Kun, pp. 62-4. Police: GARF 102. 00. 1904. 6. 313, .RGASPI 558. 4. 92

GF IML 8. 2. 1. 9 Anna Nikitin-Geladze. Tsarist agent and escapes: I am indebted in this section, unless specifically attributed, to the researches of Ostrovsky, especially on timing of escape, p. 212; also pp. 431-62 and his analyses of Okhrana and Gendarme archives 1900-10; on escapes from exile, pp. 431-6; Ostrovsky quote, pp. 436-8; quotation by police official L. A. Rataev, p. 437; money for agents, pp. 438-9; corruption

of police Dvali, p. 515, Zubov and Zaitsev, pp. 545-7; Fikus report on intelligence gathering by Stalin, p. 578; on 800-rouble bribe, Y. Sverdlov, Izbrannye proizvedeniya, p. 595. Stalin five escapes: Charkviani, `Memoirs'. RGASPI 671. 1. 287 Turukhansk money receipts 1913-15 collected by NKVD boss N. I. Yezhov .and found in his safe

Ordzhonikidze and Zaitsev: RGASPI 558. 4. 258. P. A. Japaridze, Vospominaniya o P. A. Japaridze, pp. 61-2. GARF 110. 19. 119. Stalin meets police official on street and Gendarme tip-offs: GDMS 167 G. Varshamian. GARF 102. 00. 5-61-A. Tucker, pp. 109-10, quoting Roy Medvedev on story of E. P. Frolov. Roy Medvedev, Let History Judge, pp. 314-24. Service, Stalin p. 74. For discussion of Eremin letter: Eric Lee, `Eremin Letter: Documentary Proof that Stalin was Okhrana Spy?' Eremin text in Smith, p. 306. General Ivan Serov memo to First Secretary N. S. Khrushchev and Politburo: RGASPI 558. 11. 1288, 4 Jun. 1956. Stalin and Spandarian vs Shaumian by Ekaterina Shaumian: Mikoyan, Memoirs, p. 72. Shaumian tensions, Tartars in meetings, Stalin's protection- rackets, killing informers, Spandarian debauchery, Stalin true boss, gangsterism: Tatiana Vulikh to Boris Nikolaevsky, Nikolaevsky box 207, folder ID 207-9. Uratadze, p. 67. Arsenidze, pp. 72 and 224. Jordania, `Stalin', in which Jordania quotes

Shaumian. Olga Shatunovskaya: RGASPI 558. 4. 671. Shaumian's jobs; buy-out from arrest to Capt. Zaitsev: Akopian, Shaumian, pp. 64-76. Prison director Vachiev, 150 roubles each to free prisoners: Iz proshlogo nashei partii: Stati i vospominaniya iz istorii Bakinskoi organizatsii, pp. 146-7. B. Kaptelov and Z. Peregudova, `Byl li Stalin agentom Okhranki?', Rodina no. 5 1989, .pp. 67-9. B

Slavin, `Stalin i Okhranka', Alternativy no. I 1998, pp. 78-81. Okhrana surveillance 1908-13: Krasny Arkhiv no. .2(105) 1941, pp

Stalin on betrayal, death, GF IML 8. 6. 312 D. .4-31 Chekheidze (Turdospireli). Stalin edits his own Short Course biography including number of arrests: `I. V. Stalin sam o sebe: redakzionnaya pravka sobstennoy .biografii', Izvestiya TsK KPSS no. 9 1990

[←182]

كانت العقيدة، أو الكريدو، أحد أهم أسرار ماضي ستالين. إذ نسفت بجدية اعتبارات ستالين اللينينية، وقرّبته أكثر من المنشفيين في العام 1، الذين ابتكروا جورجيا المستقلة، و«الانحرافية» البولشفية في العامين 19 و1922. في العام 1925، بدأ ستالين وهو يخطط للتغلب على لينين، بإتلاف النسخ. وفي العام 1934، دنا مرّتين من شيفارديان (أولًا عبر رئيسه في المفوضية التجارية، القطب الستاليني أناستاز ميكويان، ثم من خلال رفيق تيفليس القديم، مالاكيا توروشيليدزي، رئيس جامعة تيفليس). دفن شيفارديان أوراقه في قريته. وفي أيام الرعب في العام 1937، أرسل ميكويان وبيريا إلى يريفان مع لائحة قتل تشمل 300 أرمني بولشفي. لم يفرّط ميكويان بشخص واحد من أصل 300، هو شيفارديان، الذي كان لا يزال موقوفًا. أتلفت عائلته الأوراق. وأرداه بيريا بالرصاص في 24 تشرين الأول/أكتوبر 1941، بينما سجّل الألمان تقدّمًا ملحوظًا. لم يقتل كل الذين تلقوا العقيدة: وبقي تسخاكايا المفضّل.

[←183]

You cowards and French Revolution book: GF IML 8. 2. 1. 11. 125-7 Dmitri Gurgenidze. Stalin's nationalist views, Batumi, Gori and the Credo: RGASPI 157. 1. 54 M. Tskhakaya. Service, Stalin, p. 55. S. Kavtaradze unpublished mss - thanks to his daughter Maya Kavtaradze and Zakro Megrilishvili. GF IML 8. 2. 1. 19 S. Kavtaradze. Beaten up and apartments: Ostrovsky, pp. .214-17

Bibineishvili, pp. 79-83. Georgian political nation and Tskhakaya stories by Stalin: Charkviani, `Memoirs', :Marx son of an ass

Sagirashvili, p. 181. For Toroshelidze: Minadora Toroshelidze mss - thanks to Susanna Toroshelidze and Nestan Charkviani. For Shevardian story, see handwritten memoir by Sergei Danielovich Shevardian (Chaverdian): thanks to Claire Mouradian for recording .and sharing this source with me

[←184]

GF Iml 8. 2. 1. 34 Mikheil Monoselidze. Davrichewy, pp. 118. 19, 124-5. Catherine Merridale, `The Making of a Moderate Bolshevik'. GF IML 8. 5. 384. 3-10 Autobiographical notes by Kamo. GF IML 8. 5. 380. 5-6 Personal File and Questionnaire filled in by Kamo on .day of his death. GF IML 8. 2. 1. 34. 332-4

[←185]

عادت «العلاقة» لتظهر عندما اقترن ستالين بابنة أولغا الصغرى، ناديا. انتشرت الشائعات بأن ستالين والدها. ويبدو أن كليهما سمع بالشائعة، لكنها كانت قد ولدت عندما التقى ستالين بالعائلة. وفي هذه الأثناء، في العام 1904، كان سوسو يغازل بشكل تقليدي أكثر فتاة جورجية من عائلة محترمة، وهي نينا غورجينيدزي، طالبًا منها الزواج. وعندما هجرته وتزوجت بمحام، لعنها سوسو قائلًا: «كيف أمكنك الزواج من هذا الحقير!». وأطلق الرصاص على العريس المحامي في العام 1937.

[←186]

Yenukidze, Nashi podpolnye tipographi na Kavkaze, p. 24. Alliluyev Memoirs, pp. 24-7, 36-40, 47-8, 65. Kun, .pp. 192-8

Richardson, Long Shadow, p. 117. Beria, p. 150. Pavel Alliluyev on Stalin and Kurnatovsky; and Nadya on mother; Vasileva, Kremlin Wives, pp. 55 and 74. Svetlana Alliluyeva, Dalyokaya muzika, pp. 251-2, and Dvadtsaty pisem, pp. 39-47. Thanks to Gia Tarkhan-.Mouravi for this family story in the footnote

[←187]

مينادورا، المسماة عند الولادة أوردزهونيكيدزي، كانت منشفية متزوجة بالبولشفي مالاكيا توروتشيليدزي، المقرّب أيضًا من ستالين. مينادورا هي المرأة الوحيدة التي وقّعت على الإعلان المنشفي لاستقلال جورجيا في العام 1918. وبعد أن أعاد ستالين وسيرغو اجتياح جورجيا في العام 192، بقيت في تيفليس مع توروتشيليدزي، رئيس جامعة تيفليس، وأحد الذين تلقوا نسخة من العقيدة. وفي العام 1937، أُوقف كلاهما. في سخرية القدر الاعتباطية النموذجية لرعب ستالين، أطلق سراحها، هي المنشفية، وأطلق النار عليه، هو البولشفي. لكن ربما لم يكن ذلك من باب المصادفة: فهي أعجبت ستالين. ولم تنشر مذكّرات مينادورا.

[←188]

GF IML 8. 5. 384. 3-10 Autobiographical notes by Kamo. GF IML 8. 5. 380. 5-6 Personal File and Questionnaire filled in by Kamo on day of his death. GF IML 8. 2. 1. 50. 239-55 Dzhavaira Khutulashvili née Ter-Petrossian, Kamo's sister. I. M. Dubinsky-Mukhadze, Ordzhonikidze, pp. 19-21, and Kamo, p. 19. Theatrical stunt: Susanna Toroshelidze's interview on her mother Minadora Ordazhonikidze-Toroshelidze. Newspaper with Makharadze: Jones, p. 109. Marie Arensberg: .Essad Bey, p. 94

[←189]

GF IML 8. 2. 1. 26. 22-6 (1934) and 8. 2. 1. 26. 36-9 (1937) Natalia Kirtava-Sikharulidze memoirs. GF IML 8. 2. 1. 43 N. Kirtava-Sikharulize. GF IML 8. 2. 1. 31 V. Lomdzharia-Javakikidze: soldier's uniform. GF IML 8. 2. 1. 34 I. Mshvidabadze: railway uniform-also RGASPI 558. 4. 655. GF IML 2913. 2. 4. F. Makharadze-.suspicions of Stalin as police agent

[←190]

أصبحت كيرتافا عضوًا رسميًا في الحزب ومؤيدة لستالين في باتومي. كُتبت مذكراتها باللغة البولشفية الهيروغليفية، وقد تجرّأت في الثلاثينيات على تسجيل كيف أنها رفضت ستالين وكيف أثار ذلك حنقه. ولم تُنشر هذه القصة حتى اليوم.

[←191]

Stalin’s nationalist views, Batumi, Gori, the Credo: RGASPI 157. 1. 54 M. Tskhakaya. Service, Stalin, p. 55. S. Kavtaradze unpublished mss. GF IML 8. 2. 1. 19 S. Kavtaradze. Ostrovsky, pp. 214-17. Bibineishvili, pp. 79-83. Kirtava turns down Stalin: GF IML 8. 2. 1. 26. 22-6 (1934) and 8. 2. 1. 26. 36-9 (1937) Natalia Kirtava-Sikharulidze. GF IML 8. 2. 1. 43 N. Kirtava-Sikharulidze. Beaten up: Ostrovsky, pp. 214-17. Kun, p. 66

[←192]

GF IML 8. 2. 1. 25 V. Ketskhoveli. Davrichewy, p. 35- papers in name of Petrov/Pavlov. Ostrovsky, pp. 216-.17

[←193]

Imeret-Mingrel Committee: RGASPI 157. 1. 54 M. Tskhakaya. GF IML 8. 2. 1. 19 S. Kavtaradze. Bibineishvili, pp. 80-2. Arrests, escapes and house moves: GF IML 8. 2. 1. 5 G. F. Berdzenovshvili. Union Committee: RGASPI 558. 4. 648 Ts. Zelikson. Fishing: GF IML 8. 2. 1. 34 I. Mshvidabadze: railway uniform-also RGASPI 558. 4. 655. Makharadze, Ocherki, p. 76. Tucker, p. 98. Baku: RGASPI 558. 4. 93. Kun, p. 92. Leader: GF IML 8. 5. 320. Kutaisi description and quote by P. Makharadze: Jones, pp. 88-9; Guria and Kutaisi landscape: `mountains swampy valleys'- this is a direct quote from Jones, p. 133. Ten trips etc: Ostrovsky, pp. 576-7. Escapes, Budu and Stalin stories: interview with Izolda Mdivani (widow of Budu's son Vahtang) and Mdivani family in Tbilisi, Georgia, 2006

[←194]

نويه خوميريكي الذي تبوأ لاحقًا منصب وزير الأراضي في جورجيا المستقلة من العام 1918 حتى العام 1921، قبل قيادة الثورة المنشفية في العام 1924 عندما قُبض عليه وأطلقت النار عليه. صودرت رسالته في غارة للدرك، ثم ضاعت طويلًا بين الأرشيفات. لم يكن الأمر اعتياديًا لأنّه مَدين تحديدًا في تحليله لوسائل ستالين وطموحاته. وفي أواخر العام ـَ، كان بيريا، ثم نبيل بوليتبورو الموكل بالمشروع النووي، مكروهًا، وخشي من القضاء عليه. نعلم الآن أنه سمع بهذه الرسالة من الدوائر الجورجية، وجمع الذخائر لاستخدامها ضد ستالين إذا دعت الحاجة، وطلب بسرية، وبطريقة غير رسمية، من أمين الأرشيف أن يقتفي أثرها. لكن بيريا لم يجدها. وظهرت الرسالة من جديد في العام 1989 فحسب.

[←195]

كولشي، أرض الغولدن فليس، هذا الاسم القديم لجورجيا: ومن هنا اسم الكولشيين، أي أهل كولشي.

[←196]

Stalin’s behaviour in Kutaisi. “Poliziya i soratniki ob I. V. Staline—A tsel ta chtoby pokazatsya narodu velikim ”,chelovekomOtechestvenyye Arkhivno. 4, 1995, pp. , 77–80. The archivist whom Beria asked to find the letter was X. Serova, sister of one of his secret policemen, I. A. Serov. Stalin to Davitishvili in Leipzig ,and Lenin’s reaction: StalinWorksInfluence .58–1:55 , of Jordania: Jones, p. 127. New Year’s Eve, 1904, disturbing banquet: GF IML 8.2.1.11, Alexei .Zakhomildin

[←197]

Baku Jan. 1905: RGASPI 71. 10. 189. The Revolution, bloody Sunday: Orlando Figes, A People's Tragedy .(henceforth Figes), pp

Stalin, Works I: 75. Makharadze and Stalin .173-86 .editors: Jones, p. 109

[←198]

.Stalin, Works, I: 75

[←199]

Baku: RGASPI 558. 4. 583 Mamed Mamediarov, Muktar Gadzhiev. Essad Bey, p. 69. Baku: Tolf, The Russian .Rockefellers, pp. 151-8

.Jorg Baberowski, Der Feind ist iiberall, pp. 77-9

[←200]

Stalin, Works, I: 82-4 and 85-9. Thousands of dead: Armen Ohanian quoted in Tom Reiss, The Orientalist, p. .14

[←201]

S. Talakvadze, K istorii Kimmunisticheskoi partii Gruzii, I: .118

[←202]
لا يُقدَّر مجلدا مذكرات شافيشفيلي بثمن، لكن نادرًا ما يستعملهما المؤرخون: لم يُنشرا سوى في أعداد صغيرة باللغة الفرنسية. كان شافيشفيلي شاهدًا عدائيًا كتب في المنفى، لكنه نصف متأثر ونصف مرعوب بسحر ستالين.

[←203]

Chavichvili, Patrie, prisons, exil, p. 70. Stalin, Works, I: 422-3. Guria: Jones, p. 149-Victor Taratuta quote on .separate republic

Committee as Tsar: Bibineishvili, p. 119. Debate with Isidore Ramishvili, Comrade Koba in Tskhratskaro, escape, clean-shaven, meeting in Gotsadze's father's house: GF IML 8. 2. 1. 11. 30-3 Davit Gotsadze. It is possible that this was one occasion when he was hidden in the nearby mansion of Chiatura Manganese tycoon Prince Jibo Abashidze, ancestor of President Mikhail Saakashvili: see Sandra Roelofs Saakashvili, .Story of an Idealist, pp. 37-8

[←204]

Circumcised Yids: Arsenidze, p. 221

[←205]

Chiatura: Jones, p. 91. Chavichvili, Patrie, prisons, exil, pp. 70, 72-87, 112-17. Also Cahiers d'Histoire Sociale no. 26 Automne/hiver 2005, pp. 133-44. Guria: Jones, .p. 149. Bibineishvili, p. 119

[←206]
Printing-press: RGASPI 558. 4. 651 M. Beliashvili. .Chavichvili, Patrie, prisons, exil, pp. 70-87, 112-17

[←207]

Menshevik armed detachments: Noe Ramishvili in Jones, p. 180. Stalin, Works, I: 133-9 `Armed Insurrection and our Tactics', Proletariat Struggle 15 Jul. 1905. Chiatura armed: GF IML 8. 2. 1. 25. 261-87 Vano Kiasashvili. Kote Tsintsadze, `Chemi Mogonebani', Revolyutsiis Matiane no. 2, pp. 117-22; no. 3, pp. 68-79. G. Parkadze, Boevye Bolshevistkie druziny v Chiaturakh v 1905, in Rasskazy o Velikom, Staline (Tbilisi 1941), pp. 46-50; RGASPI 558. 4. 665. Sergo Kavtaradze, Kak tov Stalin gromil Menshikov, pp. 56-9 in Rasskazy o Velikom Staline (Tbilisi 1941). Bibineishvili, pp. 88-90, 119. Stalin in the West, as speaker, tactician, style: Chavichvili, Patrie, prisons, exil, .pp. 70-87, 112-17

[←208]

Chiatura tycoons: RGASPI 558. 4. 665 B. Kekelidze. GF IML 8. 2. 1. 93-4 V. Bakradze. Saakashvili, Story of an .Idealist, pp. 37-45

Bibineishvili, pp. 88-90, 119. Chavichvili, Patrie, prisons, exil, pp. 70-87, 112-17. Status symbol: Krasin in .Williams, p. 59

Protection-rackets and Stalin defends tycoons: GF IML .8. 2. 1. 7 G and GF IML 8. 2. 1. 4. 1

[←209]

Perepiska V. I. Lenina i rukovodimykh im uchrezhdenii RSDRP s mestnymi partiinymi organizatsiami 1905-7, .vol. 2, part 1, p.294

[←210]

حارب بالكتابة أيضًا. كتب ستالين في كراسته متهمًا إياهم بالزيف الماركسي «المنشفيون لدينا مضجرون جدًا». هذه المقالة مثيرة للاهتمام نظرًا إلى جملها وأمثالها الطريفة: «وجد غراب مرة وردة، لكن هذا لا يثبت أن الغراب هو عندليب». المنشفيون «يذكروننا بالسارق الذي سرق المال وصرخ «أوقفوا السارق!»». لكنه ختم، «معلوم أن الجمرة لا تحرق إلا رجل واطئها».

[←211]

Arsenidze in Smith, pp. 139-41. Comrade Koba in Tskhratskaro, debate, escape, clean-shaven, meeting in Gotsadze's father's house: GF IML 8. 2. 1. 11. 30-3 Davit Gotsadze. Roelofs Saakashvili, Story of an Idealist, pp. .37-8. Simon Vereshchak, Dni 24 Jan.1928

[←212]

Viceroy: the description of Viceroy's character and arrival are direct quotes from Jones, pp. 172-5; and .prostitutes and palm readings, p. 186

[←213]

في تشرين الأول/أكتوبر 1940، أطلق سراح الكاتب الجورجي الشهير شالفا نوتسوبيدزي فجأة من السجن، وجُلب لمقابلة ستالين، الذي أُعجب وساهم في تحرير ترجمته لروستافيلي. في عشاء في منزل ستالين في كونتسيفو، تذكر نوتسوبيدزي الخطاب في مأتم تسولوكيدزي وقام بتكراره. تعجّب ستالين، الذي تقدّم نحو ضيفه وقبّله في جبينه، قائلًا «الموهبة الاستثنائية ترافق الذاكرة الاستثنائية». للاطلاع على كامل القصة، راجع: ستالين: «بلاط القيصر الأحمر» Stalin: The Court of the Red Tsar.

[←214]

Speech at Khoni: Nutsubidze: Montefiore, p. 286. Stalin, Works, I: 90-132 `Briefly about Disagreements in the Party'. Murders in Georgia: Jones, pp. 184-7. Stalin opens the era of bank-robberies: Davrichewy, p. 175, and competitiveness, p. 181. Bibineishvili, p. 85. Bomb-making Bolsheviks: Vano Jejilava, `My Memoirs', Revolyutsiis Matiane (heneceforth RM) no. 3 1923, p. 135. Stalin orders bomb attacks on Cossacks: Davrichewy, p. 210. Terror: Daly, Watchful State, pp. 16-20. 3. 600 wounded: Geifman, Thou Shalt Kill, p. 21. Svanidze cousin Dvali blows himself up: GF IML 8. 2. 1. 34. 327-37 Mikheil Misha Monoselidze. GDMS 87. .1955-368

.Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze 1-16

[←215]

كُتبت مذكرات الأب كاسيان غاشيشيلادزي بسرية في حياة ستالين وورثها حفيده، الذي رأى هذا المؤلف يتكلم على مشروع الكتاب هذا في تلفزيون جورجي واتصل به. وينسجم سرد خيوله الرائدة في أنحاء البلاد وتحركاته ومحادثاته، مع مصادر أخرى.

[←216]

Unpublished memoirs of Kasiane Gachechiladze: thanks .to his grandson Shalva Gachechiladze

[←217]

Jones, pp. 188-9. Stalin’s Cossack attacks: Davrichewy, p. 200. Stalin, Works, 1: 133-9 `Armed Insurrection and .'our Tactics

.Baberowski, Der Feind, p. 79

[←218]

.kamo kills, Stalin offers: Davrichewy, pp. 188-90

[←219]
لم يكن ستالين يعرف آل سفانيدزي عبر أليوشا. كان سيمون سفانيدزي، والد أليوشا وشقيقاته الثلاث، معلمًا في قتيسي؛ والوالدة، سيبورا، من عشيرة دفالي النبيلة. في قتيسي، كان نسيب سيبورا، من آل دفالي، رئيس الشرطة. أخفى آل سفانيدزي ورئيس الشرطة دفالي، ستالين عن الشرطة السرية، وهو مثال آخر على الروابط الجورجية التي تفوق بأهميتها الولاء للدولة.

[←220]

مذكرات ساشيكو سفاندزي وزوجها مونوسيليدزي لا تقدّر بثمن. سجّلت المذكرات من أوائل الثلاثينيات إلى أواسطها، عندما كان ستالين ديكتاتورًا، بيد أن الغريب أنها كانت صريحة. لم تنشر مذكرات ساشيكو؛ استعملت أجزاء من مذكرات مونوسيليدزي في أدب العبادة، لكن اعتبرت معظم ذكرياتهما غير ملائمة. في هذا الوقت، في العامين 1905 و1906، قدّم البولشفيون القادمون من المحافظات التقارير إلى ستالين في المستشفى، لكن كان القادة، شوميان وسبانداريان وأبل يينوكيدزي (وهو راشفيليان آخر) وبودو («البرميل») مديفاني مواظبين ومحترفين لدى آل سفانيدزي، إلى جانب القاتل لدى سوسو وكامو وتسينتسادزي.

[←221]

Svanidzes: GF IML 8. 2. 1. 34. 327-37, Mikheil Misha Monoselidze. GDMS 87. 1955-368. 1-16 Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze. Ravishing girl: Davrichewy, p. 228; pistol, p. 160. Koba at hospital: .GDMS 3(1). 1955-146. 45-6 G. Elisabedashvili

Author's interview with Kato's cousin Katevan Gelovani, Tbilisi, 2005: Stalin hidden in Kutaisi by Svanidze parents and police chief Dvali. Author interview with .Mariam Svanidze (aged 109) in Tbilisi, 2005

[←222]

Iremashvili, pp. 32-5. Skirtless woman: Jones, p. 189. Stalin, Works, 1: 178-86. Jones, pp. 188-9. Stalin's :Cossack attacks

Davrichewy, p. 200. Stalin, Works, I: 133-9. Baberowski, .Der Feind, p. 79. Trotsky, Stalin, pp. 67 and 79

[←223]

Alliluyev Memoirs, pp. 101-2

[←224]
.Stalin, Works, 1: 191 `To All Workers' 19 Oct. 1905

[←225]

Talakvadze, K istorii Kommunisticheksoi partii Gruzii, I: .143

[←226]

كان رد فعل ستالين على هذه الإهانة مفاجئًا، ولم ينسها أبدًا. لمعرفة مصير كافتارادزي، راجع: خاتمة الكتاب. وقد ضمت لجنة الاتحاد البولشفيين والمنشفيين على حد سواء.

[←227]

Service, Stalin, p. 59. Kavtaradze Memoirs. Story of .lamp-throwing: memoirs of Maya Kavtaradze

[←228] Minadora Ordzhonikidze-Toroshelidze unpublished memoirs. Davrichewy, pp. 174-6 and 181.

[←229]

كتب تروتسكي، ستالين «أمضى العام 1905 في مكتب بسيط يكتب المستندات المملة عن أبرز الأحداث».

[←230]

Massacres in Tiflis and armed SDs: Jones, pp. 189-94. .Davrichewy, pp. 194-5. Trotsky, Stalin, p. 67

[←231]

Jones, pp. 189-95. Davrichewy, pp. 194-6. Seething .cauldron: Trotsky, Stalin, p. 79

[←232]

ما زال متحف لينين، أحد آخر المقامات التذكارية للينين في العالم العربي.

[←233]

كانت هناك محطات محرجة في نسبه: كانت والدته حفيدة مويش بلانك، وهو تاجر يهودي تزوج بسويدية. وشكّل بروز اليهود بين البولشفيين دائمًا مشكلة في روسيا السوفياتية. والحقيقة أنه في العام]، كتبت شقيقة لينين آنا لستالين عن خلفية لينين اليهودية. ولم يخربش ستالين "ولا أي كلمة على هذه الرسالة على الإطلاق!". وبقيت سرية حتى التسعينيات.

[←234]

أهم هؤلاء المندوبين هو ليوند كراسين، وهو مهندس لامع، رجل النساء وخبير لينين في الشؤون المالية والإرهاب والمتفجرات، وقد عرفه ستالين من باكو. اخترع كراسين نظام التوليد الكهربائي للنفط باسم شركة كبيرة، بينما خلق مطبعة تحت الأرض للبولشفيين. في العام 1905، ساعد لينين على جمع التبرعات من خلال اتصالاته بالصناعيين البلوتوقراطيين، كسافا موروزوف والممثلة كوميسارزهفسكايا التي تبرّعت بمردود مسرحياتها، لكنه تخصص في الإرهاب والسطو على المصارف وتصنيع القنابل. في تامرفور، التقى ستالين أيضًا باميليان ياروسلافسكي، الذي أصبح رئيس المروجين له في الحكم؛ وأصبح ياكوف سيردلوف، الذي شاركه النفي، المنظم الرئيسي لدى لينين وأول رئيس دولة سوفياتي؛ وسولومون لوزوفسكي، نائب مفوّض الخارجية المستقبلي لدى ستالين، وقد حاكمه وأطلق النار عليه في العام 1952 خلال الرعب ضد السامية. كان لوزوفسكي ضحية ستالين الوحيد الذي تمتع بالشجاعة الكافية لتحدي الديكتاتور بشكل منفتح في البلاط: راجع «ستالين: بلاط القيصر الأحمر» Stalin: The Court of the Red Tsar.

[←235]

Tammerfors: best account of the Finnish angle is Antii Kujala et al., Lenin Ja Suomi. Portrait of Lenin is based .on: Figes, pp

Service, Lenin, pp. 255-73. Service, .385-98 ,141-51 Stalin, pp. 129 and 179. Tucker, p. 103. Stalin on Lenin: .Stalin, Works, 6: 53-5

Davrichewy on Lenin and on Stalin as only fighter, shooting, pp. 160, 212-13. Krupskaya, pp. 128-9. Trotsky, Stalin, p. 69. Timing of Stalin's travels: Ostrovsky, pp. 242-3. Smith, p. 150. E. Yaroslavsky, `Tri .vstrechi', Pravda 23 Dec. 1939

[←236]

Jones, pp. 194-6. Alliluyeva Memoirs, pp. 101-7. Blocking the tunnel, crushing of Guria, terrorists to Tiflis, assassination of traitors etc: Kote Tsintsadze, RM no. 2 1923, pp. 79-85. Stalin regathers squad in Tiflis .and conquest of west: GDMS 3(2). 1955-146

G. Elisabedashvili. Stalin negotiates with 68-72 peasants: Chaureli, `Vstrechi s vozhdem narodov', in .Vstrechi tov. Stalinym, p

Formation of the Outfit on Stalin's orders: GF IML .156 .8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua Kupriashvili

[←237]

كانت هذه الإدارة بالمنافسة نموذجية، تشبه طريقة قيام ستالين بأمر المارشالين زوكوف وكونيف بالسباق إلى الكريملين في العام 1945.

[←238]

Griiazonov: Tsintsadze, pp. 40-1. Davrichewy, pp. 216-17. Stalin in charge according to Armenian terrorist: Kun, p. 79. Essad Bey, p. 72. Jones, p. 197. Geifman, Thou Shalt Kill, pp. 99-100. Boris Souvarine, Staline, pp. .98-100. Smith, p. 156. GF IML 8. 2. 1. 34

Mikheil Misha Monoselidze. GDMS 87. 1955- 327-37 368. 1-16 Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze. .GF IML 8. 2. 1. 5 G. F

Berdzenoshvili. GF IML 8. 2. 1. 3 N. Akhmeteli. RGASPI 558. 4. 658 B. Loshadze-Bochoridze. GOAG 153. 1. 764. Hiding wounded Stalin: Ostrovsky, p. 247. RM no. 4 1923, memoirs of A. Magriabiants. Uratadze, pp. 130-2. GF IML - Bolshevik killers of Griiazanov: Chumburidze; other assassin was Alexander Vashakidze. Hiding wounded Stalin, dreaming of seizing Tiflis on map: GF .IML 8. 2. 1. 3. 291-310 Niko Akhmeteli

[←239]

باشوا كوبرياشفيلي، أحد اللصوص الرواد في السطو على مصرف تيفليس، سجّل مذكراته خلال حكم ستالين. يؤكد قيادةَ ستالين المباشرة للجماعة لكنه حذر من عدم ربطه مباشرة بلصوصه. بقيت المذكرات منسية في الأرشيفات الجورجية طوال ستين سنة.

[←240]

إيساد باي، كان أحد ألقاب ليف نوسيمبوم، نجل بارون نفط يهودي في باكو، كتب «ستالين، مسيرة متعصّب» Stalin: Career of a Fanatic كما كتب قصة حب كلاسيكية، «علي ونينو» Ali and Nino، باسم قربان سعيد، وكانت هويته غامضة حتى كشفت سيرة ذاتية جديدة هي «المستشرق» The Orient بقلم توم رايس عن حياة نوسيمبوم الغريبة وتحوّله الإثني إلى الإسلام في إيطاليا الفاشية. من يتبع الفانتازيا يصعب أن يكون مصدرًا تاريخيًا مثاليًا. اعتُبرت حكاياته التي لا تستند إلى مصدر معيّن لفترة طويلة، أساطير، لكنه اتضح غالبًا أنها صحيحة تاريخيًا. لا بد من أن نوسيمبوم قد التقى منفيين من تيفليس وباكو وسجّل قصصهم، لكن يجب مراجعة مواده غير الموثوقة.

[←241]
مصطلح «الفني»، هو تصغير بولشفي للإرهاب أو القتل، وقد دعا كراسين والمنشفيون على حد سواء، مختبراتهم لصنع القنابل «الإدارات الفنية».

[←242]

The gangsters, hold-ups, girls, pawnshop, Chiatura gold-train: GF IML 8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua .Kupriashvili. Davrichewy, pp

The gang: Nikolaevsky box 207, .174-6 ,226 ,178-84 folder ID 207-10 and 207-11 Tatiana Vulikh to Boris .Nikolaevsky. Uratadze, pp

Dubinsky-Mukhadze, Kamo, pp. 45-58. Kutaisi .163-6 and girls: Alexandra Darakhelidze-Margvelashvili. .Urchins: GF IML 8. 1. 2

GARF 102. 1906. 206. Stalin on death: GF IML 8. 2. 1. .4 34. 317-54 Mikheil Misha Monoselidze. Griiazanov, expropriation, Druzhina, pawnshop, competition and co-op with Mensheviks, robberies recounted including Chiatura train, Kutaisi treasury and Tiflis: Tsintsadze, pp. 40-9. Stalin's Technical Assistant (Niko's brother .Mate): GF IML 8. 2. 1. 3. 291-310 Niko Akhmeteli

Money raising by rackets in Tiflis. Essad Bey, pp. 90-5. Stalin in Tsintsadze and Kamo: see Charkviani, .'`Memoirs'. Stalin's austerity: Jordania, `Stalin

[←243]

Hiding wounded Stalin, dreaming of seizing Tiflis on map: GF IML 8. 2. 1. 3. 291-310 Niko Akhmeteli. GDMS .278 A. N

Mikaberikdze. GDMS 118 Ruben Dashtoian

[←244]

GF IML 8. 2. 1. 34. 317-54 Mikheil Misha Monoselidze. GDMS 87. 1955-368. 1-16 Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze. Escape out of the window: Service, Stalin, pp. 65-6. Man in grey: Minadora Ordzhonikidze-Toroshelidze unpublished mss. 1906 recruits Nato to newspaper: GF IML 8. 2. 1. 15. 266-72 .(Natalia Dondarov (Azarian

[←245]

لا بد من أن هذا الوشاح، الذي يشبه الشال اليهودي، هو الذي لبسه ستالين في الصورة الفوتوغرافية الشهيرة التي التقطتها الشرطة (راجع غلاف هذا الكتاب) خلال هذا التوقيف الغامض.

[←246]

Avlabar arrest: Arsenidze, pp. 218-36. Stalin in scarf: GF IML 8. 2. 1. 37 Raisa Okinshevich. Ostrovsky, pp. 248-52. For conspiracy theory see Isaac Don Levine, Stalin's .Great Secret, p. 90

[←247]

التقى ستالين هنا للمرة الأولى بالاشتراكي البولندي فيليكس دزيرزهينسكي، الذي أصبح مؤسس الشرطة السرية السوفياتية، الشيكا، وحليفه في الحكم بعد وفاة لينين؛ غريغوري رادوميسلسكي، نجل بائع الحليب اليهودي الذي عرف بسرعة باسم «زينوفيف»، عضو الحكومة الثلاثية بعد وفاة لينين الذي صفّاه ستالين مع كامينيف في العام 1936؛ وأليكسي ريكوف، خَلَف لينين كرئيس الوزراء الذي تشاطر مع ستالين الحكم لفترة وجيزة، ثم صفّاه في العام 1938. وفي المؤتمر، التقى ستالين أيضا بأصدقاء قدامى كسعيد ديفدارياني، من الثانوية؛ كلينين، رئيس الدولة المستقبلي، الذي عرفه من خلال آل أليلوييف؛ ورفيق تيفليس ستيفان شوميان.

[←248]

Stockholm: Voroshilov, Rasskazy a zhizni, 1: 247. Shipwreck: see Kujala et al., Lenin Ja Suomi. Hans Bjorkegren, Ryska Posten, pp. 43-56. Thanks to the investigations of Martin Stugard of Dagens Nyheter and also to the help of the grandson of Inspector Mogren, Per Mogren. Williams, p. 75, Michael Futrell, Northern Underground, p. 47. Service, Lenin, p. 179. Service, .Stalin, pp

Tucker, pp. 41, 127 and 146. Smith, p. 175: .62-4 shipwreck, quoting S. G. Strumenko. Trotsky, Stalin, pp. :72-3. Dzerzhinsky

Rayfield, Stalin and the Hangmen, pp. 56-7. GF IML 8. 2. 1. 12. 176-83 Said Devdariani. Report on Stockholm by Comrade K: Stalin, Works, 1: 261-77. On agrarian question Stalin, Works, 1: 238-40 and 217-39. Shaumian also challenged by Mensheviks: Akopian, Shaumian, p. 44. Berlin: RGASPI 558. 1. 5095 Stalin to .Monoselidze

[←249]

[←250]

وفق كيتيفان جيلوفاني، حفيدة خالة كاتو، التي عقد معها هذا المؤلف مقابلة في تبيليسي، تصرّف سوسو برفق تجاهها ما خلا مزاجه المتقلّب: «بعد الزواج بفترة وجيزة، أحرق يدها بسيجارة في ثورة غضب، لكنها أحبّته، وكان في معظم الأحيان لطيفًا ورقيقًا جدًا تجاهها». تقول أسطورة في فنلندا إنه أخذها في شهر العسل إلى كاريليا؛ لكن، لا دليل على أنها رافقته إلى السويد، كما أنهما لم يكونا قد تزوّجا بعد.

[←251]

Minadora Ordzhonikidze-Toroshelidze unpublished mss. GF IML 8. 2. 1. 34. 317-54 Mikheil Misha .Monoselidze. GDMS 87

Alexandra `Sashiko' Svanidze- 1-16 .1955-368 Monoselidze. Kato Rachvelian: Mgeladze, p. 199. Letter :about Alyosha and Kato

RGASPI 558. 1. 5095 quoted in Kun, pp. 341-2. Loved her so much: RGASPI 558. 4. 647 Pelageya Onufrieva. :Soso as demigod

Iremashvili, pp. 30, 39-40. Very beautiful, melted my heart: Svetlana Alliluyeva tapes - thanks to Rosamund .Richardson

Ravishing: Davrichewy, p. 228. Katovan Gelovani interview with author: Stalin hid with teacher father of Svanidzes in Kutaisi, Kato and Alyosha echanted, fascinated by Stalin. Mariam Svanidze interview with author, Tbilisi 2005. Stalin laughing and scruffy: GDMS 1955-146. 51-6 G. Elisabedashvili. Marriage, little woman, what kind of family life: GF IML 8. 2. 1. 9 Anna .Nikitin-Geladze

[←252] Shooting policeman: GF IML 8. 2. 1. 34. 317-54 Mikheil Misha Monoselidze.

[←253]
كان هذا صحيحًا بعد أن حظر مؤتمر لندن في العام 1907 المصادرة، وأمر بطرد كل مخالف من الحزب. لكن هذا حصل في أيلول/سبتمبر 1906، وتبعه مؤتمر لندن.

[←254]

كانت هذه القرصنة شائعة بين السارقين الثوار: ألتر إيغو لستالين من غوري، دافريشوي، رئيس الجناح العسكري للاشتراكيين الفيديراليين، يقول كيف سرق سفينة تحمل الأموال تقريبًا في الوقت نفسه كسرقة تساريفيتش غيورغي. وفي هذه الأثناء، هاجم الثوار خارج أوديسا، سهرة عشاء أحد النبلاء في سفينة متعة، الصوفيا، حيث استولوا على 5.000 استرليني من الذهب.

[←255]

Tsarevich Giorgi: S. Lakoba et al. (eds), Istoria Abkhazia, p. 219. S. Lakoba, Boeviki Abkhazii v revolyutsii 1905-7, .pp. 65-8. S

Lakoba, `Legendarnoe nacholo veka'. thanks to S. Z. Lakoba for access to his interviews with T. Kapba-Arshba and Kamshisi Gvaramia. For legend of Stalin leading horses with money from the ship: Fasil .Iskander, Sandro of Chegem, pp. 202-4

Davrichewy's piracy, p. 236. Tiflissky Listok 22 and 24 Sept. 1906; Kavkaz 24 Sept. 1906; Kavkazskaya Zhizn 29 .Sept. and 6 Oct

Chernomorsky Vestnik 22 and 23 Sept. 1906. For ;1906 the mules of Chiatura, see memoirs of Father Gachechiladze; for Stalin's horseriding, see his attempt to ride in the 1945 Victory Parade, in Montefiore; for .shooting see earlier memoirs of M

Monoselidze and J. Davrichewy; for robbery of ship Nikolai I, see later chapters on Baku. Koba prank: Arsenidze, p. 220. Stalin greater involvement in robbery: Razhden Arsenidze, interviews nos 1-3, 103-4, Nikolaevsky box 667, series 279, folder 4-5. Baku Tiflis Conference: GF IML 8. 2. 1. 12. 176-83 Said Devdariani. .Uratadze, pp. 66-9

[←256]

في هذا الوقت، أقرض كراسين جهازه الجهنمي الأكثر تطورًا للإرهابيين الاشتراكيين، الثوار الماركسيين الذين استعملوه لتفجير منزل رئيس الوزراء اللامع التابع للقيصر ستوليبين. وقد قضى الكثير في الجحيم، لكن ستوليبين نجا.

[←257]
لاحقًا، مفوّض الشعب للشؤون الخارجية في ظل ستالين في الثلاثينيات، ماكسيم ليتفينوف.

[←258]

Kamo's adventures: Imnaishvili, Kamo, pp. 47-51. Russian Review vol. 19 no. 3, Jul. 1960, pp. 227-47. .Williams, pp. 75, 185. Kun, p

Geifman, Thou Shalt Kill, pp. 85-95 and 167. Krasin, .75 `Bolshevistskaya partiinaya tekhnika', p. 813. B. Nikolaevsky, `Bolshevistky zentr', Rodina nos 2 and 5 1992: no. 2, pp. 13-36. Krasin and Bogdanov: Stanford, Paris Okhrana, box 200, folder ID XVII n4a and folder XVII m I. Tsintsadze on Chiatura railway heist-21. 000 .roubles in Souvarine, Staline, p. 100. Arsenidze, p

Bombs and Krasin: Williams, pp. 61-3, 112. .232 Radzinsky, Stalin, p. 59. Baikaloff, I Knew Stalin, pp. 20-1. Litvinov's arms-buying: see Istorichesty Arkhiv no. 4 1960, pp. 95-110. Hugh D. Phillips, Between the Revolution and the West: A Political Biography of Maxim M. Litvinov, pp. 9-11. `From Bolshevik to British Subject - The Early Years of M. Litvinov', Slavic Review 48 no. 3, Fall 1989, pp. 388-98. Kamo's visit to Lenin: Krupskaya quoted in Trotsky, Stalin, p. 105. .Bibineishvili, pp. 116-30. S. F

Medvedeva-Ter-Petrossian, `Tovarish Kamo'. RGASPI 332. 1. 53: 15(2) O2. 23 (10) 1905-1910 TSK Organized Committee to Investigate Tiflis Expropriation: abroad led by Y. Tychko and A. Ornatsky (Chicherin); in Tiflis led by Tigranov, Angreevsky, Nadejdin; it conducted; it

conducted interviews with Voznesensky 20 Sept. 1907 and 10 Jun. 1908 and in Baku with Comrade Koba (J. Stalin) 19 Mar. 1908. GDMS 87. 1955-368. 11-13 Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze. The other inside man: GF IML 8. 2. 1. 54. 214-15 Kote Charkviani. GF IML 8. 2. 1. 22 G. Kasradze quoted by Ostrovsky, pp. 259-67. Tiflis Committee including Stalin and Philip Makharadze approve robbery: Arsenidze, interviews nos 1-3, 103-4, Nikolaevsky box 667, series 279, folder .4-5

On Gigo Kasradze: GF IML 8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua .Kupriashvili

[←259]

عُرف باسم ياشا في عائلته، وتعمّد بعد بضعة أشهر، ثم تسجّل بعد سنين. من هنا الالتباس حول تاريخ مولده. ويُعتبر الاسم تقديرًا لمعلّم ستالين، ياكوف «كوبا» أغناتاشفيلي.

[←260]

Arrest of Kato: GF IML 8. 2. 1. 34. 317-54 Mikheil Misha Monoselidze. GDMS 87. 1955-368. 1-16 Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze. Note from Moscow police: GIAG 153. 1. 3440. Bakinsky Rabochyii 25 Apr. 1931 and 21 Apr. 1936. November 1906 heist: Kote Tsintsadze in Souvarine, Staline, pp. 99-100. Baikaloff, I Knew Stalin, pp. 20-1. Arsenidze, p. 232. Kutaisi: Tsintsadze, pp. 41-9. Dubinsky-Mukhadze, Kamo, pp. 61-80. Kutaisi Kamo, and girls: GF IML 8. 2. 2. 64 Alexandra Darakhvelidze-Margvelashvili. Geifman, Thou .Shalt Kill, p. 115

[←261]

Berlin: Smith, pp. 194-6, Krupskaya on Berlin. V. I. Lenin, Polnoe Sobranie Sochineniya (henceforth Lenin PSS), 15: 571. Stalin on Berlin: Milovan Djilas, Conversations with Stalin, p. 79. W. S. Churchill, Second World War (London 1951), 6: 601. Stalin, Works, 2: 408-9. RGASPI 71. 0. 406 and 558. 4. 583. Kun, pp. 85-7. Ostrovsky, pp. 256-9. H. Barbusse, Stalin: A New World through One Man, p. 53. Stalin, Sochineniya, 13: 122 Stalin to Ludwig. Voroshilov, Rasskazy o zhizni, I: .336. V. I. Lenin, Biograficheskaya khronika, 2: 223

[←262]

لم يكن من المفترض أن يكونوا في لندن على الإطلاق: الخطة الأصلية أن يعقد المؤتمر في كوبنهاغن، فيسافر ستالين إلى سان بطرسبرغ، ثم إلى فنلندا، ومنها إلى مالمو في السويد. وهكذا، انتقل هو ومندوبوه إلى كوبنهاغن. لكن الدان طردهم إلى السويد، التي أعادتهم إلى الدانمارك، التي أرسلتهم بدورها إلى إسبجيرغ، حيث استقلوا سفينة إلى لندن.

[←263]

أما الأخبار الكبرى الأخرى في هذه الأسابيع، فهي خطة ضد حياة القيصر وصورة لتساريفيش أليكساي البالغ من العمر ثلاث سنين بعنوان: «تسارفيتش يرتدي أول لباس داخلي»؛ زفاف نسيب القيصر الدوق الكبير نيكولاي بكريمة أمير مونتينيغرو؛ وولادة نجل الملكة الإنكليزية على إسبانيا، بعنوان «الطفل الإنكليزي».

[←264]
الآن هو مخزن للمفروشات، ومتجر لآلات التصوير وملابس للرجال.

[←265]
أصبح غوركي، لاحقًا، صديق الديكتاتور، ومدافعًا مخزيًا عن القضية، وغنيمة مثيرة للشفقة، وضحية محتملة. راجع: «ستالين: بلاط القيصر الأحمر».

[←266]

ألقى ستالين اللوم بمكر على غريغوري أليكسينسكي، في ملاحظات تقريره عن المؤتمر في لندن الذي نشر باسم «كوبا إيفانوفيتش» في «باكينسكي بروليتاريا». وأشار إلى أن «أكثرية المنشفيين هم من اليهود، ثم من الجورجين ثم الروس. وفي المقابل، السواد الأعظم من المجموعة البولشفية من الروس، ثم اليهود (من دون احتساب البولنديين والليتيين بالطبع)، ثم الجورجيين...». وقد قيل الكثير عن الطبيعة اليهودية لحزب الاشتراكيين الديموقراطيين، لكن الأرقام التي قدّمها ستالين تُظهر كم كان الحزب جورجيًا أيضًا. وأكّد أرسينيدزي أن ستالين «محايد» إزاء اليهود، مهتم بما هو مفيد سياسيًا فحسب. وفي مقالاته، كان يتعاطف مع مأساتهم: «تحت نير العبودية، يعانون الأنين وصرير الأسنان. هم اليهود المضطهَدون والمهانون إلى الأبد، وهم يفتقرون إلى بعض الحقوق البائسة التي يتمتع بها الأشخاص الروس الآخرون». وفي موضوع ذي صلة، هاجم أيضا المنشفيين لأنهم «مفكرون» بدلًا من أن يكونوا عمّالًا، وعبّر عن اندهاشه من أن المنشفيين قد هاجموا البولشفيين لأنهم يضمّون الكثير من المفكّرين: «شرحنا صيحات المنشفيين بالمثل التالي: «الجمرة لا تحرق إلا رجل واطئها»». وكما رأينا، كانت هذه جملة محبّبة. أما في ما يتعلق بتحدي أوراق اعتماده، فتعيد معظم القصص ذكر هذا للتقليص من أهميته ومكانته، لكن لا تذكر أبدًا أن تسخاكايا وشوميان المحترمين، قد تمت معارضتهما تزامنًا. كان هنالك سبب آخر للامبالاة لينين. وقد قدّم صفقة دمج للمنشفيين الجورجيين: لو لم يتدخّل جوردانيا في الشؤون الروسية، يمكن أن يصبح قائد الحزب الموحّد في جورجيا. لم يأخذ جوردانيا أبدًا العرض.

[←267]

كان تشرشل، في سن الثالثة والثلاثين، يعيش في شقة العزب في شارع ماونت دبليو 1، بينما ستالين، في سن التاسعة والعشرين، مكث باسم كوبا إيفانوفيتش في ستيبني. وكان وكيل المستعمرات في الحكومة الليبرالية لهنري كامبيل -بانرمان، وقد نشر سيرته الذاتية عن والده لورد راندولف. وقد عرف بفضل سيرة ذاتية عنه، ستنشر، الأولى. وبينما كان ستالين في إنكلترا، سافر إلى هناك للإدلاء بخطاب في سكوتلندا وقد نقل الخبر في الجرائد.

[←268]

يستمرّ «ستالين في ويلز»: «أكّد» الكاتب من ويلز جون ساميرز ذلك في زيارة إلى مدينة المناجم التي أسّسها رجل من ويلز، هو غيسوفسكا (الآن دونيتسك) في الاتحاد السوفياتي في السبعينيات. لا يزال موقع الكتروني عن ويلز يذكر ستالين بين «الأشخاص المخيفين الذين قضوا وقتا طويلًا في ويلز»، إلى جانب القاتل المتسلسل فريد ويست، والساحر أليستر كرويلي، والنازي رودلف هيس، والطاغية الأوغندي عيدي أمين: «زار ستالين لفترة قصيرة وديان جنوبي ويلز لحشد الدعم وجمع التبرعات للثورة الروسية». ومن بين من ساعد ستالين، فيودور روثشتين، مسوّي النزاعات البولشفي في لندن، أصبح السفير السوفياتي في بلاد إيران، وتوفي قبل الرعب. وعمل نجله أندرو روثشتين بشكل غريب بين النظام الإنكليزي والنومنكلاتورا الستالينية: درس في جامعة أوكسفورد، ثم عمل في المعهد الماركسي اللينيني خلال الرعب، وحالفه الحظ أنه نجا، وعاد لاحقًا إلى لندن ليصبح حكيم الماركسية البريطانية. وفي إحدى ذكرياته الغريبة، قال ستالين لمجموعة من النواب البريطانيين في الحرب العالمية الثانية، إنه رأى بينيتو موسوليني، الذي أصبح اشتراكيًا، في اجتماع ماركسي عندما كان في لندن. من المحتمل أنه رأى موسوليني في مؤتمر اشتراكي في ألمانيا، لكن الدوتشي الزعيم لم يكن في لندن. وأصبح الباكون، الساعي الإنكليزي لدى ستالين، ممرضًا في مستشفى باكينغهام.

أجرت «الدايلي إكسبرس» مقابلة معه في العام 1950 عندما كان في سن السادسة والخمسين. واختتم باكون بالقول «أتساءل إذا كان الجنرال ستالين، أبو كل الروس، يتذكر الصبي الطويل الذي اشترى له الطوفي».

لم يعد المنزل في شارع جوبيلي موجودًا.

[←269]

Ultra tense, like animals: RGASPI 337. 1. 44 description of anonymous delegate. Tshkakaya nursed. RGASPI .157. 1. 18. GF IML 8. 2

Said Devdariani. Stanford, Paris Okhrana, 176-83 .12 .1 box 195. 16c, folder I, on paying agent 1. 500 roubles .and Zhitomirsky etc

Andrew Rothstein, Lenin in Britain, pp. 21-9. I. Muravyova and I. Sivolap-Kaftanova, Lenin in London, pp. 165-8. Ivan Maisky, Journey into the Past (henceforth Maisky), pp. 54, pp. 137-44. Volkogonov, Trotsky, p. 47. Williams, pp. 82-3. Service, Stalin, pp. 67 and 78-9. Service, Lenin, pp. 170 and 181-2. For Congress, Jews, Trotsky pretty but useless and numbers of delegates, see `On Notes of a Delegate': Stalin, Works, 2: 47-80. Sympathetic to Jews: Stalin, Works, I: .20. I. V. Stalin o Lenine quoted in Smith, p

Radzinsky, Stalin, pp. 54-5. Smith, pp. 183-4. .188 Trotsky, My Life, pp. 88-91. Akopian, Shaumian, p. 44. Maxim Gorky, Days with Lenin, London n. d., pp. 5-7. Stalin and Churchill 15/16 Aug. 1942: RGASPI 45. 1. 282. Gromyko, Memoirs, p. 31. W. J. Fishman, Streets of East End, pp. 76-114. Alan Palmer, The East End, p. 111. George Lansbury, My Life, p. 246. J. Carswell, The Exile: The Life of Ivy Litvinov, pp. 63-70. Medvedev, Let History Judge, p. 309. W. J. Fishman, East End Jewish

:Radicals, p. 264. See also

London Landmarks: A Guide with Maps and Places Where Marx, Engels and Lenin Lived and Worked. Piaty (Londonsky) syezd Protokoly. pp. 121, 241, 349, 350. Voroshilov, Rasskazy a zhizni, I: 336. Tskhakaya', ill and :Ivanovich Signs loan agreement

Dubinsky - Mukhadze, `Mikhail G. Tskhakaya, pp. 111-12. `Friend of Illich-Mikho', Literaturnaya Gruzia no. .11965, pp. 15-20

Tower House: Observer 24 Oct. 2004; Mussolini: Evening Standard 14 Oct. 2004. Bacon: Daily Express 5 Jan. 1950. Congress: Daily Mail 10, 11, 13, 20, 21 May 1907; The Times 13, 17 May 1907; Daily Mirror 22 May 1907 and 10, 11, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 22 May 1907; Daily Express 10 May 1907. Who is that, Stalin asked Shumian: Yves Delbars, The Real Stalin, pp. 53-5. I am especially grateful to Dr John Callow, Director and Researcher of the Marx Memorial Library, London who is the expert on this subject and gave me generous guidance as well as his own memories of the `Stalin in Wales/Liverpool' urban myths, heard at the Morning Star bazaar and Profile Books in Liverpool during the .1980s, respectively

[←270]

Paris: GF IML 8. 2. 1. 56 G. I. Chochia. For travel timing .and dates: Ostrovsky, pp. 255-9

[←271]

نُسف الموقف البولشفي في جورجيا باغتيال الأمير الشعبي جدًا، إيليا شافشافادزي، الذي نشر قصائد سوسو، في آب/أغسطس 1907. هاجم البولشفيون نسخته البطريركية من الثقافة الجورجية، وساد اعتقاد، أنهم قرروا اغتياله؛ وهنالك بعض الأدلة على أن صديق ستالين، سيرغو أوردزهونيكيدزي، قد نظّم الاغتيال أو اشترك فيه. ويمكن أن الاشتراكيين الديموقراطيين لم يضطلعوا بأي دور في الجريمة بتاتًا. أثنى ستالين دائمًا على قصائد شافشافادزي، في سن متقدّمة، ولا دليل على أنه أمر بهذه الجريمة، لكنه كان مقرّبًا جدًا من سيرغو، وكان بالتأكيد أكثر من قادر على الفصل بين الجدارة الأدبية والحاجة الوحشية: تتقدّم السياسة على أي شيء آخر.

[←272]

أشار ستالين بنفسه لاحقًا إلى أنه كان في تامامشيف كارافانسيراي، ورأى تسينتسادزي يعطي الأوامر لأفراد العصابة، لكن تسينتسادزي كان قد أُوقف لتوّه. ربما اختلط الأمر على الديكتاتور المسنّ بين عملية السطو على المصرف هذه وسواها، في العام 1912 (راجع الفصل ال 29). في العام 1907، افترض أن كامو هو الآمر الناهي.

[←273]

أفراد العصابة الآخرون، الذين ارتكبوا فعليًا عدة عمليات سرقة، تملّكتهم الغيرة من شهرة كامو. قال باشوا كوربرياشفيلي «دعيت جماعتنا مجموعة كامو، لكن هذا غير صحيح. قبلنا كامو في مجموعتنا بعد عام تقريبًا من تأسيس المجموعة. وقد اضطلع بدوره في العملية الكبيرة، وبعدها أوكل كل شيء له... لكن كوت تسينتسادزي، إينتسكيرفيلي، أليسو لومينادزي... لم يكونوا أقل أهمية، وربما أعلى شأنًا من كامو».

[←274]

Tiflis expro: see the notes to the Prologue. GF IML 8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua Kupriashivili. GF IML 8. 2. 1. 50. 239-55 Dzhavaira Khutulashvili. Chavchavadze killing: Ordzhonikidze; see V. M. Gurgenidze quoted in .Geifman, Thou Shalt Kill, pp. 92-6

Stolypin: Williams, p. 85. Service, Stalin, p. 69. Arsenidze, interviews nos 1-3, 103-4, Nikolaevsky box .667, series 279, folder 4-5

Tsintsadze, pp. 40-9. Charkviani, `Memoirs'. Thirteen Hours Tiflis-Baku: Baedeker, p. 471. Krupskaya, pp. 40 .and 151-2

Radzinsky, Alexander II, p. 227 on Bakunin. Capt. Zubov .bribed: Ostrovsky pp. 545-7. Fanny: Futrell, p. 60

[←275]

نشر لينين جدلًا معرفيا «المذهب المادي والمذهب التجريبي». هاجم النسبية الفلسفية الصوفية لدى ألكسندر بوغدانوف، الذي اعتبر أنها تهدد المذهب المادي الماركسي.

[←276]

GF IML 8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua Kupriashvili. Kamo: Bibineishvili, pp. 94-110. Imnaishvili, Kamo, pp. 47-51. Dubinsky-Mukhadze, Kamo, pp. 12-86. Russian Review vol. 19 no. 3, July 1960, pp. 227-47. Williams, pp. 74, 104, 114-23, 185. Kun, p. 75. Geifman, Thou Shalt Kill, pp. 38, 85-92, 116-18, 167, 190, 201. Krasin, `Bolshevistskaya partiinaya tekhnika', p. 813. Nikolaevsky, `Bolshevistky zentr'. Stanford Paris Okhrana, box 200, folder ID XVII n4a and folder XVII m I. Tsintsadze on Chiatura railway heist-21. 000 roubles in Souvarine, Staline, p. 100. Arsenidze, p. 232. Bombs and Krasin: Williams, pp. 61-3, 112. Radzinsky, Stalin, p. .59

Baikaloff, pp. 20-1. Litvinov's arms-buying: see Istorichesky Arkhiv no. 4 1960, pp. 95-110. Phillips, Between the Revolution and the West, pp. 9-11. `From Bolshevik to British Subject', Slavic Review 48 no. 3, Fall 1989, pp. 388-98. Krupskaya quoted in Trotsky, Stalin, p. 105. Bibineishvili, pp. 116-30. Medvedeva-Ter-Petrossian, `Tovarish Kamo'. RGASPI 332. 1. 53: TSK organized committee to investigate Tiflis expropriation. Stanford Paris Okhrana, 209 folder XXb folder 2; 209 XXb folder 1; folder XVII L folder 2, XX. 328, XXb XXVII C, XXVc folder 1, XXVIIc folder 1, XXVIIc on Wallach and Kamo from the Chief of the Intelligence Service Paris

(including claim that sixty-three people took part in heist). On Okhrana informer reports that SRs conducted Tiflis expro and money stolen by Kamo: Vahtang Guruli, Materials for Stalin's Biography, pp. 9-11, and Tiflis Okhrana agents `N' and `Bolshaya' on 15 Jul. and 2 Jul. 1907. GIAG 95. 1. 82. 15, 21, 23. Carswell, .The Exile, p. 55. Credit Lyonnais: see Ostrovsky, pp .Lenin vs Bogdanov: Service, Lenin, p. 98 .499-500

[←277]

بعد وفاة لينين في العام 1924، أصبحت شرعية ستالين البولشفية مهمة كثيرًا، بينما حاول أن يثبت أنه يستحق أن يكون وريثهم. لو أثبت مارتوف طرد ستالين، لكان خلّص روسيا من الستالينية.

[←278]

Chavichvili, Révolutionnaires russes à Genève, pp. 74-91. RGASPI 332. 1. 53: TSK organized committee to investigate Tiflis expropriation. Expelled. Arsenidze, p. 232. Y. Martov on Stalin's expulsion: Vperod 31 Mar. 1918. Y. Martov, Spasiteli il uprazdniteli? Kto i kak nazrushal RSDRP?. Paris 1911, p. 23. Martov case: .Service, Stalin, p. 164. Revolutionary Tribunal: 5 Apr RGASPI 558. 2. 42 quoted in Kun, pp. 79-84;-1918 exactly the sort of person Lenin needs, expulsions not serious, p. 127. Pravda, I April 1918. Trotsky, Stalin, pp. .101-9. GF IML 8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua Kupriashvili

[←279]

Stalin’s house: Alliluyev Memoirs, pp. 52-4, 137; Nadya falls into sea, p. 110, though Anna says their brother .rescued Nadya

Home: GDMS 1955-146. 51-6 G. Elisabedashvili. RGASPI 558. 4. 663 Sergei Alliluyev. Tidiness-Sergei Alliluyev quoted in Lily Marcou, Staline: Vie privée (henceforth Marcou), p. 53. Kun. p. 38. Tiflis a marsh: Stalin, Works, 2: 188, and 8: 174-5. Service, Stalin, p. 70. Suny, `A Journeyman for the Revolution', pp. 373-94. Spandarian's women: Vulikh in Kun, pp. 129-30. Tucker, .p. 105

Starts in Russian Stalin, Works, 2: 42-6. Rothschilds: Smith, p. 399. Police laxer: RGASPI 124. 1. 2035 M. Frumkin. Fighting squads and arsenal, ship heists, Vyshinsky: GDMS 49 I. Bokov. RGASPI 558. 4. 583 I. .Bokov. GF IML 8. 2. 1. 19 S. Kavtaradze. GF IML 8. 2. 1 Bachua Kupriashvili. Ostrovsky, pp. 259-67. 1-26 .624 Pushing for strikes: see Sergo Ordzhonikidze and others in A. Rokhlin, Dvadtsat piat let Bakinskoi organizatsii bolshevistikov. GF IML 8. 2. 1. 35 I. P. Nadiradze. .Anastas Mikoyan, Tak bylo, pp. 347-8

Shaumian and filth of Baku: Mikoyan, Memoirs, pp. 72-4. Shaumian tensions, Tartars in meetings, Stalin's protection-rackets, killing informers, Spandarian debauchery, Stalin true boss, gangsterism: Tatiana

Vulikh to Boris Nikolaevsky box 207, folder ID 207-9. Persia: RGASPI 558. 4. 583 Mir Bashir Kasumov. Stalin's relations with Muslims in Baku: `History of the working Turkic proletariat' by Effendiev, `Istoriya rabochego', p. .53

[←280]
المصطلح الفارسي للحريق هو أذر. ومن هنا اسم البلاد أذربيجان.

[←281]

انضم إليهم بسرعة الرجل الإنكليزي، مرقس صاموئيل، ولاحقا الفيكونت بيرستيد، مؤسس شركة الشيل. وفي العام 1912، باع إدوارد دي روثشيلد، نجل ألفونس، معظم مصالح آل روثشيلد في باكو لرويال داتش شيل، وترأسها لاحقًا هنري ديتيردينغ. أخذ آل روثشيلد معظم مستحقاتهم في أسهم رويال داتش شيل، ما أشار إلى صفقة بارعة كلاسيكيًا لآل روثشيلد. تحاشى آل روثشيلد الاستثمارات النفطية في روسيا لحوالى قرن من الزمن، حاصدين ثروة أخرى في الطفرة النفطية الروسية في القرن الحادي والعشرين. القصر السابق لآل روثشيلد هو وزارة العدل في أذربيجان.

[←282]

كتب تلميذ ستالين الجورجي ميغيلادزي عنه، أن «لديه معرفة كبيرة في الصناعة النفطية». أصبحت باكو مهمة جدًا في العام 1942 عندما أمر هتلر، وهو بحاجة ماسة إلى النفط، جيوشه بأن تتقدم إلى حقولها النفطية. وجاءت النتيجة في معركة ستالينغراد التي كانت في الواقع معركة لأجل باكو. وأمر مفوّض النفط نيكولاي بايباكوف ستالين: «يريد هتلر نفط القوقاز. وتحت طائل خسارة رأسك، أنت مسؤول عن أن تحرص على تسليم النفط كاملًا... أتعلم أن هتلر أعلن أنه من دون النفط سيخسر الحرب؟».

[←283]

Baku too Persian, Nobel story, Rothschilds, wages, stories ot tycoons Mantashev etc: Tolf, Russian Rockefellers, pp. 87-100, 139-41, 151-8, 182. Anna Alliluyeva in Alliluyev Memoirs, pp. 52-5, 84-6. Giving to Bolsheviks: Krasin in Williams, p. 59. Tiflis a marsh, Baku a centre: Stalin, Works, 2: 188; second baptism of fire: Stalin, Works, 8: 174-5. Suny, `A Journeyman for the Revolution', pp. 373-94. Assassinations etc: Geifman, Thou Shalt Kill, p. 414. Smoky and gloomy: Trotsky, Stalin, p. 4. Essad Bey, pp. 123-37. Mikoyan, Tak bylo, pp. 347-8. Shaumian and filth of Baku, Mikoyan, :Memoirs, pp. 72-4. Kaleidoscope: Stalin, Works, 2 Baku irrepressible: Stalin, Works, 2: 141. Oil .378 Kingdom: Stalin, Works, 2: 141. On Baku, hitmen and strikes: Stalin, Works, 2: 81-3. Revolutionary centre: Stalin, Works, 1: 189. Reiss, The Orientalist, pp. 9-15, including p. 12 `Dodge City' quotation; and Stalin connection with mother and Krasin, pp. 20-1; Essad Bey quotes `my mother financed Stalin's press with her diamonds', p. 21; our city like Wild West, p. 32. Most dangerous place, rootless, physical violence, rapes, prehistoric, Gorky, life expectancy, disembowelled dogs: Baberowski, Der Feind, pp. 62-7. Nikita Dastakian. Il venait de la Ville Noire: Mauserists. Stalin expert on oil industry: Mgeladze, p. 28. For tales of Baku oil

barons, Nobels, the palaces: Faud Akundov's series `Legacy of the Oil barons', parts 1-4, in Azerbaijan International Magazine 1994. Farid Alakbarov, `Baku's Old City: Memories of How It Used to Be', Azerbaijan International Magazine Autumn 2002. Also see Manaf Suleymanor's classic Eskitdiklarim, Okhuduglarim, .(Gorduklarim (What I Saw, What I Read, What I Heard

[←284]

Berlin August 1907: RGASPI 558. 15095. Kun, pp. 85-7, 341. W. S. Churchill, Second World War, 6: 601. Stalin, Works, 2: 48; 13: 121, 388. Djilas, Conversations with .Stalin, p. 79. Smith, pp. 194-6

[←285]

كان تروتسكي مهملًا أيضًا: تخلى عن زوجته وابنتيه في سيبيريا، ولام «القدر»، ثم عامل أولاده بالترويع. لم تكن البولشفية والعائلة تتطابقان.

[←286]

العائلة، التي كانت هناك وتعلم أكثر من سواها، كتبت أنها عانت مرضًا في المعدة والتهاب غشاء القولون والتيفوس. عانت كاتو بالتأكيد تقريبًا السل المعوي أو الصفاقي (غير المترافق دائمًا مع السل الرئوي)، الذي يؤدي إلى خسارة الوزن والألم في المعدة والإسهال ونزف الأمعاء. ويقول ليفان شوميان، الذي كبر في منزل ستالين في العشرينيات، إنها توفّيت من السل وذات الرئة. انتشر التيفوس بالماء والطعام الملوّث، والتيفود ببقت الفراش ونقص المناعة، لكن كليهما انتشر بين الفقراء والسيئي التغذية. ويمكن أن يؤدي كلاهما إلى نزف الأحشاء والطفح الجلدي المسودّ. لم يكن من علاج حتى الخمسينيات. تسمّي كاتيفان جولوفاني، قريبة آل سفانيدزي التي أجرى معها المؤلف مقابلة في تبليسي، مرضها «سرطان المعدة»، وهو تفسيرها للنزف من الأحشاء. ومريم سفاندزي، نسيبة أخرى ما زالت على قيد الحياة في تبليس في سن 109 أعوام، والتي أجرى معها المؤلف مقابلة في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2005، تتذكر الوفاة بوضوح. قالت المئوية القوية والمتّسمة برجاحة العقل، التي تلبس ثوبًا زهريًا في منزل للمسنين في تيبليسي «كنت وقتها في سن التاسعة. التقطت كاتو ووالدي التيفوس في الوقت نفسه. تقول الكتب إن كاتو توفّيت بسبب السل، لكنني أؤكد لك أنه بسبب التيفوس. عانى كلاهما الطفح الجلدي الأحمر. وعلمنا أنه لو تحوّل الطفح إلى الاسوداد، فإنهما سيموتان.

بقي طفح والدي أحمر اللون. فنجا. لكنني أتذكر أن طفح كاتو تحوّل إلى الأسود، ثم علمت كل العائلة أنها ستموت. وماتت».

[←287]

Spandarian womanizer and fate of wife of Bolshevik: see Ogla Spandarian letter to Shaumian in `Suren Spandarian in Siberian Exile', Vestnik Archivov Armenii no. 1 1966. Haemorrhagic colitis: GF IML 8. 2. 1. 34. 317-54 Mikheil Misha Monoselidze. GDMS 87. 1955-368. 1-16 Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze. Typhus rash: author's interview with Svanidze cousin Mariam Svanidze, aged 109 Tbilisi, 2005. GDMS 1955-146. 51-6 G. Elisabedashvili. Nursing her: author's interview with Svanidze cousin Katevan Gelovani Tbilisi, 2005. Volkogonov, Trotsky, p. 11. TB and pneumonia, closed eyes: Levon Shaumian in Kun, p. .342.Sacraments: Delbars, The Real Stalin, pp. 52-3

[←288]

رد فعل ستالين على الوفاة شبيه جدًا بسلوكه بعد انتحار زوجته الثانية، ناديا أليلوييف، في العام 1932، مكتئبًا من تهديد الانتحار، ويرثي ذاته ويلوم نفسه على الإهمال. ويقول الإعلان عن الوفاة: «نُعلم رفاقنا والأصدقاء والعائلة بوفاة إيكاتيرينا سيميونوفنا سفانيدزي دجوغاشفيلي، معبّرين عن عميق الأسى والحزن باسم جوزيف الزوج، وسيمون وسيبورا، الوالدين، وألكسندرا وألكسندر وماريكو، الأخوة». أضاف ميخائيل مونوسيليدزي «في العام 1936، دُفنت زوجتي ساشيكو إلى جوار كاتو». توفيت ساشيكو متأثرة بمرض السرطان، لكن ربما كانت رحمة لها. لكن في أوائل الثلاثينيات، كان آل سفاندزي من أقرب رجال حاشية ستالين. لكن ضاعت ثروتهم فجأة. وبشكل رهيب: قصتهم واردة في خاتمة الكتاب. مقبرة تيفليس، مع صور لكاتو وساشيكو، ما زالت هناك؛ فضلًا عن سياج قديم خلف المدفن، ربما هي التي وثب عليها ستالين للهروب من الشرطة. وهناك قصة شائعة بين حافري القبور، أنه بسبب موت كاتو بالتيفوس، حاولت السلطات أولًا دفنها في «مقبرة الأوبئة» الجماعية، لكن العائلة استرجعت جثتها ودفنتها بنفسها.

[←289]

GDMS 1955-146. 51-6 G. Elisabedashvili. GF IML 8. 2. 1. 34. 317-54 Mikheil Misha Monoselidze. GDMS 97. 1955-368. 1-16 Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze. Gori: Davrichewy, p. 35. Iremashvili, pp. 30-40. Stalin in grave: author interview with Svanidze cousin Katevan Gelovani. Announcement: RGASPI 558. 4. 97. How he loved, overcome with grief, gun, failed to appreciate:RGASPI 558. 4. 647 Pelageya Onufrieva. .Kun, pp. 117 and 341; farce at the funeral, p. 342

[←290]
التقى مجددًا الآن مع رفاقه من تيفليس مثل سيرجو وبودو («البرميل») مديفاني، وأليلوييف وكافتارادزي، وعضو العصابة تسانيدزي، وشوميان الممشوق القامة وصاحب العينين الزرقاوين. انضمت إلى صديق ستالين الجديد فوروشيلوف وصديقه القديم يونيكيدزي، بعد فترة وجيزة عميلة، لينين الخاصة، صاحبة المعارف والمرأة النبيلة القاسية إيلينا ستاسوفا («الرفيقة المطلقة»)، وروزاليا زيملياشكا وأليكسينسكي وفتاة تدعى لودمييا ستال. لكن كان هناك أيضًا الكثير من المنشفيين من ماضيه، كدافدارياني. كان عالمًا صغيرًا.

[←291]

Alliluyev Memoirs, pp. 52-4, 137, 110. Home: GDMS 1955-146. 51-6 G. Elisabedashvili. RGASPI 558. 4. 663 Sergei Alliluyev. Marcou, p. 53. Kun, p. 38. Stalin, Works, 2: 42-6 and 188; 8: 174-5. Service, Stalin, p. 70. .Suny, `A Journeyman for the Revolution', pp

Vulikh in Kun, pp. 129-30. Tucker, p. 105. .373-94 Smith, pp. 214 and 399. RGASPI 124. 1. 2035 M. .Frumkin. Vyshinsky: GDMS 49 I

Bokov. Ostrovsky, pp. 259-67. RGASPI 558. 4. 583 I. Bokov. GF IML 8. 2. 1. 19 S. Kavtaradze. GF IML 8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua Kupriashvili. Sergo Ordzhonikidze in Rokhlin, Dvadtsat piat let Bakinskoi organizatsii .bolshevistikov. GF IML 8. 2. 1. 35 I. P

Nadiradze. Shaumian: Mikoyan, Tak bylo, pp. 347-8. Shaumian and filth of Baku: Mikoyan, Memoirs, pp. 72-4. Tatiana Vulikh to Boris Nikolaevsky, Nikolaevsky box 207 folder ID 207-9. Ogla Spandarian letter in `Suren Spandarian in Siberian Exile'. Persia RGASPI 558. 4. 583 Mir Bashir Kasumov. Abel Yenukidze, `Iz proshlogo .nashei partei', p. 18; Effendiev, `Istoriya rabochego'. pp Muslim connections with Nariman Narimanov .14-53 and Mammad Amin Rasulzade, see Rais Rasulzade, `Rasulzade: Founding Father of the First Republic', Azerbaijan International Magazine 1999. Rasulzade enjoyed a fascinating career, founding the Azeri SDs

(hiding Stalin on the run), then the Musavat Party, then helped create the independent Azerbaijan of 1918-21 before being rescued and taken to Moscow by Stalin, who let him go into exile (where Hitler tried to recruit .(him as a leader of a German-sponsored Caucasus

[←292]

Stalin in Switzerland: Ostrovsky, p. 265. Plekhanov and daughter in Switzerland: GF IML 8. 2. 1. 3. 291-310 Niko .Akhmeteli

[←293]

مسيرة ستالين في باكو غامضة، لكن مذكرات «الموسريين» تعطينا مفاتيح مفيدة. لم يمكن استخدامها في الحقبة السوفياتية، تحديدًا خلال ديكتاتورية ستالين، وهي بمعظمها لم تُنشَر، لكنها محفوظة في الأرشيف.

[←294]

في أول عملية خطف له، كانت فدية ناغاييف 10 آلاف روبل من الذهب: هدد خاطفوه بتمزيقه إربًا إربًا. فأجاب ناغاييف «لا أستطيع أن أدفع سوى 950 روبلًا».

«بالطبع يمكنك تمزيقي إلى شرائح، لكنكم لن تحصلوا عندها على شيء». ولم يدفع سوى 950 روبلًا. ثم في كانون الأول/ديسمبر من العام 1، خُطف ناغاييف مجددًا على أيدي أفراد عصابة بقيادة «جورجي شعره أسود ولديه هزمات غير اعتيادية». يفترض أن ناغاييف دفع 100 ألف روبل. كان ستالين حرًا في باكو في عملية الخطف الأولى، لكن في سجن باكو في العملية الثانية. فلو كان ستالين حرًا طليقًا في المناسبة الأخيرة، فلماذا كان ليشارك مباشرة حتى. وفي أي حال من الأحوال، أدار تنظيمه الإجرامي -الإرهابي من داخل زنزانته: كان ليستطيع بسهولة أمر أي من الخاطفين أو كليهما. وفي المقابل، لا تظهر القصة في أي مذكرات بولشفية، وتشير صحف العام 1909، إلى أن العصابة الثانية من الخاطفين هي من رجال الشرطة الأوغاد المرتبطين بنائب حاكم المدينة الكولونيل شوبينسكي. بيد أن ناغاييف ساهم على الأرجح في تمويل البولشفيين على غرار بارونات النفط الآخرين. وتمامًا مثلهم، خسر ثروته في الثورة؛ وتوفي في العام 1919.

[←295]

كان الضرب إذلالًا، يمكن أنه ساهم في الترحيل الوحشي لكامل العرق الشيشاني خلال الحرب العالمية الثانية، وكلّف ذلك زهق مئات آلاف الأرواح. وبالتساوي، نفى العديد من الأشخاص الآخرين خلال الحرب، وجعل أعراقا أخرى ضحية كالبولنديين والكوريين، ولم يكن له هذه الخبرة نفسها معهم. أما في ما يتعلق بموختاروف، فقد رفض أن يسلّم قصره إلى البولشفيين عندما أخذ الجيش الأحمر باكو في العام 1920. «ما دمت على قيد الحياة، فلن تطأ قدم أي بربري في أحذية الجيش منزلي!». وفي تبادل إطلاق نار، صوّب على البولشفيين حتى تم التغلّب عليه، وفي مرحلة معينة أطلق النار على نفسه. عاشت زوجته الجميلة، ليزا -خانوم، التي بنى لها قصر باكو، في الدور التحتاني، ثم هربت إلى تركيا حيث عاشت حتى الخمسينيات. قصر موختاروف هو الآن قصر الأفراح في باكو.

[←296]

عندما كان المارشال فوروشيلوف خارج حظوة ستالين في آخر أيامه، كان يبرّر: «لكن كوبا، أصبحنا صديقين في باكو في العام 1907»، فيجيب ستالين «لا أذكر». للاطلاع على حياته اللاحقة، راجع: خاتمة الكتاب.

[←297]

Raids in Baku and arrest: fighting squads and arsenal, ship heists, Vyshinsky, electric, almost too conspiratorial, killing opponents, plan to spring Stalin from jail: GF IML 8. 2. 1. 6. 183-203 Ivan Bokov. GDMS .49. I. Bokov quoted in Ostrovsky, pp RGASPI 558. 4. 583 I. Bokov. Vyshinsky on .259-67 Nicholas I ship heist: Victor Serge, Portraite de Stalin, p. 29. Vyshinsky, family in Odessa and Baku, in 1905-7, Bailovka, and in 1917-18: A. Vaksberg, Stalin's .Prosecutor, pp. 13-27. GF IML 8. 2. 1. 19 S. Kavtaradze GF IML 8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua Kupriashvili. RGASPI 558. 4. 523 and 627. RGASPI 4. 84. RGASPI 4. 107. S. Vereshchak, `Stalin vy tyurme', Dni 24. Jan. 1928. Sagirashvili, pp. 182-3. Service, Stalin, pp. 78-9. Marcou, pp. 55-7. For K. Kato pseudonym: Stalin, Works, 2: 125-31. Baku girlfriend: GMIKA 24(80). 114 Alvasi Talakvadze. Yenukidze, `Iz proshlogo nashei partei', p. 18. Voroshilov:RGASPI 74. 2. 130 and 240. Ludmilla Stal, Tatiana Slavatinskaya: F. Chuev, Kaganovich, pp. 160-2. A. Daushvili, Story of Soso Djugashvili, pp. 239 and 252. Stal and Krupskaya in Paris 1911: Krupskaya, p. 196. Maisky, p. 45. Marcou, p. 66; Ludmilla Stal biography: `Istoki podviga', Ural no. 3 1979. Stalin-Spandarian parties/deviations: GF IML 8. 2. 1. 42 A. D. Sakvarelidze. Sentiment, Skinning alive:

GFIML 8. 2. 1. 27. 202-10 Ivliane Kukulava. Money from Mancho, Rothschilds, Landau, oil companies: RGASPI 124. 1. 325; RGASPI 71. 15. 213; RGASPI 558. 4. 659 Sergei Alliluyev. A. Rokhlin, 25 let Bakinskoi organizatsii bolshviistikov, pp. 81-3. Ostrovsky is the best historian of the relationship between Stalin and big business, pp. 473-5, 587-9, 593-4. Reiss, The Orientalist, pp. 9-21 and 32. Thanks to Prince Karol Schwarzenberg for Dr Felix Somary story: it was told to him by Somary himself as an old man. Chechen guards beat up Stalin: I am grateful to Professor Jorg Baberowski for this story. Musa Nageyev kidnapping: Farid Alakbarov, `Baku's Old City: Memories of How It Used te Be', Mukhtarov and Stalin, tales of Baku oil barons, Nobels, the palaces etc: see Akhundov, `Legacy of the Oil Barons', parts 1-4. Memoirs of Manaf Suleymanov, Eskitdiklarim; see azeribook. com/history/manaf_suleymanov. For Nageyev, also see Jilar Khanum, granddaughter, and Stalin's ten-minute chats quoted on echo-az. .com/archive/2004_09/911/kulturao2. shtml

[←298]

في السلطة، طارد متحدّثي لغة الإسبيرانتو، وأوقفهم.

[←299]

وجد ستالين الكثير من عصابات «الموسريين» في بايلوفكا (كشركاء زنزانته الإخوة ساكاريليدزي). وكان المعارضان المنشفيان، ديفدارياني من الثانوية وأسيدوري راميشفلي من باتومي، أيضًا في زنزانته المزدحمة، لكن الآن أُجبرت الفصيلتان على العمل معًا مجددًا، وغضَّ النظر عن العمل اللصوصي.

[←300]

في تموز/يوليو من العام 1937، في قمة الرعب الكبير، كتب الرجل من غوري الذي نظّم المقايضة، أ. ب. ناديرادزي، إلى شخص آخر من شركاء الزنزانة، أندري فيشينسكي، النائب العام المفزع، لكن الجبان أمام ستالين، طالبًا منه أن يؤكد أنه أمضى وقتًا في القتل السياسي، وساعد على تنظيم مقايضة ستالين وفراره. أكد فيشينسكي ما جاء أعلاه، لكن في المقايضة بقي الناجي الفاسد على شاطئ الأمان: «أما في ما يتعلق بتنظيم استبدال الرفيق ستالين... فلا يمكنني أن أفيد عن ذلك لأنني لا أذكر». يبدو جليا أن ناديرادزي خضع للتحقيق في مرحلة الرعب، أو لماذا كان لجأ إلى فيشينسكي الخطير في هذا الموضوع الحسّاس، وفي هذا الوقت الخطير. لكن، يبدو من غير المعقول تقريبًا أنه كتب الرسالة لو لم تكن صحيحة بالكامل.

[←301]

Bailov: GF IML 8. 2. 1. 35-49. Ilya P. Nadiradze-swap, visit of Keke, hacksaw plan. Vereshchak, `Stalin v tyurme'. Essad Bey, pp.141-2. Smith, pp. 214-20. Service, Stalin, pp. 79-81. Trotsky, Stalin, p. 120. .Sentencing: Ostrovsky, p. 281; Vyshinsky letter, p. 285 Vyshinsky, family in Odessa and Baku, in 1905-7, Bailovka, and in 1917-18: Vaksberg, Stalin's Prosecutor, pp. 13-27. Trip, Butyrki Prison, Viatka hospital etc: RGASPI 558. 4. 629 and 71. 10. 276. Louse-racing, madness, wrestling, backgammon, Sergo fight vs SRs: GF IML 8. 2. 1. 42 A. D. Sakvarelidze. Plan to spring Stalin from jail: GF IML 8. 2. 1. 6. 183-203 Ivan Bokov. Sergo and SRs, Stalin to Voroshilov: RGASPI 73. 2. 38. Giddy-up, escapes, Budu and Stalin stories: author's interview with Izolda Mdivani (widow of Budu's son Vahtang) and Mdivani family, Tbilisi, Georgia, 2006. Dirty politics: author's interview with Yuri .Zhdanov.Dirty for the revolution: Beria, p. 18

[←302]

كان رئيس السجانين هناك يدعى سيروف، وسخرية القدر أنه والد الجنرال المستقبلي إيفان سيروف، من كبار رجال الشرطة السريين لدى ستالين، نافي الشيشانيين وأناس آخرين، وأول رئيس للجنة لأمن الدولة.

[←303]

صاحب سوسو رئيس مكتب البريد الذي أدى دور السجّان والتقى به عندما أخذ أوامر الدفع. أحب سوسو الصيد وحيدًا في الغابات خلال الصيف، وكان يلتقي ساعي البريد -السجّان لينقل إليه أوراقًا يسلّمها إلى السجناء في السجن المحلي. وسمح الكاهن المحلي لستالين باستعمال مكتبته.

[←304]

راجع: خاتمة الكتاب.

[←305]

Solvychegodsk: GAVO 108. 1. 5058. 1-29. RGASPI 157. 916 Stepan Shaumian to M. Tskhakaya. RGASPI 558. 4. 647- various memoirs in this font include Tatiana Sukhova; F. I. Blinov and Volodga transit jail; Stepan Belyakov, post-office/jailer; Alexandra Dobronravova (dancing), A. Dubrovin (Mustafa drowned); M. Krapina on singing and River Cock and escape; priest library. On Sukhova and Petrovskaya: GAVO 108. 2. 3992 and GAVO 108. 1. 2372. Stalin to Sukhova: RGASPI 558. 1. :4372. Details of Petrovskaya

office of Baku Governor, J. Djugashvili file including Baku interrogation of S. Perovskaya and Stalin RGASPI 558. 1. 635. 1-95.Information from local Volodga archives, train times etc-Ostrovsky, pp. 290-2. Service :Stalin, p. 70. Smith. pp. 222-32. Escapes

Daly, Watchful State, p. 72. Sergei Alliluyev, Pravda 22 Dec. 1939. Alliluyev Memoirs, pp. 136-7. Trotsky in Kun, pp. 96-7. V.Nikonov, Molotov Molodost, pp. 75-90. Georgian stranger helps: Charkviani, 'Memoirs'. Stalin :to Malakia Toroshlidze

Dubinsky-Mukharadze, Shaumian, p. 156. Bolshevik collapse: Tucker, pp. 147-50. Service, Lenin, pp. 195-8. Lenin on porn quoted in Lauchlan, Russian Hide-and-Seek, p. 245. Stalin and the women: Molotov Remembers, pp. 164 and 174. Silk handkerchief,

flower, T. Sukhova: RGASPI 558. 4. 647. Problems with dancing arm, can't take women by the waist: .Montefiore, p. 260. Kun, p
Kira Alliluyeva interview, quoting her mother -216 Zhenya. Author's interviews with Kira Alliluyeva, .Moscow. Foot: Service, p.571

[←306]

كيّفت الشرطة السرية ألقابها البارعة الخاصة لأهداف الرقابة الخاصة بها: الخبّاز هو «الكعكة»، وموظّف المصرف «الثروة»، والشاعر سيرغي اسينين «منضّد الحروف»، في حين قد تكون الفتاة الجميلة «الفاتنة» أو «الحسناء».

[←307]

Sergei Alliluyev, Pravda 22 Dec. 1939. Alliluyev Memoirs, pp. 136-7. E. D. Stasova, Stranitsy Zhizhn i .borby, p. 49. RGASPI 558. 2

and 565 K. Savchenko. RGASPI 161. 1. 20. Milkman 564 Okhrana reports: GARF 102. 00. 1909. 5-3- A. Milkbar .address: RGASPI 558.1. 4516 Stalin to Tskhakaya

[←308]

تمامًا، كما احتقر الزواج السعيد للنبلاء في السلطة، بعد انتحار زوجته الثانية في العام 1932. راجع: «ستالين: بلاط القيصر الأحمر».

[←309]

Stalin's activities, Okhrana `Fikus' reports: GARF 102. 00. 1909. 5-5-A. Death of Beso: RGASPI 71. 1. 275. Beso death and burial: GF IML 8. 14. 160. 1-8. Financial matters: S. M. Levidova and E. Salita, E. D. Stasova: .biografichesky ocherk, p. 173. GF IML 8. 2. 1. 624 Bachua Kupriashvili on mail-ship piracy. Stalin, 1-26 Works, 2: 150-62. RGASPI 558. 1. 26. RGASPI 558. 1. .4516. Service, Lenin, pp.195-8

[←310]

حتى مؤخرًا، كرّر المؤرخون أن بيسو توفي حوالى العام 1890، ربما في شجار في بار، لكن الأرشيفات الجديدة تنكر ذلك. ما إن تبوأ السلطة، حاول أتباع ستالين والمؤرخون إيجاد صور لبيسو، وأروها للديكتاتور للتعرّف إليه: تحتوي أرشيفات الحزب الجورجي على كوم صور عن الإسكافيين المحليين والمرشّحين ليكونوا بيسو.

ويرجّح أن صورة واحدة هي لبيسو لأنها قد عرضت في متاحف العبادة، لكن ستالين بذاته رفض التعرّف إلى الصورة. كما حاول رؤساء الحزب المحلي أيضًا إيجاد مقبرة بيسو، لكن فشلوا في هذا أيضًا. في الأربعينيات، قدم إيليسابيداشفيلي، الذي نجا من الرعب، إلى ستالين ساعة ادعى أنها لبيسو. رفض ستالين قبولها، مشيرًا إلى أن شخصًا آخر، ربما أغناتاشفيلي، هو والده الحقيقي. فضّل هذه الفجوة في حياته على وجود أي إشارة عن الرجل بذاته.

[←311]

مذكرات جيو ملحوظة لأنها نشرت في الاتحاد السوفياتي في العام 1925 بعد وفاة لينين مباشرة، لكن قبل أن يعتمد ستالين الديكتاتورية: وهميًا الوقت الوحيد في التاريخ السوفياتي حيث يمكن أن يحصل ذلك. صدر الكتاب في لينينغراد، في ذاك الوقت إقطاعة زينوفييف، يفترض أنه سمح بذلك كإنذار لستالين، الذي كان يتنافس معه على عرش لينين. يكشف جيو أن الشرطي الجورجي خان دولة القيصر ليس لأنه ماركسي، بل لأنه جورجي «وطني». كما يذكر جيو كيف أعطاه ستالين كلمات مشفّرة للاتصال برفيق آخر يدعى كورنيف، الذي اتضح أنه مشكوك في أمره، أنه على الأرجح عميل لدى الشرطة. اعتبر جيو أن كورنيف هذا قد خدع ستالين، لكن من المحتمل أيضًا أن ستالين كان يختبر أو يضحّي بجيو، أو أنه في عملية توظيف كورنيف.

[←312]

Williams, pp. 154-5. RGASPI 558. 1. 4516 Soso Stalin to Tskhakaya. Service, Lenin, pp. 195-8. Tucker, pp. 147-9. Sunny, `A Journeyman for the Revolution', pp. 373-94. RGASPI 124. 1. 325; RGASPI 71. 15. 213; RGASPI 558. 4. 659 Sergei Alliluyev. Rokhlin, 25 let Bakinskoi organizatsii bolshevistikov, pp. 81-3. Ostrovsky, pp. 473-5, 587-9, 593-4. Stalin and Mdivani (Bhochka) tipped off by Gendarmes: Krasnyi, Arkhiv no. 2 (105) 1941, p. 7. Traitor witchhunt: Krasnyi Arkhiv no. 2(105) .1941, pp. 708. Case of couple A

Prussakov and E. Kozlovskaya plus Leontiev: RGASPI 558. 4. 649 A. Khumarian. Leontiev case: Zaria Vostoka .28 Apr. 1928 S

Yakubov. Okhrana agent: GARF 102. 00. 1909. 5-3-A. Near arrest of Stalin, Sergo: Japaridze, Vospominaniya, p. 61. Stalin writes to editors of Bakinsky Proletary journal on provocations: RGASPI 558. 1. 26. Visit of :Chernomazov and accusation of Koberidze

Ostrovsky, pp. 304-6. Stalin and Kuzma accuse each other: B. Kaptelov and Z. I Peregudov, `Bye li Stalin agentom Okhranki?', Rodina no. 5 1989, p. 68. Russian Bureau appointed: Proletarskaya Revolyutsiya no. 5 .1922, pp. 231-2. I. P. Vatsek: RGASPI 71. 15

Shaumian: Mikoyan, Tak bylo, pp. 347-8. Mikoyan, .213 Memoirs, pp. 72-4. Uratadze, p. 67. Arsenidze, pp. 72

and 224. Jordania, `Stalin'. Olga Shatunovskaya: RGASPI 558. 4. 671. Tatiana Vulikh to Boris Nikolaevsky, Nikolaevsky box 207, folder ID 207-9. How Okhrana recruited Alliluyev Memoirs, pp. 43-5. Agents in Bolsheviks and how Okhrana spread suspicion deliberately: Daly, Watchful, State, pp. 95, 106 and 117; killing informants the duty of honest person says .Lenin, p. 37. Stefania Petrovskaya: K

Stefin in Stalin, Works, 2: 179-201. Stalin accuses Chernomazov witnessed by GF IML 8. 2. 1. 15. 266-72 Natalia Dondarov (Azarian). Petrovskaya: GF IML 8. 5. .212 Col. Leontiev of Okhrana report 28 Apr. 1914

[←313]

كانت الشرطة تفرض أحيانًا أتاوات عالية. كتب بولشفي مجهول، «عزيزي، لسوء الحظ لا أستطيع المساعدة. طلب الضباط 800 روبل لإلغاء الخارج (يعني الذهاب إلى الخارج بدلًا من دخول المنفى السيبيري) بالنسبة إلى ياكوف ميخايلوفيتش (سفيردلوف). من أين لي بهذا المبلغ؟».

[←314]

الدليل الأهم على أن ستالين كان عميلًا في الأوخرانا، هو التزوير المرجّح، ما يسمى برسالة إيريمين، التي ظهرت في العشرينيات ونشرت في صحيفة «لايف» في الخمسينيات، التي شكّلت العمود الفقري لكتب نظرية التآمر، بقلم أيه. د. ليفين واي. اي. سميث. كان الكونوليل إيريمين في الحقيقة رئيس الأوخرانا في تيفليس من شباط/فبراير 1908. وضعت الرسالة بوضوح من قبل شخص عرف الكثير عن ستالين والاوخرانا، لكنها تحتوي على سلسلة من الأخطاء في التفاصيل. وفي حين يقدّر فقدان ستالين لحس المسؤولية، قبض أيضًا على تفانيه للقضية، مدعيًا أنه كان عميلًا غير مُرض لأنه في النهاية كان ماركسيًا متعصبًا. عندما نشرت رسالة إيريمين في صحيفة «لايف» بعد وفاة ستالين، خلفه، الأمين الأول نيكيتا خروتشيف، والبوليتبورو، أمروا رئيس اللجنة لأمن الدولة، الجنرال سيروف، بتحليل صحته. وتوصّلت تحقيقاته، التي وجدت مؤخرًا في الأرشيفات، إلى أنه تزوير. أما في ما يتعلق بالنظرية فتقول إن الرعب الكبير كان بسبب جهود ستالين لإلغاء الدليل على روابطه بالأوخرانا. و«الملف السري لجوزيف ستالين» The Secret File of Joseph Stalin بقلم رومان براكمان (2001) يثبت الحجة بقوة.

[←315]

Tsarist agent: I am indebted in this section, unless specifically attributed, to Ostrovsky, pp. 431-62; on .escapes from exile, pp
on police corruption, p. 515 and pp. 545-7; on ;431-9 `Fikus' report on intelligence gathering by Stalin, p. 578; on 800-rouble bribe Sverdlov, p. 595, Stalin five escapes: Charkviani, `Memoirs', RGASPI 671. 1. 287 .Turukhansk money receipts 1913-15
Ordzhonikidze and Zaitsev: RGASPI 558. 4. 258. Japaridze, Vospominaniya, pp. 61-2. GARF 110. 19. 119. Stalin meets police official on street and gendarme tip-offs: GDMS 167 G. Varshamian; GARF 102. 00. 5-61- A. .Medvedev, Let History Judge, pp. 314-24
Service, Stalin, p. 74. Eremin letter: Lee, `Eremin Letter'. Eremin text in Smith, p. 306. General Ivan Serov memo to First Secretary N. S. Khrushchev and Politburo: RGASPI 558. 11. 1288 4 Jun. 1956. Vulikh to Nikolaevsky, Nikolaevsky box 207, folder ID 207-9. Uratadze. p. 67. Arsenidze, pp. 72 and 224. Jordania, `Stalin'. Olga Shatunovskaya: RGASPI 558. 4. 671. Shaumian's jobs, buyout from arrest Capt. Zaitsev: Akopian, Shaumian, pp. 64-76. Prison director Vachiev, 150 roubles each to free prisoners: `Iz proshlogo nashei partei', pp. 146-7. B. Kaptelov and Z. Peregudova, `Byl li .Stalin agentom Okhranki?, Rodina no. 5 1989, pp. 67-9

Artyom Gio, Zhizn podpolnika, pp. 67-73. B. Slavin, `Stalin i Okhranka', Alternativy no. 1 1998, pp. 78-81, including Martynov report on Prague Conference 1912 and Stalin's meeting with agent Tailor (Malinovsky), .plan to visit Lenin and work on Pravda

Details of Okhrana surveillance 1908-13; Krasny Arkhiv no. 2 (105) 1941, pp. 4-31. Stalin on betrayal as bite of .death: GF IML 8. 6

D. Chkheidze (Turdospireli). Stalin edits his own 312 Short Course biography including number of arrests: `I. V. Stalin sam o sebe: redakzionnaya pravka sobstennoy .biografii', Izvestiya TsK KPSS no. 9 1990

[←316]

RGASPI 558. 1. 628 and 635. 1-95 office of Baku Governor-J. Djugashvili file including Baku interrogation of S. Petrovskaya and Stalin. RGASPI 558. 11. 1290 and RGASPI 558. 4. 130 and 208. Stalin arrests with Petrovskaya: State Historical Archive of Azerbaijan 46. 3. 90. 430, 46. 1. 324. 165, 46. 3. 2. 52, 46. 3. 348. 10; and on Shaumian, Stalin and Petrovskaya 1. 1. 479. 12, 46. 3. 348. 6, 7, 8, 156. 1. 51. 66; ban from Caucasus 498. 1. 666. 8-10, 46. 3. 495. 103a, 498. 1. 176. 73-4, .498. 1. 176. 73-4, 498. 1. 175. 38, 498. 1. 176 Hospital: GF IML 8. 5. .156 .550 .1 .498 ,27 .1 .81 ,75-7 208 E. Esaian. Martynov: GARF 102. 00. 1910. 5-6-B. .Petrovskaya: GF IML 8. 5 Col. Leontiev of Okhrana report 28 Apr. 1914. On 212 Stefania later: Ilizarov, p. 288; A. L. Litvin and others (ed.), Genrikh Yagoda Narkom Vnutrennikh, Kazan .1997, p. 197

[←317]

يعود وجود ستالين كمنفي إلى هذه المنطقة ليطاردها. في العام 1940، أمر بناء معمل فولاذ عظيم في شيريبوفيت، لأنه يتذكره من منفاه في شولفيغودسك، على الرغم أنه كان غير ملائم بتاتًا: أقرب مستودعات معادن الحديد والفحم على بعد ألف ميل. لكن خشي ناصحوه كثيرًا من قول ذلك له. أخّرت الحرب العالمية الثانية البناء، لكن البناء بدأ في العام 1949. وبسبب المكان غير المناسب، ما زال معروفًا باسم «قذف ستالين».

[←318]

في أوائل العشرينيات، لسوء حظ إيفانيان أنه اصطدم حرفيا بستالين في موسكو، وعلى ما يبدو طلب مساعدته. في 7 حزيران/يونيو 1926، عندما كان القائد السوفياتي المسيطر، استشير ستالين حول إيفانيان، الذي كان في ذاك الوقت ضابطًا في مفوضية التجارة الداخلية. «ردًا على سؤالكم، أبلغكم بالوقائع التالية التي تحتاجون إلى معرفتها»، هذا ما كتبه ستالين في فقراته المرقّمة الخاصة به. النقطة السادسة أفضت إلى: «لاحقًا، بعد أن ذهبت إلى الخارج، تلقيّت كل مستندات اللجنة المركزية التي تثبت أنه تم إرسال 70 روبلًا لي... (و) المال لم يضع بل تلقّاه صاحب العنوان في فولوغدا». طُرد إيفانيان من الحزب، لكن أعيد بعد أن تدخّل البولشفيون القدامى لصالحه. وعندما أطلق ستالين العنان للرعب، طارده بيريا الرئيس عبر القوقازي ورجل الشرطة السرية. كتب إيفانيان يائسًا إلى الديكتاتور:

«ما زلت أقول إنه لا علاقة لي بال 70 روبلًا... رجاءً، ساعد على تبييض اسمي». ومن السخرية أنه نُفي مجددًا إلى فولوغدا، ثم نُقل إلى تيفليس وأُعدم.

[←319]

وُلد الابن، قسطنطين، بعد رحيل ستالين. التواريخ في شهادة الولادة غير مطابقة، لكن، كما في حالة ياكوف دجوغاشفيلي، والحقيقة تاريخ مولد ستالين المتغيّر، غالبًا ما أُعدت هذه المستندات قبل التاريخ الصحيح أو بعده. سجّلت هذه الأحداث في أي حال عرضًا في هذه الأيام، تحديدًا في القرى الصغيرة بعيدًا عن بطرسبرغ.

ونظرًا إلى إصرار الوالدة، وقبول ستالين التدخل في مسيرة عمل الولد لاحقًا، وعلم زوجته ناديا أليلوييف بالعلاقة، يبدو مرجَّحًا أن الديكتاتور عرف أن قسطنطين ولده (راجع: خاتمة الكتاب).

[←320]

RGASPI 558. 4. 628 various memoirs. Maria Kuzakova memoirs and others including Kryukova: RGASPI 558. 4. 647. Letters and contacts with abroad 31 Dec. 1910 and Jan. 1911. Stalin, Works, 2: 209-18. Zaria Vostoka .23 Dec. 1925. Ivanian: RGASPI 558. 1. 5097

S. V. Malyshev, `Moia rabota v Pravde', Bolshevistkaya Pechat vol. 4 1937, p. 22. To Petersburg?: Kun, p. 109. Serafima Khoroshina, Kuzakova memoirs and local records-GAVO 108. 1. 4670 and 5058, 108. 2. 235; GAVO 18. 2. 4988 and PAVO 109. 1. 4670 3837, 5. 27, 3837. 5. 27 and 3837. 5. 2, and PAVO 859. 10. 43. Thanks to the Directors of the two Vologda archives for .their help. Ostrovsky, pp

my account of the Serafima marriage is based :321-8 on Ostrovsky's researches in Party Archive of Archangel .Region (PAVO 859

Y. Sukhotin, `Bastard krasnogo vozhda'. .(1-2 .21 .10 GARF 102. 00. 1910. 5. Books, policemen, cheerful, singing laughing, fiction and history books, jail time: RGASPI 558. 4. 540 Ivan Golubev. Vstrechi s Vozhdem: Rasskazy krestyan s Kureiki o tov. Staline, pp. 32-6. Nikonov, Molotov Molodost, pp. 75-90. Sex and boredom: meeting of the British Ambassador Sir David Kelly and Stalin 28 June 1949 cipher report no. 548: thanks to Laurence Kelly and PRO 77618. Aram Ivanian:

Kun, pp. 110-19; RGASPI 558. 1. 5097; Beria, p. 135. Lenins's anger: Dubinsky-Mukharadze, Ordzhonikidze, pp. 75-6. Planting pine trees: Mgeladze, pp. 54-5. Guy Chazan, `East-West Alloy Reviving Stalin's Belch', Wall Street Journal 9 Jun. 2004: thanks to Guy Chazan for :this story

.'Lordkipanidze: Charkviani, `Memoirs

[←321]

في العام 1944، صادرت الشرطة السرية نسختها من هذا الكتاب مع بطاقات بريدية من ستالين. راجع: خاتمة الكتاب.

[←322]

Volodga: RGASPI 71. 10. 276. RGASPI 71. 10. 647. RGASPI 558. 1. 4333. GARF 111. 1. 111oa. RGASPI 558. .1. 30. RGASPI 558. 1. 5377

RGASPI 558. 1. 647. P. G. Fomina-Onufrieva. Also: Izvestiya Tsk no. 10 1989, p. 190. RGASPI 55. 4. 647 Sophia Kryukova. Life of Onufrieva: Kun, pp. 113-18. GARF 102. 00. 1911. 5-83 and 102. 7'd. 1911. 2093. GAVO 108. 1. 5058. Ostrovsky, p. 331. Krasnyi Arkhiv no. 8 1937, pp. 165-97. Krasnyi Arkhiv no. 2 (105) 1941, pp. 19-20. Details of Okhrana Surveillance 1908-13: Krasnyi Arkhiv no. 2 (105) 1941, pp. 4-31. Stalin meets Sergo in Petersburg: RGASPI 161. 1. 20 V. L. Shveitzer. S. Alliluyev, `Vstrechi s Stalym', Pravda, 22 Dec. 1939. 558. 4. 148 and 166. Spandarian to Krupskaya on Sergo giving Koba 50 roubles Sept. 1911 in S. Shaumian, Izbrannye proizvedeniya, no. 1, pp. 346-7. A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 38-40, on Todria etc. .Trotsky, Stalin, p. 134. `Serov' by M

Parrish in Slavic Military Studies Sept. 1997, p. 127. General Ivan Serov memo to First Secretary N. S. :Khrushchev and Politburo

.RGASPI 558. 11. 1288, 4 Jun 1956

[←323]

كان مراسله الآخر هناك، الأقل فتنة بكثير، بولشفيًا متبلّد الحس، ويلبس نظارة. يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، وقد نفي إلى سولفيشيغودسك قبله تمامًا.

اسمه فياشيسلاف شكريابين، ولاحقًا «مولوتوف»، الذي أصبح تابعه الأمين السياسي لفترة طويلة. سمع مولوتوف أن ستالين قد عرف «بلينين القوقازي». كان موسيقيًا ويستطيع لعب الكمنجة والمندولين. كان يربح روبلًا واحدًا يوميًا للعب المندولين للتجار الأغنياء وبغاياهم في المطعم المحلي والسينما الجديدة هناك. نظر ستالين إلى هذا على أنه دونه كبولشفي. لاحقًا، وبّخ مولوتوف، «أدّيت للتجارة السكارى. لوّثوا وجهك بالخردل!». لم يعتمد سكريابين «اسمه الصناعي» مولوتوف حتى العام 19. وفي هذا الوقت، دعي ريابين وزفانوف وميخايلوف وفي. أم.، برغم أن الأوخرانا أطلقت عليه اسم «العدّاء» لأنه كان يسير بسرعة كبيرة.

[←324]

شركاء ستالين من تيفليس وباكو، كالينين وشوميان، انتُخبا مرشحين لعضوية اللجنة المركزية - كبدائل عند توقيف الأعضاء الكاملي العضوية. أصبحت إيلينا ستاسوفا أمينة المكتب الروسي.

[←325]

GARF 7d. 1911. 2093 and 102. 00. 1912. 5-14-V. RGASPI 558. 4. 166. On police, Gendarme, Okhrana and .movements: Ostrovsky, pp

RGASPI 558. 2. 75 and 76. Five escapes, 5- .336-42 rouble bribes, reunion with Spandarian, strict conspiracy, letter about Prague, Rostov meeting, jumping out of train: RGASPI 161. 1. 20 V. L. Shveitzer. RGASPI 558. 2. 75. RGASPI 17. 4. 647. Molotov, Poluderzhavnyi, p. 297. Izvestiya TsK no. 5 1989, p. 185. Kommunist vol. 8-9 1988. B. Slavin, `Stalin i Okhranka', .Alternativy no

pp. 78-81. Code: Kun, p. 139. Prague: ,1998 Ordzhonikidze quoted in Kun, p. 129. Malinovsky: Ralph Carter Ellman, Roman Malinovsky, pp. 15-26, 31-3, 40-1 including quote on appearance, Lenin quote, hysterical, resigned, shot, pp. 58-66. Krupskaya, pp. 211 and 225. Radzinsky, Stalin, pp. 82-6 including Lenin and Malinovsky quotes. Krasnyi Arkhiv no. 8 1937, pp. 165-97. Krasnyi Arkhiv no. 2 (105) 1941, pp. 19-20. Details of Okhrana surveillance 1908-13: Krasnyi no. 2 (105) .1941, pp. 4-31

[←326]

أوقف الدرك كافتارادزي في اليوم التالي. عندما أروه صورة ستالين، ضحك لأنه بدا «أشعث الشعر». سأله الضابط «أتعرفه؟»، «كلا، يبدو مجنونًا». «هل تعرف دجوغاشفيلي؟». «نعم أعرف سوسو دجوغاشفيلي، رأيته للتو». «هل تعلم بأنه مجرم دولة خطير جدًا وهارب؟». «حسنًا، تعلم نحن الجورجيين نعرف بعضنا البعض دائمًا...». وأطلق سراح كافتارادزي.

[←327]

كانت الخادمة فتاة أستونية اقترنت لاحقًا بكالينين، وأصبحت السيدة الأولى للاتحاد السوفياتي قبل أن يتم توقيفها خلال الرعب في عهد ستالين، بينما بقي زوجها رئيس الدولة. راجع: «ستالين: محكمة القيصر الأحمر».

[←328]

S. Kavtaradze, Iz vospominanii o tov. Staline, pp. 3-17. Slavatinskaya: RGASPI 124. 1. 1782; Stalin letters to Slavatinskaya: RGASPI 558. 1. 5392. Yury Trifonov, Otblesk kostra, pp. 33-40. Relationship known: Ludmilla Stal/Tatiana Slavatinskaya: Chuev, Kagonovich, pp. 160-2. Sledging: Alliluyev Memoirs, pp. 138-41. RGASPI 161. .1. 20 V. L. Shveitzer

[←329]

كانت ستاسوفا، المعروفة الآن «بالرفيقة زيلما»، حفيدة مهندس الأباطرة ألكسندر الأول ونيكولاي الثاني، وكريمة محام نبيل يعمل في مجلس الشيوخ، المذيع في تتويج ألكسندر الثاني: كانت تتشاطر الكثير من الصفات مع النبلاء المثقفين، وخاصة لينين وكروبسكايا. عرفت ستالين من باكو، وكانت متخصصة في العمل السري، وغالبًا المنخرط في الحفاظ على أموال الحزب. كانت ستاسوفا فاقدة حس الفكاهة وصعبة الإرضاء، بحيث إن ستالين ضحك عليها. أصبحت لاحقًا إحدى سكرتيرات لينين. بعد وفاة لينين، عندما عارضه كروبسكايا، هدد ستالين شبه ممازح بتعيين ستاسوفا كأرملته كبديلة. لم تسع إلى منصب عال بعد وفاة لينين، مختفية تقريبا. إحدى البولشفيات القديمات القليلات اللواتي نجون من الرعب. برزت كأثر قديم مبجّل في حكم خروتشيف، وعاشت حتى حكم بريزهنيف، وتوفيت في العام 1966.

[←330]

Tiflis: RGASPI 558. 4. 534 M. Agayan. GF IML 8. 2. 1. 34. 317-54 Mikheil Monoselidze. GDMS 87. 1955-368. 1-16 Alexandra `Sashiko' Svanidze-Monoselidze. RGASPI 161. 1. 20 V. Shveitzer. GARF 102. 00. 1912. 5-7-b. GARF 102. 265. 540. V. S. Emuksuzian, Suren Spandarian, pp. 26-9. Istorichesky Zapisky no. 30, p. 80. Ostrovsky, p. 349. Visits to Tiflis and Baku: RGASPI 558. 4. 665; GFI .ML 8

G. Haupt, Les Bolsheviks par eux-même .42 .1 .2 .(Makers of the Russian Revolution), pp. 268-73

[←331]

Baku: Nikolaevsky box 207, folder 207-15 B. N. letter to T. Vuliksh 8 Aug. 1949. Rostov: RGASPI 161. 1. 20 Vera Shveitzer. Krasnyi Arkhiv no. 2 (105) 1941, p. 26. .Moscow leap out of train: Ostrovsky, pp. 350-1

[←332]

يتذكر ابن بولشفي في موسكو، يبلغ من العمر تسع سنين كيف أن قوقازيًا جاء لزيارة والده. لم يكن الوالد في المنزل، فتحدّث القوقازي بلطف إلى الطفل. وبينما كان مغادرًا، صفع القوقازي بحدة وجه الصبي قائلًا «لا تبكِ، أيها الصبي الصغير. تذكر، اليوم ستالين (أو مهما يكن الاسم الذي كان يستخدمه في ذاك الحين) تكلّم معك!». عندما أخبر الصبي والديه، غضبا وارتبكا حتى سمعا بهذه العادة الجبلية في جورجيا: عندما يزور أمير عائلة قروية، يصفع القروي ابنه على وجهه، ويقول «تذكر اليوم، زار هذا الأمير بيتنا».

[←333]

شنّ ستالين هجوما عنيفا على حكم «نيكولاي الأخير». كان الامبراطور والامبراطورة قد وضعا ثقتهما بشافي سيبيري وكاهن هيرفنت فاسق يدعى غريغوري راسبوتين. وعندما عُرفت علاقة راسبوتين الحميمة بالملك والملكة، أدى ذلك إلى فضيحة متنامية أبعدت أتباع الملك والماركسيين، على حد سواء. عرف قليلون أن الوريث الصغير، تساريفيتش أليكسي، عانى الناعورية النزفية. اعتبر نيكولاي وألكسندرا بشكل متزايد أن راسبوتين وحده قادر على وقف نزف الولد والتخفيف من آلامه. بدأ وزراء الداخلية ومدراء الأوخرانا المتغيّرون دائما، باستخدام عملائهم لتعقّب راسبوتين وتأريخ انغماسه المفرط في العربدة لتشويه سمعته لدى الامبراطور. وحكمت الامبراطورة بشكل مطرد على وزرائها من خلال موقفهم إزاء راسبوتين. كتب ستالين عنه عندما دعا القيصر وحاشيته «بمدمّري الحريات وعبّاد المشانق وزمرات إطلاق النار، أمناء الإمدادات والتموين، السارقين، ورجال الشرطة اللصوص ورجال الشرطة السرية المجرمين والراسبوتينات الفاسقة!...

لإكمال الصورة: إطلاق النار الوحشي على العمال الكادحين في حقول الذهب، لينا».

[←334]

Zvezda and Pravda: Nikonov, Molotov Molodost, pp. 50-6; Molotov meetings with Stalin, pp. 113-15. RGASPI 161. 1. 20. Stalin, Works, 2: 225-47, and 5: 130. Alliluyev Memoirs, pp. 148-9. Enziklopedichesky slovar Russkogo biographicheskogo instituta granat vol. 41; 2. 62-3. Arrest: RGASPI 4. 186. Stasova: RGASPI 71. 10. 407. May Day: Stalin, Works, 2: 219. Daly, Watchful .State, pp

Trotsky, Stalin, p. 126; quoting Stalin and Lenin, .130-2 p. 137. Service, Stalin, pp. 86-7. Malinovsky: Service, .Lenin, p. 206

Slapping boy's face: Medvedev, Let History Judge, p. .337. RGASPI 161. 1. 20 V. Shveitzer

[←335]

أخبر ستالين هذه القصة لمولوتوف وهما في طريقهما إلى مؤتمر طهران في العام 1943، ولصهره يوري زهدانوف. وبالعودة إلى ناريم، وجد شرطي المقاطعة أنه غائب في اليوم التالي، لكنه انتظر ليرى إذا كان سيعود من تومسك. وبحلول هذا الوقت، نقلت الشرطة هروبه إلى حاكم تومسك، الذي أصدر تنبيهًا، وكان ذلك في 3 تشرين الثاني/نوفمبر، وبقي ستالين في بطرسبرغ لأسابيع.

[←336]

Narym: RGASPI 4. 186. RGASPI 558. 4. 647. GARF 102. 00. 1912. 5-57-b. Krasnyi Arkhiv no. 2(105) 1941, pp. 26-7. RGASPI 161. 1. 20 Vera Shveitzer. Stalin and Sverdlov in Kolpashevo: Simon Vereshchak, Dni 24, Jan. .1928. E. Pesikina, Pravda 26 Dec. 1939: `V Naryme' - including quote from Y. Alexeyev. RGASPI 4. 647 and 558. 4. 190. Nikolaevsky's teacup: Kun, pp. .132-7. Kettle: Smith, p

Memoirs: Chernenko, Stalin, pp. 74-9. Service. .256 Stalin, pp. 88-9. A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, p. 115. Sverdlov-hair, eyes, kind, gentle, Stalin and Sverdlov compare notes about exile: Alliluyev Memoirs, p. 141. Escape, thunderous voice: Molotov Remembers, pp. 141-4. Haupt, Les Bolsheviks, pp. 76-82. Escape: Komsomolsky Pravda 10 January 2007, Yuri Zhdanov .memoirs

[←337]

Petersburg, Pravda, funds, election: Kavtaradze, Iz vospominanii o tov. Staline, pp. 3-17. Oktyabre no. 11 1942, pp. 100-3. Collects funds from Stasova: Stasova, Stranitsy zhizhni i borby, p. 101. A. E. Badaev, `O Staline', Pravda 19 Dec. 1939. Visits to Tiflis and Baku: RGASPI 558. 4. 665. GF IML 8. 2. 1. 42. RGASPI 558. 4. 647 Tatiana Sukhova. Slavatinskaya: RGASPI 124. 1. .1782. RGASPI 558. 1

Trifonov, Otblesk kostra, pp. 33-40. A. S. .5392 Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 113-61. Doctor of escapology: Levon Shaumian quoted in Kun, p. 109. .RGASPI 161. 1. 20 V. L. Shveitzer

[←338]

ترك كراسين في النهاية السياسة الناشطة، لكن لينين رحّب بعودته إلى البولشفيين بعد الثورة، وعيّنه مفوّض الشعب لشؤون التجارة والصناعة والنقل، ثم سفيرًا في لندن. وكان كراسين المهندس، أحد الأدمغة وراء تبريد جثة لينين وتحنيطها وعرضها، في العام 1924. وتوفي في العام 1926.

[←339]

GF IML 8. 2. 1. 624. 1-26 Bachua Kupriashvili. Kamo and robbery: David Shub, `Kamo: The Legendary Old Bolshevik of the Caucasus', Russian Review vol. 19 no. 3 Jul. 1960, pp. 227-47. Imnaishvili, Kamo, Section 1, pp. 74-88. Medvedeva-Ter-Petrossian, `Tovarish Kamo'. Jacques Baynac, Kamo: L'homme de main de Lenine, pp. 90-100. Kamo's mental illness: Geifman, Thou Shalt Kill, pp. 167-70 and 323; Geifman, Russia under the Last Tsar, pp. 1-14. Kun, p. 75. Escape with help of Kote Tsintsadze and shootout on Kadzhorskoe Highway: Souvarine, Staline, pp. 101-3. Visits to Tiflis and Baku: .RGASPI 558. 4. 665. GF IML 8. 2. 1. 42

[←340]

خدع كامو مجددًا، الشرك، مستفيدًا من العفو العام لذي أصدره نيكولاي الثاني في الذكرى ال 300 لسلالة رومانوف في العام 1913. بقي كامو في السجن طوال خمسة سنين لكنه عاش للقاء ستالين مجددًا، وللعب العنف المجنون الأخير بعد الثورة. (راجع: خاتمة الكتاب). ومن بين أفراد العصابة النساء، توفيت أنيتا وباتسيا بالسل، على غرار آخرين كثر. وبحلول نهاية الثلاثينيات، نجت ألكسندرا داراخفيليدزي وياشوا كوبرياشفيلي فقط لتكتبا مذكراتهما.

[←341]

تكشف مقالاته عن نظرته الساخرة إلى الدبلوماسية (نقلًا عن تاليراند) وإيمانه بالكلام المزدوج (قبل وقت طويل من ابتكار الكلمة من قبل أورويل): «عندما يعدّ الدبلوماسيون البرجوازيون الحرب، ينادون عاليًا «بالسلام». يجب أن تتعارض كلمات الدبلوماسي مع أفعاله. وإلا فأي دبلوماسي هو هذا؟ الكلمات المنمقة هي قناع يُخفي الأعمال المشبوهة. والدبلوماسي الصريح هو كالمياه الجافة، أو الحديد المتخشّب».

[←342]

RGASPI 124. 1. 1782; RGASPI 558. 1. 5392. Trifonov, Otblesk kostra, pp. 33-40. A. E. Badaev, Bolsheviki v gosudarstvennoi Dume, pp. 35-40. `Delo Malinovskogo', Rech 17 Jun. 1917. GARF 102. 00. 1912. 5-58b. RGASPI 558. 4. 157/193. Lenin, Biograficheskaya Khronika 3: 55. Elections: Service, Stalin, p. 90. A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 113-16. Stalin's election articles including Trotsky as fake champion with fake muscles: Stalin, Works, 2: 257-9 and 262-94. RGASPI .161. 1. 20 V. L. Shveitzer

[←343]

أطلق الرصاص على زوجها، الصحافي ألكسندر لوبوف، في العام 1918، كعميل لدى الأوخرانا. وقد بُرّئت، لكنها توفيت بالسل في العام 1924. وأعدم ستالين شوتمان، الذي بقي مقرّبًا من لينين حتى العشرينيات، في العام 1939.

[←344]

Route to Cracow, first trip: Alexander Shotman, `Kak iz iskry vosgorelos plamya', pp. 166-76. Smith, pp. 263-6, .270-6 and 300-3

Valentina Lobova: Kun, pp. 145-50. On meeting with Kalinin, Shotman etc and different theory of the :journeys to Cracow

Ostrovsky, pp. 364-6 and 369-70. Slavatinskaya: RGASPI 124. 1. 1782; RGASPI 558. 1. 5392; Trifonov, Otblesk .kostra, pp. 35-40

Molotov Remembers, p. 297. Badaev, Bolsheviki v gosudarstvennoi Dume, pp. 35-40. GARF 102. 00. 1912. 5-58b. RGASPI 558. 4. 157 and 193. A. S. Alliluyeva, `Vospominaniya', Roman-gazeta no. 1(13) 1947, p. 38. Election of SD Duma leadership: G. I. Petrovsky, .`Vospominaniya o Pravde', Pravda 5 May 1922

[←345]

With Lenin in Cracow, first trip: RGASPI 558. 1. 5170. Lenin, Biograficheskaya khronika 3: 50-5. GARF 102. 265. 531. Cracow, Lenin background: Krupskaya, pp. 204-5, including Stalin crossing border on transit pass. Service, Lenin. pp. 209-15. Lenin as Stalin's host, and beer: Charkviani `Memoirs'. Food: Komsomolsky Pravda .10 January 2007, Yuri Zhdanov memoirs

[←346]
هذا اللقاء مع المهرطقين الكبار، أُخفي خلال الحقبة السوفياتية.

[←347]

Back to Petersburg, Lenin summons Stalin back and election: Petrovsky, Pravda 5 May 1922. Badaev, Bolsheviki v gosudarstvennoi Dume, pp. 35-40. Todria meeting with Jordania: RGASPI 558. 4. 647. Letters from Cracow: GARF 102. 265. 532 (including 9/22 Dec. 1912 letter from Krupskaya to K. St.). RGASPI 558. 4. 560. GARF 102. 00. 1912. 5-58b. Krupskaya letters Nov. -Dec. 1912 and Stalin's letters from Cracow to Petersburg Dec. 1912-Jan. 1913; `Iz perepiski TSK RSDRP s mestnymi partinymi orgnizatsiyam', Istorichesky Arkhiv no. 2 1960, pp. 17-25. Lenin, PSS, .48: 162-9

[←348]
أثيرت نقاشات طويلة حول رحلتي ستالين إلى كراكوف: أخبر هو بنفسه العديد من القصص حول عبور الحدود (أخبر الطاغية العجوز قصة عبور الحدود ولينين والطعام لشابه المفضّل، يوري زهدانوف). هل كان يكذب؟ في حكاياته الشخصية، كان يميل إلى تضخيم الأمور أكثر منه اختراع قصصه بالكامل، تحديدًا في ما يتعلق برحلة معروفة. وعندما كان يكذب بصراحة، لم يكن يقول الكذبة بنفسه، بل يُدخلها ببساطة إلى معلومات المروّجين له. وبالتالي يرجّح أنه سلك تلك الطريق مرة على الأقل. يقول شوتمان إنه نظّم الرحلة الأولى؛ والمصادر الأخرى اختلطت عليها الأمور بين الرحلتين. وبالتالي، يعتقد هذا الكاتب أن الاجتماعات مع شوتمان كانت تتعلق بالرحلة الأولى التي كان هناك متّسع من الوقت للإعداد لها. وبالنسبة إلى الرحلة الثانية، التي لم يتح لها هذا الوقت، فقد جازف ستالين وفالينتينا على الأرجح بعبور الحدود من خلال طريق للمهرّبين.

[←349]

Second trip to Cracow: A. S. Alliluyeva, `Vospominaniya’, Roman-gazeta no. 1(13) 1947, p. 38. Shotman, `Kak iz iskry vozgorelos plamya', pp. 166-76. Smith, pp. 263-6, 270-6 and 300-3. Kun, pp. 145-50. On meeting with Kalinin, Shotman etc and different theory of trips to Cracow, see Ostrovsky, pp. 364-6 and 369-70. Crossing and no food, fool Stalin: A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 19-20. Stanislas Kot quoted in Smith, p. 405. RGASPI 124. 1. 233 Olga Vailand. Krupskaya letters: `Iz perepiski TSK RSDRP s mestnymi partinymi organizatsiyam', Istorichesky Arkhiv no. 2 1960, pp. 17-25. RGASPI 4. 3. 42. GARF 102. 00. 1913. .5-46b

Kalinin suspected: Ostrovsky, p. 371. Kamenev Eskimo letter: RGASPI 71. 10. 189. Kun, including interview with Olga Veiland, pp. 150-5. Service, Stalin, pp. 91-2. Krupskaya, pp. 204-5. Lenin as Stalin's host and beer: :Charkviani, `Memoirs'. Lenin. PSS, 48

Border crossing/food: Komosomolsky Pravda to .162-9 .January 2007, Yuri Zhdanov memoirs

[←350]
أخبر ستالين هذه القصة لستانيسلاو كوت، السفير البولندي، في مأدبة في الكريملين في 1941.

[←351]

صديق ستالين من تيفليس، كالينين، لم يرق إلى اللجنة المركزية لأنه اشتُبه فيه موقتا على أنه عميل مزدوج لدى الأوخرانا: البولشفيون، حتى عندما خانهم مالينوفسكي في صلب قلب الحزب، اشتبهوا في رفيق بريء.

[←352]

Second stay in Cracow Dec. 1912-Jan. 1913: RGASPI 71. 10. 189 and 558. 1. 4899. Malinovsky report on meetings: Stanford, Paris Okhrana, box 195, folder XVIc folder I March 1913. Illich nervous: Trotsky, Stalin, p. 149. Kun, p. 149. RGASPI 558. 1. 47 Stalin to Malinovsky .2 Feb. 1913. Molotov Remembers, p. 101

[←353]
الآن المثوى، البنسيون شونبران، الذي ما زال للغرابة يحمل اللوحة الزرقاء التي وُضعت في العام 1949، التي تقول: «ج. ف. ستالين سكن في هذا المنزل خلال يناير 1913. وكتب عمله المهم «الماركسية والسؤال الوطني» هنا».

[←354]
كان جوزيب بروز، المارشال تيتو لاحقًا، يعمل هناك كميكانيكي.

[←355]

في عالم سفاح القربى الخاص بالبولشفية، تطلّقت إيلينا لاحقًا من تروويانوفسكي ثم ارتبطت بعلاقة مع مالينوفسكي الخائن (وفق مالينوفسكي). تزوّجت بكبير البولشفيين نيكولاي كريلينكو، وهو عضو في الحكومة الأولى للينين، ولاحقًا قائد الجيش الأحمر، ثم النائب العام، وأخيرًا مفوّض الشعب للعدالة القاسي الذي أطلقت النار عليه في الرعب الكبير. ولحسن الحظ ترك كريلينكو إيلينا في أواخر العشرينيات، ما حفظ حياتها على الأرجح لأنها نجت من الرعب، وعملت بصمت في الأرشيفات، وتوفيت طبيعيًا في العام 1953. تزوّجت ابنة آل تروويانوفسكي غالينا بقطب بولشفي آخر، فاليريان كوبيشيف، وهو عضو في البوليتبورو الستاليني، وزير نساء، وسكّير أساء معاملتها. قال ستالين إنه كان ليتدخل لو عرف بضعف كوبيشيف تجاه الخمر وإدمانه عليه. وقد لاءم ستالين موت كوبيشيف المشكوك فيه من الكحول في العام 1. وأصبحت المربية أولغا فايلاند موظفة في الحزب والمنظمة الشيوعية كومينترن، وقد تقاعدت وهي لا تزال شابة، وعاشت حتى سن متقدمة. ومصير تروويانوفسكي - على الرغم من أنه ارتدّ ضد البولشفيين - كان مختلفًا جدًا: راجع: خاتمة الكتاب.

[←356]

«الماركسية والقضية الوطنية»، كان تحفة ستالين الأكثر شهرة: لم يتوقّف بنفسه عن تحريرها طوال حياته المديدة. وكانت ردًا على الاشتراكيين النمساويين الذين اقترحوا ما أسماه لينين «الاتحاد النمساوي داخل الحزب». وكما كان لينين دائما، عمليا وبعيد النظر، وأيديولوجيًا أيضا، كان يخشى أن البونديين اليهود أو المنشفيين الجورجيين، الذين دعوا إلى تغييرات في الحكم الذاتي، ثقافية أو حتى انفصالية وطنية، سيجعلون الحزب وفي النهاية الامبراطورية الروسية، غير قابلين للخضوع للحكم البولشفي. واحتاج إلى نظرية تقدّم مثالًا للاستقلالية وحق الانفصال من دون منح أي منهما بالضرورة. واتفق لينين وستالين على أنه يجب ألا يقف شيء في طريق الدولة المركزية. وحدد ستالين الوطن «كمجموعة مشكّلة تاريخيًا وثابتة، تجمع بينها وحدة اللغة والأرض والحياة الاقتصادية والنتيجة النفسية». وبالنسبة إلى اليهود، سأل ستالين: «أي نوع من الأوطان هو الوطن اليهودي الذي يتألف من اليهود الجورجيين والداغستانيين والروسيين والأميركيين الذين لا يفهمون بعضهم البعض، ويعيشون في أنحاء مختلفة من الكرة... ولا يعملون أبدًا معًا في الحرب أو السلم؟ لقد تم استيعابهم لأنه ليس لديهم طبقة ثابتة وواسعة مرتبطة بالأرض...». هاجم «الماركسية النمساوية» والحكم الذاتي الوطني، لكن في القوقاز قبل «بالحكم الذاتي الإقليمي». وقدّم حق الانفصال (نظريًا)، لكن لا يجب اعتماده. ولم تكتب هذه الورقة بشكل جميل، لكن فيها دقة تحوّلت إلى واقع عندما ابتكر ستالين شبكة الجمهوريات التي انضوت تحت اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. ويبدو الأمر وثيق الصلة بالموضوع، لأن سقوط الاتحاد السوفياتي في العام 1991 سمح للجمهوريات الكاملة، كأوكرانيا وأستونيا وجورجيا، بأن تصبح مستقلة، لكن ليس الجمهوريات المتمتعة بحكم ذاتي كالشيشان.

[←357]

Vienna: RGASPI 558. 4. 647. 418-20 and 431-4 Stalin in Vienna including Olga Veiland. RGASPI 124. 1. 233 Olga .Veiland. RGASPI 558

Stalin to Malinovsky. RGASPI 558. 1. 47. RGASPI 47 .1 30. 1. 3. Brigitte Hamann and Thomas Thornton, Hitler's Vienna: A Dictator's Apprenticeship, pp. 92 and 183. J. Sydney James, Hitler in Vienna, pp. 7-10, 107-10; .Trotsky, Hitler, p. 143; Trotsky, p

A. Kubizek, The Young Hitler I Knew, p. 83. Bruce .165 Thompson, Schnitzler's Vienna, pp. 2, 7, 25. Bruce Thompson, Hitler's Vienna, pp. 246-61, on balls, winter, Tito, Trotsky, Hitler. Carl E. Schorske, Fin de Siècle .Vienna, p. 119. Service, Stalin, pp. 92-3

Author's interview with Oleg Troyanovsky in Moscow. Troyanovsky, Cherez gody, pp. 24-5 and 161-2. Kun, including background of Troyanovsky, p. 153. Krylenko, Elena Rozmirovich: Vaksberg, Stalin's Prosecutor, pp. 33 and 328. Trotsky, Stalin, pp. 159-60 and 243. Smith, pp. 276-9. Stalin, Works, 2: 257-9 and 262 and 262-94. Stalin asks for Bukharin's address from exile: RGASPI .558. 1

Wonderful Georgian: Lenin, PSS< 48: 162-9. .5169 .GARF 102. 265. 882

[←358]

«سولين» و«سافين»، النسختان الأوليان من اسمه الجديد، قد تكونا غلطتين مطبعيتين، لأن سول تعني «ملحًا» باللغة الروسية: «رجل الملح» لا يحمل اللمعة المعدنية للنسخة الأخيرة. عندما كانوا يطبعون «زفيزدا» في نيسان/أبريل من العام 1912، تقول فيرا شفيتزر، «غيّر مجلس التحرير مرة التوقيع بشكل اعتباطي.

وفي اليوم التالي عندما فتح ج. ف. ستالين «زفيزدا» ورأى التوقيع «سولين»، ابتسم: «لا أحب الألقاب المستعارة الفارغة من المعاني».

وعاد إلى «ك. س.» حتى كانون الثاني/يناير من العام 1913. لم يكن ستالين «الاسم الصناعي» الوحيد: أصبح روسنفيلد -«كامينيف» -رجل الحجارة (برغم أنه بقي خفيفًا جدًا بالنسبة إلى لقب)؛ وأصبح سكريابين - «مولوتوف» -رجل المطرقة. كان هناك أيضًا موضة اتخاذ الألقاب من السجانين: استعار برونشتاين اسم «تروتسكي» من أحد سجّانيه.

وخلافًا للعديد من الادعاءات في السير الذاتية الغربية، ليس «ستالين» المثال الروسي لدجوغاشفيلي: دجوغا لا يعني الحديد أو الفولاذ، لا باللغة الجورجية ولا بالأوسيتية.

[←359]

Return from Vienna via meeting with Lenin Cracow Feb. 1913 and new name; Lenin approves: Charkviani, `Memoirs'. Stalin, Works, 2: 300-81. Marxism and the National Question. Stalin and Lenin's view of nation: Service, Stalin, pp. 87 and 99-105. Van Ree, `Stalin and the National Question'. GARF 102. 265. 532 (including 9/22 Dec. 1912 letter from Krupskaya to K. St.). Stalin name: Stalin, Works, 2: 192, 254, 294 (12 Jan. 1913 first Stalin byline). Duranty quoted in Kun, pp. 158-9. Name: .RGASPI 17. 4. 647 V

Shveitzer. Molotov Remembers, p. 164. Ludmilla Stal/Tatiana Slavatinskaya: Chuev, Kaganovich, pp. 160-2. Daushvili, Story of Soso Djugashvili, pp. 239 and 252. Stal and Krupskaya in Paris 1911: Krupskaya, p. 196. Maisky, p. 45; Marcou, p. 66. Ludmilla Stal biography: .`Istoki podviga', Ural no. 3 1979

[←360]

Arrest: police interrogation: RGASPI 558. 4. 214. Service, Lenin, p. 214. Make-up, drag, big shoes: .Nikonov, Molotov Molodost, pp

Slavatinskaya: RGASPI 124. 1. 1782; RGASPI .128-33 558. 1. 5392; Trifonov, Otblesk Kostra, pp. 33-40. Luch 26 Feb. 1913. Shotman, `Kak iz iskry vozgorelos plamya', pp. 175, 166. Badaev, Bolsheviki, pp. 155-66. .Woman's mantle: Trotsky, Stalin, pp. 157-61. A. S

Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 44-5. Stalin letters on Dan/Malinovsky, shortage of people, chocolate for Galochka, Malinovsky planting suspicions about others are recent discoveries by Ostrovsky, and also details of sentencing including informing of Minister of Interior: Ostrovsky, pp. 374-80. Georgian boy: GARF 102. 265. 882. GARF 102. 00. 1913. 307. Vissarionov: GARF 102. .00

5-57V. Iz arkhiva L. O. Dan, p. 101. RGASPI 558. 4. .1913 659 F. N. Samoilov. Delo provokatora Malinovskogo, p. 216- Malinovsky meets S. P. Beletsky. Ellman, Roman Malinovsky, pp. 15-26, 31-3, 40-1, 58-66. Krupskaya, .pp. 211 and 225. Radzinsky, Stalin, pp

including Lenin and Malinovsky quotes. RGASPI ,82-6 558. 1. 47 Stalin to Malinovsky. RGASPI 558. 1. 48. Lenin's worries: Smith, pp. 300-3. Urals mission: Kun, p. .163

[←361]
يتفاخر مركز التجارة هذا بديره التبشيري الكبير، الذي عمّد رجال القبيلة المحليين وترأسه ميخيل سوسلوف، والد جد النبيل السوفياتي، والذي سُمي على اسمه، وقد اختاره ستالين بعد الحرب العالمية الثانية وأصبح البطل السري لحقبة بريجينيف.

[←362]

Yenisei: Service, Stalin, pp. 107-9. Istoricheski Arkhiv no. 5 1956, p. 116. GARF 5449. 1. 63: B. Ivanov, Stalin i Sverdlov v Turukhanskoi ssylke. V. Zavialov. `Tov. Stalin v Turuskanske', Krasnoiarsky Rabochyi 21 Dec. 1939. Trotsky, Stalin, p. 170. Lenin, Biograficheskaya khronika, 3: 125-50. Ostrovsky, pp. 387-8. Dubrovinsky's library: .Trifonov, Otblesk kostra, pp. 35-7. A. V Antonov-Ovseenko, Stalin bez maski, p. 383. F. .Zakharov story quoted in Kun, p. 164

[←363]

RGASPI 558. 4. 200. Slavatinskaya: RGASPI 124. 1. 1782 Lenin, Biograficheskaya khronika, 3: 125-50. RGASPI .558. 1. 52. RGASPI 55

RGASPI 558. 1. 89. RGASPI 558. 1. 659. GARF 102. .49 .1 00. 1914. 5-25b. RGASPI 558. 1. 4234. Also: Trifonov, .Otblesk kostra, pp

RGASPI 5581. 1. 5168. Bathhouse with .559-65 Sverdlov: Kun, pp. 163-5. Escape suspicions: Zavialov, .`Tov. Stalin'. RGASPI 558. 1

Money received 135 roubles: Ostrovsky, p. 395. .4235 Move to north: RGASPI 558. 1. 51. RGASPI 558. 4. 234. .K. T. Sverdlova, Y. M

Sverdlov, pp. 175-7. Sverdlov and Stalin, week together, escape plans: E. Gorodetsky and Y. Sharapov, Sverdlov, .pp. 95-100

[←364]

سفيردلوف كان على خطأ: هناك منطقتان باسم كوريكا. لكن موقعهما هو جنوب المنطقة القطبية الشمالية تمامًا.

[←365]

Kureika: Chernenko, I. V. Stalin v sibirskoi ssylke, pp. 140-2. I. M. and A. S. Taraseev and other memoirs: .RGASPI 4. 662 and 581

Money orders: Ostrovsky, p. 397. Malinovsky Case: RGASPI 558. 1. 52. Yakov Sverdlov, Izbrannye, pp. 267-80. Gorodetsky and Sharapov, Sverdlov, pp. 99-101. Vera Shveitzer, Stalin v turukhanskoi ssylke, including visit to Stalin in Kureika and his room, singing, .Kamenev, pp. 30-2 and 47-50

[←366]

في العام 1942، قام المبعوث الأول لكراسنويارسك، كوستانتين تشيرنينكو، الذي اشتهر أيام الثورة الفرنسية بإصدار التحذيرات الرسمية، وحتى المشاركة في أحكام تنفيذ الإعدام، بتكليف المؤرخ الشهير أم أيه موسكاليف بإجراء لقاء مع معارف ستالين في قرية توروكهانسك لكتابه المتملق الذليل، «ستالين في المنفى السيبيري».

وطبع تشيرنينكو الكتاب وأرسله إلى موسكو للحصول على الموافقة. وفي النهاية، أنشأ عضو اللجنة الشيوعية التنفيذية ورئيس شرطة بيريا السرية مهنته على مراقبة التاريخ الحافل على نحو غريب لمهنة ستالين القوقازية. لكن الأمر لم ينفع هذه المرة. فقد كان ستالين مستاءً بشدة من أسئلة تشيرنينكو، بالرغم من أنها تعود بالخير علينا نحن المؤرخين. كان الديكتاتور يعمل لساعات طويلة للفوز بمعركته؛ عرف بعدم وجود شيء متألق يكشفه في كوريكا، بل على النقيض تمامًا؛ أخذ ينمي دينه الوثني ويزدريه؛ وكان موسكاليف يهوديًا، وهو عرق لم يعد ستالين يثق به على نحو متزايد. اتصل بتشيرنينكو وصاح به. تم سحب الكتاب. اعتقل موسكاليف ما بعد الحرب المناهضة للسامية، لكنه نجا منها كأهم مؤرخ سوفياتي في الستينيات. تجمدت مهنة تشيرنينكو. لكن تملقه الجديد عثر له على حليف آخر: أصبح المستشار الأعلى لليوند بريجنيف لوقت طويل، وعضو اللجنة الشيوعية والوريث قبل الأخير كقائد سوفياتي في العام 1984: يمثل الحكم القصير لهذا المخفق الخرِف الزوالَ الشيخوخي للاتحاد السوفياتي. توفي تشيرنينكو العام 1985. كان وريثه هو المُصلح المتحمس ميخائيل غورباتشيف.

[←367]

الفردانية، كانت تعتبر إهانة ماركسية لأن الشيوعية تعني التضحية بالفرد من أجل الجماعة.

[←368]

Ostrovsky, p. 397. Malinovsky: RGASPI 558. 1. 52. Sverdlov, Izbrannye, pp. 266-80, letters to Sara .Sverdlova, L. I. Besser, D. F

Petrovskaya, wife Klavidia Novogorodzeva (depression June 1914), p. 321, L. Dilevskaya (no trace of .(comradeship or community

Gorodetsky and Sharapov, Sverdlov, pp. 99-103. Shveitzer, Stalin v turukhanskoi ssylke, pp. 30-2 and 47-.50. Ilizarov, pp. 291-3

[←369]

تمامًا مثل قضية أزيف، هزت الفضائح التي انتشرت حول مالينوفسكي في الدوما التأسيس السياسي، وساعدت في التقليل من شأن المصداقية والأهلية، ليس فقط الخاصة بأوخرانا، بل أيضًا للدوما، الامبراطورية والدولة بحد ذاتها. إحدى أوائل متهمي مالينوفسكي، هي إلينا (روزميروفش) ترويانفسكايا، مضيفة ستالين في فيينا، التي أصبحت عضوًا في مجلس الدوما الشيوعي. وبرغم ذلك، تجاهل الخائن هذه على أنها أشياء لا رغبة له فيها عند حبيبته السابقة، لكن الحقيقة هي أنه لم يكن من الممكن النيل منها. عندما وقع مالينوفسكي أسيرًا لدى الألمان خلال الحرب، أرسل لينين إليه الملابس، لكنه، بعد الثورة، واجه دليلًا جعله يغير وجهة نظره: يا له من شخص دنيء: إطلاق النار عقوبة لا تكفيه. حوكم مالينوفسكي في تشرين الثاني/نوفمبر 1918، وكان يقاضيه، على نحو ساخر، زوج إلينا روزميروفش، نيكولاي كرلينكو، في محكمة ترأسها إلينا نفسها. أطلق النار على مالينوفسكي.

[←370]

Malinovsky Case: Ellman, Roman Malinovsky, pp. 31-66. Radzinsky, Stalin, quotes Lenin, p. 86. Motolov .Remembers, p. 101

Smith, p. 249. Daly, Watchful State, pp. 150-3. Krylenko, Elena Rozmirovich: Vaksberg, Stalin's .Prosecutor, pp. 33 and 328

[←371]

Sverdlov feud: Sverdlov, Izbrannye, pp. 266-80, p. 321. Gorodetsky and Sharapov, Sverdlov, pp. 99-103. GARF .5449. 1. 63 and 75 B. I

Ivanov. A. M., A. S. and F. A. Taraseev memoirs: RGASPI 558. 4. 581, 667 and 662. On movements from house :to house in Kureika

Ostrovsky, pp. 397-9. Antonov-Ovseenko, Stalin bez maski, pp. 380-90, Ostrovsky believes there may have been and escape attempt: Ostrovsky, pp. 402-3. Kun, .pp. 169-75

[←372]

انتشرت إشاعات كثيرة لعقود عن قيام ستالين باغتصاب أو فتاة في توروكهانسك أو إغوائها، وبأنه والد لطفلها. ظهر الأمر أولًا في سيرة الحياة التي كتبها إيساد بي العام 1931. تقول سفيتلانا أليليفا إن عماتها أخبرنها بأن لستالين طفلًا في المنفى. تكررت القصة في سير الحياة ومقالات الصحف المثيرة، لكنها بدت غريبة، على أنها مجرد أساطير مناهضة لستالين. لكنها مثبتة في مذكرة الجنرال سيرفو الخاصة بالشرطة السوفياتية السرية في الثامن عشر من تموز/يوليو 1956 للمبعوث الأول كروشتشيف وبولتبيرو. كان سيرفو، العنصر من الشرطة السرية متعلقًا بمبادئ ستالين، يعمل على فصل نفسه من بيريا وتعليقها بكروشتشيف. وبعد موت ستالين، ساعد كروشتشيف في اعتقال ونفي بيريا، ليصبح بذلك الرئيس الأول للشرطة السرية KGB، وهي نسخة جديدة عن الشرطة السرية. قُرئت مذكراته سرًا في اجتماع بوليتبرو، ووقعها جميع الموالين القدامى لستالين، وتم إيداعها في الملف الخاص بالسرية المطلقة.

[←373]

الرابعة عشرة هي تقنيا السن الشرعية للعلاقة الجنسية في الأقاليم الروسية والأوربية، لكن هذه سيبريا. وفضلًا عن عدم وجود أي مفهوم قانوني محدد للاغتصاب يعاقب عليه القانون في قانون الامبراطور الروسي؛ بالنسبة إلى الشرطة، تعتبر هذه جريمة ضد شرف الأنثى بقدر ما هي خرق لأملاك والدها. أما موافقة المعتدي على الزواج ومن ثم تبادل نذور الزواج، فيعتبر ان إصلاحًا لوضع غير ملائم.

[←374]

Lidia and Laletin: RGASPI 558. 4. 662 L. P, Pereprygina-Davydova and F. A. Taraseev. RGASPI 558. 4. 667 M. A. Merzliakov. RGASPI 558. 1. 5169. A. Kolesnik, Khronika zhizni semia Stalina, pp. 58-62. Sukhotin, `Bastardy krasnogo vozhdia'. A. Rokhlin, `Gde pryatali nezakonnorojdennogo syna Stalina?', Moskovsky Komsomolets 22 Jun. 1996. Ivan Serov memo to Politburo: RGASPI 558. 11. 1288. Izvestiya 8 Dec. 2000. Antonov-Ovseenko, Stalin bez maski, pp. 380-90. Pereprygin household, first Latetin sabre incident: chernenko, I. V. Stalin v sibirskoy ssylke, pp. 140-9. Vstrechi s vozhdem: Rassakazy krestyan s Kureiki o tov. Staline, pp. 21-3 Anfisa Taraseeva-Stalin arrives; daughter Dasha on his back; songs; taught dancing; rubbed ointment vs rheumatism; Tishka dog; pp. 23-5 Ivan Saltykov on children, Dasha riding on his back songs; reading; writing more; making hut on Polovinsky Island, living there for weeks; hiding the rifles for Stalin; games out hunting; Pereprygins very poor. Elizaveta Taraseeva quoted in Ilizarov, pp. 308-9; Ilizarov quotes Merzliakov, pp. 300-5, and Lidia Pereprygina, pp. 310-:11. Lidia in love http: //memorial. krsk. ru/Work/Konkurs/4/Panteon_stalina/oo. htm. Kun, pp. .169-75. Svetlana Alliluyeva, Only One Year, pp

Woman and child in exile: I. D. Perfilev in .381-2 Volkogonov, Stalin, p. 8. Siberian girl steals into bed at .night: Essad Bey, p. 191

Mark Franchetti, `Stalin's Secret Son by Girl 14', Sunday .Times, 2001

[←375]

Spandarian arrives: Suren Spandarian, Statii, pisma, dokumenty, pp. 340-1. RGASPI 161. 1. 10 V. L. Shveitzer: Shveitzer, Stalin v Turukhanskoi ssylke, pp. 18-31. Kun, p. 129. Dr Dan Healy advised on the Tsarist age of consent and concept of statutory rape.Stalin on .the First World War: Stalin, Works, 3: 39-40

[←376]

لقد جذبت الأموال الشكوك، لكنها كانت قليلة جدًا بالنسبة لراتب عميل في أوخرانا. وقد ضمت بعضًا من راتبه من مجلس المدينة. وكما رأينا، كان سفيردلوف يتلقى أكثر بكثير. وبرغم ذلك، أثناء الثورة الكبرى العام 1938، بدأ رئيس الشرطة السرية التابع لستالين، القزم المسموم نيكولي يزهوف، الذي أصبح الصياد المقرب، وكان يشرف على ذبح أكثر من مليون بريء، بإدراك أنه كان مُستغلًا. كان يزهوف، المنغمس في الإدمان على الكحول والفسوق الجنسي، قد جمع معلومات يتم استخدامها كمعلومات أمنية أو للابتزاز ضد سيده والأقطاب بيريا وجورجي مالكينكوف وخروشيف. استلم عشر حوالات مالية لستالين وأبقاها في خزنته الشخصية، لكن لم يكن هناك دليل على ذلك. ثلاث منها كانت من غوري، ربما من والدته أو أغناتاشفيلي. والسبع الأخرى، من موسكو وبيترسبرغ، لتضيف 100 روبل أخرى، ليدفع عشرة روبلات من هنا وعشرة من هناك، على الرغم من أن اثنتين منها كانتا تحتويان على أكثر من 25 روبلًا لكل منهما. لكنها لم تنقذ يوزهوف، الذي صُرف من الخدمة في أواخر 1938 وأُطلق عليه النار في 1940. وعلى نحو مثير للاهتمام، لم يكن ستالين يتلف أوراق الحوالات المالية، وكان يصنفها فقط مع أوراق يزهوف حيث وجدها آرتش غيتي، الذي أطلعني عليها بسماحة. ومن أجل المزيد عن القصة الكاملة لسمو ويزهوف تحطيم، اقرأ: «ستالين: محكمة الامبراطورية الحمراء».

[←377]

قبل أن يخبر التابعين هذه القصة: كان ستالين الهرم قد واجه حادثًا مشابهًا لذلك الذي حصل مع نائب الرئيس الأميركي ديك تشيني العام 200: أثناء التباهي بمهاراته في إطلاق النار، أخطأ بطلقة، وكاد يصيب نبيل بوليتبرو أناستاس ميكوين، وأمطر اثنين من حرسه بالطلقات. وكونهما قد بدآ مسبقًا بكره الديكتاتور المزعج وازدرائه في الأعوام التي تلت الحرب، كان بيريا وخروشيف قد سمعا بهذه القصة عن بطولة ستالين لمرات كثيرة. لم يصدقاها. بعد العشاء، كتب خروشيف، قلنا بسخرية في الحمام: «لذا يزعم ستالين أنه تزلج 12 فرست في الشتاء، وقتل اثني عشر حجلًا، وتزلج عائدًا 12 فرستًا ثم عاد 12 فرستًا أخرى، أصاب 12 طيرًا، تزلج عائدًا 12 فرستًا -48 فرستًا على الزلاجات!» (48 فرستًا = 3 ميلًا). اسمع، تعجب بيريا، إنه رجل من القوقاز لم يتملك فرصة التزلج مسبقًا من قبل، وبرغم ذلك سافر مسافة كهذه؟ إنه يكذب. وافقه خروشيف: بالطبع، كان يكذب! لقد شاهدت بعيني أن ستالين عاجز عن إطلاق النار! في الحقيقة، في العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، كان ستالين يستمتع بالصيد في أيام الإجازة، بالرغم من أنه كان يعتبره مضيعة للوقت».

[←378]

بعد كارثة العام 1942 بإهانة كاركوف، قدم ستالين إلى كرشتشيف توبيخًا عنيفًا. قال، أثناء الحرب العالمية الأولى، عندما أحاط أحد الجيوش بألمانيا الشرقية، هرب قائد الجيش المجاور إلى المؤخرة. تمت محاكمته، وشنق.

[←379]

Winter 1914-15. Turukhansk money receipts 1913-15 collected by NKVD boss N. I. Yezhov and found in his safe: thanks to Professor. J. Arch Getty for sharing this: RGASPI 671. 1. 287. Postal orders, letters to Alliluyevs .etc: RGASPI 558. 1. 55 and 558. 1. 53

Visit to Stalin in Kureika and his room, singing, Kamenev: Shveitzer, Stalin v turukhanskoi ssylke, pp. 30-2 and 47-50. Memoirs of Stalin in Kureika by Lidia Pereprygina, Daria Ponamareva and others: RGASPI .558. 4. 662. Stalin on Merzliakov: RGASPI 558

Extracts from Merzliakov and Lidia .773 .11 Pereprygina: Ilizarov, pp. 300-5 and 310-11. Kun, pp. :169-75. Vstrechi vozhdem

Rassakazy krestyan s Kureiki o tov. Staline, pp. 21-3 Anfisa Taraseeva-daughter Dasha on his back; songs; taught dancing; rubbed ointment vs rheumatism; Tishka dog; pp. 23-5, Ivan Saltykov on children; hiding the rifles for Stalin; games out hunting; Pereprygins very poor. Sverdlov gets 50 roubles per month salary in exile: Sverdlov, Izbrannye. Eating frozen fish flakes: Charkviani, `Memoirs', Lost in the blizzard, fishing, wood goblin and Tishka my companion, unfit for :military service

A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 55 and 62-3. Dog and hunting story: Komsomolsky Pravda 10 January

2007, Yuri Zhdanov memoirs. Stalin and Spandarian to Lenin quoted in Service, Lenin, p. 112. Lenin to Zinoviev, do you remenber last name of Koba, to V. A. Karpinsky, Koba sends regards, big request: Lenin, PSS, 48: 101, 131, 161. Radzinsky, Stalin, p. 84. Pockmarked :Joe

Molotov Remembers, p. 165. Shooting twelve partridges, skiing 48 versts and First World War: Khrushchev Remembers 1: 302 and 385. Ulcers of war: .Stalin, Works, 3: 61

[←380]
في العام 1930، اتُّهم ميرزلاكوف بأنه روسي ثري، وكان واحدًا من القرويين الأغنياء، الذين صمم ستالين على تصفيتهم في حربه الوحشية لإنقاذ الفلاحين. ناشد ستالين: أعتقد أنك لم تنس كيف كنت أنا. أجابه ستالين: عرفت ميخائيل ميرزلياكوف منذ أيام مكوثي في المنفى في قرية كوريكا، حيث كان حارسي من عامي 1914 و1916. كانت أمامه مهمة واحدة فقط: الاعتناء بي (بالمنفي الوحيد في كوريكا في ذلك الوقت). من الواضح أني لم أكن لأقيم علاقات «صداقة» مع ميرزلياكوف. لكن يجب أن أشهد أنه حتى لو لم تكن علاقتنا «علاقات صداقة»، لم تكن علاقات عدائية، كما هي الحال بين الحارس والمنفي. يبدو بالنسبة إلي أنه من الممكن شرح ذلك بعدم احترام ميرزلياكوف الكامل لواجباته حيث تنقصها حماسة الشرطة المعتادة، لم يتجسس عليّ، لم يضطهدني... أو يتآمر عليّ أثناء غيابي الطويل وكثيرًا ما ينتقد ضباطه على أوامره «المضجرة»... لذا في عامي 1914 و1916، تميز ميرزلياكوف عن غيره من رجال الشرطة. ومن واجبي أن أشهد بذلك أمامكم.

[←381]

اتخذ ستالين وضعيات التقاط الصور، واضعًا قبعة سوداء على نحو خليع، في مكانه المعتاد في المركز في الخلف، وإلى جانبيه سباندريان وكامينيف. كما وقف سفيردلوف أيضًا في الصف الخلفي. وفي الأمام، جالسًا على الأرض، كان ابن سيردلوف الصغير أندري، الذي تولى في ما بعد أعلى سلطة لمحققي الشرطة السرية السوفياتية، ومعذبيها.

[←382]

سيكرر ستالين هذه النظرية في أوائل العشرينيات. أطلق عليها كامينيف اسم نظرية ستالين للانتقام الحلو بعد هزيمته على يد الديكتاتور في أواسط العشرينيات. لكنه لم يأخذ الأمر، هو أو ستالين، على نحو جدي حتى فوات الأوان.

[←383]

Summer-Winter 1915. Visits to Monastyrskoe, Party trial, Spandarian. F. Samoilov, `Bolshevistskaya fraktsiya IV Gosudarstvennoy Dumy v yeniseiskoi ssylke pered fevralskoie revolyutsiey'. Spandarian to Lenin 20 Aug.: Josef sends you all his warmest regards; 28 Sept.: Josef 150 versts away but... we'll see each other: Spandarian, .Statii, pisma, dokumenty, p. 284

Last meeting: RGASPI 558. 4. 582 and 558. 4. 662 V. Shveitzer. Stalin and Spandarian: RGASPI 558. 4. 662 B. Ivanov. G. Petrovsky-Bolshevik meeting: RGASPI 558. 4. 662. Also GARF 5449. 1. 75. Money, I thought .forgotten, Kamenev wet hens: RGASPI 558. 4. 54

Writing big articles-Stalin to Kamenev, send this to Lenin: RGASPI 558. 1. 56. I've found out nothing: .RGASPI 558. 4. 662

Robbery and trail, Sverdlov accused: GARF 5449. 1. 75. RGASPI 558. 4. 662. A. E. Badaev, `O Staline', Pravda 19 Dec. 1939. Sverdlov, Izbrannye, pp. 266-80, 321. Gorodetsky and Sharapov, Sverdlov, pp. 84-6 and 99-.103. Ostrovsky, p. 408. RGASPI 558. 11. 1288

Spandarian ill: Ostrovsky, p. 409. Stalin inquires after Spandarian: S. Alliluyev, Pravda 22 Dec. 1939. Vera .Shveitzer: RGASPI 558

Condemnation of Kamenev: Merridale, `The .662 .4 Making of a Moderate Bolshevik', pp. 31-3, including

Trotsky quote. Service, Stalin, pp. 109-10. Stalin non-committal at Kamenev trial: Robert M. Slusser, Stalin in October: The Man Who Missed the Revolution (henceforth Slusser), pp. 13-14. Merzliakov and Lidia Pereprygina: Ilizarov, pp. 300-5 and 310-11. Revolution inevitable: Stalin, Works, 1: 79. Kamenev and Stalin friends: Mikoyan, Tak bylo, p. 352. Kamenev gives Stalin :Machiavelli

Rayfield, Stalin and the hangmen, p. 22. Sweet revenge: .Robert Conquest, Stalin: Breaker of Nations, p. 107

[←384]

تم السماح لسباندريان بالانتقال إلى كراسنويارسك في آب/أغسطس، لكن الأوان قد فات. كتب ستالين مستفسرًا عن حال صديقه، لكن الرسائل ضلّت طريقها.

[←385]

لم يكن فيودور هو الوحيد المعاقب لغياب ستالين. تلقى هذا الكاتب رسالة من السيدة إيفا بورينس من سوق دونهام، في نوروفولك، التي كتبت أن والدة جدتها، منفية تدعى جيفينا نوغوروفا، قد سُجنت في كراسنويارسك لمساعدتها في تخبئة ستالين. وإن صح الأمر، فلا بد من أنه حصل في هذه المناسبة.

[←386]

A. Lazebnikov, `Linii sudby’, Sovetskaya Kultura 16 Jul. 1988. Merzliakov/Badaev etc: RGASPI 558. 4. 662. Moving house again, boat borrowed: RGASPI 86. 1. 112. RGASPI 558. 1. 54. Writing big articles-Stalin to .Kamenev, send this to Lenin: RGASPI 558. 1. 56 I've found out nothing: RGASPI 558. 4. 662. Ostrovsky believes this was a full escape: pp. 409-13. F. Samoilov, Po sledam minuvshego, pp. 523-35. Pregnancy confirmed by General I. Serov: RGASPI 558. 11. 1288. Stalin drops in on Rukhadze: RGASPI 558. 4. 662 Kuzma Gavrilenko-Stalin on way from Kostino to Kureika via .Miroedikha. Letter to author from Eva Purins 9 Nov Note in suit pocket: A. S. Alliluyeva, .2000 Vospominaniya, pp. 44-5. Spandarian: `Suren .'Spandarian in Siberian Exile

[←387]

ظل بعض من أصدقاء ستالين في الصيد في كوريكا على اتصال معه: كتب في. جي. سولومن يطلب المساعدة، غارقًا في ذكرياته عن سمكة الحفش الضخمة التي التقطها لستالين وسفيردلوف. كتب ستالين مجيبًا في الخامس من آذار/مارس 1947، «أيها الرفيق سولومن، أرسل إليك 6 آلاف روبل من راتبي كنائب في [الهيئة التشريعية العليا في السوفيات]. هذا المبلغ ليس بالكبير جدًا، لكنه سيكون مفيدًا. جي. ستالين». وذكر مولوتوف كيف استمر ستالين حتى سن متأخرة في أكل الكتل الضخمة المتجمدة من السمك، تمامًا كما كان يفعل في توروكهانسك. وفي العام 1934، تم تأسيس متحف ستالين في «عش غرامه»، عزبة بيربريغين، التي توسعت في عيد ميلاده السبعين الرسمي العام 1949 إلى جناح ذي أعمدة مع وضع كوخه في قبة زجاجية. وتم بناء تمثال ضخم لستالين. عند مصب النهر، طور ستالين مصنع نوريلسك لتعدين النيكل وصهره، إلى مدينة - سجن عسكري ضخمة. في العام 1949، أمر بإنشاء سكة الحديد القطبية وميناء أشرف عليه شخصيًا: عمل 200.000 سجين في ظروف قاسية هناك، وتوفي العديد منهم، بالرغم من أن قطار الموت لم يكتمل أبدًا. في العام 1961، أثناء القضاء على مبادئ ستالين، تم تهديم المتحف، ودفع التمثال نحو حفرة في الجليد، وحرق العزبة. أصبحت المنطقة المهجورة في السابق يسيطر عليها الآن سد كهرومائي يدير مصنع نيكل نوريلسك، الذي أصبح كتلة بمليارات الدولارات يسيطر عليها واحد من الروس الجدد الأوليغارشيين. لمعرفة المزيد عن قدر عشيقة ستالين السيبيرية وابنها، انظر إلى الخاتمة.

[←388]

Conscripted. Stalin volunteered: Ilizarov, pp. 311-12. Sleighs used first dogs, then reindeer, then horses; :Stalin on go-slow

Shveitzer, Stalin v Turukhanskoi ssylke, pp. 43-51. Reinder: Alliluyev Memoirs, pp. 189-90. RGASPI 558. 4. .218. Merzliakov, I. M

Taraseev, Arsenii Ivanov-present to mother: RGASPI 558. 4. 662. Sverdlov, Izbrannye, p. 99. Boris Ivanov: RGASPI 558. 4. 662 and GARF 5449. 1. 74. Kureika, memoirs of locals and history, conscription and hero's departure: http: //memorial. krsk. ru/Work/Konkurs/4/Panteon_Stalina/oo. htm. I. D. Perfilev in Volkogonov, Stalin, p. 8. Svetlana Alliluyeva, .Only One Year, pp. 381-2

V. G. Solomin to Stalin and Stalin reply 5 Mar. 1947: RGASPI 559. 11. 804. The journey: Ilizarov, p. 313. Newspaper Yeniseisk Krai quoted by Ostrovsky, p. 416. Unfit for military service and trip to Petersburg with orators etc: A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 55-5, 62-3, 165-9. Piece of Siberia: Molotov Remembers, p. 256. Achinsk: V. Shveitzer, `V Achinskoi ssilke', Izvestiya .12 Mar

Stalin stays in Achinsk: RGASPI 558. 4. 218, 124. .1937 2. 1549, 558. 4. 662, 649 and 667 (V. Shveitzer, V. P. Filipova, A. Pomerantseva) and RGASPI 4. 649 (M.

Muranov). Baikaloff, I Knew Stalin, pp. 27-30. Whispers: Yeniseisk Krai in Ostrovsky, p. 420. Trains and Stalin's movements: Ostrovsky pp. 422-3. Petersburg: RGASPI 161. 1. 16. A. Shlyapnikov, Semnadtsatyi god, 2: 443-7. Stalin stays with Baroness Maria Shtakelberg: Ostrovsky, p. 423: Grand Duke Michael telegram: .Volkogonov, Stalin, p. 14

[←389]

كان هناك الكثير من الاجتماعات، ليلًا ونهارًا، في كل زاوية في الشارع حتى أن اللغة الروسية المتكيفة باستمرار قد أدخلت الفعل miningovat الذي يعني عقد الاجتماعات، تمامًا كما حدث في ثورة أخرى، العام 19، حيث أنشأت اللغة الروسية كلمة khappening، التي تعني الحدث، لوصف الأحداث الغريبة التي رافقت «الحرية الجديدة».

[←390]

The account of 1917 from February to October is based on the following: Orlando Figes, A People's Tragedy; Richard Pipes, The Russian Revolution; Alexander Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, Robert Service, Stalin and Lenin: Adam Ulam, Lenin and the Bolsheviks; W. Bruce Lincoln, Passage through Armageddon: The Russians in War and Revolution (henceforth Lincoln), Bernard Pares, The Fall of the Russian Monarchy; plus Leon Trotsky, Stalin and My Life; Nikolai Sukhanov, The Russian Revolution; and John Reed, Ten Days that Shook the World (henceforth Reed). Unless otherwise stated, Central Committee protocols are quoted from Protokoly Tsentralnogo Komiteta RSDPR(b). On Petersburg Feb. -Mar. 1917: Molotov Remembers, p. 133. Service, Stalin, p. 122. .Lincoln, pp. 346-73. Figes, pp. 307-52

[←391]

في السادس والعشرين من شباط/فبراير، صرح شليبانكوف، «ليس هناك ثورة ولن تكون»، لكن حال ظهورها، تمكن هو ومولوتوف، من إعادة إطلاق صحيفة «برافدا». وعندما انضم مولوتوف إلى اللجنة التنفيذية للاتحاد السوفياتي، كتب، «يجب عليّ التحدث ضد كيرنسكي. لقد كان لينين بعيدًا جدًا. علينا تقرير كل شيء بأنفسنا».

[←392]

Lenin doubts: Molotov Remembers, pp. 89-90 and 125. Service, Stalin, p. 122-5. Slusser, pp. 16-29. Sukhanov, Russian Revolution, p. 230. Bolshevik membership: .Ostrovsky, p. 580

[←393]

Alliluyevs: Service, Stalin, p. 124. Vasileva, Kremlin, Wives, p. 56- Yenukidze arrival and Nadya to Anna .Radchenko. Alliluyev Memoirs, pp. 212, 184-91

[←394]

إنها راقصة البالية الرشيقة البولندية التي كانت أول عشيقة حقيقية لنيكولا الثاني، عندما كان وريث العرش. كان قد وقع في حبها، لكنه عندما أحب أليكس من هيسي، التي أصبحت الامبراطورة أليكساندرا، استمر في دعم تطلع كسيشينسكايا لتكون راقصة الباليه الأولى في مارينسكاي. بعد ذلك، دخلت علاقة جنسية ثلاثية الأطراف مع محبيها من رومانوف، والدوقين النبيلين سيرجي وأندري. وبين صفحتي علاقتها مع الامبراطور والدوقين وعلى مسرح المهنة المتميزة المبنية على الفضل الامبراطوري، جمعت كسيشينسكاي مجموعة من الألماس والمنازل التي توجت ببنائها القصر. يتباهى نمطه الحديث بأرضيات من الخشب المزخرف وثريات الكريستال والمرايا الضخمة. أما الحجرة الرئيسية البيضاء فتمتلك نضدًا وأرائك رخامية مطعمة بالذهب الزائف؛ وجدرانها مغطاة بالحرير الدمشقي؛ وستائرها مخملية. كانت هناك غرفة رسم صغيرة للويس السادس عشر مع جدران حريرية صفراء، وحمام لراقصة الباليه، بالرخام الأبيض مع جدران مرصعة بالفسيفساء الأزرق والفضي، وحوض استحمام غائر، يشابه أحواض الاستحمام اليونانية. وكما وصفها بيت شعري مشهور على نحو فاسق، لقد تمكنت من دون إتعاب ساقيها، بالرقص وصولًا إلى القصر. أما القصر اليوم فهو متحف التاريخ الروسي الحديث.

[←395]

في السابع عشر من آذار/مارس، طالب ستالين في مقالته «الحرب»، بالضغط فقط على الحكومة الموقتة لإنهاء الحرب، بينما كان لينين يطالب مسبقًا بإسقاطها.

لم يهاجم الشيوعيين، لكنه أراد ولاءً من أولئك الداعمين لإيمانه في الحرب الدفاعية. أراد السوفيات أن يبقي سيادته على الحكومة الموقتة، وطالب بطلب عاجل لهيئة دستورية. ومن إحدى النواحي، اقترح فقط الضغط على الحكومة؛ ومن ناحية ثانية، عندما عقد البولشفيون والمناشفة اجتماعًا للنقاش بشأن الحكومة الموقتة، أدانها واعتبرها كعضو من النخبة قامت ببساطة باستبدال امبراطور روسي بآخر. كان لا يزال مفاوضًا للسلام، كما شرح في مؤتمر الحزب في نهاية آذار/مارس، الذي انعقد في القصر، ومن ثم في توريدا.

[←396]

Coryne Hall, Imperial Dancer: Mathilde Kschessinskaya and the Romanovs, pp. 102-3 and 178-9. Stalin in :charge and mistakes

Protokoly i resolutsii Buro TSK RSDRPb Mart 1917g',` Voprosy istorii KPSS no. 3 1963, pp. 134, 143-9, no. 5, .pp. 111-47, and no. 6, pp

The war: Stalin, Works, 3: 4-9. Volkogonov, .139-40 Stalin, p. 20. Slusser, pp. 29-30, 43, 59-64. Service, Stalin, pp. 125-7. Radzinsky, Stalin, pp. 92-3. Service, Lenin p. 263. Trotsky, Stalin, pp. 185-7 and 203. Shit :and Krupskaya's view of Lenin's April Theses

Robert H. McNeal, Bride of the Revolution, pp. 167 and 171. Tucker, p. 165. Chariot: Stalin, Works, 3: 1-3. Sergo: Dubinsky-Mukhadze, Ordzhonikidze, p. 131. .Figes, pp. 354-84

[←397]

Service, Lenin, p. 255. Slusser, pp. 16-30. Volkogonov, Stalin, pp. 15-20. Service, Stalin, pp. 125-7. Lincoln, pp. .362-5. Figes, pp.141-54 and 385-98

[←398]

كانت المغرية البولشفية أليكسندرا كولونتاي قد أوصلت للتو رسائل لينين الغاضبة من آفار، حيث خطها لينين للجريئين ستالين وكامينيف. وحتى مع قدوم صاحب السلطة، كان ستالين قد همّش مقالات أو رفض نشرها، وانتقدها لأنها غير مقنعة... مسوّدة من دون حقائق. دعا لينين إلى سيطرة فورية على السلطة، لكنه لم يتنازل ليشرح كيف قرر تجاهل المرحلة الرسمية الأولى للتطور الماركسي وقفز مباشرة إلى الثانية: التحول إلى الاشتراكية.

[←399]

Krupskaya, pp. 294-6. Service, Lenin, pp. 255-73. Voroshilov: Vasileva, Kremlin Wives, p. 81. Williams, p. 176. Service, Stalin, p.129. Volkogonov, Stalin, pp. 21-3. Trotsky, Stalin, p. 195. On Lenin: Lincoln, pp. 362-5; and .Figes, pp. 385-98

[←400]

ليس كل شيء أبدًا: إن تراجع لينين عن تطرفه قرّبه كثيرًا من سياسات ستالين المنتقدة بكثرة. شعر ستالين بأن إصرار لينين على حرب أوروبية مدنية قد تجاوز ذروته؛ وتحدثه عن حماقة الديكتاتورية، ومطالب بتأميم الأرض من دون التفكير في آمال القرويين. أما لينين، فكان منسقًا نفسه مع المطالب الحقيقية للسياسة الروسية، وقد أوصل هذه السياسات تدريجيًا إلى العلن.

[←401]

April, May: `Protokolyi resolutsii Buro TSK RSDRPb Mart 1917g', Voprosy istorii KPSS no. 3 1963, pp. 134, 143-9, no. 5, pp. 111-47, and no. 6, pp. 139-40. At April meeting-you could assign Stalin any task: Molotov Remembers, p. 137. April Conference: see Sedmaya aprelskaya vserossiiskaya konferentisa RSDRPb, Protokoly. Stalin, Works, 3: 42, 51-60. Service, Stalin, .pp. 125-8

Tucker, p. 165. Lenin as schoolmaster and Ludmilla Stal: Trotsky, My Life, p. 195. On Bureau elected by CC, on :April Conference

.Slusser, pp. 59-70 and 89-98. Figes, pp. 423-48

[←402]
هؤلاء المحليون هم رجال اللجنة الذين اشمأزوا من تروتسكي وسيصبحون موالين لستالين في المستقبل، والعديد منهم أصدقاء من القوقاز. عرف هؤلاء البولشفيون بالتأكيد أخطاء ستالين، لكنهم امتلكوا الكثير من الأمور المشتركة معه أكثر مما لديهم مع زينوفيف أو تروتسكي. ومنهم سيرغو السريع الاهتياج، وشوميان الوسيم، والأشقر المنغمس في ملذاته يونكيدزي، وكبير الخدم السابق الهادئ كالينين وفيروشيلوف. وبرغم ذلك، كره العديد من القوقازيين، وخاصة المناشفة، ستالين. كما كان لديه أيضًا نقاده البولشفيون من القوقاز، حيث قام ماخارادز وجاباريدز، وهما رفيقان قديمان من تيفليس وباكو، بمهاجمة نظرية ستالين أمام الشعب القوقازي في مؤتمر نيسان/أبريل، تمامًا كما فعل بولي فيلكس دزيرزهينسكاي. وبرغم ذلك، تصاحب ستالين مع دزيرزهينسكاي، مؤسس الشرطة السرية، ربما لأن القطبيين والجورجيين يُعتَبرون، بالنسبة إلى بعضهما البعض، شعبين مغرورين، تستعمرهما روسيا. درس كلا الرجلين الكهانة. كتبا الأشعار. كانا مهووسين بالولاء والخيانة. وكلاهما كان بارعًا في عمل الشرطة السرية. وسيطرت على كليهما أمهات قويات، وعانا وجود والدين صارمين. كان كلاهما والدًا فظيعًا؛ رجلان ماديان منعزلان. وعلى نحو مثير للاستغراب، بالنسبة إلى شخصين متشابهين إلى هذه الدرجة، أصبحا حليفين.

[←403]

Stalin, Works, 3: 67-9. Speaker: A. I. Kobzov quoted in Volkogonov, Stalin, p. 21. Trotsky's return: Slusser, pp. 108-14, quoting Vereshchak and Trotsky on Congress of Soviets. Trotsky on stage: Sukhanov, Zapiski o russkoi :revolyutsii, 7: 44. Dull comments

Trotsky, Stalin, pp. 67 and 206-9 quoting Pestkovsky on speaking. Stalin avoided speaking: Service, Stalin, p. 126. Lenin, Shaumian and Yenukidze: Krupskaya, p. 304. Dzerzhinsky: Rayfield, Stalin and the Hangmen, pp. .56-7

[←404]

Move in with Molotov and Marusya; apology and a kind of commune: Molotov Remembers, pp. 37, 93, 122-3. Ludmilla Stal/Tatiana Slavatinskaya: Chuev, Kaganovich, pp. 160-2. Daushvili, Story of Soso Djugashvili, pp. 239 and 252. Stal and Krupskaya in Paris 1911: Krupskaya, p. 196; Maisky, p. 45; Marcou, p. 66; Ludmilla Stal .biography: `Istoki podviga', Ural no. 3 1979

Slavatinskaya at secretariat with Stasova: Stasova, Stranitsy zhizhni i borby, p. 84. Molotov: Slusser, p. 101. .Alliluyevs visit Stalin: Alliluyev Memoirs, pp. 195-6

[←405]

June: Stalin, Works, 3: 67-9; on demo, 3: 92-4 and 105-9. Volkogonov, Stalin, p. 21. S. Pestkovsky, `Vospominaniya', Proletarskaya Revolyutsia no. 6 1930, and Proletarskaya Revolyutsiya no. 10 1922, pp. 93-103. Role in Party: Sagirashvili, pp. 197-8. Trotsky's return: Slusser, pp. 108-18 and 125-39. Lincoln, pp. 387-90. Sukhanov, Zapiski o russkoi revolyutsii, 7: 44. Trotsky, Stalin, p. 67.Alliluyev Memoirs, pp. 194-5. .Figes, pp. 423-38

[←406]

تجاهلت المنظمة العسكرية البولشفية تحذير لينين، لتكشف أن البولشفيين بعيدون عن الخضوع لقوة انضباطية تحت سلطة قائد واحد. بل على النقيض، ظلوا متمردين وعنيدين. أما ركيزة إخضاع حزب ستالين فلا يزال أمامها أعوام في المستقبل.

[←407]

اقتحم بعضهم القصر حيث تمت محاصرة مجلس السوفيات، الرافض لاستلام السلطة. حاصرت الجماهير تشيرنوف، قائد المجلس المنهزم، وبدأت بإعدامه، حتى تدخل تروتسكي، في أداء بارع منه، وقفز على الليموزين وخاطب البحارة وأنقذ السياسي المُرَّوع.

[←408]

كان التابع المنشفي لستالين من باكو، فيشينسكاي، يرأس الميليشيا الإقليمية، «أربات»، في موسكو تحت قيادة كيرينسكاي، ووقع مذكرات اعتقال للقادة البولشفيين، بمن فيهم لينين. وبعد شهر تشرين الأول/ أكتوبر، انضم إلى البولشفيين. فقد كان امتثاله الذليل لكيرينسكاي قد ضمن له طاعة مهينة لستالين، الذي يدين له بقاؤه على قيد الحياة.

[←409]

Jul. Stalin, Works, 3: 110-33, 138-41 and 166-200. 2-4 Slusser, pp. 139-50. Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, pp. 1-16.Service, Lenin, pp. 283-5. Lenin, PSS, 21: 9-10. I. G. Tsereteli, Vospominaniya o fevralskoi .revoliutsii, p. 344. Krupskaya, p. 311

Trotsky, Stalin, pp. 206-11 quoting Ordzhonikidze. Radzinsky, Stalin, pp. 102-4. Service, Stalin pp. 140-3. Dreyfus: Stalin, Works, 3: 266. Bedny story: Slusser, pp. .155-60. Figes, pp. 427-38

[←410]

تمامًا كما كانت الشرطة معروفة باسم الفراعنة، كذلك أطلق على أي ضابط عسكري لقب أرستقراطي بروسيّ (يونكر)، على اسم الطبقة العسكرية النبيلة في بروسيّا.

[←411]

تم اعتقال إيميليانوف أثناء محاكمات ستالين الصورية. يفترض أن كروبسكاي قد توسطت من أجله، فأُبقي هو وعائلته بكاملها في السجن حتى موت ستالين.

[←412]

Backlash and Lenin in hiding at Alliluyevs': A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 181-90. Volkogonov. .Stalin, pp. 24-6, quoting S
Alliluyev and V. N. Polovtiev on officer sent to kill Lenin. Dubinsky-Mukhadze, Ordzhonikdze, p. 178. Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, pp. 17-38. Slusser, pp. 162-78 and 139-50. Service, Lenin, pp. 283-.91. Trotsky, Stalin, pp. 206-11
Lincoln, pp. 392-6. Figes, pp. 427-38. Vyshinsky: .Vaksberg, Stalin's Prosecutor, pp. 13-27

[←413]

بذلك، خاط ستالين رداءه الأول شبه العسكري، وربما نسخه من كيرنسكي، الذي اعتبر نفسه الآن كنابليون روسي: فقد كان رئيس الوزراء المزهو يقضي حياته مسبقًا في زيه العسكري الخاص وحذائه وردائه، بالرغم من عدم امتلاكه أي خبرة عسكرية من أي نوع. سوف يلبس ستالين هذا الرداء لما بقي من حياته، وغالبًا مع غطاء للرأس كذلك الخاص بالعمال. توقف ستالين الآن عن ارتداء قبعته المسطحة وفضل ارتداء قبعات العمال ذات الحواف. أثناء الحرب المدنية، أصبح ما يدعى رداء الحزب، القبعة الجلدية والمعطف والحذاء الطويل والبندقية، هو الزيّ البولشفي تقريبًا، وأخذ يمثل الطبيعة العسكرية للبولشفيين.

[←414]

Move into Alliluyevs, Olga makes coat etc: A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 183-91. Service, Stalin, .p. 141. Author’s visit to the Alliluyev House Museum

[←415]

Sixth Congress and contact with Lenin: Shestoi sezd RSDRPb, August 1917 goda. Service, Lenin, pp. 288-92. Radzinsky, Stalin, p. 108. Tucker, pp. 172-4. Service, Stalin, p. 143. Slusser, pp. 200-14. Trotsky, Stalin, pp. 213-21. Molotov Remembers, p. 165. Smith, p. 337. Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, pp. 51-70 and 83-93. Figes, pp. 427-38. Stalin, Works, 3: 110-33, 138-41 and 166-200.

[←416]

Nadya Alliluyeva: letters to Anna Radchenko see Vasileva, Kremlin Wives, pp. 56-8, and quote from .Svetlana, Only One Year

Author’s interviews with Kira Alliluyeva, Moscow 2001-2002. A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, pp. 183-91. On :Nadya and Anna

Kun, pp. 211-15 quoting Vladimir Antonov-Saratovsky and interview with Kira Alliluyeva. Author's visit to the .Alliluyev Museum

[←417]

Kornilov: Stalin, Works, 3: 214 and 296-300. Sagirashvili, pp. 237-8. Rabinowitch, The Bolsheviks .Come to Power, pp. 94-128

.Lincoln, pp. 412-25. Figes, pp. 438-53

[←418]
في ذلك الصيف، كانت فضيحة الحزب المتآمرة الأخرى هي اتهام كامينيف بأنه عميل لأوخرانا: طلب مجلس المدينة من ستالين إعلام اللجنة التنفيذية في السوفيات. أجري التحقيق، وتمت تبرئة كامينيف في الثلاثين من آب/أغسطس.

[←419]

Kamenev accused, Stalin uses repression against Soldat: Slusser, pp. 210-14. Rabinowitch, The .Bolsheviks Come to Power, pp.71-6. Figes, pp. 453-74

[←420]

بعد إذلاله في أيام تموز/يوليو، نُقل السوفيات خارج قصر توريدا إلى مبنى كلاسيكي ضخم في الجوار، وهو معهد سمولني، الذي شيدته كاثرين العظيمة كمدرسة داخلية للفتيات النبيلات، حيث جهز جميع الأحزاب، بمن فيهم البولشفيون مكاتبهم فيه. من سمولني قام زينوفيف، وبعده، سيرغي كيروف، بعد سقوطه العام 1926، بحماية ستالين، بحكم لينينغراد. هنا، في العام 1934، اغتيل كيروف، في جريمة، سواء أكان من نظمها هو ستالين أم غيره، قدمت عذرًا لمحاكمات ستالين الصورية. أثناء حصار لينيغراد، حُكمت المدينة من سمولني. أما اليوم فيشغله مكتب محافظ سينت بيترسبيرغ.

[←421]

September: Stalin, Works, 3: 214, 271-6, 277-82, 296-300. Alliluyev Memoirs, p. 223. Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, pp. 129-90. Lincoln, pp. .426-53. Figes, pp. 453-74. Sagirashvili, pp. 193-4

[←422]

October. 10 Oct. CC: CC Protocols, pp. 83-100. Slusser, pp. 226-36. Tucker, pp. 44-6. Service, Stalin, pp. 148-.50. Volkogonov, Stalin, p 27

[←423]

وتلك إشارة استرضاء أخرى إلى كامينيف، أظهرت موهبة ستالين في الإبقاء على بعض التوازن بين لينين وتروتسكي في الحزب. وهذا بهدف أن يخلف لينين.

[←424]

في هذه المقالة المقتبسة على نحو نادر في العشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، بعنوان مأخوذ من الكتاب المقدس، «ثيران باشام القوية حاصرتني»، نبه ستالين كيف سيُجِلّ هو وحزبه المفكرين والمشهورين الفنانين في دولتهم روسيا الجديدة. أصبح الآن لمكسيم غوركي، بالرغم من كونه داعما منذ وقت طويل ومؤسسًا للبولشفيين، تحفظات صارمة، مصرحًا، «لا يمكنني التزام الصمت». سخر ستالين من مثل هؤلاء المضطربين العقليين المذعورين... وهم من دون شك «ثيران باشام القوية»، يهددون ويتوسلون. «هذا هو ردنا!»، نبه ستالين إلى وجود «تشاؤم عام في مستنقع مفكرينا المصعوقين». لم تكن الثورة قد صغرت بأهميتها أمام المشاهير، لكنها أخذتهم لخدمتنا، أو إن رفضوا معرفة ذلك، فقد أهملتهم.

[←425]

فضل تروتسكي استخدام مجنديه الجدد الخاصين في الحزب البولشفي، مثل أنتونوف - أوفسينكو، كمساعده الرئيسي في MRC، التي تواجدت منذ التاسع من تشرين الأول/أكتوبر. كان سفيردلوف ومولوتوف ودزيرجنسكي أعضاء فيها. ولمَ ليس ستالين؟ من الممكن أن تكون مواجهة ستالين للمنظمة العسكرية في شهر آب/أغسطس أو ربما اضطرابه العام، هو ما منع سفيردلوف من دعوته إلى الانضمام. إلا أن الأرجح هو ببساطة انشغال ستالين بمسؤولياته التحريرية واتصالاته مع لينين، وهما أمران ضروريان أيضا. أما بالنسبة إلى المركز، الذي خدم فيه ستالين، فلم يكن مناسبًا، بالرغم من أن مروّجي دعايته زعموا أنه كان المركز الحقيقي للثورة.

[←426]

Oct: Protokoly Tsentralnogo Komiteta RSDRP(b). 16-20 August 1917-Fevral 1918 (henceforth Protokoly TSK), pp. 32-55. Stalin at CC: Stalin, Works, 3: 407-8. Strong Bulls of Basham Have Beset Me Round: Stalin, Works, 3: 409-13. Trotsky, Stalin, pp. 228-34.

Slusser, pp. 226-36. Service, Lenin, pp. 306-7. Stalin in contact with Lenin: Radzinsky, Stalin, pp. 110-14. Figes, pp. 475-81. Tucker, pp. 179-80. Lincoln, pp. 426-38. Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, pp. 218-25, 231-42. Trotsky Mephisto: Reed, p. 85.

[←427]

داخل اللجنة الثورية -العسكرية، كان هناك رأيان، قال ستالين. الأول هو تنظيم الثورة على الفور، والثاني هو توحيد القوات. وقد انحاز مجلس المدينة إلى الرأي الثاني.

[←428]

October. `What Do We Need?’: Stalin, Works, 3: 20-24 414-17. Trotsky, Stalin, pp. 228-34. Slusser, pp. 234-45. .Service, Stalin, pp

Service, Lenin, pp. 306-22. Molotov Remembers, .151-3 p. 162. Protokoly TSK, pp. 342-55 and 99-117. .Volkogonov, Trotsky, p. 82

RGASPI 558. 4. 668 and 663 Fyodor Alliluyev. A. S. Alliluyeva, Vospominaniya, p. 61. Volkogonov, Stalin, p. 30. Radzinsky, Stalin, pp. 110-14, including Fofanova and Trotsky quotes on liaison with Lenin. Sagirashvili, pp. 198-200. Y. Lutsky, Voprosy Istorii KPSS no. 11 1986, pp. 81-90. Stalin's talk with Trotsky and Congress delegates: `Pismo M. Zhakov k Vasilchenskoe', Proletarskaya Revolyutsiya no. 10 1922, pp. 88-93, including clue on his work earlier at Rabochyi Put. CC Protocols, pp. 119-20. Rabinowitch, The Bolsheviks .Come to Power, pp. 242-61. Lincolin, pp. 438-46

[←429]

شهد جون ريد في السابق رفض دخول تروتسكي نفسه.

-تعرفني. اسمي تروتسكي.

-لا يمكنك الدخول. لا تعني لي الأسماء شيئًا.

-لكني رئيس مجالس السوفيات!

«لو كنت بهذه الأهمية، لامتلكت على الأقل ورقة صغيرة بذلك!»، أجابه الحارس، الذي استدعى ضابطًا مشدوهًا مثله: «تروتسكي! لقد سمعت هذا الاسم في مكان ما. أعتقد أنه لا بأس»...

[←430]

تم إرسال قادة المراتب الأدنى مثل مولوتوف ودزيرغينسكي في مهمات إلى الخارج: تلقى مولوتوف، الذي ترافقه كتيبة من الحراس الحمر، أوامر باعتقال محرري صحيفة «جمهورية السوفيات»، ومن ثم المجموعة المناهضة للثورة من المناشفة المجتمعين في هولي سينود (مجلس الكنيسة الأرثوذكسية الشرقي).

[←431]

أصبح الاتحاد السوفياتي امبراطورية من الكلمات المركبة: مفوضية الشعب أصبحت ناركومز؛ أما مجلس مفوضية الشعب فهو باسم سوفناركوم؛ ورئيسها (رئيس المجلس الفعلي، على التوالي: لينين وريكوف ومولوتوف ثم ستالين) باسم بريدزوفاناركوم. واستمرت تلك الأسماء حتى قدّم ستالين الوزراء مجددًا نهاية الحرب العالمية الثانية.

[←432]

Lenin and Stalin to Smolny 24-25 Oct: Trotsky, Stalin, pp. 228-34. Service, Lenin, pp. 310-22. Recognized by rotters: Trotsky in Radzinsky, Stalin, p. 115. Sagirashvili, pp. 198-200, including Stalin attempts to refuse Narkom, heard from Yenukidze and Karakhan. CC sittings: Y. Lutsky, Voprosy Istorii KPSS no. 11 1986, pp. 81-90. Rakhia and Ravich quoted in Radzinsky, Stalin, .pp

Molotov's role, government formed: Molotov .115-16 Remembers, pp. 94-6. Figes, pp. 473-6, 483-5. Slusser, pp. 244-7. Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, pp. 265-8, 271-2, 306. Lincoln, pp. 445-7. Smolny: .Reed, pp. 87, 96; glimpse of MRC at work, p. 104

[←433]

لم يكن ساغيراشفيلي هو المنشفي الوحيد الذي عمل ستالين على تملقه. فقد كان البولشفي الذي تحول إلى منشفي، أليكسندير ترويانوفسكي، الضابط النبيل الذي مكث معه ستالين في فيينا، يمشي في الشارع عندما غطت يدان غريبتان عينيه. «أنت معنا أو ضدنا؟»، سأل ستالين.

[←434]

Fall of the Winter Palace: Trotsky, Stalin, pp. 228-34. Radzinsky, Stalin, pp. 115-19, rapes and Lenin takes off make-up. CC sittings: Y. Lutsky, Voprosy Istorii KPSS no. 11 1986, pp. 81-90. Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, pp. 269-70, 276-92, including red lantern, faulty cannons, drinking, delays and bungles. Lincoln, .pp. 446-57, including drinking at Palace. Figes, pp Theatres etc: Reed, p. 95; Congress of Soviets, .485-95 pp. 98-9; Trotsky, p. 104; spank you, pp. 106-7; looting, .servants, pp. 108-10

.Sagirashvili, pp. 193-200, 203-4, 238, 248-52

[←435]

Sleep 25-26 Oct.: Trotsky, Stalin, pp. 228-34. CC sittings: Y. Lutsky, Voprosy Istorii KPSS no. 11 1986, pp. 81-90. Lincoln, pp. 452-5.

Rabinowitch, The Bolsheviks Come to Power, pp. 303-4. Reed, pp. 112-13; dawn, pp. 116-17, 125; Lenin speaks, pp. 128-9; Kamenev, p. 138. Ulam, Lenin and the Bolsheviks, pp. 482-96.

[←436]

على نحو مثير للدهشة، قام لينين باختيار كامينيف ليكون أول قائد بولشفي فعلي للدولة كرئيس للجنة التنفيذية للسوفيات، بالرغم من أنه استمر في ذلك المنصب لبضعة أيام فقط. تبعه بعد ذلك سفيردلوف.

[←437]

احتوت المذكرات الأولى لبيستكوفسكي، التي نُشرت العام 1922، على دعابات ستالين وتقلبات مزاجه. وعلى نحو طبيعي، عندما أعيد نشرها عام 1930، اختفت منها الدعابات.

[←438]

لا يزال الاعتقاد سائدًا أن الستالينية هي تحريف لمبادئ لينين. لكنه يتناقض مع حقيقة أنه في الأشهر التي تلت ثورة أكتوبر، لم يفترقا إطلاقًا. وللأعوام الخمسة التالية، عمل لينن على ترقية ستالين كلما سنحت الفرصة. دفع لينين لوحده البولشفيين إلى الاهتياج في إراقة الدماء تنفيذًا للأوامر التي كُشفت مؤخرًا في الأرشيفات، ونُشرت عند ريتشارد بايبس في «لينين الغامض». عرف ما الذي كان يفعله بستالين، بالرغم من أنه أدرك أن رئيس الطهاة سيعد بعض الأطباق الممتلئة بالتوابل. لم تكن الستالينية تحريفًا، بل هي تطوير لمبادئ لينين.

[←439]

زعم تروتسكي في ما بعد، أن ستالين تمكن من جمع السلطة لكونه متوسط المقدرة البيروقراطية، لكن في الواقع، كان ياكوف فيردلوف، يساعده إلينا ستاسوفا، هو من أدار آلة الحزب. لم يولد ستالين بيروقراطيًا على الإطلاق. كان مجرد عامل مُجدّ مخلص بالكامل للسياسة؛ في الحقيقة، كل شيء في ستالين سياسي، لكنه عمل بنمط غريب، عديم البنية، غير بيرقراطي، بل بوهيمي تقريبًا، بطريقة لم تكن لتنجح في أي حكومة أخرى، في السابق أو الآن. لقد كسب ثقة لينين من سرقة البنوك ومكائد الأعوام السابقة، والتالية، على أرض الحرب المدنية: فنادرًا ما تواجد ستالين في المكتب قبل عام 1920.

[←440]
لطالما تعاملت ألكسندرا كولونتي مع ستالين بكياسة قديمة الطراز: عملت كسفيرته السويدية، وتوفيت بشكل طبيعي. أما ديبينكو فأطلق عليه النار أثناء المحاكمات الصورية التي أطلقها ستالين.

[←441]

Oct. 1917 and after. 29 Nov. 1917 Chetverka 25 Bureau: see Slusser, pp. 94-7. Protokoly TSK, p. 134 co-signed order of 3 Nov. 1917-thanks to Service, Stalin, p. 622. RGASPI 558. 4. 668 and 663 Fyodor Alliluyev. S. Pestkovsky, `Vospominaniya', Proletarskaya Revolyutsiya no. 6 1930, and Proletarskaya Revolyutsiya no. 10 1922, pp. 93-103. Trotsky, Stalin, .pp. 228-47. Figes, pp. 496-512

Early days, revolution without shooting, Molotov quote, instructions on Lenin's office access 22 Jan. 1918: Radzinsky, Stalin, pp. 118-23 and 137. Tucker, p. 182. Trotsky and Stalin most talented, tea-drinkers: Molotov Remembers, pp. 96, 141 and 148. Israel Getzler, Sukhanov: Chronicler of the Russian Revolution, p. 85. Sagirashvili, pp. 193-200, 203-4, 238. Lenin walks in: Tsintsadze, `Chemi Mogonebani', pp. 220-5. Stalin major role in defending Petrograd vs Krasnov revolt Nov. 1917 with Dzerzhinsky, Sverdlov, Ordzhonikidze, and orders to CinC 9 Nov. with Stalin and Lenin: Volkogonov, Stalin, p. 43. `The Four', 9 Nov. :1917

Trotsky, Stalin, pp. 240-3; encounter at first cabinet meeting, Volkogonov, Stalin, p. 43. First days in power and founding of Cheka: Service, Lenin, pp. 309-11. Concentration camp: Service, Stalin, p. 158. Lincoln, pp.

457-68. Ulam, Lenin and the Bolsheviks, pp. 482-96, including Shlyapnikov and prostitutes. Lenin adds Stalin and Trotsky as the only two leaders permitted access to his office without invitation (copy on display at Smolny Institute museum): RGASPI 5. 1. 1802. 47. For Lenin's notes, see Pipes, Unknown Lenin, and quotes from Lenin and Trotsky in N. Ferguson, War of the World, pp. .148-51

[←442]

Charkviani, `Memoirs'. Molotov Remembers, p. 212. Rayfield, Stalin and the Hangmen, pp. 8-10. Khrushchev :Remembers, 1

Keke, Soso and Sasha Egnatashvili: RGASPI 558. .305 11. 1549. 1-69. Svetlana quoted in Zhores Medvedev and Roy Medvedev, Unknown Stalin, p. 297. Historians .will find out: Mgeladze, pp. 240-1

[←443]
كونه استخدم اسم فاسيلي كاسم مستعار له في الحزب، فإنه بطريقة ما قد سما ابنه على اسمه.

[←444]

Alliluyevs: Richardson, Long Shadow, pp. 73-5. Author's interviews with Vladimir Alliluyev (Redens), Leonid Redens, Kira Alliluyeva, Moscow 2001-2003. Kamo and Fyodor: Mikoyan, Memoirs, pp. 431-3. See Montefiore .for full family story

[←445]

Svanidzes: Kun, p. 6. See Montefiore for full story. RGASPI 558. 1. 5099 Stalin to M. Monoselidze. GF IML 8. 2. 1. 50. 239-55 Dzhavaira Khutulashvili. Author’s interviews with K. Gelovani and M. Svanidze, Tbilisi .2005

[←446]

لم يتم نشر مذكرات سوكوفا الأخيرة. أصبحت ناتاشا كيرتافا وألفاسي تالكفادزي، عاملنا الحزب في باتومي وعاشتا حتى سن متأخرة، معززتين لتعاونهما السابق مع ستالين. ظل ستيفانا بيتروفسكايا، وخطيبته في بوكا، عضوين في الحزب، وتم توريطه في قضية سليبكوف لعامي 1932 - 193. تم الاستغناء عن سليبكوف نفسه عام 1932، ثم أطلق عليه النار العام 1937. أما قَدَرها هي (خطيبته) فقد ظل مجهولًا، وغير معروف أما سيرافيما كوروشينينا، شريكة ستالين في فولوغدا، كانت على قيد الحياة في الثلاثينيات، وسجلت مذكراتها، لكن قدرها ظل غير معروف أيضًا.

[←447]

Women; Slavatinskaya: RGASPI 124. 1. 1782; Trifonov, Otblesk kostra, pp. 33-40. Kun, pp. 41 and 46. Marcou, :p. 76. Petrovskaya Ilizarov, p. 288; and possible case against a Sofia Petrovskaya in A. L. Litvin, Genrikh Yagoda Narkom, Kazan 1997, p. 197- it is not clear if this is the same Petrovskaya and in any case her destiny is unknown. :Onufrieva: Kun, p. 116. On Stal and Slavatinskaya Chuev, Kaganovich, p. 219. RGASPI 558. 4. 647 P. .Onufrieva Fomina. RGASPI 558. 4. 647 Tatiana Sukhova

[←448]

RGASPI 558. 4. 662 L. P. Pereprygina-Davydova and F. A. Taraseev. RGASPI 558. 4. 667 M. A. Merzliakov. .RGASPI 558. 1. 5169

Kolesnik, Khronika zhizni semia Stalina, pp. 58-62. Sukhotin, `Bastard krasnogo vozhdia’. Rokhlin, `Gde pryatali nesakonnorojdennogo syna Stalina?' Ivan Serov memo to Politburo: RGASPI 558. 11. 1288. Izvestiya 8 Dec. 2000. Antonov-Ovseenko, Stalin bez maski, pp. 380-90. Pereprygin household, first Laletin sabre incident: Chernenko, I. V. Stalin v sibirskoy ssylke, pp. 140-9. Vstrechi s Vozhdem, pp. 21-5. Ilizarov, pp. 288-92, 300-15. Lidia in love: http: //memorial. krsk. ru/Work/Konkurs/4/Panteon_stalina/oo. htm. Kun, pp. 169-75. Svetlana Alliluyeva, Only One Year, pp. 381-2. .Volkogonov, Stalin, p. 8

Essad Bey, p. 191. Mark Franchetti, `Stalin's Secret Son .by Girl 14', Sunday Times Mar. 2001

[←449]

كانت جورجيا سببًا لانفصال ستالين عن لينين. نالت جورجيا المنشفية استقلالها في العام 1918. كان رجل السلطة مقتنعًا بمغادرة جورجيا، لكن في العام 1921، خطط ستالين وسيرغو أوردزونيكدز لاجتياح ناجح. قاد سيرغو، المندفع والعديم الرحمة، النصر إلى تيفليس على الحصان الأبيض، لكنه سريعًا ما كسب لقب مؤخرة ستالين لاجتياحه الوحشي لهذا البلد. وعندما تعلق الأمر بوصف وضع جورجيا، أصر ستالين على أن تنضم إلى اتحاد ترانسكوكاسيان. لكن البولشفيين المحليين، بقيادة المتعجرف مديفاني والأيديولوجي ماكارادز، وكلاهما مساعد لستالين منذ عقود، طالبا بجمهورية جورجية مستقلة. وفي النزاع الناجم بين أنصار ستالين ومن أُطلق عليهم اسم «المنحرفين»، عاقب سيرغو واحدًا من خصومهم. وهذا ما أثار غضب لينين، الذي كان يدعم الجورجيين ضد ستالين وسيرغو. وأدى هذا إلى قيام ستالين بإهانة زوجة لينين، كروبسكاي. كتب لينين وصيته التي تطالب بإزالة ستالين من السكرتارية العامة. إلا أن الأوان قد فات. عانى لينين سكتة دماغية أخرى، بينما نجا ستالين.

[←450]

Keke, Soso and Sasha Egnatashvili: RGASPI 558. 11. 1549. 1-69. (45. 1. 1549). Medvedev and Medvedev, .Unknown Stalin, p. 297.Beria, pp. 20-1

[←451]

تمتع المناشفة بمسار غريب: حيث أصبح كارلو تشخيدز، كما رأينا، الرجل الأكثر قوة في أوائل ثورة العام 1917، بصفته رئيس السوفيات في بيتروغراد، بينما أصبح زميله الجورجي المنشفي إراكلي تسيريتلي وزيرًا روسيًا بالغ القوة في صيف العام 1917. لكن، عندما استولى البولشفيون على السلطة، أصبح تشخيدز وجوردينيا وتسيريتلي ونوي راميشفيلي قادة لجورجيا المستقلة. وعندما اجتيح البولشفيون، تمكنوا من الهرب إلى المنفى. انتحر تشخيدز العام 1926، وقتل راميشفيلي في باريس العام 19. أما جوردانيا ويوراتدز وأرسيندز وساغيرشفيلي ونيكولافيسكاي فنجوا جميعًا في المنفى، وكتبوا مذكراتهم. كما قتل سوخانوف، الذي أطلق على ستالين لقب «الضباب الرمادي»، أثناء المحاكمات الصورية.

[←452]

Money to Kapanadze: RGASPI 558. 1. 5978 and 5080. Iremashvili, pp. 36. 59-61 and 77. Davrichewy, pp. 36, 244 and 160. Letter to author from Iralki de Davrichewy 23 Aug. 2006. For Mata Hari and Marthe Richard stories, see Francis Lacassin, `Mata Hari ou la romance interrompue', Magazine Littéraire no. 43 1970. .Davrichewy, `Je suis le demi-frère de Staline', pp. 25-30

[←453]

انضم تسينتسادز إلى منظمة تشيكا الجورجية العام 1921، وكتب هو الآخر مذكراته، في الوقت نفسه الذي كتبها فيه كامو - لكنه كان أكثر لباقة إلى حد كبير.

انضم إلى المعارضة الجورجية المنحرفة ضد ستالين، وتم طرده. اعتقل باسم تروتسكيتي، وتوفي بمرض السل في السجن العام 1930.

[←454]

Kamo: Russian Review vol. 19 no. 3, July 1960, pp. 227-47. Kamo and Lenin: Ulam, Lenin and the Bolsheviks, p. .723

[←455]

عرفت عائلة أغناتاشفيلي بيرا منذ العام 1918 في باكو، حيث كان عميلًا بولشفيًا مزدوجًا في حزب موسافيست الأذربيجاني، أو العكس بالعكس. عندما مرض بيرا، عملت عائلة أغناتاشفيلي على رعاية زميلها الجورجي. وعندما أصبح بيرا نائبًا قوقازيًا، وبعدها رئيسًا في الشرطة السوفياتية السرية، حاول الحفاظ على احتكاره للمعلومات والنفوذ في القوقاز. وبرغم ذلك، كانت عائلة أغناتاشفيلي مستقلة عن بيرا، علاوة على أن ساشا أغناتاشفيلي خدم في قسم حراس ستالين تحت قيادة الحارس الشخصي الرفيع المستوى الجنرال فلاسيك، الذي كان خارج سلطة بيرا، وهو وضع لطالما حاول بيرا معالجته. بعد الحرب العالمية الثانية، قام بيرا باتهام فلاسيك بالفساد لبيعه كميات هائلة من الطعام لستالين، محضّرة في القاعدة. ورد عليه فلاسيك باتهام بيرا بالفساد، وتمكن من النجاة، لكن أغناتاشفيلي، الذي أدار القاعدة، قد تورط ربما في ذلك. استمر النزاع بين بيرا وفلاسيك للسيطرة على الحرس حتى وفاة ستالين. وتلك كانت المرة الأولى التي انتشرت فيها القصة بين الجنرال أغناتاشفيلي وزوجته، حيث أخذت نمطًا معروفًا. فبعد انتحار زوجته ناديا، لم يعد ستالين يثق بالأزواج في حاشيته. أطلق النار على الزوجات الشابات الجميلات لكل من ألكسندر بوسكريبيشيف ومساعده الشخصي والمارشال كوليك وصديقه العسكري؛ أما زوجتا القائد، كالينين، ووزير الخارجية، مولوتوف، فتم اعتقالهما. وبرغم ذلك، استمر هؤلاء الرجال في خدمته بإخلاص من دون أي كلمة اعتراض. للمزيد، انظر: «ستالين: محكمة الامبراطور الأحمر».

[←456]

Author's interview with Alexander Egnatashvili's grandson Guram Ratishvili, Tbilisi 2005. Kun, pp. 6-7. Loginov, p. 14. GARF 7523. 107. 127. 1-6 General N. Vlasik interrogation. Roman Brackman, Israel at Noon .(New York 2006), p. 5

[←457]

ميخا تسخاكايا، صاحب اللحية الرمادية، الذي قام بترقية ستالين وحمايته في الأعوام الأولى قبل معارضته للينين والتقاعد إلى منفى في جينيف، نجا ليموت العام 1950 في سريره، كبولشفي قديم مُشرِف. وعلى نحو يتعذر تفسيره، سُمح لمخارادز أن ينجو من المحاكمات الصورية. وكان ستيبان شوميان، زميل ستالين في السكن في لندن وشريكه الأساسي في السطو على البنك في تيفليس ومن ثم باكو، هو السيد المتوحش في كوميون باكو العام 1918، عندما أشرف على قتل حوالى 15 ألف شخص من أذربيجان. تمت الإطاحة به في ما بعد، ثم أطلق عليه النار الحراس البيض والبريطانيون كواحد من المفوضين الستة والعشرين الأسطوريين.

تبنى ستالين في ما بعد، ابن شوميان، ليفان، وجلبه إلى منزله الخاص. توفي زميل ستالين في سيبيريا ورئيس السوفيات ياكوف سفيردلوف بمرض الأنفلونزا العام 1919.

[←458]

كانت زوجته اليهودية بولينا مخلصة مثله لستالين، وأصبحت نائبة المفوض بجدارتها، لكن تعصبها الصارم للإناث أزعج ستالين، بينما كانت صداقتها مع ناديا سببًا لاستيائه. كاد يقضي عليها العام 1939، وفكر في قتلها في حادث سيارة، لكنه أجبر مولوتوف أخيرًا على التصويت على اعتقالها العام 1949. أما القصة الكاملة فهي في كتاب «ستالين: محكمة الامبراطور الأحمر».

[←459]

Old Bolsheviks, Ordzhonikidze, Molotov etc: see Montefiore. Sergo vs Molotov fight: Molotov :Remembers, p. 113. Terror Deaths

see Service, History of Twentieth-Century ,1937-8 Russia, p. 222. Georgian terror statistics: Amy Knight, .Beria, pp. 79-84

Author's interview with Izolda Mdivani (widow of Budu's son Vahtang) and Mdivani family in Tbilisi, Georgia, 2006, Vyshinsky: Vaksberg, Stalin's Prosecutor, .pp. 13-37

[←460]

Stalin stops publication: RGASPI 45. 1. 803. 1, 558. 11. 730, 558. 11. 787, 558. 11. 1496, 558. 11. 730, 558. 11. ,787. 2

[←461]

Dinners in old age: Charkviani, `Memoirs'. Megalomaniacs: `Provisional Revolutionary Government and Social Democracy', Proletariatis Brdzola 15 Aug. 1905: Stalin, Works, 1: 140-61. 20-25 million deaths: A. N. Yakovlev, A Century of Violence in .Soviet Russia (New Haven, 2000), p. 234